





المجلد الثانى والعشرون — الجزء الأول

مايو سنة ١٩٦٠

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٤





المجلد الثانى والعشرون — الجزء الأول

مايو سنة ١٩٦٠

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٤

تصدر هذه المجلة مرتين كل سـنة ، فى مايو وديسـمبر ، وتطلب من مكتبة جامعة القـاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصـة بالناحية العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور محمد حمدى البكرى الأسـتاذ بكلية الآداب بجامعة القـاهرة ، وثمن الجزء الواحـد من أى مجلد ثلاثون قرشـا مصريا .

فهرس القسم العربى

صفحة

الدبلوماسية الفرنسية

تربط بين مسألتى قناة السويس وإبـــريد الجديدة

للدكتور عبد العزيز محمد الشناوى

غدت المسألة المصرية موضوعا شائكا فى العلاقات الفرنسية البريطانية بعـد أن تم الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ بأمد وجيز . سرعان ما رأت فرنسا أن هـذا الاحتلال قد عصف إلى حد بعيد بما تدعيه لنفسها من مصالح وحقوق فى مصر ، وأنه أخل بالتوازن الدولى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، فأصبح لبريطانيافيه مراكز وقواعد استراتيجية ، إذكانت قد احتلت جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ ثم مصر سنة ١٨٨٢ وظفرت بسيطرة انفرادية على قناة السويس ، واعتبرتها وسيلة أساسية للمواصلات بين أجزاء امبراطوريتها ، وغدا الإبقاء على نفوذها فى القناة مبدأ رئيسياً فى سياستها .

ولذلك ساء فرنسا أنها أضاعت على نفسها فرصة ذهبية هىالاشتراك مع بريطانيا فى التدخل الحربى فى مصر فى سنة ١٨٨٢[1]. وكانت لا تزال عالقة فى أذهان الرأى العام الفرنسى أحداث المـاضى القريب وقتذاك حين نجحت بريطانيا فى الضغط على فرنسا ، وهى فى أوج قوتها ومجدها على عهد الإمبراطورية الثانية ، فحملتها على الجلاء عن لبنان بعد أحـداث سنة ١٨٦٠ وتساءل الرأى العام فى فرنسا عما إذا كانت

---

(١) لا يزال إلى الوقت الحاضر بعض كبار المؤرخين الفرنسيين يفصحون عن مشاعر الأسى العميق لإحجام فرنسا عن الاشتراك مع بريطانيا فى احتلال مصر سنة ١٨٨٢ ويذهبون إلى أن هذا الإحجام كان أكبر هزيمة سياسية منيت بها السياسة الفرنسية فىالفترة الواقعة بين الحرب السبعينية وبين الحرب العالمية الأولى . أنظر .

Hanotaux Gabriel : Histoire de la Nation Française, 15 vols. 24 éme édition. Paris. t. IX Histoire Diplomatique par René Pinon. p. 574.

الحكومة الفرنسية ستحذو هذا الحذو فتضغط على بريطانيا كي تحملها على الجلاء عن مصر [1].

ونستبين من دراسة الوثائق الرسمية التي نشرتها الحكومة الفرنسية في المجموعة الأولى من Documents Diplomatiques Français أن وزارة الخارجية الفرنسية كانت تعتنق فكرة سياسية محددة هي أن جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس يؤدي في نهاية الأمر إلى جلائها عن بقية أجزاء مصر . وبعبارة أخرى كانت ترى أن جلاء بريطانيا عن مصر يجب أن يبدأ من منطقة قناة السويس أولا وينتهي في القاهرة والإسكندرية بعد ذلك ، لأنه إذا حيل بين بريطانيا وبين ماتشتهيه من إبقاء قواتها في منطقة القناة ومن الانفراد بالسيطرة على منطقة القناة يتلاشى السبب الرئيسي الذي يدعو بريطانيا إلى التمسك بمصر .

وكانت الوسيلة السلمية المثلى في نظر وزارة الخارجية الفرنسية لتحقيق هذا الغرض هي وضع اتفاقية دولية تنظم وتضمن حرية مرور السفن التجارية والحربية في وقت السلم وزمن الحرب على السواء ، في قناة السويس ، اتفاقية تقوم على أساس المساواة التامة بين الدول فيما يتعلق بحرية استخدام القناة ، ومن شأن هذه الاتفاقية أن تقضي على انفراد بريطانيا بالسيطرة على منطقة القناة .

ولكن الذي حدث فعلا هو عكس ما كانت تصبو إليه فرنسا . فان جلاء بريطانيا عن مصر لم يبدأ من منطقة القناة ، ولكنه انتهى في منطقة القناة . فحين اضطر الإنجليز إلى الجلاء الجزئي عن مصر قرروا الجلاء عن مواقعهم في القاهرة وبدأوا بالجلاء عن قلعة القاهرة في ٤ من يوليو ١٩٤٦ ثم عن مطار حلوان ووادي النطرون . وكان ذلك على عهد وزارة اسماعيل صدقي ، ثم تتابع جلاؤهم الجزئي عن بقية المواقع في القاهرة والإسكندرية والدلتا . وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٤٧ على عهد وزارة محمود فهمي النقراشي . وانتهى الأمر بأن تركزت قوات الاحتلال في منطقة القناة . واستمر الوضع على ذلك حتى تم جلاء بريطانيا عن منطة القناة في يونيو ١٩٥٦ على عهد حكومة الثورة.

---

(١) انظر حديثا دار في شهر ديسمبر ١٨٨٤ بين هاتزفلد Hatzfeldt وزير الخارجية الألمانية وبين دي كورسيل de Courcel السفير الفرنسي في برلين عن المسألة المصرية .

Documents Diplomatiques Français. 1ère Série, t. V, doc. no. 500 de Courcel à Jules Ferry, Ministre des Aff. Etr., en date du 27 décembre, 1884.

ولو كانت فرنسا قد استطاعت تنفيذ فكرتها وهى أن الجلاء عن مصر يجب أن يبدأ أساساً من منطقة القناة ، ونجحت فى حمل بريطانيا على الجلاء عن هذه المنطقة الحساسة لكان من المحتمل أن يقصر أمد الاحتلال البريطانى لمصر . ولكن الدبلوماسية الفرنسية لم تثبت على سياسة واحدة إزاء المسألة المصرية . فهى تارة تعارض الاحتلال البريطانى أشد المعارضة ، وتارة تهادن السياسة البريطانية ، وينتهى بها الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع فى مقابل عروض سخية تظفر بها فى جهات أخرى من العالم .

ويرجع هذا التقلب فى السياسة الفرنسية إلى عدم استقرار الحكم فى فرنسا . فالوزارات فى ظل الجمهورية الثالثة كان يكثر سقوطها وقيامها بسبب تعدد الأحزاب السياسية وضعف النظام الحزبى ، ولأن سقوط الوزارة لم يكن يستتبع حتما إجراء انتخابات عامة جديدة يخشى فيها النواب ضياع مقاعدهم فى مجلس النواب . وكان تعرض الوزارات لخطر السقوط فى أية لحظة يكرهها على أن تخصص للموقف الاستراتيجى فى البرلمان شطراً كبيراً من الجهد الذى كان فى مقدورها أن تكرسه لمتابعة سياسة خارجية معينة . كما كان لسياسة التكتلات الدولية أثرها فى التقارب الذى حدث بين فرنسا وبريطانيا فى مستهل القرن العشرين .

لجأت بريطانيا إلى سياسة الخداع والتضليل شعوراً منها بعدم شرعية الاحتلال وضعف مركزها الرسمى فى مصر ، إذ دخلت البلاد بغيا وعدوا . وأخذت برأى المستشار الألمانى بسمارك الذى أيدها أول الأمر فى احتلالها لمصر ، فاكتفت بريطانيا بالسيطرة الفعلية المحكمة على الحكومة المصرية . وفى نفس الوقت حرصت على عدم المساس بمركز مصر القانونى ، فلم تضم إليها مصر ضما صريحاً بحيث تغدو جزءاً من الإمبراطورية البريطانية ، ولم تعلن الحماية البريطانية السافرة عليها [1] ، بل أبقت السيادة العثمانية على مصر حتى سنة ١٩١٤ وظلت مصر من ناحية القانون الدولى العام ولاية عثمانية وظل سلطان تركيا صاحب السيادة عليها . وإن كانت سيادة

---

(١) يذكر لورد ملنر أنه لم يكن فى مقدور الحكومة البريطانية فى سنة ١٨٨٢ أن تعلن الحماية السافرة على مصر ولا أن تطلب إلى الدول الأخرى الاعتراف بمثل هذه الحماية فلجأت إلى بسط حماية مقنّعة a veiled Protectorate إلى أجل غير مسمى ومارست فى ظلال هذا النظام سلطات واسعة لا حد لها.
أنظر Milner : England in Egypt. 1920. p. 28.

اسمية تمثلت فى دفع الجزية السنوية ، وفى بعض مظاهر شكلية ، مثل الدعاء للسلطان فى خطبة الجمعة وسك العملة باسمه وتعيين قاضى القضاة والإبقاء على العلم التركى علماً رسمياً لمصر . حقيقة إن الروابط السياسية بين مصر وتركيا كانت قد تحددت على وضع معين من الاستقلال الذاتى فى معاهدة ١٨٤٠ وهى معاهدة جماعية traité collectif اشتركت فيها الدول الأوربية الكبرى مع الدولة العثمانية . ولم يكن فى استطاعة بريطانيا فى سنة ١٨٨٢ إدخال تعديل على نصوصها دون موافقة الدول الأطراف فيها . ولكن الاحتلال البريطانى قد زاد هذه الروابط السياسية بين مصر والدولة العثمانية وهنا على وهن . أما قناة السويس فلم يطرأ على مركزها القانونى تغيير ما . وظلت ممراً مائياً يجرى فى أرض مصرية وجزءا لا يتجزأ من الأراضى المصرية يسرى عليها مايسرى على بقية أراضى مصر من حيث السيادة العثمانية .

وأمعنت بريطانيا فى سياسة التضليل لتخفف من ثائرة الباب العالى والحكومات الأوربية الحانقة عليها . فأخذت تصدر من وقت إلى آخر تصريحات مكرورة بأن الاحتلال البريطانى لمصر إنما هو احتلال مؤقت مرهون بعودة الأمن والنظام إلى ربوع البلاد وتدعيم سلطة الخديو . ولكنها كانت تعمل على كسب الوقت اعتقاداً منها بأن الزمن حليف قوى لها ، فكلما مرت الأيام والسنون ازداد مركزها رسوخاً فى مصر . وكان من أولى محاولات بريطانيا فى هذا الصدد المنشور الذى أرسله لورد جرانفل Lord Granville وزير الخارجية إلى الدول الأوربية الكبرى فى ٣ من يناير ١٨٨٣ (١) — ولم يكن قد مضى أربعة أشهر على دخول الجيش البريطانى مدينة القاهرة — قرر فيه أن القوات البريطانية لا تزال مرابطة فى مصر لصيانة النظام العام بها ، وأنها ستجلو عنها عند ما تسمح بذلك حالة البلاد وتستطيع الحكومة البريطانية بوسائلها تثبيت سلطة الخديو . وإلى أن يحين ذلك الوقت المرتقب فان الحكومة البريطانية ستقدم النصائح (٢) إلى الخديو لتحقيق هذا الهدف .

---

(١) Hurewitz J. C. Diplomacy in the Near and Middle East. A Documentary Record. 2 vols. t. 1 (1535 — 1914). p.p. 197 — 199.

(٢) « النصائح البريطانية » تعبير دبلوماسى مهذب وإن كان لا يخلو من سخرية لاذعة ، استخدمه لورد جرانفل وهو يرسى قواعد السياسة البريطانية فى مصر بعد الاحتلال . وقصد بهذا التعبير أوامر إجبارية يلتزم بتنفيذها الوزراء المصريون ومن إليهم من كبار الموظفين ، فإذا رفض أحدهم أو امتنع عن تنفيذ نصيحة بريطانية كان عليه أن يستقيل فورا .

وقد قسم المنشور مشكلات مصر إلى قسمين : مشكلات داخلية ، ومشكلات تتصل بالدول الأخرى ولا مناص من موافقة الدول الأوربية الكبرى عليها . وكان فى مقدمة هذه المشكلات مسألة قناة السويس . وقد تعرض لها لورد جرانفل فى منشوره فى خبث وخداع وتظاهر بجانب الحقيقة . قال إن القوات البريطانية قد احتلت قناة السويس واتخذت القناة قاعدة للعمليات الحربية لحماية الملاحة فى القناة والحيلولة دون الإضرار بها . ولكنها فعلت ذلك باسم الخديو توفيق ، ونيابة عنه ، وتأييداً لسلطته . ثم مضى جرانفل فى منشوره فقال إن الحكومة البريطانية حريصة على حرية الملاحة فى قناة السويس وأنها تقترح عقد اتفاقية بين الدول الكبرى تحقق هذه الحرية لجميع السفن فى كل الأوقات . ووضع ثمانية أسس تقوم عليها الاتفاقية المقترحة .

كان هذا المنشور محاولة دبلوماسية من بريطانيا لاسترضاء الدول الأوربية الكبرى ، وإيهامها أن الاحتلال البريطانى لمصر — فضلا عن أنه احتلال مؤقت — لا يعنى أن تسيطر بريطانيا وحدها على قناة السويس أو تستغلها لصالحها الخاص . وهدف لورد جرانفل من هذه المحاولة الدبلوماسية واضح ، فاذا اعتقدت الدول الأوربية أن تأمين حرية الملاحة فى قناة السويس لجميع السفن فى كل الأوقات هو غاية تسعى إليها بريطانيا مشتركة مع مجموعة الدول الأوربية فان هذه الدول لن تسأل بريطانيا إلحافاً الجلاء عن مصر وتحديد موعد لهذا الجلاء . والحقيقة التى لا مراء فيها أن بريطانيا كانت تعلن غير ما تضمر وتظهر غير ما تبطن . فالاحتلال المؤقت استطال أكثر من ثلاثة وسبعين عاماً ، واتفاقية قناة السويس ماطلت وسوفت فى عقدها زهاء ست سنوات لأنها أرادت أن تخضع الاتفاقية المقترحة لخدمة مصالحها الاستعمارية فى إفريقيا وآسيا واستراليشيا ، ولما وقعت عليها فى ٢٩ من أكتوبر ١٨٨٨ — تحت ضغط الدبلوماسية الفرنسية كما سنرى — قرنت توقيعها بتحفظ على الاتفاقية أوقف نفاذها حتى اضطرتها الظروف الدولية إلى التنازل عن هذا التحفظ فى سنة ١٩٠٤ ، أى أنها تركت مسألة قناة السويس معلقة أكثر من عشرين عاماً وهى لا تروم الموافقة على تنظيم حرية الملاحة فى القناة تنظيما نهائياً .

وبفتور قابلت الحكومات الأوربية منشور لورد جرانفل ، لأن الحكومة البريطانية لم تتخذ من جانبها خطوات عملية إيجابية لعقد اتفاقية دولية تنظم حرية المرور فى قناة السويس . وارتاحت الحكومة البريطانية أو استنامت لهذا الصمت الذى كان يقطعه من حين إلى حين سلطان الدولة العثمانية مطالبا بريطانيا بالجلاء عن مصر . أما فرنسا فقد رأت أن بريطانيا لا تتلكأ فحسب فى تنفيذ وعودها المكرورة بالجلاء ، بل تعمل جاهدة على إقصاء النفوذ الفرنسى من ميادين السياسة والاقتصاد والإدارة فى مصر ، وبخاصة عندما صدر مرسوم خديوى مؤرخ فى ١٨ من يناير ١٨٨٣ بالغاء نظام المراقبة الثنائية Condominium ثم عندما صدر مرسوم خديوى لاحق مؤرخ فى ٤ من فبراير ١٨٨٣ بانشاء منصب مستشار مالى للحكومة المصرية وإسناده إلى إنجليزى . وأدركت فرنسا أن هذا التغيير الجذرى الذى طرأ على نظام الحكومة فى مصر إنما تم استجابة للنصائح البريطانية ، وتلبد الجو السياسى بين باريس ولندن ، وتبادلتا مذكرات سياسية حملت فيها الحكومة الفرنسية حملة قوية على بريطانيا ونددت بتصرفها وأنانيتها ، ووصفت تدخلها الحربى فى مصر بأنه ذريعة للانفراد بالنفوذ والسيطرة والتخلص من الاتفاقات الدولية . ودار صراع بالغ العنف بين الدبلوماسية الفرنسية والدبلوماسية البريطانية ، وزال التفاهم الفرنسى البريطانى الذى نشأ سنة ١٨٥٢ وظل قائماً حتى مطلع عام ١٨٨٣ .

عملت فرنسا على إثارة المتاعب أمام بريطانيا فى أصقاع شتى من العالم : فى الكونغو وفى النيجر وفى مدغشقر وفى جزر المحيط الهادى ، وساندت الباب العالى فى احتجاجاته العديدة على بريطانيا ، وفى مطالبته إياها بالجلاء عن مصر . وأيدت ألمانيا فى سياستها الاستعمارية نكاية فى بريطانيا ، وصورتها لألمانيا فى صورة الدولة التى لا تقف أطماعها الاستعمارية عند حد ، وشجعت الحكومة الروسية فى سياسة التوسع الاقليمى والاستعمارى فى قلب آسيا وفى الشرق الأقصى وفى البلقان . أما فى مصر فقد عملت فرنسا على إثارة العراقيل أمام الاحتلال البريطانى ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ولاحت الفرصة أمام فرنسا حين وجهت الحكومة البريطانية فى ١٩ من أبريل ١٨٨٤ الدعوة إلى الدول الأوربية الكبرى لعقد مؤتمر دولى لعلاج الارتباكات المالية العنيفة التى كانت تواجهها وقتذاك الحكومة المصرية فى ظل الاحتلال البريطانى .

وقد ردت الحكومة الفرنسية على هـذه الدعوة بمذكرة مؤرخة فى ٢٩ من أبريل ١٨٨٤ قالت فيها إنها تقبل من حيث المبدأ اقتراح الحكومة البريطانية عقد المؤتمر ، ولكنها طلبت أولا وقبل كل شيء أن تتبادل الحكومتان البريطانية والفرنسية وجهات النظر بخصوص مسائل معينة يكون فى حكم الاستحالة إغفالها(١) .

واضح أن الحكومة الفرنسية أرادت أن تنتهز هـذه الفرصة التى أتيحت لهـا فشددت من ضغطها السياسى على انجلترا لإثارة المسألة المصرية من نواحيها المختلفة حتى تحملها على الجلاء عن مصر . وفعلا نزلت الحكومة البريطانية على رغبة الحكومة الفرنسية،ودارت محادثات سياسية فى لندن بين الحكومتين خلال شهرى مايو ويونيو ١٨٨٤ تولاها عن الجانب البريطانى لورد جرانفل وزير الخارجية وعن الجانب الفرنسى وادنجتون السفير الفرنسى . وتناولت هـذه المحادثات المسألة المصرية من زواياها المختلفة : جلاء قوات الاحتلال البريطانى عن مصر ، تحديد موعد لهذا الجلاء ، إعلان حيدة مصر ، تسوية مسألة قناة السويس ، إصلاح المالية المصرية . وقد تم الاتفاق بين الحكومتين على النحو الآتى :

(أولا) توافق الحكومة البريطانية على جلاء قوات الاحتلال عن مصر فى مستهل عام ١٨٨٨ بشرط أن ترى الدول وقتئذ — أى فى مطلع سنة ١٨٨٨ — أن جلاء بريطانيا لا يعرض الأمن والنظام فى مصر للخطر . وتسجل الحكومة الفرنسية على نفسها أنها لا تعتزم احتلال مصر بعد جلاء القوات البريطانية عنها ، وقررت أنه أصبح بين الحكومتين البريطانية والفرنسية تعهد ملزم للطرفين un engagement synallagmatique تتعهد بمقتضاه بريطانيا من جانبها بالجلاء عن مصر فى موعد محدد لا تجوز إطالة أمده بدون استشارة الدول من جديد ، وتتعهد فرنسا من ناحيتها بألا تقوم بأية حال من الأحوال بتدخل مسلح فى وادى النيل قبل أن يتم اتفاق سابق مع بريطانيا فى هذا الصدد .

---

(١) الكتاب الأزرق رقم ٢٣ لسنة ١٨٨٤ (مصر) . وثيقة رقم ٤ عبارة عن مذكرة من فرى Jules Ferry رئيس الوزارة الفرنسية ووزير الخارجية إلى الكونت دى أوبينى d'Aubigny مستشار السفارة الفرنسية فى لندن ومؤرخة فى ٢٩ من أبريل ١٨٨٤ وقد أبلغها الأخير فى اليوم التالى إلى لورد جرانفل وزير الخارجية البريطانية

(ثانياً) تقـــدم الحكومة البريطانية — قبل جلاء قوات الاحتلال أو عند رحيلها— مشروعاً إلى الدول الكبرى بما فيها الإمبراطورية العثمانية يقرر حيدة مصر حيدة دائمة على غرار الحيدة المقررة لبلجيكا .

(ثالثاً) تقدم الحكومة البريطانية مشروع اتفاقية دولية تنظم حرية مرور السفن فى قناة السويس على ضوء المبادىء الواردة فى المنشور البريطانى المؤرخ فى ٣ من يناير ١٨٨٣ .

(رابعاً) تسجل الحكومة الفرنسية على نفسها أنها لا تبغى إعادة نظام المراقبة الثنائية على الحكومة المصرية وهو المعروف باسم الكوندمنيوم Condominium على الرغم من أنها تعتقد اعتقاداً راسخاً أن هذا النظام قد عاد بنتائج طيبة ، ولكن الحكومة الفرنسية تدرك تماماً الأسباب التى تحملها على استبعاد أى تفكير فى إعادة نظام عصفت به الأحداث السياسية التى جرت مؤخراً فى مصر . ولذلك فهى تعتقد أن نظام المراقبة الثنائية قد طوى إلى غير بعث .

(خامساً) توافق الحكومة الفرنسية من حيث المبدأ على تعديل سلطات صندوق الدين العمومى فى مصر وعلى تعـــديل بعض مواد قانون التصفية كوسيلة لعلاج الأزمة المالية فى مصر .

(سادساً) تعلن الحكومة البريطانية أن تنفيذ الجلاء وتقرير حيدة مصر وعقد اتفاقية القناة كل ذلك متوقف ومعلق على تسوية المسألة المالية المصرية تسوية مرضية تتمشى مع المقترحات التى ســـتتقدم بها الحكومة البريطانية إلى مؤتمر لندن الذى دعت إليه .

وقد تبادلت الحكومتان الفرنسية والبريطانية ثلاث مذكرات فى ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من يونيو ١٨٨٤ سجلتا فيها هذا الاتفاق[1] وأبلغت وزارة الخارجية البريطانية نصوص هــذه المذكرات الثلاث إلى كل من ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا وروسيا وتركيا[2] .

---

(١) الكتاب الأزرق رقم ٢٣ لسنة ١٨٨٤ وثائق رقم ١١ ، ١٢ ، ١٦

(٢) المصدر السابق وثيقتان رقم ١٣ ، ١٤

ويعتبر هذا الاتفاق أول اتفاق سياسي مؤقت Modus Vivendi يعقد بعد الاحتلال بين بريطانيا وفرنسا بشأن المسألة المصرية [1].

وعقب هـذا الاتفاق عقد مؤتمر لندن فى ٢٨ من يونيو ١٨٨٤ وفى جلساته عاد الخلاف يطل برأسه أعنف مايكون بين فرنسا وبريطانيا ، وتعذرعلى مندوبى الدول الأعضاء التقريب بينهما ، ومن ثم فشل المؤتمر وزادت الهـــوة اتساعاً بين فرنسا وبريطانيا ، وسقط الاتفاق المؤقت سقوطاً تلقائياً لأنه كان معلقاً على شرط ولم يتحقق هذا الشرط . وما لبثت أن تزعمت فرنسا الدول الأعضاء فى صندوق الدين العمومى — ما عدا بريطانيا — فى قضية أقامها مندوبو هذه الدول على الحكومة المصرية أمام المحكمة المختلطة بالقاهرة يطعنون بالبطلان فى قرار ١٨ من سبتمبر ١٨٨٤ الذى أصدرته وزارة نوبار باشا الثانية تنفيذاً لنصيحة بريطانية أبداها لورد نورثبروك Northbrook [2] . ولم تقنع فرنسا بذلك بل أوعزت إلى ألمانيا وروسيا بأن تطلبا تعيين مندوب لكل منهما فى صندوق الدين العمومى فى مصر أسوة بفرنساوبريطانيا وإيطاليا والنمسا والمجر . ولما رفض نوبار باشا رئيس الوزارة المصرية هـذا الطلب مستنداً إلى أنه يضيف أعباء مالية على كاهل ميزانية مصر ، اعتقدت ألمانيا وروسيا أن هذا الرفض كان بايعاز من بريطانيا ، وأن نوبار باشا ما كان ليجرؤ على رفض

---

(١) لم يأخذ هذا الاتفاق من الناحية الشكلية الصيغة المتعارف عليها للمعاهدة ، بل هو يندرج تحت النوع الذى يعرف فى القانون الدولى العام باسم الاتفاقات الدولية فى الشكل المبسط Traité en forme simplifiée ويقصد بها الاتفاقات الدولية التى تنعقد بين دولتين فى صورة تبادل مذكرات تسجل فيها ما تم الاتفاق عليه من غير حاجة إلى إجراء التصديق عليها أو للاستغناء عن تدخل رئيس الدولة فى إبرامها . وهذه الوسيلة فيها السرعة والتبسيط . ولجأت اليها مختلف الدول لإبرام الاتفاقات .

(٢) تدهور المركز المالى للحكومة المصرية فى النصف الثانى من سنة ١٨٨٤ تدهورا خشيت إزاءه الحكومة أن تعجز عن دفع مرتبات موظفيها أو أداء الجزية إلى تركيا . وقد عقد اجتماع فى القاهرة شهده عن الجانب المصرى نوبار باشا ومصطفى فهمى باشا وزير المالية ، وعن الجانب البريطانى لورد نورثبروك المندوب السامى للملكة فيكتوريا وسير ايفلن بارنج قنصل بريطانيا العام . وقرروا علاج الموقف علاجا سريعا باستيلاء الحكومة المصرية على الإيرادات المخصصة لخدمة الدين العام ، ومن ثم أصدرت الحكومة أوامرها إلى المديريات والمصالح المخصص ايرادها للدين بالتوقف عن إرسال إيراداتها إلى صندوق الدين العمومى وإرسال حصيلة هذه الإيرادات إلى خزانة وزارة المالية. وكانت هذه المديريات والمصالح : القليوبية والمنوفية والبحيرة وأسيوط ، والجمارك والسكك الحديدية والتلغرافات وميناء الإسكندرية .

هذا الطلب ، ومن ثم احتجت ألمانيا وروسيا لدى بريطانيا على عدم تمثيلهما فى صندوق الدين ، وأبلغتاها أن هذا الرفض يؤدى إلى تأخير تسوية الأزمة المالية المصرية[1]. ثم مضت فرنسا تكيد لبريطانيا فحرضت أجانب الإسكندرية على تنظيم مظاهرات تجوب شوارع المدينة احتجاجاً على تأخر الحكومة المصرية فى أداء التعويضات المحكوم بها لهم عن الأضرار التى نزلت بهم إبان أحداث الثورة العرابية[2] . وأرسل سير إيفلن بارنج تقريراً مؤرخاً فى ٢٩ من ديسمبر ١٨٨٤ إلى لورد جرانفل وزير الخارجية البريطانية قال فيه إن الجو السياسى فى مصر مفعم بالدسائس على اختلاف أنواعها وصورها ، وإن الموقف ينذر بوقوع كوارث ، وأهاب به أن يسرع فى تسوية المسألة المالية[3] .

وفى وسط هذه المتاعب وذلك الاضطراب رأت الحكومة البريطانية أن تمد يدها مرة أخرى إلى الحكومات الأوربية لتشركها معها فى علاج الأزمة المالية ، فوضعت مشروعاً جديداً يستهدف تدعيم المالية المصرية وإرساءها على قواعد جديدة وتدبير موارد جديدة للميزانية يشترك فى تمويلها المصريون والأجانب ، كما اقترحت الحكومة البريطانية قرضاً للحكومة المصرية بمبلغ خمسة ملايين من الجنيهات بفائدة ٣,٥٪ بضمانة الحكومة البريطانية . ولكن تباطأت الحكومة الفرنسية فى دراسة المشروع البريطانى حتى تزداد الأزمة المالية فى مصر تفاقماً ، ويزداد مركز الحكومة البريطانية حرجاً على حرج . ثم قدمت مشروعاً مضاداً طالبت فيه أن يكون القرض بضمانة جميع الدول الأوربية الكبرى ، لا بضمانة الحكومة البريطانية وحدها ، وأن يكون مقداره تسعة ملايين من الجنيهات ، كما قبلت بعض التعديلات التى أرادت الحكومة البريطانية إدخالها على قانون التصفية ورفضت البعض الآخر ، وطلبت تكوين لجنة دولية لفحص المالية المصرية .

---

(١) انظر بخصوص هذا الموضوع الكتاب الأزرق رقم ٤ لسنة ١٨٨٥ الوثائق التى تحمل الأرقام الآتية : ٨ ، ١٠ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤

والكتاب الأزرق رقم ٥ لسنة ١٨٨٥ وثائق رقم ٧ ، ٩ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٠

(٢) انظر بخصوص هذه النقطة بحثا للمؤلف نشر فى المجلد التاسع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٢ بعنوان حادث جريدة البوسفور اجيبسيان .

(٣) الكتاب الأزرق رقم ٤ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ٧٤

ولكن الحكومة الفرنسية ـ تمسكا بخطتها ـ أقحمت مع المسألة المالية المصرية مسألة قناة السويس ، فاشترطت أن يشرع فوراً وفى نفس الوقت فى تسوية هذه المسألة على أساس وضع نظام نهائى يضمن حرية مرور السفن التجارية والحربية فى القناة فى أوقات السلم والحرب لجميع الدول . وجاء فى نفس المذكرة أن الحكومة الفرنسية ، بتقديم مقترحاتها لتسوية المالية المصرية ، قد أقامت الدليل على روح المسالمة التى تسودها وعلى رغبتها الصادقة فى تذليل الصعاب التى تؤخر إنجاز مهمة إعادة تنظيم مصر ، وهى المهمة التى من أجلها كرست الحكومة البريطانية جهودها . واستطردت المذكرة الفرنسية فقالت إن إعادة النظام المالى والإدارى فى مصر ليست المسألة الوحيدة التى تهتم الدول بتسويتها ، فهناك مسائل أخرى ذات صبغة مستعجلة مماثلة ، ولها تأثير بالغ الأهمية على مصالح الدول . وقناة السويس تأتى فى مقدمة هـذه المسائل ، وقد أطلقت عليها المشكلة الأوربية الكبرى Le Grand Problème Européen ، وإن هدف الدول من تسوية مسألة القناة هو وضع نظام نهائى يضمن حرية المرور فى قناة السويس فى كل الأوقات لجميع الدول . وطالبت بالشروع فوراً فى حل موضوع القناة عن طريق عقد مؤتمر أو أية وسيلة أخرى دون انتظار نتيجة التحقيق المقترح فى الموقف المالى للحكومة المصرية [1] .

واستعرضت المذكرة الفرنسية طرفاً من مبررات الإسراع فى تسوية مسألة القناة ، فقالت إن التسوية المنشودة تكون بمثابة تعويض عادل للتضحيات المالية التى سوف تفرضها الدول على رعاياها فى سبيل تدعيم المالية العامة لمصر ، كما أنها تكون ضماناً أكيداً للسلام ، وتضفى على مستقبل السياسة الدولية طابع الاستقرار . وخلصت المذكرة من ذلك إلى قولها إنها تعتقد أن الحكومة البريطانية لن ترفض الموافقة على اقتراح سبق أن قامت هى بوضع أسسه بكل جلاء وإخلاص فى منشور لورد جرانفل المؤرخ فى ٣ من يناير ١٨٨٣ ومذكرته المؤرخة فى ١٦ من يونيو ١٨٨٤ [1] .

---

(١) تجد النص الكامل للمذكرة الفرنسية بما تحويه من اقتراحات لتسوية المسألة المالية المصرية واقتراح تسوية مسألة القناة فى الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٤ لسنة ١٨٨٥

ثم نشرت الحكومة البريطانية الجزء الخاص بقناة السويس والوارد فى المذكرة الفرنسية – فى الكتاب =

فى هذا الوقت بالذات تدخل بسمارك المستشار الألمانى تدخلا فعالا لدى الحكومة البريطانية لتأييد فرنسا فى موقفها من المسألة المصرية بشقيها : الناحية المالية وقناة السويس. كان التقارب الألمانى الفرنسى فى هذه الفترة قويا، وكانت العلاقات بين ألمانيا وبريطانيا سيئة للغاية بسبب رفض بريطانيا تمثيل ألمانيا وروسيا فى لجنة صندوق الدين العمومى فى مصر ، وبسبب اعتراضها على بسط الحماية الألمانية على الجزء الشمالى من غينيا الجديدة ، ولأن العلاقة كانت متوترة بين بسمارك وبين لورد جرانفل، إذ كان الأخير قد صرح بأن المستشار الألمانى هو الذى نصح بريطانيا بالاستيلاء على مصر ، وأصدر بسمارك تكذيبا لهذا النبأ فى البرلمان الألمانى ، وأفصح عن الحديث السرى الذى دار فى سبتمبر ١٨٨٢ بينه وبين لورد Ampthill السفير البريطانى فى برلين فى ذلك الوقت [1] كما عدد بسمارك بعض تصرفات دبلوماسية انطوت على أخطاء وقعت فيها وزارة الأحرار فى بريطانيا . ولذلك لم تكن العلاقات ودية بين بسمارك وبين وزارة جلادستون الثانية فى ذلك الوقت . وسنرى تباعاً فى هذا البحث بعض مظاهر سياسة العنف التى انتهجها بسمارك إزاء لندن .

أراد بسمارك أن يكيد كيداً لبريطانيا ، فأرسل مذكرة ضافية مؤرخة فى ١٤ من يناير ١٨٨٥ إلى الحكومة البريطانية . وهى تعتبر من أهم المذكرات الدبلوماسية التى صدرت عن برلين إلى لندن فى هذه الفترة ، وتمتاز بلهجتها الحازمة ، وكان مما جاء فيها قول بسمارك إن حفظ النظام فى مصر ، وحماية مصالح الشعوب الأوربية المختلفة فيها ، واستخدام قناة السويس ، هذه المسائل كلها لا تهم بريطانيا دون سواها من الدول ، بل على العكس هى مسائل تمس جميع شعوب أوربا تقريبا إلى درجة تمنعها من أن تنظر بدون اكتراث إلى أية تغييرات جذرية تطرأ

= الأزرق الذى أصدرته عن محاضر جلسات لجنة باريس الدولية والذى قدمته فى أغسطس ١٨٨٥ إلى مجلسى العموم واللوردات . انظر .

الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٩ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ٢

(١) بخصوص هذه النقطة بالذات . انظر الوثيقة رقم ٦١٤ والهامش فى ص ٦٣٦ والهامش فى ص ٦٣٧ ثم الوثيقتين رقم ٦١٥ ، ٦١٦ والوثيقة رقم ٦١٩ والهامش الموجود فى صفحتى ٦٤٣ ، ٦٤٤
Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. V

على الموقف فى مصر . ومضى بسمارك يقول فى مذكرته إن غالبية الأمم الأوربية لا تهتم بمسألة الديون فحسب ، بل تهتم اهتماماً مباشراً بالنهوض بموارد مصر ، وتنظر أيضاً إلى قناة السويس على أنها شريان هام يربطها بالشرق الأقصى والإقيانوسية . وخلص بسمارك من ذلك إلى القول بأنه ليس من السهل على الدول الأوربية أن تتخلى فى المستقبل عن الإسهام المباشر من جانبها فى مراقبة الأحوال فى مصر . وقال إن بريطانيا وفرنسا كانتا من قبل تقومان معا بحماية المصالح الأوربية فى مصر فى ظل نظام المراقبة الثنائية المعروف باسم الكوندمنيوم Condominium ، فلما وقع الاحتلال البريطانى قامت بريطانيا بمفردها بهذه المهمة ، ولكن ليس معنى ذلك أن يستمر هذا الوضع قائماً حقبة طويلة . وقال إن هذه الحقيقة تؤكدها تصريحات المسئولين فى الوزارة البريطانية بأن الاحتلال البريطانى لمصر إنما هو احتلال مؤقت . ونعى على الحكومة البريطانية معارضتها لتمثيل ألمانيا وروسيا فى لجنة صندوق الدين العمومى فى مصر ؛ وقال إن هذه المعارضة قد أثارت شكوك ألمانيا حول أهداف بريطانيا فى مصر . واختتم المستشار الألمانى مذكرته بثلاثة مطالب هى :

(أولا) إجراء تحقيق عن المركز المالى للحكومة المصرية ومواردها على أن يجرى هذا التحقيق فى مصر ويباشره خبراء يمثلون جميع الدول .

(ثانياً) اتفاق الدول على ضمان مشترك للقرض المطلوب فى ذلك الوقت للحكومة المصرية بدلا من أن تنفرد بريطانيا بضمان هذا القرض .

(ثالثاً) عقد معاهدة جماعية بين الدول يشترك فيها سلطان الدولة العثمانية بصفته صاحب السيادة على مصر ، تقرر حرية الملاحة فى قناة السويس فى وقت السلم ووقت الحرب(١) .

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère série. t. V. doc. no. 532 Copie d'une dépêche du Prince de Bismarck, Chancellier de L'Empire Allemand au Comte Münster, Ambassadeur d'Allemagne à Londres, en date du 14 janvier, 1885.

هذا وقد عهد المستشار الألمانى إلى الأمير هوهنلوه Hohenlohe سفير ألمانيا فى باريس بتقديم صورة من هذه المذكرة إلى وزير الخارجية الفرنسية فى نفس اليوم . انظر الوثيقة ٥٢٦ فى المرجع السابق

ويلاحظ أن هـذه المطالب الثـلاثة تتفق مع الخطوط الرئيسية التى وردت فى المقترحات الفرنسية . فكانت هـذه المذكرة الألمـانية تأييداً سافراً لوجهات النظر الفرنسية . كما كانت تأكيداً لصبغ المسألة المصرية من كافة جوانبها بالصبغة الدولية .

وكان لهـذه المذكرة أثرها السريع على أعضاء الوزارة البريطانية ، ففى مساء ٢١ من يناير ١٨٨٥ اجتمع لورد جرانفل وزير الخارجية البريطانية وتشيلدرز Childers وزير المالية مع وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن وأبلغاه موافقة الحكومة البريطانية على وجهات النظر الفرنسية : رضيت أن يكون القرض ومقداره تسعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ، بضمان الدول الأوربية الكبرى بدلا من أن يكون بضمان بريطانيا وحدها ، كما قبلت الإبقاء على نصيب فرنسا فى إدارة أملاك الدائرة السنية وأراضى الدومين والسكك الحديدية ، كما رضيت بمسائل مالية أخرى ليس هنا مجال بحثها ، ولكنها طلبت تأجيل إجراء تحقيق الموقف المالى للحكومة المصرية لمدة سنتين على أساس أن المـالية المصرية سوف تنهض من كبوتها خلال هذه الفترة . وفيما يختص بقناة السويس فقالت إنها لا تزال عند رأيها الخاص بضمان حرية الملاحة فى القناة على أساس المبـادىء التى وردت فى المنشور البريطانى المؤرخ فى ٣ من يناير ١٨٨٣ ، وأضافت إلى ذلك أنها ترى وضع معاهدة تتضمن التنظيم المنشود لاستخدام القناة[١]. كما وافقت فى نفس الوقت على تعيين مندوب لألمانيا وآخر لروسيا فى لجنة صندوق الدين العمومى فى مصر[٢] .

وقد علق وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن على استجابة الحـكومة البريطانية للمطالب الفرنسية فقال إن أحـداً فى لندن لم يكن يتوقع أن توافق بريطانيا على

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٤ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ١١١ من جرانفل إلى ليونز السفير البريطانى فى باريس ومؤرخة فى ٢١ من يناير ١٨٨٥ ووثيقة رقم ١١٣ عبارة عن برقية أرسلها جرانفل إلى ممثلى بريطانيا الدبلوماسيين فى العواصم الأوربية الكبرى وفى مصر ، مؤرخة فى ٢٢ من يناير ١٨٨٥ ووثيقة رقم ١١٦ عبارة عن برقية أرسلها جرانفل إلى ممثلى بريطانيا الدبلوماسيين فى العواصم الأوربية الكبرى وفى مصر مؤرخة فى ٢٣ من يناير ١٨٨٥ وانظر أيضا الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٩ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ٣

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. V. doc. no. 538. Télégramme. Jules Ferry aux Ambassadeurs de France à Saint-Pétersbourg et Vienne. en date du 23 janvier, 1885.

الضمان الجماعى ، وإن كثيرين من زملائه السفراء كانوا يصرحون له بأنهم لا يعتقدون أن الحكومة البريطانية سوف تقر هـذا الطلب . وقال إن هـذا الضمان الأوربى الجماعى له مغزى سياسى بعيد . إنه يدل على إشراف أوربا إشرافاً فعلياً على المـالية المصرية ، إنه بداية تدويل الحـكومة فى مصر ، وبعد أن تنتهى مفاوضات قناة السويس ويتم إبرام اتفاقية القناة فسوف تأتى فى أعقابها مفاوضات حيدة مصر . وخرج السفير الفرنسى المتفائل ، بل المغرق فى تفاؤله ، من هذا التسلسل إلى أن نهاية الاحتلال البريطانى لمصر آتية لا ريب فيها(١) .

ولا شك أن موافقة الحكومة البريطانية على الاقتراحات الفرنسية كان انتصاراً فرنسياً ألمانياً . فان فرنسا هى التى وضعت الاقتراحات، وألمانيا هى التى تولت الضغط السياسى على لندن لقبولها . وإذا كانت الحكومة البريطانية قد طلبت تأجيل إجراء التحقيق الدولى فى الموقف المالى للحكومة المصرية لمدة سنتين ، فان هذا التأجيل لا يعتبر رفضاً بل هو موافقة ضمنية من حيث المبدأ وإقرار بسلامة الأساس الذى قام عليه هذا المبدأ . ولذلك كان جول فرى رئيس الوزارة الفرنسية ووزير الخارجية أميناً فى تصويره للموقف السياسى حين أرجع الفضل فى موافقة الحكومة البريطانية إلى المذكرة الألمانية المؤرخة فى ١٤ من يناير ١٨٨٥ . ولم يخف جول فرى ابتهاجه بهذا النصر ، وأرسل برقية فى منتصف ليلة ٢٣ من يناير ١٨٨٥ إلى دى كورسيل السفير الفرنسى فى برلين يطلب إليه إبلاغ هذه الموافقة إلى بسمارك وقد وصفها بأنها « نجاح جديد وباهر للسياسة السلمية التى أصبح الأمير بسمارك بطلها القدير المخلص الحازم»(٢). وسرعان ما وافقت الحكومات الألمانية والنمساوية والروسية والايطالية على المقترحات الفرنسية ووقفت هذه الدول بمثابة كتلة واحدة إلى جانب فرنسا .

* * *

دارت محادثات سياسية بين باريس ولندن للاتفاق على وسائل تنفيذ الاقتراحات التى اتفقت عليها الحكومتان سواء الاقتراحات الخاصة بالمسألة المـالية أو الاقتراحات الخاصة بمسألة قناة السويس . ولم تكن هذه المحادثات سهلة بل أحاطت بها الصعاب

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. T. V., doc. no. 533. Télégramme. Waddington, Ambassadeur de France à Londres à Jules Ferry Ministre des Aff. Etr., en date du 22 janvier, 1885.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. V. doc. no. 536. Télégramme. Jules Ferry à de Courcel, en date du 23 janvier, 1885.

بسبب تمسك فرنسا وبريطانيا بوجهات نظر معينة عند وضع تفصيلات أسس المقترحات، ولا نرى الخوض فيها فى هذا البحث . وتعددت الاقتراحات من الجانبين واستطالت هذه المحادثات قرابة شهرين فلم تنته إلا فى منتصف شهر مارس ١٨٨٥ . وقد أسهم بسمارك إسهاما فعالا فى حسم الموقف لمصلحة فرنسا وأوغل فى سياسة العنف مع لندن إيغالا بعيداً .

كان بسمارك يدرك تماماً أن الحكومة البريطانية تعلق أهمية بالغة على الوصول إلى تسوية سريعة للأزمة المالية التى كانت تعانيها وقتذاك الحكومة المصرية . وكان يخشى أن تعمد الحكومة البريطانية إلى المماطلة والتسويف فى تسوية مسألة القناة بعد أن تكون قد ظفرت بتسوية الأزمة المالية فى مصر . ولذلك أوفد فى ٢٦ من فبراير ١٨٨٥ إبنه الكونت هربرت دى بسمارك إلى دى كورسيل السفير الفرنسى فى برلين ليوضح وجهة نظر الحكومة الألمانية فى مسألة قناة السويس . وكانت تقوم على عدم الفصل بين الجانب السياسى وبين الجانب المالى للمسألة المصرية ، فلا بد — فى رأى المستشار الالمانى — من تسوية مسألة قناة السويس تسوية نهائية مرضية فى مقابل تقديم القرض المضمون للحكومة المصرية وأن تتم تسوية المسألتين معاً وفى وقت واحد . وبعبارة أخرى لا يبرم اتفاق القرض المضمون إلا إذا عقدت اتفاقية القناة، وبهذه الطريقة لا تكون فرنسا قد ألقت سلاحها قبل أن تنال شيئاً من بريطانيا[1].

ولكن كان جول فرى يعتنق رأياً آخر هو أنه من المتعذر تعليق تقديم القرض المضمون للحكومة المصرية حتى يتم إبرام الاتفاقية الدولية الخاصة بقناة السويس ، إذ أن هذه الاتفاقية قد يستغرق وضعها وصياغتها وإجراءات التصديق عليها وقتاً طويلا . وكان من رأيه أن يتضمن اتفاق الدول بشأن المسألة المالية النص على أن

---

(١) Doc. Dipl. Fr. Ière Sèrie. t. V. doc. no. 599.

وكان مما جاء فى هذه البرقية السرية الضافية التى أرسلها دى كورسيل إلى جول فرى فى ٢٦ من فبراير ١٨٨٥ ما يلى :

Le Comte Herbert de Bismarck vient d'être envoyé auprés de moi par son père pour insister tout particuliérement sur la nécessité de ne pas nous désarmer à l'égard du Gouvernement anglais dans la question égyptienne en lui accordant sous une forme définitive les arrangements financiers dont il a besoin, avant d'avoir obtenu en échange les satisfactions d'ordre politique que nous réclamons, et qui se rattachent au régime du Canal de Suez.

تجتمع بدون إبطاء فى تاريخ محدد وفى باريس لجنة تمثل فيها الدول الأطراف فى الاتفاق المالى وتضع مشروع المعاهدة الدولية الخاصة بتنظيم حرية الملاحة فى قناة السويس . ثم يعرض هذا المشروع بعد ذلك على حكومات الدول الأوربية لإقراره . وقال جول فرى تأييداً لوجهة نظره إن الدول الأوربية ، بعقد الاتفاق المالى ، لن تكون قد ألقت سلاحها وتلقفته بريطانيا . فهذا الاتفاق المالى يتطلب تصديق الهيئات التشريعية فى هذه الدول . وقال جول فرى إن ألمانيا لديها مجلس تشريعى واحد ، وفرنسا لها مجلسان ، والنمسا لها أربعة مجالس . وليس هناك أسهل من تأخير عرض الاتفاق على الهيئات التشريعية حتى تتم تسوية مسألة قناة السويس ، فالهيئات التشريعية تستطيع تغطية موقف حكوماتها بطريقة أفضل من إدخال نص يسىء إلى كرامة الحكومة البريطانية (١) .

ومضى الأمير أوتو دى بسمارك فى سياسة العنف ضد الحكومة البريطانية ، فأوفد ابنه الكونت هربرت دى بسمارك إلى لندن يحمل تبليغاً صارماً إلى الوزارة البريطانية بشأن موقفها من بسط الحماية الألمانية على غينيا الجديدة . وقد وصل المبعوث الألمانى إلى العاصمة البريطانية فى ٣ من مارس ١٨٨٥ ، وأبلغ لورد جرانفل وغيره من أعضاء الوزارة البريطانية أن العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وبريطانيا لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال ، ولا تستطيع دولة كبرى مثل ألمانيا أن تقبل هذا الوضع . فاذا لم تغير الحكومة البريطانية من سياستها إزاء ألمانيا تغييراً سريعاً فان المستشار الألمانى سوف يستخدم كافة الوسائل لإثارة المتاعب أمام الإنجليز فى مصر ، سوف يرفض الموافقة على أى اتفاق خاص بمصر ، سوف يثير من جديد موضوع فوائد التأخير على مبالغ التعويضات المقررة للأجانب فى مصر ، وسوف يصر على ضرورة دفعها ، وعلى أن تقوم الخزانة البريطانية بسداد هذه الفوائد وإعفاء الخزانة

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. V. doc. no. 601. Télégramme Jules. Ferry à de Courcel, en date du 27 février, 1885, doc. no. 602 Télégramme. Jules Ferry à de Courcel. en date du 28 février, 1885., et doc. no. 606 Télégramme. Jules Ferry aux Ambassadeurs de France à Saint-Pétersbourg et Vienne, en date du 1er mars, 1885.

المصرية من تحمل هذا العبء وإن المستشار الألمانى سيذهب إلى أبعد من ذلك فيطالب بجلاء الإنجليز عن مصر [1] .

وقد صرح هربرت بسمارك أثناء إقامته الأخـــيرة فى لندن للسفير الفرنسى وادنجتون بأن ألمانيا على وفاق تام مع فرنسا ، وفى اللحظة التى توافق فيها الحكومة الفرنسية على الاتفاق الخاص بمصر ، فان الحكومة الألمانية ستحذو حذوها . والمصالح الألمانية فى مصر قليلة إذا قورنت بالمصالح الفرنسية فيها « ولكننا لا نريد أن نكون ملكيين أكثر من الملك ، ولا فرنسيين أكثر من فرنسا . وإن والدى مصر على استخدام كافة الوسائل للضغط على انجلترا . ولديه هذه الوسيلة وسوف يستخدمها . وقد صرح والدى للبارون دى كورسيل — السفير الفرنسى فى برلين — بأنه سوف يؤجل موافقته على الاتفاق ، لكنى أرجو عند عودتى إلى برلين أن أستطيع إقناعه بسحب معارضته » [2] .

وأخيراً اجتمعت كلمة حكومات الدول الأوربية الكبرى فى تصريح لندن الدولى المؤرخ فى ١٧ من مارس ١٨٨٥ [3] وقد تضمن مسألتين : كانت المسألة الأولى خاصة

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. V. doc. no. 615 Télégramme très confidentiel. Waddington à Jules Ferry. en date du 6 mars, 1885

(٢) Ibid.

هذا وقد صرح هربرت دى بسمارك للسفير الفرنسى فى لندن بأن والده اوتو بسمارك لم يستخدم الطريق الدبلوماسى العادى فى تقديم هذا التبليغ الصارم إلى الحكومة البريطانية. لأن السفير الألمانى فى لندن ، وهو الكونت مونستر Munster ليس فى مركز يسمح له بأن يبلغ لورد جرانفل هذه الحقيقة المرة ، وليس هذا من مهام السفير العادى . لقد أمضى الكونت مونستر اثنى عشرة سنة فى لندن ، وقد أراد المستشار الألمانى أن يجنب السفير هذا الموقف الحرج ، فعهد بهذه المهمة إلى إبنه الكونت هربرت دى بسمارك. ويصف السفير الفرنسى هذا المبعوث الألمانى فيقول عنه إنه يتكلم بطريقة عنيفة جافة صارمة ، ولكنه أقل خشونة وفظاظة من أبيه .

انظر بخصوص زيارته للندن : الوثائق رقم ٦١٠ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٩ من المرجع السابق .

(٣) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٦ لسنة ١٨٨٥

Declarations by the Governments of Great Britain, Germany, Austria-Hungary, France, Italy, Russia, Turkey and Egypt, Relative to the Finances of Egypt, and to the Free Navigation of the Suez Canal.

وانظر أيضا

الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٧ لسنة ١٨٨٥ مرفق رقم ٢ بالوثيقة رقم ٢٠٠

الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٩ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ١٢

بالناحية المالية، وقد أفرد لها البندان الأول والثانى ، وفيهما تقرر أن تعقد الحكومة المصريه ، بمصادقة سلطان تركيا، وضمان بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا وروسيا ، قرضا لا يتجاوز تسعة ملايين جنيه ولا تزيد فائدته عن ثلاثة ونصف فى المائة ، على أن يدفع من حصيلة هذا القرض تعويضات الإسكندرية ، وما يتبقى بعد ذلك يخصص لتسوية العجز المالى فى ميزانية الحكومة وسداد بعض النفقات الاستثنائية ، كما تقرر إدخال تعديلات على قانون التصفية من شأنها إخضاع الأجانب فى مصر لبعض أنواع من الضرائب ، وهى عوائد الأملاك المبنية ، وضريبة أوراق الدمغة وضريبة الباطنطة[1] . أما المسألة الثانية فكانت خاصة بقناة السويس وقد أفرد لها البند الثالث من تصريح لندن . وهذه هى ترجمتنا له .

« لما كانت جميع الدول مجمعة على الاعتراف بالحاجة الماسة إلى إجراء مفاوضات يكون الهدف منها أن تقرر فى صك اتفاقى إنشاء نظام نهائى يكفل ضمان حرية استخدام قناة السويس فى كل وقت ولجميع الدول .

« فقد اتفقت الحكومات السبع المتقدم ذكرها على أن تجتمع فى باريس يوم ٣٠ من مارس ١٨٨٥ لجنة تتكون من مندوبين تعينهم الحكومات المذكورة كى تقوم باعداد وصياغة هذا الصك على أن تتخذ أساساً له منشور حكومة حضرة صاحبة الجلالة البريطانية والمؤرخ فى ٣ من يناير ١٨٨٣ .

« ويحضر اجتماعات اللجنة مندوب بصوت استشارى من قبل حضرة صاحب السمو الخديو .

« ويعرض المشروع الذى تضعه اللجنة على الحكومات المذكورة التى تستخدم حينئذ جهودها للحصول على موافقة الدول الأخرى عليه .

« والموقعون على هذا المندوبون عن ألمانيا ، والنمسا والمجر ، وفرنسا ، وبريطانيا العظمى ، وإيطاليا ، وروسيا ، وتركيا ، والمزودون بالسلطات اللازمة ، يصرحون أن حكوماتهم تتعهد كل منها قبل الأخرى بالتعهدات المذكورة أعلاه .

---

(١) droit de patentes.

« وإثباتا لما تقدم قد وقع على التصريح الحالى الموقعون ووضعوا عليه أختام شعاراتهم . »

وفى اليوم التالى — أى فى ١٨ من مارس ١٨٨٥ — عقدت الدول اتفاق لندن وكان خاصاً بتسوية شئون مصر المالية[١] على ضوء ما جاء فى البندين الأول والثانى من تصريح لندن المؤرخ فى ١٧ من مارس ١٨٨٥ .

هذا الوضع الدولى الذى أخذته الأزمة المالية المصرية هو الذى أتاح للحكومة الفرنسية فرصة ذهبية إذ استطاعت أن تعمل على دفع مسألة قناة السويس من مرحلة التجمد التى انتهت إليها منذ منشور لورد جرانفل المؤرخ فى ٣ من يناير ١٨٨٣ إلى مرحلة عملية بدأت بصدور تصريح لندن الذى اشتركت فى توقيعه سبع دول أوربية فى السابع عشر من مارس ١٨٨٥ .

ولما كانت باريس قد اختيرت مقراً لاجتماعات اللجنة الدولية فقد قامت الحكومة الفرنسية — طبقا لقواعد القانون الدولى العام — بتوجيه الدعوة فى ٢٤ من مارس ١٨٨٥ إلى الدول الموقعة على تصريح لندن الصادر فى ١٧ من مارس ١٨٨٥ لايفاد مندوبين عنها يمثلونها فى لجنة باريس الدولية . وحددت فى خطاب الدعوة الهدف من اجتماع هذه اللجنة فقالت إنه « لإعداد وصياغة اتفاق يستهدف ضمان حرية استخدام قناة السويس فى كل الأوقات لجميع الدول[٢] . »

اجتمعت لجنة باريس الدولية فى هيئة مؤتمر فى مقر وزارة الخارجية الفرنسية فى ٣٠ من مارس ١٨٨٥ وألقى خطبة الافتتاح جول فرى Jules Ferry رئيس الوزراء ووزير الخارجية . وشرعت اللجنة فى وضع مشروع اتفاقية تنظم حرية المرور فى قناة السويس . وقد نجحت فرنسا فى إيجاد تكتل دولى داخل اللجنة ضد بريطانيا ، فوقف إلى جانب فرنسا كل من ألمانيا وروسيا والنمسا والمجر وتركيا

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٧ لسنة ١٨٨٥ بعنوان

Convention between the Governments of Great Britain, Germany, Austria-Hungary, France, Italy, Russia and Turkey, relative to the Finances of Egypt ; signed at London. March 18, 1885.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Serie. t. V. doc. no. 632. Télégramme. Jules Ferry aux Représentants de France à Berlin, Londres, Vienne, Rome, Saint-Pétersbourg, Constantinople. en date du 24 mars, 1885.

وهولندا وأسبانيا ، وتأرجحت إيطاليا فى موقفها ، ولكنها كانت أدنى إلى تأييد بريطانيا منها إلى التزام جانب الحيدة .

أرادت بريطانيا أن تفرض على اللجنة قيدا ثقيلا : هو أن تكون مناقشاتها فى نطاق المبادىء الواردة فى منشور لورد جرانفل والمؤرخ فى ٣ من يناير ١٨٨٣ بحيث تلتزم وفود الدول بهذه المبادىء التزاماً دقيقاً صارما عند إعداد وصياغة مواد الاتفاقية . واعترضت الدول على هذا التقييد اعتراضاً شديداً .

وقدمت فرنسا مشروعا للاتفاقية المقترحة، وحذت بريطانيا هذا الحذو . وكانت الفروق بين المشروعين جذرية عميقة . كان المشروع الفرنسى ينطوى فى عدد غير قليل من مواده على خروج سافر على المبادىء الواردة فى منشور لورد جرانفل . والواقع كان المشروع الفرنسى يصور إلى حد بعيد السياسة الفرنسية تجاه مصر بوجه عام وإزاء قناة السويس بوجه خاص . فقد واجه هذا المشروع حالة واقعة هى الاحتلال البريطانى لمصر ، وبالتالى بسط سيطرتها السياسية والعسكرية على القناة . فحاول أن يهدم هذه السيطرة الانفرادية بإيجاد هيئة دولية مختلطة تمثل فيها جميع الدول الموقعة على تصريح لندن ، وتخويل هذه الهيئة سلطات واسعة بحيث تكون لها الكلمة العليا فى منطقة القناة ، وتعنو لها جباه الجميع ، تمكينا لها من مزاولة اختصاصات واسعة حددها المشروع الفرنسى بحجة مراقبة تنفيذ المعاهدة تنفيذا محايدا لصالح دول العالم قاطبة خوفا من أن يمضى تنفيذها على نحو يخدم مصالح دولة واحدة هى بريطانيا العظمى . وفى الواقع استهدفت فرنسا من تقديم مشروعها غرضين رئيسيين : تدويل قناة السويس ، وجلاء بريطانيا عن مصر ، أو على الأقل ، وكخطوة أولى ، عن قناة السويس ومنطقتها ، أما المشروع البريطانى فيكشف عن رغبة الحكومة البريطانية فى الاحتفاظ بما انفردت به من سيطرة على مصر بما فيها قناة السويس . ولذلك قام مشروعها على أساس المبادىء الواردة فى منشور لورد جرانفل .

عكفت لجنة باريس ما يقرب من شهرين ونصف شهر على إعداد وصياغة الاتفاقية . وظل الصراع الدولى قائماً داخل اللجنة بين فرنسا والدول الست الضالعة معها ، وبين بريطانيا ومعها إيطاليا التى غدت بوقاً يردد وجهات النظر البريطانية . وكانت إيطاليا قد ضمت إلى وفدها أثناء انعقاد جلسات لجنة باريس أحد أعضاء

لأمجلس الشيوخ الايطالى ؛ هو اب أنطونى Pierantoni ؛قيل عنه إنه من أقطاب القانون الدولى العام . وكان هـذا الصراع أظهر ما يكون عند بحث المواد السياسية والعسكرية الحساسة التى كان تطبيقها يؤدى إلى تقلص نفوذ بريطانيا فى القناة أو جلاء قواتها التى تحتل مراكز تشرف على مجرى القناة أو تهددها ، وكذلك المواد التى تحد من حرية بريطانيا فى تحركات قواتها ونقل عتادها عبر مصر .

وقد اختتمت لجنة باريس أعمالها فى ١٣ من يونيو ١٨٥٥ بوضع مشروع اتفاقية جاء فى ديباجتها أن حكومات الدول رغبت فى أن تقرر بصك اتفاقى إنشاء نظام نهائى يستهدف ضمان حرية استخدام قناة السويس فى كل الأوقات ولجميع الدول ، وأن تستكمل بذلك النظام الذى خضعت له الملاحة فى القناة بمقتضى فرمان السلطان والمصدق على الامتيازات التى أصدرها خديو مصر . وقد أدرجت اللجنة فى مشروع الاتفاقية مبادىء هامة نكتفى منها بما جاء فى منطوق المادة الأولى وهى الخاصة بتقرير مبدأ حرية المرور فى القناة .

« تكون قناة السويس البحرية على الدوام حرة ومفتوحة ، فى زمن الحرب كما فى وقت السلم ، لكل سفينة تجارية أو حربية ، دون تمييز للجنسية .

« وتبعاً لذلك اتفق الأطراف السامون المتعاقدون على عـدم المساس بأى شكل بحرية استخدام القناة ، فى زمن الحرب كما فى وقت السلم .

« ولا تخضع القناة أبداً لمباشرة حق الحصر » .

ولكن اللجنة فشلت فى الوصول إلى اتفاق على أربع مسائل هى :

أولا : القيود المفروضة على السفن الحربية التابعة للمتحاربين أثناء عبورها القناة .

ثانياً : تحريم نزول أو شحن القوات والذخائر داخل القناة وموانى مدخليها .

ثالثاً : إنشاء لجنة دولية تتولى مراقبة تنفيذ الاتفاقية المقترحة .

رابعاً : حق الدفاع عن مصر . ولمن يكون هذا الحق ؟

ورأت اللجنة أن تترك للحكومات المختصة الاتفاق على هـذه المسائل تمهيداً لإبرام الاتفاقية نهائياً . وكانت بريطانيا قد فاجأت أعضاء اللجنة فى اليوم السابق

لاختتام أعمالها بتحفظ عام على الاتفاقية ينص على أن تطبيق موادها يجب ألا يتعارض مع الحالة المؤقتة والاستثنائية التي توجد بها مصر فى ذلك الوقت، أو إذا كان تطبيق أحكام الاتفاقية يؤدى إلى عرقلة تحركات القوات البريطانية التى تحتل مصر أو تعطيل حرية الحكومة البريطانية فى العمل أثناء الاحتلال البريطانى لمصر .

* * *

وخيم على الموقف ركود امتد شهوراً طوالا ، وبدا كأن مسألة القناة قد وضعت على الرف، ثم حاولت الحكومة الفرنسية تحريك المسألة، فقامت فى ١٧ من نوفمبر ١٨٨٥ باتصالات دبلوماسية مع حكومات الدول الأوربية التى كانت ممثلة فى لجنة باريس تستطلع رأيها فى الخطوات التالية للوصول إلى وضع نظـام يستهدف تقرير حرية المرور فى قناة السويس على ضوء ما أسفرت عنه مناقشات لجنة باريس . وقد استقر رأى هذه الحكومات على أن تقوم فرنسا وبريطانيا بمحادثات ثنائية لتسوية المسائل الأربع على أساس أن لفرنسا وبريطانيا من المصالح فى قناة السويس ما يفوق مصالح الدول الأخرى، وأنه إذا ما وصلت حكومتا هاتين الدولتين إلى الاتفاق المنشود ، فإن الحكومات الأخرى ستوافق عليه بدون تعديل أو بتعديل طفيف للغاية [١] .

ولكن لم يلق دى فريسينيه وزير الخارجية الفرنسية — وقد تولى هذا المنصب فى وزارة بريسو Brissot منذ أبريل ١٨٥٥ — إلا مماطلة وتسويفاً من الحكومة البريطانية التى انتحلت أعذاراً شتى ، منها : إن بريطانيا مقدمة على إجراء انتخابات عامة ، وأن الوزارة الجديدة لم يمض عليها فى الحكم وقت كاف يسمح لها بدراسة المسائل التى خلفتها الوزارة السابقة . وأن البرلمان الانجليزى لم يجتمع بعد، وأن اجتماع البرلمان سيجلو الموقف السياسى فى انجلترا تماماً [٢] ، كما كان من بين الأعذار التى ساقتها

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI.
وثائق رقم ١٢٨ و ١٤٤ و ١٥٣ و ١٥٨

(٢) Blue Book. (Egypt) No 1 (1888).
وثيقة رقم ٢ من سالسبورى وزير خارجية بريطانيا إلى والشام Walsham القائم بأعمال السفارة البريطانية فى باريس ومؤرخة فى ١٣ من يناير ١٨٨٦
ووثيقة رقم ٤ من وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن إلى روزبرى Rosebery وزير الخارجية البريطانية ومؤرخة فى ٢٢ من فبراير ١٨٨٦
ووثيقة رقم ٦ من ليونز السفير البريطانى فى باريس إلى سالسبورى ومؤرخة فى ١٠ من مارس ١٨٨٦

الحكومة البريطانية قولها إنه ليس من المناسب أن تتباحث الحكومتان فى مسألة القناة بينما تواجه الدولة العثمانية اضطرابات فى روميليا الشرقية .

والواقع أنه لم يكن يضير الحكومة البريطانية تأخير تسوية موضوع القناة طالما كانت هى تنفرد عن سائر الحكومات بمركز متفوق فى القناة ، وطالما أن الأزمة المالية التى كانت تعانيها الحكومة المصرية قد سويت بعد أن قدمت الدول الأوربية القرض المضمون ومقداره تسعة ملايين من الجنيهات ، وبعد أن دفعت الحكومة المصرية التعويضات ، وبعد أن ردت الأموال التى استولت عليها إلى صندوق الدين العمومى، وبعد أن بدأت المالية المصرية فى الانتعاش ، فانتقل زمام الموقف إلى يد انجلترا بعد أن كان فى يد فرنسا والدول الضالعة معها . وأثبتت الأحداث أن المستشار الألمانى كان على حق حين طالب بإتمام تسوية مسألة القناة قبل أن تتم تسوية المسألة المالية خوفا من أن تعمد الحكومة البريطانية إلى المماطلة والتسويف فى تسوية المسألة الأولى بعد أن تكون قد ظفرت بتسوية المسألة الثانية . وقد مر بنا أن جول فرى وزير الخارجية الفرنسية وقتئذ لم ير هذا الرأى ، بمقولة إن الهيئات النيابية فى البلاد الأوربية تستطيع التريث فى الموافقة على الاتفاق المالى ريثما يتم إبرام معاهدة قناة السويس . ولما وجد جول فرى اصراراً من جانب بسمارك على رأيه صرح فى ٢٨ من فبراير ١٨٥٥ بأن الصعوبات تأتى فى ذلك الوقت من جانب المستشار الألمانى[١] .

وأول حقيقة نستخلصها من دراسة الوثائق الرسمية ـ سواء الفرنسية أو الإنجليزية ـ أن الحكومة الفرنسية أسرفت إسرافا واضحا فى الإلحاح على الحكومة البريطانية لبحث المسائل المختلف عليها فى مشروع المعاهدة ، وأن الحكومة الأخيرة كانت ترفض فى معظم الأحوال الاستجابة للطلبات المكرورة فى هذا الصدد .

واقتنع دى فريسينيه وزير الخارجية الفرنسية أن الحكومة البريطانية تتعمد التسويف فى تسوية مسألة القناة ، فوجه رسالة شديدة اللهجة[٢] إلى لورد روزبرى وزير الخارجية البريطانية فى وزارة جلادستون الثالثة ، والرسالة لاتخلو من الغمز

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. V. doc. no 602 Télégramme. Jules Ferry à de Courcel en date du 28 février, 1885.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI. doc. no 208

والوثيقة عبارة عن مذكرة أرسلها دى فريسينيه وزير خارجية فرنسا إلى وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن ومؤرخة فى ١٣ من مارس ١٨٨٦ . وقد طلب الوزير إلى السفير أن يتلو المذكرة على وزير خارجية بريطانيا ثم يترك له نسخة منها .

والتعريض بالسياسة البريطانية، فصورها بأنها ملتوية متقلبة إزاء مشكلة قناة السويس.
وكان مما جاء فى هذه المذكرة أن وزير الخارجية البريطانية يتناسى أن وضع نظام للملاحة فى قناة السويس مسألة لا تخص فرنسا وحدها أو بريطانيا وحدها ، بل تخص أوربا ، وقد وضعت أوربا هذه المسألة بين يدى فرنسا من الناحية العملية فى مستهل عام ١٨٨٥ وبموافقة الحكومة البريطانية نفسها . وقد صدر تصريح لندن المؤرخ فى ١٧ من مارس ١٨٨٥ متناولا مسألتين : عقد قرض لمصر بضمان الدول لإصلاح المالية المصرية ، ووضع اتفاق خاص لتنظيم استخدام قناة السويس . وقد تمت المسألة الأولى لسبب واضح ، هو أن لبريطانيا مصلحة خاصة فى سرعة إتمام إجراءات القرض . أما المسألة الثانية التى هى موضع اهتمام عميق من العالم كله فلا تزال تتعثر فى مراحلها الأولى . وطلب وزير الخارجية الفرنسية فى ختام مذكرته أن تحدد وزارة جلادستون موقفها من مسألة القناة ، لأن الموقف لم يعد يتحمل تأخيرا فى بحثها . وقال إن لدى الحكومة الفرنسية مشروعا معداً لتسوية أوجه الخلاف بين الحكومتين ، فاما أن تقبل الوزارة البريطانية دراسة هذا المشروع وإبداء ملاحظاتها عليه ، وإما أن ترفض بحث المسألة ، وفى هذه الحالة ستعرض الحكومة الفرنسية تفاصيل الموقف على الحكومات الأوربية التى اشتركت فى لجنة باريس الدولية لاتخاذ التدابير التى تراها مناسبة لمواجهة مثل هذا الموقف .

وكان لهذه المذكرة أثرها لدى روزبرى Rosebery وزير الخارجية البريطانية ، فقبل أن ترسل إليه الحكومة الفرنسية مشروعها بطريقة غير رسمية ، وأن يظل المشروع فى طى الكتمان ، فاذا وجد أنه يصلح أساساً للاتفاق اتخذ شكلا رسمياً بين الحكومتين ، أما إذا لم يكن صالحاً فيعتبر كأنه لم يكن ، وبذلك لا يكون هناك رفض علنى لمشروع فرنسى أو قطع لمحادثات دبلوماسية بين فرنسا وبريطانيا(١) .

وسرعان ما قدم دى فريسينيه المشروع الفرنسى فى ٢٥ من مارس ١٨٨٦ (٢) وأكد فى حديث له مع ليونز السفير البريطانى فى باريس أنه ليس لهذا المشروع

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ . وثيقة رقم ٧ من روزبرى إلى ليونز ومؤرخة فى ١٧ من مارس ١٨٨٥

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٨ من ليونز إلى روزبرى ومؤرخة فى ٢٥ من مارس ١٨٨٥

الطابع الرسمى الذى يربط الحكومتين ، بل إنه يقدمه بصفة خاصة وسرية à titre privé et confidentiel وإنه يسره أن يتلق أية ملاحظات بشأنه من الحكومة البريطانية . وأراد وزير الخارجية الفرنسية أن يخطو خطوة أخرى فى سبيل ارضاء بريطانيا وبث جو من الثقة بين الحكومتين . فقال للسفير البريطانى إنه يدرك أن اجراءات لجنة باريس الدولية ومناقشاتها قد تركت أثراً غير طيب فى دوائر الحكومة البريطانية ، ولذلك لم يدر فى خلد الحكومة الفرنسية على الإطلاق أن تدعو هذه اللجنة إلى استئناف عقد اجتماعاتها أو بعث فكرتها من جديد على أى نحو من الأنحاء، وأوضح أن هدف الحكومة الفرنسية هو أن تقوم الحكومتان باتصالات ودية بينهما تؤدى إلى اتفاقهما على النقط المختلف عليها ، فاذا استطاعت الحكومتان الوصول إلى مثل هذا الاتفاق ، فلن تكون هناك صعوبة فى اتخاذ الخطوة التالية ، وهى إبلاغه بالطريق الدبلوماسى إلى حكومات الدول الأخرى للموافقة عليه (١) . وقد قبلت الحكومة البريطانية هذا الأسلوب فى بحث الموضوعات الأربعة المختلف عليها . وهكذا تبلور الموقف من مفاوضات بين تسع دول فى لجنة باريس الدولية إلى اتصالات دبلوماسية ثنائية بين فرنسا وبريطانيا ، وخرجت مسألة القناة مرة أخرى من مرحلة التجمد .

أخذت الحكومة الفرنسية طوال مراحل الاتصالات الدبلوماسية تقدم اقتراحاً تلو اقتراح لتضييق شقة الخلاف بين الحكومتين . وظلت الحكومة البريطانية تتلكأ فى موقفها كسبا للوقت وضغطاً على الحكومة الفرنسية حتى تحملها على قبول وجهات نظرها . وقد أوقفت الحكومة البريطانية مرتين اتصالاتها الدبلوماسية معها بشأن مسألة القناة . وامتدت المرة الأولى خمسة أشهر (يونيو — أكتوبر ١٨٨٦) فقد سقطت وزارة الأحرار وتألفت وزارة المحافظين برياسة سالسبورى فى أغسطس ١٨٨٦ . وتولى وزارة الخارجية فيها أول الأمر اللورد اديسلى Iddesleigh (٢) . وضجت الحكومة الفرنسية بالشكوى من توقف الاتصالات . وأبرق دى فريسينيه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سنرى أنه قد حدثت فى يناير ١٨٨٧ تعديلات واسعة فى مناصب الوزارة البريطانية ، كان من بينها أن تقلد رئيس الوزراة وزارة الخارجية بالإضافة إلى رياسته للوزارة .

وزير الخارجية فى ٩ من سبتمبر ١٨٨٦ إلى الكونت دى أوبينى Count d'Aubigny القائم بأعمال السفارة الفرنسية فى لندن يطلب منه تذكير وزير الخارجية البريطانية الجديد بأنه لم يتلق رداً على المقترحات الفرنسية التى أبلغت لسلفه فى ٩ من يونيو ١٨٨٦ ، وأبدى وزير الخارجية رجاءه فى أن يجد من الوزارة البريطانية الجديدة استعداداً صادقاً لتسوية مسألة القناة ، فالاقتراحات الفرنسية تتسم بطابع الاعتدال ، كما أن الحكومة الفرنسية صبرت طويلا فى سبيل الوصول إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية لتسوية هذا الموضوع (١) .

ولم يكن لهذه البرقية أثر يذكر فى دوائر لندن الرسمية ، فعمد دى فريسينيه فى ١٣ من أكتوبر ١٨٨٦ إلى تهديد الحكومة البريطانية بأنه إذا لم يتلق منها رداً بشأن المقترحات الفرنسية فانه سيعرض الأمر على الحكومات الأوربية ويبلغها أنه قد فقد الأمل فى الوصول إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية، وسوف يجرى مشاورات مع هذه الحكومات لاتخاذ الاجراءات اللازمة (٢) .

وكان لهذا التهديد الفرنسى السافر رد فعل فى دوائر الحكومة البريطانية ، وتدخل لورد سالسبورى رئيس الوزارة البريطانية فى الموضوع محاولاً أن يهدىء من ثائرة الحكومة الفرنسية ، فصرح فى حديث له مع وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن بأن المسائل المختلف عليها بين الحكومتين والخاصة بقناة السويس لهى مسائل ذات خطر بالغ فى نظر الحكومة البريطانية . ومع ذلك فهو ، أى رئيس الوزراء ، على ثقة من أن الحكومتين ستصلان إلى اتفاق فيما بينهما ، وهو يعلق أهمية قصوى على الوصول إلى مثل هذا الاتفاق ، لأن تسوية مسألة القناة سيكون لها تأثير طيب على المسألة المصرية فى مجموعها ، وستثبت أن فرنسا وبريطانيا قد استطاعتا أن تتفقا على مسألة تعتبر من أمهات المسائل (٣) . وقد عادت إلى سيرتها الأولى

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ . وثيقة رقم ١٥ ومؤرخة فى ٩ من سبتمبر ١٨٨٦

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ١٦ من أدوين اجرتن Edwin H. Egerton الوزير بالسفارة البريطانية فى باريس إلى اديسلى وزير الخارجية البريطانية ومؤرخة فى ١٣ من أكتوبر ١٨٨٦

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI doc. no. 342. Télégramme très confidentiel. M. Waddington à M. de Freycinet, en date du 3 novembre 1886.

الاتصالات الدبلوماسية بين باريس ولندن حول مسألة القناة فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٦ .

وقد فوجئت الحكومة الفرنسية بتوقف هذه الاتصالات مرة أخرى فى مستهل سنة ١٨٨٧ ، بحجة أنه حدثت فى يناير من هذه السنة تعديلات وزارية واسعة النطاق فى الوزارة البريطانية تناولت عدة مناصب وزارية . وكان من بين ما اشتملت عليه هذه التعديلات وزارات الخارجية والحربية والمستعمرات والخزانة . وضاقت الحكومة الفرنسية ذرعا بهذه المراوغة وهذا التسويف فى بحث مقترحاتها ، فرأت لكى تحمل الحكومة البريطانية على الإسراع فى تسوية مسألة القناة أن تربط هذه المسألة بمسألة أخرى كانت تقلق فى ذلك الوقت بال الرأى العام البريطانى ، ونعنى بها مسألة إبريد الجديدة .

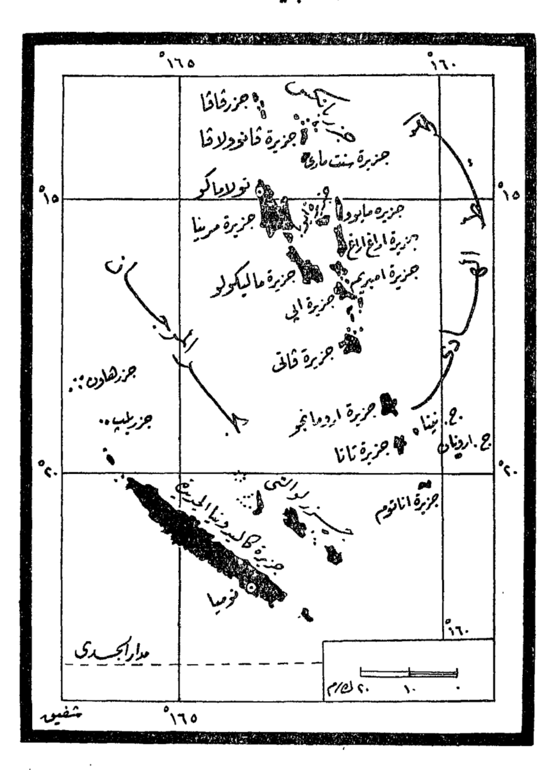
* * *

فى ذلك الوقت تلبدت فى سماء العلاقات السياسية بين فرنسا وبريطانيا أزمة طارئة حول مسألة إبريد الجديدة وإقدام فرنسا على احتلالها . وإبريد الجديدة Nouvelles Hébrides كما يسميها الفرنسيون ، أو هبريدز الجديدة New Hebrides كما يسميها البريطانيون ، عبارة عن ثلاث مجموعات من الجزر المتوسطة والصغيرة يبلغ عددها جميعاً ٣٧ جزيرة ، تقع فى المحيط الهادى إلى شرق استراليا ، وتمتد مسافة ألف كيلو متر بين خطى عرض ٩ ، ٢٠ جنوب خط الاستواء وخطى طول ١٦٣ ، ١٦٨ شرقاً . وهى جزر غنية جداً وتضم عدداً من الموانى الصالحة . كما أنها تفضل من الناحية الصحية الكثير من جزر المحيط الهادى[1] .

وكان بدء استكشاف هذه الجزر فى ٢٧ من أبريل ١٦٠٦ على يد بردو فرناند دى كيروس Perdo Fernandes de Quiros الذى ظن أنه استكشف قارة جنوبية

(١) لعبت جزر ابريد الجديدة دورا هاما فى الحرب العالمية الثانية إذ اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الجزر قواعد عسكرية لقواتها الجوية والبحرية منذ سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٤٥ فى محاولتها وقف الزحف السريع الخاطف الذى قامت به اليابان فى ميدان المحيط الهادى على الرغم من أن القوات اليابانية لم تصل فى زحفها المظفر جنوبا إلى هذه الجزر .

جزر إبريد الجديدة



كبرى كان يعتقد وجودها فى هـــذه المنطقة ، ولذلك أطلق على هذه الجزر اسم Tierra Australia del Espiritu Santo وتنعت بعض المراجع هـــذا الملاح بأنه أسبانى ، والبعض الآخر بأنه برتغالى . ولعل السبب فى هذا الخلط يرجع إلى أن اسبانيا والبرتغال كانتا تشكلان فى ذلك الوقت وحدة سياسية ، بعد أن استطاع فيليب الثانى ملك أسبانيا أن يضم البرتغال إلى مملكته فى سنة ١٥٨٠ اعتماداً على الروابط التى كانت تربط الأسرتين الحاكمتين إحداها بالأخرى[١] . وقد أرسل دى كيروس عدة مذكرات إلى الحكومة الأسبانية وصف فيها الخيرات التى تجود بها جزر إبريد الجديدة ، وزين لها الاستيلاء عليها واستغلال ثرواتها . ولكن الحكومة الأسبانية لم تتخذ خطوات عملية إيجابية لاحتلال هذه الجزر . لأن أسبانيا كانت قد هبطت إلى دولة من الدرجة الثانية وظهرت عليها بريطانيا وفرنسا وهولندا بسبب الحروب الطويلة التى شنها فيليب الثانى ضد الهولنديين والإنجليز والهوجونوت فى فرنسا . وقد ظهر تدهور أسبانيا واضحاً على عهد فيليب الثالث ثم فيليب الرابع .

وقد تتابع قدوم المستكشفين والملاحين الأوربيين إليها ، فزارها فى سنة ١٧٦٨ الملاح الفرنسى لويس دى بوجينفيل Louis de Bougainville وأثبت بطلان رأى سلفه ، وأتى بعده الملاح الإنجليزى جيمس كوك Captain James Cook وأطلق على تلك الجزر فى رحلته الثانية إليها فى سنة ١٧٧٤ اسم هبريدنز الجديدة ، لأنه اعتقد أن هناك كثيراً من أوجه التشابه بينها وبين جزر هبريدنز الواقعة إلى شمال شاطىء اسكتلندا من ناحية الغرب .

وازدادت هجرة الأوربيين إلى جزر ابريد الجديدة فى القرن التاسع عشر ، وكان معظمهم من الفرنسيين والإنجليز ، وفيهم التجار والمبشرون ومن إليهم . وقد مارس المبشرون بوجه خاص نشاطا دينياً وتعليمياً وطبياً فى هذه الجزر . وأصابوا بعض النجاح فى نشر المسيحية بين الأهالى فى المناطق الساحلية ، كما أنشأوا بعض المدارس والمستشفيات الصغيرة . أما فى الداخـل فقد بقى السكان الأصليون على ضراوتهم ولكنهم ظلوا بمنجاة من استغلال العناصر الأوربية لهم فى المشروعات الاقتصادية .

---

(٢) استمر هذا الضم ستين عاما من سنة ١٥٨٠ إلى سنة ١٦٤٠ حين استردت البرتغال استقلالها ونصبت عليها ملكا من أسرة براجنزا البرتغالية .

وقد اكتسبت جزر ابريد الجديدة أهمية استراتيجية واقتصادية فى نظر كل من فرنسا وبريطانيا على السواء ، لسبب عام ثم لأسباب خاصة بهاتين الدولتين جعلت كلا منهما ترنو ببصرها للاستيلاء عليها . أما السبب العام فيرجع إلى المحاولات التى بذلت فى القرن التاسع عشر ، وبخاصة فى النصف الثانى منه ، لشق قناة بناما وما سبقها وصحبها من سلسلة المواثيق والمعاهدات التى أبرمت تباعا بين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ودول أمريكا الوسطى والدول الأوربية الكبرى لوضع النظام الدولى للقناة المقترحة (١) . وقد أضفت تلك المحاولات وهـذه المعاهدات على جزر المحيط

---

(١) كان من أهم هذه المعاهدات

(أولا) معاهدة بدلاك Pidlack وقد أبرمت بين الولايات المتحدة وجرينادا الجديدة (كولومبيا حاليا) فى ١٢ من ديسمبر ١٨٤٦ . المادة ٣٥ واستهدفت الولايات المتحدة من عقد هذه المعاهدة ضمان حرية المرور لرعاياها عبر برزخ بناما بنفس الشروط والامتيازات التى يتمتع بها مواطنو جرينادا الجديدة التى تملك هذا البرزخ وذلك فى القناة البحرية التى يحتمل حفرها مستقبلا وعلى كل وسائل المواصلات بأنواعها التى كانت تمر بالبرزخ وقتذاك . وتعهدت الولايات المتحدة فى مقابل هذه الميزات التى تقررت لرعاياها بأن تضمن بشكل ايجابى نافذ الحيدة التامة للبرزخ حتى لا تتعطل حرية العبور من محيط إلى آخر كما تضمن الولايات المتحدة حقوق السيادة التى لجرينادا الجديدة على هذا البرزخ وملكيتها له .

(ثانيا) معاهدة كليتون – بلور Clayton-Bulwer وقد عقدت بين الولايات المتحدة وبريطانيا فى ١٩ من إبريل ١٨٥٠ مواد ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٨ وقد تناولت هذه المواد عدة مسائل منها تعهد الدولتين بعدم حصول أى منهما على إشراف خاص على قناة بناما المزمع إنشاؤها وعدم إقامة أية تحصينات تشرف عليها أو فى الأقاليم القريبة منها وألا تحتلا أو تحصنا أو تستعمرا أو تباشرا أى سلطان على نيكارجوا أو كوستاريكا وشاطىء موسكيتو أو أى جزء فى أمريكا الوسطى كما تقرر إعفاء سفن الدولتين عند عبورها القناة المستقبلة فى حالة حرب بين هاتين الدولتين من الحصر أو الحجز أو القبض بواسطة أية واحدة من الدولتين المتحاربتين . ونص أيضا على أن تضمن الدولتان المتعاقدتان حيدة قناة بناما حتى تظل مفتوحة وحرة إلى الأبد .

(ثالثا) معاهدة الولايات المتحدة مع نيكارجوا التى قد يتم حفر القناة فى أراضيها . وقد أبرمت فى ١٦ من نوفمبر ١٨٥٧ ثم عدلت فى ٢١ من يونيو ١٨٦٧ تعديلا أعطى الولايات المتحدة حق عبور القناة على أن تتعهد بحمايتها وضمان حيدتها حتى ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة المسلحة إذا طلبت ذلك نيكارجوا من الولايات المتحدة . كما تقرر فى هذا التعديل أن تحتفظ نيكارجوا بكل حقوق السيادة على القناة المزمع إنشاؤها .

(رابعا) معاهدة بريطانيا مع نيكارجوا فى ١١ من فبراير ١٨٦٠

(خامسا) معاهدة أسبانيا مع نيكارجوا فى ٢٥ من يوليو ١٨٥٠

(سادسا) معاهدة فرنسا مع نيكارجوا فى ١١ من أبريل ١٨٥٩

=

الهادى — ومن بينها جزر ابريد الجديدة — أهمية خاصة فى نظر الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا ثم ألمانيا ، إذ اتجه اهتمامها إلى الاستيلاء على جزر المحيط الهادى لتتخذ منها محطات بحرية لخطوط الملاحة التى كان لامناص من إنشائها عقب فتح قناة بناما للملاحة بين المحيطين الأطلسى والهادى . ولكن يهمنا هنا أن التنافس الاستعمارى حول جزر ابريد الجديدة أصبح محصوراً بين الدولتين العتيدتين : فرنسا وبريطانيا .

أما الأسباب الخاصة فعديدة متباينة متشابكة . تقع هذه الجزر على مسافة ٤٠٠ كيلو متر من كالدونيا الجديدة وهى من أهم الممتلكات الفرنسية فى الإقيانوسية . وقد استولت عليها فى سنة ١٨٥٣ ، وعملت فرنسا على أن تتخذ من ابريد الجديدة مراكز تموين لمستعمرتها الكبرى فى كالدونيا الجديدة وملحقاتها [١] ، وكانت فى حاجة إلى أيد عاملة كثيرة تستخدمها فى تنفيذ المشروعات الاقتصادية فى مستعمرتها الكبرى ، ووجدت فى سكان ابريد الجديدة مورداً آدميا تحصل منه على العمال وتبعث بهم إليها . وقد اتسمت عملياتها فى جمع السكان بطابع العنف والقسوة . وقد حمل أحد أعضاء مجلس اللوردات البريطانى وهو اللورد هاروبى Harrowby حملة عنيفة على الأسلوب الذى تتبعه فرنسا فى ترحيل سكان جزر ابريد الجديدة وإكراههم على العمل فى كالدونيا الجديدة ، ووصف هذا الأسلوب بأنه صورة أخرى من الرق

= (سابعا) معاهدة ايطاليا مع نيكاراجوا فى ٦ من مارس ١٨٦٨

(ثامنا) معاهدة بريطانيا مع هندوراس فى ١٧ من أغسطس ١٨٥٦

(تاسعا) معاهدة الولايات المتحدة مع هندوراس فى ٤ من يوليو ١٨٦٤ أنظر كلا من :

Fauchille (Paul) : Traité de Droit International Public. Paris. 1926.

قسم ٢ من جزء ١ ص ٣٤٠ وما بعدها .

Treaties and Acts of Congress relating to the Panama Canal. (Annotated 1921).

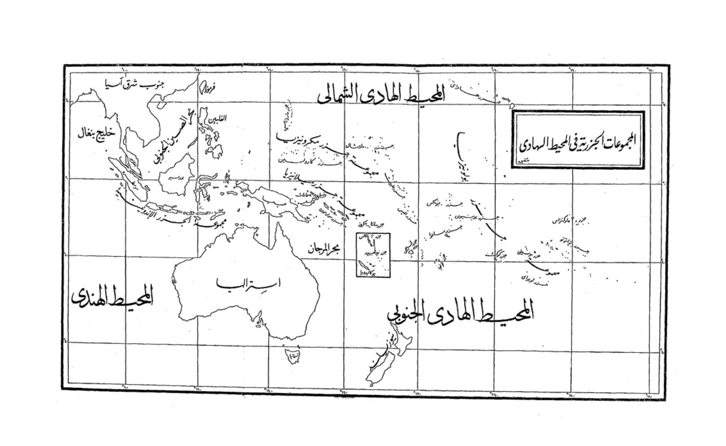
ص ١٣ وما بعدها .

(١) تتكون ملحقات كالدونيا الجديدة من مجموعات من الجزر أهمها

(أولا) Les îles Loyauté (Loyalty) Maré, Lifou, Uvéa وهى :

(ثانيا) L'île des Pins

(ثالثا) Iles Wallis


المجموعات الجزرية فى المحيط الهادى
المحيط الهادى الشمالى
المحيط الهادى الجنوبى
المحيط الهندى
استراليا
بحر المرجان
خليج بنغال
جنوب شرق آسيا
فرموزا
الفلبين
بحر الصين الجنوبى
مجموعة الجزر الاندونيسية
جزر ميكرونيزيا
جزر كارولين
جزر مارشال
جزر ماركيزاس
جزر ساموا
جزر كوك
جزر سانتا كروز

ونقطة سوداء مفزعة فى تاريخ الحضارة الحديثة[1] . استغلت فرنسا قرب إبريد الجديدة من كالدونيا الجديدة فأنشأت بينهما علاقات اقتصادية واسعة ، وساعدها على ذلك أن تلك الجزر استهوت أفئدة الفرنسيين ، فنزحوا إليها منذ منتصف القرن التاسع عشر ، بحيث غدا المستوطنون الفرنسيون أكثر جمعا وأعز نفراً وأوفر نشاطاً من المستوطنين الأوربيين، وكان يجىء بعدهم من حيث العدد المستوطنون البريطانيون .

وكانت فرنسا ترى أن جزر إبريد الجديدة تعتبر من الناحية الجغرافية جزءاً مكملا لكالدونيا الجديدة ، وزعمت أن هذه التبعية الجغرافية تعطى لفرنسا الحق واضحاً فى أن تبسط حمايتها على الفرع طالما كانت هى تملك الأصل[2] . كما اعتقدت أنها أحق بهذه الجزر من بريطانيا استناداً إلى أن الملاح الفرنسى لويس دى بوجانفيل Louis de Bougainville كان أسبق من الملاح الإنجليزى كوك James Cook فى زيارة جزر إبريد الجديدة وارتيادها . ورأت أن هذا السبق يخول لها الحق فى ضم هذه الجزر إليها طبقاً لنظرية Res Nullius أى الأرض التى لا صاحب لها[3] . ولذلك كان حاكم كالدونيا الجديدة ويسمى دى لارشيرى de la Richerie ينعى على السلطات البريطانية فى استراليا المحاولات المضادة التى كانت تبذلها فى إبريد الجديدة كى تعرقل الخطط الفرنسية لضمها إليها. واعتنق هذا الرأى أيضاً الأميرال برتزبوير Amiral Pritzbuer الذى خلف دى لارشيرى سنة ١٨٧٣ فى منصبه كحاكم عام لكالدونيا الجديدة وملحقاتها .

ولما ضمت بريطانيا إليها جزر فيجى Les Fidjis فى سنة ١٨٧٤ ازدادت الرغبة فى نفس فرنسا لاحتلال جزر إبريد الجديدة ، وتراءى لها أن مثل هذا العمل يعتبر

---

(١) مضبطة مجلس اللوردات البريطانى جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ الجزء ٣١٤ ص ص ٤٩٦ –٥٠٥ فى Hansard's Parliamentary Debates.

(٢) هناك علم استحدثه علماء السياسة الدولية وأطلقوا عليه اسم السياسة الجغرافية أو علم سياسة أقاليم الأرض Geopolitics وأضافوه إلى مجموعة العلوم السياسية . ويقوم هذا العلم على دراسة عناصر الجوار الجغرافى والملامح الجغرافية المختلفة والمصالح المشتركة بين أجزاء المنطقة الواحدة . ويخرج الباحثون من مثل هذه الدراسات بتقرير نظرية هى : المناطق المتجاورة المتشابهة تشكل مجموعة واحدة بما تضمه من روابط اقتصادية أو ثقافية أو حضارية بحيث تكون السيطرة العامة الدائمة فيها لمصالح الجوار أو المجاورة .

(٣) انظر الملحوظة رقم ١ فى صفحة ٦٧ من هذا البحث .

رداً طبيعيا على الخطوة التى أقدمت عليها بريطانيا فى فيجى . واصطنعت فرنسا سبباً لتبرير ما اعتزمته من احتلال جزر إبريد الجديدة ، فأوعزت إلى المستوطنين الأوربيين فى بعض هذه الجزر ، وبالأخص فى جزيرة تانا Tanna وجزيرة دى فاتيه de Vaté ، بتقديم مذكرة فى فبراير ١٨٧٥ وأخرى فى مايو ١٨٧٦ إلى الحاكم العام فى كالدونيا الجديدة يطالبون فيها بضم جزر إبريد الجديدة جميعها إلى فرنسا بحجة حماية أرواحهم والمحافظة على ممتلكاتهم من اعتداءات السكان الأصليين . وهكذا كانت فرنسا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما تصبو إليه لولا المعارضة القوية العنيفة التى حملت لواءها استراليا وأيدتها فيها بريطانيا الأم تأييداً تاماً .

فقد واجهت فرنسا حركة عنيفة قامت بين المستوطنين البريطانيين فى أستراليا تطالب بضم جزر إبريد الجديدة إلى الممتلكات البريطانية . واشتد ساعد هذه الحركة منذ سنة ١٨٧١ إذ كانت أستراليا تنظر إلى فرنسا على أنها جارة غير مرغوب فيها : لا بسبب اشتداد حدة التنافس الاستعمارى بين فرنسا وبريطانيا فحسب ، ولا بسبب الأهمية الاستراتيجية لجزر إبريد الجديدة بالنسبة لاستراليا وبالنسبة لكالدونيا الجديدة على حد سواء فقط ، ولكن لأن الحكومة الفرنسية كانت قد أصدرت قراراً فى ٢ من سبتمبر ١٨٦٣ باتخاذ كالدونيا الجديدة منفى ومعتقلا تبعث إليه بالمجرمين العتاة الذين تصدر عليهم أحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة [١]. وأعلنت استراليا أنها لا تستطيع أن

---

(١) بعد أن استطاعت حكومة تيير Thiers سحق ثورة الكومون فى باريس سنة ١٨٧١ اعتقلت ثلاثة آلاف فرنسى وأرسلتهم إلى كالدونيا الجديدة . ويطلق على هذه العملية اسم الإبعاد السياسى La déportation politique بينما يطلق على العملية الأخرى اسم الإبعاد الجنائى La déportation pénale وقد أخذ كثير من المبعدين السياسيين . معهم زوجاتهم وأولادهم ، واستخدمتهم السلطات الفرنسية فى كالدونيا الجديدة فى مشروعات التعمير والتنمية الاقتصادية فى المستعمرة ، وأقطعتهم مساحات واسعة من الأراضى أشرفوا على زراعتها واستغلالها وميزتهم عن السكان الأصليين تمييزا صارخا . ولما أصدرت الحكومة الفرنسية قانون ٣ من مارس ١٨٧٩ بالعفو العام عن مرتكبى ثورة الكومون لم تعد الإقامة فى كالدونيا الجديدة إجبارية بالنسبة لهؤلاء المبعدين فيها . وتوسعت الحكومة الفرنسية فى تطبيق هذا القانون فشمل المبعدين السياسيين الذين صدرت بشأنهم قرارات إدارية فى هذا الصدد بعد حوادث ١٨٧١ . ومع ذلك فقد رفض بعض من هؤلاء وأولئك العودة إلى فرنسا وآثروا الإقامة مع عائلاتهم فى المستعمرة .
ومما يذكر أن الحكومة الفرنسية كانت ترسل إلى كالدونيا الجديدة زعماء الجزائر المجاهدين . وقد رفضت أن تطبق عليهم قانون ٣ من مارس ١٨٧٩ ، وطبقت عليهم قواعد الإبعاد الجنائى .

تسمح لفرنسا بتوسيع الرقعة المخصصة للإبعاد الجنائى فى الإقيانوسية، بأن تجعل من إبريد الجديدة أيضاً مستقراً ومقاماً للفائض لديها من حثالة المجرمين الفرنسيين المحترفين(١) .

ويلاحظ أيضاً أن الحكم الفرنسى فى كالدونيا الجديدة قد اقترن باضطرابات داخلية عنيفة نتيجة إسراف السلطات الفرنسية فى فرض المظالم على السكان الأصليين . وكان من مظاهر هذه الاضطرابات الثورة العارمة التى قاموا بها سنة ١٨٧٨(٢) . وكادت تعصف بالحكم الفرنسى فى كالدونيا الجديدة ، إذ فتك الأهالى بالمستوطنين الفرنسيين رجالا ونساء وأطفالا، وخشيت استراليا أن تنتقل عدوى هذه الاضطرابات إلى الممتلكات البريطانية فى الإقيانوسية ، وأن تأخذ مظهر العداء السافر للبيض الأوربيين المنتشرين فى أرجائها. وطالب الرأى العام فى استراليا بأن تحذو استراليا حذو أمريكا . فكما أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أعلنت مبدأ مونرو الذى يقضى بألا تتدخل الدول الأوربية فى الشئون الأمريكية ، فكذلك يجب على استراليا أن تصدر تصريحاً تعلن فيه أنها ضمت إليها كل جزيرة وكل أرخبيل فى المحيط الهادى لم تسيطر عليه إلى ذلك الوقت أية دولة أجنبية . وبذلك تكف فرنسا عن التطلع إلى الاستيلاء على إبريد الجديدة وتنحسر موجة الزحف الأوربى الاستعمارى عن الإقيانوسية .

وقد بلغ من عنف الروح العدائية التى انبثقت من استراليا ضد فرنسا أن خشيت الحكومة الفرنسية أن تسارع استراليا إلى ضم جزر إبريد الجديدة إليها ، وبذلك تضع فرنسا أمام الأمر الواقع . فأرسل الأميرال بوتو L'Amiral Pothuau مذكرة مؤرخة فى ٢٨ من ديسمبر ١٨٧٧ إلى زميله وزير الخارجية الفرنسية اقترح فيها

---

(١) L'Australie ne peut admettre que la France cherche dans les Nouvelles-Hebrides une nouvelle terre de déportation pour y déverser l'excédent de son fumier criminel.

Hanotaux Gabriel : Histoire des Colonies Francaises et de l'Expansion de la France dans le monde 6 vols. Paris 1933. t. VI. p. 485.

(٢) تطلق المراجع الفرنسية على هذه الثورة اسم الثورة الكبرى فى كالدونيا الجديدة La Grande Révolte Canaque . وكان من بين أسبابها إكراه الأهالى على العمل بالمجان فى المزارع الفرنسية فى كالدونيا الجديدة وفى ظروف قاسية وتحت حراسة مسلحة مشددة. كما كان الفرنسيون يطلقون أغنامهم تكلأ فى مزارع الأهالى وتصيب محصولاتهم بالتلف .

الاتصال بالحكومة البريطانية بغية الوصول إلى اتفاق يضمن على الأقل المحافظة على الوضع القائم وقتذاك *statu quo* فى جزر إبريد الجديدة، ثم عزز اقتراحه فى مذكرة أخرى فى هذا المعنى أرسلها إليه فى ٣ من يناير ١٨٧٨ . وفى الواقع كان مما أثار قلق الحكومة الفرنسية المقالات الصاخبة التى امتلأت بها أعمدة الصحف الاسترالية فى شهرى ديسمبر ١٨٧٧ ويناير ١٨٧٨، وكلها تنطوى على دعوة صريحة وسافرة لضم جزر إبريد الجديدة إلى الممتلكات البريطانية. ومن ثم أرسلت الحكومة الفرنسية مذكرة فى فبراير ١٨٧٨ إلى لورد دربى Derby وزير الخارجية البريطانية وجهت فيها نظر الحكومة البريطانية إلى الحملة الصحفية الاسترالية العنيفة، وقالت إنها تعتقد أن هذه المقالات لا تعبر عن رأى الدوائر الرسمية فى بريطانيا، وأنها — أى الحكومة الفرنسية — تسجل على نفسها أنه ليست لديها أهداف استعمارية إزاء هذه الجزر، ولكنها ترغب أن تتلقى تأكيداً مشابها من الحكومة البريطانية بأنها هى الأخرى لا تعتزم احتلال هذه الجزر أو ضمها إلى الممتلكات البريطانية. وقد أحال لورد دربى هذه المذكرة إلى زميله وزير المستعمرات مقترحاً إبلاغ الحكومة الفرنسية أن الحكومة البريطانية لا تروم تقديم اقتراحات إلى البرلمان الإنجليزى تغير حالة الاستقلال التى تتمتع بها جزر إبريد الجديدة. وقد وافق وزير المستعمرات على هذا الاقتراح. وأسفرت الاتصالات الدبلوماسية بين باريس ولندن عن اتفاق الدولتين فى سنة ١٨٧٨ على احترام استقلال جزر إبريد الجديدة والكف عن تدخل أى منهما فى شئون هذه الجزر. ولم يأخذ هذا الاتفاق — من الناحية الشكلية — الصيغة المتعارف عليها للمعاهدة بل هو يندرج تحت النوع الذى يعرف فى القانون الدولى العام باسم الاتفاقات الدولية فى الشكل المبسط كما سبق أن ذكرنا. وكان عبارة عن تبادل مذكرتين إحداهما من الماركيز داركور Marquis d'Harcourt السفير الفرنسى فى لندن إلى لورد دربى وزير الخارجية البريطانية[١]. والأخرى من هذا الوزير إلى ذلك السفير[٢]. وبذلك انتقلت مسألة

---

(١) جاء فى المذكرة الفرنسية :

Le Gouvernement français n'a pas le projet de porter atteinte à l'indépendance des Nouvelles-Hébrides.

(٢) جاء فى المذكرة البريطانية ما يلى :

Le Gouvernement de Sa Majesté britannique ne songeait pas non plus à modifier la situation indépendante où se trouvent actuellement les Nouvelles-Hébrides.

أرخبيل إبريد الجديدة من النطاق المحلى الإقليمى فى الإقيانوسية ، وبدأت منذ سنة ١٨٧٨ تأخذ مظهر مسألة دبلوماسية بين فرنسا وبريطانيا .

والنظرة السطحية العابرة لهذا الاتفاق توحى بأنه جاء مخيباً لآمال فرنسا ، إذ حال بينها وبين ما تشتهيه من ضم أرخبيل إبريد الجديدة إليها ، ولذلك لا يزال إلى الوقت الحاضر بعض المؤرخين الفرنسيين[1] يحملون على هذا الاتفاق حملات شعواء ، وينعون على الحكومة الفرنسية أنها عالجت هذه المسألة الوطنية معالجة عرجاء ، ويصفون تصرفها بعقد هذا الاتفاق بأنه تصرف ينطوى على جبن مفرط جلب الكوارث لفرنسا désastreuse pusillanimité . ويعتقدون أن اتفاق سنة ١٨٧٨ كان الأساس الركين الذى استندت إليه بريطانيا فيما بعد فى إنشاء نظام الحكم الثنائى فى جزر إبريد الجديدة ، وبمقتضاه وقفت بريطانيا على قدم المساواة مع فرنسا فى حكم هذه الجزر .

ولكن الدراسة الموضوعية لا تذهب إلى مثل هذا المدى . فالاتفاق لا يعتبر خسارة لفرنسا على طول الخط ، فكما أنه حال بينها وبين ضم جزر إبريد الجديدة إليها ، فكذلك منع استراليا من الإقدام على مثل هذه الخطوة . إن كل ما يمكن أن نقرره هنا تعليقا على اتفاق سنة ١٨٧٨ أنه يدل على تظاهر مؤقت من الدولتين بعدم رغبتهما فى ضم جزر إبريد الجديدة إلى أى منهما ، وهو فى نفس الوقت تجميد للموقف فى هذه الجزر ، كما أن حدة التنافس الاستعمارى بين الدولتين هى التى أبقت على استقلال إبريد الجديدة إلى حين .

وكان المفروض أن تخبو وشيكا حدة التنافس بين الدولتين على امتلاك جزر إبريد الجديدة نتيجة لعقد اتفاق سنة ١٨٧٨ ، ولكن دأبت كلتا الدولتين على التمكين لنفوذها فى أرجاء هذه الجزر سعيا وراء ضمها إلى ممتلكاتها قبل أن تسبقها إلى هذا الضم منافستها الدولة الأخرى .

---

(١) انظر بحثا بعنوان الباسفيك الفرنسى Le Pacifique Français فى مجموعة Gabriel Hanotaux ouvr. cit., t. VI, pp. 419-493.

فرنسا تنشط فى إرسال بعثات تبشيرية كاثوليكية إلى إبريد الجديدة ، وتعمل على نشر اللغة الفرنسية . وبريطانيا تنشط فى ايفاد بعثات تبشيرية بروتستانتية إليها (١) ، وتسعى لنشر اللغة الإنجليزية .

فرنسا تعمل على زيادة عدد المستوطنين الفرنسيين فيها ، وبريطانيا تعمل على زيادة عدد المستوطنين البريطانيين بها ، وساعد الدولتين على ذلك ان اتفاق سنة ١٨٧٨ لم يتضمن أى نص يحدد عدد المستوطنين الفرنسيين أو البريطانيين فى تلك الجزر .

فرنسا تعمل على إنشاء مزيد من العلاقات الاقتصادية بين إبريد الجديدة وبين كالدونيا الجديدة ، وتشجع المستوطنين الفرنسيين على بناء أو اقتناء السفن لتجوب البحر بين إبريد الجديدة وكالدونيا الجديدة ، والمسافة بينهما لا تزيد عن ٤٠٠ كيلومتر . وبريطانيا تحرض التجار البريطانيين فى سدنى وملبورن على إنشاء علاقات تجارية بين استراليا وإبريد الجديدة ، وتتخذ من هذين البلدين مراكز لمقاومة النفوذ الفرنسى فى إبريد الجديدة .

فرنسا ترسل فى مستهل سنة ١٨٧٩ وفدا عسكريا برياسة الأميرال برجاس L'Amiral Bergasse de Petit Thouars ليزور جزر إبريد الجديدة، وتفسر بريطانيا مهمة هذا الوفد بأنها مهمة استطلاعية للتمهيد لضمها إلى الممتلكات الفرنسية. وسرعان ما ترد عليها بارسال بعثة بريطانية فى نفس العام تجوس خلال الجزر ، وتعود البعثة لتقرر أن بريطانيا تحقق صفقة مربحة إذا ضمت مثل هذه الأراضى الخصبة إليها . ثم تمعن بريطانيا فى سياسة التمكين لنفوذها فى هذه الجزر ، فتعهد إلى الحاكم البريطانى فى جزر فيجى برعاية مصالح المستوطنين البريطانيين فى إبريد الجديدة . وقد أتاح لها هذا القرار عديد الفرص للتدخل فى شئون هذه الجزر

---

(١) قام بإدخال المسيحية فى جزر إبريد الجديدة عن الجانب البريطانى مبشرون من قبل كنيسة اسكتلندا البرسبيتيرية المصلحة The Reformed Presbytérian Church of Scotland

انظر مضبطة مجلس اللوردات البريطانى جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ فى الجزء ٣١٤ ص ص ٤٩٦ - ٥٠٥ فى Hansard's Parliamentary Debates

تحت ستار الرغبة فى المحافظة على حقوق المستوطنين البريطانيين وأرواحهم من اعتداءات الأهلين .

تنافس سافر ، وإخلال باتفاق سنة ١٨٧٨ الذى ينص على احترام استقلال هذه الجزر والامتناع عن التدخل فى شئونها ، ثم تسابق لا يعرف هوادة بين الدولتين للانقضاض على إبريد الجديدة . وتظهر فى غمار هذا التنافس شخصية غريبة تلعب دوراً هاماً وبخاصة فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٨٢ و ١٨٨٥ هى شخصية جون هيجنسون John Higginson وهو رجل ايرلندى المولد ، بريطانى الجنسية ، ولكنه تحول فى سنة ١٨٧٦ عن جنسيته البريطانية الى الجنسية الفرنسية . وكان من رجال الأعمال المبرزين ، يمتلك عدة مؤسسات اقتصادية ومصارف مالية وعدداً وافراً من السفن تجوب بحار هذه المنطقة . وقد وضع نشاطه الاقتصادى وإمكانياته المالية فى خدمة الاستعمار الفرنسى نكاية فى بريطانيا ، وغدا من أشد المستوطنين الفرنسيين تحمسا لضم إبريد الجديدة إلى فرنسا . ويلاحظ أن الحركة الوطنية فى ايرلندا كانت على أشدها فى ذلك الوقت . وتكونت عدة جمعيات علنية وسرية إرهابية فى ايرلندا ، وأنشأت لها فروعا فى اوربا وامريكا ، واستهدف بعضها تقرير الحكم الذاتى لايرلندا ، بينما استهدف البعض الآخر منها قطع كل آصرة تربط ايرلندا ببريطانيا قطعا لا رجعة فيه . وأمعنت بعض الجمعيات السرية فى استخدام العنف ضد الإنجليز ، نذكر منها على سبيل المثال جماعة الإخوان الايرلنديين الجمهوريين ، وكان شعارها : « الديناميت ، لا الكلام ، وسيلة الإقناع » .

وقد أسس هيجنسون ، ومعه نفر من الفرنسيين المتحمسين لفرنسة جزر إيريد الجديدة ، شركة كان مقرها الرئيسى فى المستعمرة الفرنسية الكبرى كالدونيا الجديدة . وكان من اهم أغراضها شراء الأراضى الزراعية فى مختلف جزر إبريد الجديدة ، وأطلقوا على هذه الشركة اسم «الشركة الكالدونية لإبريد الجديدة» La Compagnie Calédonienne des Nouvelles Hébrides . ويبدو أن هيجنسون أراد أن تكون هذه الشركة صورة أخرى من شركة الهند الشرقية التى أسسها نفر من الإنجليز نزلوا فى الهند أول الأمر تجارا ، ثم استولوا على الأراضى الزراعية وأشرفوا على الايرادات ، وانتهى بهم الأمر إلى أن غدوا سادة حكاما فى الهند . وهكذا أراد هيجنسون أن ينهج نهج الإنجليز فى مخططاتهم الاستعمارية .

وقد نجحت الشركة الفرنسية فى عملياتها نجاحاً بعيداً ، إذ استولت على مساحات شاسعة من الأراضى ، سواء كانت فى حوزة المستوطنين البريطانيين ، أو كانت تحت سيطرة رؤساء السكان الأصليين . وفى كل مرة تم فيها التوقيع على عقد البيع مع أحد من هؤلاء الرؤساء المحليين ، كان هيجنسون يرفع العلم الفرنسى ويهتف بأعلى صوته تحيا فرنسا Vive la France . وأخذ هذا الرجل يبنى — كما يقول المثل — طوبة فوق طوبة إبريد الجديدة الفرنسية . ووقعت هذه الجزر من الناحية الواقعية الفعلية فى دائرة النفوذ الفرنسى ، وأصبحت الغالبية العظمى من السكان الأصليين يشعرون أنهم غدوا تحت الحماية الفرنسية ، ولم ينظروا إلى هيجنسون على أنه رجل أعمال فحسب ، بل على أنه ممثل فرنسا فى هذه الجزر .

ترامت إلى انجلترا أنباء هـذا النشاط الفرنسى ، وبدأ أعضاء مجلسى اللوردات والعموم البريطانيين يوجهون الأسئلة تباعاً إلى الحكومة الانجليزية يستفسرون منها عن حقيقة الموقف فى أرخبيل إبريد الجديدة . فوجه سدموث Viscount Sidmouth أحد أعضاء مجلس اللوردات سؤالا بجلسة ٦ من يوليو ١٨٨٣ إلى لورد جرانفل وزير الخارجية عن حقيقة برقية وردت من سدنى باستراليا تقول إن سفينة حربية فرنسية قد ألقت مراسيها تجاه إحـــدى جزر إبريد الجديدة ورفعت العلم الفرنسى عليها [١] . كما وجه سير هنرى درمند ولف Sir Henry Drummond Wolf أحد أعضاء مجلس العموم سؤالا إلى وكيل وزارة الخارجية بجلسة ٩ من يوليو ١٨٨٣ عن حقيقة ما أشيع من أن فرنسا قد ضمت إليها إبريد الجديدة . وقد نفى لورد ادموند فتزموريس Edmond Fitzmaurice هذه الشائعة [٢] .

ولم يقف المستوطنون البريطانيون فى استراليا مكتوفى الأيدى إزاء حركة التوغل السلمى الفرنسى التى حمل لواءها هيجنسون ، فتنادوا إلى ضم إبريد الجديدة إلى ممتلكات التاج البريطانى . وكانت حركة قوية جامحة هادرة . وفزع المستوطنون الفرنسيون إلى الحكومة الفرنسية . وغدت مسألة إبريد الجديدة موضوعاً حساساً

---

(١) مضبطة مجلس اللوردات . جلسة ٦ من يوليو ١٨٨٣ فى الجزء ٢٨١ ص ٥٨٠ فى مجموعة **Hansard's Parliamentary Debates.**

(٢) مضبطة مجلس العموم . جلسة ٩ من يوليو ١٨٨٣ فى الجزء ٢٨١ ص ٧٩٢ فى **Hansard's Parliamentary Debates.**

شائكا بين المستوطنين البريطانيين فى استراليا وبين المستوطنين الفرنسيين فى إبريد الجديدة وكالدونيا الجديدة ، وأصبح الفريقان بمثابة معسكرين متحفزين يرصد كل منهما حركات الآخر . وأرسلت الحكومة الفرنسية مذكرة مؤرخة فى ٧ من يوليو ١٨٨٣ إلى الحكومة البريطانية قالت فيها إن المستوطنين الفرنسيين يتعرضون لألوان شتى من عوامل الاستفزاز من جانب المستوطنين البريطانيين فى استراليا . وإن الحكومة الفرنسية تشعر أن من واجبها أن تتأكد عما إذا كان اتفاق سنة ١٨٧٨ لا يزال يعتبر سارياً فى نظر الحكومة البريطانية كما هو الحال فى نظر الحكومة الفرنسية .

ولما تأخرت الحكومة البريطانية فى الرد على هذه المذكرة أرسل شالاميل لاكور Challemel —Lacour وزير خارجية فرنسا مذكرة مؤرخة فى ٢٧ من يوليو ١٨٨٣ إلى وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن أشار فيها إلى أن حالة التوتر الشديد لا تزال تسود العلاقات بين المستوطنين الفرنسيين فى إبريد الجديدة وبين المستوطنين البريطانيين فى استراليا ، وقرر أنه يعلق قيمة حقيقية إذا ما ثبت بوضوح أن الحكومة البريطانية — مثلها مثل الحكومة الفرنسية — لا تنوى أن تتخلى عن التحفظ الذى التزمت به طبقاً لاتفاق سنة ١٨٧٨ ، ثم حثه على موالاة السعى لدى الحكومة البريطانية حتى تبعث برد على المذكرة الفرنسية تؤكد احترامها لاستقلال إبريد الجديدة[١] . وفى ٣١ من اغسطس ١٨٨٣ أبلغ السفير البريطانى بالنيابة فى باريس وزارة الخارجية الفرنسية أن الحكومة البريطانية تعتبر اتفاق سنة ١٨٧٨ لا يزال سارياً . وهكذا تأكد هذا الاتفاق مرة اخرى فى سنة ١٨٨٣ وسجلت الحكومتان احترامهما لاستقلال إبريد الجديدة .

ولكن لم يؤد هذا التأكيد الفرنسى البريطانى بنفاذ اتفاق ١٨٧٨ إلى التخفيف من حدة التنافس بين الدولتين حول إبريد الجديدة ، إذ عقدت الممتلكات البريطانية فى استراليشيا مؤتمراً اجتمع فى سدنى فى ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، واتخذت عدة قرارات استهدفت فى مجموعها وقف الزحف الأوربى الاستعمارى نحو الإقيانوسية . ونذكر

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Serie. t. V. doc. no. 67

منها القرار الأول ، وقد نص على أن حصول أية دولة أجنبية على مزيد من الممتلكات في المحيط الهادى جنوبى خط الاستواء أمر ينطوى على الإضرار البليغ بأمن ورفاهية الممتلكات البريطانية فى استراليشيا وبمصالح الامبراطورية البريطانية[1]. وكان المعنى الواضح لهذا القرار هو اعتبار استراليشيا منطقة بريطانية مغلقة فى وجه جميع الدول الأجنبية التى ترنو ببصرها نحو توسع استعمارى جديد . ولكن دراسة الموقف السياسى فى المنطقة الجنوبية الغربية من الإقيانوسية تدل على أن المستوطنين البريطانيين قد وضعوا نصب أعينهم ، وهم يصدرون هذا القرار ، قطع الطريق أمام فرنسا حتى لا تضم جزر إبريد الجديدة إليها ، فقد اجتمع مؤتمر سدنى والتنافس قد بلغ الذروة من الحدة بين المستوطنين الفرنسيين والمستوطنين البريطانيين حول إبريد الجديدة .

وما لبث أن استكتب المستوطنون البريطانيون فى سنة ١٨٨٤ بعض رؤساء الأهالى فى جزيرة تانا Tanna — وهى إحدى جزر إبريد الجديدة — التماساً إلى ملكة انجلترا وامبراطورة الهند قرروا فيه معارضتهم الرغبة البادية من فرنسا فى ضم إبريد الجديدة إليها ، وقالوا إنه إذا كان لابد من ضم هذه الجزر إلى دولة متحضرة فانهم يفضلون ضم بلادهم إلى المستعمرات الاسترالية[2]. وقد أرسل نائب حاكم ولاية فيكتوريا باستراليا هذا الالتماس فى شهر يونيو ١٨٨٤ إلى لندن وتولى لورد دربى وزير المستعمرات[3] عرضه على الملكة فيكتوريا ، ولكنه لم يستطع أن ينصح الملكة باتخاذ أى إجراء إيجابى فى هذا الصدد ، إذ كانت الحكومة البريطانية ترى أنها مقيدة باتفاق سنة ١٨٧٨ ، كما أن دوائر لندن الرسمية كانت فى ذلك الوقت تستبعد قيام الحكومة الفرنسية بالاستيلاء عنوة على إبريد الجديدة .

---

(١) « That further acquisition of dominion in the Pacific south of the Equator, by any Foreign Powers would be highly detrimental to the safety and well-being of the British possessions in Australasia, and injurious to the interests of the Empire ».

(٢) مضبطة مجلس العموم البريطانى . جلسة ١٧ من مايو ١٨٨٧ . الجزء ٣١٥ ص ص ٢٤٧-٢٤٨ فى Hansard's Parliamentary Debates .

(٣) كان وزير المستعمرات فى وزارة جلادستون الثانية — وقد ظلت فى الحكم من إبريل ١٨٨٠ حتى يونيو ١٨٨٥ — هو لورد كمبرلى Kimberley . وفى ديسمبر ١٨٨٢ حدث تعديل وزارى واسع النطاق تضمن فيما تضمن تعيين لورد دربى وزيرا للمستعمرات خلفا للورد كمبرلى الذى عين وزيرا للهند .

رأت فرنسا أن تلجأ إلى الطريق الدبلوماسى لضم إبريد الجديدة إليها : وذلك بأن تسعى لدى الدول الأوربية الكبرى للحصول على موافقتها على هذا الضم قبل أن تقدم عليه رسمياً . واعتقدت أن الظروف مهيأة أمامها للقيام بهذه المساعى . فقد كان هناك تقارب بينها وبين ألمانيا فى ذلك الوقت ، وقوى هـذا التقارب فى سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ بوجه خاص[1] . وكان بسمارك مخلصاً فى رغبته التى أعلن عنها وهى ترك فرنسا تمارس نشاطا استعمارياً خارج أوربا . وكان من رأيه أن يكف الفرنسيون عن التفكير فى استرجاع الألزاس واللورين ، وأن ينسوا سيدان Sédan كما نسوا من قبل واترلو Waterloo ، وصرح بأنه على استعداد لتأييدهم فى أى اتجاه استعمارى ممكن أن يزحفوا إليه ما عدا اتجاه الراين[2] وذهب المستشار الألمانى إلى حد أنه اقترح فى ٢٤ من أبريل ١٨٨٤ أن يعقد مع فرنسا حلفاً بحرياً لحفظ التوازن البحرى ضد بريطانيا[3] ، وكان ذلك على عهد وزارة جول فرى . ولـما سقطت وزارته فى ٣١ من مارس ١٨٨٥ جـدد بسمارك اقتراحه على دى فريسينيه de Freycinet وزير

---

(١) Taylor A. J. P. : The struggle for Mastery in Europe 1848-1918. Oxford 1954 p. 292

(٢) كان ما صرح به بسمارك فى حديث ضاف دار فى ٢٧ من نوفمبر ١٨٨٤ بينه وبين دى كورسيل de Courcel السفير الفرنسى فى برلين قول بسمارك .

« ... Depuis quatorze ans, dès le lendemain de la conclusion de la paix, je n'ai pas poursuivi d'autre but à l'égard de la France que de chercher à lui faire oublier les conséquences d'une guerre qui avait eu pour elle une issue funeste. A quoi pourraient tendre de mauvais projets de notre part à l'égard de la France? Nous n'avons déjà que trop de territoires francais ; ce n'est pas notre intérêt d'y rien ajouter. C'est notre intérêt au contraire que la France se détourne des souvenirs pénibles. Mon soin constant à partir de 1871 a été de me conduire de telle sorte que je pusse l'amener à pardonner Sedan comme elle en est arriveé aprés 1815 â pardonner Waterloo. Je désire pour cela qu'elle obtienne des satisfactions dans toutes les directions possibles, excepté dans ladirection du Rhin. »

وقد أبرق دى كورسيل السفير الفرنسى فى برلين بهذا الحديث الضافى إلى جول فرى وزير الخارجية الفرنسية فى ثلاث برقيات مسهبة فى ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من نوفمبر ١٨٨٤ ، والنص الفرنسى المذكور فى الهامش مستخرج من الوثيقة رقم ٤٧١ المؤرخة فى ٢٩ من نوفمبر ١٨٨٤

انظر Doc. Dipl. Fr. lère Série (1871-1900). t V docs. nos. 468, 469 et 471

(٣) Doc. Dipl. Fr. lère Série tome V. doc. no. 249.

M. de Courcel. Ambassadeur de France à Berlin, à M. Jules Ferry. Ministre des Affaires Etrangères. Berlin, 25 Avril 1884.

الخارجية الفرنسية فى وزارة بريسو Brisson [1]. وقال المستشار الألمانى « إنى لا أريد أن أخوض حربا ضد بريطانيا العظمى . ولكن يجب — لكى تعمل حسابا لمصالح الآخرين — أن تعتنق الفكرة القائلة بأن عقد محالفة بين فرنسا وألمانيا ليس أمراً مستحيلا [2] » وأبدى بسمارك تذمره من المتاعب التى تثيرها بريطانيا فى وجه المستوطنين الألمان فى جزر فيجى[3]. وقد وقفت فرنسا موقفاً ودياً للغاية من ألمانيا حين أعلنت الأخيرة بسط حمايتها على الجزء الشمالى من غينيه الجديدة الواقع إلى شرق الحدود الهولندية فى هذه الجزيرة تأسيساً على أن جماعة من المستوطنين الألمان قد نزحوا إلى هذه المنطقة وأقاموا فيها عدداً من المصانع . ولم تثر فرنسا أى اعتراض على هذا الإجراء عند ما أبلغته الحكومة الألمانية رسمياً إلى وزارة الخارجية الفرنسية فى ٢٦ من ديسمبر ١٨٨٤[4] . بينما نازعت الحكومة البريطانية ألمانيا هذا الإجراء ، واستمر النزاع قائماً بينهما حول هذه المسألة من يناير إلى مارس ١٨٨٥ [5]. وقد نقل الأمير هوهنلو le prince de Hohenlohe السفير الألمانى فى باريس إلى دى فريسينيه وزير خارجية فرنسا رغبة الحكومة الألمانية فى أن تسير على وفاق مع الحكومة الفرنسية فيما يختص بمصالحهما فى الإقيانوسية وفى الساحل الغربى لإفريقيا [6] . وفعلا لم ينته عام ١٨٨٥ الا وكانت الدولتان قد وقعتا بروتوكولا فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٥ سويت بمقتضاه المسائل الخاصة بالساحل الغربى لإفريقيا وبمجموعة من الجزر تسمى جزر تحت الريح Iles sous le Vent تقع الى شمال غرب تاهيتى فى الإقيانوسية [7] . كما أحاطت

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI., doc. no. 23. M. de Courcel à M. de Freycinet. Ministre des Affaires Etrangères. Berlin, 10 Mai 1885.

(٢) Bourgeois Emile, Manuel Historique de Politique Etrangère 4 vols. Paris. 1926. t. IV. La Politique Mondiale (1878—1914). Empires et Nations. p. 196

(٣) Doc. Dipl. Fr. t, V. doc. no. 249.

(٤) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. V., doc. no. 505. Note pour l'Ambassade d'Allemagne. Paris, 30 décembre 1884.

(٥) Taylor, ouvr. cit., p. 297

وانظر أيضا Doc. Dipl. Fr. 1ére Série t. V. doc. no. 619.

(٦) Doc. Dipl. Fr. 1ère Sérié t. VI. doc. no. 18 M. de Freycinet. Ministre des Aff. Etr. à M. de Courcel, Ambassadeur de France à Berlin. Paris, 30 avril, 1885.

(٧) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI. docs. nos. : 124, 150, 179 et 228. Voir aussi. Bourgeois Emile, ouvr. cit., pp. 197-198.

فرنسا الحكومة الالمانية علما بالمساعى التى تبذلها لدى انجلترا للحصول على موافقتها على ضم إبريد الجديدة إليها . أما المانيا فقد وافقت على هذا الضم ووعدت بعدم إثارة اعتراض عليه .

أما فيما يختص بالمساعى التى بذلتها الحكومة الفرنسية لدى الحكومة البريطانية للحصول على موافقتها على ضم إبريد الجديدة إليها ، فقد انتهزت فرصة انعقاد مؤتمر برلين الأفريقى الذى اجتمع فى الفترة من ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ إلى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ وأجرت اتصالات فى هذا الصدد مع الوكيل المساعد لوزارة المستعمرات البريطانية وأحد أعضاء الوفد البريطانى فى هـذا المؤتمر وكان يسمى ميد Meade . ودارت المحادثات على أساس أن المصالح البريطانية والفرنسية متشابكة فى أصقاع عديدة من انحاء العالم ، وأنه من الممكن أن توافق بريطانيا على أن تضم فرنسا أرخبيل إبريد الجديدة إليها فى مقابل استرضاء بريطانيا فى جهات أخرى . ووافق ميد على هـــذا الاقتراح من حيث المبدأ .

ولكن لم يكد يمر أسبوع واحد على انفضاض مؤتمر برلين الأفريقى حتى أعلن جلادستون رئيس الوزارة البريطانية فى مجلس العموم البريطانى بجلسة ٥ من مارس ١٨٨٥ — رداً على سؤال وجهه إليه جورست Gorst عن تصرف ميد Meade — أن الحكومة البريطانية لا تزال تعتبر اتفاق ١٨٧٨ نافذ المفعول وملزما لكل من بريطانيا وفرنسا باحترام استقلال إبريد الجديدة . ولكنه استطرد فى تصريحه استطراداً عصف بهذا الالتزام الذى كان يتكلم عنه منذ لحظات ، إذ قال إذا كان هناك اقتراح بأن تضم فرنسا إبريد الجديدة إليها ، فلا بد أن يكون هذا الضم مقروناً بشروط تراعى فيها مصالح المستعمرات الاسترالية ! ! ![1] .

وقد فتح هذا التصريح الباب لاتصالات دبلوماسية بين باريس ولندن حول ضم إبريد الجديدة إلى فرنسا . وقد عرضت الحكومة الفرنسية أن توقف عمليات الإبعاد الجنائى إلى الإقيانوسية ، ورأت الحكومة البريطانية أن هذا الاقتراح جدير بالبحث ، لأنه سيضع حداً لمسألة إرسال المجرمين والأشقياء الفرنسيين إلى الباسفيكى . ولكنها علقت قبولها هذا الاقتراح على عدة شروط ، منها : كفالة الحرية الدينية فى جزر إبريد الجديدة

(١) مضبطة مجلس العموم البريطانى جلسة ٥ من مارس ١٨٨٥ . الجزء ٢٩٥ ص ١٢٥ فى
Hansard's Parliamentary Debates.

بحيث لا يتعرض المبشرون البروتستانت لمضايقات المبشرين الكاثوليك ، وتقرير حرية التجارة فى هذه الجزر بحيث لا ينفرد المستوطنون الفرنسيون باحتكار التجارة فيها ، وأن تتنازل فرنسا لبريطانيا عن جزيرة رابا Rapa[1]، وأن توافق المستعمرات الاسترالية على ضم إبريد الجديدة إلى فرنسا[2] .

واستطالت الاتصالات الدبلوماسية بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية ، وتلكأت لندن فى الرد على باريس ، وتذرعت بضرورة إجراء مشاورات تستغرق وقتاً طويلا مع حكومات الولايات المختلفة فى استراليا ومع باقى المستعمرات البريطانية فى الإقيانوسية . وفى الواقع كان الشرط الأخير هو الصخرة التى تحطم عليها الاقتراح الفرنسى بضم إبريد الجديدة ، إذ رفضت المستعمرات البريطانية فى الإقيانوسية هذا الاقتراح جملة وتفصيلا ، وأعلنت ضرورة استمرار اتفاق سنة ١٨٧٨ نافذ المفعول . وأخطر وزير الخارجية البريطانية الحكومة الفرنسية برفض الاقتراح الفرنسى . وعلى ذلك لم يبق أمام فرنسا إلا أن تقوم باتخاذ الإجراء العسكرى وهو احتلال إبريد الجديدة لتحقيق رغبة قوية جياشة ظلت تراودها سنوات طوالا . وكان هيجنسون زعيم حركة التغلغل السلمى فى هذه الجزر قد كتب فى سنة ١٨٨٦ يقول ، بعد أن نجح فى التمهيد للاحتلال العسكرى الفرنسى ، إنه ليس فى وسع أية حكومة فرنسية مهما كانت من الضعف إلا أن تضم جزر إبريد الجديدة إليها وترفع عليها أعلامها[3] .

والحق كان هناك شعور عام يسود بريطانيا بأن فرنسا لا محالة مقدمة على احتلال إبريد الجديدة . ويتمثل هذا الشعور العام فى الأسئلة التى استؤنف توجيهها فى البرلمان إلى الوزارة البريطانية قبيل بدء الاحتلال الفرنسى ، فقد وجه لورد هاروبای Harrowby العضو بمجلس اللوردات سؤالا فى ٢٦ من مارس ١٨٨٦ إلى لورد جرانفل

---

(١) رابا Rapa جزيرة فرنسية فى الإقيانوسية تقع بين خطى عرض ٢٠ ، ٣٠ جنوب خط الاستواء وخطى طول ١٤٠ ، ١٥٠ شرقا .

(٢) بيان ألقاه أوزبرن مورجان Osborne Morgan وكيل وزارة المستعمرات فى مجلس العموم بجلسة ١٤ من مايو ١٨٨٦. انظر مضبطة هذه الجلسة فى الجزء ٣٠٥ صص ١٠٤٢ — ١٠٤٣ فى Hansard's Parliamentary Debates.

(٣) Hanotaux G. : Histoire des Colonies Francaises et de l'Expansion de la France dans le monde t. VI., p. 486.

وزير المستعمرات[١] . قال فيه إن هناك قلقاً وتخوفاً يتزايدان فى استراليا وانجلترا بشأن اعتزام فرنسا احتلال جزر إبريد الجديدة . وقال إن مستقبل هذه الجزر أمر بالغ الأهمية بالنسبة لاستراليا ونيوزيلندا ، وطالب الحكومة بأن تولى هذا الموضوع مزيداً من عنايتها[٢] . كما وجه أحد أعضاء مجلس العموم ، وهو هوارد فنسنت Howard Vincent ، سؤالا فى جلسة ١٣ من مايو ١٨٨٦ إلى جلادستون رئيس الوزارة طلب فيه أن ترسل الحكومة البريطانية إلى حكومات الدول الأوربية صورة من القرار الأول الذى أصدره مؤتمر سدنى فى سنة ١٨٨٣ ، والذى سبق أن أشرنا إليه ، باعتبار الإقيانوسية جنوبى خط الاستواء منطقة مغلقة بحيث يحرم فيها على أية دولة امتلاك مزيد من المستعمرات . وقد أجاب رئيس الوزارة بأن هذا القرار ليست له من الناحية القانونية قوة إلزامية فى مواجهة الدول الأخرى ، وأنه لا يعدو أن يكون مجرد تعبير عن رأى بواسطة دولة كبرى[٣] .

ولتبرير ما اعتزمت الإقدام عليه انتحلت الحكومة الفرنسية العذر التقليدى ، وهو أن بعضاً من السكان الأصليين فى جزر إبريد الجديدة قد قتلوا عدداً من المستوطنين الفرنسيين ، ومن ثم صدرت الأوامر الى بعض قطع من السلاح البحرى الفرنسى فى الإقيانوسية باحتلال هذه الجزر لحماية أرواح وممتلكات المستوطنين الفرنسيين . وتحركت بعض الوحدات البحرية من نومى Noumea ، وهى ميناء كالدونيا الجديدة الرئيسى وعاصمتها فى نفس الوقت[٤] . فبلغت فى شهر يونيو ١٨٨٦ ميناء هافانا Havannah[٥] حيث أنزلت قوات برية ورفعت العلم الفرنسى ، وتوالى قدوم

---

(١) كان لورد جرانفل وزيرا المستعمرات فى وزارة جلادستون الثالثة بينما أسند منصب وزير الخارجية فى هذه الوزارة إلى لورد روزبرى .

(٢) مضبطة مجلس اللوردات . جلسة ٢٦ من مارس ١٨٨٦ الجزء ٣٠٤ ص ص ١١ — ١٢ فى Hansard's Parliamentary Debates.

(٣) مضبطة مجلس العموم . جلسة ١٣ من مايو ١٨٨٦ الجزء ٣٠٥ ص ص ٩٠٩ — ٩١٠ فى Hansard's Parliamentary Debates.

(٤) تقع فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى لهذه المستعمرة الفرنسية .

(٥) هافانا Havannah هو أحد ثغرين هامين فى جزيرة ساندوتش من جزر أبريد الجديدة . وهافانا تتشابه فى الاسم مع هافان Havane عاصمة كوبا . كما أن جزيرة ساندوتش تشترك فى الاسم مع جزر ساندوتش أو هاواى Iles Hawai فى الإقيانوسية والجزر الأخيرة تتبع سياسيا الولايات المتحدة الأمريكية . هذا ويطلق أحيانا اسم فاتيه Vaté على جزيرة ساندوتش فى ابريد الجديدة . أما الثغر الهام الآخر فى جزيرة ساندوتش فى ابريد الجديدة فهو بورت فيلا Port Vila . وأهم مدينة فى هذه الجزيرة هى فرانسفيل أو مدينة فرنسا Franceville .

القوات الفرنسية إلى أنحاء الأرخبيل وأنشأت لها مراكز ومحطات حربية، كما أقامت عددا من الأكشاك الخشبية الكبرى لإقامة القوات المسلحة .

أبرقت وزارة الخارجية البريطانية فى ١٠ من يونيو ١٨٨٦ الى لورد ليونز السفير البريطانى فى باريس تطلب إليه أن يوجه نظر الحكومة الفرنسية إلى أن أنباء الاحتلال الفرنسى لجزر إبريد الجديدة قد أثارت موجة من السخط العميق والقلق البالغ فى انجلترا واستراليشيا على السواء . ومضت وزارة الخارجية تقول فى برقيتها إن الحكومة البريطانية لا يخامرها أدنى شك فى أن الحكومة الفرنسية ستنفذ بكل اخلاص الاتفاق الثنائى المبرم بينها وبين الحكومة البريطانية فى سنة ١٨٧٨ ، والذى تأكد فى سنة ١٨٨٣ بشأن احترام استقلال إبريد الجديدة [١] .

وقد خف لورد ليونز السفير البريطانى فى باريس لمقابلة دى فريسينيه وزير الخارجية الفرنسية فى ١٠ من يونيو ١٨٨٦ . وحاول الوزير أن يقلل من شأن الإجراء العسكرى الذى أقدمت عليه فرنسا من ناحية، وأن يلتمس تبريرا له من ناحية أخرى . فقال إن شركة فرنسية كانت قد أرسلت عدداً من الفرنسيين للعمل فى جزر إبريد الجديدة، ولكن تعرضت حياتهم للأخطار، إذ قتل الأهالى هناك عدداً من هؤلاء الفرنسيين، وطلب الباقون الذين كتبت لهم النجاة أن تعمل الشركة على حمايتهم من بطش الأهالى أو تعمل على إعادتهم فوراً . وقد أحالت الشركة الفرنسية الموضوع إلى حاكم كالدونيا الجديدة، فأرسل سفينتين تحملان قوات عسكرية إلى الأماكن التى يخشى فيها الفرنسيون على أرواحهم . وأضاف وزير الخارجية إلى ذلك أنه من المحتمل أن تكون القوات الفرنسية قد أقامت لها قاعدة أو محطة عسكرية فى إحدى جزر إبريد الجديدة ليقيم فيها أفراد القوة العسكرية ريثما يعود الأمن والنظام إلى هذه الأماكن، وأكد وزير الخارجية للسفير البريطانى أن هذا الإجراء الذى اتخذه حاكم كالدونيا الجديدة قد استهدف منه المحافظة على أرواح الرعايا الفرنسيين، فهو إجراء بعيد كل البعد عن أن تكون له أهداف سياسية أو استعمارية، وأن فرنسا لا تفكر فى احتلال إبريد الجديدة، بل لا تزال تعتبر نفسها مرتبطة باتفاق

---

(١) مضبطة مجلس العموم البريطانى . جلسة ١٠ من يونيو ١٨٨٦ . الجزء ٣٠٦ ص ص ١٣٠٠– ١٣٠١ فى Hansard's Parliamentary Debates

سنة ١٨٧٨ وأنها تحترم استقلال هذه الجزر . وفى ١٤ من يونيو ١٨٨٦ تمت مقابلة أخرى بين وزير الخارجية الفرنسية وبين السفير البريطانى فى باريس ، وقد شرح له السفير القلق العميق الذى يسود انجلترا واستراليشيا بسبب وجود القوات الفرنسية فى جزر إبريد الجديدة ، وأعاد وزير الخارجية تأكيداته بأن الحكومة الفرنسية لاتعتزم احتلال هذه الجزر ، وليست لديها خطط تمس وضعها السياسى .

ولكن استمر الاحتلال الفرنسى يبسط لواءه على جزر إبريد الجديدة، وقدم القائم بأعمال القنصل البريطانى فى كالدونيا الجديدة احتجاجا لحاكمها العام على هذا الاحتلال وعلى رفع العلم الفرنسى فى هذه الجزر . واستمرت الاتصالات الدبلوماسية قائمة بين لندن وباريس طالبت فيها الحكومة البريطانية بجلاء القوات الفرنسية فوراً عن إبريد الجديدة . واستندت فى هذا الطلب الى ثلاثة أسباب .

(أولا) إن الاحتلال الفرنسى لإبريد الجديدة يعتبر نقضاً صريحاً لاتفاق ١٨٧٨ الذى يقضى باحترام استقلال جزر إبريد الجديدة . وإن هذا الاحتلال يعصف بقدسية المعاهدات [1] ويزعزع الثقة فى قيمتها وهو أمر يؤدى الى عدم استقرار العلاقات الدولية .

(ثانياً) إن احتلال فرنسا لإبريد الجديدة يشكل خطراً على المصالح البريطانية فى الإقيانوسية .

(ثالثاً) إن هذا الاحتلال ينطوى على مساس بمستقبل وحقوق السكان الأصليين فى إبريد الجديدة .

---

(١) هناك قاعدة أساسية فى القانون الدولى العام تقرر قدسية الاتفاقات بين الدول Pacta sunt servanda فلا يجوز لدولة أن تتحلل بإرادتها المنفردة من المعاهدات أو الاتفاقات التى ترتبط بها . ويتفرع على هذه القاعدة الأساسية أن أحكام المعاهده تظل نافذة ملزمة للدول الأطراف فيها إلى أن تنقضى بإحدى طرق انقضاء المعاهدات . غير أن الدول الأطراف فى معاهدة قد تلجأ إلى بعض الدفوع لتتحلل بصفة مؤقتة من تنفيذ التزامات المعاهدة . وأهم هذه الفروع ثلاثة هى القوة القاهرة ، وحق الدفاع الشرعى ، وحق الضرورة . ولكن ليس من شأن هذه الدفوع أن تقضى على المعاهدة أو تبطلها ، وإنما يقتصر أثرها على وقف التنفيذ بصفة مؤقتة .

انظر دكتور حامد سلطان : القانون الدولى العام فى وقت السلم . طبعة يناير ١٩٦٢ ص ص ٢٣٠-٢٣٢

وردت الحكومة الفرنسية بأن احتلالها لإبريد الجديدة إنما هو إجراء مؤقت أملته حوادث الإعتداء التى راح ضحيتها عدد من المستوطنين الفرنسيين من جانب السكان الأصليين . وأن الحكومة الفرنسية تحترم مبدأ قدسية المعاهدات ، ولكنها لجأت إلى حق الدفاع الشرعى légitime défense وحق الضرورة droit de nécessité وليس فى نيتها أن تتحلل من التزامات اتفاق ١٨٧٨ . وقررت أن القوات الفرنسية ستجلو بمجرد أن يعود الأمن والنظام إلى إبريد الجديدة . ويلاحظ أن الحكومة البريطانية سبق أن رددت مثل هذه الأعذار الواهية عند بدء الاحتلال البريطانى لمصر فقد وصفت إصرارها على أن يضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية فى صيف ١٨٨٢ بأنه عمل شرعى ودفاعى فى نفس الوقت[1] بمقولة إن المصريين كانوا يرممون قلاع المدينة، وإن هذا العمل موجه ضد سفن الأسطول البريطانى الراسية وقتئذ فى الميناء ، كما كانت تصرح بأنها ستجلو عن مصر حين يعود الأمن والنظام إليها . مما يدل على أن الاستعمار هو الاستعمار أياً كان لونه وأياً كان مكانه .

وإذا كانت فرنسا قد احتلت إبريد الجديدة فان هذا الاحتلال لم يكن رداً على احتلال بريطانيا لمصر . فهذا تفسير لا ينبغى . إن الاحتلال الفرنسى لإبريد الجديدة كان امراً متوقعاً : ففضلا عن الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لهذه الجزر بالنسبة لكالدونيا الجديدة ، فان فرنسا كانت تخشى أن تسبقها بريطانيا إلى احتلال أرخبيل إبريد الجديدة ، فرأت أن التسلط على هذه الجزر أمر ضرورى حتى لا تقع فى يد بريطانيا . وكان هذا الاحتلال رداً طبيعياً على قيام بريطانيا بضم جزر فيجى إليها . وكانت فرنسا تعتقد أن نصيبها فى امتلاك المستعمرات فى الإقيانوسية الجنوبية نصيب ضئيل إذا قيس بالممتلكات البريطانية فيها . وإذا كان التوازن فى امتلاك المستعمرات وفى بسط النفوذ بين بريطانيا وفرنسا كان مكفولا فى القارة الإفريقية، فان هذا التوازن يتضاءل إلى حد بعيد للغاية فى الإقيانوسية . وعلى ذلك فان القسمة بين هاتين الدولتين الاستعماريتين كانت فى نظر إحداها — وهى فرنسا — قسمة ضيزى

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٧ لسنة ١٨٨٢

وثيقة رقم ١٤٦ من جرانفل إلى ليونز ومؤرخة فى ٦ من يوليو ١٨٨٢

What we are doing seemed to me an act of legitimate and indeed, necessary self-defence.

جائرة . يضاف إلى ذلك عامل هام آخر هو دخول ألمانيا فى الإقيانوسية كدولة استعمارية فى الثمانينات من القرن التاسع عشر .

وفى نفس الوقت توالت الأنباء التى كانت تذيعها وكالة رويتر بأن الحكومة الفرنسية ماضية فى تعزيز قواتها التى تحتل إبريد الجديدة ، وأنها شرعت فى إقامة حصون جديدة وبناء ثكنات إضافية فى بعض موانى هذه الجزر[1] .

وتعرضت الحكومة البريطانية لفيض من الأسئلة من أعضاء مجلسى اللوردات والعموم يستفسرون منها عما هى فاعلة إزاء الاحتلال الفرنسى لإبريد الجديدة ، ويطلبون إليها أن تولى هذه المسألة مزيداً من عنايتها . وبدراسة مضابط جلسات المجلسين التى أثير فيها هذا الموضوع نستطيع أن نتبين الاتجاهات العامة للأعضاء . والحقيقة الأولى التى نستخلصها هى أن مناقشات المجلسين ارتفعت إلى المستوى القومى[2] ، فلم تأخذ الطابع الحزبى العنيف ولم يستغلها أعضاء المعارضة وسيلة للنيل من الوزارة القائمة فى الحكم ، سواء كانت وزارة الأحرار التى تولت الحكم فى فبراير ١٨٨٦ ، أو وزارة المحافظين التى جاءت فى أعقابها فى أغسطس ١٨٨٦[3].

وقد حمل الأعضاء حملة عنيفة على سياسة فرنسا فى جزر إبريد الجديدة وقالوا إنه إذا كانت قد وقعت حوادث اعتداء على المستوطنين الفرنسيين فى هذه الجزر ، فان

---

(١) مضبطة مجلس العموم . جلسة ٢٢ من فبراير ١٨٨٧ الجزء ٣١١ ص ص ٢٩٨ — ٢٩٩
Hansard's Parliamentary Debates.

(٢) انظر على سبيل المثال ما دار فى مجلس اللوردات بجلسة ١٢ من أغسطس ١٨٨٧ حين طلب لورد روزبرى وزير الخارجية السابق فى وزارة جلادستون الثالثة — وكان يجلس هو وأعضاء حزب الأحرار فى كراسى المعارضة — فتح باب المناقشة فى مسألة ابريد الجديدة . وقد عارض لورد سالسبورى رئيس الوزارة ووزير الخارجية هذا الطلب ، وطلب سحبه على أساس أن مناقشة هذا الموضوع قد تثير جوا غير مناسب بين باريس ولندن . فاستجاب روزبرى لهذه الرغبة وعلق عليها قائلا إنه لم يدر بخلده أن يسبب ارتباكات للوزارة البريطانية ، وإنما كان هدفه الوحيد هو شد أزر الحكومة البريطانية وهى تعالج مسألة خطيرة ، وقال إنه يسره أن يسمع أن المفاوضات بين الحكومتين البريطانية والفرنسية قد بلغت مرحلة تجعل هذه المناقشة أمرا غير ذى موضوع .

انظر مضبطة مجلس اللوردات . جلسة ١٢ من أغسطس ١٨٨٧ الجزء ٣١٩ ص ص ٢١٨ — ٢١٩ف
Hansard's Parliamentary Debates.

(٣) هذه هى وزارة لورد سالسبورى الثانية وقد ظلت فى الحكم حتى أغسطس ١٨٩٢ وخلفتها وزارة جلادستون الرابعة .

تبعة هذه الحوادث إنما تقع على السياسة الفرنسية الغاشمة دون سواها ، لأنها تمارس ألواناً شتى من الظلم والتعسف والضغط على السكان الأصليين لإكراههم على العمل فى تنفيذ المشروعات الفرنسية . وكانت نتيجة ذلك أن فاضت مشاعر السكان الأصليين بالكراهية نحوهم . وحاول الأعضاء أن يرسموا صورة وضيئة للاستعمار البريطانى ، فوصفوا شعور الأهالى فى هذه الجزر نحو البريطانيين بأنه شعور طيب ودى للغاية حتى أنه فى استطاعة الرجل البريطانى أن يتجول بدون سلاح فى أية جزيرة من جزر إبريد الجديدة دون أن يخشى على حياته شيئاً ، وهو أمر لا يحدث للأوربيين من الجنسيات الأخرى ، وأشادوا بجهود المستوطنين البريطانيين فى تعمير هذه الجزر، وذهبوا إلى أن إدخال الحضارة فى إبريد الجديدة يعتبر قصة فخار لبريطانيا ، وأفاضوا فى هذه الناحية إفاضة خرجت بهم عن جادة الحق والصواب[1] .

واهتم الأعضاء بابراز الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لجزر إبريد الجديدة ووفرة مواردها ، والتقارب الذى حدث بين فرنسا وألمانيا ، وتقدير هاتين الدولتين لهذه الجزر، وأوضحوا أهداف فرنسا من احتلالها لها . وأبدوا قلقهم من مشروعات التوسع الفرنسى الاستعمارى فى الإقيانوسية بوجه عام[2] ، وقالوا إن زحمة الأحداث

---

(١) من ذلك قول لورد هاروباى Harrowby العضو بمجلس اللوردات فى جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ أن الكابتن كوك هو الذى استكشف هذه الجزر وتناسى من سبقه من الرحالة الأسبانيين ثم الفرنسيين . وقوله أيضا إن اللغة الانجليزية هى اللغة الأوربية الوحيدة المعروفة فى هذه الجزر ، وتناسى حركة التغلغل السلمى الفرنسى la pénétration pacifique فى إبريد الجديدة والتى كان هيجنسون رائدها وما صحب هـذه الحركة من انشاء مدارس ومستشفيات وبعثات تبشيرية كاثوليكية . ويلاحظ أن هذا اللورد كان وزيرا فى وزارة سالسبورى الأولى التى تولت الحكم فى يونيو ١٨٨٥ وشغل فيها منصب حامل أختام الملكة . أنظر مضبطة مجلس اللوردات . جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ الجزء ٣١٤ صص ٤٩٦ — ٥٠٥ فى Hansard's Parliamentary Debates

(٢) أنظر ما ذكره لورد كارنارفون Carnarvon العضو بمجلس اللوردات من أن مسألة إبريد الجديدة لم تكن الأولى من نوعها فى ايجاد خطر احتكاك بين فرنسا وبريطانيا ، فهناك مجموعة جزر السوسيتى The Society Group فى الإقيانوسية ، فعلى الرغم من وجود اتفاق بين الدولتين عقد فى سنة ١٨٤٧ بعدم المساس باستقلال هذه الجزر ، إلا أن العلم الفرنسى ظل يخفق فوقها مدة ست سنوات ، ولم تجد نفعا الاحتجاجات التى قدمتها الحكومة البريطانية فى هذا الصدد إلى الحكومة الفرنسية . وكذلك جزيرة تاهيتى Tahiti التى كادت تؤدى إلى صدام مسلح بين الدولتين . وقد أصبحت هذه الجزيرة تحت الحماية الفرنسية ثم تحولت الحماية إلى فرض السيادة عليها . كما ضمت اليها جزيرة رابا Rapa ومجموعة أوسترال Austral Group والأرخبيل الأسفل Lower Archipelago . انظر بيان لورد كارنارفون فى مجلس اللوردات بجلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ سالفة الذكر .

السياسية التى واجهت بريطانيا فى السنوات السابقة جعلت الرأى العام البريطانى لا يهتم اهتماماً كافياً بما يجرى فى هذه المنطقة النائية الشاسعة التى أصبحت ميداناً تتسابق فيه الدول الاستعمارية على امتلاك الجزر ومجموعات الجزر المتناثرة فيها واتخاذها محطات بحرية استعداداً وترقباً لفتح قناة بناما. وقالوا إن فرنسا قد وطدت أقدامها فى مستعمرتها الكبرى كالدونيا الجديدة، وكذلك الشأن فى جزر لويوتيه Iles Loyauté وها هى تقدم فى جرأة على احتلال جزر إبريد الجديدة، وستكون أولى نتائج هذه السلسلة المتصلة الحلقات من حركات الضم والتوسع إيجاد حاجز ضخم يتكون من مجموعات جزرية فرنسية تفصل بين استراليا ونيوزيلندة من ناحية وبين جزر فيجى وغيرها من الممتلكات البريطانية من ناحية أخرى. وقد غالى لورد كارنارفون Carnarvon العضو بمجلس اللوردات فى تصوير خطورة المشروعات الفرنسية الاستعمارية فى الإقيانوسية على المصالح البريطانية، وذهب إلى أن هذه المشروعات تؤدى فى نهاية الأمر إلى ضياع المستعمرات البريطانية. ولا ننسى أن هذا اللورد كان وزيراً للمستعمرات فى وزاة دزرائيلى الثانية التى تولت الحكم فى فبراير ١٨٧٤[1].

وتوقع بعض الأعضاء فى مجلسى اللوردات والعموم أن تطبق فرنسا نظام الإبعاد الجنائى فى جزر إبريد الجديدة، واستندوا فى ذلك إلى مناقشة كانت قد أثيرت خلال تلك الفترة فى مجلس النواب الفرنسى قيل فيها إن كالدونيا الجديدة قد اكتظت بالمجرمين العتاة الذين تلفظهم فرنسا، وأن هذه المستعمرة قد بلغت درجة من التشبع بحيث لا تستطيع أن تقبل مزيداً من هذه الأنماط البشرية الخارجة على القانون، وأن النية متجهة إلى إرسالهم إلى إبريد الجديدة. وخلص أعضاء البرلمان البريطانى إلى أن المستوطنين البريطانيين فى استراليشيا على حق فى تخوفهم من مسلك فرنسا، كما أنه ليس فى استطاعة أحد سواء فى انجلترا أو فى استراليشيا أن يخفى أسفه على الحالة القائمه وقتئذ فى إبريد الجديدة[2].

---

(١) دخل لورد كارنارفون بعد ذلك وزارة سالسبورى الأولى التى تولت الحكم فى يونيو ١٨٨٥ وشغل فيها منصب نائب الملك لشئون ايرلندا Irish Vice Roy

(٢) مضبطة مجلس العموم. جلسة ٢ من سبتمبر ١٨٨٦ فى الجزء ٣٠٨ ص ص ١٠٨٨ — ١٠٨٩ق
Hansard's Parliamentary Debates
وكذلك مضبطة مجلس اللوردات. جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ السابق الإشارة اليها.

هذه هى أهم الموضوعات التى اثيرت فى مجلسى اللوردات والعموم عقب الاحتلال الفرنسى لإبريد الجديدة . ودلت مناقشات أعضاء المجلسين على حالة القلق التى كانت تسود وقتئذ بريطانيا بسبب الإجراء العسكرى الذى أقدمت عليه فرنسا . واتفقت آراء أعضاء المجلسين على أن تقـــوم الحكومة البريطانية بمطالبة الحكومة الفرنسية بالجلاء عن هـذه الجزر واحترام استقلالها بمقتضى اتفاق سنة ١٨٧٨ والذى تأكد فى سنة ١٨٨٣ .

ولكن كان للحكومة البريطانية اتجاه استعمارى فى تسوية هذه المسألة . تقدمت بعدة اقتراحات إلى الحكومة الفرنسية كان من اخطرها أن تقوم كل من الدولتين بحماية ارواح وممتلكات رعاياها فى جزر إبريد الجديدة ، وأن يباشر أعمال الشرطة فيها ضباط بحريون يتبعون السلاح البحرى لكل من الدولتين . ومؤدى هذا الاقتراح أن يتم جلاء فرنسا عن ابريد الجديدة ، وأن تكون للدولتين هيئات عسكرية بحرية يناط بها هذه المهمة . وكانت الحكومة البريطانية قد أصدرت أوامرها إلى بعض قطع من الأسطول الحربى بأن ترابط فى مياه أرخبيل إبريد الجـديدة حتى تقف الدولتان ما أمكن على قدم المساواة فى هذه المنطقة . ويلاحظ أن الحكومة البريطانية حين بلغتها أنباء الاحتلال ترددت فى أول الأمر فى إرسال سفن حربية تجنباً لايجاد جو غير ودى بين الدولتين ، ولكنها عادت فأرسلت بعض القطع الحربية كوسيلة للضغط على الحكومة الفرنسية ، ولو أنها أعلنت أن إرسال هذه الوحدات لا يحمل أية روح عدائية ولا ينطوى على أى نوع من أنواع التهديد(١). ثم قرنت الحكومة البريطانية عرضها بموافقتها على أن تضم الحكومة الفرنسية إليها مجموعة من الجزر الصغيرة فى الإقيانوسية تسمى جزر تحت الريح Iles sous le Vent تقع فى شمال غرب تاهيتى .

ولما كانت الحكومة الفرنسية فى مركز أقوى وأفضل من مركز الحكومة البريطانية فيما يختص بمسألة ابريد الجديدة فقد تباطأت الحكومة الفرنسية فى محادثات

---

(١) أنظر بيان لورد جرانفل العضو بمجلس اللوردات وكان يشغل وقت وقوع الاحتلال الفرنسى لأبريد الجديدة منصب وزير المستعمرات فى وزارة جلادستون الثالثة . مضبطة مجلس اللوردات . جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ السابق الإشارة اليها .

الجلاء عن هـذه الجزر ، وكانت تلتزم فى بعض الأحيان سياسة الصمت التـام إزاء المذكرات التى كانت تبعث بها إليها الحكومة البريطانية . وضج أعضاء البرلمان الإنجليزى من هـذا التباطؤ ووجهوا الأسئلة تباعاً إلى الوزارة البريطانية وطلبوا أن تدلى ببيان عن حالة التقدم أو التعثر فى محادثات الجلاء مع الحكومة الفرنسية ، كما طلبوا أن تحدد موعداً لانتهاء المحادثات لأنها استغرقت وقتا طويلا ، وتساءلوا عما إذا كانت فرنسا تعتزم حقاً الجلاء عن هذه الجزر[1]. وكان مركز الحكومة البريطانية حرجاً إزاء هذا التباطؤ ، وردت بأنها تعترف بأن المحادثات قد استغرقت وقتاً أكثر مما ينبغى ، وأن الحكومة البريطانية تأسف جداً لبقاء هذه المسألة معلقة بدون تسوية إلى ذلك الوقت ، وأنها لم تدخر جهداً فى دفع المحادثات إلى الأمام ، وهى ترسل دائما مذكرات ودية إلى الحكومة الفرنسية حتى يتم سريعاً جلاء القوات الفرنسية عن المراكز التى تحتلها فى ابريد الجديدة .

* * *

وبينما كانت الحكومة الفرنسية ماضية على هـذا النحو من التباطؤ فى محادثات الجلاء عن إبريد الجديدة ، وبينما كانت الحكومة البريطانية تلح عليها للانتهاء من هذه المحادثات ، تمت مقابلة فى ١٩ من مارس ١٨٨٧ بين لورد سالسبورى رئيس الوزارة ووزير الخارجية وبين وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن ، وقد صرح الأول للثانى بأن الرأى العام فى بريطانيا قلق للغاية بخصوص موضوع إبريد الجديدة ، وأنه يروم تسوية هذه المسألة تسوية نهائية فى الخريف القادم على الأكثر . ففاجأه السفير برأى الحكومة الفرنسية ، وهو أنها ترى ربط مسألة قناة السويس بمسألة إبريد الجديدة : وذلك بأن تسير المفاوضات الخاصة بعقد معاهدة قنـاة السويس فى نفس الوقت وجنباً إلى جنب pari passu مع المحادثات الخاصة بتسوية مسألة إبريد الجديدة[2] .

---

(١) أنظر على سبيل المثال :
مضبطة مجلس العموم جلسة ٢٨ من يونيو ١٨٨٧ الجزء ٣١٦ ص ص ١١٦٤ — ١١٦٥
مضبطة مجلس العموم جلسة ٣٠ من يونيو ١٨٨٧ الجزء ٣١٦ ص ص ١٣٠٩ — ١٣١٠
مضبطة مجلس العموم جلسة ٢٩ من يوليو ١٨٨٧ الجزء ٣١٨ ص ص ٥٢٩ — ٥٣٠
مضبطة مجلس العموم جلسة ٩ من أغسطس ١٨٨٧ الجزء ٣١٨ ص ص ١٧٠١—١٧٠٢ ، ١٧١٣—١٧١٥

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨١
وثيقة رقم ٢٣ من سالسبورى إلى ليونز السفير البريطانى فى باريس ومؤرخة فى ١٩ من مارس ١٨٨٧
ووثيقة رقم ٣١ من سالسبورى إلى إجرتون الوزير فى السفارة البريطانية فى باريس ومؤرخة فى ١٥ من أغسطس ١٨٨٧
ووثيقة رقم ٣٣ من سالسبورى إلى إجرتون ومؤرخة فى ١٩ من أغسطس ١٨٨٧

وقد دل هذا الربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة على براعة الدبلوماسية الفرنسية وتيقظها حتى لا تفاجئها الحوادث بعد التطور الذى حدث فى العلاقات الدولية بين تركيا وبريطانيا على عهد وزارة سالسبورى الأولى من ناحية، وبين فرنسا وألمانيا فى سنة ١٨٨٧ من ناحية ثانية . كانت فى آخر مراحلها مفاوضات اتفاقية الجلاء عن مصر التى كان يتولاها عن الجانب البريطانى سير هنرى درمندولف Sir Henry Drummond Wolf [1] وعن الجانب العثمانى كل من محمد كياميل باشا الصدر الأعظم ومحمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية . وقد اشتملت هذه الاتفاقية على أربعة مسائل رئيسية هى حسب ترتيب ورودها فى الاتفاق .

(أولا) تقرير وتنظيم حرية مرور السفن فى قناة السويس .

(ثانياً) تحديد سنة ١٨٩٠ موعداً لجلاء القوات البريطانية عن مصر .

(ثالثاً) بعد انتهاء الاحتلال البريطانى تصبح مصر بلداً محايداً وتدعى الدول للتوقيع على اتفاق تتعهد فيه بعدم انتهاك الأراضى المصرية وتضمن حيدة البلاد .

(رابعا) للحكومتين العثمانية والبريطانية الحق فى إرسال قواتهما إلى مصر فى أربع حالات هى تعرض مصر إلى غزو خارجى، أو اذا تعرض الأمن والنظام العام فيها للاضطراب، أو إذا رفضت الحكومة المصرية القيام بواجباتها نحو الباب العالى، أو إذا أخلت بتعهداتها الدولية . ويكون الهدف من إرسال هذه القوات هو القضاء على الخطر، وتنسحب جميع القوات العثمانية والبريطانية من مصر حالما تزول الأسباب التى أدت الى تدخلها .

وقد ألحق بهذا الاتفاق لائحة Règlement تشرح التدابير التى تتخذ إذا تعطلت

---

(١) كان يحمل لقب « مبعوث فوق العادة ووزير مفوض لدى حضرة صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان فى مهمة خاصة تتعلق بالشئون المصرية » . انظر القرار الصادر من وزارة الخارجية البريطانية إليه بتاريخ ٧ من أغسطس ١٨٨٥ الكتاب الأزرق (مصر) برقم ١ لسنة ١٨٨٦ . وثيقة رقم ١ ص ص ١ — ٢ كما كان عضوا فى المجلس الخاص للملكة فيكتوريا .

الملاحة فى قناة السويس ، وتتضمن هذه اللائحة ثلاثة بنود . كما ألحق بالاتفاق ستة ملاحق اثنان منها فى صورة بروتوكول(١) .

أرادت بريطانيا فى اتفاقية الجلاء أن تضرب المشروع الذى وضعته لجنة باريس الدولية ، فأفردت فى هـذه الاتفاقية مادة تنظم حرية مرور السفن فى قناة السويس تنظيما يقوم فى جوهره على أساس المبادىء الواردة فى منشور لورد جرانفل المؤرخ فى ٣ من يناير ١٨٨٣ وعلى بعض الأسس التى اضطر الوفد البريطانى فى لجنة باريس الدولية سنة ١٨٨٥ إلى الموافقة عليها ، كما استبعدت من هـذا التنظيم المبادىء والاتجاهات التى قررتها فرنسا والدول التى كانت ضالعة معها فى اجتماعات لجنة باريس وعارضتها وقتئذ بريطانيا(٢). وقد وصفت اتفاقية الجلاء التنظيم الجديد بأنه

---

(١) نجد النص الرسمى لهذا الاتفاق مع ملاحقه فى الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٧ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٨٨ من سير هنرى درمندولف إلى لورد سالسبورى ومؤرخة فى ٢٤ من مايو ١٨٨٧ وانظر أيضا مرفق هذه الوثيقة بعنوان .

Convention between Great Britain and Turkey respecting Egypt ; signed at Constantinople May 22., 1878.

(٢) نصت هذه المادة — وهى المادة الثالثة فى اتفاقية الجلاء — على أن تدعو الحكومة العثمانية الدول الموقعة على معاهدة برلين الموافقة على عقد اتفاق يؤكد بطريقة أفضل حرية الملاحة فى قناة السويس . وفى هذا الاتفاق تعلن الحكومة العثمانية أن هذه القناة البحرية تظل على الدوام حرة ومفتوحة فى وقت السلم وفى زمن الحرب ، للسفن الحربية والسفن التجارية التى تعبرها من بحر إلى بحر دون تمييز بين جنسياتها ، وذلك فى مقابل دفع الرسوم وتنفيذ اللوائح المطبقة فى ذلك الوقت أو اللوائح التى قد تصدر وتعلن بعد ذلك بواسطة الإدارة المختصة .

وينص الاتفاق أيضا على أن تتعهد الدول الكبرى بألا تعرقل إطلاقا من ناحيتها حرية المرور فى القناة فى وقت الحرب ، وأن تحترم الممتلكات والمؤسسات التى تتعلق بالقناة .

وينص الاتفاق أيضا على ألا تخضع القناة إطلاقا لمباشرة حق الحصر . وألا يباشر أى حق حربى أو عمل عدائى فى داخل القناة وفى مدى ثلاثة أميال بحرية ابتداء من ميناءى السويس وبور سعيد .

كما ينص أيضا فى الاتفاق على أن يقوم الوكلاء الدبلوماسيون فى مصر الممثلون للدول الموقعة بمراقبة تنفيذ الاتفاق فى كل مرة ينتج عنها حالة من شأنها تهديد سلامة القناة أو حرية المرور فيها . ويجتمع أولئك الوكلاء ، بناء على دعوة أحدهم ، وبرياسة مندوب خاص يعينه لهذا الغرض الباب العالى أو الخديو ، لكى يتحققوا من حالة الخطر ، ثم يخطرون الحكومة المصرية لتتخذ التدابير المناسبة لضمان حماية القناة وحرية المرور فيها . وعلى أية حال يجب أن يجتمعوا مرة كل سنة للتثبت من أن الاتفاق قد نفذ تنفيذا سليما .

وفضلا عن ذلك فيجب أن ينص فى الاتفاق على ألا تقام أية عراقيل فى سبيل التدابير التى تكون=

يؤكد بطريقة أفضل حرية الملاحة فى قناة السويس . ورأت فرنسا أن المجهودات الدبلوماسية المضنية التى بذلتها طوال السنوات السابقة سوف تضيع هباء، وأن بريطانيا مصممة على أن تفرض على الدول آراءها لتسوية مسألة القناة .

ولم يكن فى استطاعة الحكومة الفرنسية أن تستند فى سنة ١٨٨٧ إلى تأييد المانيا لها على نحو ما حدث فى سنة ١٨٨٥ ، إذ كانت العلاقات بين الدولتين قد ساءت فى تلك السنة الى حد أنذر بوقوع حرب بينهما بسبب الحركة التى قام بها الجنرال بولانجيه Boulanger وزير الحربية الفرنسية . وكانت ترمى إلى الانتقام من المانيا واسترجاع الألزاس واللورين منها . وكان صدى هـذه الحركة عنيفاً للغاية فى المـانيا [١] . إذ فقد بسمارك الثقة نهائياً فى فرنسا ، ومضى يعزز القوات الألمانية ويستدعى قوات الاحتياطى [٢] ، ويحشد على الحـدود الفرنسية قوات زاحفة وشحنات ضخمة من العتاد والذخائر ومواد التموين [٣] ، ورددت الدوائر السياسية والمالية أن الحكومة الألمانية فى صدد عقد قرض بمبلغ ٣٧٥ مليون فرنك لتغطية نفقات تعزيز القوات الضاربة [٤]

= ضرورية للدفاع عن مصر وسلامة القناة ، وينص أخيراً على أن الطرفين الساميين المتعاقدين يدعوان أيضا الحكومات الأخرى إلى الانضمام إلى الاتفاق سالف الذكر على غرار الدول الموقعة .

أما اللائحة التى ألحقت بهذه الاتفاقية فقد وضعت لمواجهة الموقف إذا تعطلت الملاحة فى قناة السويس . إذ نص البند الأول منها على أنه إذا تعطلت الملاحة فى القناة لأى ظرف من الظروف فإن الدول التى تنضم إلى الاتفاقية المبرمة بين بريطانيا والدولة العثمانية يكون لها الحق فى أن ترسل عبر الإقليم المصرى القوات التى تحتاج لإرسالها من بحر إلى آخر . كما نص البند الثانى على أنه لن يكون لأية دولة من هذه الدول فى مثل هذه الحالة أن تحتفظ فى كل دفعة وفى وقت واحد بأكثر من ألف رجل فى الأراضى المصرية ، ويجب أن يتم مرور هذه الفرق بأكثر الوسائل والطرق سرعة . وأخيراً قرر البند الثالث أنه فى كل مرة تستعمل إحدى هذه الدول هذا الحق فإنه يجب عليها أن تقوم عن طريق قنصلها بإخطار محافظ الميناء الذى سيتم فيه إنزال الفرق بهذه الحالة قبل وقوعها بأربع وعشرين ساعة . وعلى المحافظ أن يشرف ويراقب مرور هذه الفرق .

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI, doc. no. 406. Lettre particulière. Flourens, Ministre des Aff. Etr. à Herbette, Ambassadeur de France à Berlin en date du 23 janvier, 1887.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI. doc. no. 418. Télégramme Confidentiel M. Flourens, Ministre des Aff., Etr. à M. Herbette, Ambassadeur de] France à Berlin, en date du 2 fevrier, 1887..

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI, doc. no. 437. Lettre particulière M. Flourens à M. Herbette, en date du 12 février, 1887.

(٤) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI, doc. no. 423. Télégramme. M. Herbette à M. Flourens, en date du 4 février 1887.

ونجح بسمارك فى تعبئة الرأى العام الألمانى لامتشاق الحسام مرة أخرى ضد فرنسا . وذهب إلى أبعد من ذلك فصرح للسفيرين الفرنسى والبريطانى فى برلين بأنه إذا تولى الجنرال بولانجيه Boulanger وزير الحربية رياسة الوزارة أو رياسة الجمهورية الفرنسية فان الحكومة الألمانية تعتبر توليه أحد هذين المنصبين سبباً لقيام الحرب بين الدولتين[١] . وكان قد تحدد شهر ديسمبر ١٨٨٧ موعداً لاجراء الانتخابات لرياسة الجمهورية فى فرنسا . ونشرت جريدة Post الألمانية — وهى صحيفة رسمية — مقالا عنيفاً فى ٣١ من يناير ١٨٨٧ هاجمت فيه فرنسا ، وقالت إن وجود الجنرال بولانجيه فى الوزارة الفرنسية يعتبر سبباً لقيام الحرب casus belli ، كما نشرت هذه الجريدة خطابا خطيراً ألقاه هوفمان Hoffmann وزير الألزاس واللورين فى ٢٨ من يناير ١٨٨٧ صرح فيه أن السلم فى خطر[٢] . وتناقلت الدوائر السياسية اقتراحا يخفف من هـذه الأزمة ويقضى بخروج الجنرال بولانجيه من الوزارة[٣] . وكان هذا الوزير فى صدد تنفيذ برنامج ضخم لإعادة تنظيم الجيش الفرنسى وطلب فتح اعتمادات إضافية لتعزيز الجيش والبحرية ، واعتقدت الدوائر الألمانية أن الهدف من التنظيم الجـديد والاعتمادات الاضافية هو الاستعداد لخوض غمار حرب ضد ألمانيا .

وقد بلغ من عنف الأزمة الفرنسية الألمانية فى سنة ١٨٨٧ أن قام المستشار الألمانى بمساعى لدى القيصر اسكندر الثالث حتى تلتزم روسيا جانب الحيدة إذا نشبت الحرب بين ألمانيا وفرنسا[٤] . واعتقدت دول القارة الأوربية أن الحرب لا محالة ناشبة بين

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Serie., t. VI, docs. nos. 415 et 419

M. Herbette, Ambassadeur de France à Berlin à M. Flourens, Ministre dés Aff., Etr. let première document est; une dépêche confidentielle en date du 29 janvier, 1887, le deuxieme est un télégramme, en date du 2 février, 1887.

وكان مما جاء فى الوثيقتين قول بسمارك حرفيا :

«... si le général Boulanger devenait Président du Conseil ou de la République ce serai la guerre, il n'y aurait plus alors aucune sécurité»

(٢) برقية أرسلها السفير الفرنسى فى برلين إلى وزير خارجية فرنسا ومؤرخة فى أول فبراير سنة ١٨٨٧ ومذكورة فى الملحوظة رقم ١ فى هامش صفحة ٤٣٦ من المرجع السابق

(٣) Doc. Dipl. Fr. lére Série,. t. VI, doc. no 435 Lettre particulièr.e M. Herbette a M. Florens, en date du 10 février, 1887.

(٤) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série, t. VI, doc. no 436 Télégramme très con-, fidentiel. M. de Laboulaye, Ambassadeur de France à Saint-Pétersbourg, à M. Flourens, Ministre des Aff. Etr., en date du 11 février, 1887.

الدولتين . واتخذت النمسا والمجر وإيطاليا تدابير استثنائية لمواجهة حالة خطر الحرب [١] . وأرسلت الحكومة البلجيكية مذكرتين فى فبراير ١٨٨٧ إلى الحكومتين الألمانية والفرنسية أوضحت فيهما موقفها إذا نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا ، وطالبت باحترام حيدتها وأعلنت أنها ستدافع عن هذه الحيدة إذا مدت إحدى هاتين الدولتين العمليات الحربية إلى الأراضى البلجيكية [٢] . كما تدخل اسكندر الثالث قيصر روسيا لدى الامبراطور الألمانى وليم الأول ولدى بسمارك المستشار الألمانى مستفسراً عن حقيقة نوايا ألمانيا نحو فرنسا [٣]. وقد اهتمت وزارة الخارجية الفرنسية اهتماماعميقاً بتبديدشكوك ألمانيامن ناحية فرنسا وأكدت لها تمسكها بأهداب السلام [٤]

فى مثل هذه الفترة الدقيقة الحرجة التى كانت تجتازها العلاقات الفرنسية الألمانية أيد فلورانس وزير خارجية فرنسا رأى هربت Herbette السفير الفرنسى فى برلين بأن الوقت غير مناسب لمفاتحة بسمارك فى موضوع المسألة المصرية والتماس تأييده لفرنسا فى شأنها [٥]. وخاضت فرنسا معركة دبلوماسية فى جبهتين . فى القسطنطينية لضرب اتفاقية الجلاء جملة وتفصيلا ، وفى لندن للربط بين مسألتى قناة السويس والبريد الجديدة .

أما فى القسطنطينية فقد تعاونت فرنسا مع روسيا لإسقاط اتفاقية الجلاء اسقاطاً قانونياً . كانت المادة الأخيرة من هذه الاتفاقية تنص على وجوب التصديق عليها ، وأن يتم تبادل وثائق التصـــديق فى القسطنطينية فى خلال شهر ابتداء من تاريخ

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Sére t. VI doc. no. 437.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série, t. VI doc. no. 452 Dépéche. M. Flourens auxe Ambassadurs de France à Londres et Berlin, en date du 1er mars 1887.

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI doc. no. 422. Télégramme. Confidentiel M. Flourens, Ministre des Aff. Etr. à M. de Laboulaye, Ambassadeur de France à Saint-Pétersbourg, en date du 3 février, 1887.

(٤) بخصوص الأزمة الفرنسية الألمانية فى سنة ١٨٨٧ ومظاهرها وتطوراتها انظر عدا الوثائق التى سبقت الإشارة اليها الوثائق الآتية . وهى على سبيل المثال لا الحصر ٤٠٤ — ٤٨٦ ، ٤٩٤ — ٥٥٨ ، ٥٦٢ — ٦١٠

وهى منشورة فى المجلد السادس من المجموعة الأولى من الوثائق الدبلوماسية الفرنسية

(٥) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI doc no. 421. Télégramme confidentiel Flourens à Herbette, en date du 3 Février, 1887.

التوقيع على الاتفاقية أو أقل من هذه المدة إن كان ذلك ممكناً . وكانت هـــذه المادة هى الباب الذى استطاعت فرنسا وروسيا أن تنفذا منه لإحباط الاتفاقية وهو الضغط على السلطان كى يرفض أو يمتنع عن التصديق على الاتفاقية ، وبذلك لاتحدث الاتفاقية الأثر القانونى الصحيح فى الدائرة الدولية فى دور التنفيذ العملى(١) .

---

(١) التصديق La Ratification هو قبول المعاهدة رسميا من السلطة التى تملك عقد المعاهدات نيابة عن الدولة . وهذه السلطة هى إما رئيس الدولة منفردا ، وإما رئيس الدولة مشتركا مع السلطة التشريعية ، وذلك تبعا للنظام الدستورى المعمول به فى كل دولة من الدول الأطراف فى المعاهدة من حيث السلطات التى تمنحها الدساتير لرؤساء الدول فى شأن إبرام المعاهدات . والتصديق إجراء واجب لنفاذ المعاهدة فى الدائرة الدولية يؤيد ضرورته القانون الدولى الوضعى ، وكذلك العرف المتواتر بين الدول ، وما جرى عليه العمل والقضاء داخل الدول ، بعد أن استبعد الفقه والعرف نظرية « الوكالة فى المعاهدات » التى تقول إن المندوبين المفوضين فى التوقيع على المعاهدات هم بمثابة الوكلاء عن الدول فى التعاقد باسمها ، وإنهم يخضعون فى علاقاتهم مع دولهم فى هذا الشأن لنفس القواعد التى تنتظم العلاقة بين الوكيل والموكل فى إبرام العقود والتزام الوكيل حدود التوكيل . وقد فقدت هذه النظرية صلاحيتها فى العمل نظرا لتفاوت الأهمية والخطورة بين المعاهدات والعقود ، لأنه من اليسير تفادى نتائج تجاوز حدود التوكيل فيما يتعلق بإبرام العقود فى حين أن هذا التجاوز يؤدى إلى نتائج خطيرة فى علاقات الدول بعضها ببعض وإثارة المشكلات فيما بينها فيما يتعلق بالتزام أحكام المعاهدات .

وقد سوغ فقه القانون الدولى العام ضرورة التصديق على المعاهدات بعدة مسوغات ، منها : خطورة الالتزامات الدولية المنصوص عليها فى المعاهدات ، وإتاحة الفرصة لحكومة كل دولة من الدول الأطراف فيها وللهيئات النيابية فيها لإعادة النظر فى المعاهدة قبل أن تصبح ملزمة لها بصفة نهائية، فقد ترى فيما اتفق عليه مندوبوها تعارضا مع مصالحها أو انتقاصا من حقوقها أو قد تجد ظروف تدعوها إلى العدول عما كانت تراه من قبل فتمتنع عن التصديق . وبهذا الامتناع تسقط المعاهدة بالنسبة لها . وأخيرا فإن من بين مسوغات التصديق الرغبة فى تفادى ما يحتمل التعلل به من أعذار بعد التوقيع بمقولة تجاوز المفاوضين لسلطاتهم .

ويلاحظ أنه لا يترتب على رفض الدولة التصديق على المعاهدة أية مسئولية دولية ، ولكن لا يلحق المعاهدة فى هذه الحال وصف النفاذ . فالتصديق لا يعتبر مجرد إجازة للمعاهدة بل هو الإعلان الحقيقى لإرادة الدولة فى الالتزام بأحكام المعاهدة وهو الذى يحدد اللحظة التى تصبح فيها المعاهدة ملزمة .

وهناك إجراء شكلى تستكمل به عملية التصديق ، ويسمى تبادل وثائق التصديق أو ايداعها . فلكى ينتج التصديق آثاره القانونية فى الدائرة الدولية يجب أن تعلم به الدول الأخرى الأطراف فى المعاهدة . ويتحقق هذا العلم ، فى حالة المعاهدات الثنائية ، عن طريق تبادل الوثائق التى تفيد التصديق . أما فى حالة المعاهدات الجماعية فيتم عن طريق إيداعها لدى حكومة دولة معينة ، هى فى العادة الدولة التى تم التوقيع فى إقليمها . وتبادل وثائق التصديق أو إيداعها هو الإجراء الذى تدخل به المعاهدة فى دور التنفيذ الدولى . انظر : دكتور حامد سلطان ص ص ٢١٤ — ٢٢٠ ، دكتور محمد حافظ غانم ص ٥٢٦

استندت فرنسا وروسيا فى هذا الطلب إلى خطورة الحق الذى تقرر لبريطانيا فى الاتفاقية من حيث السماح لها بالعودة إلى احتلال مصر[1] . واعلنت حكومتا هاتين الدولتين أن اتفاقية الجلاء لم تتضمن أية ميزة لتركيا بل ضحى السلطان فيها بحقوقه لبريطانيا فأشركها معه فى حكم مصر[2] ، وأن اتفاقية الجلاء ليست إلا معاهدة تحالف فى صالح الحليف الأقوى وهو بريطانيا ، وإذا أصـــدر السلطان تصديقه على الاتفاقية فلن تكون تركيا دولة محايدة فى نظر الدول[3]، وسيكون رد الفعل هو أن تقوم فرنسا باحتلال سوريا وتقوم روسيا باحتلال أرمينيا[4]. وأذاعت وكالة هافاس للأنباء عدة برقيات ، يقول السير هنرى درمندولف إن الصدر الأعظم قد أطلعه عليها ، وكانت تجمع على أن حشوداً عسكرية روسية تتجمع على طول الحدود التركية من ناحية ارمينيا[5] .

وظهر التكتل الدولى بصورة أخرى تختلف عن الصورة التى كان عليها فى اجتماعات لجنة باريس سنة ١٨٨٥ . إذ وقفت المانيا والنمسا والمجر وايطاليا وهى دول التحالف الثلاثى تؤيد اتفاقية الجلاء وتحث السلطان على التصديق عليها[6] . وقد

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ أنظر الوثائق التالية على سبيل المثال لا الحصر : ٥ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢١

وانظر أيضا من الوثائق الفرنسية :

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI. docs. nos. 534-535-537-546-550.

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٧ من سير هنرى درمندولف إلى لورد سالسبورى . بيرا فى ٢٧ من مايو ١٨٨٧ ووثيقة رقم ١٢ من ولف إلى سالسبورى . تيرابيا Therapia فى ٤ من يونيو ١٨٨٧

(٣) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٤٩ من ولف إلى سالسبورى . ترابيا فى ٩ من يوليو ١٨٨٧

(٤) المصدر السابق . وثيقة رقم ٤٥ من ولف إلى سالسبورى . القسطنطينية فى ٩ من يوليو ١٨٨٧ ووثيقة رقم ٥٠ من ولف إلى سالسبورى . ترابيا فى ١١ من يوليو ١٨٨٧

(٥) المصدر السابق . وثيقة رقم ٣٣ من ولف إلى سالسبورى . القسطنطينية فى ٣٠ من يونيو١٨٨٧

(٦) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧

وثيقة رقم ٥٦ من ولف إلى سالسبورى . ترابيا فى ١٥ من يوليو ١٨٨٧

ووثيقة رقم ٦١ من سالسبورى إلى سفراء بريطانيا فى فينا وبرلين وروما بتاريخ ٢٢ من يوليو١٨٨٧

ووثيقة رقم ٦٢ من سالسبورى إلى ولف بتاريخ ٢٢ من يوليو ١٨٨٧

هددته المانيا بأنه إذا امتنع عن التصديق فان الاحتلال البريطانى سيظل جاثماً على مصر، وستقوم ايطاليا باحتلال شاطىء البحر الأحمر بموافقة الإنجليز[١]. بينما وقفت فرنسا وروسيا تضغطان على السلطان ليحجم عن التصديق عليها، وكان أن أذعن لهاتين الدولتين وامتنع عن التصديق فزعاً من التهديد الفرنسى الروسى، وغادر سير هنرى درمندولف القسطنطينية فى ١٥ من يوليو ١٨٨٧ عائداً الى بلاده، وفقدت اتفاقية الجلاء قوتها القانونية واعتبرت كأن لم تكن. ومما يذكر ان السلطان عبد الحميد انتحل اعذاراً واهية كى يتجنب مقابلة سير هنرى درمندولف قبل رحيله خشية أن تعتقد الحكومتان الفرنسية والروسية أن السلطان قد أعطى سير ولف اثناء المقابلة وعداً شفوياً بالتصديق على الاتفاقية[٢].

* * *

أما فى لندن فقد طلب السفير الفرنسى فى ١٩ من مارس ١٨٨٧ — كما مر بنا — من وزير الخارجية البريطانية ربط مسألة قناة السويس بمسألة إيريد الجديدة. وإذا كانت اتفاقية الجلاء عن مصر قد وقعت فى ٢٢ من مايو ١٨٨٧ — أى قبل هـذا الطلب بشهرين تقريباً — فان فرنسا كانت على علم بمراحل مفاوضات هذه الاتفاقية وبما كانت تبيته بريطانيا لتسوية مسألة قناة السويس، لأن رجال الباب العالى كانوا يرجعون إلى فرنسا وكذلك إلى روسيا فى المسائل الهـامة التى تناولتها مفاوضات الجلاء[٣]. فأرادت فرنسا تحويل مسألة القناة عن الطريق الذى حاولت بريطانيا رسمه لها فى اتفاقية الجـلاء وإعادة هذه المسألة إلى الطريق الذى كانت قد رسمته فرنسا لها وهو الطريق الجماعى الأوربى.

ولم يشأ لورد سالسبورى وزير الخارجية البريطانية أن يقيـد حكومته برد قاطع على هذا الطلب انتظاراً لما تسفر عنه مفاوضات الجلاء مع الدولة العثمانية، فلما فشلت اتفاقية الجلاء بسبب امتناع السلطان عن التصديق عليها، وغادر سير هنرى

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1erè Série. t. VI doc. no. 561. Télégramme confidentiel Flourens, Ministre des Aff. Etr. à M. de Laboulaye, Ambassadeur de France à Saint—Pétersbourg, en date du 8 juillet, 1887.

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٥٤ من سالسبورى إلى هوايت W. White السفير البريطانى فى القسطنطينية بتاريخ ١٧ من يوليو ١٨٨٧

(٣) دكتور محمد مصطفى صفوت: الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه ص ١٩٩

درمندولف القسطنطينية فى ١٥من يوليو١٨٨٧ عائداً إلى بلاده، صارح أعضاء مجلس اللوردات بهذا الاتجاه الفرنسى فى جلسة اول اغسطس ١٨٨٧، حين وجه إليه لورد روزبرى وزير الخارجية السابق فى وزارة جلادستون الثالثة[١] ومن حزب المعارضة فى مجلس اللوردات سؤالا جاء فيه أن شعوراً عميقاً من القلق والتخوف يسود البلاد نتيجة لوجود القوات الفرنسية المستمر فى جزر إبريد الجديدة [٢]. فرد سالسبورى بأنه يشاطر لورد روزبرى شعوره ،وإنه لينظر بأسف بالغ إلى هذا الاحتلال المستمر لإبريد الجديدة ، وأن الصعوبة التى تواجهها الحكومة البريطانية هى أنها لا تظفر برد على المذكرات التى بعثت بها إلى باريس . وقد وجهت الحكومة البريطانية فى هذه المذكرات نظر الحكومة الفرنسية إلى أن الموقف قد غدا شائكا ودقيقاً فى انجلترا والمستعمرات البريطانية على السواء . وأبدى رجاءه فى أن تضع الحكومة الفرنسية ، قبل مضى فترة طويلة ، موضع التنفيذ الآراء التى عبرت عنها والتى لا يشك فى صحتها وجديتها . ثم مضى رئيس الوزراء فقال إنه من الإنصاف للحكومة الفرنسية أن يذكر أنها قد أبدت رغبتها فى أن تسير محادثات مسألة إبريد الجديدة جنباً الى جنب مع مفاوضات قناة السويس ، وهى المفاوضات التى بلغت مرحلة من التقدم حين كان لورد روزبرى موجه السؤال وزيراً للخارجية . وقال رئيس الوزراء إنه ليس للحكومة البريطانية اعتراض على هذه الرغبة ، ولكن يكون لزاماً عليها أن تعترض عليها إذا نجم عن مفاوضات قناة السويس أى تأخير فى تسوية مسألة إبريد الجديدة[٣] .

وكان لهذا التصريح صداه فى مجلس العموم إذ خشى أحد الأعضاء وهو بريس Bryce أن يمتد ربط مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة بحيث يشمل هذا الربط

---

(١) كان لورد روزبرى قد دخل قبل ذلك فى مارس ١٨٨٥ وزارة جلادستون الثانية التى تولت الحكم فى أبريل ١٨٨٠ وشغل فيها منصب حامل أختام الملكة .

(٢) مضبطة مجلس اللوردات . جلسة أول أغسطس ١٨٨٧ الجزء ٣١٨ ص ص ٦٧٥ — ٦٧٦ فى Hansard's Parliamentary Debates.

(٣) It is fair to the French Government that I should say that they have wished to conduct side by side with this matter the negotiations in regard to the the Suez Canal which, I think. were in progress when the Noble Earl was in office. We have no objection to this ; but we must demur to these latter negotiations being the cause of any delay in regard to the former». ibid.

المسألة المصرية من كافة نواحيها من حيث جلاء القوات البريطانية عنها والبحث فى مستقبل مصر بعد الجلاء ، على أساس أن بحث هذه المسائل يستغرق وقتا طويلا للغاية يظل خلاله الاحتلال الفرنسى لإبريد الجديدة قائما . فوجه هذا النائب سؤالا يحمل هذه المعانى إلى الحكومة البريطانية وطلب فيه كذلك أن تستمر الحكومة فى الضغط على الحكومة الفرنسية للوصول إلى تسوية سريعة ومنفصلة لإبريد الجديدة [1] . وقد أجاب على هذا السؤال جيمس فرجسون James Fergusson وكيل وزارة الخارجية ، فنفى أن الحكومة الفرنسية قد طلبت أن تربط بين المسألة المصرية عامة وبين إبريد الجديدة ، وقال إنها قصرت رغبتها على الربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة . ومضى يقول إذا كانت الحكومة البريطانية لاتعترض على مناقشة هاتين المسألتين : قناة السويس وإبريد الجديدة فى وقت واحد ، فإنها لا توافق بأية حال من الأحوال على أن يؤجل انسحاب القوات الفرنسية من إبريد الجديدة حتى يبرم الاتفاق الخاص بحيدة قناة السويس [2] . ثم قال إن الحكومة البريطانية تضغط على الحكومة الفرنسية للانتهاء من مفاوضات تتعلق بموضوع تتفق عليه الحكومتان من حيث المبدأ اتفاقا تاما . واختتم كلمته بقوله إن آخر مرة وصل فيها إلى علم الحكومة البريطانية نبأ إرسال مذنبين فرنسيين إلى كالدونيا

---

(١) مضبطة مجلس العموم . جلسة ٩ من أغسطس ١٨٨٧ الجزء ٣١٨ ص ص ١٧١٣ — ١٧١٥ فى Hansard's Parliamentary Debates

(٢) لا شك أن وكيل وزارة الخارجية البريطانية قد وقع فى خطأ وهو يدلى بإجابته حين ذكر عبارة حيدة قناة السويس . لأن وزارة الخارجية البريطانية كانت قد أرسلت إلى الوفد البريطانى فى لجنة باريس الدولية تعليمات واضحة صريحة محددة بتجنب ذكر عبارة حيدة قناة السويس فى المناقشات وفى صياغة مواد المعاهدة وأن يستبدل بهذه العبارة عبارة أخرى هى «حرية الملاحة فى قناة السويس» . وكان مما جاء فى أقواله خاصا بالربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة وشروط هذا الربط

«The French Government have desired that the negotiations in regard to the New Hebrides and the Suez Canal should proceed *pari passu* ; but have not sought to associate the former with questions relating to Egypt generally. Her Majesty's Government, while not objecting to discuss the two subjects at the same time, have in no way consented that the withdrawal of the French troops from the New Hebrides should be postponed until an agreement had been arrived at for the neutralization of the Suez Canal. Her Majesty's Government are pressing upon the French Government that the negotiations should be brought to a close in respect to this subject, upon which the two Governments are perfectly agreed in principle ...» ibid.

الجديدة كان فى شهر نوفمبر ١٨٨٦ . اما إبريد الجديدة فان حركة تهجير الفرنسيين إليها من فرنسا مستمرة وقائمة على قدم وساق .

* * *

وإذا كانت الحكومة الفرنسية قد رأت أن تربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة فان الفرنسيين المقيمين فى مصر لم يروا هذا الرأى . لقد طالبوا بجلاء بريطانيا عن مصر جلاء ناجزاً غير مشروط فى مقابل جلاء فرنسا عن إبريد الجديدة . وذهبوا إلى أبعد من ذلك فطالبوا بأن يكون انسحاب الإنجليز من مصر سابقا لانسحاب الفرنسيين من إبريد الجديدة ، وبعبارة اخرى رأوا ان يربطوا بين المسألة المصرية برمتها وبين إبريد الجديدة .

ولعل من الأمور الملفتة للنظر أن يكون الفرنسيون فى مصر أسبق من الحكومة الفرنسية فى المطالبة بالأخذ بهذا الربط . كانت تصدر فى مصر جريدة فرنسية لها زعامة على الصحف الأجنبية التى كانت تصدر فيها ، وكانت تسمى البوسفور اجبسيان Le Bosphore Egyptien نشرت فى اول يوليو ١٨٨٦ مقالا بعنوان « مصر وإبريد الجديدة L'Egypte et les Nouvelles Hebrides. »[١] نددت فيه بموقف الحكومة البريطانية من الاحتلال الفرنسى لجزر إبريد الجديدة . وقالت إن هذا الاحتلال لا يزال يثير فى بريطانيا فورة عارمة من الغضب ، ويصعب على الانسان أن يفهم مبرراتها على الرغم من التصريحات المطمئنة التى تصدر عن الحكومة الفرنسية . إن بريطانيا تتمسك فيما يختص بابريد الجديدة باتفاق سنة ١٨٧٨ وهو اتفاق قديم مضى عليه ثمانى سنوات تغيرت فيها الظروف التى عقد فى ظلها تغيرا جوهريا[٢]

---

(١) العدد ١٣٨١ مجموعة السنة الثامنة محفوظة بدار الكتب المصرية بالقلعة بالقاهرة تحت رقم Pér,920

(٢) تشير الجريدة إلى نظرية معروفة فى القانون الدولى العام تسمى نظرية تغير الظروف ومؤداها أن كل معاهدة غير محدودة الأجل تحوى شرطا ضمنيا لاستمرارها يطلق عليه Rebus sic Stantibus أى بقاء الظروف على حالها ، فإذا استمرت هذه الظروف التى أبرمت المعاهدة فى ظلها بقيت المعاهدة نافذة المفعول . ولكن إذا تغيرت هذه الظروف جاز للدوله إما أن تتحلل من أحكامها بإرادتها المنفردة ، وإما أن تطالب الطرف الآخر بإبطال المعاهدة أو تعديلها .

ولا تخلو هذه النظرية من خطورة ، إذ يمكن أن تتخذها الدول ذات المطامع ذريعة للنكث بتعهداتها ، فتدعى تغير الظروف للتخلص من معاهدة هى طرف فيها دون أن يكون هناك تغير حقيقى يبرر تصرفها ، وهو أمر يؤدى إلى عدم استقرار العلاقات الدولية ويهدم قيمة المعاهدات ويحل القوة محل القانون . ولذلك يضع فقهاء القانون الدولى العام شروطا لتطبيق نظرية تغير الظروف منها أن تحاول الدولة الدخول =

كما نسخته الاتفاقات اللاحقة الخاصة بالإقيانوسية والتى عقدت سواء بين فرنسا والمانيا أو بين بريطانيا والمانيا . والسفير البريطانى فى باريس يتردد على وزير الخارجية الفرنسية يطالبه فى جرأة وعدم استحياء بانسحاب فرنسا من إبريد الجديدة استناداً إلى اتفاق سنة ١٨٧٨ مع أن بريطانيا هى أكثر الدول اخلالا بتعهداتها الدولية . وأشارت الجريدة إلى أن فرنسا قد أقدمت على احتلال جزر إبريد الجديدة للمحافظة على أرواح وحقوق المستوطنين الفرنسيين بها ، وانه ليست فى هذه الجزر أية سلطة قانونية معترف بها . وكانت الجريدة تشير بهـــذا القول إلى النظرية التى ابتدعها الاستعمار وهى نظرية الملك المبـاح الذى لا تمتد اليه ولاية دولة أخرى Res Nullius [1] .

= فى مفاوضات مع أطراف المعاهدة بقصد اثبات عدم انسجام المعاهدة مع الظروف الجديدة ، فاذا تعذر اتفاق الطرفين على إلغاء المعاهدة أو تعديلها لتغير الظروف أمكن عرض الأمر على الهيئات الدولية . ومع ذلك يرى بعض الفقهاء أنه من الجائز فسخ المعاهدة بالإرادة المنفردة لإحدى الدول الأطراف متى تغيرت ظروف عقدها تغيرا جوهريا وذلك بدون حاجة إلى حصول اتفاق بين أطراف المعاهدة على الغائها أو تعديلها

ونكتفى هنا بأن نذكر مثلين من التاريخ الأوربى المعاصر :

أولا : أعلنت روسيا فى ٣١ من أكتوبر ١٨٧٠ أنها غير مقيدة بنصوص المواد ١١ ، ١٣ ، ١٤ من معاهدة باريس المنعقدة فى ٣٠ من مارس ١٨٥٦ التى كانت تفرض حالة الحياد فى البحر الأسود وتمنع روسيا من تحصين موانى هذا البحر وتكوين أسطول حربى لها فيه . واستندت روسيا فى هذا التصرف إلى تطور ظروف الحرب البحرية وإلى فقدان التوازن الدولى بعد انتصار ألمانيا على فرنسا سنة ١٨٧٠

ثانيا : حادث آخر وقع قبل ظهور مقال جريدة البوسفور بأسبوع واحد وهو إلغاء روسيا للمادة ٥٩ من معاهدة برلين المنعقدة فى ١٣ من يوليو ١٨٧٨ التى جعلت ميناء باطوم ميناء حرا . وقد تم هذا الإلغاء بالإرادة المنفردة بمرسوم أصدرته روسيا فى ٢٣ من يونيو ١٨٨٦

انظر دكتور حامد سلطان مرجع سبق ذكره ص ص ٢٧٣ — ٢٨٥

دكتور محمد حافظ غانم مبادىء القانون الدولى العام دراسة لضوابطه ولأحكامه العامة طبعة ١٩٦١ ص ٥٤٦-٥٤٩ .

دكتور على صادق أبو هيف ٢٦٩ — ٢٧١

(١) تقول هذه النظرية إن المناطق المجهولة والتى تسكنها شعوب متخلفة أو قبائل متفرقة منعزلة عن ركب الحياة تعتبر فى حكم المناطق المهجورة التى لا يعرف لها صاحب ، وتصبح هذه المناطق ممتلكات شرعية لأول دولة تستطيع بقواتها المسلحة أو ببعض أفراد منها أن ترفع رايتها فوق ربوعها ما دام الشعب الذى يسكنها ليس شعبا اوربيا مسيحيا . وهذا قيد جوهرى لم يرفع فى أية حالة من الحالات . وقد وضع مؤتمر برلين الأفريقى (١٥ نوفمبر ١٨٨٤ — ٢٦ فبراير ١٨٨٥) عدة شروط لهذا الاستيلاء حتى يحدث جميع آثاره القانونية فى المجال الدولى . وكان من أهم هذه الشروط توفر شرط الحيازة وشرط =

ومضت الجريدة فى مقالها تقول إن لورد روزبرى وزير خارجية بريطانيا يتكلم عن احتلال فرنسا لإبريد الجديدة . حسناً ! ! ! وماذا عن احتلال بريطانيا لمصر ؟ وتساءلت الجريدة عما اذا كان وزير الخارجية قد تناسى التصريحات المكرورة التى أدلى بها رئيسه جلادستون رئيس الوزارة البريطانية عن جلاء بريطانيا عن مصر ؟ وإذا كانت هذه التصريحات قد تنوسيت فان الفرنسيين على استعداد لتذكيره بها . وذكرت الجريدة مثالا لهذه التصريحات ، فقالت إن المسألة المصرية قد أثيرت فى مجلس العموم بجلسة ٩ من أغسطس ١٨٨٣ . وصرح جلادستون بقوله إن بريطانيا لا تعتزم ضم مصر إليها ، وإن القوات البريطانية ستجلو عنها حالما يعود الأمن والنظام إليها . وتساءلت الجريدة ألم يتحقق هذا الشرط إلى اليوم ؟ واختتمت مقالها بقولها أيها السادة الانجليز : انسحبوا أولا من مصر .

* * *

هـذا الأسلوب الفرنسى فى الربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة قد نجح فى حمل الحكومة البريطانية على الإسراع فى تسوية مسألة القناة . فقد قدمت هذه الحكومة فى ٢٣ من سبتمبر ١٨٨٧ إلى الحكومة الفرنسية مشروعا لاتفاقية تنظم حرية المرور فى قناة السويس وطلبت الوقوف على رأيها فيه [1] ، وكان هـذا المشروع خطوة نحو التقريب بين وجهات النظر الفرنسية والبريطانية حول المسائل التى كانت مثار خلاف بين الحكومتين .

= الإدارة. أماشرط الحيازة فهو العنصر المادى إذا ماوضعت الدولة يدها فعلا علىالإقليم سواء برفع أعلامها عليه أو باصدار إعلان يحمل هذا المعنى بشرط أن تترك الدولة على الإقليم ما يكفل لها العمل على احترام سلطة العلم أو تنفيذ الإعلان . ولا ضرورة للاتفاق مع سكان الإقليم الأصليين على هذا الأمر إذ أن هذا الاتفاق — حتى فى حالة انعقاده — لا يرتب أثرا قانونيا . وأما الشرط الثانى وهو شرط الإدارة فلا بد أن يتوفر فيه أمران أولهما ثبوت النية على أن الدولة تعتزم إدخال الإقليم فى ولايتها، والثانى هو إقامة إدارة — فى صورة ما — على الإقليملإظهار أن الدولة التى تحوز الإقليم تنوى أن تدير هذا الإقليم الذى أدخلته فى ولايتها . وقد أضيف الشرط الأخير لتفادى النتائج التى كانت تترتب على الحيازة الرمزية قبل القرن الثامن عشر .

انظر دكتور حامد سلطان ص ص ٧٠٨ — ٧١٦

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ مرفق الوثيقة رقم ٣٦ من سالسبورى إلى اجرتون الوزير بالسفارة البريطانية فى باريس . والوثيقة مؤرخة فى ٢٣ من سبتمبر ١٨٨٧

وقد رفضت الحكومة الفرنسية هـذا المشروع معتذرة بأنها لا تستطيع قبوله من الناحية الشكلية ، وقالت إنها تفضل وضع مشروع للمعاهدة على نسق المشروع الذى صاغته لجنة باريس الدولية[١] .

وكان أن سافر إلى باريس لورد سالسبورى رئيس الوزراة البريطانية ووزير الخارجية فى شهر اكتوبر ١٨٨٧ ودارت محادثات سياسية بينه وبين فلورانس Flourens وزير الخارجية الفرنسية أسفرت عن اتفاق الحكومتين على مشروع للمعاهدة سويت فيه المسائل التى كانت لا تزال مثار نزاع بينهما[٢] . وتم الاتفاق على أن تقوم وزارة الخارجية البريطانية بتقديم هذا المشروع إلى الحكومة الفرنسية ، ثم تتولى الأخيرة تبليغه بصفة رسمية إلى حكومات الدول التى كانت ممثلة فى لجنة باريس الدولية للموافقة عليه[٣] . وأوفى سالسبورى بوعده فأرسل مشروع المعـاهدة فى صياغتها الجديدة إلى باريس فى ٢١ من اكتوبر ١٨٨٧

وهـذا المشروع اكثر تفصيلا وأهمية من المشروع الموجز ، فهو يقع فى ست عشرة مادة عدا المقدمة ، ويمتـاز بتنسيق الموضوعات وإفراد مادة مستقلة لـكل موضوع تقريباً . أما أهميته فترجع إلى أنه أول مشروع للمعاهـدة المنشودة تلتقى عنده الحكومتان الفرنسية والبريطانية بعد أن امتد الخلاف بينهما سنين عددا بخصوص مسألة القناة ، كما أنه غدا الأساس الذى صيغت على نسقه اتفاقية الآستانة فى ٢٩ من اكتوبر ١٨٨٨

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٣٧ من سالسبورى إلى اجرتون ومؤرخة فى ٢٦ من سبتمبر ١٨٨٧

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Serie. t. VI, doc. no. 629. Télégramme de Flourens, Ministre des Affaires Etrangères aux Représentants Diplomatiques de France à Berlin, Saint-Pétérsbourg, Vienne, Madrid, La Haye, en date du 25 octobre, 1887.

وكان مما جاء فى هذه البرقية :

Pendant le récent séjour de Lord Salisbury en France les derniers points laissés en suspens dans le projet de neutralisation du Canal de Suez ont été heuresement réglés entre Sa Seigneurie et moi. Les termes de cet accord qui répond, croyons-nous, aux intentions, des Puissances représentées à la Commission de Paris en 1885 viennent d'être arrêtés. Ils doivent être soumis à ces Puissances dont l'adhésion est nésessaire et qui sont appelées à en bénéficer dans les mêmes conditions que la France et l'Angleterre ...

(٣) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ . الوثائق رقم ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١

وقد أرفق سالسبورى بمشروع المعاهدة مذكرتين مؤرختين فى ٢١ من اكتوبر ١٨٨٧ وتضمنت المذكرة الأولى[١] مسألتين هامتين هما : المطالبة بضرورة موافقة السلطان والحكومات الأوربية على مشروع المعاهدة حتى تكتسب هذه المعاهدة الصفة القانونية وتصبح نافذة فى دائرة القانون الدولى . والمسألة الثانية هى تذكير الحكومة الفرنسية بالتحفظ البريطانى الذى سبقت الإشارة إليه . وانطوت المذكرة الثانية على تفسيرات لبعض المواد العسكرية والسياسية التى وردت فى مشروع الاتفاقية .

وقد قدم فى ١٤ من نوفمبر ١٨٨٧ سفراء فرنسا فى المانيا ، والنمسا والمجر ، وروسيا ، وإيطاليا ، واسبانيا ، ووزيرها المفوض فى هولندا ، مشروع المعاهدة إلى حكومات هذه الدول للموافقة عليها[٢]. اما تركيا فقد قام مونتبللو Montebello السفير الفرنسى فى القسطنطينية بتقديم المشروع إلى الباب العالى فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٨٨٧ . اى قبل الدول الأخرى بيومين ، من قبيل المجاملة للباب العالى[٣] .

وقد أرفقت الحكومة الفرنسية بمشروع المعاهدة الذى قدمته إلى الحكومات الأوربية مذكرة ، تطلق الوثائق عليها لفظة منشور ، جاء فيها أن اللجنة الدولية التى اجتمعت فى سنة ١٨٨٥ لتنظيم استخدام قناة السويس قد فضت جلساتها قبل أن تفرغ من إنجاز جميع أعمالها . ولما كانت هذه اللجنة قد عقدت اجتماعاتها فى باريس فقد رأت الحكومة الفرنسية أنه غدا لزاما عليها أن تستطلع رأى الحكومات الأخرى فى تسوية المسائل التى ظلت معلقة ، وقد وضح أنها مسائل قليلة العدد ، وأنه من اليسير تسويتها إذا التزم الجميع بالمبادىء التى سبق أن وافقت عليها جميع الدول .

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٣٨ من سالسبورى إلى اجرتون ومؤرخة فى ٢١ من أكتوبر ١٨٨٥

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٥٦ بعنوان :

Note verbale communicated to the Marquis of Salisbury by M. Waddington, November, 13, 1887.

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI doc. no. 634

وانظر أيضا الكتاب الأزرق رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٥٥ من سير هوايت Sir w. White السفير البريطانى فى القسطنطينية إلى سالسبورى عبارة عن برقية مؤرخة فى ١٢ من نوفمبر ١٨٨٧

ومضت المذكرة تقول إن الحكومات الأوربية التي اتصلت بها الحكومة الفرنسية قد أجابت بأن الوصول إلى تسوية لمسألة قناة السويس قد بات أمرا ذا أهمية قصوى في السياسة الدولية ، وأن عبء هذه التسوية يقع على عاتق حكومتي فرنسا وبريطانيا بوجه خاص ، وأن الحكومات الأوربية سوف توافق على التسوية التي يستقر عليها رأى هاتين الحكومتين .

وأشارت المذكرة إلى الجهود التي بذلتها الحكومة الفرنسية منذ ذلك الوقت لتسوية الموضوعات التي كانت محل خلاف حتى استطاعت أخيراً أن تحقق هذا الهدف ، وغدا الاتفاق تاما بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية على جميع المسائل المعلقة .

وجاء في ختام المذكرة أن الحكومة البريطانية قد اقترحت أن تتولى الحكومة الفرنسية ، باسم الحكومتين ، تقديم مشروع المعاهدة إلى الحكومات التي كانت ممثلة في لجنة باريس لدراسته والموافقة عليه إذا وجدت أنه مطابق للمبادىء التي استرشدت بها لجنة باريس والتي تحقق الهدف الأسمى وهو حرية الملاحة في قناة السويس في جميع الأوقات[1] .

وقد أضيفت إلى المذكرة الموجهة إلى الدولة العثمانية فقرة ، وافق عليها سالسبورى ، جاء فيها أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية تعلقان أهمية كبيرة على موافقة الباب العالى على مشروع الاتفاقية ، وأن هاتين الحكومتين حريصتان على احترام حقوق الباب العالى والمحافظة عليها . وقامت وزارة الخارجية البريطانية من ناحيتها بتأييد مشروع الاتفاقية لدى الحكومات الأوربية التي اشتركت في لجنة باريس وطلبت إليها الموافقة عليه [2] . كما أبلغتها في نفس الوقت التحفظ البريطاني على الاتفاقيه[3] .

***

يتضح مما سبق أن الربط بين مسألتي قناة السويس وإيريد الجديدة هو الذي

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٤٩

(٢) المصدر السابق وثائق رقم ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١

(٣) وثيقة رقم ٥٣ في المصدر السابق وهي بعنوان .

The Marquis of Salisbury to Her Majesty's Representatives at Berlin, Vienna, Madrid, Rome, the Hague, St. Petersburgh, Constantinople and Cairo.

عجل بتسوية المسألتين فى وقت واحد أو فى وقت متقارب . كان لفرنسا مصلحة فى إبرام اتفاقية القناة اعتقاداً منها أن هـــذه الاتفاقية خطوة لا مناص منها تؤدى إلى جلاء بريطانيا عن مصر . وكان لبريطانيا مصلحة فى أن تنسحب فرنسا فى أمد وجيز من جزر إبريد الجديدة لتقضى على الأخطار التى تصورها غلاة المستعمرين البريطانيين أنها تهدد الممتلكات البريطانية فى الإقيانوسية إذا نجحت فرنسا فى توطيد أقدامها فى هذه الجزر . وهذا الربط أيضاً هو الذى حمل الحكومة البريطانية على نبذ سياسة التسويف والماطلة فى تسوية مسألة القناة بعد اجتماعات لجنة باريس الدولية ، لأن مناقشات هذه اللجنة قد تركت أثراً سيئاً فى دوائر لندن بعد أن نجحت فرنسا فى إيجاد تكتل دولى ضدها داخل اللجنة . ونتيجة لهذا الربط انتقلت محادثات قناة السويس من مرحلة الركود حينا والتعثر حينا آخر إلى مرحلة جديدة اكتسبت فيها طابع المسألة الدولية العاجلة ، وجعلت سالسبورى وزير الخارجية البريطانية يبحثها فى باريس فى مفاوضات مباشرة مع فلورانس وزير خارجية فرنسا .

وفى الواقع انتهت المفاوضات الخاصة بهاتين المسألتين بين باريس ولندن فى وقت واحد . وتولت الحكومة الفرنسية تبليغ مشروع معاهـدة القناة إلى حكومات الدول الأوربية فى ١٤ من نوفمبر ١٨٨٧ للموافقة عليها — كما مر بنا — تمهيدا لاتخاذ الاجراءات التكميلية لإبرامها ثم التصديق عليها ، حتى إذا اطمأنت الحكومة الفرنسية إلى مسألة القناة انصرفت إلى إتمام الاتفاق الخاص بإبريد الجديدة وفرغت منه فى خلال يومين ، إذ تم التوقيع عليه بينها وبين بريطانيا فى ١٦ من نوفمبر ١٨٨٧ . وفى هذا الاتفاق وافقت فرنسا على الجلاء عن جزر إبريد الجديدة فى خلال أربعة أشهر من تاريخ التوقيع عليه ، فى مقابل موافقة بريطانيا على أن تعلن فرنسا حمايتها على جزر تحت الريح Les Iles sous le Vent ، كما نص فى هـذا الاتفاق على إنشاء لجنة بحرية مختلطة Commission Navale Mixte تتكون من ضباط بحريين فرنسيين وبريطانيين يتولون أعمال الشرطة فى جزر إبريد الجديدة ، بحجة حماية المستوطنين الفرنسيين والبريطانيين من حوادث الاعتداء التى يتعرضون لها من السكان الأصليين .

وإذا كانت الدبلوماسية الفرنسية قد نجحت فى الربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة بحيث تمت تسوية هاتين المسألتين فى وقت واحد تقريباً ،

فان الدبلوماسية البريطانية قدمأثبتت تفوقها على الدبلوماسية الفرنسية . فمعاهدة قناة السويس كانت أمام التحفظ البريطانى غير نافذة المفعول ، كما سنرى ، وأما اتفاق إبريد الجديدة فقد حققت فيه الدبلوماسية البريطانية نصراً حقيقياً ، لأنها استطاعت أن تتسلل إلى هذه الجزر تحت ستار اللجنة البحرية المختلطة ، وأن تقف على قدم المساواة مع فرنسا فى كل حق ادعته الأخيرة لنفسها فى هذا الأرخبيل . بل إن هذا الاتفاق يعتبر بداية قيام الحكم الثنائى condominium الفرنسى البريطانى الذى تخضع له جزر إبريد الجديدة حتى اليوم . أما اعتراف بريطانيا بضم جزر تحت الريح إلى فرنسا ، فان هذا الاعتراف كان إقراراً للأمر الواقع ، لأن هذه الجزر كانت منطقة نفوذ فرنسية منذ سنوات طويلة سابقة على عقد الاتفاق البريطانى الفرنسى فى ١٦ من نوفمبر سنة ١٨٨٧ . فقد استولت فرنسا فى عام ١٨٨٠ على عدة جزر فى المحيط الهادى كان من بينها جزر تحت الريح وجزيرة هواهين Houahine ورايتيا Raiateia بحجة أن السكان الأصليين فى هذه الجزر قد طلبوا حماية البحرية الفرنسية لهم (١) . ويعلق بعض الفرنسيين على الاتفاق البريطانى الفرنسى المؤرخ فى ١٦ من نوفمبر ١٨٨٧ تعليقاً لاذعاً ، إذ يقول إن بريطانيا قد حصلت بمقتضى هذا الاتفاق على امتيازات معينة صريحة فى مقابل تنازل سلبى Abandons Négatifs . (٢)

***

وإذا كانت التسوية الأولى لمسألة إبريد الجديد قد تمت بابرام الاتفاق البريطانى الفرنسى فى ١٦ من نوفمبر ١٨٨٧ فان تسوية مسألة قناة السويس قد تمت بعقد اتفاقية القسطنطينية فى ٢٩ من اكتوبر ١٨٨٨ . ولم يكن هذا التأخير الزمنى — وقد قارب السنة — مرده إلى أن الاتفاق الأول كان معاهدة ثنائية traité bilatéral أطرافها دولتان فقط بينما كان الاتفاق الثانى معاهدة جماعية traité collectif بلغ عدد الدول الأطراف فيها تسعا . ولكن كان التأخير لأسباب أعمق من هذا بكثير .

لقد ساء محمد كياميل باشا الصدر الأعظم وكذلك محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية أن تصل الحكومة الفرنسية إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية بخصوص قناة السويس التى هى من أهم جوانب المسألة المصرية فى الوقت الذى حاربت فيه فرنسا اتفاقية

---

(١) Bourgeois Emile, ouvr. cit., t. IV, pp. 187-188 L'annexion par la France des Iles Sous-le-vent (1880)—Convention franco-anglaise du 16 novembre 1887.

(٢) Hanotaux G. : Histoire des Colonies Francaises etc, ouvr. cit., p. 488.

الجلاء عن مصر والتي عقدت في ٢٢ من مايو ١٨٨٧ . وندم السلطان على امتناعه عن التصديق على هذه الاتفاقية، وحاول استئناف المفاوضات لبعث هذه الاتفاقية أو اتفاقية أخرى على غرارها [١]، فرفضت الحكومة البريطانية . ورد لورد سالسبورى على العرض الذى تقدم به إليه رستم باشا السفير التركى فى لندن بأن الاحتلال البريطانى لمصر يجب أن يطول الآن أمده حتى تطمئن الحكومة البريطانية إلى أن الحكومة المصرية قد بلغت من القوة والمقدرة حداً تستطيع معه مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية ومنعها . . . وإن مسئولية إطالة أمد الاحتلال يجب أن تقع على عاتق الحكومة العثمانية ، لأن بريطانيا قد فعلت كل ما فى استطاعتها لتقصير أجل الاحتلال [٢].

لمس دى مونتبللو de Montebello السفير الفرنسى فى القسطنطينية هذا الموقف الشائك ، وشعر أن الصدر الأعظم ووزير الخارجية العثمانية يريدان أن يثأرا من فرنسا ، لأنها هى التى تسببت فى إخباط اتفاقية الجلاء عن مصر ، وأنهما يعملان بدورهما على إحباط اتفاقية قناة السويس ، وأنهما يثيران مخاوف السلطان من نتائج إقرار الاتفاقية بمقولة إنها تؤدى إلى تدعيم مركز الإنجليز على ضفاف النيل وإلى إطلاق يد الخديو فى انتهاج السياسة التى تحلو له [٣] . وأخذ السفير على عاتقه تبديد مخاوف السلطان، فاتخذ طريقه إليه فى القصر سرباً، وأوضح له أن الحكومة الفرنسية كانت تضع فى اعتبارها الأول ، خلال المراحل التى مرت بها الاتفاقية المقترحة لقناة السويس ، المحافظة على مصالح الدولة العثمانية وتأكيد حقوق السيادة التى يتمتع بها سلطان تركيا على مصر . واستمع إليه السلطان ملياً ، وطلب أن يوافيه بنسخة خاصة من مشروع الاتفاقية ليدرسها على حدة . وقد أسرف السفير فى تفاؤله فكتب إلى وزير خارجية فرنسا يقرر أنه استطاع أن يفصل بين السلطان وبين وزرائه ، وأن نصائحهم وآراءهم لا تلقى قبولاً فى نفس السلطان الذى أصبح لا يثق فيهم بعد أن اكتشف أنهم يتبعون حياله سياسة ملتوية . وقد أوغل السفير فى هذا الاعتقاد

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٥٩ من سالسبورى إلى هوايت السفير البريطانى فى القسطنطينية ومؤرخة فى ٢١ من يوليو ١٨٨٧

(٢) الوثيقة رقم ٥٤ فى المصدر السابق .

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. Tome VI doc. no. 634. Lettre particulière. M. de Montebello à M. Flourens, en date du 4 novembre, 1887.

إيغالا بعيداً ، وظن أنه استطاع أن يضم السلطان إلى جانب فرنسا [1] ، ولكنه كان فى هذا الظن واهما ، لأن السلطان كان يبيت أمراً .

لاح للسلطان عبد الحميد أن يستغل مشروع اتفاقية قناة السويس فى إنهاء الاحتلال البريطانى لمصر . فقد كان تواقا إلى إعادة فتح باب المفاوضات فى هذا الصدد مع بريطانيا بعد أن فشلت اتفاقية الجلاء التى عقدها سير هنرى درمندولف فى ٢٢ من مايو ١٨٨٧ ، وألح السلطان على الحكومة البريطانية إلحاحاً شديداً ، وتذرعت الأخيرة بأعذار شتى لتبرير إبقاء قواتها فى مصر . فرأى عبد الحميد أن يتخذ من مسألة قناة السويس وسيلة للضغط على بريطانيا كى تبرم معه اتفاقا يحقق جلاء القوات البريطانية عن مصر . وكانت خطته هى تجميد مشروع اتفاقية القناة بحجة أنه يتعذر تنفيذها إلا إذا تم اتفاق سابق بين الحكومتين البريطانية والعثمانية لإنهاء الاحتلال البريطانى لمصر [2] . وبعبارة أخرى أراد السلطان عقد اتفاق للجلاء عن مصر أولا ، ثم إبرام اتفاقية قناة السويس ثانياً .

وارتاعت الحكومة الفرنسية من هذا الاتجاه الدبلوماسى العثمانى ، ونظرت إليه من زاويتها الخاصة . فرأت انه يؤدى إلى تأجيل تسوية مسألة قناة السويس إلى أجل غير مسمى . وكانت هذه المسألة من أمهات المسائل فى السياسة الخارجية لفرنسا وموضع الاهتمام العميق من رؤساء وزاراتها ووزراء خارجيتها المتعاقبين . ولم يكن فى الأفق القريب أو البعيد للسياسة الدولية وقتئذ احتمال يجعل بريطانيا تقدم على عقد اتفاق آخر مع الدولة العثمانية للجلاء عن مصر بعد ان امتنع السلطان عن التصديق على اتفاقية الجلاء التى أبرمت فى ٢٢ من مايو ١٨٨٧ . وفى نفس الوقت لم يكن يضير الحكومة البريطانية أن تتأخر تسوية مسألة القناة سنوات اخرى ، فقد حققت الدبلوماسية البريطانية أهدافها : نجحت فى تسوية مسألة إبريد الجديدة ، ونجحت فى حمل فرنسا على الجلاء عن هذه الجزر ، ونجحت فى آن تشارك فرنسا مشاركة فعلية فى حكم هذه الجزر تحت ستار اللجنة البحرية المختلطة . وهى ، بجانب هذه المكاسب التى حققتها

---

(١) Ibid.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VII. doc. on. 103 Télégramme très confidentiel M. de Montebello Ambassadeur de France à Constantinople à M. Goblet, Ministre des Aff., Etr., en date du 21 avril, 1888.

تنفرد بالسيطرة الفعلية على قناة السويس وتتمتع بمركز ممتاز فى مصر لا تدانيه فيه أية دولة اوربية اخرى . وحسبها أنها أبدت رغبتها فى وضع نظام محدد ، تتفق على تفصيلاته الدول الكبرى ، يحقق حرية مرور جميع السفن فى كل الأوقات عبر قناة السويس . وذلك فى منشور اللورد جرانفل المؤرخ فى ٣ من يناير ١٨٨٣ وتأكد فى تصريح لندن المؤرخ فى ١٧ من مارس ١٨٨٥

نشطت الدبلوماسية الفرنسية نشاطا كبيراً لإحباط الخطة العثمانية ، وركزت جهودها فى القسطنطينية وفى لندن على السواء . أرسل جوبليه Goblet وزير خارجية فرنسا برقيتين متعاقبتين يكمل بعضهما بعضاً فى يومى ١٨، ١٩ من أبريل سنة ١٨٨٨ إلى مونتبللو Montebello السفير الفرنسى فى القسطنطينية وكان مما جاء فيها أن الحكومة الفرنسية تعتقد اعتقادا راسخا أن أفضل وسيلة للوصول إلى تسوية نهائية للمسألة المصريه هى الانتهاء أولا من تسوية مسألة قناة السويس ، لأن اهتمام الدول الأوربية ، وبخاصة بريطانيا ، بمسألة القناة يفوق اهتمامها بغيرها من المسائل ، كما أن تسوية مسألة القناة يجعل انجلترا تفقد أهم سبب تتذرع به لإبقاء قواتها فى مصر . وأضاف وزير الخارجية إلى ذلك أن التسويف فى تسوية مسألة القناة يدعم المركز الإنجليز على ضفاف النيل إلى درجة يصبح معها من الصعب تعديل هذا المركز (١) .

وعلى أثر تلقى هاتين البرقيتين طلب دى مونتبللو de Montebello السفير الفرنسى مقابلة السلطان ، وتحدث إليه فى ٢٠ من أبريل ١٨٨٨ حديثاً مزج فيه بين الإقناع والوعيد . فشرح للسلطان عبد الحميد المصلحة الواضحة والعاجلة التى تعود من المبادرة إلى تسوية مسألة القناة ، إذ أن هـذه التسوية هى الطريق الطبيعى لإنهاء الاحتلال البريطانى لمصر وحل المسألة المصرية برمتها حلا نهائيا ، وأفاض السفير فى شرح

---

(١) هذا هو نص البرقية الأولى وتاريخها ١٨ من أبريل ١٨٨٨ ومذكورة فى هامش الوثيقة رقم ١٠٢

« Le Gouvernement de la République a toujours été convaincu que le meilleur moyen d'arriver au règlement définitif de la question d'Egypte était de régler d'abord la question du canal, parce que c'est celle qui intéresse le plus les Puissances européennes et notamment l'Angleterre. Lorsque cette question sera réglée, la présence des troupes anglaises en Egypte aura perdu sa meilleure raison d'être, à condition pourtant que des lenteurs interminables n'auront pas lassé la patience de tout le monde et affermi la situation des Anglais sur les bords du Nil à tel point qu'il ne sera plus possible de la modifier ».

Doc. Dipl. Fr. 1ère Serie t. VII. doc. no. 102.

الجهود التى بذلتها حكومته لدى الحكومة البريطانية للتغلب على الاعتراضات التى أثارتها هذه الحكومة على بعض مواد الاتفاقية المقترحة لقناة السويس ، وخرج من ذلك إلى القول بأنه من المؤسف أن تضيع هباء هـذه الجهود بسبب الاعتراضات التى يثيرها البـاب العالى والتسويف الذى يعمد إليه ، ثم جنح السفير للتهديد فقال إنه إذا فشلت جهود الحكومة الفرنسية فى إبرام اتفاقية القناة فستجد نفسها مضطرة الى ترك الطريق الذى سلكته إلى ذلك الوقت ، وتبحث عن وسيلة أخرى تعيد بها التوازن الدولى فى منطقة البحر المتوسط (١) .

وجاء هذا التهديد الفرنسى مؤيداً للمخاوف التى كانت تساور السلطان عبد الحميد من نيات عدوانية تضمرها فرنسا وبريطانيا لاقتسام بعض الممتلـكات العثمانية فى الشرق العربى فيما بينهما . فقد حدث قبيل هذه المقابلة بشهرين تقريباً ـــ وعلى وجه التحـديد فى ١٢ من فبراير ١٨٨٨ ـــ أن استفسر السلطان عبد الحميد من نيللودوف Nélidoff السفير الروسى فى القسطنطينية عما إذا كان هناك اتفاق قد تم بين فرنسا وبريطانيا ، بشأن سوريا ومصر ، فتأخذ فرنسا سوريا فى مقابل اعترافها بضم مصر إلى بريطانيا ، وعما إذا كان هناك مشروع يبحث فى تلك الآونة لعقد محالفة بين فرنسا وبريطانيا وروسيا . وقد نفى السفير الروسى للسلطان هذا الخبر بشقيه ، وقد أسر السفير الروسى بهذا الحديث فى اليوم التالى لزميله السفير الفرنسى فأبرق به إلى باريس (٢) .

أما فى لندن فلم تكن جهود الدبلوماسية الفرنسية لإحباط الخطة العثمانية بأقل من جهودها فى القسطنطينية ، بل لعل الدبلوماسية الفرنسية فى العاصمة البريطانية قد خرجت بعض الشىء على المبـدأ الأساسى الذى التزمت به فرنسا منذ الاحتـلال البريطانى لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، كانت فرنسا من أشد الدول اعتراضا على هذا الاحتلال وكانت لا تنفك عن مطالبة الحكومة البريطانية بالجلاء . ولكن فى ربيع سنة ١٨٨٨ ـــ ولعل هذا الأمر يحدث لأول مرة منذ بدء الاحتلال ـــ غدت الحكومة الفرنسية

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Sèrie t. VII, doc. no 102 Télégramme confidentiel M. de Montebello à M. Goblet, Ministre des Aff., Etr., en date du 20 avril, 1880.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Serie t. VII., doc. no. 45. Télégramme très confidentiel. M. de Montebello à M. Flourens, Ministre des Aff., Etr.. en date du 13 février, 1888.

تنصح الحكومة البريطانية بالتريث فى الدخول فى مفاوضات مع تركيا للجلاء عن مصر حتى يتم أولا التوقيع على اتفاقية القناة .

استدعت وزارة الخارجية الفرنسية إلى باريس فى اوائل أبريل ١٨٨٨ وادنجتون Waddington السفير الفرنسى فى لندن لإجراء مشاورات معه بخصوص موقف الحكومة العثمانية من اتفاقية القناة (١) . وفى اثناء غيابه قابل جوسيرا Jusserand القائم بأعمال السفارة الفرنسية فى لندن لورد سالسبورى وزير خارجية بريطانيا فى ١١ من ابريل ١٨٨٨ واستفسر منه عما إذا كانت الحكومة البريطانية تعتزم فتح باب المفاوضات من جديد مع الحكومة العثمانية لجلاء بريطانيا عن مصر . فنفى لورد سالسبورى وجود هذه النية لدى الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت متعللا بأن الدراويش يثيرون القلاقل على حدود مصر الجنوبية ، وأضاف إلى ذلك قوله إن فشل اتفاقية الجلاء عن مصر والتى عقدت فى ٢٢ من مايو ١٨٨٧ كان حادثاً مؤلما بالنسبة لبريطانيا ، ولذلك فانالحكومة البريطانية لن تقدم على اجراء مفاوضات جديدة مع تركيا للجلاء عن مصر إلا إذا كانت على ثقة من أن المفاوضات أدنى إلى النجاح منها إلى الفشل. وخرج منذلك إلى القول بأن الحكومة البريطانية رأت أن تترك مسألة الجلاء عن مصر لتنام Nous avons laissé dormir la question (٢)

وقد أوضح القائم بأعمال السفارة الفرنسية لوزير خارجية بريطانيا وجهة نظر حكومة باريس وهى صعوبة تسوية مسألتين مع السلطان عبد الحميد فىوقت واحد، وهما مسألة قناة السويس ومسألة الجلاء ، فعبد الحميد سلطان متردد لايقر له قرار ، والطريقة المثلى هى معالجة كل مسألة منهما بعد الانتهاء من الأخرى ، وقال إن الحكومتين الفرنسية والبريطانية قد عرضتا على الباب العالى مسألة قناة السويس أولا ، ويجدر بهاتين الحكومتين أن تركزا جهودهما لإبرام اتفاقية القناة، وأبدى مخاوفه من أنه إذا بحثت مسألة أخرى فى نفس الوقت مع مسألة القناة لأدى الموقف إلى مزيد من التعقيدات وإلى فشل المسألتين معاً . واختتم جوسيرا Jusserand حديثه

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VII., docs. nos. 105 et 108.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VII doc. no. 98. Télégramme très confidentiel. M. Jusserand Chargé d'Affaires de France à Londres à M. Goblet, Ministre des Aff. Etr., en date du 11 avril 1888.

بأن طلب إلى لورد سالسبورى أن يبعث بتعليمات عاجلة إلى السفير البريطانى فى القسطنطينية كى يضاعف من جهوده فى الضغط على الباب العالى لإبرام اتفاقية القناة [1] .

ولا يدل رأى الحكومة الفرنسية على أنها تشاطر الحكومة البريطانية رأيها مشاطرة تامة فى وجوب تأجيل بحث مسألة الجلاء عن مصر ، فالحكومتان متفقتان فى ذلك الوقت على إرجاء مفاوضات الجلاء. ولكن يلاحظ الفروق العميقة بين موقف الحكومتين من حيث دوافع التأجيل وتوقيت التأجيل : فالحكومة الفرنسية جد حريصة على الإسراع بعقد اتفاقية القناة حتى تقضى على المخاوف التى تذرعت بها بريطانيا لاحتلال مصر ، وبذلك ينهار سبب هام من الأسباب الرئيسية لبقاء الاحتلال فى مصر ، وضاقت الحكومة الفرنسية ذرعا بالتسويف الذى يعمد إليه السلطان عبد الحميد والساسة الأتراك فى إبرام اتفاقية القناة ، وأدركت أنهم يبتغون من هذا التسويف عقد اتفاقية للجلاء عن مصر أولا ثم إبرام اتفاقية القناه ثانيا . وشعرت أيضا أن الحكومة البريطانية لا تبدى رغبة صادقة فى الجلاء الناجز غير المشروط . ومن هنا نبتت لديها الفكرة بألا تدخل الحكومة البريطانية فى مفاوضات مع الباب العالى للجلاء عن مصر إلا بعد إبرام اتفاقية القناة ، فالتأجيل فى نظر الحكومة الفرنسية موقوت بالتوقيع على الاتفاقية المقترحة لقناة السويس والتصديق عليها . أما الحكومة البريطانية فترى تأجيل بحث مسألة الجلاء إلى أجل غير مسمى. ودوافع التأجيل لديها معروفة هى التمكين للاحتلال ، لأن الزمن كان حليفاً قوياً للانجليز ، فكلما طال أمد الاحتلال كلما رسخت أقدامهم فى مصر . ولم يكن يضير الحكومة البريطانية فى سنة ١٨٨٨ أن تشترك مع الحكومة الفرنسية فى الضغط على الباب العالى ارضاء لفرنسا لتسوية مسألة القناة الأمر الذى يمهد لتقارب جديد قد يحدث بين باريس ولندن بعد أن اكفهر الجو السياسى بين البلدين منذ مطلع سنة ١٨٨٣ بسبب المسألة المصرية .

وليس أدل على اهتمام الحكومة الفرنسية بالقضاء على الخطة الدبلوماسية العثمانية من أنه لما عاد وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن إلى مقر وظيفته اقترح فى ٢٥

---

(١) Ibid.

من ابريل ١٨٨٨ على لورد سالسبورى وزير الخارجية البريطانية النقط الأربع الآتية التى أصبحت تدور فى نطاقها السياسة الفرنسية إزاء اتفاقية القناة والمسألة المصرية بوجه عام :

(أولا) إن الحكومة الفرنسية لا تعارض اطلاقا إجراء مفاوضات بين بريطانيا وتركيا بشأن جلاء القوات البريطانية عن مصر .

(ثانيا) ترى الحكومة الفرنسية ألا تبدأ مفاوضات الجلاء بين الحكومتين البريطانية والعثمانية قبل أن تسوى أولا مسألة قناة السويس تسوية نهائية بابرام الاتفاقية المقترحة .

(ثالثا) تبذل الحكومتان الفرنسية والبريطانية جهودهما لدى الباب العالى لعقد اتفاقية القناة .

(رابعاً) تطلب الحكومة الفرنسية أن توقفها الحكومة البريطانية أولا بأول على مراحل مفاوضات الجلاء (١) .

ولكن وزير الخارجية البريطانية لم يشأ أن يقيد حكومته بارتباطات دقيقة محددة مع الحكومة الفرنسية ، بل التزم الصمت المطبق إزاء الاقتراح الفرنسى بعدم دخول بريطانيا فى مفاوضات مع تركيا للجلاء عن مصر قبل إبرام اتفاقية القناة . واكتفى بأن صرح بأنه سبق أن بعث بتعليمات إلى سير هوايت Sir W. White السفير البريطانى فى القسطنطينية للضغط على الباب العالى لإقرار اتفاقية القناة ، وأنه سيبعث بتعليمات على غرارها ليضاعف السفير من جهوده فى هذا الصدد . وقرر أنه لم يطرأ تعديل على سياسة الحكومة البريطانية إزاء المسألة المصرية ، وأنه حريص على تجنب وقوع خلاف بين فرنسا وبريطانيا بخصوص هذه المسألة . فأجابه السفير الفرنسى بأنه يصعب على الحكومة البريطانية الوصول إلى تسوية للمسألة المصرية إلا إذا كان الوفاق يسود سياسة الحكومتين الفرنسية والبريطانية .

---

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VII. doc. no. 108. Télégramme confidentiel. M. Waddington, Ambassadeur de France à Londres, à M. Goblet, Ministre des Aff. Etr., en date du 25 avril, 1888.

وإذا كانت السياسة الفرنسية قد انتصرت فى النهاية على الخطة العثمانية فتم التوقيع على اتفاقية القناة بعد ذلك بستة أشهر دون أن تسوى أولا مسألة الجلاء عن مصر ، فان عدم تسوية هذه المسألة كان إخفاقاً للسياسة الفرنسية لا شك فيه ، لأن الاحتلال البريطانى لمصر طال أمده ، ولا يخفف من أثر هذا الإخفاق أن فرنسا تقاضت بعد ذلك ، فى تصريح سنة ١٩٠٤ ، ثمن بقاء الاحتلال البريطانى فى مصر باطلاق يدها فى مراكش ، أما الحكومة العثمانية فاذا كانت قد أخفقت فى تقديم تسوية مسألة الجلاء على تسوية مسألة القناة إلا أنها نجحت فى حمل الدولتين الكبيرتين ، بريطانيا وفرنسا ، على إدخال تعديلات هامة على بعض النصوص العسكرية والسياسية التى وردت فى مشروع اتفاقية القناة . وقد حققت هذه التعديلات إلى حد بعيد للغاية أهداف الحكومة العثمانية من انفرادها بمركز ممتاز فى مواد الاتفاقية كدولة صاحبة سيادة على مصر وكامبراطورية إسلامية على رأسها سلطان يعتبر نفسه خليفة المسلمين ويتزعم حركة الجامعة الاسلامية . فكانت هـذه التعديلات انتصاراً لا يستهان به للدبلوماسية العثمانية .

كان من أهم هذه التعديلات تعديلان : أحدهما عسكرى ، ويتمثل فى إعفاء تركيا من القيود العسكرية التى تستهدف تأمين حرية الملاحة فى قناة السويس والواردة فى مشروع المعاهدة ، وذلك عند ما يكون الأمر متعلقاً بقيام قواتها المسلحة بالدفاع عن الحجاز واليمن ، وهما من الممتلكات العثمانية فى ذلك الوقت .

وكان التعديل الثانى سياسياً تلخص فى أن تكون رياسة الاجتماعات الدورية السنوية التى يعقدها ممثلو الدول المكلفون بمراقبة تنفيذ الاتفاقية لمندوب عثمانى بدلا من عميد الهيئة السياسية فى مصر ، وأن يشترك مندوب عن الحكومة المصرية فى هذه الاجتماعات ، ويرأسها فى حالة غياب المندوب العثمانى ، وأن تقتصر رياسة عميد الهيئة السياسية على الاجتماعات الطارئة التى يعقدها أولئك الممثلون فى حالة ظهور أو توقع خطر يهـدد سلامة القناة أو حرية المرور بها .

واتجه رأى الحكومتين الفرنسية والبريطانية أول الأمر إلى أن تقوما بابلاغ مشروع الاتفاقية فى صورته المعدلة الأخيرة إلى حكومات الدول التى كانت ممثلة

فى لجنة باريس سنة ١٨٥٥ للموافقة عليه [1] ثم رأت حكومة باريس أن تشرك الحكومة العثمانية فى هذا الإجراء، ورحبت الحكومة البريطانية بهذه الفكرة، لأنها رأت أن فى إشراك الباب العالى مع الحكومتين الفرنسية والبريطانية فى هذا الإجراء الدبلوماسى ارتباطاً أدبياً يربط الباب العالى بالاتفاقية بعروة وثقى لا انفصام لها، فلا يعود إلى المطالبة بتعديلات جديدة ينجم عنها مزيد من المشكلات والمتاعب، ولكنها نصحت بأن تعرض هذا الاقتراح على الباب العالى أولا للموافقة عليه [2]. وهكذا استقر الرأى على أن يقوم سفراء فرنسا وبريطانيا وتركيا — فى يوم واحد ولكن كل منهم على حدة — بابلاغ مشروع الاتفاقية إلى حكومات كل من روسيا، وألمانيا، والنمسا والمجر، وإيطاليا، واسبانيا، وهولندا [3] وقد أرفقت كل من هذه الحكومات الثلاث بمشروع الاتفاقية مذكرة موحدة [4]. جاء فيها أن هذه الاتفاقية الدولية تستهدف تنظيم حرية الملاحة فى قناة السويس فى جميع الأوقات، وأن الحكومة العثمانية كانت قد طلبت إدخال تعديلات على مواد قليلة العدد فى مشروع الاتفاقية، فوافقت عليها الحكومتان الفرنسية والبريطانية بعد أن تبادلتا الرأى فيما بينهما، وغدت الحكومات الثلاث يسودها الاتفاق التام على المشروع الجديد للاتفاقية، وأبدت رجاءها فى أن تجد الحكومات التى كانت ممثلة فى لجنة باريس، فى مشروع الاتفاقية الجديد المرفق، تطبيقاً أميناً لما سبق أن أقرته هذه الحكومات من مبادىء تحقق وتؤكد حرية الملاحة فى قناة السويس فى جميع الأوقات.

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٣٩ من سالسبورى إلى وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن ومؤرخة فى ١١ من يونيو ١٨٨٨ ووثيقة رقم ٤٠ من سالسبورى إلى ليتون Lytton السفير البريطانى فى باريس ومؤرخة فى ١١ من يونيو ١٨٨٨

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٤١ من سالسبورى إلى ليتون السفير البريطانى فى باريس ومؤرخة فى ١٢ من يونيو ١٨٨٨

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VII doc. no. 152. Télégrammes. M. Coblet, Ministre des Aff. Etr. aux Représentants Diplomatiques de France à Saint-Pétersbourg, Berlin, Vienne, Rome. Madrid, La Haye, en date du 28 juin, 1888.

(٤) تجد النص الرسمى لهذه المذكرة فى الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ مرفق رقم ٢ للوثيقة رقم ٤٥ من سالسبورى إلى ممثلى بريطانيا الدبلوماسيين لدى بلاط كل من روسيا وألمانيا والنمسا والمجر وأسبانيا وهولندا، بتاريخ ٣٠ من يونيو ١٨٨٨

وقد تقرر أن يتم التوقيع على الاتفاقية فى القسطنطينية على أساس أنها عاصمة الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر التى تمر فى أرضها قناة السويس . ومضى وقت طويل دون أن يتخذ الباب العالى الإجراءات الدبلوماسية المعتادة للتوقيع على الاتفاقية ، وشعرت الحكومة الفرنسية أن الباب العالى يعمد إلى سياسة التسويف ، فطلبت إلى وزارة الخارجية البريطانية فى ١٨ من اغسطس ١٨٨٨ أن ترسل تعليمات عاجلة إلى السفير البريطانى فى القسطنطينية كى ينضم إلى زميله السفير الفرنسى هناك فى الضغط على الباب العالى للاسراع نحو توقيع الاتفاقية(١) .

ولم تجد المحاولات الدبلوماسية العديدة التى بذلت فى هذا الصدد(٢) . وانقضى وقت طويل ومشروع الاتفاقية فى حالة تجميد . وضاقت فرنسا ذرعاً ، وقابل السفير الفرنسى سلطان تركيا فى ٢٢ من اكتوبر ١٨٨٨ لهذا الغرض ، وأثمرت المقابلة فاجتمع مجلس الوزراء التركى فى اليوم التالى وقرر الموافقة على مشروع الاتفاقية(٣). وأخيراً تم التوقيع عليها فى ٢٩ من اكتوبر ١٨٨٨ واشترك فى التوقيع عليها ممثلو تسع دول(٤) . وكانت المادة الأخيرة فى هذه الاتفاقية وهى المادة السابعة عشرة

---

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٦٨ من سالسبورى إلى هوايت Sir W. White السفير البريطانى فى القسطنطينية ومؤرخة فى ٢٠ من أغسطس ١٨٨٨

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٧١ من هوايت إلى سالسبورى ومؤرخة فى ٤ من سبتمبر ١٨٨٨

(٣) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٧٤ من هوايت إلى سالسبورى ومؤرخة فى ٢٥ من أكتوبر ١٨٨٨ وانظر أيضا مرفق هذه الوثيقة ، وهو عبارة عن مذكرة صادرة من السفارة الفرنسية فى القسطنطينية ومؤرخة فى ٢٤ من أكتوبر ١٨٨٨ إلى السفير البريطانى فى القسطنطينية .

(٤) كانت هذه الدول التسع هى : فرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وأسبانيا وبريطانيا وإيطاليا وهولندا (الأراضى المنخفضة) وروسيا وتركيا . وقد ذكرت فى ديباجة الاتفاقية : الألقاب الرسمية لرؤساء الدول الأطراف فى الاتفاقية : وهى رئيس الجمهورية الفرنسية ، وجلالة امبراطور ألمانيا وملك بروسيا ، وجلالة إمبراطور النمسا وملك بوهيميا وملك المجر الرسولى ، وملك أسبانيا النائبة عنه الملكة الوصية على العرش ، وجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا وامبراطورة الهند ، وجلالة ملك إيطاليا ، وجلالة ملك الأراضى المنخفضة ودوق لكسمبورج ، وجلالة إمبراطور سائر الروسيين ، وجلالة إمبراطور العثمانيين .

والنص الرسمى الكامل للاتفاقية مذكور فى عدة مراجع نكتفى بذكر ثلاثة منها :

Blue Book. Commercial No. 2. 1889. C. 5623

Hurewitz J. C., ouvr. cit., t. I., pp. 202-205.

Dr. B. Boutros Ghali et Youssef Chlala : Le Canal de Suez 1854-1957. Chronologie Documents. Alexandrie. 1958. pp. 16-19.

قد نصت على أن يصدق على الاتفاقية ويتم تبادل وثائق التصديق عليها فى مدة أقصاها شهر أو أقل إن أمكن . ولكن لم يتم هذا التبادل إلا فى ٢٨ من ديسمبر ١٨٨٨ أى بتجاوز المدة المنصوص عليها فى هذه المادة .

* * *

لم ينته الربط بين مسألتى قنـاة السويس وإبريد الجديدة فى سنة ١٨٨٧ ، بل ظل هذا الربط ملحوظاً حتى عام ١٩٠٤ حين عقد الوفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا .

ذكرنا أن بريطانيا قد قرنت توقيعها على اتفاقية الآستانة المنعقدة فى ٢٩ من اكتوبر ١٨٨٨ بتحفظ عام علي أحكام هذه الاتفاقية « فيما إذا تعارضت مع الحـالة المؤقتة الاستثنائية التى توجد بها مصر الآن ، وإذا كان من شأنها عرقلة حرية الحكومة البريطانية فى العمل أثناء احتلال مصر بقوات صاحبة الجلالة البريطانية » .

ومدلول هذا التحفظ أن لبريطانيا أن تتحلل من نصوص اتفاقية الآستانة ، كلها أو بعضها ، إذا كانت هـذه النصوص تتعارض مع مقتضيات احتلالها لمصر وتعرقل حريتها فى العمل أثناء وجود قوات الاحتلال فى الأراضى المصرية . ولا يخفف من أثر هذا التحفظ أنه مؤقت يزول بمجرد زوال السبب الذى دعا إليه ، وهو الاحتلال البريطانى لمصر ، لأن الحكومة البريطانية كانت قد وطدت العزم على عدم الجلاء عن مصر ، وأعلنت ذلك صراحة بعد أن امتنع سلطان تركيا عن التصديق على اتفاقية الجلاء عن مصر والمنعقدة فى ٢٢ من مايو ١٨٨٧ ، إذ قرر سالسبورى أن احتلال بريطانيا لمصر سيطول أمده ، وأن تركيا هى المسئولة عن ذلك ، وأن بريطانيا ستنتهج السياسة التى ترتضيها لنفسها .

وقد انقسمت الآراء بشأن مدى أثر هذا التحفظ البريطانى على أحكام الاتفاقية ، فبعض فقهاء القانون الدولى العام ذوو الميول الإنجليزية يقررون أن بريطانيا قد أسهمت مع الدول فى وضع وإقرار نظام نهائى يضمن فى كل وقت ولجميع الدول حرية استخدام قناة السويس ، وأن اتفاقية الآستانة التى تضمنت هـذا النظام تعتبر قائمة ونافذة قانوناً بمجرد أن تمت إجراءات التصديق عليها فى ٢٨ من ديسمبر١٨٨٨ ، ويتعين على بريطانيا،شأنها فى ذلك شأن الدول الأطراف فيها،أن تحترم نصوصها ، ولكن

لها بمقتضى تحفظها الناشىء عن وجود قوات بريطانية تحتل مصر احتلالا مؤقتاً أن تتحلل من أي نص من نصوص الاتفاقية يصطدم مع أحد تدابيرها . ويرى فقهاء القانون الدولى العام ذوو الميول الفرنسية أن التحفظ البريطانى يؤدى ، طوال مدة سريانه ، لتوقيف نفاذ المعاهدة برمتها . ويعزز هذا الفريق رأيه بتصريح أدلى به وكيل وزارة الخارجية البريطانية فى ١٢ من يوليو ١٨٩٨ أمام مجلس العموم قال فيه إن الاتفاقية قائمة بالتأكيد، ولكنها لم تدخل دور التنفيذ العملي بسبب التحفظ البريطانى .

وقد توسعت بريطانيا فى الاستفادة من تحفظها واستغلت مركزها الانفرادى الممتاز فى القناة والمستند إلى الاحتلال فعطلت أحكام الاتفاقية التى كان لها أقل مساس بنفوذها أو عرقلة لحريتها فى العمل . وخضع مركز القناة خضوعا كاد يكون تاما لما تمليه عليه السياسة البريطانية حتى غدت اتفاقية ١٨٨٨ قد توقف نفاذها.

أعربت الدول الأوربية عن رغبتها فى الغاء التحفظ البريطانى حتى تنفذ اتفاقية ١٨٨٨ تنفيذا فعلياً ، وكانت فرنسا فى طليعة هذه الدول . وماطلت بريطانيا فى التنازل عن هذا التحفظ ، ثم حدث فى بداية القرن العشرين انقلاب فى ميزان القوى بين الدول الأوربية ، وغدت ألمانيا قوة عسكرية ضاربة رهيبة ، وازدادت حدة التنافس البحرى بينها وبين بريطانيا حتى اضطرت الأخيرة إلى أن تحجز جزءاً كبيراً من أسطولها البحرى فى بحر الشمال بسبب نمو السلاح البحرى الألمانى نموا سريعاً مفزعاً . وخشيت بريطانيا أن تصل ألمانيا إلى تفاهم مع فرنسا وتتعاون القوتان البحريتان لألمانيا وفرنسا ضد بريطانيا ، ولم يكن مثل هذا الاتفاق فى نظر لندن بالأمر غير المحتمل إذا مضت بريطانيا فى سياستها المناوئة لفرنسا . ولذلك سعت بريطانيا لاصلاح علاقاتها مع فرنسا لتأييد مركزها فى مصر والبحر المتوسط ولوحت لها بمراكش .

كانت مراكش موضع اهتمام بريطانيا وفرنسا . فبريطانيا تهتم بسواحل مراكش لإشرافها على مدخل البحر المتوسط من ناحية الغرب . وتخشى إذا سيطرت دولة معادية على مراكش أن تهدد السفن البريطانية المارة فى بوغاز جبل طارق ، إذ تكون هذه السفن فى متناول مدفعية بعيدة المدى . ولن تكون لجزيرة مالطة أو قناة السويس قيمة استراتيجية كبيرة فى هذه الحالة ، وتتعطل المواصلات البحرية البريطانية وتصاب

التجارة البريطانية بأفدح الخسائر . ولم يكن فى مقدور بريطانيا أن تطلب إلى فرنسا أن توافق على تفوق النفوذ البريطانى فى مراكش ، لأن فرنسا كانت تمارس نفوذا قويا فى مراكش ، وتروم أن تسيطر عليها سيطرة محكمة كما سيطرت بصورة أو أخرى على الجزائر وتونس من قبل . وكانت مراكش فى نظر فرنسا لا تقل أهمية عن هذين الاقليمين العربيين المجاورين . ومساحة مراكش تزيد على مساحة فرنسا ، وهى ذات موقع استراتيجى ممتاز ، ورأت فرنسا أن فى بسط سيطرتها على مراكش تدعيما لمركزها فى الجزائر . وفى خلال سنتى ١٩٠١ و ١٩٠٢ عقدت فرنسا مع مراكش ثلاث اتفاقيات هامة خاصة بتحديد مناطق الحدود بين الجزائر ومراكش[١]. وكانت تخشى أن تسبقها دولة أوربية أخرى إلى احتلال مراكش .

وقام لورد كرومر بدور بارز فى الضغط على حكومته فى لندن كى تعمل على تسوية مشكلاتها مع فرنسا بطريق المفاوضات السياسية حتى تكف الأخيرة عن إثارة المتاعب فى وجه بريطانيا فى مصر . وكان يرى أن تدعيم مركز الاحتلال فى مصر يتوقف على إرضاء فرنسا . وأن بريطانيا تستطيع إرضاءها على حساب مراكش ، وفى مقابل ذلك تعترف فرنسا بالأمر الواقع فى مصر وهو الإبقاء على مصر فى دائرة النفوذ البريطانى . واقترح لورد كرومر كوسيلة من وسائل التقريب بين فرنسا وبريطانيا تغيير اسم فاشودة التى تثير فى نفوس الفرنسيين أسباب المقت لبريطانيا .

وبدأت المفاوضات الدبلوماسية بطيئة متثاقلة بين فرنسا وبريطانيا . واعترض معظم الساسة الفرنسيين على اعتراف فرنسا بمركز بريطانيا فى مصر فى مقابل السماح لفرنسا بحرية العمل فى مراكش ، واستندوا فى اعتراضهم إلى أنه ليس لبريطانيا حقوق فى مراكش تتنازل عنها لفرنسا فهى تعطى ما لا تملك ، بينما تريد بريطانيا أن تتنازل لها فرنسا عن حقوق وامتيازات تمتلكها فى مصر . وترددت الحكومة الفرنسية فى الموافقة على بقاء الإنجليز فى مصر إلى أجل غير محدود وأصرت الحكومة البريطانية على منع

---

(١) تاريخ هذه الاتفاقيات على التوالى ٢٠ من يوليو ١٩٠١ و ٢٠ من ابريل ١٩٠٢ و ٧ من مايو ١٩٠٢ وتجد نصوصها الكاملة فى

Pierre Albin : Les Grands Traités Politiques. Recueil des Principaux Textes Diplomatiques de 1815 à 1914. Troisième édition. Paris, 1923 pp. 302-314.

الفرنسيين من المطالبة بتحديد موعدللجلاء عن مصر . ولذلك استطالت المفاوضات بين الحكومتين وامتدت لتشمل مناطق متباعدة مبعثرة : فى إبريد الجديدة وسيام ومدغشقر وجمبيا ونيوفوندلند . وأخيراً تم إبرام الوفاق الودى فى ٨ من إبريل ١٩٠٤ ، وقعه عن فرنسا بول كامبو Paul Cambon سفير الجمهورية الفرنسية فى لندن وعن بريطانيا لانزدون Lansdowne وزير الخارجية البريطانية[1] وأعلنت الحكومة البريطانية فى هذا الاتفاق أنها لن تعمل على تغيير الحالة السياسية فى مصر ، وأعلنت الحكومة الفرنسية من جانبها أنها لن تعرقل عمل انجلترا فى مصر ، لا بالمطالبة بتحديد موعد لانتهاء الاحتلال البريطانى ، ولا بأية صورة أخرى ، وأنها توافق على مشروع المرسوم الخديوى المرافق لهذا الاتفاق والذى يشمل الضمانات الضرورية للمحافظة على مصالح حملة أسهم الدين المصرى ، بشرط ألا يدخل على هذا المرسوم أى تعديل بعد تنفيذه إلا بموافقة الدول الموقعة على اتفاقية لندن سنة ١٨٨٥ ، وأن يظل منصب مدير عام مصلحة الآثار المصرية وقفاً على عالم فرنسى ، وأن تستمر المدارس الفرنسية فى مصر متمتعة بنفس الحرية التى تمتعت بها فى الماضى . وفى مقابل ذلك تعهدت الحكومة الفرنسية بأنها لن تعمل على تغيير الحالة السياسية فى مراكش ، ولكن تعترف الحكومة البريطانية بأن من حق فرنسا — بصفتها دولة متاخمة لمراكش على طول امتدادات شاسعة — السهر على أمن وسلامة مراكش وتقديم المعونة لها فى جميع الاصلاحات الادارية والاقتصادية والمالية والحربية التى هى فى حاجة إليها ، وأعلنت أنها لن تعرقل عمل الحكومة الفرنسية فى مراكش ، وأنها تحترم حقوق فرنسا فى مصر وهى الحقوق المستندة إلى المعاهدات والاتفاقيات والتقاليد ، وأعلنت الحكومتان احترامهما لحرية التجارة فى مصر ومراكش ، وأن تعامل كل منهما الأخرى على قدم المساواة فيما يختص بالرسوم الجمركية وأجور نقلها بالسكك الحديدية ، وأن تستمر هذه المعاملة بالمثل قائمة لمدة ثلاثين عاما ، وتعهدت الحكومة البريطانية بأن تستخدم نفوذها حتى لا يكون الموظفون الفرنسيون الموجودون وقتذاك فى خدمة الحكومة المصرية فى وضع أدنى — من حيث الامتيازات — من أقرانهم الموظفين البريطانيين فى مصر ، وأن تعامل الحكومة الفرنسية الموظفين البريطانيين فى مراكش نفس المعاملة التى يتمتع بها الموظفون الفرنسيون هناك . ولضمان حرية المرور فى بوغاز جبل طارق — وهو هدف أساسى كانت بريطانيا تسعى لتحقيقه — تقرر فى الاتفاق أن تمتنع

---

(٢) اسمه بالكامل Henry-Charles Keith Petty— Fitzmaurice, marquis de Lansdowne

الحكومتان عن إقامة أية تحصينات أو منشآت عسكرية من أى نوع على ساحل مراكش المواجه لجبل طارق .

أما فيما يختص بقناة السويس فقد نصت المادة السادسة من الوفاق الودى على الآتى : ضمانا لحرية المرور فى قناة السويس تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية قبولها لنصوص المعاهدة المنعقدة فى ٢٩ من أكتوبر ١٨٨٨ ووضعها موضع التنفيذ ولما كان فى هذا ما يضمن حرية المرور فى القناة ، لهذا يظل موقوفاً تنفيذ الجملة الأخيرة من الفقرة الأولى وكذلك الفقرة الثانية من المادة الثامنة من هذه المعاهدة[١]

وترتبت نتيجتان على ما جاء فى الاتفاق الودى خاصاً بقناة السويس :

(أولا) تنازل بريطانيا عن تحفظها السابق على اتفاقية الآستانة المبرمة فى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٨٨٨ وقبولها الالتزام بنصوص هذه الاتفاقية والعمل بها حتى ولو كان فى ذلك ما يتعارض مع مقتضيات احتلالها لمصر . وبهذا التنازل زال ما كان يعترض دور التنفيذ الحقيقى للاتفاقية ولو من الناحية القانونية وحدها[٢] ؛ وبذلك انتهت العقبات القانونية التى كانت تعوق التطبيق الفعلى لاتفاقية ١٨٨٨ وأصبحت مبادئها الأساسية دون غيرها المرجع القانونى الذى يحكم مركز قناة السويس . ويقرر البعض أن ٨ من أبريل ١٩٠٤ — تاريخ الوفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا —

---

(١) وقع فى خطأ بعض الباحثين الذين تعرضوا لموضوع التحفظ البريطانى إذ قرروا أن اتفاق أوتصريح ٨ من ابريل ١٩٠٤ قد نص على وقف سريان الفقرتين الأولى والثانية من المادة الثامنة من اتفاقية الآستانة . وقد رجعنا إلى النص الفرنسى الذى نشره بيير البان فى مجموعة الوثائق الدبلوماسية فوجدنا أن هذا الإيقاف لا ينسحب إلا على الجملة الأخيرة من الفقرة الأولى وعلى الفقرة الثانية من المادة الثامنة . وهذا هو منطوق المادة السادسة من الوفاق الودى :

Afin d'assurer le libre passage du Canal de Suez, le Gouvernement de S. M. britannique déclare adhérer aux stipulations du traité conclu le 29 octobre 1888 et à leur mise en vigueur. Le libre passage du Canal étant ainsi garanti, l'exécution de la dernière phrase du paragraphe 1 et celle du paragraphe 2 de l'article 8 de ce traité resteront suspendues.

Voir Pierre Albin, ouvr. cit., p. 328.

(٢) دكتور عبد الله رشوان : المركز الدولى لقناة السويس ونظائرها . القاهرة ١٩٥٠ ص١٨٦

هو التاريخ الرسمى لوضع اتفاقية ١٨٨٨ موضع التنفيذ[١] . وكان تنازل بريطانيا عن تحفظها على الاتفاقية انتصاراً للسياسة الفرنسية إلى حد بعيد .

(ثانياً) تمسك بريطانيا — بجانب هذا التنازل — بضرورة استمرار توقيف الاجتماعات الدورية السنوية التى نصت المادة الثامنة من اتفاقية ١٨٨٨ على تكليف ممثلى الدول الموقعة على المعاهدة المعتمدين فى مصر بعقدها مرة كل عام للتحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية . وكان من المقرر — طبقاً لنص الاتفاقية — أن تعقد هذه الاجتماعات برياسة مندوب خاص تعينه لهذا الغرض الحكومة العثمانية ، ويجوز لمندوب خديوى أن يشترك أيضاً فى الاجتماع ويرأسه فى حالة غياب المندوب العثمانى . وكان توقيف هذه الاجتماعات انتصاراً للسياسة الإنجليزية التى عارضت من أول الأمر مبدأ قيام الرقابة الدولية على قناة السويس .

ومع ذلك أصبح من الجائز قانوناً أن يعقد ممثلو الدول الاجتماعات الطارئة التى نصت المادة الثامنة على عقدها عند كل ظرف يهدد سلامة القناة أو حرية المرور بها للخطر . وصار لممثلى الدول الأطراف فى المعاهدة بمقتضى هذه المادة أيضاً أن يطالبوا الحكومة المصرية بالغاء كل عمل وتفريق كل حشد يقع على أى جانب من جانبى القناة ويؤدى لتهديد سلامتها . وعلى مبلغ علمنا لم يعقد ممثلو الدول الأطراف فى اتفاقية الآستانة أى اجتماع دورى أو طارىء منذ إبرام الاتفاقية لمراقبة تنفيذ المعاهدة .

* * *

أما جزر إبريد الجديدة فان الرأى العام الفرنسى كان ثائراً على اتفاقية ١٦ من نوفمبر ١٨٨٧ التى قضت بانشاء لجنة بحرية مختلطة تمتد ولايتها على هذه الجزر ، إذ استطاعت بريطانيا تحت ستار هذه اللجنة أن تتسلل إلى إبريد الجديدة وتقاسم فرنسا نفوذها فيها . وقد وقف جون هجنسون — وقد مر بنا أنه من رجال الأعمال المبرزين ، إيرلندى المولد فرنسى الجنسية يحمل مقتا عميقاً للبريطانيين — يقاوم التسلل البريطانى فى إبريد الجديدة التى كان يعتبرها داخلة فى دائرة النفوذ الفرنسى . ومضى يشترى مزيداً من الأراضى فى هذه الجزر ويرفع عليها العلم الفرنسى ، ويقيم عليها مؤسسات فرنسية ، ووسع نطاق عملياته بوجه خاص خلال الفترة من ١٨٩٠

---

(١) Ahmed Moussa Dr.-Essai sur le Canal de Suez. Droit et Politique, Paris 1935. p. 110.

إلى ١٨٩٨ ، وكان يحدوه الأمل فى التمكين للسيطرة الفرنسية دون غيرها على إبريد الجديدة . وقد شهدت هذه الفترة نشاطا واسعاً متعدداً للسياسة الاستعمارية لفرنسا فيما وراء البحار . وقام المستوطنون الفرنسيون فى جزيرة فاتيه Vaté إحدى جزر إبريد الجديده بمحاولة لفرنسة هـذه الجزيرة فرنسة تامة مما أثار قلق البريطانيين من أهداف فرنسا .

وكان أن انتهزت بريطانيا الرغبة المتبادلة بينها وبين فرنسا لتسوية المشكلات المعلقة بينهما ، فأثارت موضوع إبريد الجديدة رغبة منها فى تدعيم مركزها السياسى الذى كان لا يزال مزعزعا فى هـذه الجزر ، فتضمن الوفاق الودى تصريحاً مستقلا خاصاً بابريد الجـديدة اعلنت فيه الحكومتان عزمهما على عدم إدخال أى تعديل على المركز السياسى الراهن وقتذاك لهذه الجزر . وكان هـذا التصريح كسباً لبريطانيا تأكد بمقتضاه اشتراكها على قدم المساواة مع فرنسا فى المحافظة على النظام والأمن . كما اتفقت الحكومتان فى هذا التصريح على ضرورة وضع اتفاق لاحق يتضمن تشريعاً يخضع له السكان الأصليون فى هـذه الجزر ، وعلى تعيين لجنة فرنسية بريطانية للفصل فى الدعاوى الخاصة بالأموال الثابتة من عقارات وغيرها والتى يمتلكها رعايا كل من الدولتين فى هذه الجزر ، على أن تقوم الحكومتان بتحديد اختصاصات هذه اللجنة ووضع لائحتها التنفيذية[1] .

* * *

كان الوفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ هو آخر مظاهر للربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة . فقد اتخذت كل مسألة منذ تلك السنة طريقاً خاصاً مستقلاعن الآخر بحيث لم يحدث بعد ذلك أى ربط بين المسألتين . أعقب الوفاق الودى سلسلة

---

(١) هذا هو نص الجزء الخاص بجزر إبريد الجديدة كما جاء فى وثائق الوفاق الودى :

« L'Entente Cordiale. »

« Déclaration concernant Les Nouvelles - Hébrides. »

Les deux gouvernements conviennent de préparer de concert un arrangement qui, sans imliquer aucune modification dans le *statu quo* politique, mette fin aux difficultés résultant de l'absence de juridiction sur les indigènes des Nouvelles - Hébrides.

Ils conviénnent de nommer une commission pour le règlement des différends fonciers de leurs ressortissants respectifs dans lesdites îles. La compétence de cette commission et les règles de sa procédure feront l'objet d'un accord préliminaire entre les deux gouvernements.

من الاتفاقات عقدت تباعاً بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية بخصوص إبريد الجديدة . وكان كل اتفاق فى الواقع خطوة لتدعيم اشتراك بريطانيا مع فرنسا فى حكم هذه الجزر . ففى اتفاق عقد فى فبراير ١٩٠٦ تقرر صراحة وضع جزر إبريد الجديدة تحت الحكم الثنائى الفرنسى والبريطانى ، على أن يمثل كلا من الدولتين فيها مندوب سام أحدهما فرنسى والآخر بريطانى ، وتقرر أن يكون للرعايا الفرنسيين والبريطانيين حقوق متساوية فى جميع المسائل ، ولكل دولة من هاتين الدولتين أن تطبق تشريعاتها على رعاياها ، وأن تمتنع الدولتان عن إقامة تحصينات فى الجزر . وقد تم التصديق على هذا الاتفاق فى ٢٠ من اكتوبر ١٩٠٦ . ثم وضعت الحكومتان بعد ذلك فى سنة ١٩١٤ بروتوكولا يمنع بيع الخمور والأسلحة للسكان الأصليين فى هذه الجزر ويمنع استخدامهم وفق نظام السخرة . ولم يتم التصديق على هذا البروتوكول إلا فى ١٨ من مارس ١٩٢٢ .

ولا تزال جزر إبريد الجديدة خاضعة إلى اليوم لنظام الحكم الثنائى ، وهو نظام فشل فشلا ذريعاً ، فلا يزال سكان هذه الجزر متخلفين فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية نظراً لتعارض مصالح بريطانيا وفرنسا فى إبريد الجديدة . ويمعن بعض الكتاب الأوربيين فى التحقير من شأن اصحاب هذه الجزر الأصليين ويطلقون عليهم مختلف الصفات ، بل إن بعضهم يقرر فى جرأة على الحق أنهم من أكلة لحوم البشر . ولكن أحد الضباط البحريين الفرنسيين زار هذه الجزر ونشر مقالا ظهر فى باريس ١٩٥٣ قرر فيه صراحة أن التخلف الذى يسود سكان هذه الجزر إنما يرجع إلى النظام الغريب الشاذ الذى فرض عليهم وهو الحكم الثنائى وأفاض فى ذكر مساوئه . وكان مما جاء فى هذا المقال :

Depuis le protocole franco-anglais signé le 6 août 1914 et promulgué en 1923, l'archipel vit sous le régime assez curieux du condominium *quasi nnique* au mond: entre la France et le Royaume—Uni. Est-ce un succès total ? Les deux nations sont d'accord pour le nier ; il est même certain que ce fut une des causes, p:ut-être la principale, qui entravérent le développement économique et moral de l'archipel. L'administration est gênée par la coexistence d'intérêts nationaux divirgents. Le tribunal mixte, en particuier, ne

peut que, lentement procéder à l'immatriculat on des terres et régler les litiges fonciers [1].

* * *

أما قناة السويس فانه بعد أن تنازلت بريطانيا فى الوفاق الودى عن تحفظها على اتفاقية الاستانة ١٨٨٨ أصبحت المبادىء التى وردت فى هـذه الاتفاقية هى المرجع القانونى الذى يحكم مركز قناة السويس . واستمر الوضع على هذا الحال حتى أصدر الرئيس جمال عبد الناصر القانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ بتأميم شركة قناة السويس ، وافتعلت دول الغرب أزمة سياسية عنيفة أعقبها عدوان ثلاثى فى خريف سنة ١٩٥٦ كان يستهدف القضاء على الحكم الوطنى فى مصر . ونجم عن هذا العدوان أن تعطلت الملاحة فى قناة السويس . وقبل أن تنتهى عمليات تطهير القناة من العوائق ، أصدرت مصر بيانها المشهور فى ٢٤ من أبريل ١٩٥٧[٢]، وهو يضع التنظيم الجديد للمركز القانونى للقناة بالإرادة الانفرادية لمصر وحدها بصفتها صاحبة السيادة الإقليمية عليها . ويشمل هذا البيان عشرة أسس ، أكدت فيه مصر رغبتها فى احترام اتفاقية الآستانة سنة ١٨٨٨ فيما يتعلق بحرية الملاحة فى قناة السويس ، وعزمها على أن تجعل من هذه القناة ممرا مائياً صالحاً وتطويره وفقاً لمطالب الملاحة الحديثة ليربط شعوب العالم ويخدم قضية السلام والرخاء . كما يحتوى هذا التصريح على عدة مسائل أخرى خاصة برسوم المرور وهيئة قناة السويس التى تدير القناة والشكاوى المتعلقة بالتفرقة فى المعاملة أو بلائحة القناة والمنازعات التى تنشأ بخصوص اتفاقية الآستانة ١٨٨٨ أو التصريح . وطلبت مصر تسجيل هـذا التصريح لدى هيئة الأمم المتحدة باعتباره وثيقة دولية .

وقد حاولت بعض الدول، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا واستراليا ، أن تنازع فى هـذا التصريح ، وعرضت الأمر على مجلس الأمن فى ٢٦ من

---

(١) Géographia : Revue d'Informations et d'Actualités Géographiques Paris No 27. Décembre 1953.

وهى مجلة جغرافية شهرية تصدر فى باريس وعنوان المقال :

L'Archipel des Nouvelles Hébrides par P. M. Cousot.

(٢) انظر نص هذا البيان فى :

دكتور بطرس بطرس غالى ويوسف شلاله : قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤ — ١٩٥٧ طبعة ١٩٥٨ ص ٦٩ — ٧٢

أبريل ١٩٥٧ على أساس أن التصريح انفرادى ، وتأسيساً على ذلك ليست له قوة إلزامية قانونية دولية . ولكن المجلس لم يصدر فى هذا الشأن أى قرار . وأعلنت مصر فى ١٨ من يوليو ١٩٥٧ قبولها الولاية الجبرية لمحكمة العدل الدولية فى المنازعات التى قد تنشأ بين الدول الموقعة على اتفاقية الآستانة ١٨٨٨ والتى يكون موضوعها تفسير نصوص هذه الاتفاقية أو تطبيق أحكامها طبقاً للفقرة ب من البند التاسع من التصريح . ومؤدى هذا التحديد أن أية دولة لم تكن طرفا فى اتفاقية الآستانة ١٨٨٨ مثل إسرائيل أو الولايات المتحدة الأمريكية — لا يحق لها ان تستفيد من أحكام هذه الفقرة [1] .

على هذه الصورة التى تمم عن براعة سياسية فائقة استقر التنظيم الإقليمى المصرى الانفرادى ، واستردت مصر سيادتها الإقليمية والتنظيمية لقناة السويس استرداداً كاملا .

(١) انظر كلا من :
دكتور حامد سلطان ص ٤٩٨ — ٥٠٢
دكتور محمد حافظ غانم ص ٣٩٢ — ٣٩٤

مداخـــل الروح (الأبواب الوهمية)

وتطوراتها حتى أواخر الدولة القديمة

للدكتور عبد العزيز صالح

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

مداخل الروح وحدات معمارية وعقائدية استمر لها كيانها الثابت فى واجهات المصاطب وفى مقاصير المقابر وبعض معابد الشعائر الخاصة فى أغلب العصور المصرية القديمة. وبلغ من اهتمام أهل الدولة القديمة بها أن كان الوالد منهم يعد مدخلا باسم ولده « وهو لا يزال طفلا » (١). وكان الابن البار يرى من واجبه أن يقيم مدخلا لوالدته « وهى لا تزال حية تسعى على رجليها » (٢)، ثم يفخر على إخوته بأنه هو « من أقام مدخل أبيه » (٣). ومؤدى ذلك كله أن ضرورة مداخل الروح لم تكن تقل أهمية لدى أصحابها عن ضرورة المقابر نفسها.

وجرى الاصطلاح على تسمية هذه المداخل باسم « الأبواب الوهمية » (False door ; Fausse — porte, Scheintür)، اعتمادا على أنها مثلت أبوابا رمزية مسدودة يرتجى أن تجتازها أرواح أصحابها فى دخولها إلى المقبرة وخروجها منها. لولا أنه يلاحظ على هذا التعريف الشائع أنه على الرغم من اعتماده على تفسير منطقى مقبول، إلا أنه لا يعبر عن حقيقة هذه الوحدات المعمارية وتطوراتها تعبيراً كافيا. فهى وإن اقتصرت فى أحوال معدودات على هيئة الأبواب البسيطة فعلا، إلا أنها لم تقتصر على هذه الهيئة دائما، وإنما ظلت فى أغلب أحوالها تقلد هيئة واجهات متسعة منسقة تتوسطها دخلات متفاوتة السعة والعمق تعلوها أسطوانة حجرية أفقية ترمز إلى أسطوانة حصير قديمة، وتتضمن فى داخلها أحيانا هيئة باب ذى مصراع واحد أو مصراعين

---

(١) Cairo 1417 ; Urk. I, 33

(٢) Ibid., 72

(٣) Cairo 36191/57123

(راجع ص١٢٩). ومعنى ذلك أن الدخلات بتفاصيلها لم تكن تشغل غير الجزء المتوسط من التركيب المعمارى الذى توجد فيه دون أن تشغله كله. وإذا جازت تسميتها باسم «الأبواب الوهمية» اعتمادا على عدم نفاذ جدرانها وإيصاد مصاريع الأبواب التى تشكل فيها أحيانا، إلا أن ثمة أبوابا أخرى عاصرتها تبدو أحق منها بهذه التسمية، وقد بقيت من نماذجها المبكرة عدة أبواب حجرية نحتها المعماريون لذاتها فى جسم جدران واسعة تحت هرم زوسر فى سقارة وقلدوا بها هيئة أبواب خشبية صريحة ذات قوائم وعوارض، ولم تكن هذه الأبواب تفتح أو توصد بطبيعة الحال، وإنما كانت مجرد أبواب وهمية[1]. وشابهتها أبواب حجرية أخرى نحتها المعماريون فى بهو المدخل ومقاصير عيد السد الملحقين بعمارة الهرم نفسه، وجعلوها على هيئة الأبواب الخشبية المفتوحة ذات المصراع الواحد، وكانت بدورها مجرد «أبواب رمزية»[2].

وعبر المصريون عن مداخل الروح باسم r3-pr مما قد يعنى حرفيا معنى مدخل الدار، واسم rwt وهو اسم يدل بدوره على معنى «البوابة» وتعمدوا التفرقة بين تصوير مخصصه الكتابى حين دلالته على البوابة العادية، وبين تصوير مخصصه حين دلالته على مدخل الروح، فصوروه فى حالته الأولى على هيئة باب عادى ذى كتفين، وصوروه فى دلالته الثانية على هيئة واجهة ذات تفاصيل كثيرة يتوسطها باب أقل حجما منها بكثير[3].

وثمة تسمية شائعة أخرى لمداخل الروح، وهى «أبواب الكا»[4]، وهى تسمية اعتبرت «كا» الانسان شيئا منفصلا عنه، يقوم منه مقام القرين فى دنياه، ومقام الاله الحارس فى السماء، ويتردد عليه بعد وفاته فى قبره ليتقمص جسده وتمثاله ويتقبل القرابين والدعوات باسمه. بيد أن هذه التسمية لا تخلو بدورها مما يعترض به عليها،

---

(١) C.M. Firth and J.E. Quibell, The Step Pyramid, vol. II, pl. 45 (3); vol. I, p. 61

(٢) Ibid., II, pl. 50 f.; 69 f.

(٣) Wb. II, 397, 8; 403 13 f.; and see, H.W. Muiller, «*Totendenksteine des Mittleren Reiches,*» Mitt. Kairo, IV, 170 f.
وراجع ص ١٠٨ حاشية ٥

(٤) Petrie, Wainwright and Gardiner, Tarkhan, II, 5, etc ..., G. Resiner. The Development of the Egyptian Tomb, 11, 244 f., 256 f., 334 f., etc.

فالكا المصرية ، فيما قدمنا فى مقالنا عن « طبيعة الانسان وماهيته » ، لم تكن شيئا منفصلا عن صاحبها ، وإنما كانت هى نفسه وذاته وحيويته وفاعليته ، وكان الأحياء إذا قدموا دعواتهم وقرابينهم « إلى كا » المتوفى (فى قولهم : n kꜣ n) عنوا بذلك أنهم يقدمونها إلى ذاته ومن أجل حيويته وفاعليته التى يتمنون تأكيدها له بصورة تناسب العالم غير المنظور الذى انتقل إليه ، وهى صورة قد لا يستسيغها منطق علمى مجرد ، ولكن أجازها منطق العقائد والعواطف والتقاليد فى يسر وسهولة .

أما العنصر أو الجوهر الذى أكد المصريون تردده على الانسان فى مثواه الأخير ، فهو « البا » أى الروح . وحقا قلما استخدمت نصوصهم الباقية عبارة : « إلى با فلان » كما نقول الآن إلى روح فلان أو على روحه ، وفى مقابل العبارة الشائعة : « إلى كا فلان » ، إلا أنها دئبت فى الوقت نفسه على تمثيل « البا » باللفظ والصورة تدخل القبر وتحط على الجسد ، ثم تصعد لترى الشمس المشرقة ، أو ترتوى من بركة القبر وتحط على أشجار خميلته ، ثم ترقى إلى السماء لتتخذ موضعها بين النجوم ، وتنتفع بزروع العالم العلوى وأنهاره وتتقبل عطايا أربابه [1] .

وهكذا يحسن استخدام أحد ثلاثة تعبيرات عوضا عن تعبيرى الأبواب الوهمية وأبواب الكا الشائعين . وهى : الواجهات ذات المداخل الرمزية ، أو الواجهات ذات منافذ البا ، على اعتبار أن المنافذ تخدم أغراض الدخول والخروج معا ، وأن البا كانت تستحب الخروج من القبر أكثر من حبها للدخول فيه . وكل من هذين التعبيرين يفى بغرضه ولكنه ثقيل على السمع بعض الشىء . أما التعبير الثالث فهو « مداخل الروح » ، وقد آثرناه عنوانا لهذا البحث باعتباره أخف لفظا وجرسا من أخويه ، وباعتبار لفظ المدخل أوسع مدلولا من لفظ الباب ويستطيع أن يدل عليه وعلى المكان الذى يحتويه ، وإن كان ذلك لن يحول دون العودة إلى الاستعانة بتعبير الأبواب الوهمية إذا انطبق على هيئات الأبواب فعلا أو ورد فى سياق الاستشهاد بعبارات معينة من بحث آخر .

---

(١) Pyr. 859a ; Textes des Cercueils, Discours, 2, 8 ; 20 ; 45 ; 56 d ; 193 ; Petersburg Pap. 1116 Art., 52—53 ; Book of the Dead, Ch. LXXXIX, 1, 5—6, 12 ; A. Piankoff, The tomb of Ramses VI, 78 ; etc.

ناقش أغراض مداخل الروح وتطوراتها المعمارية كل من ماسپرو وپترى وچيكييه ورش ويونكر وكاپارو ريزنر وأنور شكرى واسكندر بدوى وڤانديه، ووفى كل منهم بحثها حقه من وجهة نظره . لولا أن ذلك لن يحول بطبيعة الحال دون الاعتراف بأن الغموض لا يزال ، ولن يزال ، يحيط ببعض جوانبها ، وأنها تتطلب أكثر من بحث واحد لتتبع مراحل تطورها وللتعرف على أكبر عدد من أغراضها ومعانى نصوصها .

* * *

ظهرت مداخل الروح فى آفاق العقائد والعمائر المصرية منذ أوائل العصور التاريخية على أقل تقدير، تحت سطح الأرض حينا ، وفوق سطح الارض حينا آخر . وبدأت شبهاتها تحت سطح الأرض منذ أن شكل المعماريون خلال عصر الأسرة الأولى مستطيلات مختلفة السعة متفاوتة الغور فى بعض جدران الاجزاء السفلى من مقبرتى الفرعون چرى والفرعون واچى فى منطقة أبيدوس ، وشكلوا عددا منها فى باطن الجدران الداخلية لبعض الغرف الجانبية الصغيرة التى أحاطت بحجرة الدفن وقامت مقام مخازن الادوات وأوانى الطعام والشراب، ثم شكلوا اعددا آخر منها فى جوانب بعض الاكتاف اللبنية التى فصلت بين كل غرفة وأخرى وساعدت فى الوقت نفسه على رفع سقف المقبرة. ولم يلتزم المعماريون حينذاك باتجاهات معينة فى توزيع هذه المستطيلات، ولكنهم عبروا عن ضرورتها الخفية بأن شكلوها فى جدرانها بعد أن فرغوا من كساء جدران المقبرة بالملاط ، ثم صبغوها بلون أحمر [1] ، وقاربوا بين هيئاتها وبين هيئة المداخل والأبواب ، حتى بدت فى صورتها العامة أقرب إلى هيئة الباب ذى المصراعين على جانب كل كتف ، وأقرب إلى هيئة المدخل المصمت أو الباب ذى المصراع الواحد فى باطن كل حجرة (شكل ١) .

وليس من اليسير تعليل الأغراض الحقيقية من تشكيل هذه المستطيلات (أو المداخل أو الأبواب) تحت سطح الأرض ، ولكن ثمة فروض محتملة بشأنها :

فقد ترمز مستطيلات الاكتاف إلى مداخل رمزية تسلكها روح الفرعون المتوفى إلى الحجرات التى فصلت الأكتاف بين كل واحدة منها وأخرى ، لتنتفع

(١) W.M.F. Petrie, The Royal Tombs of the First Dynasty, I. pl. LXIII, p. 10 ; II, 8.

بمحتوياتها انتفاعا يناسب الحياة التى انتقلت إليها . . . . ، على حين ترمز المستطيلات المشكلة فى بواطن الحجرات إلى مداخل تسلكها أرواح أتباع الفرعون الذين وسدوا حول حجرة دفنه قبل وفاته ليقوموا على خدمته فى آخرته ، وتسلكها أرواح أتباعه الآخرين الذين دفنوا بعد وفاته تحت مصاطب مستقلة خارج مقبرته واتجهت جثثهم ناحية حجرة دفنه (١) . تأكيداً لتبعيتهم وولائهم له ، وأملا فى أن تنضم أرواحهم إلى معيته وتصحب روحه فى آخرتها . ولو أنه يقف فى سبيل ترجيح هذا الاحتمال الأخير أن المستطيلات (المداخل) شكلت داخل المقبرة وليس خارجها ، أى شكلت خلف واجهاتها وليس فى صدرها .

وثمة فرض رابع لتفسير أغراض هذه المستطيلات الأخيرة يمكن استعارته على حذر مما رتبه ولتر إمرى على تتابع المشكاوات فى الواجهات الخارجية لمصاطب سقارة (ص ١٠٥) وافترض فيه أنها قامت مقام أبواب رمزية لمخازن الطعام والشراب المبنية خلفها فوق سطح الأرض . وأن أصحابها اعتبروها أبوابا لكاوات المواد المحفوظة فيها . وذلك إن صح أمكن تفسيره بأنهم تخيلوا لكل نوع من أنواع الطعام والشراب « كا » أى طاقة (أو روحا على حد تعبير إمرى) (٢) تكفل استمرار صلاحيته مادامت تلقى معونة أصحابها عن طريق تلاوتهم تراتيل الدين وتعاويذ السحر .

أما اللون الأحمر الذى صبغت به مستطيلات أبيدوس فيحتمل أنه قصد به مجرد تمييز هيئاتها عن اللون الغالب للجدران المحيطة بها ، وذلك فرض بسيط يزكيه استخدام اللون الأحمر فى بعض مصاطب الاتباع المحيطة بمقابر الفراعنة فى المنطقة نفسها لكتابة أسمائهم وسط مساحات بيضاء صغيرة فى الاجزاء العلوية من الجدران الجنوبية لحجرات دفنهم (٣) . وثمـــة فرض آخر ، وهو احتمال تعبير اللون الأحمر للمستطيلات عن مادة الخشب التى تصنع الأبواب عادة منها ، وذلك فرض

---

(١) Petrie, op. cit., Reisner, op. cit., 12, 23

(٢) قد يتصل بهذا التصور ما يقال من ان وجود بعض متاع المقابر مهشما أو مفككا عن قصد ، يدل على ان أصحابه قصـدوا بتهشيمه تقليل فرص سرقته وليموت مثلما مات صاحبه حتى يتيسر انتفاعه به .

(٣) Petrie, op. cit., I, 8

يزكيه هو الآخر استخدام فنانى العصور التاريخية للون الأحمر للتعبير عن الخشب أحيانا (وإن كانوا قد عبروا عنه باللون الأصفر أحيانا اخرى) [١] .

وأخذت مصاطب سقارة والجيزة وطرخان ببعض ما أخذت به مقابر الفراعنة فى أبيدوس من شبهات وجود مداخل رمزية تحت سطح الأرض ، وزادت عليها عناصر تناسبها .

ومن هذه المصاطب مصطبة ضخمة فى سقارة تنسب إلى واچى (؟) أو أحد أفراد أسرته تعاقبت على جوانب حجرة دفنها أكتاف لبنية كسيت واجهاتها بألواح خشبية صفحت برقائق ذهبية مزخرفة ، وشكلت شرق الكتف الأوسط من جدارها الجنوبى مشكاة يعتقد ولتر إمرى انها كانت تتضمن بابا خشبيا فى باطنها ، أو تضمنت على أقل تقدير لوحة خشبية أدت غرض الباب الرمزى لروح صاحبها ، وافترض أنه كانت تواجهها على الجدار الشمالى لحجرة الدفن مشكا (؟) أخرى عثر تحت أنقاضها على حفرة تضمنت عظام غزالتين صغيرتين وضعتا قربانا لصاحب المقبرة [٢] .

ومصطبة أخرى فى طرخان تحتمل نسبتها الى النصف الأول من عصر الأسرة الأولى ، ظهرت فى الجدارين الشمالى والجنوبى من حجرة دفنها أربع مشكاوات قليلة الغور (لايتجاوز عمقها نصف البوصة) ، لونت باللون الأحمر وواجهت مخازن القرابين المحيطة بحجرة الدفن [٣] ، وذلك مما يدعو إلى اعتبارها مداخل رمزية لروح صاحبها إلى حيث تنعم بالطعام والشراب والمتاع المرصود من أجلها فى مخازن مقبرته .

وثمة شبهة أخرى تضمنتها بعض مقابر سقارة ، إذ ثقبت بعض المتاريس الحجرية التى تسد ما بين الدرج وبين حجرة الدفن بثقوب كبيرة نافذة ، وهذه قد

---

(١) Alex. Badawy, Les Dessin Architectural chez les Anciens Egyptiens, 281.

(٢) W.B. Emery, Great tombs of the First Dynasty, II, 1954, p. 13, Fig. 4, and pl. XIV, a-b.

(٣) Petrie, Tarkhan, I, 14, pl. XVI, 1 (No. 1060). Compare also another niche in the western wall of the burial chamber of tomb 71 in Raqâqnah (Garstang, p. 45, pl. XV, 71).

تكون ذات فائدة عملية وهى إدخال الحبال فيها للاستعانة بها على إنزال المتراس تحت سطح الأرض [1] ، وهذا هو الاحتمال المرجح ، أو تكون ذات مغزى دينى يسمح باعتبارها منافذ رمزية تخدم غرضا من أغراض الحياة الثانية فى القبر ، وهذا الفرض الثانى وإن يكن ضعيفا إلا انه تكرر فى متاريس بعض مقابر الاسرة الرابعة فى الجيزة وقيل عنه إنه لصالح الرؤوس البديلة المقامة خلف المتاريس تحت سطح الأرض [2] .

أما مقابر حلوان من العصر الثنى ذاته . فقد ظهرت فى بعض مخازنها السفلى غير ذات الأبواب ، كوات مستطيلة نافذة ، شبهت بفتحة سرداب التمثال فى الدولة القديمة [3] .

* * *

ظلت مداخل الروح أكثر تعبيرا عن أغراضها فوق سطح الأرض منها تحت سطح الأرض ، وظهرت شبيهاتها هى الأخرى منذ عصر بداية الاسرات فى مصاطب صغيرة وكبيرة ، فى واجهاتها حينا وفى مقاصير قربانها حينا آخر .

فقد احتفظت منطقة طرخان بأطلال مصاطب عادية ردها فلندرز پترى إلى المرحلتين ٧٧ — ٧٨ من توقيته المتتابع ، أى إلى بداية الاسرات ، أو ماقبلها بقليل ، وألحقت بكل مصطبة منها فوق سطح الأرض حجرة متواضعة للقرابين اخترقت جدارها الخلفى ، المشترك بينها وبين بناء المصطبة ، فتحتان مستطيلتان متجاورتان [4] (شكل ٢ ا — ب) وشيدت هذه الحجرات المتواضعة على أطراف الواجهات الشرقية لمصاطبها حينا وعلى أطراف واجهاتها الغربية حينا آخر ، ربما بما يتفق مع اتجاه المتوفى ، ومع مدى اتساع الأرض التى بنيت المصطبة فوقها بحيث لا تزاحمها حجرة قرابين المصطبة المجاورة لها ، شرقية كانت أم غربية [5] .

---

(١) W.B. Emery, Arch aic Egypt, Fig. 84 (T. No. 3035)

(٢) H. Junker, Giza I, Taf. X

(٣) Zaki Saad, in Ann. Serv. Cahier III, p. 108, pl. XXXVII

(٤) Petrie, op. cit., II, p. 3, pl. XIII—XIV

(٥) Reisner, op. cit., 11—12

ويعتقد بترى وريزنر أن هذه الحجرات أو المقاصير كانت مكشوفة ، واعتبراها مجرد أفنية مسورة. وقد يكون استنتاجهما صحيحا على أساس دراساتهما ومشاهداتهما الكثيرة ، ولكن ألم يكن فى عدم تسقيفها ما يعرض القرابين التى توضع فيها لاعتداءات الحيوانات والطيور فضلا عن فقراء الناس ، بغض النظر عما إذا كانت هذه القرابين ذات قيمة أم كانت متواضعة كما تنم عن ذلك بساطة مصاطب أصحابها وخشونة أوانيها الباقية داخل مقاصير القرابين نفسها وحول جدرانها ؟ وإذا صح أن اصحابها تركوها مكشوفة فى متناول الأيدى عن عمد فعلا ، فهل يدل ذلك على أنهم كانوا يرون فى انتفاع الفقراء والعجاوات بها ثوابا ورحمة للمتوفى كما لايزال بعضنا يعتقد فى عصرنا الحاضر ؟ أو يدل على أقل تقدير على أنهم كانوا يضعونها باسم المتوفى ثم يبرئون ذممهم منها ، ويتركونها للمقادير كيفما كانت ؟

على أنه مهما يكن من أمر هـذه المشكلة الفرعية ، فان تكرار وجود الفتحتين المستطيلتين الواصلتين بين مقصـورة القربان وبين مصطبتها ينم على الارجح عن الرغبة فى استخدام الروح لها استخداما يناسبها حين تقدم القرابين باسمها وحين تتلى الأدعية ويحرق البخور لصالحها .

ولكن هل يدل ازدواج الفتحتين على الرغبة فى دخول الروح من إحديهما وخروجها من الأخرى ؟ أم يعبر عن رغبة أصحابهما فى تقليد هيئة المصاطب ذات المشكاتين (راجع بعده ص ١٠٣) ، وإن اكتفوا هنا فجعلوهما فتحتين نافذتين داخليتين ؟ كل من الفرضين محتمل ، وإن أضاف البعض فرضا آخر وهو قيامهما بدور عيني « وجاة » اللتين ظهرتا على جوانب التوابيت منذ عصر الانتقال الأول[1] (والاصح منذ عصر الاسرة السادسة) ، ليرى المتوفى بهما عالم الأحياء ومقدمى القرابين والشمس المشرقة .

* * *

ظهرت المصاطب ذات المشكاوات الخارجية ثلاثة طرز ، كما هو معروف . مصاطب ذات مشكاة واحدة . وأخرى ذات مشكاتين ، وثالثة تعاقبت المشكاوات على واجهاتها الأربعة .

See J. Vandier, Manuel d'Archéologie, I, 694. (١)

ودلت الآثار المتبقية من مصاطب الأتباع فى العصر الثنى بسقارة على أنها كانت مقبية السقوف مائلة الجوانب الخارجية ميلا خفيفا ، تتصدر الجزء العلوى للطرف الجنوبى من واجهاتها الشرقية مشكاة أو كوة منتظمة الشكل ترتفع عن مستوى سطح الأرض (شكل ٣) (١). وهذه يدل انفرادها بنفسها على أنها كانت تؤدى غرضا معينا ، قد يتمثل فى تخصيصها لوضع القرابين المتواضعة وإشعال البخور ، أو يتجاوز ذلك إلى اعتبارها منفذا رمزيا لروح صاحبها . ويبدو أن وجودها لدى الطرف الجنوبى من واجهات مصاطبها كان ذا صلة بعادة وضع رأس المتوفى ناحية الجنوب فى أغلب الأحوال ..

واحتفظت المصاطب ذات المشكاتين بخصائصها ، فكانت المشكاتان تبنيان فى واجهاتها الشرقية، كما هو معروف ، متجاورتين أحيانا ومتباعدتين فى أغلب الأحيان بحيث تصبح إحداها قريبة من الطرف الشمالى لواجهة المصطبة وتظل الأخرى قريبة من طرفها الجنوبى ، تأكيد الخاصية التماثل (السيمترية) التى طبعت فن العمارة المصرى بطابعها . وجرت العادة على تمييز المشكاة الجنوبية عن أختها الشمالية ، باتساعها عنها ، أو عمقها ، أو تعدد مستويات أكتافها ، أو تسقيفها ورصفها ، ثم وضع مائدة القرابين أمامها أو فى رحابها(٢) ، وتثبيت لوحة القربان المسطحة فيها ، وهى اللوحة التى تتابعت مفردات مناظرها المنقوشة منذ أوائل عصر بداية الأسرات بتصوير صاحبها جالسا أمام مائدة قربانه يحيط به اسمه وألقابه وطسته وإبريقه وقائمة بأسماء الأطعمة والمشروبات والكساوى والدهون والزيوت التى يتمنى أن تتوافر دائماً من أجله ويرجو أن يستمر انتفاعه بها إلى أبد الآبدين (٣) .

وخضعت مفردات المناظر المنقوشة على هذه اللوحات فى عصورها الأولى لتطورات اتصلت بتعاقب عهودها واختلاف أخيلة أصحابها ، فاصطبغ تناول الفرد لقربانه فى أقدمها بصورة مادية ، وكان يصور أحيانا يضع يده مباشرة فوق شرائح الخبز المرتبة

---

(١) Emery, op. cit., II, p. 13, Fig. 5, pl. XV a-b.

(٢) Reisner, op. cit., 249 f. ; 255

(٣) يرى يونكر أنه كان فى تسجيل أصناف القرابين وأعدادها على اللوحة ما يعوض المتوفى عن انقطاع زيارة أهله له وانقطاع تقديم القرابين لصالحه .
H, Junker, Giza, I, 24 f.

على مائدته ، وقد يعمد الفنان حينذاك إلى تصوير هذه الشرائح تنقص واحدة او اثنتين ليعبر عما أكله صاحبها منها [1] .

ثم تعدلت هذه الصورة المادية شيئا فشيئا ، واعتاد الفنان على أن يصور صاحب المائدة يبسط كفه نحوها دون أن يمسها ، كما لو كانت إشارته إليها كفيلة بأن تحقق له عملية الاستفادة المعنوية من خيراتها كاملة غير منقوصة . وتميزت مناظر اللوحات المتطورة فى عصر الأسرة الثانية بتصوير الطست والابريق قريبين من متناول يد صاحب اللوحة، تعبيرا عن رقى الحياة الخاصة فى عصرها، وأصبح تصويرها من العوامل المساعدة فى توقيت اللوحات التى لم تتضمن نصوصها إشارات صريحة الى عصرها[2].

وليس ما يمكن تأكيده عن أقدم المواضع التى وضعت فيها هذه اللوحات فى مصاطبها ، فكل ماعرف عنها هو أنه عثر عليها فوق سطح الأرض فى أغلب الجبانات الشمالية للعصر الثنى ، فيما خلا قلة منها أمكن ترجيح تثبيتها أصلا فى المشكاة الجنوبية الرئيسية لمصاطبها . وفيما خلا لوحات حلوان التى عشقت فى مواجهة رأس المتوفى بسقف حجرة دفنه وقرب حافة البئر الصغيرة التى تصل بين هذه الحجرة وبين الجزء العلوى لمصطبته عساه ينتفع بما صور عليها انتفاعا دائما يناسبه ، ولتكون بموضعها وصورها هاديا لروحه إلى الطريق الذى تسلكه إلى مقصورة قرابينها فوق سطح الارض[3]. ثم انتهى المطاف باللوحات بعد ذلك، هنا وهناك، إلى أن اتخذت وضعها الثابت فى صدر المشكاة الرئيسية للواجهة الشرقية من مصاطبها .

وارتبط تمييز المشكاة الجنوبية عن أختها الشمالية بنفس العامل الذى أدى إلى وجود المشكاة الوحيدة فى الطرف الجنوبى من واجهة مصطبتها (ص ١٠٣)، وهو قربها من الاتجاه المعتاد لرأس المتوفى . كما ارتبط فى المقابر الأسرية بتخصيصها لقرابين الزوج وتخصيص أختها الشمالية لقرابين زوجته [4]. وقد يراعى أحيانا

---

(١) Drioton, in Ann. Serv., Cahier XIV, 1951, p. XIV

(٢) J.E. Quibell, Archaic Mastabas, 1923, 10

(٣) Driotion, op. cit., p. XII

(٤) A. Rusch, « *Ein Entwicklung der Grabsteinformen im. Alten Reich* », Ae. Z. S. LVIII, 103.

أن تقابل المشكاة الجنوبية حجرة الدفن بينما تقابل أختها الشمالية نهاية الدرج المؤدى إليها [١] . ولم يتغير تميز المشكاة الجنوبية ، إلى تميز الشمالية ، فى غير حالات معدودة ظهر بعضها فيما بين عصر الأسرة الخامسة وبين عصر الانتقال الأول فى منطقة إدفو [٢] .

أكد ريزنر أن طراز المصاطب ذات المشكاوات على واجهاتها الأربعة كان طرازاً ذا صبغة جنازية فى جملته [٣] . وأخذ هرمان يونكر برأى عام قال فيه أنه قصد بها ، أى المشكاوات ، أن تسمح لروح المتوفى بالدخول إلى مقبرته وخروجها منها [٤] . وساق إمرى رأيه الذى أسلفناه وهو أنه إذا بنيت خلف المشكاوات مخازن فوق سطح الأرض ، أصبحت هذه المشكاوات أبوابا لكاوات (؟) أصناف الطعام والشراب المختزنة خلفها .

غير أنه يبدو أن فى اعتبار المشكاوات أبوابا على الاطلاق تعمما لا يخلو من شك ، فمشكاوات المصاطب كانت تؤدى غرض الزخرف المعارى أكثر من أى غرض آخر ، لا سيما بالنسبة إلى المشكاوات المتتابعة التى تعددت مستويات أكتافها الداخلية ولونت وزخرفت بشكل يبعد بها عن الطابع العملى للأبواب العادية أو الأبواب الرمزية . وليس مايحول بعد ذلك دون أن نذهب مع چيكييه ومن أخذوا برأيه إلى أن أسلوب المشكاوات انتقل من المساكن إلى المصاطب وأن المشكاوات فى اللبن قلدت فى بداية ظهورها تركيبات معمارية فى مساكن دنيوية قديمة استخدم اللبن والخشب فى بنائها ، وذلك على أساس اعتبار المصطبة مسكنا أخرويا للمتوفى

(١) Reisner, op. cit., 249

(٢) وعللت نوبلكور ذلك بأن أصحابها قصدوا توجيهها والرمز بها الى مدينة نخن أو نخب أى مكة الدولة القديمة على حد تعبيرها ، على خلاف ما جرت عليه تقاليد الوجه البحرى .

D. Noblecourt, « *Les tombes à niches orientées* », Miscellanea Gregoriana, Vatican, 1941, 64 f.

وراجع كذلك عن استثناءات قليلة أخرى فى اوضاع المشكاوات بالنسبة الىواجهات مصاطبها :

Garstang, Raqaqnah, p. 32, Tomb No. 50 and 70 ; Rusch, op. cit., 102.

(٣) Reisner, op. cit., 244—245

(٤) H. Junker, Giza II, 6

يقلد هيئة مسكنه الدنيوى (١) (وذلك على العكس من رأى ريزنر سالف الذكر وعلى العكس مما ارتآه پترى ومن أخذوا برأيه عن تقليد المشكاوات لمساكن خشبية متسعة قديمة) (٢) .

وثمة فرض آخر أقل احتمالا ، افترضت فيه Mme Desroches Noblecourt أن مشكاوات المصاطب قلدت مشكاوات أسوار حصينة ورمزت إلى الحماية السحرية لساكن المصطبة ، على حد تعبيرها (٣) .

على أنه أيا ما كان من هذين الفرضين ، فلم يكن من الطبيعى أن تتعاقب الأبواب بتعاقب المشكاوات سواء فى واجهات القصور أم فى واجهات الأسوار (٤) . وإنما يحسن قصر أداء المشكاة لغرض المدخل الرمزى (أو الباب الرمزى) على مشكاوات بعينها ميزها المعماريون عن أخواتها بميزات مقصودة . وظل هذا التمييز فى أغلب أحواله من نصيب إحدى المشكاوات الجنوبية فى الواجهة الشرقية للمصاطب التى تتابعت المشكاوات على واجهاتها الأربعة ، وظهر من صوره فى مقابر عصر بداية الأسرات أن لونت كل بواطن مشكاوات مصطبة كبيرة فى طرخان (ترجع إلى النصف الأول من عصر الأسرة الأولى) ، باللون الأحمر ، ثم تعمد البناء أن يميز من بينها المشكاة الرابعة فى النصف الجنوبى للواجهة الشرقية ، فكسا أرضيتها بألواح خشبية ، ورأى پترى أن جوانبها ، أو على الأقل دخلتها العميقة ، كانت مكسوة بالخشب أيضا ، وذلك مما دعا إلى الاعتقاد بتخصيصها لتقديم القرابين فيها أو امامها باعتبارها المدخل المختار لروح صاحبها (٥) . ولو أنه ينبغى أن يضاف

---

(١) G. Jequier, Manuel d'Archéologie Egyptienne, 85 f. 89, 125 ; A. Choisy, L'art de batir chez les Egyptiens, 8 ; A. Scharff, Das Grab als Wohnhaus in der agyptischen Frühzeit, 1947 ; J. Vandier, Manuel d'Archéelogie, I, 699.

(٢) Petrie, Tarkhan, II, p. 8—9 ; I, pl. IX—X ; J. Capart, L'Architecture, 74 f. ; H. Balcz, « Die Altaegyptische Wandgliederung », Mitt. Kairo, 1930, 73 f. ; B. Smith, Egyptian architecture as cultural expression, 37 f. ; A. Badawy, op. cit., 71.

(٣) D. Noblecourt, Le Style égyptien, 48

(٤) احتج ريزنر بمثل هذا الرأى فى الاعتراض على القول باعتبار واجهات السرخ تمثل بوابات ذات دخلات وخرجات ، ولكنه لم يطبقه على رأيه فى مشكاوات المصاطب . Reisner, op. cit., 243 f.

(٥) Petrie, op. cit., I, 13, 14, pl. XV, 1—2 also II, p. 4

من جهة أخرى أنها لم تكن مواجهة لحجرة الدفن على نحو ماروعى فى أغلب مداخل الروح عندما استقرت مواضعها ووظائفها بعد ذلك خلال عصور الدولة القديمة (راجع ص ١٢٠).

وعثر ولتر إمرى فى أرضية مشكاة كبيرة بالطرف الجنوبى لواجهة مصطبة ضخمة فى سقارة نسبها إلى الملكة مريت نيت (؟) ، على بقايا ألواح وعارضة خشبية رجح أنها كانت سقيفة ميزت مشكاتها عن أخواتها ودلت على تخصيصها لأغراض الروح وتقديم القربان. ثم أضاف إمرى ظاهرة أخرى لا بأس من ذكرها، وهى عثوره فى أرضيات مشكاوات كبيرة أخرى فى ذات النصف الجنوبى للواجهة الشرقية من المصطبة نفسها على أوان ردها إلى عهد واحد وتميز منها إبريقان وطستان صغيران [1] ، وهذه يمكن تعليل وجودها فى غير مشكاة القرابين الرئيسية بكثرة الهدايا والقرابين التى قدمت باسم الشخصية الكبيرة صاحبة المصطبة. مع ضيق المشكاة الرئيسية المسقوفة بمحتوياتها.

ويظن إمرى أنه كان يعلو مشكاوات المصطبة ، أو بعضها ، إطار طينى دائرى المقطع يشبه هيئة الخيزرانة (Torus) التى أصبحت تحيط بحواف مداخل الروح (الأبواب الوهمية) فى عصور الدولة القديمة.

* * *

لم يشهد عصر بداية الأسرات انعقاد الصلة بين لوحة القربان وحدها وبين مشكاوات القرابين ومداخل الروح ، وإنما افترض عدد من الباحثين صلة أخرى فى الغرض والتعبير بين مداخل الروح فى العصر نفسه وبين النصب الحجرية ذات القمة المقوسة التى توزعت بقاياها عند مقابر فراعنة الأسرة الأولى وأتباعهم فى أبيدوس ، والتى جرى الاصطلاح على تسميتها باسم النصب الابيدية ، وان اختلفت آراء بعض هؤلاء الباحثين عن بعض آخر فى تحديد الأغراض والتعبيرات المشتركة بينهما.

---

(١) Emery, op. cit., II, p. 128, 139, pl. XLII, LIII

فذهب ماسبيرو وچيكييه إلى أن النصب والأبواب الوهمية أدت غرض التعبير عن باب مقر المتوفى ، ثم عبرت عن داره الأخروية كلها ، أى مقبرته (١) . ولكن چيكييه نبه من ناحيته إلى وجود اختلافات تفصيلية بين وظيفة النصب وبين وظيفة الباب الوهمى ، فالنصب التى كان يكتفى فيها بتسجيل اسم صاحبها عليها ، قصد بها فى رأيه أن تظل شاهدا عليه وعلى ملكيته لقبره (٢) وذلك على العكس من الباب الوهمى الذى كان ينقش عليه اسم صاحبه ودعواته إلى أرباب الآخرة ، ويقصد به أن يؤكد ارتباطه بأولئك الأرباب وأن يكون سبيلا لدخول روحه إلى مقبرته وخروجه منها(٣) .

ورأى چان كابار ومرجريت مرى واسكندر بدوى أن كلا من النصب ذات القمة المقوسة والابواب الوهمية (المداخل الرمزية) ذات الحافة العليا المسطحة كانا يقلدان مرحلتين معماريتين متتاليتين شيدت بهما واجهات أكواخ المعبود إنپوراعى التحنيط والتطهير ، فى عصر بداية الأسرات وعصور الدولة القديمة . وأضافوا أن تقليد واجهات هذه الأكواخ فى نصب المقابر وأبوابها الوهمية كان يعبر عن الرغبة فى نسبة طقوسها إلى المتوفى ، أو هو يدل بمعنى آخر على رغبة أصحابها فى أن ترد عليهم فائدة الطقوس والدعوات التى تجرى داخل نماذجها الأصلية . أى مقاصير إنپو ، إلى الأبد (٤) . وعاد كابار فاعترض على تسمية الباب الوهمى الشائعة وافترض أن طرازه كان يعبر عن واجهة ناووس يحتوى على تماثيل جنازية تستخدم فى أداء الطقوس المقدسة (٥) لولا أن هذا التفسير على الرغم من حداثته لازال بعيدا عن التأكيد .

---

(١) G. Maspero, Egypte (Ars Una), 1913, 106—107 ; G. Jequier, Manuel d'Archéologie Egyptienne, 350 f.

(٢) Ibid., 350, 352 ; H. W. Mueller, Die Totendenksteine, 167, 173 ; Capart, in Chr. d'Egypte, 1941, 283 ; 206, S.F. Garnot, Religions Egyptiennes Antiques (Bibl. 1939—1943) 1952, 210 f. (gr. Sêma).

(٣) Jequier, op. cit., 356

(٤) M. Murray, Saqaara Mastabas, II, 10 ; J. Capart, op. cit., ; A. Badawy, op. cit., 219 f.

(٥) Capart, op. cit., ; 1944, 230 : (La « Stele » est appellée formellement « r;- pr », c'est-à-dire temple).

ورأى شكرى أن النصب والأبواب الوهمية قلدا طرازين لأبواب مساكن قديمة بنى أصحابها بعضها مقبية السقف وشيدوا بعضها الآخر مستطيلة الواجهة والسقف ، وترتب على ذلك أن أدت كل منهما ، أى النصب والأبواب الوهمية ، أغراض الأخرى [1] .

وهكذا يمكن أن نتتهى إلى أنه إذا صح ما ذهبت إليه الآراء السابقة من عقد الصلة بين فكرة النصب وأغراضها وبين فكرة الأبواب الوهمية وأغراضها ، وهو فى مجمله مقبول ، أمكن اعتبار نصب أبيدوس فى العصر الثنى مرحلة من مراحل التطور نحو مداخل الروح الكاملة خلال عصور الدولة القديمة .

* * *

خرج عصر الأسرة الثالثة بتطور جديد فى تقليد هيئة المداخل داخل المقابر تحت سطح الأرض حينا وفوق سطحها حينا آخر . فتضمنت الدهاليز السفلى للهرم المدرج ومقبرة زوسر الجنوبية فى سقارة ست مشكاوات حدد كلا منها إطار حجرى مستطيل حاد الزوايا ، فاصبحت تقلد هيئة المداخل [2] ، (شكل ٤) ، وظهرت لكل منها فى داخلها وتحت عتبها الحجرى العلوى أسطوانة حجرية أفقية قلدت هيئة حصير ملفوف حول أسطوانة خشبية (طبلة) ، كان يسدل بجذبه إلى أسفل ليستر مداخل المساكن القديمة ، ثم أصبح يؤدى الغرض نفسه بالنسبة إلى المداخل المتطورة ذات الأبواب الخشبية حين تنفتح أبوابها على مصاريعها . وأجاد صانع هذه الإسطوانات تقليد هيئة أعواد الحصير الأفقية العريضة ، كما أجاد تقليد تفاصيل الجدائل أو الحبال الرفيعة التى تحزمها وتتداخل فى نسيجها على هيئة السدى واللحمة [3] . (وذلك مما دعا چيكييه وركه إلى اعتبارها تمثل الحصير ذاته بغير اسطوانة تحته) [4] . (شكل ٥) . وعلت العتب العلوى لكل مشكاة نافذتان

(١) محمد أنور شكرى : نصب ابيدوس والغرض منهـا ــ القاهرة ١٩٥١ ــ ص ١٦ ــ ١٩

(٢) C. M. Firth and J.E. Quibell, The Step Pyramid, vol. II, pl. 13 b ; 15—17 ; 38 (2) ; 39 ; 43.

(٣) Ibid., pl. 38 (2)

(٤) Jequier, op. cit., 86, 126 ; Ricke, Grundriss ... , 19

صغيرتان رمزيتان متباعدتان تضمنت كل منهما فى جزئها العلوى أسطوانة حصير حجرية صغيرة تناسبها [1] .

واحتوت كل مشكاة فى صدرها لوحة نقشت بصورة الفرعون زوسر وألقابه ورموزه الملكية ورموز أخرى إلهية ، فصورته اللوحات الست يؤدى مراسيم معينة أمام مقاصير آلهته ، مشدود العضلات ، منتصباً راسخاً حينا ، ومسرعا فى خطوه لا تكاد أطراف أصابع قدميه تلمس الأرض حيناً آخر ، وجعلوا لسطوح صوره تموجات خفيفة عبرت عن تكوين عظامه وشدة عضلاته ونحافة خصره وامتلاء شفتيه ، فى وضوح كامل .

وبهذا التركيب انتظمت لمداخل مقبرتى زوسر (أو أبوابها) ثلاثة عناصر أصبحت من ضرورات مداخل الروح حين اكتملت صورتها . وهذه العناصر هى : الاطار الخارجى المسطح الذى يتألف فى مجمله من كتفين بسيطين وعتب علوى ، وأسطوانة الحصير الحجرية التقليدية ، ثم اللوحة الداخلية المنقوشة بصورة صاحبها واسمه وألقابه . ولم يبعد بلوحات زوسر عن أداء أغراض لوحات مداخل الروح التى لازمتها فى عصر بداية الأسرات ، سوى أن صورها عبرت عن عبادات ومراسيم دنيوية ، دون مناظر تناول القربان الأخرى وتسجيل أنواعه وأعداده ، إلا إذا افترضنا أن فنان زوسر استحب أن يعبر عن أمل فرعونه فى دوام أدائه لمراسيم العبادة الدنيوية فى أعياده الخاصة بعد انتقاله إلى دنياه الثانية ، عن طريق تصويرها لروحه فى داخل مقبرته . (وذهب كويبل وفرث هذا المذهب فى تعليل بناء مقاصير عيد السد فى مجموعة زوسر بسقارة ، فافترضا أنه بناها بجوار هرمه ليستخدمها أو تستخدمها روحه فى الاحتفال بأعيادها فى دنياها الثانية)[2] .

وظاهرت لوحات زوسر فى مقبرته الجنوبية ثلاثة أبواب حجرية صماء (موصدة) ذات عوارض أفقية قلدت هيئة الأبواب الخشبية العادية ذات الدلفة الواحدة ، وافترض كويبل أنها قلدت الأبواب الخلفية للبيوت التى عبرت اللوحات

---

(١) Firth-Quibell, op. cit., Vol. I, p. 59

(٢) Ibid., p. III

الثلاث عن مداخلها الأمامية[1]. وما من شك فى أن أمثال هذه الأبواب الصماء العادية المقلدة فى الحجر هى الأقرب إلى أن تسمى باسم الأبواب الوهمية أكثر من الأبواب الأخرى التقليدية موضوع البحث والتى آثرنا لها تسمية مداخل الروح حينا والمداخل الرمزية حينا آخر .

وانتفعت عمارة مقابر الخاصة فى عصر الأسرة الثالثة بخصائص مداخل الروح فى مقبرتى زوسر ، انتفاعاً يتناسب مع بنائها باللبن دون الحجر . وظهرت صور هذا الانتفاع فى بضع مصاطب من أهمها مصطبة حسى رع فى سقارة ومصطبتان فى الرقاقنة .

وتضمنت مصطبة حسى رع فى تكويناتها المعمارية عناصر قديمة وأخرى حديثة . فتصدرت واجهتها الشرقية مشكاتان ، إحداهما شمالية بسيطة ، والأخرى جنوبية متسعة مركبة يفضى مدخلها إلى دهليز ضيق يمتد بطول المصطبة[2] ، وتطل عليه منها إحدى عشرة مشكاة (تواجه الشرق) (شكل ٦) زخرف الرسام سطوحها وجوانبها بتكوينات خطية هندسية ذات ألوان مبدعة ورسوم تقلد ستائر الحصير الفاخر وحبالها[3]. وتضمنت كل مشكاة فى باطنها لوحة خشبية مستطيلة نقش عليها فنانها صور صاحبها وألقابه ، فى أسلوب قلد به خصائص النقش عند زوسر ، من حيث قلة البروز وإظهار الجسم الممشوق والتعبير عن شفافية جلد الوجه ووضوح عظام الوجنتين والترقوتين .

ثم عبر الفنان عن كفايته ودقته وعن ثراء صاحب المصطبة وأناقته بتمثيل شعره المستعار فى كل لوحة بترجيلة خاصة تختلف عن أخواتها فى بقية لوحاته الأخرى .

وظهر حسى رع فى لوحتين من لوحاته الست الباقية ذات النقوش الواضحة ، واقفا تعلوه ألقابه ، وظهر فى اثنتين أخريين بالهيئة نفسها ولكن تحيط به

---

(١) Firth-Quibell, op. cit., II, pl. 45 (3) ; Vol.I. p. 61

(٢) J.E. Quibell, The Tomb of Hesy, p. 4, 9 ; pl. IV, VIII—IX

(٣) Ibid., pl. VII, 3 ; XXIX—XXXII

مع ألقابه قائمة بالقرابين التى تمناها لنفسه . وظهر فى لوحته الخامسة جالساً ببعض شارات الاناقة والعمل يبسط يمينه نحو مائدة قربانه وأمامه طست وإبريق وبخور ودنان نبيذ . . ، ثم ظهر فى لوحته السادسة واقفاً يصب ماء طهوراً أمامه ، ولعله كان يصبه فوق مائدة ضاعت آثار نقوشها . وعبر تعدد هيئات حسى رع وأوضاعه فى مناظر لوحاته (ومناظر بقية اللوحات التى ضاعت آثارها) عن ترف حياته الدنيوية وعما كان يرجوه من ترف حياته الأخروية فى آن واحد .

وهكذا جمعت عمارة مصطبة حسى رع بين ثلاثة عناصر قديمة وبين ثلاثة أخرى حديثة . وتمثلت عناصرها القديمة فى وجود المشكاتين فى واجهتها الخارجية ، مع تمييز الجنوبية منهما ، وفى وجود الاحدى عشرة مشكاة المتتابعة فى واجهتها الداخلية ، ثم فى أخذها بعادة تثبيت اللوحات فى صدور مشكاواتها .

أما عناصرها الجديدة فتمثلت فى تعدد لوحاتها بتعدد مشكاواتها ، وفى اصطباغ بعض مناظرها بالطابع الدنيوى ، مع اقتباس موضوعات لوحات القرابين الحجرية لبعض لوحاتها الخشبية ، لا سيما تلك اللوحة التى صورت حسى رع جالساً أمام مائدة قربانه ، وهى لوحة يرجح أنها شغلت المشكاة الخامسة من المشكاوات الجنوبية فى واجهة مصطبته وحددت بذلك موضع تقديم القرابين من أجله .

وظهرت فى الجزء العلوى لكل لوحة خشبية فتحة صغيرة أفقية مستطيلة (١) (فيما خلا واحدة منها علاها إفريز أفقى أكثر عرضا منها جعلها تشبه هيئة مصراع الباب فى الكتابة الهيروغليفية) ، وافترض كويبل وفرث أنها استخدمت فى تثبيت اللوحات داخل مشكاواتها عن طريق حشو يصل بينها وبين قوالب اللبن الموجودة خلفها ، ولكنهما أضافا أنهما لم يعثرا على أثر مادى لهذا الحشو . واستبعد اسكندر بدوى فكرة استخدام هذه الفتحات لتثبيت لوحاتها ، وافترض أنها كانت تعبر عن نوافذ وهمية (٢) . وهو فرض كان من الممكن قبوله باعتبارها تقليداً متواضعاً

---

(١) Quibell, op. cit., p. 5. ; pl. XXIX—XXXI

(٢) Alex. Badawy, « *La stele funéraire égyptienne à ouverture axiale* » Bulletin de l'Institute d'Egypte, XXXV (1954), 128.

للنوافذ الصماء التي علت لوحات زوسر (ص ١٠٩)، واعتبارها مرحلة متواضعة سبقت ظهور الشراعة الرمزية التي سوف تعلو مداخل الروح في أوائل عصر الأسرة الرابعة (ص ١١٤) لولا أنها نقرت في خشونة واضحة وفي غير تنظيم مما لا يتناسب مع العناية الفائقة في إخراج نقوش لوحاتها وصورها، وذلك مما يدعو إلى الظن بأنها كانت مغطاة بوسيلة ما وبشكل لا يفسد منظر لوحاتها .

وشابهت لوحات حسى رع لوحتان لمصطبتين في الرقاقنة تصدرت إحداهما مقصورة صغيرة خلف المشكاة الجنوبية في مصطبتها، وكانت عبارة عن لوحة خشبية ذات كتفين نقشت عليها صورة صاحبها « شبسس » يتدثر بجلد فهد ويحمل عصويه ونقشت ألقابه حوله، وعلتها أسطوانة الحصير التقليدية[1] . أما الأخرى فهي لوحة حجرية تصدرت جزءاً من الواجهة الشرقية لمصطبتها وأحاطها سور من اللبن، ونقشت عليها صورة صاحبها « سامري » واقفاً يمد يده بعصاه مع ثنى ذراعه ثنية لطيفة، وواجهته مجموعة قرابين بسيطة[2] . وعبرت نقوش هاتين اللوحتين عن صورة من صور الفن الاقليمي في عصرها في مقابل فن العاصمة الذي مثلته نقوش حسى رع التي سبقتها بفترة قصيرة .

* * *

تأثرت مداخل الروح بدفعة معمارية جديدة حين أصبحت سطوح مشكاواتها تكسى بألواح حجرية في مصاطب كبار الأفراد منذ أواسط عصر الأسرة الثالثة . واكتمل هـذا التجديد المعماري في مصطبة خع باوسكر وزوجته نفرحوتب[3] . فكسا البناء بواطن وجوانب مشكاتي الزوجين (في صدر الجدار الغربي لمقصورة القرابين الجنوبية في مصطبتهما المزدوجة) بألواح حجرية مصقولة ونحت أسطوانة الحصير لكل منهما من الحجر أيضاً، فاقترب تكوينهما نتيجة لذلك مما بدأت به

---

(١) Garstang, Raqâqnah, p. 49 f. pl. XXV, XXVIII—XXIX ; W.S. Smith, A History of Sculpture and Paintings, 142 ; H. Junker, Giza II, 6.

(٢) Garstang, op. cit., 45—46, 58, pl. XXIV, XXVIII ; compare also, Rusch, op. cit., 105.

(٣) Cairo, 1385 ; M. A. Murray, Saqqara Mastabas, I, pl. I—II ; G. Reisner, op. cit, 255, 268—69.

مداخل مقبرتى زوسر فى أوائل عصر الأسرة . وقسم المعمارى واجهة المشكاتين بقنوات رأسية كستها بطابع زخرفى مقبول ثم زادها حلية بتقليد زخارف الحصير الفاخر عليها . وترتب على هـذا التطور المعمارى أن اتسعت المسطحات الصالحة للنقش أمام الفنان فاستغلها فى تكرار نقش ألقاب صاحب المقبرة وصوره جالساً إلى مائدته فى دخلة مشكاته التى عبرت عن موضع بابها ، وسجل أسـفله قوائم قرابين منسقة فى صفوف رتيبة ، وعبر بالمنظر فى مجمله عن صورة الحياة المادية التى ارتجاها صاحب المقبرة لنفسه فى عالم الغرب أو فى داخل مسكنه الأخروى (وهى نفس الأغراض التى خدمتها مناظر لوحات القرابين من قبـل) . واستغل الفنان جانبى دخلة المشكاة العميقين فى تصوير خع باوسكر منتصباً متجهاً إلى الداخل بعصاه ، وكرر تحتـه جـداول قرابينه ، ثم كرر أهم ألقابه على أسطوانة الحصير الحجرية وعلى العتب الحجرى الضيق الذى علاها ، أى أنه لم يدع جزءا من الكساء الحجرى للمشكاة إلا استغله لمصلحة صاحبه وتخليد ذكراه (شكل ٨) . ثم اتبع الأسلوب نفسه بالنسبة إلى مشكاة زوجته وصورها وجداول قربانها .

وتكرر تبطين المشكاوات اللبنية الرئيسية بالألواح الحجرية وتقليدها لهيئة المداخل فى مصاطب أخرى ، مع تفاوت فى تنفيذ الزخرف المعمارى ودقة النقش بين كل مصطبة وأخرى . واكتملت صورة هـذا التطور فى مشكاتى الأمير نفرماعت (ابن سنفرو) وزوجته إتت فى ميدوم[1] . فكسا المعمارى مشكاة الأمير ، فى صدر مقصورة قربانه ، بألواح حجرية ضخمة حولتها إلى مدخل بكتفين ذى دخلة عميقة تعبر عن موضع بابه وتتوسط جزءها العلوى أسطوانة الحصير الحجرية ، ثم أضاف أمراً جديداً استعار فيه لوحة القربان التى كانت تعشق قبلا فى مشكاة القرابين وثبتها فوق عتب المدخل بحيث توسطته ، وأزاد فوقها عتباً ثانياً ، وأدى هذا العتب العلوى أغراضاً عدة ، فأصبح يمثل إطاراً علوياً للوحة يحقق التوازن المعمارى بين ما تحتها ومافوقها ، ويرمز بالفراغ الواقع بين العتبين الذى شغلت اللوحة أكبر جزء منه إلى شراعة مدخل دار الآخرة أو نافذته ، وبحيث ترمز اللوحة بمناظرها التقليدية إلى ما يرتجى

(١) Petrie, Medum, pl. XX—XXI ; Cairo 43809

أن تصبح عليه حال المتوفى فى قاعة طعامه فيما لو تطلع أحد إليه من شراعة داره[1] ، وذلك فضلا على قيمة اللوحة الذاتية القديمة فى تسجيل صور القرابين وأسمائها وأعدادها المرجوة لصالح صاحبها واحتمال الرغبة فى استرشاد روحه بصورته المنقوشة عليها .

ولم يجد فنان ميدوم ضرورة إلى تصوير الأمير أمام مائدته فى عمق المدخل كما فعل زميله فى مقبرة خع باوسكر ، بعد أن نقل هذا التصوير إلى لوحة القربان فى موضعها الجديد ، فاكتفى بتصوير الأمير فى صدر المدخل واقفاً مرسلا يديه إلى جانبيه باسطا كفيه وصور تحته ولده الصغير يضع إصبعه على فمه دلالة على حداثة سنه وحاجته إلى من يعوله ، وصور على الكتف الأيمن للمدخل زوجته إتت ، وعلى الكتف الأيسر أولاده وكاهن مقبرته ، ثم أحاط جوانب المدخل الثلاثة باطار حجرى خارجى ضيق نحته فى نفس الألواح الحجرية التى نحت الكتفين فيها .

وتكررت أغلب هذه العناصر والمناظر فى مشكاة إتت زوجة الأمير ، ثم انتقلت إلى عمارة مقابر كبار الأفراد فى العصر نفسه ، ومنها عمارة مقبرة مثن فى سقارة[2].

وأضافت مدرسة ميدوم عناصر جديدة فى تخطيط المدخل وتنفيذه فى مصطبة الأمير رع حوتب ، بعد فترة وجيزة من بناء مصطبة نفرماعت ، فقلل المعارى عمق المدخل ، وكرر كتفيه على جانبيه بحيث أصبحت مسطحاته الأفقية ذات مستويين ، وأزاد امتداد العتب العلوى أفقياً حتى غطى على طرفى الكتفين الخارجيين الجديدين ، على العكس من العتب السفلى الذى اكتفى بتغطية امتداد الكتفين الداخليين . واستغل عمق الدخلة البسيطة لمثل ما استغله من أجله فى مدخل نفرماعت ، أى لنقش ألقاب الأمير وصورته واقفاً بعصويه ، وصور على واجهتى الكتفين الداخليين جماعة من أهل بيته ، بينما سجل على واجهتى الكتفين الخارجيين قوائم الهدايا والقرابين المقدمة إليه والمرجوة من أجله[3] .

ولمس الفنان لوحتى القربان فى مدخل الأمير ومدخل زوجته نفرة بتجديداته ، فأحاط لوحة الأمير بألقابه ، وصور وسادة على مقعده ، وعز عليه أن يصور زوجته

---

(١) Jequier, Rec. Trav., XXXII, 169—170 ; Manuel, 126—127 ; Müller, op. cit., 176.

(٢) L.D. II, 4 ; Berlin 1168, 1170

(٣) Petrie, Medum, XIII—XV, Cairo 136 C

وحدها على لوحتها ، فصوره معها ، كلا منهما على مائدة خاصة فى مواجهة الآخر ، وإن كانت سلامة النسب قد خانته هذه المرة فصور المائدتين بحجم صغير لا يتناسب مع حجم الجالسين أمامهما .

واستفادت مصطبة إينفر فى دهشور[1] من تطورات العمارة فى ميدوم ، فشكل المعمارى لوحاتها الحجرية الكاسية لمشكاتيها الرئيسيتين على طرازين : فبنى إحديهما بطراز بسيط عميق ذى كتفين ، واستغل سطوحها الحجرية لتكرار ألقاب صاحبها وصوره ، بردائه القصير مرة وبملفعة طويلة من جلد الفهد المرقش مرة أخرى ، وتميزت له صورة مثلته فى عمق مشكاته جالساً بعصاه يرفع كفه اليمنى المبسوطة على فخذه رفعا قليلا كأنما يهم بأن يمدها نحو مائدة لم يصورها الفنان لضيق المكان ، وصور على جانبى المشكاة العميقين جماعة من أتباعه يتجهون بقرابينهم ناحية صورته ، ثم كرر صورهم على جدارين يمتدان أمام المدخل كله . وبنى المعمارى المشكاة الأخرى بمستويين ، أى بأربعة أكتاف ، وكرر على مسطحاتها أغلب المناظر السابقة وصور صاحبها على أحد الكتفين الخارجيين أمام مائدة قربانه ، ليس فى وضع الجلوس المعتاد وإنما واقفاً فى حجم كبير وأمامه مائدة ضئيلة الحجم ، دون ما سبب إلا لعدم توفيقه فى اختيار النسب السليمة بينهما .

وبدأ مدخل الروح يهجر مشكاته بعد أن أخذ مقوماته منها وبعد أن أصبحت المصاطب الكبيرة تبنى من الحجر ، وغدا يمثل وحدة معمارية مستقلة بذاتها تمتاز عما حولها بعناصرها وموضوعات نقوشها . وتألف فى صورته العامة من المفردات التى تتبعناها واحدة بعد أخرى ، أى من قائمين (أو خدين أو كتفين) حجريين يحددان دخلته التى تعبر عن موضع بابه ، والتى يختلف عمقها من مدخل إلى آخر ، وتنقش على واجهتيهما وجانبيهما الداخليين ألقاب صاحبهما وصوره متجها نحو الداخل حيناً ونحو الخارج حيناً آخر ، وقادماً من اليمين مرة ومن اليسار مرة أخرى ، بالنقبة القصيرة التى تبلغ الركبتين ، أو بأخرى تمتد من الوسط حتى رسغى القدمين ، أو بملفعة كبيرة من جلد الفهد ، أو بالنقبة والملفعة معاً ، تبعا لثرائه وأذواق عصره ، ثم بعصاه الطويلة أو بدونها ، وبعصاه القصيرة (سخم) ، أو بعصويه معا ، أو بشارة أخرى

---

(1) Barasanti, Ann. Serv. III (1902), 198 f. pl. I—II

من شارات الأناقة فى عصره . وقد يزيد الفنان فيصوره فى أكثر من هيئة واحدة ، فيصوره نحيفاً وممتلئاً ، وحليق اللحية وبلحية مستعارة[1] . وينتقل بعد ذلك إلى تصوير أقرب الناس إليه لا سيا زوجته التى تصور عادة فى أوضاع تناسب المواضع التى تصور فيها ، ترسل يدا وتضم الأخرى إلى صدرها أو ترفع بها زهرة إلى أنفها ، وقليلا ما تجمل شعرها بالزهور[2] ، ويصور له أولاده يؤنسون وحدته ويلوذون بعصاه أو يتعلقون بأمهم إذا كانوا صغارا ، أو يتقدمون إليه بالقرابين إذا كانوا كبارا ، ثم بعض الأصدقاء والأتباع يقدمون الهدايا والقرابين إليه أو يحملون إلى ساحة مقبرته ثمرات الأملاك الموقوفة عليها .

وتتوسط الجزء العلوى من الكتفين تلك الاسطوانة الحجرية التى ظهرت بتفاصيل نسيج حصيرها القديم عند زوسر ، لولا أنها تخلت عن أغلب هذه التفاصيل بعد عهده وأصبحت ملساء تقريباً ، ولهذا اعتبرها كل من Balcz and Smith فى صورتها الملساء مجرد تقليد لجذع خشبى أمامى من جذوع السقف ووسيلة للربط بين الكتفين[3]، وقد مر بنا (ص ١٠٩) كيف ذهب G. Jequier and H. Ricke إلى النقيض تماما ، فاعتبراها نموذجا حجريا للحصير ذاته بغير أسطوانة تحته. ولكن لا زال الرأى القديم باعتبارها تقليدا مبسطا لأسطوانة الحصير هو المرجح[4] .

ويعلو الكتفين العتب الحجرى المستطيل ويؤلف معهما زاويتين قائمتين . وقد اكتفت نقوشه فى أبسط صورها بتسجيل اسم صاحبه وأهم ألقابه .

واكتفت بهذه العناصر الثلاث البسيطة بعض مداخل الدولة القديمة. وتخلف من نماذجها الواضحة مدخل « شرى » أحد رؤساء كهنة المقابر والشعائر الملكية فى أوائل عصر الأسرة الرابعة[5] ، وقد تميزت موضوعاته المنقوشة بتصوير صاحبه فى عمق المدخل مرتين وليس مرة واحدة ، وتصويره منتعلا (على خلاف المعتاد

---

(١) Cairo 1397

(٢) Cairo 1425

(٣) H. Balcz, op. cit., 75

(٤) Perrot, L'Egypte, 513, see also, Vandier, op. cit., 394

(٥) Cairo 1384 ; Mariette, Mast., B 3, p. 93

فى تصوير الشخص حافياً بما يناسب قداسة الموضع الذى يصور فيه) ، وتصويره على كتف المدخل الأيسر يضع كفه اليمنى على كتفه اليسرى فى هيئة الدعاء والتعبد (شكل ٩) .

غير أن أغلب المقتدرين من أصحاب المقابر لم يكتفوا لمداخلهم بهذه العناصر المبسطة ، وانتفعوا بالتجديدات التى أضافتها مقابر أسرة سنفرو فى ميدوم ، أى باضافـــة لوحة القربان فوق العتب وإضافة عتب علوى فوقها (ص ١١٤) (شكل ١٠) .

واختلفت هيئات لوحات القربان بين المربع وبين المستطيل بما يتناسب مع مساحة المدخل واتساع الأعتاب والأكتاف وذوق المعمارى ، ولكنها ظلت أميل إلى الاستطالة ، وسمحت استطالتها بتعدد صور الأشخاص عليها ، وقليلا ما صور صاحبها فوقها واقفاً أمام مائدته عوضا عن جلوسه[1]، وقلما استغنى الفنان عن تصوير المائدة أمامه [2] ، ولكنه كثيراً ما صور زوجته معه تشاركه طعامه وتشاركه مقعده[3] ، أو تستقل بمقعد يجاوره [4] ، أو تجلس فى مواجهته إلى نفس مائدته[5] ، أو إلى مائدة خاصة أخرى (كما حدث بالنسبة إلى لوحة نفرة زوجة رع حوتب)[6] . وقد يصور أمامه عوضا عن الزوجة بعض مقدمى الهدايا والقرابين يتقدمون بها إليه[7]، أو يكرر صورته مرتين على مائدتين متقابلتين[8]، لا لشىء إلا لاتساع المساحة أمامه ورغبته فى شغلها . وقد يستغل الفنان فوارق العرض بين اللوحة وبين العتبين فى تسجيل اسم المتوفى وألقابه (كما حدث بالنسبة إلى نفر ماعت) ، أو تصوير

(١) Cairo 1573 ; Mariette, Mast. E. 8

(٢) L.D. II, 48 ; Junker, Giza VI, Taf. XI, d, Abb. 104

(٣) Cairo 36191/57123

(٤) Murray, Saqqara, I. pl. VII

(٥) Cairo, 654, 1447, 1484, 1506

(٦) Medum, pl. XV ; Cairo 1392 ; S. Hassan, Giza, II, pl. XI ; Junker, Giza VI, Abb. 32.

(٧) Medum, pl. XVI ; Anc. Egypt, 1917, 63 ; Louvre E 17233 ; Junker, Taf. XI d.

(٨) Cairo 1565

القرابين وقوائمها[١] ، أو تصوير جماعة من أفراد أسرته وأتباعها[٢] ، أو تصوير تخطيطات واجهة القصر[٣] ، وما يشبهها .

وقد يتصرف صانع اللوحة فيزيد فوقها أو تحتها إفريزاً ضيقاً من جسم الحجر الذى نحتها فيه ، بما يزيد مساحتها[٤] ، ويجعلهما على هيئة دلفة النافذة أحيانا[٥] ، وربما دلفة الباب أيضا[٦] (شكل ١١) .

وقلما صنعت لوحة القربان من الخشب عوضا عن الحجر[٧] ، وقلما شذ مكانها عن الوضع السالف بين العتبين إلا بالنسبة إلى مقابر كبار الأفراد فى الجيزة فى عهدى خوفو وخفرع حينما امتنعت إقامة مداخل الروح الكاملة على غير قلة من مقابر الأمراء ، فعادت اللوحة إلى واجهة المصطبة داخل مقصورة القرابين ، وعشقت فى بعض أحوالها فى الزاوية الجنوبية الشرقية السفلى من الواجهة ووضعت أمامها كتلة حجرية عاطلة من النصوص لحمايتها فى مكانها المنخفض[٨] . وعندما اقتصرت مهمة الفنان على نقش اللوحة فى هذه المقابر أفرغ جهده فى إجادة نقشها وترتيب مناظرها وتنسيق جداولها حتى بلغ بذلك كله غاية قلما بلغتها نقوش اللوحات فى عهد آخر .

وظلت الأعتاب العليا أكثر ثراء فى نصوصها من الأعتاب السفلى نتيجة لاتساعها عنها فى أغلب أحوالها ، مما سنعود إليه فى صفحة ١٢٧

* * *

لم يتغير اتجاه مدخل الروح حين استقلاله عن مشكاته القديمة عن اتجاهه حين ارتباطه بها ، فظل يواجه المشرق ، سواء أكان فى واجهة المصطبة أم فى داخلها ،

---

(١) Mariette, Mastabas, D 67 ; Brit. Mus. 1223 (vol. I, pl. 15)

(٢) Cairo 654 ; L.D. II, 87 ; Berlin 14795

(٣) Cairo 1519

(٤) Cairo 1453, 1457, 1462, etc.

(٥) see Vandier, op. cit., 429.

(٦) Firth-Gunn, Teti pyr. Cem., p. 179 ; 67, 2 ; 70, 1 ; 71,2

(٧) Badawy, in Ann. Serv. 1940, 495 f.

(٨) Junker, Giza I, Abb. 31

واتخذ مكانه فى حالته الأخيرة فى صدر الجدار الغربى لمقصورة القرابين ، ليكون مدخلا إلى عالم الغرب ، وليستقبل دنيا الأحياء فى الشرق ومطلع الشمس ، وليستقبله الكهنة والزائرون ومقدمو القرابين فيستعيدون هيئة صاحبه المكررة على صدره وأكتافه ويرددون اسمه المسجل والمخلد على مسطحاته . وظل فى أغلب أحواله أقرب ما يكون إلى مدخل البئر المؤدية إلى غرفة الدفن(١) ، ليكون مسلكا للروح منها وإليها ، حين تهبط من عالم السماء إلى عالم ما تحت الأرض والعكس بالعكس ، أو حين تأتى من دنيا الأحياء فى الشرق إلى دنيا الأموات فى الغرب ، والعكس بالعكس أيضا . وليكون محلا مختاراً لتقديم القرابين باسمها وقراءة التراتيل والدعوات لصاحبها . وتأكد هذا الفرض الأخير للمدخل بعدة عوامل ، مثل وضع مائدة القرابين أمام دخلته ، وتصوير حاملى القرابين على أكتافه يتجهون فى أغلب أحوالهم ناحية دخلته ، وتثبيت لوحة القربان فى شراعته ، وإقامة سرداب تمثال صاحب المقبرة خلفه فى بعض الأحوال (٢) لكى يستفيد التمثال (أو تستفيد الروح حين تتلبس التمثال) بما يقدم أمامه ، ثم تسجيل دعاء القربان « حوتب دى نيسو » على مسطحاته ، لا سيما مسطح عتبه العلوى .

ويحتمل أن يكون تسجيل دعاء القربان قد بدأ منذ أواخر عصر بداية الأسرات أو أوائل الدولة القديمة (٣) ، ولكنه لم يستقر فى نصوص المقابر إلا ابتداء من أوائل عصر الأسرة الرابعة . وكان له وجهان : وجه مادى ، وآخر معنوى . وجرت العادة على توجيه الدعاء المادى إلى الملك أكثر من غيره ، وكان يبدأ بصيغة « حوتب دى نيسو » ويستهدف فى بعض صوره تسجيل عطاء فعلى يهبه الملك (أو يهبه القصر والدولة باسم الملك) إلى رجال دولته ، وكان عطاء اقتصر فى بعض عهوده وبعض أحواله على أنصبة معينة من القرابين اليومية والموسمية التى كانت تقدم أول ما تقدم إلى معبد الشعائر الملكية وتتلى عليها تراتيل

---

(١) Erman, Die Religion, 25 f.; Kees, Totenglauben, 170 f.; Drioton, Tombeaux egyptiens, 16;

(٢) S. Hassan, Giza II, pl. XI, p. 41; A.M. Shoukry, Die Privatgrabstatue im Alten Reich, 1951, 34 f. Junker, Giza XII, 54—55.

(٣) R. Weill, II—III Dynasties, pl. IV, Junker, Giza II, 42.

دينية تصرف نفعها إلى روح الملك صاحب المعبد ، ثم يقسم جزء كبير منها إلى أنصبة مقدرة توزع تباعا على موائد المقابر القريبة من المعبد والتى تعطف الفرعون على أصحابها واختصهم بعطائه . وكان يشرف على عملية تحويل القرابين من المعبد إلى موائد المقابر موظف يلقب « حرى وچبو » أو حرى وچب . وقد يكون هـذا الاشراف فعليا إن كان صاحبه موظفاً عادياً ، أو يكون اسميا إن كان صاحبه من كبار الموظفين . وامتد العطاء الملكى فى بعض صوره وبعض عهوده إلى ماهو أكثر من قرابين الطعام والشراب فأصبح يعنى مساهمة خزانة الفرعون فى توفير الدفنة المناسبة وإعداد متاع المقبرة لبعض المقربين إليه ، ويعنى إذنه بقطع أحجار المقبرة من المحاجر الحكومية المتميزة ، ويعنى صنع مداخل الروح والتوابيت والتماثيل فى مصانعه الملكية وتحت إشراف كبار فنانيه [١] ، وما شابه هذا وذاك من عطايا وامتيازات كان الملوك يكافئون بها رجالهم أحياناً ويكتسبون بها ولاءهم أحيانا أخرى . وهكذا ظهر فى دعوات القربان ما يشير إلى انتفاع صاحبها (أو يشير إلى أمله فى الانتفاع) « بعطاء من الشونتين والخزانتين ومن مصانع الزينة الملكية ومن كل مكان فى البلاط يخرج منه عطاء . . [٢] » ؛ وما يقول على لسان أحد الأفراد « دفنت أبى بحوتب دى نيسو » [٣] أى برضاء الملك وعطائه ، أو بما رضى به وأعطاه . . . ، ومن يقول إنه بعطاء الملك « نزل (أو سينزل) إلى قبره هـذا بعد شيخوخة كبيرة صالحة » [٤]. ومن يقول إن الملك وهبه « هذا القبر ليوسد فيه شيخا صالحا مكرما لدى الاله الأكبر ، وذا تابوت من خزانة البلاط [٥] ، ثم من يذكر أن عطاء الملك امتد إلى توريد المنسوجات إليه [٦] ، أو ذبح الأضاحى فى قبره [٧] .

---

(١) Breasted, Ancient Records, I, 212.

(٢) Mariette, Mastabas, E. 12 ; Murray, op. cit., pl. VII

(٣) Urk. I, 267, 9 ; Davies, Deir el Gebrawi, II, pl. 13

(٤) Mariette, Mastabas, p. 195

(٥) Ibid., 278

(٦) J. Capart, Une rue de tombeaux, pl. LXIII

(٧) L.D. II, 35 See for full details A.H. Gardiner, The Tomb of Amenemhet, 85 f.

وعندما ازدادت مقابر كبار الأفراد فى جبانات الأقاليم ولم يعد عظماء العاصمة يتقيدون باقامة مقابرهم حول أهرام ملوكهم ومعابدها ، حلت معابد أرباب الجبانة محل معبد الشعائر الملكى فى توزيع عطايا القرابين (أى الجرايات) على أصحاب المقابر المحيطة بها . وعبرت عن هذا التطور بعض دعوات الأفراد فى الدولة الوسطى ، فأصبحت لا ترجو العطاء المادى من الملك المتوفى مباشرة ، وإنما ترجوه من الملك لرب الجبانة حتى يعود هذا الأخير فيسبغه على المتوفى[1] . وبمعنى آخر أصبحت ترجو أن يأذن الملك (المهيمن الأعلى على موارد الدولة وأوقافها) بتحويل عطاياه المخصصة للأفراد إلى معابد الجبانة ليتولى كهنتها توزيعها على موائد المقابر المحيطة بها بما يتناسب مع أنصبة أصحابها ومكانتهم .

وجرت العادة على طلب العطاء المعنوى من أرباب الجبانة والآخرة أساساً ، وبخاصة من إنپو (أنوبيس) ، وسكر ، وخنتى إمنتيو ، وأوزير ، وجب أحيانا ، ثم من « الاله الأكبر » فى عصره أو فى ذهن صاحب المقبرة وكاتب نقوشها ، و« أرباب الغرب جميعهم » ، مع نعت كل معبود منهم وتلقيبه بما يتفق مع تصورات أتباعه عنه وما روته عنه التقاليد والأساطير . وكان أكثرهم ألقابا ونعوتا كل من إنبو الذى يوصف عادة بأنه يتصدر الهيكل المقدس (أو ساحة الرب) ويعتلى جبله (أو رأس الجبل) وبأنه مقدم الأرض المقدسة ، والمدثر بالكفن (أو« الكائن فى مقر التحنيط » بمعنى المحنط)[2] . وأوزير الذى يوصف عادة بأنه رب المدينتين المقدستين « چدو وأبجو » أى أبو صير بنا وأبيدوس ، وأنه مقدم الغرب وإمام الغربيين .

وكان أغلب ما ينسب إلى أولئك الأرباب ويرتجى منهم هو العمر المديد وكرامة الدفن والسماح بأن « يخب (المتوفى) على سبل الخير (أو الطرق الطيبة أو الطرق الأخيرة) التى يخب المكرمون فوقها »[3] . ولعل هذه السبل كانت تعنى بعض

---

(١) G. Maspero, « *Latable des offrandes* », in Etudes de Mythologie, VI, 366 f. ; Gardiner, op. cit., 88

(٢) See Wb. I, 350 ; V, 543 ; Budge, The gods of the Egyptians, II, 263 ; Moret, Mystères egyptiens, 13 ; Gardiner, op. cit., 81 f. ; Hayes, Royal Sarcophagi, 73.

(٣) *See* Junker, Giza, II, 57 f.

ما يعنيه الصراط المستقيم فى عقائدنا الاسلامية . وذلك فضلا عن أمل أساسى تمناه كل مصرى لنفسه وهو استمرار « خروج الصوت » أى استمرار انطلاق دعاء القربان وتلبية النداء لصالحه ، من أملاكه وعلى أفواه أهله وكهنته وزائرى مقبرته (راجع ص ١٣٦) .

وبدأ كل من الدعاءين . دعاء الملك ودعاء أرباب الآخرة ، منفصلا عن الآخر ، فظهر الدعاء إلى الملك وحده فى نصوص نفر فى أوائل الدولة القديمة[١] ، وذكر الدعاء إلى إنبو وحده فى نقوش رع حوتب فى ميدوم[٢] ، وذكر الدعاءان منفصلين فى نقوش مثن فى سقاره[٣] ثم ازدوج الدعاءان فى نقوش خمتنى خلال العهد نفسه أى فى أوائل عصر الأسرة الرابعة ، وأصبح ما يرتجى من الملك يرتجى أغلبه من المعبود ، والعكس بالعكس .

وكان المفروض أن يتخذ الداعى بصيغة القربان وضعا خاصا يثنى فيه ذراعه عند المرفق ويبسط كفه اليمنى إلى الأمام تجاه مدخل الروح أو تجاه صورة المتوفى أو تمثاله ، ثم يتلو دعاءه ويقدم قربانه[٤] .

وفقدت صيغة « حوتب دى نيسو » مدلولها الحرفى شيئا فشيئا ، وأصبحت تقليدية فى أواخر الدولة القديمة ذاتها ، بحيث تمنتها متون الأهرام للفراعنة أنفسهم ، (أى تمنت العطاء الملكى للملك نفسه)[٥] ، ولكن ذلك لم يفقدها مكانتها الدينية والمعنوية فظل أصحابها يعتقدون أن ترديد قراءتها لصالحهم يمكن أن يزكى مصيرهم فى الآخرة ويجعلهم من المنعمين بخيراتها ومن المقربين إلى أربابها ، فضلا عن رضا أرواحهم بها فى مقابرها . وبلغ من حرصهم عليها أن سجلوا على واجهات مقابرهم وسطوح نصبهم نداءات إلى الأحياء يستميلونهم فيها إلى تلاوة الصيغة بأسمائهم ويستحلفونهم من أجلها بأعز مقدساتهم وأعز ما يتمنونه لأنفسهم ، ويعدونهم الشفاعة فى الآخرة فى مقابلها[٦] . فكان من قولهم فى نصوص الدولة القديمة :

---

(١) Junker, op. cit., 42 ; R. Weill, II—III dyn., pl. IV

(٢) Petrie, Medum, pl. XIII—XV

(٣) Berlin, 1168, 1170 ; L.D. II, 4, 5

(٤) Junker, op. cit.,

(٥) Pyr. 35 b, 101 b, 806 c-d

(٦) Breasted, Ancient Records I, 329

« يا من تودون الحياة وتكرهون الفناء . . . ، طالما أحببتم أن تظلوا تبعا لإله مدينتكم على الأرض ؛ رددوا (صيغة) حوتب دى نيسو . . . »[١] .

وكان من قولهم فى نصوص الدولة الوسطى : « إذا رفع مسافر يده (داعياً) لهذه الصورة سوف يصل داره فى صحة ويتم كل ما خرج من أجله »[٢] .

وكانوا ييسرون الأمر عليهم بمثل قولهم « إذا لم يكن فى أيديكم شيء ، (فيكفى) أن ترددوا بأفواهكم حوتب دى نيسو . . . »[٣] .

وعادوا فأقنعوهم ببساطة ما يطلبونه منهم بمثل قولهم (فى الدولة الحديثة) « إن نفس الفم ينفع المتوفى دون أن ينقص شيئا من ممتلكاتك »[٤] .

* * *

خضعت مداخل الروح منذ أواخر عصر الأسرة الرابعة لتطورات معمارية وزخرفية تتصل أكثر ما تتصل بثراء أصحابها ومساحات مقابرها وكفاية صناعها وفنانيها وأذواق عصرهم .

وتمثلت هذه التطورات فى تعدد أكتاف المداخل واتساعها وزخرفتها ، وتباين اتساع أعتابها ، وتزويدها بزخارف الخيزرانة المعمارية (Torus) وتتويجها بزخارف الكورنيش ، ثم إحلال تماثيل أصحابها محل صورهم ، وذلك فضلا على وجود مدخلين فى المقبرة باسم واحد أحيانا .

فقد اتسعت مسطحات أكتاف المداخل وزادت أعدادها فى أحوال كثيرة على حساب فتحات أبوابها ، فظهرت مداخل بثلاثة أكتاف على كل جانب منذ أواخر عصر الأسرة الخامسة وأوائل عصر الأسرة السادسة[٥] ، واختلف بروز كل كتف

---

(١) Urk. I, 286, see S.F. Garnot, L'appel aux vivants des origines à la fin de l'ancien Empire, 1938.

(٢) Berscheh, Vol. II, p. 50 graf. VI, 21

(٣) and variants, see, Cairo 20003, 3—4 ; Turin 1447 ; Brit. Mus. 152, 5 ; Abydos I, pl. 54 ; Univ. of Calif. Stele 34, 7—8.

(٤) Rec. Trav. III, 119

(٥) Vandier, op. cit., II, 401

خارجی عن الكتف الداخلی التالی له بما يتناسب عادة مع مساحة المدخل وذوق المعماری الذی صممه وبناه . ولم يكن من الضروری أن يتساوی اتساع كل كتف مع الكتف الذی يليه ، وغالباً ماكانت الأكتاف الخارجية أكثر اتساعا من الداخلية.

واستغل الفنانون اتساع الأكتاف وتعددها فی تسجيل المزيد من الدعوات والألقاب والمناقب الشخصية(١) ، والمزيد من مناظر الحياة الدنيوية والشعائر الأخروية ، فأصبحوا يصورون صاحب المقبرة يقف داعياً(٢)، ويجالس زوجته علی مقعد عريض ، ويريح إبطه علی عصاه ، ويتنسم عبير الزهور والدهون والبخور . واقتبسوا بعض مناظر الحياة اليومية من جدران المقبرة ، فصوروا صاحبها يتلقی تقارير الموظفين والمحاسبين . ويستقل محفته علی أكتاف أتباعه ، ويستقل مركبه ذات الشراع وقاربه ذا المجاديف(٣) ، فضلا علی تصوير من اعتادوا تصويرهم من أفراد أسرته مع التنويع فی أوضاعهم ، فالزوجة قد تصور تحتضن أمها ، والأولاد قد يصورون يعبثون بالطيور والزهور ، ثم خاصة أصدقائه ومقدمی الهدايا(٤)، وممثلی وممثلات أملاكه الموقوفة علی الوفاء بنفقات قرابينه وتكاليف القائمين علی حراسة مقبرته وأداء شعائرها . وكانوا يصورونهم فی أغلب الأحوال علی أكتاف المدخل يتجهون إلی ناحية دخلته أی ناحية بابه، وتوسعوا فی تصوير مراحل أداء الشعائر من إطلاق البخور وسكب السوائل علی الموائد وذبح الأضاحی وقراءة التراتيل وعزف الموسيقی(٥) .

* * *

يمكن تقسيم ارتفاعات الأكتاف الزوجية فی مداخل الروح (أی الأكتاف التی يوجد اثنان منها علی كل جانب) إلی ثلاثة طرز معمارية (٦) ، فقد يظل الكتفان

(١) Cairo 1409

(٢) Cairo 1409, 1453, 1573 ; Gunn, Teti Pyr. Cem., pl. 27, 67, 68, 71

(٣) Cairo, 51297 (J.E.) ; Junker, Giza V. Taf. IV Abb. 20 f.

(٤) Cairo 654

(٥) Cairo 654, 1413, 1414, 1449 ; ... ; Brit. Mus. I, pl. 18

(٦) See : Adolf Rusch, « *Ein Entwicklung der Grabsteinformen im Alten Reich* », AZ, LVIII, Taf. A—B, S. 120, 122.

الداخليان تحت العتب السفلى بينما يرتفع الكتفان الخارجيان إلى مستوى العتب العلوى ، أو تظل الأكتاف الأربعة جميعها تحت العتب السفلى بينما يعتمد العتب العلوى على طرفى الحشو المحيط بلوحة القربان (فى شراعة الباب) ، أو يبقى الكتفان الأصليان تحت العتب السفلى ويرتفع الكتفان الخارجيان إلى مسطح العتب نفسه ، بينما يعتمد العتب العلوى على طرفى الحشو المحيط بلوحة القربان .

وظهر تنوع مشابه بالنسبة إلى ارتفاعات المداخل ذات الأكتاف الثلاثية (أى التى يوجد ثلاثة منها على كل جانب) ، فقد يعلو العتب السفلى الزوجين الداخليين من الأكتاف بينما يرتفع الزوج الثالث إلى مستوى العتب العلوى ، أو يظل الزوج الأول من الأكتاف تحت العتب السفلى ويرتفع الزوج الثانى إلى مسطح العتب نفسه بينما يرتفع الزوج الثالث إلى ماتحت العتب العلوى . أو يظل الكتفان الداخليان تحت العتب السفلى بينما يرتفع الزوج الثالث إلى ما تحت العتب العلوى . (راجع عن هذه الأنماط أشكال ١٣ ا — ب ، ١٤ ا — ب) .

واستتبع تعدد الأكتاف واختلاف ارتفاعاتها تغيرا فى مدى التناسب بين الأطوال الأفقية للعتبين ، فأصبح العتب العلوى أكثر سعة من العتب السفلى فى معظم الأحوال ، وحينئذ قد يعتمد على الكتفين الخارجيين ويؤلف معهما إطارا عريضاً يحيط ببقية عناصر المدخل من ثلاث جهات . أو يعتمد على طرفى الحشو المحيط بلوحة القربان كما ذكرنا آنفا ويتقيد اتساعه باتساع الكتفين الخارجيين . أو يمتد امتدادا أفقيا يزيد عن اتساعهما واتساع جانبى الحشو أيضا وحينئذ لا يعتمد طرفاه على شىء .

وقد تظهر للمدخل ثلاثة أعتاب ، وهنا قد توضع لوحة القربان بين العتبين الثانى والثالث بحيث يعتمد العتب الثانى على الزوج الثانى من الأكتاف ويعلو العتب الأول مباشرة ، أو توضع بين العتبين الأول والثانى بحيث يعلو العتب الثالث العتب الثانى مباشرة ويعتمد على الكتفين الخارجيين ويؤلف معهما إطارا عريضا . أو تتخذ اللوحة الوضع نفسه (بين العتبين الأول والثانى) ويعتمد العتب الثالث على العتب الثانى ولكنه يظل أكثر اتساعا منه وحينئذ لا يعتمد طرفاه على شىء (راجع الأشكال السابقة) .

وأدى تعدد الأعتاب واتساع مسطحاتها إلى نفس ما أدى إليه تعدد الأكتاف واتساعها ، أى إلى التوسع فى موضوعات نصوصها ومناظرها ، فسجلت قوائم قرابين مختصرة على بعض الأعتاب السفلى[1] ، وصورت عليها أنواع الدهون والزيوت التقليدية[2] . واشتركت نصوص الأعتاب العليا مع نصوص الأعتاب السفلى فى الدعاء بصيغة حوتب دى نيسو لمصلحة صاحبها مع تسجيل ألقابه ، ولكن الأعتاب العليا ظلت أكثر ثراء من السفلى فى تسجيل مترادفات هذه الصيغة وتوابعها ، بحيث بلغت سطورها أحيانا ضعف عدد سطور الأعتاب السفلى ، وكثيرا ما كان صاحب المدخل يصور فى طرف هذه السطور واقفا أو جالسا يواجهها بمفرده أو مع زوجته[3] (شكل ١٤) .

وظهرت بين الحين والحين صور ورموز دينية قليلة الورود على الأعتاب ، ومن ذلك تصوير عينى وجاة على العتب السفلى أو على العتب الأوسط[4] .

* * *

لم تلتزم عمارة مداخل الروح بتطوراتها السابقة دائما ، ولم يتردد بعض المعاريين فى أن يخففوا من أحد عناصرها الرئيسية بين كل حين وآخر ، سواء لضيق المساحة التى يقيمونها فيها ، أو لفقر أصحابها ، أو لمجرد الرغبة فى التصرف والتغيير . وهكذا تعاقبت فى بعض مقابر أواخر الدولة القديمة مداخل استغنت عن لوحة القربان واكتفت بعتب واحد استغل مسطحه لتسجيل مناظر القربان العادية . ومداخل استبقت لوحة القربان ولكنها استغنت عن العتب الذى يعلوها[5] ، ومداخل نحتها أصحابها فى ألواح البازلت وليس من الحجر الجيرى المعتاد[6] ، وأخرى شكلها أصحابها من الخشب وليس من الحجر ، ولكن

(١) Mariette, Mastabas, D. 38 ; Steindorff, Ti, pl. 45

(٢) Cairo 1409

(٣) Cairo 1398, 654, 1413 ; Junker, Giza VI, Abb. 104.

(٤) Cairo 1408, 1446, 1478, 1512, J.E. 38554

(٥) Cairo 1508 ; Firth-Gunn, Teti Pyr. Cem., pl. 55, 1 ; Junker, Giza VI, Abb. 31.

(٦) Cairo 1442, 57201 (J.E.)

دون أن يقلل ذلك من فخامتها [١] . وبقي من الشواذ مدخل ذو قمة مقوسة غير مسطحة [٢] ، وآخر بني فوقه عقد من اللبن [٣] . وظلت المداخل الحجرية لكثير من أهل الطبقات الوسطى والعادية تتخذ مكانها في واجهات مصاطبهم اللبنية كما كان شأنها قبل عصر الأسرة الرابعة .

* * *

ظهر الكورنيش المصري في العمارة الحجرية منذ عصر الأسرة الثالثة على أقل تقدير ، مقلدا الأطراف العليا لأعواد البوص الغليظة التي كانت تتداخل في واجهات المساكن والأسوار النباتية واللبنية القديمة حينا ، ومقلدا أطراف الجريد الذي كان يتداخل في الواجهات نفسها حينا آخر [٤] . وتوج الكورنيش مداخل الروح منذ أواخر عصر الأسرة الرابعة أو أوائل عصر الأسرة الخامسة [٥] ، وخضع لتصرف الفنانين في تمثيل مدى استقامة وحداته أو ميلها أو انعطاف أطرافها ، كما خضعت ألوانه لأذواقهم ، فبادلوا فيه بين اللونين الأحمر والأبيض حينا والألوان البيضاء والزرقاء والخضراء حينا آخر [٦] . وفقد الكورنيش وضعه السليم في بعض أحواله ، ولم يعد يكون نهاية ارتفاع المدخل دائما وإنما قد يعلوه أحيانا عتب مسطح [٧] ، أو يحيط بالمدخل كله والكورنيش معه ، إطار خارجي حجري مسطح تستغل سطوحه لإضافة المزيد من النصوص [٨] .

وصحبت الخيزرانة (Torus) الكورنيش في زخرفة مداخل الروح ، وقلدت في بدايتها هيئة سوق الغاب التي كانت تدعم الأركان الرأسية للمساكن النباتية القديمة ، وأصبحت تؤلف إطارا يحيط بمدخل الروح من ثلاث جهات ويعلوه

---

(١) Z. Saad, in Ann. Serv. 1940, 675 f.

(٢) Cairo 1394

(٣) Junker, Giza V. Taf. XVII

(٤) Jequire, Manuel, 74 f.

(٥) A. Badawy, in Ann. Serv., 1948, 236 ; Vandier, op. cit., 402

(٦) Cairo 1406, 1413, 57168 (J.E.)

(٧) Cairo 1399

(٨) Cairo 1395, 1400, 1409, 1455

الكورنيش ، مع استثناءات قليلة أحاطت الخيزرانة فيها كلا من الكتفين الداخليين والكتفين الخارجيين المدخل . أو أحاطت الكتفين الخارجيين ثم تلاها إطار آخر عريض مسطح أحاط بالمدخل كله . وجرت العادة على زخرفة الخيزرانة فى مداخل الروح بخطوط مائلة ، أو خطوط أفقية وأخرى مائلة ، تقلد هيئة الحبال التى كانت تشد أعواد البوص القديمة بعضها إلى بعض ، أو تشدها إلى أركان مسكنها النباتى . وقليلا ما هجرت صورتها القديمة ومثلت مسطحة تتقاسمها خطوط أفقية مستوية[1] .

* * *

اتسعت أكتاف مداخل الروح على حساب دخلة أبوابها كما مر بنا ، وفقدت الدخلة بذلك أغلب صورها المنقوشة التى ظهرت فيها منذ عصر الأسرة الثالثة وبعض عصر الأسرة الرابعة ، لا سيما بالنسبة إلى تصوير صاحبها جالساً إلى مائدة قربانه ، فأصبح يكتفى بتصويره واقفاً فيها فى أغلب أحواله ، أو يكتفى بتسجيل جداول القرابين فيها محل صورته[2] .

وأدى ضيق الدخلة إلى تركها دون نقش أحياناً ، لا سيما إذا كانت قليلة الغور [3] ولكن ذلك لم يمنع بعض المعماريين من الرجوع إلى تحقيق سعة الدخلة وعمقها من حين إلى آخر وبخاصة فى عصر الأسرة السادسة . وكان أفضل ما استغلوها من أجله حين عمقها وحين تسطيحها هو نقش هيئة الباب الخشبى فيها ، بدلفة واحدة[4] ، أو بمصراعين[5] . وبمزلاج واحد[6] أو بمزلاجين[7] . وقد تشكل العوارض الخشبية فى كل مصراع بتفاصيلها كاملة[8] ، وغالباً ما صورت مصاريع الأبواب موصدة بمزاليجها دلالة على خصوصية ما خلفها ، وقد يكتفى

(1) Jequier, op. cit., 72 ; Vandier, op. cit., 401—404

(2) Cairo 1484

(3) Cairo 1406, 1416, 1417, 1483, etc.

(4) Cairo 1377

(5) Cairo 1404, 1442, 1574, 1662, 1664

(6) Cairo 1404, 1664

(7) Cairo 1442, 1574, 1662, 3986 5

(8) Cairo 1425, 144 2

فى التعبير عن المصراعين أحياناً بوجود خط رأسى دقيق يتوسطهما[١] ، ونادراً ما صورا منفرجين قليلا[٢] . (شكل ١٥) .

واستعلت الدخلة فى أحوال أخرى فى تصوير عينين بشريتين[٣] يعبران عن عينى المتوفى وكأنه يتطلع بهما إلى مقصورة قرابينه وزائريها والى مشرق الشمس ودنيا الأحياء ، وقد تحل محلهما صورتان لعين وجاة[٤] المقدسة ليؤديا الأغراض نفسها وليكونا بمثابة تميمتين للباب وصاحبه ، وكثيراً ما صورتا فى منتصف مصراعى الباب وبين مزلاجيه .

ولم يعد لطبلة الحصير موضع فى هـــذه الأبواب نظراً لاتساع بعضها وعدم انسجام هيئة الاسطوانة معها ، أو لتمثيلها موصدة كأنها تخفى أسطوانة الحصير خلفها ، فى أغلب أحوالها .

وبقى لمداخل الروح تطور آخر ، وهو ظهور تمثال صاحبه فيه محل صورته (أشكال ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩) وهنا قد يشكل التمثال كاملا أو نصفياً ، منحوتاً فى جسم المدخل وبارزاً منه ، أو معشقاً فيه . فيظهر بهيئته الكاملة فى فتحة باب المدخل بحيث يبدو كما لو كان يمثل صاحبه خارجاً من قبره[٥] ، أو يظهر بهيئته الكاملة كذلك على كتف المدخل ، وحينئذ يكون لكل كتف تمثال بحيث يتحقق التوازن الفنى بين الكتفين والتمثالين[٦] ، أو يظهر بهيئة نصفية محل لوحة القربان فى شراعة الباب فيبدو كما لو كان يطل من نافذة مسكنه الأخرى على دنيا الأحياء[٧] أو يظهر بهيئته النصفية كذلك فى أسفل باب المدخل باسطاً كفيه فيبدو كما لو كان خارجاً من باطن الأرض ليتقبل القربان بيديه ...[٨] . واعتبر هذا الوضع الأخير بينة صريحة على الاعتقاد القديم باعتبار مدخل الروح ممراً مختاراً لصاحبه ، أو لروحه .

---

(١) Cairo 39865 (J.E.)

(٢) Petrie, Dendereh, pl. I ; Cairo 1442 may be alos, 1425 (?)

(٣) Cairo 51297 (J.E.) « Sneb »

(٤) Brit. Mus. I, pl. 33, 85 (1191)

(٥) Cairo, 1447, 15157/57190

(٦) Capart, Une Rue., pl. XCIV—XCVI

(٧) Cairo 1449

(٨) Giza, 7102

يعبره فيما بين عالمه السفلى وبين عالم القرابين المادية ودنيا الأحياء . وعادت الصور تقلدت هيئة التماثيل ، ومن نماذجها تصوير صاحب المقبرة مواجهة (أى من الأمام وليس من الجانب كالمعتاد) فى دخلة المدخل بحيث تؤدى صورته غرض تمثاله وتمثله كما لو كان خارجا من مقبرته إلى دنيا الأحياء (شكل ٢٠) .

وازدوج مدخل الروح فى بعض المقابر الفردية . فظهر مدخلان فى الجدار الغربى لمقاصيرها الرئيسية باسم واحد ، مدخل شمالى وآخر جنوبى[١] ، وقد يعلل هذا الازدواج بالرغبة فى تقليد صورة المشكاتين القديمتين اللتين كانتا تتصدران واجهة المصطبة ، أو برغبة المعمارى فى تمييز المقبرة بشىء تختلف به عن غيرها .

وروى كبير الأطباء نى عنخ سخمة أنه قال لفرعون عصره ساحو رع : « هلا سمحت نفسك حبيبة رع بأن يوهب مدخل حجرى لمقبرتى هذه . . . » فأذن جلالته بأن يقطع من أجله مدخلان من محاجر طرة[٢] . وذلك مما يعنى أن عامل الكرم الملكى كان سبباً فى هذه الحالة فى ازدواج المدخلين .

وقد ينحت البناء المدخلين متجاورين فى مسطح حجرى واحد ويحيطهما معاً بزخرفة الخيزرانة (التورس) ويتوجهما بزخرفة الكورنيش[٣] ، أو يعمد إلى العكس فيشيدهما متباعدين وعلى طرازين مختلفين ، بحيث يتخذ أحدهما طراز المدخل المعتاد ، ويتخذ الآخر هيئة واجهة القصر[٤] رغبة فى الاستفادة بزخارفها المعمارية والتشكيلية الملونة وشغل جانب من الجدران المتسعة بها (شكل ٢١) . وإن كان Capart قد ربط بين واجهة القصر هذه وبين أمل أصحابها فى أن يشتركوا عن طريقها فى الطقوس الملكية ، على حد تعبيره[٥] .

---

(١) Junker, Giza II, Abb 9—10, IV ; Giza VI, Abb. 6—7 ; 76

(٢) Urk. I, 38, 11 f.

(٣) V. Bissing, Denkmaeler, Abb. 2, Taf. 17

(٤) N. de G. Davies, Ptahhetep, pl. XXIX ; S. Hassan, Giza II (1929-1930) pl. LI ; Jequier, Douze ans de fouilles dans la nécropole memphite, 1940, 110 ; « Steles-facade » ; and see for other small palace-facade steles, Cairo 1377, 1378, 1379.

(٥) Capart, L'art ég., 71 f. ; Chron. d'Eg. 1944, 230.

واختلف عن ازدواج المداخل فى المقاصير الفردية ازدواج آخر فى المقاصير الأسرية حيث يتميز فى جدرانها الغربية مدخل جنوبى للزوج عن مدخل آخر شمالى للزوجة ، فيما خلا حالات معدودة تميز فيها مدخل الروح الشمالى عن زميله الجنوبى باتساعه وارتفاعه[1] ، ربما لمجرد الرغبة فى إشراك الزوج فيه مع زوجته عوضاً عن انفرادها به . وقليلا ما تضمنت المقصورة الواحدة أكثر من مدخلين من مداخل الروح فى جدارها الغربى[2] .

وظهرت فى عهد بيبى الثانى وحول هرم زوجته وجبتن نماذج حجرية مصمتة صغيرة نحتت على هيئة المصاطب وحملت أسماء أصحابها ودعواتهم، وتوسطت واجهاتها الصغيرة مداخل تشبه هيئة مداخل الروح بتفاصيلها ؛ ولكن باعتبارها مداخل المصطبة ذاتها . وقد تعتبر هذه النماذج بديلا عن وجود المصاطب الحقيقية لأصحابها حول هرمى الملك والملكة وبتصريح خاص منهما[3]، أو تكون مقابلة لنماذج المساكن الصغيرة التى شكلها أصحابها من الطين فى العهد نفسه وبعده بقليل وأطلق فلندرز بترى عليها اسم « بيوت الكا » ، وكانت تمثل بيوتاً دنيوية مختلفة السعة والأهمية[4] .

وظلت أبواب المداخل تؤدى وظائفها بعد عصور الدولة القديمة وشاركتها أهميتها وبعض أغراضها نصب ولوحات مستطيلة منذ عصر الانتقال الأول ، ولكن الفنانين أو المعماريين لم يأبوا أن يستعيروا بعض عناصر المداخل ويقلدوها على نصبهم ولوحاتهم ، وكانت أحب عناصرها إليهم هى صورة الأبواب ذات المصاريع والمزاليج ، التى اتخذوا تصويرها مقدمة لتصوير الحياة الداخلية فى دور أصحاب المقابر على سطوح نصبهم ولوحاتهم[5] .

---

(١) Junker, Giza VI, Abb. 30—31

(٢) Ibid., Abb. 70

(٣) Jequier, Tombeaux, 96 f. 112 f.; Fig. 111—116 ; Oudjebten, p. 26 f., Fig. 34, 36—37. ; Louvre E 14185. Müller, op. cit., 180. ; J. Vandier, op. cit., 435—36.

(٤) W.F. Petrie, Gizeh and Rifeh, I, pl. XIV f. ; Egyptian Architecture, pl. XXIV, etc.

(٥) Cairo 1576, 1617, 2009, 20088, ; 20686, ; 20756. Louvre C. 15 ; Müller, op. cit., Abb. 11 ; Metr. Mus. A., 12—183—8.

وتكررت المداخل بجوار بعضها فى المقصورة الواحدة فى بعض مقابر الدولة الوسطى . ومن نماذجها التى يحتفظ المتحف المصرى بها خمسة مداخل صغيرة شكلت فى جدار واحد، وخصص اثنان منها متجاوران لشخص واحد ، ومدخلان متجاوران آخران لرجل وزوجته . واستغل الناقش المساحات الرأسية الفاصلة بين هذه المداخل تسجل صور القرابين والهدايا فى جانب منها وسجل قوائمها فى جانب آخر ، وصور تحتهما صاحب المدخل ومائدته وبعض حملة القرابين والهدايا إليه [1] .

* * *

وكان من الطبيعى أن يتفاوت نصيب كل مدخل الروح عن مدخل آخر فى دقة الصناعة والأخذ بروح الفن وقواعده . تبعا لمقدرة صاحبه، ومهارة صانعه، وكفاية فنانه ، وحجم مقبرته ، ونوع حجره . فضلا عن عهده ، ومكان مقبرته . فثمة مداخل لا تزال تعتبر قطعا فنية رائعة فى حد ذاتها ، بتناسق خطوطها المعمارية ورشاقة خطها المزخرف وإتقان نقوشها وانسجام ألوانها ، إلى جانب مداخل أخرى خشنة قميئة إقليمية متواضعة ، ومداخل عداها تعتبر بين بين . وكثيراً ما تشابهت الخطوط العامة وموضوعات المناظر والنقوش بين مداخل العهد الواحد والمنطقة الواحدة ، ولكن هذا لم ينف اختلاف التفاصيل بين نماذجها الجيدة ولم يمنع فنانيها من التجديدات التفصيلية إن عزت عليهم التجديدات الجوهرية .

ونستعرض من نماذج المداخل الفردية على سبيل المثال تكوينات المدخل المصور بشكل ٢٣ ومضمون موضوعات نصوصه ومناظره . فهو لرجل يدعى حاپى عاصر أوائل عصر الأسرة السادسة [2] . وهو مدخل صغير الحجم فى حد ذاته ، ولكنه تميز فى تخطيطه العام بطابع البساطة وقلة نصوصه ورشاقة خطوطه وتعدد أعتابه واعتباره مدخلا لواجهة محددة . واستخدام الفواصل الخطية السميكة لتحديد إطارات نقوشه ، وارتفاع فروع كورنيشه وانعطافها إلى الخارج مع ازدواج أطرافها العليا ، وتلوين خيزرانته الملفوفة بخطوط خضراء ترمز إلى اربطتها

---

(١) Cairo, 6197

(٢) Cairo 1409

النباتية القديمة ، وتحديد لوحة قربانه باطار حجرى خاص ، واستخدام عتبه السفلى لتصوير عينى وجاة ، مع ترك العتب العلوى الضيق خالياً ، وتسجيل أسماء الدهون والزيوت على العتب الذى يعلو الكورنيش ، ثم تصوير صاحبه على أجزائه السفلى فى أربع صور على هيئة الدعاء .

ولم تخل نصوص المدخل على الرغم من قلتها مما يميزها ، فقد وجهت دعوات إطاره الخارجى الى «كا» صاحب المدخل « n k3 n » أى إلى ذاته أو نفسه ، أو من أجل فاعليته وحيويته ، وكانت هذه العبارة لاتزال قليلة الشيوع فى نصوص الافراد بحيث فات بعض الباحثين ترسمها خلال عصور الدولة القديمة فاكتفوا بردها إلى عصور الدولة الوسطى [1] .

وتضمنت جوانب الاطار الخارجى لهذا المدخل بعض المناقب الشخصية لصاحبه (وكان ذكر المناقب الخاصة على المداخل لايزال بدوره نادرا) ، ورمزت إلى المعبود أوزير خنتى إمنتيو بصورته الكاملة (وكان تصوير الأرباب فى نقوش الافراد لايزال نادرا كذلك) ، ولقبت صاحب المدخل بأنه حبيبه (حبيب أوزير) ، وأضافت أنه اشتهر بأنه «من زكاه أوزير » .

ومدخل آخر لرجل يدعى «نى كاورع » ولزوجته إيحاة [2] (شكل ٢٤) يبدو أكثر ازدحاما بنصوصه من سابقه ، ولكن ذلك لم يحرمه ميزات أخرى ، ومنها تحديد النص الطولى فى دخلة بابه بظلال جانبية عريضة لينسجم سمكه مع رشاقة السيدة المصورة أسفله ، واعتبار زوجة صاحبه شريكة فعلية لزوجها فى نصوص المدخل وصوره عن طريق تخصيص كل دعوات الكتف الداخلى الأيسر لصالحها ، وتصويرها لذاتها فى بداية نصوصه ، ومشاركتها زوجها مقعده على العتب العلوى ، ومواجهتها له بمقعدها أمام مائدته ، ثم تصويرها مع حماته ، وتكرار صورها وأوضاعها وهى تقف على حياء ، وتشم الزهور ، وتحتضن أمها ، ثم تصوير عازف ومداح وكاهن مبخر ، كل منهم باسمه وكل منهم يقوم بعمله .

* * *

(١) Steindorff, in AZ, XLVIII, 154 ; Gardiner, Eg. Grammer, p. 172

(٢) Cairo 654

حظيت دعوات مداخل الروح بأبحاث عدة . لن نطيل مناقشتها فى هذا البحث ولكننا نود أن نقدم اقتراحين مختصرين بشأن ترجمة أهم عبارتين رئيسيتين فيها ، وهما عبارة « حوتب دى نيسو » ، وعبارة « برخرو » ، على أن نؤجل عرض أسانيدها إلى بحث تال عن عقائد الآخرة ودعواتها .

فقد جرت العادة على ترجمة عبارة « حوتب دى نيسو » (١) بترجمات عدة مثل :

1 A.—Der König sei gnädig und gebe ;
1. B.—Ein Opfer, das der König gibt. (H. Junker) (٢)
2. A.—A boon which the king gives ;
2. B.—An offering which the king gives. (A.H. Gardiner) (٣)
3. —A king's favour and gift. (Gïrgis Mattha)

وما من شك فى أن كلا من هذه الترجمات تعتمد على أساس سليم وتصلح فى مناسبات بعينها ونصوص بعينها . وما من ريب كذلك فى أن ترديدها بصيغاتها الأوربية الشائعة يوفر المشقة ، غير أن هذا لن ينفى أن التعبير عنها بأسلوب عربى يتفق مع سياق نصوصها وأغراض أصحابها وطبيعة لغتهم ولغتنا ، ويمكن أن يغطى أغلب معانيها ، لايزال على جانب كبير من الصعوبة .

ونعتقد من ناحيتنا أن الترجمة التى تستطيع أن تناسب أغلب ما وردت به هذه العبارة فى سياق نصوص الدولة القديمة ، هى ترجمتها بصيغة الماضى اللفظى وبمعنى الدعاء ، بحيث تكون : «رضى الملك ووهب (كذا وكذا) » ، أو «رضى الملك ويسر (كذا وكذا) » تبعا لسياق نصها وسياق معناه ، وذلك على نحو ما نقول الآن : رضى الله عن فلان وأرضاه ، أو رحمه وغفر له ، نردد ذلك بصيغة الماضى اللفظى ولكننا نعنى الدعاء به للحاضر والمستقبل فى آن واحد .

---

(١) A.H. Gardiner, The tomb of Amenemhet, 79—93 ; Egyptian Grammer, 170 f., ; Smither, « *The writing of Htp—di—nsw* ... », in J.E.A. XXV, 84 f. ; C.J.C. Bonnett, *Growth of the Htp—di—Nsw Formula in the Middle Kingdom* » in J.E.A. XXVII, 77 f.

(٢) H. Junker, Giza II, 43 f.

(٣) A.H. Gardiner, op. cit.

وظلت عبارة پرخرو (ومترادفاتها پرى خرو، وپرت حر خرو، ...) أقل حظا من سابقتها فى أبحاث اللغويين والأثريين، وكانت صورتها الخطية تخصص عادة برموز للخبز والكعك والجعة ؛ وقليلا ماخصصت بأوانى الدهون والمنسوجات ؛ وجرت العادة على ترجمتها على النحو التالى :

1 A.—Going forth of the voice ;

1 B.—Invocation consisting of (such and such) ;

1 C.—Coming forth at the voice offerings (A.H. Gardiner).(١)

2 A.—Herauskommen auf den Anruf = Totenopfer ;

2 B.—Hervorkommen auf die Stimme ;

2 C.—Möge er auf den Ruf (des Opfernden) hervorkommen. (H. Junker) .(٢)

3— Das Totenopfer (bei dem der Tote auf den Ruf aus dem Grabe zum Speisen hervorkommt). (٣)

4— Ce qui sort à la voix de. (٤)

5— Sortie à la suite d'un appel. (٥)

ونعتقد بامكان ترجمة هذه العبارة بمعنى «انطلاق دعاء الطعام والشراب» (والكساء أحيانا)، (فى مقابل معناها الحرفى «خروج دعاء الخبز والكعك والجعة») على أن يعنى هذا الدعاء معنى التمنى إذا صدر عن القارىء والمقرىء، ويعنى معنى الطلب والرجاء إذا صدر عن المتوفى ، ويعنى معنى الوفاء بالالتزام إذا صدر عن ورثة المتوفى وأملاكه. وذلك إلى جانب استثناءات قليلة حملت فيها مترادفات هذه العبارة معنى « الخروج على دعاء الطعام والشراب » (پرت حر خرو) وربما معنى « الخروج إلى نداء الطعام والشراب » أيضاً (پرى رخرو) .

(١) Gardiner, Amenemhet, p. 86, Grammer, p. 172

(٢) Junker, op. cit., 42 f., 60 f., 170

(٣) Wb. I, 528—529

(٤) L. Speleers, Textes des Cercueils, 1946, 171 b.

(٥) S. Morenz, La Religion Egyptienne (trad.), 1962, 248.

غارة جيمسون على جمهورية جنوب افريقيا

٢٩ ديسمبر ١٨٩٥ — أول يناير ١٨٩٦

للدكتور زاهر رياض

— ١ —

نزل الهولنديون جنوب افريقيا حين أرسلتهم إلى هناك شركة الهند الشرقية فى القرن السابع عشر . وأوكل أمر تنظيم جماعتهم إلى فان ربيك . وأخذ عددهم يزداد بمن توالى عليهم من الهولنديين والألمان . وخاصة حين أقبل عليهم هيجونوت فرنسا أثر إلغاء مرسوم نانت [١] وأخذوا يدفعون بالوطنيين إلى الوراء . ولذا كانت علاقتهم بمن سبقهم إلى هذا الجزء الأفريقى من القبائل الافريقية سيئاً منذ اللحظة الأولى . واحترف القادمون فى مواطنهم الجديدة ما كانوا يحترفونه فى مواطنهم الأولى من رعى وزراعة . وتركت لهم الشركة حرية بيع حاصلاتهم إلى البواخر التى تمر بهم [٢] ولذا احتاجوا إلى الرقيق لزراعة أرضهم فاشتروه من موانى شرق افريقيا أو من جزائر الهند الشرقية . وكان إقبال البواخر على شراء كميات كبيرة من اللحم داعياً لهم إلى الاقبال على الرعى أكثر من الزراعة [٣] كما كان ازدياد عددهم داعيا إلى اتساع رقعة الأرض التى سكنوها فامتدوا إلى الشرق حيث تكثر الأمطار الصيفية . وتزداد مساحة الأرض الصالحة لـكل من الرعى والزراعة . وإذا كان بعضهم قد اندفع إلى الشمال . فقد شقوا طريقهم إلى أهدافهم بين القبائل الأفريقية . بعد أن دفعوهم عن مواطنهم نحو الشمال .

---

(١) جنوب أفريقيا ص ٣٠

(٢) Cam. p. 1191

(٣) Ibid. p.1120

ولم تكن هذه الهجرة سواء إلى الشرق أو إلى الشمال نتيجة لازدياد عددهم فحسب بل لضيقهم من النظم التى كانت تشرعها لهم الهيئة الحاكمة وتشتد فى تطبيقها عليهم (١) .

وظلت حركات الهجرة نحو الشرق والشمال تتوالى وتشتد لاسيما فى القرن التاسع عشر . وقد حاولوا ذلك فى ١٨١٩ كما حاولوها مرة أخرى فى سنة ١٨٣٥ ثم مرة ثالثة فى سنة ١٨٤٦ . ثم فى سنتى ١٨٥٠ و ١٨٥٢ . ولكن المرات الأخيرة امتازت بالنظام وإشراف الدولة عليها وتنظيمها وتوجيهها . وكان الاستقرار ينتهى بتخطيط حدود جديدة ثم تأليف بوليس مسلح من أجل المحافظة على هذه الحدود ضد هجمات الوطنيين (٢) وكان هؤلاء الفلاحون بما كان يعتور نفوسهم من محاسن ومساوىء يفضلون العزلة والاستقلال فتحت تأثير الروح الكلفنية والهولندية والهيجونوتية . وتحت طول التجربة السياسية التى ورثوها . ورثوا معها الرغبة فى الوحدة . وهى رغبة نتجت من جراء السنين الطويلة التى قضوها فى مساحات واسعة ، والجو الصافى فى منطقة الكارو حتى لقد قيل أنه نشأ بينهم رجال يشعرون بالضيق الذى يحسه من يعيش فى الزحام ، إذا شاهدوا الدخان يتصاعد من منزل جارهم . كما كرهوا الصناعة وكذلك الاجراءات الرسمية المعقدة فكانوا قنوعين بحالتهم . مصممين على أن تسوسهم حكومتهم بطريقة أبوية كما يسوسون هم عائلاتهم وخدمهم . ولذا اعتبروا الأرض التى زحفوا إليها والتى استولوا عليها عنوة وكأنها قد أصبحت أرضهم بحكم الحق والقوة . ولذا أصبحوا يؤمنون بأنهم شعب مختار (٣) وسوف يكون لهذا كله أثر فيما سيجرى فى هذا الركن من حوادث تؤثر فى علاقتهم بمن جاورهم .

وقدم إليهم الحكم البريطانى أكثر من مرة خلال الحروب النابوليونية وانتهى الأمر بشراء الحكومة البريطانية لهذه المستعمرة فى سنة ١٨١٤ (٤) وقدم إلى

---

(١) Theal Vol II p. 250

(٢) جنوب أفريقيا ص ٣٢

(٣) Cam. p. 565

(٤) Ency. Art. South Africa

جنوب افريقيا مع الحكم البريطانى مهاجرون بريطانيون . ولكنهم كانوا قلة بالقياس إلى الهولنديين والألمان واستقروا فى الشرق . ولم يكن شراء البريطانيين لهذا الجزء من أجل التوسع فى رقعة الأملاك البريطانية بل من أجل أن يكون قاعدة لهم فى طريق سفنهم إلى الهند [١] .

وكانت عملية النقل البحرى آنذاك لاتزال معقدة مما أدى إلى صعوبة نقل المجرمين البريطانيين إلى استراليا . فتراكم منهم كثيرون فى الجزائر البريطانية . فاستصدرت الحكومة قرار فى سنة ١٨٤٨ يبيح للحكومة نقلهم إلى حيث يترائى لها . فأرسلت منشورات دورية إلى سائر حكام المستعمرات تعرض قبول إسكان عدد منهم فى هذه المستعمرات . فقبل حاكم مستعمرة الرأس اسكانهم ووصلت فعلا سفينة تحمل ٢٨٩ شخصاً منهم . بينهم جون متشل الثائر الايرلندى . فكان ذلك مثار سخط كثير من السكان . فألف بعضهم هيئة أطلقت على نفسها اسم Anti Convict Association لمقاومة نزول القادمين بمنع تموينهم أو اسكانهم أو تشغيلهم . مما اضطر الحاكم العام إلى منع نزولهم . فابقاهم فعلا على ظهر السفينة حتى يتقرر مصيرهم . فكانت كثرة الهولنديين إلى جانب انتصارهم فى هذه الحادثة باعثاً لهم على اعتزازهم بمركزهم . ولجوئهم إلى تحدى الحكومة فى أكثر من موقف . فطلبوا من الحكومة أن يؤلفوا مجلساً من ممثلين للشعب يحمل بعض مسئولية الحكم إلى جانب الحاكم العام ونزلت الحكومة عند طلبهم[٢] فى سنة ١٨٥٣ ، وضاق كثير من الافريكانر — وهو الاسم الجديد الذى أطلقه الهولنديون على أنفسهم ليميزوا أنفسهم عن البريطانيين الدخلاء — بالحكم البريطانى . لكثرة ما فرضه هذا الحكم عليهم من ضرائب وتشدده فى جمعها . ولكن أكثر إما أثار سخطهم إلغاء بريطانيا الاتجار بالرقيق فى سنة ١٨٣٥ وإرغامهم على تحرير ما كانوا يملكونه من رقيق . وهى وإن دفعت لهم تعويضات مجزية إلا أن هذه التعويضات سرعان ما صرفت فى استئجار عمال يساعدونهم على العمل . بل أصبح هؤلاء الرقيق — من الوجهة القانونية على الأقل — مساوين لغيرهم من السكان[٣] وكانت وسيلتهم للتعبير

---

(١) Afr. p. 15

(٢) جنوب أفريقيا ص ٣٨ و ٣٩

(٣) نفس المصدر ص ٣٢

عن هذا الضيق الهجرة إلى أراضي جديدة لا تمتد إليها أيدى البريطانيين وخرجوا ومعهم عائلاتهم وخدمهم وقطعانهم . ولم يمنعهم تملكهم للأرض من أن يضحوا بها ويبيعوها بأبخس الأثمان . فدخلت جماعات منهم إلى ناتال . بزعامة بيتر ريتيف . إلا أن المصادمات التى حدثت بينهم وبين الزولو انتهت بقتل ريتيف وبعض أصحابه . وفى سنة ١٨٣٨ قدم بريتوريوس للانتقام لزملائه فاستطاع أن يوقع بالزولو فهرب ملكهم دنجان . واحتل البوير المنطقة [١] وتبعهم الجيش البريطانى إلى ناتال واحتل المنطقة لا لرغبة بريطانيا فى التوسع آنذاك . بل لأن الحكومة البريطانية رأت أن نزولهم فى هذه المنطقة الساحلية يتيح لهم اتصالا مباشراً بالدول الأجنبية . الأمر الذى تكرهه بريطانيا وتعمل على تجنبه . ووجود نفوذ لدولة أجنبية فى هذه المنطقة البريطانية الهامة من حيث كونها فى طريق اتصالهم بالهند خطر على مصالحهم . ووصول التجارة البريطانية إلى الهند وغيرها من أنحاء العالم كان أهم ما تعنى به بريطانيا وسياسيوها منذ بدايه القرن التاسع عشر . منذ أن استن هذه السياسة كاننج فى سنة ١٨٢٢ وتبعه فيها تلميذه بالمرستون [٢] فنحن نعرف أنه وقف من محمد على فى مصر موقف المعارضة مخافة أن تؤدى سياسة هذا الوالى المستقلة ثم اعتماده على الفرنسيين إلى الاضرار بالتجارة البريطانية إلى الهند [٣] كما سعت انجلترا عن طريق اتصالها بسلطان زنجبار سعيد بن برغش أن يكون لها مركز ممتاز فى بلاده من أجل أن تطمئن على هذه التجارة [٤] فكان ان ضمت ناتال إلى مستعمرة الرأس فى سنة ١٨٤٢ على أن تترك لها حكومتها الخاصة .

وكان تتبع البريطانيين للمهاجرين ثم ضم منطقتهم إلى الحكم البريطانى داعياً لهم إلى هجرة جديدة اتجهت شمالا بعد أن عبرت نهر الأورنج تحت قيادة هندريك بوتجيتر Hendrick Potgicter وأسسوا دولة أورنج الحرة [٥] . ومن هذه المنطقة الجديدة خرجت جماعات أخرى أقل عدداً وعبرت نهر الفال وكونت جمهورية جنوب

(١) جنوب أفريقيا ص ٣٢

(٢) Brit. p . p . 17-25

(٣) Ibid. p. 26

(٤) John. p. 207

(٥) Ency. Art. Orange Free

أفريقيا(×)[1]. ولم تعن الحكومة البريطانية هذه المرة بتتبعهم ماداموا فى الداخل تحيط بهم المستعمرات البريطانية من الجنوب والقبائل الافريقية فى الشمال والشرق والغرب. وإن كان القلق قد ساد بعض الدوائر البريطانية خوفا على أعضاء بعض البعثات التبشيرية التى كانت قد دخلت إلى هـذه الأجزاء واستقرت فيها كما عاش فيها بعض التجار البريطانيين يتاجرون مع الوطنيين فى العاج.

ولكن الحق يقتضينا أن نقول أن هؤلاء المهاجرين لم يستقروا نهائياً فى هـذه المنطقة الجديدة إلا بعد أن شقوا طريقهم صعباً وبعد قتال عنيف مع قبائل الباسوتو فى الشرق والماتابيلى فى الشمال. خسروا فيه أرواحا كثيرة. وبذلك أصبح هناك أربع وحدات سياسية هى الرأس وناتال وهما مستعمرتان تابعتان للتاج البريطانى. ثم أورنج الحرة وجنوب أفريقيا وهما جمهوريتان مستقلتان.

وفى قولنا هـذا بعض المبالغة فان الأمور فى الجمهوريتين البويرتين لم تستقر على صورة طيبة بسرعة. بل نزلت كل جماعة فى منطقة من الأرض واستقرت بها بعد أن عبرت نهر الأورنج. حتى ليمكننا أن نقول أنه لم تكن هناك وحدة تجمعهم مطلقاً أو سلطة تباشر حمايتهم جميعاً حتى لقد طلب الجنرال نابيير قائد الحملة البريطانية التى عسكرت فى ناتال. من حكومة لندن أكثر من مرة. أن تأذن له فيتقدم ليضم هذه الجماعات كما ضم ناتال[2] فلم توافقه الحكومة البريطانية على ذلك بل نصحته أن يكتفى بعقد المعاهدات مع من يرى من الزعماء من أجل ضمان حقوق الوطنيين كى لا يسبب النزاع معهم مزيداً من المشاكل فى المستقبل[3] فاكتفى بما تأمره به الأوامر وسمى هـــذا الاتفاق الذى عقد فى يناير سنة ١٨٥٢ والذى اعترفت فيه بريطانيا بالاستقلال السياسى لهـذه المنطقة التى حملت اسم الجمهورية الافريقية الهولندية باسم Sand River Convention وقد نص على تبادل التجارة وتبادل المجرمين. وحرية

(×) اطلق البريطانيون على هذه الجمهورية اسم الترنسفال فى الفترات القليلة التى خضعت فيها لسلطتهم واصبح هذا الإسم اسمها الرسمى بعد سنة ١٩٠٢

(١) Cam. p. 329

(٢) Ibid. p. 339

(٣) Afr. p. 16

الحركة عبر الحدود وعدم الاعتداء على أراضى بعضهما . كما نص على إلغاء الرق[1] وأن يمثل الحكومة البريطانية لديهم مندوب سام هـذا فى الوقت الذى يتكون فيه جهاز الحكم فى الجمهورية من رئيس منتخب يعاونه مجلس تنفيذى يعتمد على مجلس نيابى منتخب هو مجلس الأمة .

ولكن أحوال هاتين الجمهوريتين لم تستقر . فكان سوء الأحوال هو الذى دعا زعماء الجمهوريتين إلى محاولة الاتحاد معا فى أكثر من مناسبة . كانت الأولى حين اتفق بريتوريوس رئيس جمهورية جنوب افريقيا مع كروجر قائد الجيش فى الجمهورية على اسقاط حكومة اورنج وارغامها على الاتحاد . ومن أجل ذلك قاد الأول جماعة من المتطوعين وعبر بهم نهر الفال وانضم إليهم انصارهما فى اورنج . فى الوقت الذى اتفق فيه مع زعيم قبائل الباسوتو على مهاجمة اورنج من الشرق . ولكن مقاومة قوات حكومة اورنج ارغمت المهاجرين على الارتداد وتسوية الأمور تسوية سلمية كان من نتيجتها سخط أهالى جمهورية جنوب افريقيا على حكومتهم واسقاط بريتوريوس[2] وكانت المرة الثانية فى سنة ١٨٦٠ حين انتخب بريتوريوس الابن رئيساً لجمهورية اورنج فى الوقت الذى كان فيه رئيساً لجمهورية جنوب افريقيا فحصل بريتوريوس على اجازة لمدة ستة اشهر واتجه إلى بلمفونتين (عاصمة اورنج) من أجل أن يدبر أمر الاتحاد سلميا . ولكنه لم يكد يخرج حتى قامت إحدى مقاطعات الجمهورية وهى لا يدن برج برئاسة آكبر ملاكها وهو بوتجيتر يعارض فى هذا الاتحاد بدعوى إنه أكثر فائدة لأورنج منه للجمهورية . مما أدى إلى استقالة بريتوريوس[3] وقد دلت هذه الحوادث على أن ليست الروح الوطنية هى التى تسير أمور البوير . فاذا كانت الوحدة بين الجمهوريتين قد تمت فانه كان من المحتمل أن يؤدى الأمر إلى قيام جمهورية واحدة حرة قوية على قدر من الاستقرار ولكن انعدام الثقة بينهم قضى على هذه المحاولة . ومنعت الجمهوريتين من الحصول على الأمان والاستقرار اللذين كانوا فى اشد الحاجة اليهما .

---

(١) Cam. p. 355 .

(٢) Theal. Vol. 11 p. 42

(٣) Cam. p. 435

الفساد فى الجمهورية البويرية :

ولذا كانت النتيجة الطبيعية — إذا ما قامت الجمهوريتان — أن يكون النزاع بين الزعماء هو طابعهما المميز مما أدى إلى فشل الحكومتين فى جمع الضرائب وبالتالى إلى عدم وجود سياسة ثابتة فى أى ناحية من نواحى النشاط الحكومى حتى إذا جاءت الأزمة المالية فى سنة ١٨٦٥ وأصدرت حكومة جمهورية أفريقيا أوراقاً مالية لم يثق بها الأهالى وهبطت قيمتها إلى ٣٠٪ من قيمتها .

وكان هذا الفساد أيضاً نتيجة طبيعية لضعف مستوى العقول التى تدير الأمر لمن تصدى ليحتل مكان الزعامة . ويمكننا أن نتخذ من وصف حياة كروجر مثالا نستدل منه على نوع الرجال الذين تولوا قيادة الجمهوريتين خلال هذه الفترة فقد صحب والديه وهو صغير السن فى هجرتيهما الكبرى . فنشأ فى حالة بين البربرية والمدنية . متجولا على طول الخط . مقاتلا . صائداً ، تربيته أولية ، أعتقد فى نفسه أنه مهيء من الله لتنفيذ رسالة ما . اشترك خلال صباه فى الحروب ضد الماتابيلى حتى استقر نهائياً فى شمال الفال . فكان ضمن المؤسسين لجمهورية جنوب إفريقيا . كل ذلك ولم يكن قد بلغ العشرين من عمره[1] فاذا ما استقر الأمر بعض الشيء وجد فى الجمهورية أكثر من حزب كل يرى وجهاً ما للعلاقة بين الجمهورية والبريطانيين . فهناك من يمكننا أن نسميهم باليمنيين المتطرفين وهم الذين يرون وجوب المحافظة على استقلال الجمهورية مهما كان الثمن ، والعزلة عن الوحدات البريطانية ثم السعى إلى توسيع الرقعــة بضم الأراضى التى تسكنها الجماعات البويرية الأخرى وكذلك الجماعات الوطنية أى اتباع سياسة الاعتداء فى كل الجهات . وكان على رأس هؤلاء كروجر . كما كان هناك من نستطيع أن نسميهم باليساريين المتطرفين وهم الذين يرون ما كانت تعانيه بلادهم من أحوال سيئة ويسعى جاهداً إلى العودة إلى الحكم البريطانى على أية صورة من الصور وعلى رأسهم برجر . ثم الحزب الثالث الذى كان يرى الابقاء على الاستقلال مع السعى الجدى إلى إصلاح الأمور للوصول بها إلى بر السلامة وهم من نستطيع أن نسميهم بحزب المعتدلين أو حزب الوسط أو حزب الاصلاحيين .

---

(١) Ency. A.rt. Kruger

محاولة الضم السلمى الى الأملاك البريطانية :

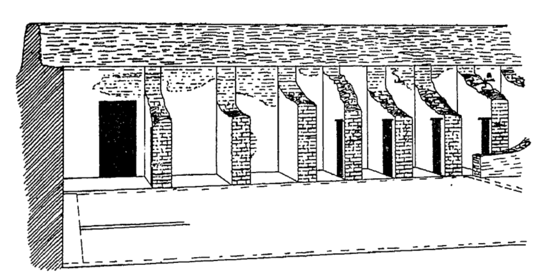
وفى سنة ١٨٧٧ ، تبين برجر وكان رئيساً للجمهورية أن الأمور لا تسير فى الجمهورية بحالة مرضية إذ لم يكن البوير يعنون بالحرية سوى الفوضى وسياستهم الوطنية (إزاء الوطنيين) لم تكن إلا استرقاقاً . وقد عبر عن هذه الحالة فى إحدى خطبه أمام مجلس الأمة فى مارس من تلك السنة حين قال أنه يفضل أن يكون رجل بوليس فى حكومة قوية من أن يكون رئيساً لمثل هذه الدولة والتى بمسئولية ذلك على جميع البوير . ولذا نراه قد فتح باب المفاوضات مع السير هنرى باركلى حاكم مستعمرة الرأس والمندوب السامى ليرسل إليه تيوفيلس شيبستون Theophilus Shepstone للمفاوضة فى أمر مستقبل الجمهورية . وبعد بضعة شهور أمضاها شيبستون فى برتيوريا اقتنع بأن ضم (الترنسفال) إلى الأملاك البريطانية هو خير حل لخلاصها من مشاكلها . إذ كانت الخزينة خالية والبوير يرفضون دفع الضرائب وليست هناك من قوة لارغامهم على دفعها والدين العام بلغ ٢١٥ ألفا من الجنيهات وكأنما تبين كل إنسان سوء الحال فوقع ثلاثة آلاف منهم (من بين عدد الرجال الذين بلغ عددهم تسعة آلاف) عريضة يطلبون فيها هذا الضم . وفعلا وقع شيبستون اتفاقاً بالضم فى أبريل سنة ١٨٧٧ [١] ونص هذا الاتفاق على أنه يعبر عن رغبة حكومة جلالة الملكة فى أن يتمتع أهالى هذه الدولة بحرية التشريع فيما يختص بأمورهم الداخلية وبما يتلاءم مع رغبة الأهالى .

لماذا وافقت الحكومة البريطانية على الضم :

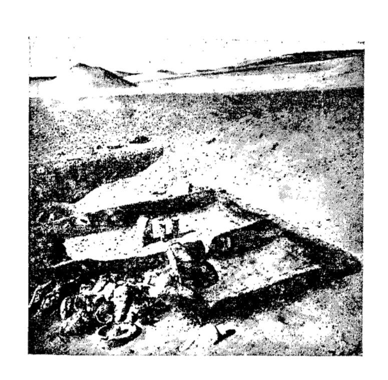
وكانت الحكومة البريطانية قد أيدت هذا الضم بسبب وجود دزرائيلى على رأس الوزارة وقد اهتم خلال وزارته (١٨٧٤ — ١٨٨٠) بالاقلاع عن سياسة العزلة التى انتهجها جلادستون منذ سنة ١٨٦٥ وأخذ يهتم بالحركة الاستعمارية فأبدى العناية الكبيرة بشئون الامبراطورية وفى مقدمتها الهند ومن أجل ذلك اهتم بمصر واشترى اسهم قناة السويس رغم معارضة وزير الخارجية اللورد دربى[٢]. كما تدخل فى مسألة التركستان فقاوم امتداد النفوذ الروسى إليها ليحمى المصالح البريطانية

Cam. p. 476 (١)

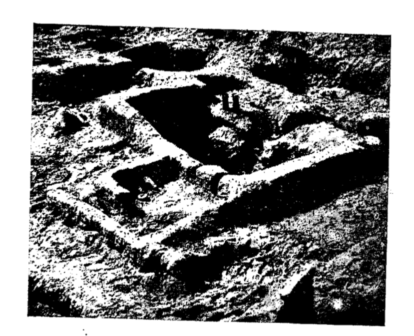
Brit. p. 68 (٢)



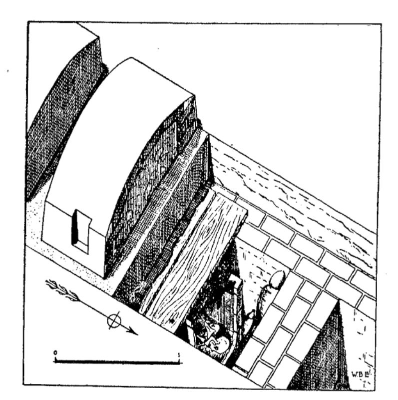
١١ ــ مقدمات مداخل الروح فى مقابر الأسرة الأولى بأبيدوس
(ص ٩٨ ــ ١٠٠)



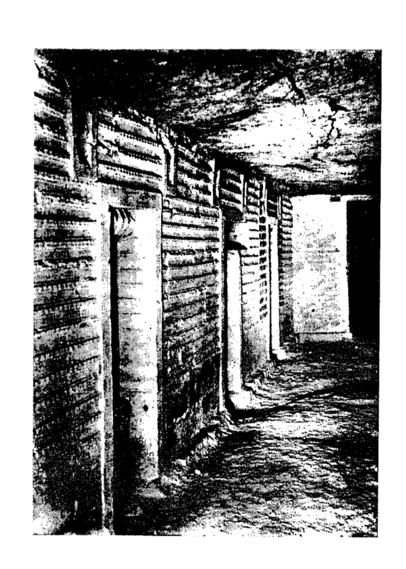
١٢ : فتحات مداخل الروح فى مصاطب
العصر انتنى بطرخان (ص ١٠١ ــ ١٠٢)

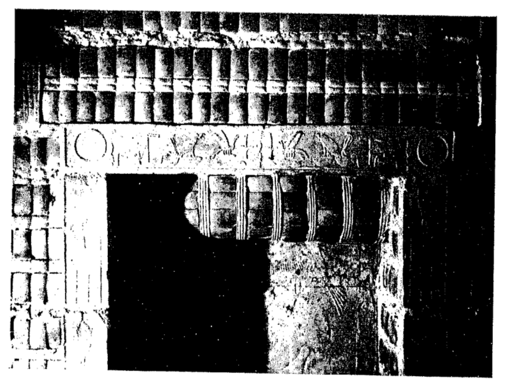


٢ ب : راجع الشكل السابق

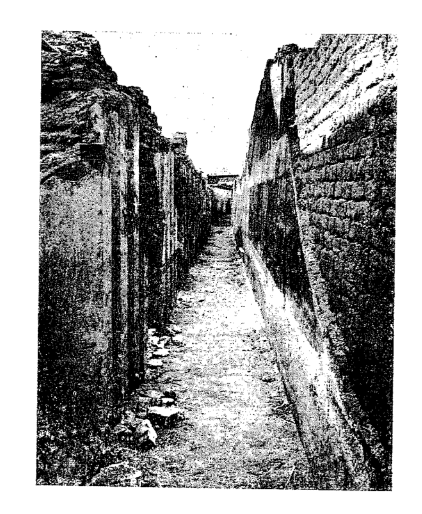


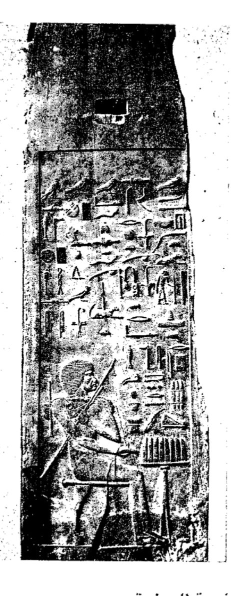
٣ ـ تخطيط مشكاة للقربان والروح (؟) في
مصطبة من الأسرة الأولى بسقارة (ص ١٠٢)





٤ ــ ٥ : المشكاوات ذات المداخل والنوافذ
فى الهرم المدرج (ص ١٠٩ ــ ١١٠)

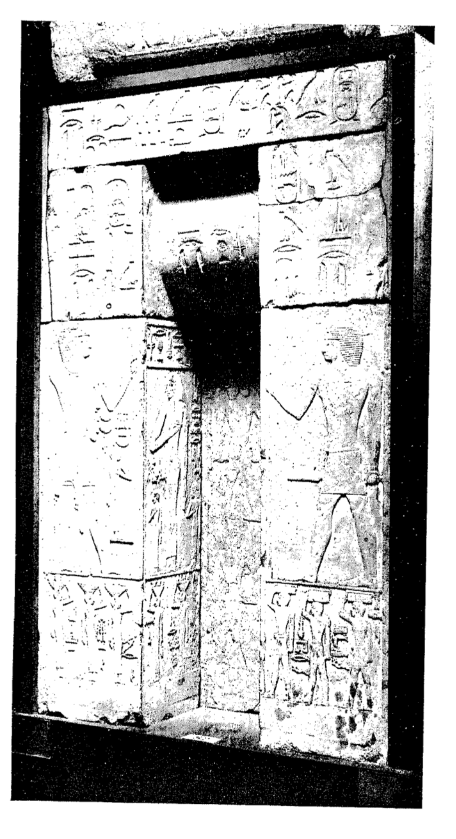




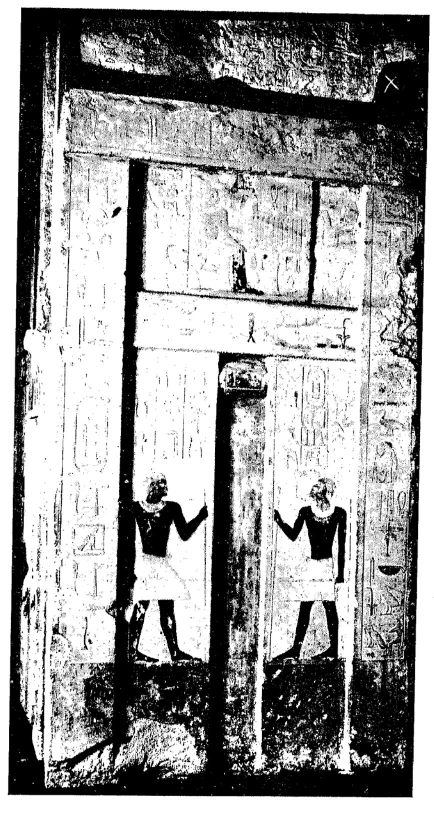
٦ ـ ٧ : مشكاوات حسى رع ومداخلها ذات اللوحة المسطحة
(ص ١١١ ـ ١١٣)



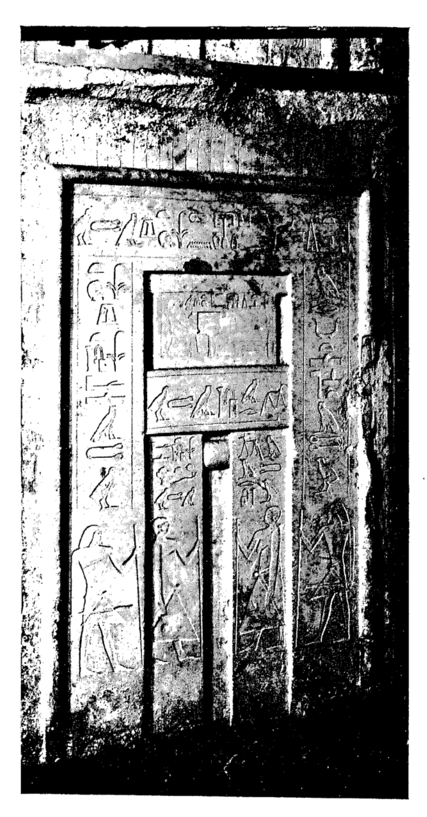
٨ ـ مدخل الروح الحجرى المجسم
داخل مشكاته (خع باو سكر :
ص ١١٣ ـ ١١٤)



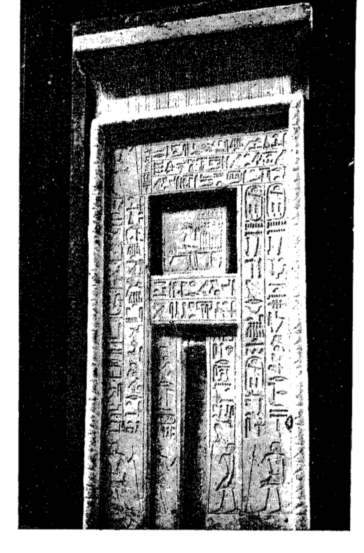
٩ ــ مدخل الروح فى تصميمه البسيط بعد أن استقل عن
مشكاته (شرى : ص ١١٧ ــ ١١٨)



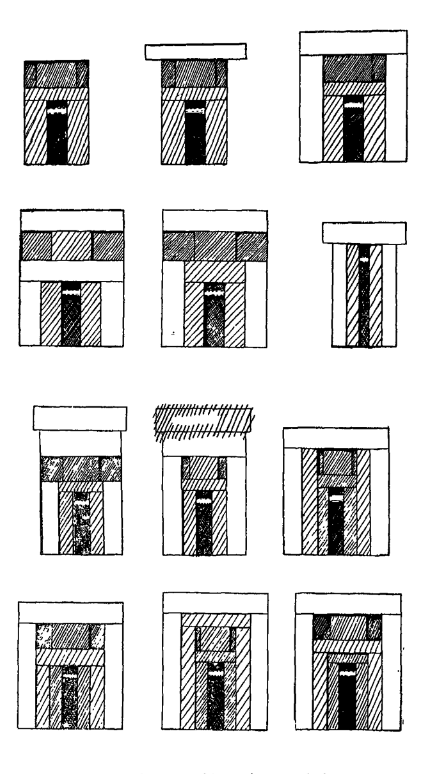
١٠ ــ نموذج للمداخل البسـيطة فى تطورها الثـانى (باللوحة والعتبين والاطار المسطح : ص ١١٦ +)



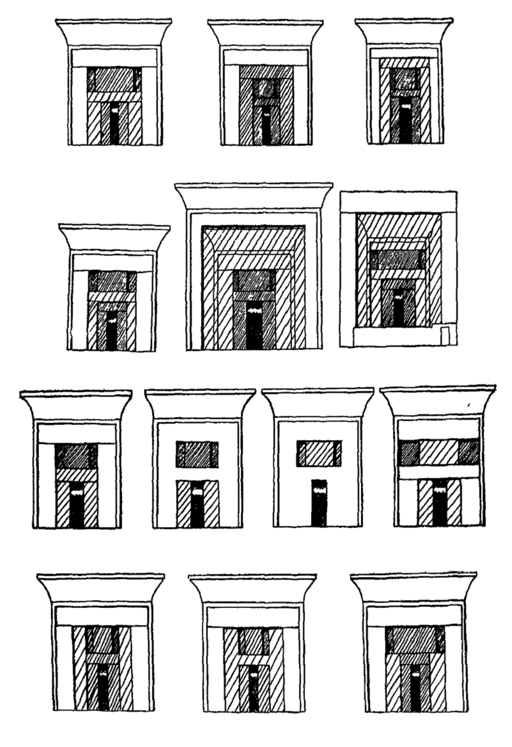
١١ ـ التطور الثالث للمداخل (بالاكتاف المزدوجة والكورنيش والخيزرانة) ـ لاحظ الاطار العلوى للوحة القربان ، وتصوير صاحب المدخل فى أكثر من سن واحدة .



١٢ ـ مدخل نموذجي كامل من أوائل عصر الأسرة السادسة



١٣ ـ تخطيطـات لتطـور الأكتاف والأعتـاب ومواضع
اللوحات فى المداخل غير ذات الكورنيش (ص ١٢٥ ـ ١٢٦)
After ; Adolf Rusch , in AZ. LVIIi. Taf. A. S. 120



١٤ ــ تخطيطات لتطور الأكتاف والأعتــاب وموضـع
اللوحات ذات الكورنيش والخيزرانة

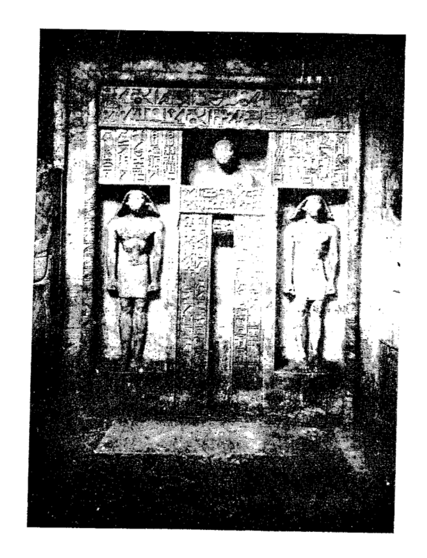
After : Adolf Rusch,op. cit, Taf. B., S. 122



١٥ — باب بدلفتين وعوارض فى فتحة مدخل انثى (مع استغلال
حشو الشراعة على جانبى اللوحة) ص ١٢٩ — ١٣٠



١٦ ـ انتقال جداول القرابين الى كتفى المدخل وظهور التمثال فى فتحة بابه فى عصر الأسرة السادسة (ص ١٣٠)



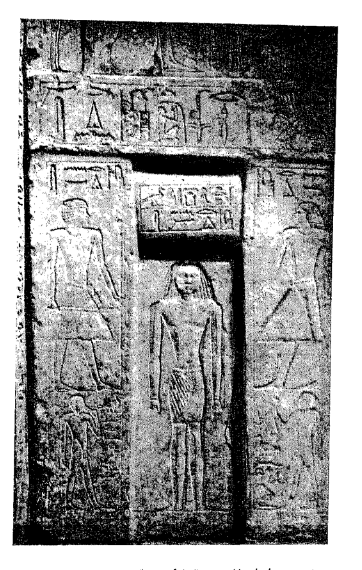
١٧ ـ تعدد التماثيل فى واجهة المدخل وحلول التمثال النصفى محل اللوحة مع تصوير تناول القرابين على جانبى المدخل



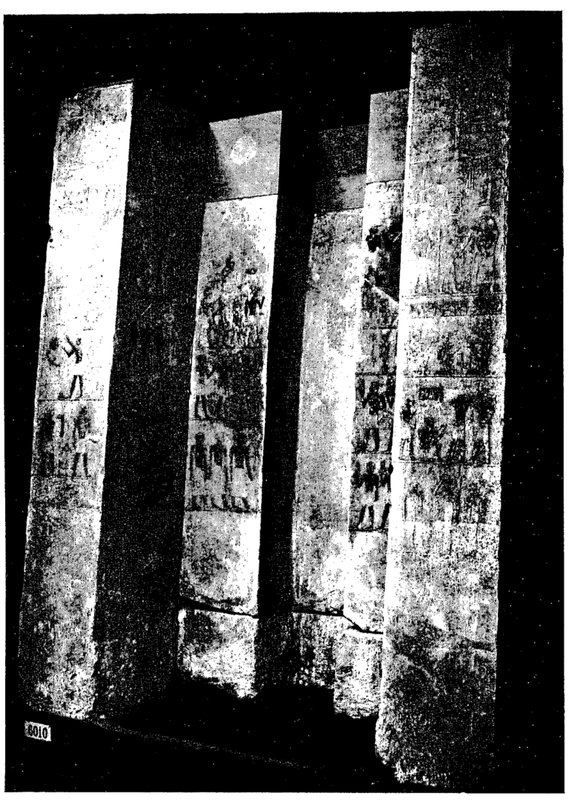
١٨ ــ الخروج من القبر لتلقى القرابين فى فتحة المدخل



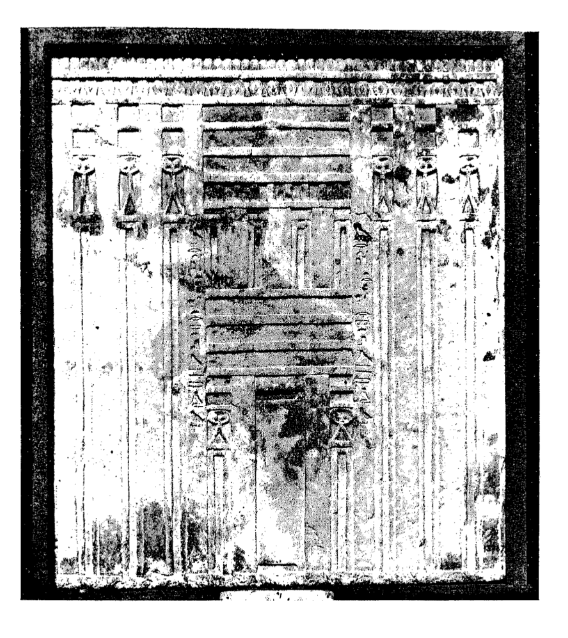
١٩ ــ تماثيل الأسرة فى فتحة المدخل



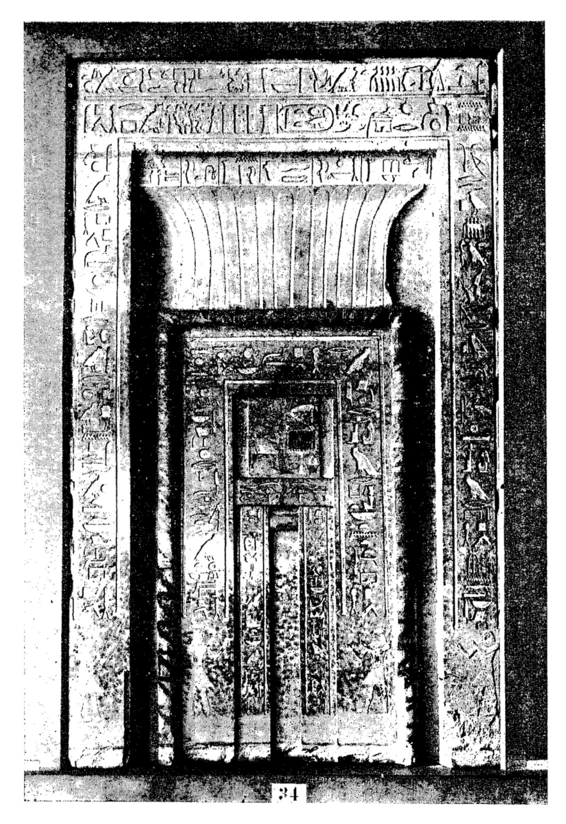
٢٠ ـ حلول الصورة الأمامية محل التمثال فى
فتحة المدخل وزيادة الصور على حساب النصوص



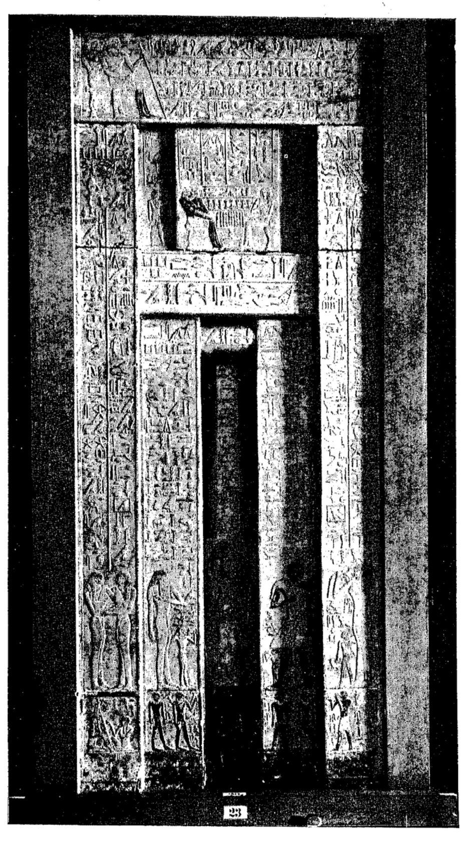
٢١ ـ مدخل ذو أكتاف ثلاثية استغلت سطوحه لنقش مناظر دنيوية وعقائدية
(ص ١٢٤ ـ ١٢٥)



٢٢ — واجهة مدخل دنيوى ببابها الخشبى (واجهة القصر) — ص ١٣١



٢٣ ــ تعديلات فردية فى المداخل ونقوشها (ص ١٣٣ ــ ١٣٤)



٢٤ — تعديلات فردية فى المداخل ونقوشها (ص ١٣٤ .)

فى الهند . حتى استطاع أن يظفر بموافقة جلالة الملكة فيكتوريا على أن تحمل لقب إمبراطورة الهند[١] . كما عنى اللورد كارنارفون وزير المستعمرات بمد النفوذ البريطانى فى جنوب افريقيا من أجل السعى إلى تكوين الامبراطورية التى كان يراها ضمانا للسلم[٢] . وكان دزرائيلى قد عرف عن طريق المندوب السامى أن برجر مصمم على اللجوء إلى ألمانيا والتحالف معها إذا رفضت بريطانيا هذا الاتحاد[٣] وكان إبعاد ألمانيا عن هذا الجزء أهم ما يعنى الساسة البريطانيين لئلا يكون وجودها سبباً فى تنافس مع بريطانيا تكون نتيجته قيام تحالف فرنسى ألمانى . كما نستطيع أن نعلل زيادة اهتمام الحكومة البريطانية بجنوب أفريقيا أيضاً بزيادة إقبال أصحاب رءوس الأموال البريطانيين على استثمار أموالهم هناك[٤] نتيجة اكتشاف الماس . فأصبحت الحكومة البريطانية تشعر بضرورة حماية مصالحهم . فقد كانت الأموال البريطانية المستثمرة فى حقول الماس فى سنة ١٨٧٥ لا تعدو مليونين ونصف المليون من الجنيهات . فارتفعت فى نهاية العقد الثامن إلى أربعة أضعاف هذا المبلغ . كما بلغ ما لهم من الديون إثنى عشر مليونا ونصف المليون من الجنيهات[٥] .

وإذا كانت الأحزاب قد كثرت فى كل من أورنج والترنسفال على نحو ما رأينا فان الشعب فى الأملاك البريطانية وخاصة فى مستعمرة الرأس لم يكن أقل من ذلك انقساما حيث كانت أغلبيتهم من البوير . ولذا نظروا إلى مسألة حكم البريطانيين لهم نظرة عداء صريحة . وكان على رأس هذه الجماعة التى تتركز أغلبيتهم فى الجنوب الغربى من مستعمرة الرأس توات Rev. S. J. Du Toit الذى أخذ يدعو إلى الاهتمام باحياء اللغة الهولندية من أجل جعلها على قدم المساواة مع الانجليزية وكثيراً ما اتصل بكروجر من أجل السعى إلى الاتحاد معهم . فكان ينصحهم بالتأنى حتى تستقيم الأمور فى الترنسفال[٦] . وإلى جانب هؤلاء يوجد حزب الرابطة الافريقية الذى يرأسه هو فماير الذى تنادى مبادؤه بالتعاون بين البريطانيين والهولنديين

---

(١) Ibid. p. 82

(٢) Cam. p. 467

(٣) جنوب أفريقيا ص ٥٢

(٤) Afr. p. 13

(٥) Ibid. p. 211

(٦) Cam. p. 493

من أجل إقامة جمهورية جنوب افريقيا المستقلة تحت علمها الخاص . وكانت هذه الجبهة تعادى جماعة توات الانفصالية ولذا أيدت هـذه الجبهة جهود برجر من أجل إتمام الوحدة سلمياً [١] .

ومن أجل إتمام هـذه الوحدة لم تتردد الحكومة البريطانية فى مخالفة سياستها السابقة تجاه الوطنيين فقد كانت دائما تقف معهم ضد البوير وترغم الآخرين على احترام حقوقهم [٢] . كما حدث فى اتفاق Sand River ولكنها الآن أخذت تهددهم بالحرب فى حالة اعتدائهم على الحدود البويرية . كما فعلوا مع السكوكونى وهزموهم [٣] .

ولكن هذا الموقف العدائى الذى وقفوه أخيراً ضد الوطنيين أوقعهم فى بعض المآزق لا سيما حين واجهوا الزولو فى الشرق ، وهزموا أمامهم . حتى إذا وصلت أخبار هذه الهزيمة إلى الترنسفال رجع بعضهم عن فكرة إتمام الضم وارتفعت أصوات المعادين له . لا سيما وقد خسر البريطانيون فى صراعهم مع الوطنيين كثيراً من الأرواح والأموال .

فشل محاولة الضم السلمى وحرب البوير الأولى :

ولكن حـدث فى أبريل سنة ١٨٨٠ أن أصبح جلادستون رئيساً للوزارة من جديد (١٨٨٠ — ١٨٨٥) [٤] وعادت معه سياسة العزلة والاهتمام بحرية التجارة أكثر من أى شيء آخر . فأعفى المندوب السامى فرير من منصبه . فأثار ذلك سخط الموالين لبريطانيا سواء فى مستعمرة الرأس أو الترنسفال فكتب كروجر إلى جلادستون فى هذا الشأن فرد عليه بأن لهم الحق فى أن يتمتعوا بحريتهم فى الترنسفال كأعضاء فى اتحاد جنوب افريقيا [٥] . فكان هـذا إلى جانب هزيمة البريطانيين أمام الزولو ثم مباشرة حكومة شيبستون لسلطته بطريقة أثارت شعور السخط فى البوير فرفضوا دفع الضرائب إلى (حكومة أجنبية) بل اجتمعوا وانتخبوا لهم حكومة

---

(١) Cecil p. 145

(٢) Cam. p. 496

(٣) جنوب أفريقيا ص ٥٤

(٤) Brit. p. 85

(٥) Cam. p. 491

مؤقتة على رأسها كروجر وبريتوريوس لم تلبث ان اعلنت الحرب على بريطانيا . ودارت بضعة معارك إلا ان تفوق البوير فى العدد اعطاهم نصراً حاسما فى موقعة تل ماجوبا الأمر الذى ادى — إلى جانب سياسة جلادستون — إلى ان تطلق حكومة بريطانيا كل سياستها الافريقية التى لا تجلب لها المتاعب والحروب والنفقات الكثيرة التى يرفضها الناخب البريطانى . فكان ان عقدت الهدنة فى مارس سنة ١٨٨١ انتهت إلى معاهدة بريتوريا فى ٣ اغسطس من نفس السنة التى استعاد فيها البوير استقلالهم وحددت حدودهم الشرقية بوضوح . على ان تكون هذه الحكومة تحت وصاية الحكومة البريطانية . فليس لها ان توسع رقعة اراضيها او تعقد المعاهدات مع دولة خارجية دون موافقة صريحة من الحكومة البريطانية . بل يتولى المقيم البريطانى هذه المهمة عنهم . كما اعترف باستقلال السوازى فى إقليمهم بين جمهورية جنوب افريقيا والبحر [١] .

— ٢ —

وتحدد معاهدة بريتوريا نهاية المرحلة الأولى من تاريخ جنوب أفريقيا وهى مرحلة بدا فيها منذ بدايتها صراع بين ثلاث قوى قدر لها أن تلعب الأدوار الرئيسية على مسرح تاريخ تلك البقعة من العالم . وأول هذه القوى البوير الذين رأوا أنفسهم أصحاب الحق الأول فى تسيير مصير جنوب أفريقيا بحكم :

١ — تملكهم الواقعى للارض بعد أن طردوا منها أصحابها الوطنيين .

٢ — تفوقهم الحضارى على هؤلاء الوطنيين وتفوق سلاحهم .

٣ — تفوقهم العددى على البريطانيين .

٤ — انقطاع الصلة بينهم وبين بلادهم الأصلية إذ لم يعودوا قادرين على العودة إليها .

أما القوة الثانية فهى قوة البريطانيين الذين كانوا يرون أنفسهم وقد أصبحوا أصحاب السيادة على هذا الجزء بعد أن تملكوه تملكا قانونياً منذ سنة ١٨١٤ وتتمثل

(١) Ibid. p. 492

قوتهم فى سلطة الحكومة من ناحية وقلة من السكان البريطانيين أخذوا يهاجرون إلى هذه الأجزاء منذ احتلالهم لها من ناحية أخرى .

أما القوة الثالثة فهى قوة الوطنيين أصحاب البلاد الأصليين الذين كانوا يرون فى القوتين السابقتين دخلاء على أراضيهم (١) فلم يملكوا إلى أن يظهروا العداء للقادمين ، إلا أن عداءهم انصب اكثر ما يكون على البوير الذين كانوا أول من احتك بهم وأول من أرغمهم على ترك أراضيهم وعاملهم منذ اللحظة الأولى معاملة العبيد الأرقاء ولم يترددوا فى أن يطلبوا فى بعض الأوقات الحماية والمعونة من البريطانيين (٢) الذين وقفوا منهم موقع المدافع إذا رأوا أن مصلحتهم تحتم عليهم هذا الوضع . ولكنهم فى نفس الوقت لم يكونوا يترددون فى التخلى عنهم ومحاربتهم إذا حتمت الظروف عليهم هذا الوضع أيضاً .

أما الدور الثانى فيبدأ بعد معاهدة بريتوريا مباشرة . وهو يتميز بظهور عوامل جديدة قادت المعركة بين أطرافها الثلاث . كى تنتهى إلى نتيجتها الحتمية وهى فناء أحد هذه العناصر . وهى النتيجة التى كانت غارة جيمسون على جمهورية جنوب أفريقيا سنة ١٨٩٥ ذروة ما دار بينها من الصراع الذى أدى إلى حرب البوير وإلى دخول الجمهوريتين البويريتين ضمن الأملاك البريطانية أما هذه العوامل فهى :

١ ــ نمو روح العناد عند البوير :

كان استعادة الكيان السياسى لجمهورية جنوب أفريقيا أكبر ضربة أصابت الموالين لبريطانيا . ووجد البوير أنفسهم فى مركز أفضل بكثير مما كان قبلا فقد سحق أعداؤهم الوطنيون . وتحول ثلثا ديونهم إلى بريطانيا . وأعيد مجلس الأمة وانتخب كروجر رئيساً وتحسنت المالية فوصلت الميزانية فى سنة ١٨٨٢ إلى ١٫٥٧٧٫٤٤٥ جنيهاً . فكان هذا باعثاً لهم على أن يسعوا إلى توسيع رقعة الأرض التى يسيطرون عليها إذ رأوا أنفسهم أحق الجميع بابتلاع كل جنوب أفريقيا (٣) من أجل تكوين United South Africa تحت علمهم الخاص . ولذا كان احترامهم

---

(١) Ibid. p. 354

(٢) Ibid. p. 468

(٣) Ibid. p. 518

للحدود التى حددتها معاهدة بريتوريا قليلا كما استهانوا بما نصت عليه المعاهدة بأن لا يحاولوا التعامل مع قوة خارجية (ومنها الوطنيين) إلا بأذن من بريطانيا فكان أن أرسلوا بمهاجريهم نحو الشرق حيث أراضى الزولو منتهزين فرصة الخلاف بين الزعماء وهناك أقاموا (الجمهورية الجديدة)[1] كما اتجهوا إلى الغرب حيث البتشوانا منتهزين أيضاً فرصة الخلاف بين الزعماء فنصروا إحـــدى الجهتين وانضموا إليها حتى إذا انتهت الحرب استقر هؤلاء المحاربون حيث وجدوا أنفسهم وكان طبيعياً أن يدور الصراع بينهم وبين الوطنيين من جديد ولكن انتهى الأمر بقيام جمهوريتى ستلالاند وجوشن فى سنة ١٨٨٢ ولم يحفلوا بالاحتجاج البريطانى . وأيد هوفماير وجماعته هـذا العمل[2] . واكتفى البوير باصدار قرار بتوحيد الجمهوريتين فى جمهورية واحدة باسم ستلالاند المتحدة وإذا ما تقدم البريطانيون بعروضهم لحماية هـذه لدولة الجديدة من هجمات الوطنيين رفضت حكومتها هذه الحماية .

أما تحدى البوير للبريطانيين فبدأ حين سن قانون الانتخاب الجديد فى سنة ١٨٨٢ فاخرج منه كل من لم يكن بويرى . حتى إذا احتج المقيمون البريطانيون اكتفوا بأن أعطوا حق الانتخاب بعد إقامة خمس سنوات ـــ وكانت قبلا سنتين ـــ[3] وظهر هذا التحدى أيضاً فى زيادة الرسوم الجمركية على البضائع الواردة[4] حتى إذا تبين المندوب السامى البريطانى خطورة الخطة البويرية إزاء انجلترا كتب إلى حكومته يطلب التدخل . فى الوقت الذى ألح فيه أنصار الانسانية Hamanitarians على الحكومة أيضاً من أجل حماية الوطنيين . فسافر كروجر إلى انجلترا ليحسم الأمر سلمياً . وبدا ضعف بريطانيا حين رضى اللورد دربى بعقد معاهدة جديدة فى سنة ١٨٨٤ كانت فى الواقع تأييداً لمعاهدة بريتوريا ، وإن كان البريطانيون قد منحوا حق مباشرة التجارة وعدم خضوع التجار البريطانيين لأية ضريبة إضافية[5]

---

(١) Ibid. p. 519

(٢) Ency. Art. Hofmayer

(٣) جنوب أفريقيا ص ٦٠

(٤) Cam. p. 533

(٥) جنوب أفريقيا ص ٦١

فكان هذا توطيداً لأركان حكم الرئيس كروجر دفعه لأن يقوم باصلاح للاحوال في جمهوريته اعتمد فيه على مجموعة من المتخصصين الألمان والهولنديين وكان على رأسهم الدكتورليدز Leyds الذى أصبح مستشاراً للدولة ثم وزيراً فى سنة ١٨٩٢ فكان من أثر ذلك زيادة رغبة الشعب فى الابتعاد عن بريطانيا . وقد لقى كروجر وهو فى لندن الأمر سهلا بفضل سياسة وزارة الخارجية البريطانية التى كانت ترفض أن تعمل وفقاً لمصالح رجال المستعمرات Colonists الذين (ألقوا بالعبء كله على عاتق الحكومة مما كان سبباً فى تكبدها مصاريف رفضوا المساهمة فى جزء منها) [1] .

وقد اعتمد كروجر على هؤلاء المستشارين رغم إدراكه كراهية الشعب لهم . ولكنه كان يرى اعتماده عليهم يزيد الأمل فى خلق الرغبة لدى الدول المنافسة لبريطانيا فى القارة وخاصة ألمانيا فى المعاونة باقراضه القروض وتأسيس الهيئات المالية الأهلية (١) وكان هذا الاتجاه نحو ألمانيا باعثا إلى ابتعاد هوفماير وجماعته عنه إذ كانوا يكرهون ما تنبىء به الأحوال من قرب السيادة الألمانية مما دعاه إلى تحويل الجبهة الافريقيــة إلى حزب سياسى نص فى قانونه على الولاء للتاج البريطانى [2] لأنه كان يرى أن علاقة بريطانيا بجنوب افريقيا ضرورية إذ هى الوحيدة — بفضل أسطولها البحرى — القادرة على حماية هذا الجزء . ومن هــذا نستطيع أن نفهم لمــاذا بدأ هوفماير منذ سنة ١٨٨٥ يبدى معونته الواضحة لسيسل رودس فى مستعمرة الرأس .

ولم يؤد اتفاق سنة ١٨٨٤ الى السلام بين جمهوريتى جنوب أفريقيا وبريطانيا بل ظلت اعتداءات المتسللين من البوير على الوطنيين فى الغرب ، مما دعا انجلترا — تحت إلحاح المندوب السامى البريطانى وبعض أنصار الاستعمار من الوزراء — إلى إرسال حملة وارن فى سنة ١٨٨٥ لاستعادة هيبة بريطانيا التى سقطت فى حرب البوير الأولى وذلك بعد أن توصلت الوزارة البريطانية إلى اتفاق مع ألمــانيا بأن توافق على إرسال الحملة لقاء ضمها إقليم دارلاند إلى منطقة النفوذ الألمانى ثم تأييد ألمانيا لهــا فى موقفها فى مصر [3] .

---

(١) Afr. p. 47

(٢) Ency. Art. Hofmayer

(٣) Afr. p. 207

وكان من نتيجة هذه الحملة أن وافقت جمهورية جنوب أفريقيا على فرض الحماية البريطانية على القسم الجنوبى من بيشوانالاند حتى خط عرض ٢٢ جنوبا[١] لأجل حفظ الطريق مفتوحاً إلى الشمال [٢] عن طريق إيقاف الأطماع البرتغالية فى غرب موزمبيق وقد أعلنت هذه الحماية بعد إلحاح كبير من السير سيسل رودس بالرغم من الالحاح فى طلبها قبل ذلك بواسطة الزعماء الوطنيين من أجل حمايتهم من المتسللين البويرين ورغبة الوزارة البريطانية عن إتمام هذا العمل مكتفية بمنحهم حق الالتجاء فى مستعمرة الرأس .

وتحدى كروجر البريطانيين أيضا (وقد أصبح رئيساً للجمهورية منذ سنة ١٨٨٣) يوم رفض امتداد خط سكة حديد ناتال والرأس عبر أراضيه[٣] بل منح إمتيازاً لشركة أمريكية لمد خط حديدى إلى لورنزوماركيزو . كما رفض الانضمام إلى مؤتمر جمركى كان قد اقترحه هوفماير من أجل إقامة اتحاد جمركى بين دول جنوب افريقيا . إذ كان يرى أن مثل هذا الاتحاد قد يكون مقدمة لاتحاد سياسى شأن اتحاد الزولفرين الألمانى . وإذا ما نجحت الرأس فى توقيع هذا الاتحاد مع أورنج الحرة رفض كروجر الانضمام إليه [٤] وفى سنة ١٨٨٩ عرضت الرأس مشروع خط حديدى يجرى عبر القارة من الجنوب إلى الشمال (القاهرة ـ الكاب) فرفضه كروجر أيضاً مما دفع حكومة الرأس إلى مد هذا الخط عبر بتشوانالاند خارج الحـــدود الغربية للجمهورية بمقتضى اتفاق عقد مع حكومة المحمية فى سنة ١٨٩٤ .

بل منح كروجر امتياز مد الخط الحديدى من حدود الجمهورية الجنوبية إلى جوهانسبرج لشركة هولندية [٥] حتى إذا عجزت عن إتمامه قدم السير سيسل لهـا القروض ورفعت أجور النقل عليه إلى ثلاثة أمثاله دون أن يخل ذلك بملكية البرتغال له . وبذلك حرمت الرأس حقاً كانت تمارسه قبلا هو حق تحديد أجور

---

(١) Duffy p. 215

(٢) Cam. p. 507

(٣) Hailey p. 1547

(٤) Cam. p. 534

(٥) Hailey p. 1548-51

النقل[١] وقابل التجار البريطانيون هذه الخطوة بالاضراب عن استعمال الخط والعودة إلى النقل بالعربات والدواب . وحينئذ رأى كروجر بعينه كيف فشل حتى سنة ١٨٩٥ فى الوصول إلى البحر عن طريق ميناء حر .

وحين رأى كروجر أن أورنج قد انساقت فى الركاب البريطانى فانضمت إلى الرأس فى اتحاد جمركى عمل على إخراجها منه بأن عرض عليها اتفاقاً تجارياً وتحالفاً عسكرياً . ونجحت فى عقد الاتفاقين فى سنة ١٨٨٩ علاوة على اتفاق ثالث بشأن السكك الحديدية [٢] .

وتحدى كروجر الرعايا البريطانيين حين اكتشف الذهب فى منطقة الراند فى جمهورية جنوب افريقيا فى سنة ١٨٨٨ وأخذ هؤلاء الرعايا يهاجرون إليها طلباً للعمل وقد كونوا أكثر من أربعة أخماس القادمين . وازدادت أعدادهم فى سرعة مذهلة . كما اتجه إليها الرأسماليون البريطانيون من أجل استثمار أموالهم . وكان لابد أن يأتى اليوم الذى يطالب فيه هؤلاء المهاجرون بالمساواة السياسية ورفضت حكومة كروجر أن تعترف لهم بأى حق فأطلقت عليهم اسم (اويتلاندرز) ومعناها الغرباء . فقد كان كروجر يخاف أن يلعبوا فى جمهوريته نفس الدور الذى لعبه إخوانهم فى ناتال حين وافقوا على ضمها إلى بريطانيا عام ١٨٤٢[٣] . كما كان يخاف أن يلقوا بثقلهم فى صف منافسيه[٤] . هذا فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء يرون أنفسهم يدفعون ⅞ الضرائب وليس لهم أى صوت فى تصريف الشؤون أو تشريع القوانين فى الوقت الذى يتمتع فيه البوير بحق المساواة مع البريطانيين فى الأملاك البريطانية . وكان كروجر يخاف أن يدفع هؤلاء بحكومته إلى مزيد من المصاريف ثم الاستدانة حتى إذا ما ذهب الانتعاش الناتج عن اكتشاف الذهب . تركها هؤلاء الغرباء وتركوا الدولة وجدها تقاسي نتائج هذه الديون . وقد رأينا هذا التحدي حين زاد مدة الاقامة إلى خمس سنوات ليصبح للمهاجرين حق فى الانتخاب . ولكن زيادة الضغط

---

(١) Cecil p. p. 168-9

(٢) Cam. p. 534

(٣) Ibid. p. 566

(٤) Ibid. p. 567

أدت به إلى الموافقة على منحهم حق الانتخاب على أن يكون أداؤهم لهذا الحق قاصراً على انتخاب مجلس نواب ثان يكون اختصاصه قاصراً على بحث شئون المناطق الصناعية ولا يعطى حق فرض الضرائب وقراراته عرضة للنقض بواسطة مجلس النواب الأول . ومن لهم حق التصويت فى هذا المجلس ليس لهم حق الانتخاب فى المجلس الأول حتى تمتد إقامته إلى أربعة عشر عاماً[1] . وكان طبيعياً أن يرفض هؤلاء المهاجرون (الأغراب) هذا العرض لا سيما وقد زيدت الرسوم الجمركية كما رأينا مما أدى إلى ارتفاع أثمان ما يستهلكونه كما زيدت مصاريف العمل فى المناجم . وقد حذر كثير من المعتدلين كروجر من مغبة هـــذه السياسة[2] حتى إذا تقدم المهاجرون بأكثر من عريضة ملحين فى طلبهم رفضها مجلس النواب البويرى . بل حين قابله وفد من المهاجرين من أجل التفاهم أهانهم . وكتب هؤلاء إلى الحـكومة البريطانية لتؤيدهم ، فكتبت الحكومة إلى المندوب السامى البريطانى أن يعرض على كروجر بعض الحقوق مقابل منحهم حق الانتخاب ورفض هذا العرض أيضاً[3] فألف المعتدلون من أمثال شارلس ليونارد (جبهة الاتحاد الوطنى لأهالى الترنسفال)[4] مطالبين كروجر بالتساهل من أجل بناء مجتمع يتساوى فيه جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات ولكنه رفض التساهل أيضاً فى سنة ١٨٩٢ وهدد باللجوء إلى طلب المعونة من ألمـانيا .

٢ ــ أما العامل الثانى فكان **تحول السياسة البريطانية عن حرية التجارة والعزلة إلى الاستعمار** فخلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر تولى شئون انجلترا وزراء عرفوا بنزعتهم الاستعمارية، فقد تولى سالسبورى كلا من رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية منذ يونيو سنة ١٨٨٥ حتى نفس الشهر من سنة ١٨٩٢ . وكان يرى أن سياسة العزلة التى اتبعها جلادستون فى الوقت الذى كانت هناك أحداث خطيرة تجرى فى أنحاء العالم قد أضرت بسمعة بريطانيا وبمركزها فترك هذه السياسة وأخذ ينتهز كل فرصة ممكنة

---

(١) Ency. Art. Transvaal

(٢) Cam. p. 569

(٣) Afr. p. 143.

(٤) Ency. Art. Transvaal

للاشتراك فى المشاكل الدولية بأن يكون طرفا فى معاهدات دولية[١] ، فنراه يقاوم محاولة ألمانيا فرض نفوذها فى شرق أفريقيا التى أصبحت منطقة نزاع بين شركتى شرق أفريقيا البريطانية وشرق أفريقيا الألمانية ولذا ينجح فى سنة ١٨٨٦ فى اقتسام هذه المنطقة مع ألمانيا فتحصل انجلترا على المنطقة الشمالية من خط يمتد من مصب نهر تونجى إلى منتصف بحيرة فكتوريا بينما تحصل الثانية على المنطقة الجنوبية وذلك بعد أن تبين للجنة التى عينتها الدولتان أن نفوذ سلطان زنجبار لا يمتد إلى أكثر من عشرة أميال فى الداخل[٢] وفى سنة ١٨٩٠ عقد اتفاق جديد بين الدولتين تأخذ بريطانيا بمقتضاه شاطىء زنجبار وتطلق كل ادعاءاتها فى أوغندا ونياسالاند على أن تأخذ ألمانيا منطقة توجو وأفريقيا الشرقية الألمانية علاوة على جزيرة هليجولاند عند مدخل قناة كييل . وقد لقى هذا الاتفاق معارضة كبيرة من الألمان والبريطانيين بل كان على رأس المعارضين الملكة فيكتوريا[٣] وكانت أسباب هـذا التحول متعددة فقد أخذت الأزمة المالية تجتاح انجلترا منذ سنة ١٨٩٠ وأخذت أرقام الصادرات فى الهبوط وأرقام الواردات فى الارتفاع نتيجة للمنافسة الألمانية والفرنسية والأمريكية فى الأسواق التى كانت تحتكرها بريطانيا بحكم تفوق مصنوعاتها وأصبحت البلاد كلها تؤمن بأن السبيل الوحيد لعودة الانتعاش الاقتصادى إنما هو اتساع النفوذ البريطانى وبناء امبراطورية تقوم على أساس مبدأ تفضيل المصنوعات البريطانية وحمايتها بالرسوم الجمركية العالية التى تفرض على مصنوعات الدول الأجنبية وأخذ تشمبرلن منذ تولى وزارة المستعمرات يسعى لأجل تنفيذ هذه السياسة[٤] .

هذا إلى أن من تولى الحكم فى بريطانيا خلال الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر كانوا نوعاً من السياسيين يخالف من تولاه خلال الثلاثة أرباع القرون الأولى فقد ولد معظم رجال نهاية القرن خلال العقد الثانى أو الثالث من القرن وتعلموا فى اكسفورد أو كمبردج وخدموا فى وزارة الخارجية فى مناصب صغيرة تحت رئاسة بلمرستون ودزرائيلى خلال الخمسينات والستينات فكانت أفكارهم أكثر ما يكون

Brit. p. 96. (١)
Afr. p. 196 (٢)
Brit. p. 101 (٣)
Afr. p. 6 (٤)

تأثراً بسياسة هؤلاء عن غيرهم وهى سياسة التوسع ومن هذا النوع كان كرانبورن وسالسبورى الذين عملا جاهدين على المحافظة على الهند بأى ثمن ثم العمل على امتلاك غيرها [1] هذا إلى أن الوزراء المتقدمين كانوا يتصرفون فى المسائل الأوربية على ضوء اختباراتهم الشخصية واتصالاتهم الشخصية بوزراء كل من فرنسا والنمسا وغيرهما من الدول الأوروبية أما الوزراء المتأخرون فقد تصرفوا فى المسائل الافريقية على ضوء أشياء لم يألفوها ، وهى تقارير قناصلهم والحكام العامين فى ساحل الذهب وشرق افريقيا . وكان هؤلاء جميعاً يلحون على الوزراة البريطانية بضرورة فرض النفوذ فالحماية من أجل حماية المصالح البريطانية فيما وراء البحار [2] ففى جنوب افريقيا وضح التنافس بين انجلترا وجنوب أفريقيا من أجل محاولة كل منهما الحصول على أكبر قدر من الثروة والتجارة . فأصبح هم السير هركليوس روبنسون المندوب السامى البريطانى هناك . موجهاً نحو التوسع الاستعمارى بمساعدة الحكومة . فما دامت انجلترا تعتمد على جهود رجالها فى المستعمرات فانها يجب أن ترسم سياستها بناء على ما يمليه عليها رجالها هناك [3] لا سيما وأن مسألة جنوب أفريقيا لم تعد مسألة اقتصادية فحسب بل هى الوسيلة إلى النفوذ السياسى وإيجاد قوة تقف فى وجه التحدى الترنسفالى لا سيما وقد أخذت ثروتها وقوتها فى الازدياد .

وفى خلال هـــذه المدة أيضاً ظهرت حركة الزحف نحو أفريقيا واقترحت البرتغال عقد مؤتمر برلين من أجل وضع حد للصراع الأوروبى هناك وكان قد بدأ يظهر منذ عقد مؤتمر بروكسل فى سنة ١٨٧٧ [4] فكانت البرتغال ترى ضرورة المحافظة على حقوقها التقليدية فى هـذه المنطقة باعتبارها أول دولة نزلت بافريقيا وأصبح لهـا مستعمرات فيها . فى الوقت الذى أبدت فيه كل من بلجيكا وفرنسا اهتماماً ملحوظاً بمنطقة الكونجو حين أرسلت الأولى بالمستكشف ستانلى وأرسلت الثانية ببرازا [5] وكانت انجلترا تخشى نفوذ هاتين الدولتين لئلا يضر ذلك

Ibid. p. 22. (١)

Ibid. p. 21. (٢)

Ibid. p. 214. (٣)

Duffy p. 207. (٤)

Ibid. p.. 208. (٥)

بمبدأ حرية التجارة فلم تتردد فى الاعتراف بحقوق البرتغال فى المنطقة مقابل تعهد البرتغال بأن لا تزيد الرسوم الجمركية التى تفرضها عن ١٠٪ وأن تعطى بريطانيا مركز الدولة الأكثر رعاية . حتى إذا عقد مؤتمر برلين (١٨٨٤ — ١٨٨٥) أصرت بريطانيا على وجوب النص على حرية الملاحة والتجارة فى حوض نهرى الكونجو والنيجر . حتى إذا كانت سنة ١٨٨٥ وبدأ ظهور جهود البرتغال فى وصل مستعمرتيها الافريقيتين (موزمبيق وانجولا) دفعت انجلترا تحت تأثير الحاج سيسل رودس إلى أن تعلن حمايتها على بتشوانالاند جنوبى خط العرض ٢٢ كما مر بنا . وفى أغسطس سنة ١٨٨٧ وجه اللورد سالسبورى إلى البرتغال إنذاراً مؤداه أن السيادة البرتغالية على الأقاليم الداخلية لا تستند إلا على احتلال فعلى وهو أمر لم تحققه البرتغال فى يوم من الأيام[١] .

ولكن فى نفس الوقت لم تنبين الوزارة فى انجلترا الأثر الناتج من وجود البوير فى جنوب افريقيا وادعاءاتهم فى منطقة سوازيلاند كما لم تعن بامتداد الخط الحديدى من جوهانسبرج إلى لورنز ومار كيزو إذ كان جل اهتمامها موجهاً إلى شراء رضى ألمانيا خوفاً من أن تثير لها القلاقل فى مصر[٢] كما لم تعن بحماية المبشرين فى جنوب افريقيا[٣] ولذا لم تعن مطلقاً بمد النفوذ البريطانى فى الدخل رغم تنبيه كل من شركة البحيرات البريطانية والمبشرين إياها إلى خطر الزحف البويرى والبرتغالى[٤] وكان جونستون قنصل بريطانيا فى شرق افريقيا قد اقترح امتداد النفوذ البريطانى فى محور رأسى افريقى تمهيداً لمد خط حديدى بين القاهرة والكاب . وكانت الوزارة البريطانية فى هـذا الشأن لا تزال تحت تأثير هزيمتها الأولى أمام جيوش البوير فى سنة ١٨٨١ فرفضته .

ولكن الموقف لم يلبث أن تغير فجأة فى سنة ١٨٨٩ إذ اكتشف الذهب فى منطقة الراند فى سنة ١٨٨٨ واتجهت نية حكومة الرأس إلى ضرورة خروج هذا الذهب

---

(١) Ibid p. .215

(٢) Afr. p. 219

(٣) Ibid. p. 223

(٤) Cecil p. 64

إلى الخارج عن طريق الموانى البريطانية . وأصبح واضحاً تعرض المصلحة البريطانية للخطر لا سيما وقد أنشأ البوير جمهورية ستلالاند . هذا فى الوقت الذى حصل فيه الرأسماليون البريطانيون على حق استغلال منطقة روديسيا (الماتابيلى) فى أكتوبر سنة ١٨٨٨ كما اشترى سيسل رودس حقوق جميع الشركات التى كانت قد سبقته إلى هذه المنطقة . وألف اتحاد شركات دى بيرز لاحتكار تعدين الماس فى جنوب افريقيا بعد أن كان قد ألف قبل ذلك بقليل شركة حقول الذهب المتحدة لاستغلال منطقة الراند [١] واندفع فى أثره مجموعة من الرأسماليين البريطانيين لاستثمار أموالهم فى منطقتى بتشوانالاند وماتابيلى لاند وكان لابد لهذه الشركات وهذه الأموال من حماية الدولة لها . لأن كل تهديد من البرتغال أو البوير يعرض هذه الأموال للخطر . وفى يونيو سنة ١٨٩١ اندفع الدكتور جيمسون على رأس أربعة آلاف من المتطوعين فى غارة على أراضى الماتابيلى ووصلوا إلى مكان سالسبورى الحالية حيث أقاموا لهم معسكراً وعين كولكهورن رئيساً لأعمال الشركة هناك . وخلفه بعد قليل الدكتور جيمسون [٢] كما استقر هؤلاء المهاجرون فى ماشونالاند .

وأكثر من هذا كله كانت الواردات البريطانية فى جنوب افريقيا قد وصلت فى سنة ١٨٩٠ إلى ١٥ مليوناً من الجنيهات بعد أن كانت لا تتعدى الستة ملايين قبل ذلك بخمس سنين . كما وصلت الواردات إلى إثنى عشر مليوناً بعد أن كانت لا تتعدى الخمسة ملايين . كما بلغت الاستثمارات البريطانية فى الماس فى سنة ١٨٨٥ إلى ٢٠ر٤ مليوناً من الجنيهات وارتفعت فى سنة ١٨٩٠ إلى أضعاف ذلك ووصلت استثمارات الذهب إلى ٢٢ر٦ مليوناً فى سنة ١٨٨٥ ثم إلى ٣٠ر٨ مليوناً . كما ارتفعت الديون البريطانية أيضاً إلى ٢٥ر٢ مليوناً فى سنة ١٨٨٥ ثم إلى ٣٠ر٨ مليوناً فى سنة ١٨٩٠ [٣] مما جعل اللورد روزبرى الذى خلف سالسبورى فى منصب وزارة الخارجية حتى سنة ١٨٩٤ ثم رئيساً حتى سنة ١٨٩٥ لا يتردد فى أن يسير على نفس السياسة التى سار عليها سلفه . بل يبدو أكثر منه ميلا إلى الاستعمار رغم مبادئه

---

(١) Ibid. p. 66

(٢) Ibid. p. p. 72-3

(٣) Afr. p. 211

الحرة[1] فاذا ما اعتدى الماتابيلى المحاربون الأشداء على الماشونا المسالمين الكارهين للحرب وجه إليهم حملة وقفت فى وجههم واحتلت عاصمتهم بولاوايو فى سنة ١٨٩٣ كما أعلن الحماية البريطانية على أوغندا فى سنة ١٨٩٤[2] ووصلت السياسة البريطانية الاستعمارية ذروتها حين أصبح تشامبرلان وزيراً للمستعمرات فى سنة ١٨٩٥ . وكان تواقاً إلى إقامة اتحاد جنوب افريقيا كجزء من الامبراطورية البريطانية [3] وهى رغبة فاقت آمال أصحاب رؤس الأموال البريطانيين فى جنوب افريقيا . فرغم الحب المفقود بين رئيسه سالسبورى وبين رجال المال هناك وعلى رأسهم سيسل رودس لم يتردد فى العمل معهم يداً بيد .

٣ ــ أما العامل الثالث فكان **ظهور شخصية السير سيسل رودس :**

ولد فى انجلترا وساءت صحته وهو صغير فأرسل إلى أخيه فى ناتال حيث كان يعمل مزارعا . وكان ذلك فى سنة ١٨٧٠ وهى السنة التى اكتشف فيها الماس فى حقول كمبرلى . فانضم إلى جماعة الباحثين عن الماس . فاقتنى ثروة قبل أن يصل سن التاسعة عشر . وعاد إلى انجلترا ليتم تعليمه ولكنه قام برحلة إلى بتشوانالاند وعاد عن طريق الترنسفال إلى كمبرلى . وكانت الرحلة فى عربة تجرها الثيران فتمكن من أن يرى إمكانيات هذه المنطقة الزراعية كما عرف ثروتها المعدنية . ولذا طافت فى ذهنه فكرة ضرورة تملك بريطانيا لهذه الأجزاء . فضمم على أن يكرس حياته لهذه الفكرة [4] .

وإذا ما عاد إلى انجلترا وساءت صحته مرة أحرى فى ١٨٧٣ أعيد إلى جنوب أفريقيا حيث استعاد صحته ثم عاد إلى انجلترا حيث قضى ثلاث سنين كان خلالها يقضى أجازته الصيفية فى جنوب أفريقيا . فى الوقت الذى زادت ثروته فأصبح مساهما فى شركة دى بيرز للماس .

---

(١) Brit. p. 109

(٢) Ibid. p. 112

(٣) Cam. p. 537

(٤) Ency. Art. Rhodes

وفى سنة ١٨٨١ وهى السنة التى هزمت فيها انجلترا فى حرب البوير الأولى . دخل رودس الحياة العامة وأصبح عضواً فى مجلس نواب الرأس فأخذ يروج بين البريطانيين لفكرة ضم كل أجزاء جنوب أفريقيا فى اتحاد واحد تؤيده بريطانيا يرتفع عليه العلم البريطانى . هذا فى الوقت الذى كان فيه الأهالى الهولنديون يسعون نحو اتحاد مستقل عن بريطانيا(١) .

وحدد اتفاق بريتوريا حدود الترنسفال من ناحية الغرب ولكن البوير بدأوا يزاولون نشاطهم عن طريق الغارات . فخاف رودس أن تقفل هذه المنطقة فى وجه البريطانيين ـ وكان قد أصبح عضوا فى الوزارة ـ فألف وفداً فاوض الزعماء الوطنيين فى ضم أملاكهم إلى حكومة الرأس .

وفى سنة ١٨٨٤ عقد اتفاق جديد بين البوير والحكومة البريطانية قلنا عنه أنه لم يكن يختلف عن اتفاق برتيوريا فى الوقت الذى أعلنت فيه ألمانيا حمايتها على (افريقيا الغربية الألمانية) بموافقة وزارة الخارجية البريطانية(٢) ومن ثم بدأ رودس يرى الأخطار التى تهدد البريطانيين فى الجنوب . فالبوير يزدادون قوة لا سيما بعد أن اعترفت انجلترا فى اتفاق سنة ١٨٨٤ بجمهوريتى البوير الجديدتين . هذا إلى أن التقاء البوير بالألمان يقضى على كل أمل للبريطانيين فى الامتداد نحو الشمال . بل أن البوير يزدادون تحدياً للبريطانيين كما ظهرت أطماعهم واضحة فى تحدى الوطنيين أيضا كما أن الحكومة البريطانية ما زالت واقعة تحت تأثير هزيمة سنة ١٨٨١ وتصر على تجاهل شؤون جنوب أفريقيا وأكثر من ذلك أن حكومة الرأس بحكم وضعها الدستورى لا تملك حق الاتصال الخارجى بل لا تملك أكثر من إسداء النصيحة إلى الحكومة البريطانية فى لندن .

ومن رأيى أن بدء دخول رودس إلى الحياة العامة حين أصبح عضوا فى مجلس النواب فى سنة ١٨٨١ ثم عقد اتفاق سنة ١٨٨٤ مع جمهورية جنوب أفريقيا ثم تصميم الحكومة البريطانية على عدم الاهتمام بجنوب أفريقيا كجزء من الوطن البريطانى . تحدد معالم الطريق الذى شقه هذا الرجل لنفسه . لأجل أن يصل إلى

---

(١) Cecil p. 151

(٢) Ibid. p. 41

هدف معين عبر عنه فى أحد أحاديثه حين أجاب على سؤال وجهته إليه جلالة ملكة بريطانيا حين رأته يوما فى قصر وندسور عما يفعله فى جنوب أفريقيا فانه أجاب أنه يعمل على توسيع أملاكها هناك [١] .

فهو وإن انضم إلى شركة دى بيرز للعمل فى حقول الماس . وحين وحد جميع شركات الماس فى شركة واحدة ليحتكر ميدان العمل فى أرض الجركوا الغربية واورنج [٢] وحين أسس شركة الذهب لاستغلال مناجم جوهانسبرج فى نفس العام [٣] وحين اشترى امتياز شركة رود لاستغلال أراضى الماتابيلى فى سنة ١٨٩٠ [٤] وحين ألف شركة جنوب أفريقيا وحصل على امتياز الاستغلال فى نفس العام [٥] وان كان يسعى لأجل الثروة ونجح فى ذلك نجاحا منقطع النظير . إلا أنه لم يكن يرمى من وراء هذا كله إلا إلى هدف واحد بل الهدف الوحيد الذى رسمه لنفسه وهو ضم جنوب أفريقيا إلى الامبراطورية البريطانية . فلم يكد يعين وزيراً فى الوزارة فى سنة ١٨٨٤ حتى دفع بالحكومة البريطانية إلى التدخل فى بتشوانالاند وإعلان حمايتها عليها من أجل الحد من نشاط البوير من ناحية الغرب [٦] فى الوقت الذى حصلت فيه الشركة على استغلال النصف الشمالى منها كما دفع بموفات إلى أن يعقد مع لوبنجولا ملك الماتابيلى اتفاقا يحرم عليه عقد أى اتفاق أو معاهدة مع دولة أجنبية دون موافقة بريطانيا [٧] كما وثق تعاونه مع الجبهة الأفريقية التى يرأسها هوفماير من أجل أن يضمن المناطق الشمالية تابعة لمستعمرة الرأس [٨] .

وعندما أصبح رئيساً للوزارة فى سنة ١٨٩٠ اهتم أكثر ما يكون بتكوين الاتحاد الجمركى بين المستعمرة وجمهوريات جنوب أفريقيا لأنه رآه الطريق المحتمل

---

(١) Ibid. p. 86

(٢) Ibid. p. 67

(٣) Ibid. p. 68

(٤) Afr. p. 360

(٥) Cecil. p. 68

(٦) Ibid. p. 64

(٧) Ibid. p. 65

(٨) Ibid. p. p. 144-6

لأن يكون — كاتحاد الزولفرين الألماني — نواة إلى إقامة دولة اتحادية تكون جزءاً من الامبراطورية البريطانية . وعمل متعاونا مع المندوب السامي البريطاني في هذا السبيل[١] ونجحا فعلا في أن يخطوا الخطوات الاولى في هذا الاتحاد حين انضمت إليه ناتال واورنج في سنة ١٨٩٠ ثم بتشوانالاند وباسوتولاند في سنة ١٨٩١ وسوازيلاند في سنة ١٨٩٣ لولا وقوف جمهورية جنوب افريقيا منه موقف العداء[٢] احتفاظا باستقلالها الاقتصادى من أجل أن تكون هي النواة الأولى لهذا الاتحاد السياسي إذا قدر له أن يكون ومن ناحية أخرى عمل رودس على تطويق جمهوريات البوير بمنع اتصالها بالخارج عن طريق الموانى البريطانية فأوصل خطوط الرأس الحديدية إلى حدود جمهورية جنوب أفريقيا (بعد أن اخترقت جمهورية أورنج) وخفض مصاريف النقل ليغرى الجمهورية على الموافقة على استعمالها ثم مدها في أراضيها[٣] حتى إذا رفضت الجمهورية العرض واتجهت إلى مد خطوطها إلى خليج دلاجوا اتجه هو إلى محاولة شراء هذا الخليج من البرتغال[٤] حتى إذا فشل هذا المشروع انتظر حتى مد الخط بواسطة الشركة الهولندية وانتهز فرصة الأزمة المالية التي حاقت بالشركة وقدم القروض إليها[٥]. وعندما نجح كروجر في انتخابات الرئاسة سنة ١٨٩٣ وأشار إلى احتمال مساعدة ألمانيا للجمهورية رأى رودس في هذا ازدياد الخطر واحتمال فشل مشروعاته عمل على قطع طريق اتصال الجمهورية بالبحر فصمم على ضم سوازيلاند . فكتب في ذلك إلى اللورد ريبون الذى وافق على ذلك على شرط موافقة أهلها[٦] وتم هذا الضم فعلا في سنة ١٨٩٥[٧] بعد أن رفض كروجر عرضاً بضمها إلى جمهوريته مقابل انضمامه إلى الاتحاد الجمركى[٨] .

---

(١) Cam. p. 570.

(٢) Ibid. p. 565

(٣) Ibid. p. p. 553-6

(٤) Afr. p. 415

(٥) Ibid. p. 412

(٦) Cam. p. 572

(٧) Ency Art. Swaziland

(٨) Afr. p. 412

ومن أجل هذا الهدف أرسل رودس بالمتطوعين فى سنة ١٨٩٠ (يوم تولى رئاسة الوزارة) تحت رئاسة صديقه جيمسون ليكتسحوا أراضى الماتابيلى كما ذكرنا . وإذا ما رأت الجمهورية فى ذلك خطراً على مشروعاتها ونظمت غارة مماثلة بقيادة الكولونل Ferreira احتج السير هارى لوك المندوب السامى البريطانى وأرسل إلى الجمهورية انذاراً بأن أية محاولة لاحتلال منطقة الشركة عمل عدائى للتاج البريطانى فأمر كروجر المتطوعين بالانسحاب[1] وإذا استقر المهاجرون هناك عقد اتفاقاً مع البرتغال فى سنة ١٨٩١ نص على مد خط حديدى من ميناء بيرا إلى سالسبورى وعلى ان تحصل البرتغال رسماً على الصادر لا يزيد عن ٣ ٪ من قيمة البضاعة كما نص على حرية الملاحة فى الزمبيزى[2] .

ومنذ سنة ١٨٩٥ ظهر واضحاً رغبة البوير فى تحدى كل أعمال رودس فلم يبق أمامه إلا العمل الواضح الصريح . فكان تعيين تشامبرلن وزيراً للمستعمرات الفرصة المناسبة ولم يعد طريقاً لتنفيذ هدفه إلا الطريق الذى طالما سلكه بنجاح وهو طريق الغارات غير النظامية تحت قيادة صديقه الدكتور جيمسون .

— ٣ —

التمهيد للغارة :

رأى السير سيسل رودس أن أفضل طريق للقضاء على التحدى البويرى . وتنفيذ كل ما يهدف إليه من تكوين اتحاد يكون جزءاً من الامبراطورية البريطانية العمل متعاوناً مع الوزارة البريطانية من أجل القضاء على هـذه الدولة التى تبدى العناد بنفس الطريقة التى لجأ إليها مع روديسيا وهى الغارة الخاطفة وهو لأجل ذلك يستطيع استغلال الغرباء الذين يعيشون فى الجمهورية والذين تضطرم بهم روح الثورة لكثرة ما نالهم من غبن لا سيما وأن ثورتهم بدت قريبة الوقوع وخاف أن يؤدى هذا إلى قيام ثورة ذات أهداف مستقلة[3] لأن أصحاب رؤس الأموال هناك كانوا يفضلون كروجر على بريطانيا فان نظام كروجر وإن كان ثقيلا فالنظام البريطانى

---

(١) Cecil p. 98

(٢) Ency. Art. Rhodessia

(٣) Cam. p. 570

لا بد أثقل وقيام جمهورية مستقلة فى الترنسفال يسيطر عليها ماليو الراند خطر على النفوذ البريطانى فى جنوب أفريقيا[١] وكان عناد كروجر قد أبعد عنه فريق المعتدلين من أمثال فيليب ليونارد زعيم الاتحاد الوطنى الذى يرى أن البلاد فى حاجة إلى حكومة قوية . وإن إعطاء الغرباء حق التصويت هو خير ضمان للوصول إليها فكان أن اتفق مع السير رودس على وجوب التخلص من كروجر[٢] ورأى رودس ضرورة الاسراع بالعمل قبل أن تعطى ثروة إقليم الراندا الجمهورية مزيداً من الثروة والقوة[٣] فيجب أن يأخذ بيده اللجام قبل أن يتغير الموقف . كما كان يرى ضرورة إسراع الحكومة البريطانية بأن تأخذ على عاتقها عب الادارة فى كل أراضى جنوب أفريقيا لتتخلص الشركة إدارة فيما تحت يدها من أراضى لتصبح شركة تجارية ليس غير[٤] وكان المندوب السامى البريطانى (لوك) يرى أولا ترك مسألة الغرباء للزمن ليحلها . فزيادة إعداد المتدفقين منهم كفيلة بتغيير الحالة . ولكن رودس اقنعه بوجوب مفاتحة وزارة الخارجية ، فاذا ما تم ذلك فى سنة ١٨٩٤ رفض وزير الخارجية الافتراح ولكن وزراء آخرين كانوا يرون وجوب الاسراع بالعمل خوفاً من تدخل المانى محتمل[٥] وهذا التدخل إن حدث سوف يكون قاضياً على مركز البريطانيين فى جنوب أفريقيا . إذ سوف يتعلم هولنديو الرأس الدرس جيداً ويسرعون بدورهم إلى الانفصال وإذا فعلوا كان فى ذلك ضياع للهند أيضاً[٦] بينما يميلون فى الوقت الحاضر إلى تغيير حكومة كروجر بسبب أعماله العدائية .

فكان أن مالت الوزارة إلى فكرة التدخل وكتب إلى المندوب السامى بالتدخل المسلح إذا رأى ضرورة ذلك[٧] .

ومن أجل رسم الخطة النهائية سافر رودس ومعه جيمسون إلى لندن فى بداية سنة ١٨٩٥ وترك لجيمسون مهمة إقناع ولى العهد الذى كان رئيساً لشركة جنوب

---

(١) Afr. p. 428
(٢) Cecil. p. 187
(٣) Afr. p. 418
(٤) Cam. p. 571
(٥) Afr. p. 419
(٦) Ibid. p. 420
(٧) Ibid. p. 424

إفريقيا بضرورة شراء السلاح المتطوعين[1] بينما استطاع هو إقناع ريبون ووصل هذا الاقتناع إلى حد أن استبدل بالمندوب السامى (لوك) مندوب آخر هو هركليوس روبنسون صديق رودس القديم . وهو رجل ذو خبرة بشؤون جنوب أفريقيا . وإذا ما عين تشمبرلن وزيراً المستعمرات فى وزارة سالسبورى استطاع رودس أن يقنعه فأخذ يعمل بهمة لتنفيذ الخطة بالرغم من معارضة زملائه له . لأنهم كانوا يرون وجوب نصرته وترك حرية العمل له تعويضاً له عن تركه لصفوف الأحرار وانضمامه إليهم[2] وفى معارضتهم له دفع به إلى التراجع واعتزال الحياة العامة . وكان رأيه ينحصر فى أن قيام الامبراطورية البريطانية نمو طبيعى لا يمكن تجنبه[3] كما اقنع رئيس الوزارة أن الخطة لا ترمى إلى التآمر على استغلال دولة مستقلة بل هو تصرف فى مسألة داخلية . فقد أصبح ميزان القوى فى هذا الركن فى يد كل من رودس وكروجر لا فى يد الوزارة البريطانية البعيدة عن ميدان العمل . ولم يعد أمام الوزارة إلا أن تنصر رودس لا سيما وأن مسألة حصول الغرباء على حق الانتخاب قد اضحت مسألة كرامة بريطانيا يجب أن تصان[4] ولذا اقنعه بضرورة مبادلة قطعة من بتشوانالاند البريطانية بأخرى من أملاك الشركة[5] كى تعطى الأخيرة مكاناً يكون بمثابة رأس الكوبرى الذى يقفز منه المتطوعون إلى الترنسفال وعلى رأسهم الدكتور جيمسون[6] واتصل السير رودس بالصحافة وخاصة جريدة التيمس لتدافع عن هذا العمل فى الوقت المناسب[7] وإذا ما عاد إلى الرأس اتصل بهوفماير رئيس الرابطة الافريقية الذى كان يفضل أن يرى جنوب افريقيا تحت العلم البريطانى من أن يراه تحت العلم الألمانى[8] .

---

(١) Cam. p. 572

(٢) Afr. p. 425

(٣) Ibid. p. 426

(٤) rbid. p. 427

(٥) Ibid. p. 423

(٦) Cam. p. 574

(٧) Ibid. p. 573

(٨) Cecil. p. p. 1434

ووصل السير هركليوس إلى الرأس ومعه تعليات أن يعمل أولا كوسيط بين كروجر والغرباء وإذا ما ذهب لمقابلة كروجر استقبله الغرباء أثنـاء مروره بجوهانسبرج استقبالا حافلا .

وكانت اللمسات الأخيرة من الخطة الاتفاق مع ليونارد فيليب أن يقوم بتموين الغرباء بالسلاح على أن يقوموا بالثورة فى اليوم المعين ويستولوا على جوهانسبرج وعلى مصانع السلاح فى بريتوريا . كما كتب رودس إلى الوزارة يستعجل تبـادل قطعتى الأرض وتم التبادل فعلا فى العشرين من اكتوبر سنة ١٨٩٥[1] .

وقبل أن ينتهى شهر اكتوبر عقد اجتماع بين السير رودس وزعماء الغرباء وضعت الترتيبات النهاية للحملة . ولكن حدث خلاف بينهما على مستقبل الجمهورية بينما كان رودس يرى ضمها للامبراطورية البريطانية كان الآخرون يرون أن تظل الجمهورية مستقلة ولكن بعد أن تستبدل بحكومتها حكومة موالية[2] بينما كان بعض العسكريين يعترضون على خطة الغارة ويرونها غير عملية .

وأحس كروجر بالمؤامرة وأن شيئا سوف يحدث فى منطقة الراند ولكى لا يؤخذ على غرة أرسل بوزيره ليدز إلى أوربا ليشترى له السلاح[3] وأمر أن تكون قوات الكوماندوز على قدم الاهبة وأن توضع الخطط لتأمين سلامة جوهانسبرج . هذا فى الوقت الذى ارسل فيه تشامبرلين إلى المندوب السامى أن يتصل بالغرباء ليؤكد لهم أنه فى حالة نجاح ثورتهم فسيكون لهم الحق فى اختيار حاكمهم ولكنه فى نفس الوقت حذره من الفشل الذى سوف يكون مراً . كما أفهم المندوب السامى إنه فى حالة تأكده من النجاح فانه يسمح له بالسير على رأس الغارة مع رجال الشركة على أن يكون ذلك فى هدوء ونظام .

وصف الغارة :

وتمت الغارة فى ميعادها المتفق عليه يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٩٥ بالرغم من اعتراض كل من رودس وليونادر ومحاولتهما ايقافها بالبرق لأن جيمسون كان قد

(١) Cam. p. 575

(٢) Raid. p. 55

(٣) Letters. p. p. 72-3

نفد صبره بسبب التأخير وصمم على أن يقوم بحركة سريعة أن لم تنجح فى معاونة الغرباء فسوف تلق مساندة الحكومة البريطانية ولذا رسم آماله فى الاستيلاء على جوهانسبرج ثم انتظار التأييد الأدبى والمادى من بريطانيا [1] ودخل جيمسون حدود الترنسفال من ناحية الغرب عند مفكنج قاصدا جوهانسبرج على رأس موكب من الخيالة الراكبة ومعه ثلاثة مدافع خفيفة وثمان مدافع من طراز مكسيم وخمسة الآف راجل أربعة اخماسهم من الصبيان الصغار غير المدربين ويبدو أن الغارة لم تدرس دراسة كافية اذ حدثت الغارة يوم الأحد حين كان الترنسفاليون متجمعين فى كنائسهم لأجل الصلاة وتناول الاسرار المقدسة ربع السنوية ومعهم عرباتهم وخيولهم وبنادقهم . وعلم كروجر بالغارة ساعة حدوثها فاستدعى الكوماندوز على طول خط المغيرين وحول العاصمة . ومضت اربع وعشرون ساعة قبل أن يعرف انصار رودس من رجال حركة الاصلاح Reformers وكانوا قد جذبوا إليهم الغرباء وتعاهدوا معا لمصلحة الدولة . فأخرجوا ما عندهم من السلاح وأعلنوا قيام حكومة موقته وأرسلوا بعضهم للاستيلاء على مصنع السلاح . ولكنهم — بدون أن يبذلوا جهدا — فتحوا باب المفاوضات مع السلطات (كى لا يسفك دم) إذ لم يكن عندهم نية اطلاق النار كما لم يكن امامهم هدف يصوبون إليه النار إذ أمر كروجر بسحب رجال لبوليس من الشوارع إلى الحصن الذى يسيطر على المدينة ودعا الرئيس حليفته أورنج لمساعدته طبقا لنصوص معاهدة سنة ١٨٨٩ ولكنه لم يطلب مساعدة خارجية قط لأنه عرف أن أية دولة أوروبية وخاصة المانيا لن تحارب من أجل جمهوريته مهما أكدت له أنها تساند (الحالة القائمة)

واستغرقت الغارة أربعة أيام اتجه خلالها المغيرون إلى الشرق على طول الفلد وأخذ بعضهم يفكر ماذا يعملون . وتمكنت قوات الحكومة من الأحاطة بالمغيرين واستسلم الدكتور جيمسون عند دورنكوب Dornkop بعد أن قتل وجرح من رجاله كثيرون كما استسلم الغرباء الذين كانوا يوما يملكون زمام الموقف فى أيديهم . أما فى جوهانسبرج فقبض على رجال حركة الاصلاح ما عدا ليونارد الذى كان لا يزال فى الرأس . وأذاع كروجر بيانا دعا قومه فيه إلى الصفح والنسيان وإذا

Raid. p. 76 (١)

ما اذيع خبر الفشل بادر المندوب السامى بالسفر إلى بريتوريا حيث أبلغه كروجر أن أنصار حركة الاصلاح سيحاكمون محاكمة عادلة . أما المقبوض عليهم من المغيرين فيفضل أن يترك مصيرهم للحكومة البريطانية ورحلهم إلى مدينة الرأس وعاد المندوب السامى إلى مدينة الرأس ليجد أمرا من وزير المستعمرات أن يظل فى بريتوريا حتى يتلقى تعليمات جديدة وأمره أن لا يتكلم فى مسألة الغرباء حتى تتم محاكمة أنصار حركة الاصلاح [1].

نتائج الغارة :

وكان لا بد لاخبار هذه الغارة أن تشيع فى العالم فنشرتها الجرائدالعالمية لا سيما الانجليزية والألمانية[2] ووصفتها الأخيرة بأنها اعتداء غادر على استقلال دولة مستقلة ونددت بهذا العمل . بينما دافعت عنها الجرائد البريطانية لا سيما التيمس . وحاولت ألمانيا أن تستغل هذه الحادثة لمصلحتها فسعت لدى الحلف الثنائى (الروسيا وفرنسا) لتجعل الدولتين تقومان معها بعمل رسمى أقله ضمان (الحالة القائمة) فى الجمهورية الافريقية [3] ولكن الدولتين رفضتا وأنقذ هذا الرفض انجلترا من خطر عظيم . فلم تملك حكومة ألمانيا إلا أن تحمل القيصر على إرسال برقية إلى كروجر يهنئه فيها بالانتصار . كما أرسلت بارجة حربية إلى ميناء خليج دلاجوا إعراباً عن تأييدها للجمهورية[4] واكتفى القيصر بهذا لأنه كان لا يزال يؤمل فى الصداقة الألمانية البريطانية ليقاوم بها الحلف الثنائى[5] وقد أثارت هذه البرقية كثيراً من السخط بين الرأى العام البريطانى ظهر أثره فى الصحف .

وخافت الحكومة البريطانية أن يكون إرسال البارجة الألمانية مقدمة لتدخل ألمانى فأرسلت من جانبها بارجة حربية كمظهر من مظاهر القوة فى الوقت الذى أعلنت فيه الوزارة استنكارها للغارة . بل سارعت إلى تأليف لجنة برلمانية للتحقيق

---

(١) Cam. p. p. 576-80

(٢) Afr.. p. 438

(٣) Brit. p. 118

(٤) Afr. p. 430

(٥) Ibid. p. 118

فيها وإذا ما أتمت اللجنة عملها وقدمت تقريرها الذى أدين فيه السير سيسل رودس بادر سالسبورى بتوقيع التقرير والموافقة عليه[1] ورأت الوزارة ستراً لموقفها أن ترسل إلى كروجر عن طريق مندوبها السامى فى مستعمرة الرأس فعرضت استعدادها لاستقباله فى لندن من أجل الكلام فى هذا الأمر. ولكن كروجر وجد نفسه وقد أمسك بزمام الموقف رفض العرض[2] وأخذ يبدى كثيراً من التشدد مع الغرباء ولم يقف عند هذا الحد بل أرسل يطلب إنهاء معاهدة سنة ١٨٨٤ من أجل وضع نهاية للنفوذ البريطانى فى دولته والقيود التى تحد من استقلالها وعلاقتها بالخارج.

وقد علمت الوزارة البريطانية أنه أرسل وزير خارجيته الدكتور ليدز إلى ألمانيا ليسأل الحكومة الألمانية المساعدة على شراء سكة حديد خليج دلاجوا من البرتغال وإلى جعل ميناء لورنزو ماركيزو ميناء مفتوحاً محايداً[3] تضمنها الدول الأوروبية ضد الخطر البريطانى. ووعد كل من وزير خارجية ألمانيا وهولندا أن يعرضا هذا الاقتراح على لشبونه[4].

وكان من الطبيعى أن تزعج هذه الاخبار الوزارة البريطانية حتى لقد تقدم وزيران باقتراح إنذار كروجر ولكن سالسبورى هدأ الوزيرين لأن مجلس الوزراء كان قد أصدر أمره قبل ذلك بيومين إلى حملة دنقله بالتقدم[5] فلم يكن من حسن الرأى المخاطرة بحرب أخرى لاسيما وأن اهتمام الحكومة يجب أن يوجه حينئذ إلى البحر الابيض وحوض النيل لأن الاخبار كانت قد شاعت عن تقدم جيش فرنسى أثيوبى من أديس أبابا نحو الغرب للالتقاء عند بحر الجبل بجيش فرنسى آخر متقدم من افريقيا الاستوائية ليرسم حزاما فرنسيا عرض القارة الافريقية يمتد من الصومال الفرنسى حتى ميناء دكار[6].

---

(١) Cecil. p. p. 211-13

(٢) Cam. p. p. 585-86

(٣) Afr. p. 430

(٤) Ibid p. 431

(٥) Ibid. p. 432

(٦) Wingate. p. 108

أما فى الرأس فقد ظهرت الجبهة الافريقية امام الرأى العام الهولندى بمظهر خيانة الجنسية الافريقية وحملت الجرائد على رئيسها وأفرادها . مما اضطر هوفماير إلى أن يخذل السير سيسل رودس . الأمر الذى أدى إلى سقوط وزارته [1] بل ان بعض أعضائها الذين كانوا متحمسين فى نصرة رودس شعروا بخيبة امل كبيرة دفعتهم إلى الهجرة من مستعمرة الرأس متنازلين عن جنسيتهم البريطانية ليعيشوا مع إخوانهم فى جمهورية جنوب أفريقيا كما فعل سمطس الذى كان لايزال صغير السن ويشتغل بالمحاماة [2] وقضت الغارة نهائيا على مشروع سكة حديد القاهرة ـ الكاب عبر أراضى الجمهورية [3] أما فى أورنج فقد أبدت عطفها على جمهورية جنوب أفريقيا وبدا هذا العطف فى تحول سياستها من الجنوب (للاشتراك فى الاتحاد الجمركى مع الرأس) إلى الشمال .

ولكن اكثر النتائج أثرا هو شعور كروجر وحكومته أن الحكومة البريطانية لاتضمر غير العداء الصريح للجمهورية وأنها مصممة على القضاء على استقلالها بل استقلال الجمهوريتين البويريتين فأخذ يدبر أمر الدفاع عنهما باستيراد السلاح بكميات هائلة تمكن جيوش الدولتين من الدفاع عنهما سواء عن طريق ميناء لورنزو ماركيزو أو عن طريق موانى الرأس تحت اسم (أدوات زراعية) [4] كما اخذ يتصل بالدول الاوربية من أجل تكوين حلف ينقذ الدولتين ساعة الخطر كما جدد المعاهدة الدفاعية التى كانت بينه وبين أورنج فكان من أثر ذلك أن زاد التوتر بينه وبين بريطانيا زيادة هائلة ولم تفلح الجهود المتواصلة فى ازالته والتخفيف منه . الأمر الذى أدى فى النهاية إلى قيام الحرب بين الدولتين وهى الحرب التى عرفت باسم حرب البوير سنة ١٨٩٩ الأمر الذى دعا الجنرال سمطس إلى أن يقول أن غارة جيمسون على الجمهورية الافريقية تحدد البداية الحقيقية لحرب البوير [5] .

---

(١) Cam. p. 587

(٢) سمطس ص ٣٠

(٣) Cam. p. 588

(٤) Letters. p. p. 15-19

(٥) Ger. p. p. 61-2

اختصار أسماء المراجع

Cam. = Cambridge History of the British Empire Vol. VIII.

Afr. = Africa and the Victorians by R. Robinson and others 1961.

Letters = Letters to an Uitlander by Brattle Frere 1903.

Duffy = Portuguese Africa by James Duffy.

Brit. = British Foreign Policy by William Edwards 1934.

Raid. = Raid and Reform by Hilher Alfred.

Ger. = South Africa by Sara Gertrude 1941.

Theal = South Africa by Theal 1894.

Win. = Wingate of the Sudan 1956.

John. = Colonisation of Africa by Alien Races by Johnston.

Hailey. = An African Survey by Hailey 1956.

Cecil. = Cecil Rhodes by Fuller 1910.

Ency. = Encyclopedia Britannica.

دراسة لبعض التحف الإسلامية

للدكتور عبد الرحمن فهمى محمد

— ٢ —

مقدمة :

كنت قد نشرت البحث الأول فى سلسلة « دراسة لبعض التحف الاسلامية » فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ٢١ العدد الأول (مايو ١٩٥٩) وذلك عن تحفة إسلامية من الخشب من العصر الفاطمى وأخرى عن أحد الشمعدانات المملوكية المؤرخة من صناعة دمشق على يدى أحد الفنانين المواصلة وهذا هو البحث الثانى من السلسلة وهو فى هذه المرة دراسة فى ميدان علم النميات الاسلامية تتركز فى أحد الأختام ومجموعة من المسكوكات النادرة التى أرجو أن يكون فى بحثها ونشرها ما يحقق الفرض الذى أنشده من هذا النشر .

* * *

ختم أموى مسكوك من الرصاص :

فى صيف سنة ١٩٦٠ عثرت على قطعة من معدن الرصاص من بين مجموعة كبيرة من الفلوس الواردة من حفائر متحف الفن الاسلامى بالفسطاط [١] . ولهذه القطعة شكل دائرى تماما كالسكة الاموية المبكرة وتبدو كتاباتها الكوفية بارزة من الوجهين، وقد نشر الأستاذ سورية Soret[٢] قطعة شبيهة من النحاس سنة ١٨٥٤ م، تبدو بما عليها من كتابات كقطعة النقد ،وإن كان سورية يعتبرها صنجة للوزن أو أحد الأختام، ولكن شتيكل Stickel[٣] يؤكد أنها قطعة من النقود رغم أن فى جانبي القطعة توجد

---

(١) تم تسجيل هذه القطعة بالمتحف بعد إتمام إجراءات تنظيفها – برقم سجل ٢٠٤٤٢

(٢) cf. Revue de la Numismatique Belge (1854), pp. 277-8 fig., 3.

(٣) Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 1885, pp. 20-23.

بقايا سلك كان يمر من ثقب نافذ من طرفيها وقد أشار الدكتور وولكر Walker[1] إلى هذه القطعة وما تحمله من كتابات مؤرخة سنة ٩٤ ﻫ نصها :

سنة ا	من أهل
ربع و	مصر
تسعين	

كما نشر Walker أيضاً قطعة أخرى مثيلة بالمتحف البريطانى اقتناها هذا المتحف من بلدة القنطرة بمصر سنة ١٩٠٢ ، وهى مؤرخه سنة ٩٥ ﻫ. ونص كتاباتها (انظر لوحة ١) :

سـنة	من أ
خمس و	هل مصر
تسعين	

وبالرغم من أن سورية Soret وشتيكل Stickel يعتقد كل منهما أن القطعة المؤرخة ٩٤ ﻫ قد نتجت كتاباتها عن طريق الصب فان الدكتور Walker يؤكد أن قطعة المتحف البريطانى النحاسية المؤرخة ٩٥ ﻫ مضروبة بالقالب ويبدى — استنادا إلى ذلك — احتمال اعتبارها إحدى النقود المصرية المبكرة فى عصر الانتقال ، غير أن هـذا الرأى فى الواقع لا يستقيم وطبيعة القطعة التى عثرت عليها فى مجموعة مسكوكات الفسطاط . فهى ليست من معدن النحاس أو البرونز ، بل هى من الرصاص مما يؤكد مبدئياً أنها ليست فلسا من الفلوس الأموية المبكرة ، كما أن هـذه القطعة مثقوبة من طرفيها بثقب نافذ لإدخال سلك خاص خلال هـذا الثقب كما نفعل حالياً حين نختم بخاتم متحف الفن الإسلامى على قطعة مستديرة من الرصاص ينتهى عندها رباط السلك الملفوف حول صناديق التحف المصدرة إلى الخارج كاجراء وقائى وتفتيشى ، أما كتابات قطعة الرصاص بمتحف الفن الاسلامى فهى ناتجة على وجه التأكيد عن طريق الضرب بقالب من حديد فوق وجهى الرصاص ونص هذه الكتابات (انظر لوحة ٢) :

[جز] ية سنة	[م] صر
تسعين	أ بيو [ه]

F. Walker : A Catalogue of the Arab-Byzantine and Post-Reform Umaiyad Coins (London 1956) p. 295. (١)

ونستدل من هذا التاريخ « تسعين » على أن القطعة عاصرت — كغيرها من القطع المنشورة المماثلة — قرة بن شريك والى مصر (٩٠ — ٩٦ هـ)[١] .

ولكن السؤال الآن هو : ماذا تعنى كل هذه القطع ؟ إن نصوص الكتابات الواردة على قطعتنا من معدن الرصاص تنفى اعتبارها سكة مصرية لأنها سكت لغرض معين هو جزية سنة ٩٠ هـ ، ويعتبر العثور على هذه القطعة ذا أهمية تاريخية وأثرية كبيرة لأنها تحمل كتابات تؤكد لنا أنها هى وأمثالها الموجودة بالمتحف البريطانى ، والتى نشرها Stickel ما هى إلا أختام صنعت لأغراض تتعلق بضريبة الجزية التى دفعت فى تاريخ معين ومن شخص معين بمصر فى عهد الوالى الأموى قرة ابن شريك . والمعروف أن قرة قد تشدد فى تسلم الجزية على وزن بيت المال وأعطى أوامره بذلك إلى الچستال « مندوب بيت المال » وإلى المازوت « شيخ القرية » فى الأقاليم[١] وتمدنا المراجع التاريخية بمعلومات قيمة عن النظام المالى لمصر منذ الفتح الاسلامى وهو نظام يستند إلى فرض ضرائب على الرءوس لغير المسلمين وتسمى « الجزية » وضرائب أخرى عقارية على الأرض وتسمى الخراج[٣] ولكن يظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى اهتم به العرب هو الجزية[٤] التى فرضت على أهل مصر بمجرد انتهاء العرب من العمليات الحربية « واصطلحوا على أن

---

(١) اختلف المؤرخون فى وفاته أنظر الطبرى « ليدن » جـ ٢ ص ١٣٠٥ ، وزامبور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٢٥ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢١٨ حيث يذكر وفاته سنة ٩٥ هـ نقلا عن مرآة الزمان ولكنه يرجح وفاته حسب قول الذهبى فى ربيع الأول سنة ٩٦ هـ ، وانظر كتابنا : صنج السكة فى فجر الإسلام ص ٤٧ و ص ٤٨ ،

A. Grohmannn : Arabic Papyri. vol., I., p. 25.

(٢) A. Grohmann : op. cit., vol. II, p. 47

(٣) Van Berchem : La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premier califes (Genève 1886) p. 21.

وكانت الجزية فى مصر تدفع نقدا بالدنانير وكسورها وهى ضريبة على أهل الذمة مقابل الزكاة على المسلمين وتعرف الجزية فى قطع الأوستراكا Ostraca (كسر الفخار) وفى أوراق البردى اليونانية باسم دمزيا δημοσια أما فى أوراق البردى العربية فتعرف باسم « الجزية » أنظر

Crum : Coptic Ostraca (London 1902) pp. 3, 37, A. Grohmann : op cit., vol. III, pp. 16, 17.

(٤) سيده اسماعيل كاشف . مصر فى فجر الإسلام (القاهرة ١٩٤٧) ص ٢١٦

يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها (الوجهين القبلي والبحرى) من القبط دينارين . . . وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية » [1] ولكن أوراق البردى تثبت عدم مساواة أهل الذمة فى دفع الجزية لأنها كانت تقدر على الأفراد بما يتناسب وثروتهم الشخصية [2] ومع ذلك حاول كثير من الأقباط التخلص من هذه الجزية ، إما عن طريق اعتناق الاسلام أو اعتناق الرهبنة والالتجاء إلى الأديرة إذ لم يكن تفرض أية جزية على الرهبان الذين لا يملكون شيئاً فى حياتهم الانعزالية [3] وقد ظل هذا الامتياز للرهبان قائماً حتى عهد الوالى عبد العزيز ابن مروان الذى أحاط نفسه بكثير من مظاهر الترف وبنى مدينة حلوان التى كلفته نحوا من مليون دينار ورفع أعطيات الجند وقلد عظماء الجاهلية فى الكرم وقد زاد كل ذلك فى حاجته إلى المال فى الوقت الذى ارتفع فيه صوت كثير من المسيحيين بأن الرهبان يأكلون ويشربون دون أن يدفعون جزية [4] وقد بهر عبد العزيز ابن مروان أن يعلم أن الرأى العام لا يسوؤه تقرير جزية الرءوس على الرهبان فى الأديرة فأمر باحصاء الرهبان فى جميع الأديرة حتى لا تكون مكانا لايواء الهاربين من الضرائب الحكومية وأصبح كل راهب يطوق ذراعه الأيسر بسوار ينقش عليه تاريخ الاحصاء واسم الراهب واسم الدير الذى ينتمى إليه أو الكنيسة التى هو فيها وكاف كل راهب لأول مرة بدفع جزية مقدارها دينار واحد[5] .

ويذكر الأستاذ Wiet [6] أنه رغم الاحصاء الدقيق الذى قام به عبد العزيز بن مروان فان حركة التهرب من الضرائب إلى القرى والأديرة قد اتسعت فى عهد الوالى

---

(١) عن تفاصيل هذا الصلح انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر (المعهد الفرنسى) ص ٦٣ وص ٦٤ . المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٩٢ و ص ٢٩٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٠

(٢) انظر كتاب قرة بن شريك إلى صاحب كوره أشقوه بمصر العليا المنشور فى
Bell : Translations of the Greek Aphrodito, (der Islam II) pp. 372, 281-282,
A. Grohmann : op. cit. vol. III, pp. 197-8, 201-3, 217, 219, 220-221
حيث نلاحظ اختلاف مقادير الجزية

(٣) Wiet : Précis de l'histoire d'Egypte T. 11, p. 132.

(٤) Wiet : Hist. de la Nation Egypt. T. IV p. 44.

(٥) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٩٢ ، ص ٤٩٣ ، ساويرس : البطاركة ص ٥١ ، (T. V.)

(٦) Wiet : Hist. de la Nation Egypt., p. 46.

عبد الله بن عبد الملك (٨٦ — ٩٠ هـ) حتى وصلت فى عهد خلافه قرة بن شريك (٩٠ — ٩٦ هـ) إلى درجة التأثير على ميزانية الدولة العامة مما اضطر قرة إلى سلسلة من الاجراءات أهمها حصر الأغراب فى كل قرية ووسم كل منهم على جبهته ويديه وردهم إلى أوطانهم [١] وحتم على كل من يريد السفر من مكان إلى آخر أن يحمل جوازا المرور يحتفظ به صاحبه حتى لا يضطر إلى دفع خمسة دنانير لاستخراج بدل فاقد[٢] .

وتثبت القطع الثلاث العالمية من الأختام — ومن بينها أقدمها بمتحف الفن الاسلامى — أن الاجراءات الاحصائية والتفتيشية التى اتبعها قرة بن شريك وأشارت إليها المراجع التاريخية لم تكن هى الاجراءات الوحيدة لتنظيم موارد الدولة والحفاظ على ميزانيتها ، بل يتضح من الختم الرصاص المسكوك بمجموعة المتحف الاسلامى بوجه خاص أن قرة بن شريك قد قاوم الحركة السلبية التى اتبعها الهاربون من الجزية بتطويق الذراع الأيسر أو الرقبة لكل من تستحق عليه جزية بسلك ينتهى طرفاه بختم تسجل على أحد وجهيه بالخط الكوفى البارز تاريخ السنة الهجرية التى يدفع فيها الجزية كما تسجل على الوجه الثانى اسم بلدته أو قريته [٣] .

وإذا استعرضنا كتابات الختم الرصاص رقم سجل ٢٠٤٤٢ بالمتحف الاسلامى نجدها تنص على جزية سنة تسعين التى قام بدفعها صاحب هذا الختم وهو كما تنص كتابة الوجه الثانى للختم من بلدة مصرية اسمها « أبيوه » وهى « أبيوها » الحالية بالوجه القبلى ويستفاد من أوراق البردى العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية أن هذه البلدة اسمها

---

(١) ساويرس : المرجع السابق ص ٥٦ .

A. Grohmann : op. cit., vol., III, p. 24., Lammens : Un Gouverneur Omaiyade p. 107

حيث يذكر « لا مانس » أن حركة الهروب من الضرائب لم تكن جديدة فى التاريخ المصرى بل كثيرا ما كان الفلاحون يهجرون قراهم فى العصر البيزنطى فرارا من دفع الضرائب .

(٢) سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٣٠ وقد اعتبر المقريزى أن قرة بن شريك « أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها » أنظر خطط ج ٢ ص ٤٩٢

(٣) وقد نسبت بعض المراجع التاريخية إجراءا شبيها بذلك إلى أسامة بن زيد صاحب خراج مصر فى عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك فى المدة من ٩٦ إلى ٩٩ هـ انظر كتابنا صنج السكة فى فجر الاسلام ص ٤٨ إلى ٥٠ ولكن يتضح من الختم الرصاص الذى ننشره هنا أن الوالى قرة بن شريك قد سبقه فى ذلك . انظر أيضا ساويرس : المرجع السابق ص ٦٨ و ص ٧٠ والخطط ج ٢ ص ٤٩٢ و ص ٤٩٣

منذ فجر الاسلام « أبيوهه » أو « أبيوه » نسبة إلى قرية قديمة من قرى الأشمونيين بقى لنا اسمها ومكانها « أبيوها » بمحافظة المنيا الحالية مركز سمالوط[1] .

ومن هذا الختم المسكوك يتضح أن هناك نوعين من الاجراءات الاحصائية المتعلقة بالجزية أحدهما الذى اتبعه الوالى عبد العزيز بن مروان مع الرهبان بتطويق الذراع الأيسر بسوار معدنى كما سبق أن أشرنا ، والاجراء الثانى هو تطويق ذراع أو رقبة الذمى بهذا النوع من الأختام الرصاص فى عهد قرة بن شريك لضبط عملية تحصيل الجزية ليس إلا .

ولكن بعض المؤرخين [2] يحاولون دون جدوى أن يستثيروا عطفنا بقصص ساذجة لدرجة كبيرة ولا داعى كذلك لاقحام الكرامة الانسانية عند ذكر مثل هذه الاجراءات[3] التى مهما كانت درجة مضايقاتها فلا بد من قياسها بمعايير عصرها وبيئتها كما أنها لا بد وأن تكون قد تمت تحت تأثير أسباب تستحق أن توصف بالتفصيل عند الاحتجاج بها . هـذا فضلا عن أن اجراءات الأختام التى اتبعها قرة ابن شريك لضبط المسألة المالية لم تكن ابتكاراً أموياً فقد أشار Adam Metz إلى أن مسألة ختم الرقاب عادة قديمة ترجع إلى عصر الأشوريين[4] ويذكر Triton

---

(١) أنظر بردية رقم ٢٦١ وبردية رقم ٢٦٣ فى مجموعة أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية
A. Grohmann : op. cit., vol. IV., pp. 144, 166., 169, 178.
وتشير البردية رقم ٢٦١ إلى إحصاء قد تم بمعرفة مندوبى بيت المال فى « أبيوهه » وأشار فى مطلع البردية إلية بعبارة « ما أعان الله عليه من إحصا » وانظر عن هذه البلدة ياقوت الحموى معجم البلدان (نشر Wüstenfeld) جـ ١ ص ١١١ ، وابن دقماق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ص ١٦ (القاهرة ١٨٩٣) وانظر شرف الدين يحيى بن الجيعان : التحفة السنية (القاهرة ١٨٩٨) ص٧٤

(٢) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة جـ ١ ، جـ ٥ ، جـ ١٠ من مجموعة Patrolgia Orientalis (باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥)
E. L. Butcher (Mrs.) : The story of the Church of Egypt 2 vols. (London 1897)
وترجمه اسكندرتادرس بعنوان « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها » فى ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٠٠ و ١٩٠١ و ١٩٠٦)

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egypt. p. 46.

(٤) Adam Metz : Die Renaissance des Islams (Heidelberg 1922)
انظر (الترجمة العربية) جـ ٢ ص ٧٧ حيث يذكر متز « أن الأشوريين كانوا يعلقون فى رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوب عليها اسم العبد واسم سيده وكان اليهود فى عهد التلمود يعلمون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب »

أيضاً أن نظام الختم كان متبعاً عند البيزنطيين « ومن الحق ألا نحمِّل العرب وزر ابتداع عار هذه العادة إذ أنها كانت متبعة عند البيزنطيين من قبلهم ، ففى سنة ٥٠٠ م ذهب Demothenes إلى الامبراطور وأخبره بنكبته ، فوصله الامبراطور بمبلغ غير قليل من المال لتوزيعه على الفقراء فلما عاد من حضرته إلى الرها ختم على رقاب الجميع بأختام من الرصاص وأعطى لكل واحد منهم رطلا من الخبز كل يوم » (١) ومن هذا القول يبدو جلياً أن عادة ختم الرقاب بأختام من الرصاص لم تكن عادة مستهجنة كما لم تكن موجبة للعار الذى يقحمه ترتون فى هذا العصر الوسيط .

وليس لدينا من المراجع ما يشير إلى أن هذه الأختام العربية ظهرت قبل عهد عمر بن الخطاب وهو الخليفة الذى اقترن اسمه بالفتوح الاسلامية الهائلة فى سوريا والعراق وفارس ومصر ، وقد أرسل عمر بن الخطاب لجمع خراج العراق رجلين من لدنه هما عثمان بن حنيف ، وحذيف اليمانى فختما أعناق جميع الذميين ، وحدث هذا أول ماحدث فى خانقين(٢) كما أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص واليه على مصر « أن يختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص» (٣) .

---

(١) A. S., Tritton : The Caliphs and their Non-Muslim Subjects (1930) pp., 124-5

وقد ذكر ابن بطوطة فى القرن ٨ هـ – ١٤ م عند وصفه لمدينة دمياط أنه « إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالى فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه يستظهر به » وهذا الإجراء لا يمكن تفسيره بأنه اضطهاد لغير المسلمين مادام قد اتبع مع الأفراد دون النظر إلى دياناتهم . أنظر ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص١٦ ولم يعتبر wiet هذا الإجراء عارا ودافع عنه انظر .

Wiet : Hist. de la Nation Egypt., P. 47.

وقد اعتبره الأستاذ حسن عبد الوهاب مجرد جواز للمرور أنظر حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها (١٩٥٧) ص ٣٨

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧١ وخانقين اليوم بلدة عامرة بالعراق وهى مركز قضاء خانقين فى لواء ديالى « الآن لواء بعقوبة » وبها تنتهى سكة الحديد الممتدة من بغداد . أنظر .

Le Strange : The Land of the Eastern Caliphate ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ١٩٥٤) حاشية ٤ ص ٨٧

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ : المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣

ولكن يجب ألا نبالغ فى استمرار الابقاء على الأختام حول الذراع أو الرقبة مدة طويلة إذ ليس لدينا ما يؤيد هذا الاستمرار بل إن أبا يوسف صاحب كتاب الخراج يشير إلى أن ختم الأعناق لم يكن يستعمل إلا عند جمع الجزية وحسب حيث يذكر : « ينبغى أن تختم رقابهم (أهل الذمة) فى وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سألوه كسرها » [1]

وهكذا لا تبدو عملية الختم بالرصاص حول الأيدى أو الرقاب أكثر من إجراء تنظيمى يحقق مصلحة الحكومة القائمة آنذاك ومصلحة الفرد نفسه حتى لا يحدث خطأ من شأنه أن يؤدى إلى تكرار دفع الجزية من شخص واحد أكثر من مرة واحدة فيقع الغبن الصارخ ، كما لا يمكن لفرد فى ظل نظام الختم أن يفلت من التزامه بدفع الجزية لخزينة الدولة العامة .

ولكن استعمال الأختام لهذا الغرض وبهذه الوسيلة الموقوتة بدفع الجزية لا ينفى استعماله كوسيلة لجرح الكرامة والشعور بالعزة والأنفة فى العصر الأموى غير أن ذلك لم يحدث مع أهل الذمة بل من بعض حكام بنى أمية والمسلمين أنفسهم فقد أورد لنا ابن تغرى بردى ما يؤيد ذلك فى حوادث سنة ٧٤ هـ حين ذكر أن الحجاج ابن يوسف سار فى هذه السنة من مكة « وأخذ بعض الصحابة وختم عليهم فى أعناقهم روى الواقدى عن ابن أبى ذؤيب عمن رأى جابر بن عبد الله مختوماً فى يده ورأى أنس بن مالك مختوما فى عنقه يذلهما بذلك قال الواقدى وحدثنى شرحبيل بن أبى عون عن أبيه قال رأيت الحجاج أرسل إلى سهل بن سعد الساعدى فقال ما منعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان ؟ فقال قد فعلت . قال كذبت ثم أمر به فختم فى عنقه برصاص » [2] .

وإذا كانت أختام الجزية الرصاص قد وصلتنا نماذج منها فانه لم يصلنا للآن نموذج واحد من أختام الحجاج التى يشير إليها أبو المحاسن وإن القطع بصحة هذه الاجراءات التى اتبعها الحجاج مع بعض الصحابة ستظل موضع الشك إلى

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٩١ « طبعة دار الكتب المصرية » .

أن تثبت يقيناً على يدى الباحثين فى الآثار الاسـلامية عامة وفى علم النميات بصفة خاصة .

فلوس عباسية ضرب نبروه :

إن الفلوس النحاسية أو البرونزية المبكرة لا تقل أهمية عن الدراهم الفضة والدنانير الذهب فى دراسة تطور السكة الاسلامية إن لم تكن تفوقهما ، ويكفى أن نعرف أن هذه الفلوس تمدنا بكثير من مدن السك المحلية قبل أن تظهر على الدنانير نفسها ، فبينما أقدم دار للسك تمدنا بها الدنانير المصرية ترجع إلى سنة ١٩٩ ﻫ نجد الفلوس المصرية فى العصر الأموى منذ سنة ١٣١ ﻫ فى عهد الوالى عبد الملك بن مروان (١٣١ — ١٣٢ ﻫ) ٧٤٩/٧٥٠ م تظهر عليها مصر — الفسطاط — اسكندرية — أتريب — الفيوم[١] .

ولعل السبب فى ذلك هو أن الفلوس كانت حقاً مكتسباً للولاة فى الأقاليم شأنهم فى ذلك شأن الحـاكم اليونانى Eparchos الذى كان مكلفاً بالاشراف على السكة فى ولايته[٢] فيضرب الولاة هذا النوع من الفلوس تحقيقاً لمرونة العمليات التجارية وإشباعا لرغبات عامة الشعب فى شراء حاجياتهم البسيطة أى «المحقرات» على حد تعبير المقريزى[٣] ولذلك تعدد ضرب الفلوس فى مدن مختلفة من الاقليم الواحد واتجهت أنظار الباحثين فى علم النميات الاسلامية لدراسة هذه الفلوس وهى دراسة شاقة مافى ذلك شك لأسباب كثيرة أهمها أن الخامة النحاسية أو البرونزية التى ضربت منها هذه الفلوس الاسلامية يتطرق إليها الصدأ بسرعة كبيرة ولا يلبث هذا الصدأ أن يؤثر فى حروف الكتابات البـارزة من الفلوس طيلة الوقت الذى تكون فيه هـذه الفلوس مطمورة فى باطن الأرض أو تحت الأطلال بعيدة عن أيدى أمناء المتاحف أو الباحثين كما أن كثيراً من هـذه الفلوس تتشقق خامته نتيجة الضرب عليها بشدة دون تسخينها « فتتفزر » هذه الفلوس وتتقطع حروفها ويصعب بذلك تكوين صورة كاملة عن كتاباتها دون

---

(١) Miles : The Early Islamic Bronze Coinage of Egypt (Centennial volume of the American Numismatic Society N. Y.) pp. 478-480.

وانظر ما جاء فى هذه الصفحات من مراجع

(٢) Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque Nationale vol .I, p. XLVII

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة (نشر زيادة والشيال) ص ٦٦

إجراء تحقيقات علمية واسعة ، هـذا إلى جانب عدم اهتمام الضراب بهذا النوع من السكة الاسلامية بحيث يتحرى تركيز القوالب على الخامة تمـاماً كما يفعل فى الدينار والدرهم ، بل كثيراً ما يؤدى إهماله فى الضرب إلى زحزحة قوالب السك بحيث لا يظهر على الفلس غير جزء قليل من كتابات القالب المطلوب إبرازها على الفلس فينتج لنا فلوساً ناقصة فى نصوصها تثير مشاكل لا حد لها بين الباحثين .

ومن بين الفلوس التى أثارت بعض المشكلات بين علماء النميات فلسان فى المكتبة الأهلية بباريس نشرهما الأستاذ لافوا Lavoix سنة ١٨٨٧[1] قطر كل منهما ١٥ مم ويزن أحدهما ١٫٤٥ جرام والثانى ٩٥ر. وربما كان هذا الوزن قد تأثر كثيراً من تآكل الصدأ ، وعلى كلا وجهى الفلسين وردت كتابات كوفية واضحة المعالم إلى حد كبير وقرأها لافوا بهذا الشكل على أحد الفلسين :

بيروت	الأمير
مما أمر	جا[بـ]ـر
	بن عـبـ[يد]

وبالشكل الآتى على الفلس الثـانى :

بيروت	الأمير
مما أمر	جا [بـر]
	بن [عبيد]

وقد نشر الدكتور Miles قطعتين باسم الأمير جابر فى بحثه عن « الفلوس البرونزية المبكرة فى مصر » ولكن ليس على أى واحد من الفلسين أية إشارة لدار السك رغم وجود اسم «الأمير جابر» وقد نسب Miles القطعتين إلى جابر بن عبيد (١٣٣–١٤١ هـ) (٧٥٠ — ٧٥٩ م) الذى كان عاملا باقليم منف فى عهد والى مصر عبد الملك بن يزيد ، ويشك الدكتور ميلز رغم قراءته اسم جابر بن عبيد على قطعتى باريس فى نسبة هذين الفلسين إلى مصر فى الوقت الذى يرجح فيه نسبة الفلسين اللذين عثر عليهما فى حفائر أنطاكية — ويحملان اسم الوالى نفسه — إلى مصر[2]. كما أن الأستاذ Bergmann

---

(١) Lavoix : op. cit nos. 1565, 1566, pp., 425., 426. pl. IX

(٢) Miles : The Early Islamic Bronze Coinage of Egypt nos. 12, 13, pp. 483, 484.

سبق أن قرر سنة ١٨٦٩[١] نسبة فلس آخر من هـذا النوع من الفلوس إلى جابر بن الأشعث والى مصر منذ ١٩٥ هـ إلى ١٩٦ هـ ووافق الأستاذ الدكتور أدولف جروهمان على هذه النسبة[٢].

وبخصوص هذه الفلوس نرى أنفسنا نواجه سؤالين فى حاجة إلى إجابة :

هل نعتبر فلسى باريس اللذين يظهر عليهما اسم جابر ضرب بيروت ؟ ثم هل جابر الذى يظهر اسمه عليهما هو جابر بن عبيد أو جابر بن الأشعث ؟ وما مدى علاقة أيهما ببيروت ؟

أما فيما يتعلق بالسؤال الأول فيمكن الاجابة عليه فى ضوء الصورة التى نشرها لاڤوا باللوحة التاسعة من كتابه للقطعة رقم ١٥٦٥ فبالرجوع إليها - ونحن ننقلها هنا فوتوغرافيا (لوحة ٣) - نلاحظ أن الكلمة الموضحة بالسطر الأول تنتهى بتاء مربوطة أو هاء ومن هنا أفضل قراءة الكلمة كلها (نبروه) وليست (بيروت) كما قرأها لاڤوا وإلى جانب عدم وجود تاء مفتوحة فى الكلمة فان (بيروت) لا تتمشى مع نسبة الفلس إلى أحد العاملين المصريين وهما جابر بن عبيد أو جابر بن الأشعث اللذين نرجح أن أحدهما صاحب هذه الفلوس .

ونبروه بلدة قديمة بالوجه البحرى فى مركز طلخا بمحافظة الغربية حاليا وقد أشار إليها ابن مماتى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ[٣] كما أشار إليها على مبارك فى خططه حيث يذكر : « نبروه بلدة قديمة تابعة لمركز سمنود من مديرية الغربية واقعة على تل مرتفع نحو أربعة أمتار على الشاطىء الغربى لبحر نبروه »[٤] وكذلك أشار إليها أخيراً المرحوم محمد رمزى فى قاموسه على أنها بلدة قديمة[٥] .

---

(١) Bergmann : Zur Muhammedanischen Mùnzkunde, (ZDMG, XXIII, 1869, p. 246. no. 9.)

(٢) A. Grohmann : Einührung und Chrestomathié zur Arabischen Papyruskunde. Praha, 1955, p. 216.

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين (نشر سوريال) ص ٢١٥

(٤) على مبارك : الخطط الجديدة التوفيقية ج ١٧ ص ٣

(٥) محمد رمزى : القاموس الجغرافى قسم ٢ ج ١ ص ٩٢ (نشر دار الكتب المصرية) .

وعلى هـذا الأساس تكون صحة قراءة كتابات الوجه فى الفلسين بمجموعة باريس هى :

نبروه

مما أمر

أما الظهر فتبدو كتاباته فى السطرين الأولين بشكل أوضح من السطر الثالث ولكن الكلمة التى يشتمل عليها السطر الثانى اعتقد لاڤوا أنها تنقص حرف الباء فى «جابر» فأضافه عند قراءة هذا الاسم هكذا جا [بـ]ر وذلك على أحد الفلسين وهو رقم ١٥٦٥ بينما فى الفلس الثانى رقم ١٥٦٦ أضاف للكلمة نفسها حرفى الباء والراء جا[بر] مع أنه بالتحقق من كتابة السطر الثانى فى ظهر الفلس المصور وهو رقم ١٥٦٥ يتضح لنا أن حرف الجيم والألف فى « جابر » ليس بعدهما أى حرف آخر إذ تمتد الراء فى كلمة « الأمير » من السطر الأول لتصل إلى مستوى الحرفين جيم وألف فى السطر الثانى مما يتوهم معه أنها تكملة لكلمة «جابر» الأمير بينما توجد تكملة الاسم فى السطر الثالث الذى يحتوى على الباء والراء الناقصين بشكل لا يدع مجالا للشك وفى نهاية السطر الثالث يظهر حرفان يمكن تفسيرهما على أنهما (بن) مكتوبة بطريقة عكسية بن وفى ضوء هذه التفسيرات تصبح كتابات ظهر فلسى باريس هكذا :

الأمير

جـا

بر بن

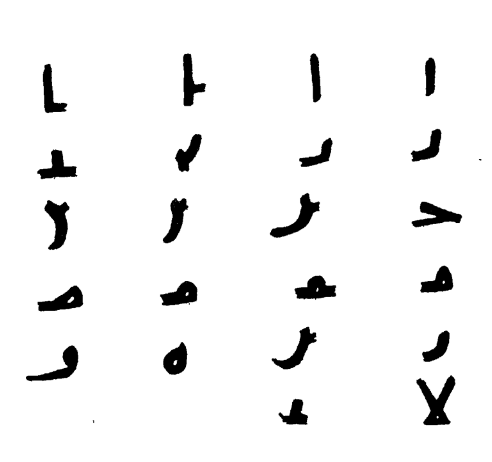
وعدم تسجيل اسم والد جابر هـذا يجعلنا فى حيرة من نسبة جابر إلى « عبيد » أو إلى « الأشعث » وإن كان كلاهما من عمال العصر العباسى فى مصر وليس فى إقليم آخر غير مصر . إذ من الثابت أن جابر بن عبيد قد تولى عمله فى مصر من ١٣٣ — ١٤١ هـ[١] بينما تولى جابر بن الأشعث من ١٩٥ إلى ١٩٦ هـ[٢] .

---

(١) G. C. Miles : Islamic Coins of Antioch-on-the Orontes, IV, part I (Princeton 1948), p. 115.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٤٧ — ص ١٥٣ حيث يذكر فى ص ١٥٠ « أن ولاية جابر بن الأشعث كانت على مصر سنة واحدة تقريبا » .

وإذا كنا قد استطعنا أن نجيب على الجانب الأول من المشكلة باكتشاف دار للسك جديدة فى مصر العباسية ليس لها إنتاج مماثل فى العالم ، وهى « نبروه » فاننا لا زلنا فى حاجة إلى مستندات أوفى حتى يمكن الرد على الجانب الثانى من المشكلة من حيث نسبة فلوس « نبروه » إلى جابر بن عبيد أو جابر بن الأشعث وإن كانت الكتابات الكوفية الواردة على فلسى باريس تؤيد فى رسم حروفها ترجيح نسبتها إلى جابر بن عبيد لأنها تقترب فى الواقع من حروف كتابات العصر الأموى وخاصة بالنسبة لرسم الألف والجيم والواو .



تحليل الحروف الكتابية

على فلس « نبروه » بمجموعة المكتبة الأهلية بباريس

دنانير يمنية نادرة ضرب صعدة :

تعتبر المسكوكات الاسلامية ضرب اليمن من أندر السكة العربية وقد نشر بعض علماء النميات(1) أعداداً من هذه المسكوكات وكلها سواء أكانت من الدنانير أو الدراهم أو الفلوس تنحصر فى ضرب صنعاء وتعز وعدن فيما عدا درهمين بمجموعة المتحف البريطانى باسم الامام الهادى يظهر على أحدهما اسم صعدة(2) ولكن لا نعرف دنانير ضربت باسم هذا الامام الشيعى فى غير مجموعة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة الذى يمتلك ثلاثة دنانير كلها ضرب صعدة سنة ٢٩٨ هـ وتتشابه كتاباتها ونصها:

الوجه :	الظهر :
(مركز)	(مركز)
لا إله إلا	الهادى إلى
الله وحده	الحق أمير
لا شريك له	المؤمنين
محمد رسول الله	بن رسول الله

Lane. Poole : Catalogue of Oriental Coins in the British Museum (١)
(London 1880) vol. 5, no. 368, p. 131 درهم تعز ، no. 358, p. 121 . دينار عدن ٥٥٦ هـ
nos. 364, 369, 374—378, 389., 390, pp. 128., 131-135. دراهم ضرب صنعاء بالأرقام
Lane-Poole : Cat. of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library
at Cairo, no. 647, p. 19. ودينار ضرب صنعاء سنة ٣١٠ هـ
Heinrich Nûtzel : Katalog Der Orientalischen Mûnzen. Erster Band (Berlin 1898), nos. 1051, 1450, 1462, 1527, 1561, 1644, 1705. وكلها دنانير ودراهم ضرب صنعاء
Lavoix : Catalogue dès Monnaies Musulmanes, vol. I pp. 189, 228, 240, 241, 245, 250, 282
درهم ضرب صنعاء ١٨٨ هـ ودنانير ضرب صنعاء فى السنوات ٢٢١، ٢٢٣، ٢٤٩، ٢٥٦، ٢٧٣، ٢٧٥، ٣١٤، ٣١٥
G. C. Miles : The Ayyubid Dynasty of the Yemen and their Coinage. (Numismatic Chronicle 5th series vol. XIX 1939.
P. Balog. : Dèrhems Ayoubites Inédites du Yemen (B.I.E., T. XXXV Caire 1955)

ليس القصد من الإشارة إلى هذه المراجع إعطاء إحصاء عام لكل السكة اليمنية بل هناك بعض العملات نشرها Fraehn, A. weyl وغيرهما فى كتب أو دوريات متفرقة وإنما قصدت فقط الإشارة إلى أهمية هذه المسكوكات ضرب « صعدة » .

(٢) والذى يظهر عليه اسم صعدة هو رقم ٣٦٢ فقط
Lane.-Poole : B. M., vol. 5 nos. 361, 362 pp. 127.

(هامش داخلي) (هامش)

بسم الله ضرب هذا الدينر بصعدة محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق .
سنة ثمان وتسعين ومئتين

(هامش خارجي)

لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله [لوحة ٣ و ٤]

أرقام السجل :		
١٢٨١٧/١	قطر ٢١ مم وزن	٢٫٨٢٠ جرام
١٢٨١٧/٢	قطر ٢١ مم وزن	٢٫٨٤٠ جرام
٧٧٠٢	قطر ٢٠ مم وزن	٢٫٨٥ جرام

ونلاحظ بين كتابات هذه الدنانير عبارات تشير إلى « الهادى إلى الحق أمير المؤمنين بن رسول الله » وهى ألقاب أحد أئمة الشيعة الزيديين باليمن ومؤسس الدولة الهاشمية هناك ، وهو يحيي بن الحسن بن القاسم بن إبراهيم طبا طبا ابن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب(١) وقد ولد هذا الامام سنة ٢٤٥هـ وتذكر بعض المراجع(٢) أنه توفى سنة ٢٩٧هـ بينما تذكر مراجع أخرى أنه توفى فى ذى الحجة سنة ٢٩٨هـ(٣) وهو أمر تؤكده هذه الدنانير التى ننشرها وتحمل اسمه وتاريخ ضربها سنة ٢٩٨هـ أى فى العصر العباسى .

ونحن نعرف أن اليمن قد تناوب على حكمها ولاة متعددون من قبل الخلفاء العباسيين ومن ثم فان هذه الدنانير الشيعية تثير التساؤل عن سبب ضربها فى إحدى الولايات العباسية التى درجت على أن تضرب دنانيرها باسم الخليفة العباسى المعاصر فرغم أن هذه الدنانير التى يمتلكها متحف الفن الاسلامى يتمشى تاريخها مع عهد الخليفة العباسى المقتدر بالله ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ (٩٠٨ — ٩٣٢م) إلا أنها لا تحمل أية إشارة إلى اسمه كما أن الفترة التى صدرت فيها هذه الدنانير فترة غامضة فى سلسلة الولاة الذين

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٨

(٢) حسن بن فيض الله الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٢٥

(٣) حسين بن على الويسى : اليمن الكبرى (القاهرة ١٩٦٢) ص ٢٦١ وكذلك يذكر زامبور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى (ترجمة زكى حسن وآخرين) ج ٢ ص ١٨٧

أوردهم زامبور Zambaur حيث نقرأ عن بعض الولاة العباسيين كما نجد أيضا ولاة آخرين معاصرين لهم من أئمة الزيديين من بنى الرسّى بصعدة وصنعاء [١] .

والواقع أن تبعية اليمن للخلافة العباسية لم تكن مستقرة لأسباب كثيرة لعل أهمها بُعد هذه البلاد عن عاصمة العباسيين فى بغداد فلم يكن فى مقدور الخليفة أن يقضى على حركات الطامعين بالسرعة التى تتطلبها إخماد الثورات وقمعها . لذلك نجد فى القرن الثالث الهجرى أحد ولاة اليمن وهو محمد بن ابراهيم الزيادى يتمكن من تأسيس الدولة الزيادية سنة٢٤٥ه وقد حكمت هذه الدولة اليمن من عاصمتها الجديدة « زبيد » واعترفت بالولاء للخلافة العباسية[٢] كما خرج بصنعاء أسعد بن أبى يعفر واعترف كذلك بالولاء للعباسيين وفى نفس الوقت ثار بصعدة يحيى بن القاسم الرسّى الملقب « بالهادى » وكان يدعو للزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين[٣] وهكذا أصبح فى اليمن ثلاث دويلات معاصرة إحداها فى «زبيد» والثانية فى «صنعاء» وهما تعترفان بالسيادة العباسية والثالثة فى «صعدة» وهى دولة شيعية تأسست سنة ٢٨٠ ه[٤] بعد أن انتشر التشيع سرا وعلانية فى اليمن نتيجة ضعف الدولة الزيادية وانحلالها . فذهب وفد من اليمنيين إلى الهادى يحيى بن الحسن وهو بالرسّى بالحجاز ونجد وطلبوا خروجه إلى اليمن التى اضطربت أمورها وانتشرت فيها الفتن[٥] وبايعوه على النصرة

---

(١) زامبور : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٧ و ص ١٨٧

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤ (نشر Henri Cassels Kay)

ويذكر حسين على الويسى أن دولة بنى زياد قامت فى اليمن منذ سنة ٢٠٣ه إلى سنة ٣٩١ ه وأسست زبيد سنة ٢٠٤ ه أنظر حسين على الويسى : المرجع السابق ص ٢٥٩

(٣) دكتور محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب (الطبعة الأولى) ص ٥٩

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢١٣

Kay : Yamen, Its Early Mediaeval History p. 242

ويذكر القلقشندى أن « صعدة » بلدة على ستين فرسخا من صنعاء أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٢

وانظر أيضا حسن بن فيض الله الهمدانى : المرجع السابق ص ٢٨ ، وحسين على الويسى : المرجع السابق ص ٢٦٠

(٥) حاول الفاطميون فى ذلك الوقت إقامة دعوتهم فى اليمن أولا فأرسل محمد الحبيب إمام الإسماعيلية فى سلمية (من أعمال حماة) كلا من على بن الفضل اليمانى وأبا القاسم رستم بن الحسن بن فرج بن حوشب الكوفى إلى اليمن لنشر الدعوة للمهدى من آل محمد سنة ٢٦٨ ه وقد عرف ابن حوشب بمنصور اليمن. أنظر دكتور محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ص ٥٩ — ٦٠ أنظر : حسن بن فيض الله الهمدانى : المرجع السابق ص ٢٥ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٦٨

فخرج معهم ولكنه لم يستطع دخول اليمن فعاد إلى الحجاز غير أن وفدا آخر من اليمنيين عاد إلى طلبه سنة ٢٨٤هـ فتقدم الهادى يحيي هذه المرة واستطاع أن يستولى على «صعدة» ولكنه فشل فى دخول صنعاء فى المحرم سنة ٢٨٦هـ[١] فظلت دولته قاصرة على « صعدة » رغم زوال الدولة الزيادية ودولة بنى يعفر بعد قيام الدولة الفاطمية اليمنية التى أسسها منصور اليمن سنة ٢٦٨هـ ولم يقض على دولة الهادى وخلفائه فى « صعدة » غير على بن محمد الصليحى سنة ٤٤٠هـ حين أسس الدولة الصليحية .

وكل الذى يعنينا من هذا الامعان فى الأحداث التاريخية فى بلاد اليمن فى القرن ٣هـ هو الوقوف على دولة بنى الرسّى فى صعدة منذ أن أسسها الهادى يحيى وهو الذى استطاع أن ينتزع لنفسه حق ضرب السكة الذهبية باسمه ومن بينها الدنانير الثلاثة التى ننشرها هنا . ولكننا نلاحظ أن وزن هذه الدنانير يتراوح بين ٢٫٨٢٠ جرام و ٢٫٨٥٠ جرام ومتوسط أقطارها ٢٠ مم وإذا كان قطر هذه الدنانير يتمشى مع الدنانير الاسلامية فى العصر العباسى إلا أن أوزانها تبتعد تماماً عن الوزن الشرعى للدينار الاسلامى وهو ٤٫٢٥ جرام . وربما لجأ الهادى يحيي إلى ضرب هذه الدنانير الخفيفة الوزن لافتقار دولته الناشئة فى صعدة إلى كميات الذهب اللازمة لسك الدنانير الشرعية وربما ساعدته هذه الطريقة على ضرب كميات كبيرة من الدنانير الشيعية كى تغمر أسواق اليمن التجارية فيكون عاملا هاما فى تقوية مركزه وبث الثقة فى نفوس اليمنيين لتركيز دعائم دولته .

حول بعض الدنانير العباسية الطولونية :

أثيرت بين علماء النميات منذ سنة ١٨٧٥م مشكلة ترتبط ببعض الدنانير العباسية فى العصر الطولونى وذلك حين نشر روجرز Rogers واحدا من الدنانير العباسية[٢] يحمل بين كتابته المركزية أسفل اسم الخليفة العباسى على الظهر كلمة كوفية قرأها روجرز (إبريز) وجاء من بعده لاڤوا Lavoix سنة ١٨٨٧ م ونشر أول مجلداته

---

(١) حسين بن على الويسى : المرجع السابق ص ٢٦١

(٢) Rogers: The Coins of the Tuluni Dynasti in the International Numismata Orientala, part IV (London 1877) p. 18, Journal of the Royal Asiatic Society (New Series), T. VII, p. 283.

عن السكة الاسلامية فأشار إلى دينار عباسى آخر ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ (٨٧٢/٨٧١ م)[١] وعليه نفس الكلمة وقد قرأها لافوا (نجران) ويذكر لينبول Lane-Poole تعليقا على هاتين القراءتين يتلخص فى أن كلا القراءتين خطأ سيما وأن دينار باريس يظهر عليه اسم دار السك « مصر » بوضوح فى هامش الوجه واستقر رأى لينبول على قراءة الكلمة (بحرين) على دينار ثالث بدار الكتب المصرية مؤرخ سنة ٢٦١ هـ وأشار إلى أن كتابات هامش الوجه محذوفة[٢] وأثيرت المشكلة من جديد على يدى الدكتور ميلز Miles حين نشر قطعتين فى كتابه عن « السكة الاسلامية النادرة » سنة ١٩٥٠ وهما ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ ورسم الكلمة محرفة عما وردت على الدينارين دون أن يصل إلى تفسير لها وأعلن أنه يفتح باب المناقشة فى هذه المشكلة من جديد ما دام لم يستطع هو أو غيره قراءة هذه الكلمة رغم أنه اعتبر قراءة لافوا أكثر احتمالا[٣] ثم جاء أخيراً الأستاذ O. Grabar سنة ١٩٥٧ ونشر فى كتيبه عن النقود الطولونية القطعتين المحفوظتين فى مجموعة متحف الجامعة بفيلا دلفيا وهما ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ واعتبر الكلمة الكوفية الواردة فى أسفل كتابات مركز الظهر لغزاً يحتاج إلى الحل[٤] وختم جرابر Grabar كتيبه هذا بصورتين لظهر الدينارين كاعلان يثير انتباه الباحثين فى علم النميات العربية ، (لوحة ٦) وقد ركزت اهتمامى وقتئذ لحل هذه المشكلة وخاصة عندما أدار معى الأستاذ الدكتور باول بالوج Balog طرفا من الحديث عنها وتحمس لقراءتها على أساس أنها « يحيى » فى رأيه غير أن المسألة الآن فى نظرى غير ذلك سيما وأن الكلمة بالنسبة للباحث العربى قد تكون أيسر إلى درجة أقل مما هى عند العلماء

---

(١) Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes (Khalifes Orientaux) Paris 1887, no. 1020.

(٢) Lane-Poole : Khed. Libr., p. 84., no. 619.

(٣) Miles : Rare Islamic Coins nos., 154, 155, p. 40

(٤) Oleg Grabar : The Coinage of the T. lūnids. (N. Y., 1957) pp. 31, 32.

وقد ذكر Grabar أن الدنانير التى أثارت مشكلة الكلمة الكوفية والمعروفة لديه هى خمسة دنانير فى العالم كله أنظر ص ٣٢ ولكننا نضيف هنا إلى هذا العدد دينارين آخرين من مجموعة متحف الفن الإسلامى ٧ / ١٦٨٩٥ ، ١ / ٢١٩١٩

الغربيين. وفى متحف الفن الاسلامى ديناران من هذا النوع ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ[1].

وجه **ظهر**

المركز		المركز	
لا إله إلا			لله
الله وحده			محمد
لا شريك له			رسول
جعفر			الله
			المعتمد على الله
			تحرير

الهامش الداخلى	الهامش
بسم الله ضرب هذا الدينر بمصر سنة ثمان وخمسين ومايتين	محمد رسول الله أرسله با[لهدى ودين الحق] ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون
الهامش الخارجى	
لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله	قطر ٢٠م وزن ١٣٥ر٤ جرام سجل ١٦٨٩٥/٧

[لوحة ٥]

ورقم سجل ٢١٩١٩/١ مثل السابق ولكن الكتابة الهامشية فى الظهر كاملة ونصها:

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق

ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

قطر ٢١ م وزن ١٩٠ر٤ جرام

[لوحة ٦]

ويحمل كل من هذين الدينارين أسفل كتابة المركز نفس الكلمة موضوع المناقشة ومن ثم تكون كل القطع التى تحمل هـذه الكلمة الكوفية مؤرخة سنة ٢٥٨هـ فيما عدا دينار دار الكتب المصرية الذى ذكر لينبول أنه مؤرخ سنة ٢٦١هـ

(١) لم يشر المرحوم ناصر النقشبندى إلى أى دينار بالمتحف العراقى من هذا النوع وإن كان قد أشار إلى دينار باريس متبنيا قراءة لا ثوا وهى (نجران) أنظر ناصر السيد محمود النقشبندى : الدينار الاسلامى فى المتحف العراقى (بغداد ١٩٥٣) ص ١٤٧

ولا يظهر عليه اسم دار الضرب . على كل حال يمكن أن نحصر تاريخ ظهور المشكلة فيما بين سنة ٢٥٨هـ و سنة ٢٦١هـ إذا ما أخذنا بقراءة لينبول لقطعة دار الكتب المصرية ومن الثابت أن الكلمة الكوفية المغلقة لم ترد على دنانير العباسيين فى العصر الطولونى منذ أن تولى أحمد بن طولون مصر سنة ٢٥٤هـ كما أنها لم ترد على أية دنانير أخرى باسم المعتمد على الله العباسى (٢٥٦ — ٢٧٩هـ) بعد سنة ٢٦١هـ . ويلاحظ أن الدنانير المؤرخة سنة ٢٥٨هـ ورد عليها أسفل كتابات مركز الوجه اسم «جعفر» ابن الخليفة العباسى المعتمد على الله الذى تلقب فيما بعد بالمفوض إلى الله أما الكلمة الكوفية المغلقة فأستطيع قراءتها الآن باسم (نحرير) إشارة إلى نحرير الخادم[1]

نحرير

« نحرير » كما وردت على دينارى متحف الفن الاسلامى

رقم سجل ١٦٨٩٥/٧ ورقم ٢١٩١٩/١

الذى أرسله الموفق طلحة إلى أحمد بن طولون يطلب منه المساعدات المالية اللازمة للاستمرار فى قتال صاحب ثورة الزنج تلك الثورة التى هددت كيان الدولة العباسية منذ سنة ٢٥٥هـ[2] وكان الخليفة العباسى المعتمد على الله بعد استفحال ثورة الزنج قد أنفذ أخاه أبا أحمد طلحة سنة ٢٥٧هـ للقضاء عليها وسماه « الموفق » وقسم الدولة العباسية بين ابنه جعفر وبينه وخص الموفق بالبلاد الشرقية وولى المفوض (جعفر) البلاد الغربية « مصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان » وشرط الخليفة أن يختص كل من المفوض والموفق بعمله فلا ينظر أحدهما فى عمل

---

(١) الطبرى : الرسل والملوك (ليدن) ج ٣ ص ١٧٠٩ ، والمقريزى : خطط ج ٢ ص ١٧٨

(٢) حسن ابراهيم حسن (دكتور) : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٧ ، ص ٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢١ ويذكر ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٠ أن صاحب هذه الثورة التى قامت فى البصرة ونواحيها يقال له على بن محمد بن احمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وكان أتباعه من العبيد الزنج .

أنظر سيده كاشف وحسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ص ٣٥ حيث يذكر المؤلفان أن ثورة الزنج اشتعلت للمرة الأولى سنة ٢٥٤ هـ وانظر البلوى : سيرة ابن طولون ص ٧٧

الآخر وأن يقوم كل منهما بالنفقة على قسمه من خراج ذلك القسم وأمر بكتاب البيعة فحفظ بالكعبة [1].

غير أن هذا العمل لم يرض الموفق طلحة بل زاد حقده على الخليفة الذى خص ابنه بأغنى الولايات فاستمر يعمل على الاستئثار بالسلطة كلها حتى لم يعد للخليفة المعتمد غير «الخطبة والسكة والتسمى بامرة المؤمنين ولأخيه طلحة الأمر والنهى»[2] ولعل ذلك يفسر لنا لماذا أرسل الموفق «نحرير الخادم» إلى ابن طولون يطلب منه المعونات المالية فى الوقت الذى أرسل فيه المعتمد إلى ابن طولون كتابا يأمره فيه بضرورة حمل أموال مصر إلى دار الخلافة فى بغداد ، ويوصيه سراً بأن الموفق لم يرسل «نحرير الخادم» إلا ليستقصى أخبار ابن طولون[3] وقد تنبه ابن طولون للمهمة التى جاء لها «نحرير» الى مصر فأنزله معه فى داره بالقطائع ومنعه من الركوب ولم يمكنه من الخروج من الدار التى أنزله بها حتى وقت مغادرته مصر وتلطف ابن طولون فى الكتب التى أجاب بها الموفق ولم يزل بنحرير حتى أخذ جميع ما كان معه من الكتب التى وردت من العراق إلى مصر لاثارة بعض القواد على ابن طولون وبعث معه إلى الموفق مليون ومائتى ألف دينار وسار بصحبته ليودعه حتى العريش ، ولما وصل نحرير الخادم بالمعونات الطولونية إلى الموفق لم يرض عنها وطلب الاستحواز على خراج مصر بأجمعه ، فأنكر عليه ابن طولون ذلك واضطربت الأمور فى مصر والشام بل فى بغداد نفسها حيث تحفظ الموفق على الخليفة المعتمد وسجنه وأصبح العداء سافراً بين الموفق طلحة وابن طولون وليس غريباً فى هذه الفترة بالذات أن يضرب الموفق مجموعة من الدنانير العباسية يناهض بها أحمد بن طولون ويسجل على ظهرها اسم نحرير الخادم كمنافس لابن طولون الذى أمر الموفق بلعنه من فوق منابر المساجد الجامعة بالدولة العباسية[4] ورغم كل هذا لم ينجح الموفق فى القضاء على ابن طولون كما لم تنجح دنانيره باسم «نحرير» التى سجل عليها كذلك ضرب بمصر فى القضاء على ولاء مصر للطولونيين.

---

(١) حسن ابراهيم حسن المرجع السابق ص ٢٧

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٠ ، ص ٢٢١

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٧٨

(٤) الطبرى : الرسل والملوك ص ١٢ (الحسينية) ص ٣٠٤ انظر دائرة المعارف الإسلامية النسخة الانجليزية مادة (أحمد بن طولون) Encyclopaedia of Islam. art : «Ahmad»

متفرقات مغربية وأندلسية :

لم يلق العرب عند اقتطاع شمال إفريقيا[1] من ممتلكات الدولة البيزنطية نفس الظروف التي يسرت لهم الاستيلاء على سوريا ومصر من هذه الدولة، فقد احتاج فتح شمال إفريقيا إلى أكثر من نصف قرن وذلك بسبب المقاومات العنيفة التي لقيها المسلمون من قبائل البربر، وحتى سنة ٤٩ هـ لم تكن حملات العرب في هذه الأقاليم من إفريقيا أكثر من عمليات حربية متقطعة لم تلبث أن ترتد إلى برقة أو زويلة، ولكن يمكن القول بأن الفتوح العربية في إفريقيا حظيت بالاستقرار على يدى عقبة بن نافع الذى أسس مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ وتقدم بجيوشه المنتصرة إلى طنجة وأوغل في بلاد المغرب الأقصى حيث قتله البربر، ولكنه على أى حال كان قد شق طريقا مفتوحا أمام العرب في الشمال الإفريقي يتطلعون منه إلى أسبانيا، ورغم انشغال الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بالقضاء على مشاكل الشرق السياسية نراه يهتم بالشؤون الإفريقية فيرسل قائده زهير بن قيس البلوى إلى القيروان سنة ٦٩ هـ ولكنه يقتل في برقة سنة ٧١ هـ فيرسل بعده حسان بن النعمان سنة ٧٦ هـ[2] فيستولى على قرطاجنة ويقضى على ثورة البربر بزعامة الكاهنة، ثم حل موسى بن نصير في القيادة الافريقية محل حسان بن النعمان بعد عزله فتمكن موسى بن نصير من طرد البيزنطيين نهائيا من إفريقيا[3] كما نجح في نشر الاسلام بين قبائل البربر، وما لبث موسى بن نصير أن تمكن بمعاونة قائده طارق بن زياد من العبور إلى أسبانيا سنة ٩٣ هـ والاستيلاء

---

(١) يريد مؤرخو العرب بافريقية ولاية Africa Propria وزوجيتانيا Zeugitania وكذا الولايات البحرية الأخرى كطرابلس ونوميديا وبعض أجزاء مرطانية القيصرية ونبطابلس وتمتد في الداخل حتى واحة آمون وجزء من فزان . انظر دكتور حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب حاشية ص ٤ وكانت افريقية معتبرة ولاية عسكرية تابعة لإيطاليا في التنظيم السياسي للدولة الرومانية يحكمها Procunsul (أى قنصل سابق وهو حاكم عسكرى يسمى أيضا Eparci) فجعلها جستنيان منذ أن أنقذها من حكم الوندال ولاية مدنية مثلها مثل بيزنطة نفسها يحكمها مدير Praefect (حاكم مدنى) واختار لها واليا من أقدر ولاة الدولة هو أرخلاوس Archelaos . انظر حسين مؤنس : المرجع نفسه ص ١٤ حاشية (١) و ص ٣٣ حاشية (١)

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢١٧ و ص ٢٢٩ و ص ٣٢٩

(٣) فيما عدا مدينة سبتة الحصينة التي كانت في يد الكونت جوليان Julian حاكمها من قبل القوط . انظر حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٤٨٤

على قرطبة وطليطلة وقرمونة وأشبيلية وأخيراً أوريهويلا من دولة القوط الغربيين Visigoths وما أن أصبح موسى بن نصير سيد الأندلس حتى استدعاه الخليفة إلى دمشق سنة ٩٥ هـ فقسم موسى الممتلكات الافريقية قبل سفره بين أولاده الثلاثة فخص عبد الله بافريقية وخص عبد الملك بالمغرب وعبد العزيز بالأندلس وتوفى موسى سنة ٩٨ هـ بعد أن جرده الخليفة سليمان بن عبد الملك من ثروته وكان عبد العزيز بن موسى قد قتل بالأندلس سنة ٩٧ هـ وخلفه حفيد لموسى بن نصير هو أيوب ابن حبيب اللخمى لعدة شهور وفى نهاية سنة ٩٧هـ تولى الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى الذى ظهرت فى عهده (الأندلس) على السكة الاسلامية لأول مرة سنة ٩٨ هـ .

نذكر هذه اللمحة التاريخية قصد إلقاء الضوء على الظروف السياسية التى أحاطت بتطور السكة الأفريقية والأندلسية منذ فجر الاسلام والواقع أن غموضاً كبيراً يحيط بنقود هـذه الأقاليم العربية وخاصة فى تلك الفترة التى امتدت منذ عهد عمرو ابن العاص وفتوحه فى برقة وطرابلس [1] إلى عهد موسى بن نصير . إذ لم يكن لدى العرب فرصة لتدعيم مركزهم السياسى بله الاقتصادى فى هذه البلاد الافريقية والأندلسية فترك الخلفاء لوالى أفريقيا حرية التصرف فى إصدار السكة على الطراز المحلى حتى أصبحت نقود المغرب العربى لها شخصية مستقلة عن نقود المشرق [2] . ومن الثابت أن ولاة أفريقيا والأندلس سمحوا بتداول نفس السكة البيزنطية ذات الكتابات اللاتينية والشارات المسيحية أول الأمر ثم اتبعوا بعـــد ذلك خطوات إصلاحية تدريجية منذ عهد موسى بن نصير فضرب النقود على الطراز البيزنطى اللاتينى السائد[3] وسجل عليها نصوصاً بحروف لاتينية مقتضبة أثارت كثيراً من

---

(١) بعد الانتهاء من فتح عمرو للاسكندرية « وجه عقبة بن نافع الفهرى إلى زويلة وبرقة فافتتحها ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها » انظر ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ٢ وكذلك يذكر ابن أبى دينار القيروانى : المؤنس فى تاريخ أفريقية وتونس ج ١ ص ٢٢ و ص ٢٣ ما يؤيد هذه الحقائق « ولما فتح عمرو بن العاص مدينة مصر والاسكندرية بعث عقبة بن نافع إلى برقة وزويلة وما جاورهما من البلاد فصارت تحت ذمة الاسلام وسار عمرو بن العاص فغزا طرابلس » .

(٢) J. Walker : Catalogue of Muhammadan Coins (London 1956) p. I,

Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes. vol. I., p. XXXVIII

(٣) لم تعترف روما بغير اللغة اللاتينية فى شمال أفريقيا وليس من شك فى أنه منذ القرن الخامس الميلادى كانت اللغة اللاتينية تضرب جذورها بعمق فى التربة الافريقية انظر : دكتور ابراهيم على طرخان : شمال أفريقيا والوندال . المجلة التاريخية المصرية م ١١ – ١٩٦٣ ص ٨٣

المناقشات بين علماء النميات حين تفسيرها ، وقد استطاع الدكتور A. Guillou حصرها فى تسع وثلاثين عبارة [١] منها ستة تشير إلى الولاية التى ضرب فيها النقد واثنتان تنصان على أن السكة ضربت« بقوة الله » وثلاثة تثبت أنهاسكة ضربت على يدى موسى بن نصير وأخيراً ثمانية وعشرون نصاً دينياً صريحاً ولكن من الملاحظ مبدئياً أن معظم الحروف اللاتينية سجلها النقاش ساكنة مجردة من الحركة كما أنه لا توجد قاعدة عامة لاختيار الحروف المختصرة التى ترمز إلى الكلمة المراد إثباتها على السكة ، إلى جانب أن بعض الحروف كانت تسجل مقلوبة لاسيما السين . أما الدال واللام فكثيراً ما كانت تصطبغ بمسحة يونانية حقيقية وهكذا أصبح كل حرف تقريباً من حروف السكة العربية اللاتينية بمثابة لغز يحتاج إلى حل ، وتزداد المشكلة تعقيداً إذا عرفنا أن كثيراً من النقود الأفريقية والأسبانية فى عصر الانتقال غير متنوعة المعادن النفسية بل هى قاصرة على الذهب أو النحاس أى هى من الفلوس والدنانير فقط التى لا تحمل تاريخ السك غالباً كما أن الحروف اللاتينية لم تنقش على القوالب الأصلية بيد نقاش ماهر أو خبير باللغة اللاتينية تماماً ؛ فظهرت على هامش النقود المضروبة بهذه القوالب حروف لاتينية محورة أو ناقصة أو مطموسة بل وكثيراً ما يكون الهامش متآكلا فى أجزاء متفرقة منه وحتى القطع التى سجل تاريخها نجد الأرقام فيها متباعدة بشكل يترك مجالا لتفسيرات متعددة .

وفيما يتعلق بدور السك التى ضربت فيها النقود الافريقية والاسبانية فى عصر الانتقال من الطراز اللاتينى إلى الطراز العربى الخالص فانه مما لاشك فيه أن النقود الافريقية ضربت فى بلاد متعددة كما ضربت فى القيروان العاصمة ، بينما كانت السكة الأندلسية تضرب فى أشبيليه وطليطلة واستمرت حتى تم تعريبها فضربت فى قرطبة العاصمة وكان يشار إلى دار السك على وجه النقد بحروف مختصرة فيذكر مثلا TRPL (طرابلس) أو AFRK أو AFRC (أفريقيا) أو SPAN للتعبير عن (أسبانيا) أو Tanja [٢] وأحيانا يسجل اسم الوالى موسى بن نصير باللاتينية على ظهر القطعة هكذا M [VSE Filius NV] SIR مصحوبا بلقبه « أمير أفريقيا »

---

(١) A. Guillou: Trois Monnaies Latino-Arabes des la Collection de Jacques Morgan
. مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد م ١ العدد الأول سنة ١٩٥٣ ص ٦٢ — ٧٠

(٢) J. Walker : A Catalogue of the Arab-Byzantine and Post-Reform Umaiyad Coins (London 1956) p. xlviii nos. 159 p. 46., P. 47, Mad. 1., pp, 59. 76, 77, 78.

AMIR A [fricae] [(١)] أى أن لفظ (أمير) فى العربية سجل كما هو باللاتينية ونحن نعلم أن هذا اللفظ العربى سجل مترجما إلى الفهلوية على بعض الدراهم العربية الساسانية فى إيران [(٢)] كما ورد اللفظ كذلك مترجما إلى اليونانية كما هو AMIp على أوراق البردى بعصر منذ فجر الاسلام [(٣)] .

والخلاصة أن السكة الأفريقية والأسبانية التى وصلت إلينا من عصر الانتقال لم تخضع للتعليمات النقدية الصادرة من العاصمة المركزية « دمشق » وترك للوالى Eparci حرية التصرف فى ضرب مثل هذه السكة الاقليمية .

ولذلك أخذت السكة المغربية والأسبانية طابعا خاصا أساسه الطراز الرومانى البيزنطى ذو الحروف اللاتينية التى استمرت حتى سنة ١٠٢ هـ (٧٢٠ / ٧٢١ م) على الأقل حين ظهر أول دينار عربى خالص ضرب إفريقية[(٤)] وقد انبرى كثير من العلماء لحل رموز هذه الحروف اللاتينية التى وردت على السكة الأفريقية والأسبانية قبل تعريبها وكان أسبقهم فى هذه الجهود De Saulcy ، Karabacek و Longpérier ، Müller و Lavoix [(٥)] ثم جاءت جهود الدكتور walker فى ختام هذه المحاولات سنة ١٩٥٦ [(٦)] لتضع حدا واضحا للخلافات المتعددة فى قراءة الكتابات اللاتينية على السكة الاسلامية وفى ضوء القطع التى نشرها والكشوف الاحصائية التى أوردها يمكن أن نستنتج الحقائق الآتية عن السكة الافريقية [(٧)] .

---

(١) Ibid : no. 161. p. 60.

(٢) J. Walker : Catalogue of Muhmaamadan coins (Arab-Sassanian) no. 37, p.27.

(٣) A. Grohmann : Arabic Papyri vol. I p. 9

(٤) J. Walker : Catalogue of Muhammadan Coins (Post-Reform) no. * p. 99.

(٥) لتتبع كل هذه الجهود أنظر :

—Lettres à M. Reinaud sur quelques points de la Numismatique Arabe (Journal Asiatiques 1839-1840)

Longpérier : Documents numismatique pour servir à l'histoire des Arabes d'Espagne. (Paris 1851)

—H. Lavoix : (1) Catalogue des Monnaies Musulmanes.
Vol. I, (Khalifes Orientaux) pp. XXXIX ff. nos. 96-136
: (2) Memoire sur les dinars à légendes latines (Revue Archéologique, 8e année)

—Müller : Numismatique de l'Ancienne Afrique (Copenhagen 1862).

—Numismatische Zeitschrift T., II, p. 455 (Vienne 1870).

(٦) —J.Walker:Catalogue of Muhammadan Coins(Post-Reform)(London 1956) p. li

وقد نشر الدكتور ميلز Miles جزئين عن السكة الأسبانية إلا أنه لم يتعرض لسكة أسبانيا فى عصر الانتقال انتظارا لجهود الدكتور ووكر التى علم بها

(٧) Ibid., pp. xxxix—li

(١) أقدم الدنانير الذهبية العربية اللاتينية بصورة الامبراطور النصفية ترجع إلى ما قبل سنة ٨٥ هـ .

(٢) أقدم الفلوس النحاسية العربية اللاتينية التى تزينها صورة الامبراطور النصفية وعليها اسم موسى تنحصر فيما بين سنة ٨٠ هـ وسنة ٨٥ هـ وبعضها ضرب طرابلس .

(٣) الفلوس العربية اللاتينية بصورة الامبراطور النصفية وتحمل اسم «النعمان» (حسان بن النعمان) وعليها نصوص عربية ترجع إلى سنة ٨٠ هـ .

(٤) الفلوس التى تزينها رأس الامبراطور ونصوصها عربية لاتينية من ضرب طنجة ترجع إلى سنة ٩٢ هـ ؟ وهذا النوع نادر جدا ويوجد منه ثلاث قطع فى المكتبة الأهلية بباريس وهى مؤرخة كما توجد واحدة فى كوبنهاجن .

(٥) الدنانير العربية اللاتينية الغير مصورة وتحمل التاريخ بالاندقتيون [١] أو بدونه تنحصر فيما بين ٨٥ و ٩٥ هـ

(٦) الدنانير العربية بعد إصلاح عبد الملك للنقود فى الشرق تظهر فى إفريقيا منذ سنة ١٠٢ هـ .

أما عن السكة الأندلسية العربية اللاتينية فهى عبارة عن :

(١) مجموعة من الدنانير الغير مصورة وتاريخها بالأندقتيون أو بدونه ضرب السنوات ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ هـ ؟ من عهد موسى بن نصير الذى فتح أسبانيا وتولى الحكم فيها من ٩٣ إلى ٩٥ هـ

(٢) مجموعة من الدنانير ضربت فى عهد الوالى الحر بن عبد الرحمن الذى حكم أسبانيا فى نهاية سنة ٩٨ هـ والتاريخ ومكان الضرب بالعربية[٢]

(٣) مجموعة من الدنانير بكتابات عربية فقط ضربت بعد التعريب ابتداء من سنة ١٠٢ هـ ومجموعة من الدراهم المعربة ابتداء من ١٠٤ هـ ومجموعة ثالثة من الفلوس ابتداء من ١٠٨ هـ أو قبلها [٣] .

---

(١) الأندقتيون Indiction عبارة عن دورة سنوية مقدارها خمس عشرة سنة وتسمى « الأندقتس » من الوثائق العربية التى كتبت فى جزيرة صقلية . انظر أدولف جروهمان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية السفر الأول ص ٢٣

(٢) J. Walker : op. cit. p. 79 no. c 17.

(٣) Ibid., p. xIvii, nos. HSA. 10 p. 101., 289 p. 119, 759 p. 233

أما عن الحروف اللاتينية التى وردت على السكة الافريقية والأسبانية فى عصر الانتقال فقد كان الأستاذ لاڤوا Lavoix أكثر توفيقا فى تفسيرها وحل رموزها وتتلخص هذه الحلول فى تقسيمها إلى مجموعات ثلاث سنذكر فى كل مجموعة الحروف كما وردت على السكة ثم نأتى بتفسيرها مع وضع الحروف المضافة بين قوسين مربعين :

أولا :

INNDNIMISRCVSDS

IN N[omine] D [omi]NI MIS[e] R[i]C [ordis] V[nu]S D[eu]S

وهى تعنى بالعربية : بسم الله الرحمن الرحيم

ثانيا :

NNESDSNISISDSCVINSA

N [o]N ES[t] D[eu]S NISI S[olus] D[eu]S CVI N[on] S[ocius] A[lius]

وهى تعنى بالعربية : ولم يكن له كفوا أحد

ثالثاً :

NNESDSNISIVNSCVNNDALISIMILS

N[o]N ES[t] D [eu]S NISI VN[u]S CV[i] N[o]N D[eus] ALI[us] SIMIL[i]S

وهى تعنى بالعربية :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له

ومن الملاحظ على هذه العبارات اللاتينية أنها عبارة عن العبارات الدينية التى سجلت على السكة الأموية فى المشرق منذ تعريبها سنة ٧٧ ﻫ وهى عبارات تتفق والعقيدة الاسلامية ، غير أن السكة الافريقية والأسبانية فى عصر الانتقال اقتصرت على تسجيل شهادة التوحيد والبسملة ولم تسجل ما يشير إلى الرسالة المحمدية بالحروف اللاتينية ، وقد بدأ تسجيل مثل هذه العبارات الاسلامية باللاتينية منذ أن

فتح حسان بن النعمان قرطاجنة للمرة الثانية سنة ٧٩ هـ أو على الأكثر سنة ٨٤ هـ بعد القضاء على ثورة الكاهنة(١) .

أما السكة البرونزية من الطراز العربى اللاتينى فقد ورد على كثير منها اسم موسى بن نصير ومكان ضربها « طرابلس » مسجل باللاتينية وبعضها لا يحمل اسم مكان الضرب(٢) .

ونجد على نقود الأندلس المبكرة نفس الطراز العربى اللاتينى الذى سبق أن أشرت إليه فى السكة الأفريقية كما نقش عليها الصليب المحور على هيئة حرف T ويقوم على ثلاثة مدرجات أو أربعة وعلى الوجه الثانى نجد الكتابات اللاتينية(٣) التى تعنى IN N[omine] D[omin]I N[o]N D[eu]S N[i]S[i] D[eu]S

S[o] L[u]S N[on] D[eu]S A[lius]

بسم الله لا إله إلا الله وحده

كما سجل اسم مكان السك باللاتينية على الظهر كالآتى :

H[ic] S[o] L[i] D[us] F[e] R[i] T[us] IN SP[a] N[ia]

ضرب هذا الدينر بأسبانيا

أما التاريخ على الدنانير الأندلسية العربية اللاتينية وأجزائها فكان يحسب على أساس الاندقتيون وقد وصلت إلينا بعض القطع التى سجل عليها الأندقتيون العاشر وهو يعنى سنة ٩٣هـ والحادى عشر وهو سنة ٩٤ هـ(٤) وإلى جانب ذلك وصلت إلينا بعض القطع الذهبية العربية اللاتينية وقد سجل عليها التاريخ الهجرى بالكتابة الكوفية منذ سنة ٩٨ هـ إلى جانب دار السك (الأندلس)(٥) .

---

(١) وقد وردت معظم هذه العبارة اللاتينية على القطعة رقم P. 40 بالمكتبة الأهلية بباريس
J. Walker : op. cit. p. 72., Lavoix : op. cit., pp. XXXIX, XL.

(٢) J. Walker : op. cit., pp. 59-61. nos. 159, 160 P. 24., P. 25, P. 26, Ans 11, 161, 162, P. 27, 163, Cod. 1.

(٣) Ibid. pp. 74-80.

(٤) J. Walker : op. cit. p. 74.
وليست هذه الأمثلة على سبيل الإحصاء بل وردت قطع أخرى مؤرخة بالاندقيتون ١٢ مثلا أنظر : Ibid., P. 75.

(٥) Ibid., pp. 79, 80.

وقد أشار Longpérier إلى فلوس أندلسية من ضرب سنة ٩٨ ﻫ كما أشار تيزنهوزن Tiesenhausen إلى فلسين ضرب طنجه سنة ٩٩ﻫ وسنة ١٠٠ﻫ وفي هذه السنة الأخيرة يمكن القول بأن السكة الأندلسية قد اتجهت إلى التعريب الكامل شأنها في ذلك شأن السكة الافريقية [1] وإن كان أول الدنانير الأسبانية المعربة في الواقع ترجع إلى سنة ١٠٢ ﻫ غير أن مثل هذه القطع العربية المتفاوتة التاريخ تؤكد لنا وجود فجوة في تاريخ النميات الأسبانية فيما بين ٩٥ ﻫ و ٩٨ ﻫ وهي الفترة التي حكم فيها ولاة من أسرة موسى بن نصير كما توجد فجوة أخرى فيما بين ٩٨ ﻫ حين ضرب آخر دينار عربي على الطراز اللاتيني وسنة ١٠٢ ﻫ حين ضرب أول دينار على الطراز العربي الخالص[2] وتبعه بعد عامين أي سنة ١٠٤ ﻫ ظهور أول درهم أندلسي معرب[3] وبعد ذلك التاريخ ظهرت سكة عربية ضرب الأندلس في عهد الولاة بشكل متقطع حتى سنة ١٣٨ ﻫ حين نجح عبد الرحمن بن معاوية الأموي في الفرار من طغيان العباسيين بالشرق وتنكيلهم بالامويين ودخول الأندلس في ذي الحجة سنة ١٣٨ ﻫ (١٤ مايو سنة ٧٥٦م) وأسس الدولة الأموية[4].

ولكن ليس معنى ذلك أن الدنانير استمر ضربها من سنة ١٠٢ ﻫ على التوالي فالواقع أن هذا النوع من السكة كان قد توقف ضربه سنة ١٠٦ ﻫ ولم يظهر بعد ذلك إلا في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي (٣٠٠ — ٣٥٠ﻫ) (٩١٢ — ٩٦١م) بينما الدراهم الأندلسية في عهد الدولة الأموية بدأت سنة ١٤٦ ﻫ على نسق الدراهم الأموية المعربة منذ عهد عبد الملك بن مروان لذلك أصبح من الصعب التمييز بين دراهم كل حاكم أموي أندلسي على حدة من بين هذه المجموعات من الدراهم المتشابهة في نصوصها .

وعلى يدي عبد الرحمن الثالث بدأ عهد جديد في تاريخ السكة الأندلسية يمكن أن نسميه بعهد سكة الخلافة وهو يبدأ من ضرب سنة ٣١٦ ﻫ حتى سنة ٤٠٦ ﻫ

---

(١) Lavoix : op. cit., pp. XLIII, XLIV

(٢) Walker : op cit. p. li., Miles : The Coinage of the Umayyads of Spain (N. Y. 1950) p. 115, no. 2.

(٣) Miles : op. cit., no. b., p. 117.

(٤) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٦٨٦ ، ص ٦٩٠ ، G. C. Miles : op. cit., p. 22, 23

وقد أشار كثير من المؤرخين إلى جهود عبد الرحمن الناصر فى ضبط عيار السكة وأوزانها فى دار السك الجديدة التى أقامها فى قرطبة سنة ٣١٦ هـ :

« وفيها (أى سنة ٣١٦ هـ) أمر الناصر باقامة دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب الدنانير والدراهم وولى الخطة أحمد بن موسى بن جدير [حدير] يوم الثلثا لثلث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان وأقام الضرب فيها من هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة وصحح فى ذلك أحمد بن موسى وتحفظ وكانت مثاقيله ودراهمه عياراً محضا »[١] .

وإلى عهد الولاة وعهد الخلافة الأموية بالأندلس ترجع معظم المجموعة من النقود التى قدمها مشكوراً العالم الجليل الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب (باشا) . إلى متحف الفن الاسلامى فى ٤ مارس سنة ١٩٣٥ منذ أن كان حاكما للوطن القبلى بنايل بتونس وقد قمت على دراسة هذه المجموعة حالياً بقسم المسكوكات بالمتحف الاسلامى بالقاهرة وهى عبارة عن ٦٦ ست وستين قطعة من الدراهم الفضة الأندلسية فى عهد الخلافة الأموية بالأندلس ودراهم أفريقية كذلك من عهد الموحدين فضلا عن ثلاثة فلوس نحاسية إفريقية وأندلسية وفلس واحد ضرب دمشق وهـــذه المجموعة فى الواقع هى أبرز المجموعات الأندلسية والإفريقية بمتحف الفن الاسلامى وأهمها وقد قمت بفحص كل قطعة فيها على حدة بحيث أمكن فى النهاية ترتيبها على الوجه التالى من حيث بيان رقم سجل كل قطعة ونوعها ومقاس قطرها ومقدار وزنها وتوضيح كتاباتها من الوجهين راجياً أن تلقى هذه المجموعة ضوءاً كبيراً على نقود المغرب والأندلس فى فترات تاريخية هامة من حياة الاقليمين فى العصر الاسلامى .

---

(١) انظر المقرى : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب (طبعة دوزى) ج ٢ ص ٤٢٤ وانظر ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب (نشر دوزى) ج ٢ ص ٢١١ وانظر وانظر : G. C. Miles : op. cit. pp. 40, 41.

Sauvaire : Materiaux pour servir à l'Histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmanes (Paris 1882, pp. 327, 328).

عدد	
٦٣	دراهم فضية أندلسية برقم سجل ١٢٩١٥
٢	دراهم فضة من عهد الموحدين وهي مربعة برقم ١٢٩١٦/١ و١٢٩١٦/٢
١	درهم فضة برقم سجل ١٢٩١٧/٥
٣	فلوس نحاس إفريقية وأندلسية برقم ١٢٩١٧/٢ - ١٢٩١٧/٤
٦٩	تسعة وستون قطعة عملة يضاف إليها فلس نحاس ضرب دمشق لا نذكره هنا.



مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
						دراهم ضرب الأندلس
						١٠٥ هـ
١	١٢٩١٥/١	فضة	٢,٩١٠	٢٧	مركز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة خمس ومئة	مركز : الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد ولم يكن له كفوا أحد هامش : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (نقطة فوق حرف الدال فى كلمة (الصمد) من كتابات الهامش [لوحة ٧]
						١١٤ هـ
٢	١٢٩١٥/٢	فضة	٢.٩٥٠	٢٨	مركز : مثل رقم ١	مركز : مثل رقم ١

م	رقم السجل	المعدن	الوزن	القطر	الوجه	الظهر
					هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة أربع عشرة ومئة	هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٧]
					١١٥ هـ	
٣	١٢٩١٥/٣	فضة	٢،٩١٠	٢٣	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة خمس عشرة ومئة	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٧]
					١١٦ هـ	
٤	١٢٩١٥/٤	فضة	٢،٩٠٠	٢٥	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هـذا الدرهم سنة ست عشرة ومئة	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ ولكن توجد نقطة فوق حرف الواو من كلمة (ولم) بالسطر الثالث من كتابات المركز . [لوحة ٧]
٥	١٢٩١٥/٥	فضة	٢٠٨٩٠	٢٦		
٦	١٢٩١٥/٦	فضة	٢،٩١٠	٢٦		

١١٧ هـ

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٧	١٢٩١٥/٧	فضة	٢,٩٢٠	٢٦	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة سبع عشرة ومئة توجد نقطة فوق الحاء من كلمة (وحده) بالسطر الثانى من كتابات المركز	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٨]
٨	١٢٩١٥/٨	فضة	٢,٩٠٠	٢٨	مركز وهامش : مثل رقم ٧	مركز وهامش مثل رقم ٧ ولكن توجد نقطة فوق حرف الواو من كلمة (ولم) بالسطر الثالث من كتابات المركز والحروف عامة فى ظهر هـــذا الدرهم غير منقوشة بدقة على القالب الأصلي الذى ضرب به الدرهم . [لوحة ٨]

٩	١٢٩١٥/٩	فضة	٢:٨٥٠	٢٨	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة ثمان عشرة ومئة مكسور من هذا الدرهم جزء من دائره.	١١٨ هـ مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٨]
١٠	١٢٩١٥/١٠	فضة	٢:٨٥٠	٢٨	مركز وهامش : مثل رقم ٩	مركز وهامش : مثل رقم ٩ توجد نقطة فوق حرف الواو فى كلمة (ولم) بالسطر الثالث من كتابات المركز. [لوحة ٨]
١١	١٢٩١٥/١١	فضة	٢:٩٢٠	٢٨	مركز وهامش : مثل رقم ٩ نقطة فوق الحاء فى كلمة (وحده) بالسطر الثانى من كتابات المركز	مركز وهامش : مثل رقم ٩ نقطة فوق حرف الدال فى كلمة (يولد) بالسطر الثالث من كتابات المركز . [لوحة ٨]
١٢	١٢٩١٥/١٢	فضة	٢.٩٢٠	٢٧	مركز : مثل رقم ١	١١٩ هـ مركز : مثل رقم ١

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
					هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة تسع عشرة ومئة توجد. نقطة فوق حرف الواو من كلمة (وحده) بالسطر الثالث من كتابات المركز .	هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٨]
١٣	١٢٩١٥/١٣	فضة	٢٩٢٠	٢٨	مثل رقم ١٢	مثل رقم ١٢
١٤	١٢٩١٥/١٤	فضة	٢,٩٣٠	٢٧	مثل رقم ١٢	مثل رقم ١٢ [لوحة ٩]
١٥	١٢٩١٥/١٥	فضة	٢,٨٧٠	٢٧	١٢١ هـ مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة إحدى وعشرين ومئه . وهذا الدرهم مكسور من دائره جزء	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ نقطة كبيرة فوق حرف الواو فى كلمة (ولم) بالسطر الثالث من كتابات المركز . [لوحة ٩]

١٦	١٢٩١٥/١٦	قضة	٢:٩٠٠	٢٦	مثل رقم ١٥	مثل رقم ١٥ [لوحة ٩]
						١٦١ هـ
١٧	١٢٩١٥/١٨	قضة	٢;٤٧٠	٢٩	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة إحدى وستين ومئة	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٩]
						١٦٥ هـ
١٨	١٢٩١٥/١٩	فضة	٢ ٣٣٠	٢٦	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة خمس وستين ومئة .	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ بين كتابات السطر الثانى والثالث من المركز توجد كلمة (غ) [لوحة ٩]
						١٦٦ هـ
١٩	١٢٩١٥/٢٠	فضة	٢;٤٣٠	٢٨	مركز : مثل رقم ١	مركز : مثل رقم ١

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٢٠	١٢٩١٥/١٧	فضة	٢:٧٢٠	٢٨	هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة ست وستين ومئة . مركز : مثل رقم ١	هامش : مثل رقم ١ [لوحة ١٠] مركز : مثل رقم ١
					١٦٨ هـ	
					هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة ثمان وستين ومئة .	هامش : مثل رقم ١ [لوحة ١٠]
					١٩٥ هـ	
٢١	١٢٩١٥/٢١	فضة	٢:٧٢٠	٢٦	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة خمس وتسعين ومئة .	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ١٠]

٢٢	١٢٩١٥/٢٢	فضة	٢,٠٧٠	٢٤	مركز وهامش : مثل رقم ١ هذا الدرهم مقصوص من دائره أجزاء .	مركز وهامش : مثل رقم ١ [لوحة ١٠]
					١٩٨ هـ	
٢٣	١٢٩١٥/٢٣	فضة	٢,٤٥٠	٢٥	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة ثمان وتسعين ومئة .	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ توجد نقطة فوق حرف الواو فى كلمة (ولم) بالسطر الثالث من كتابات المركز . [لوحة ١٠]
٢٤	١٢٩١٥/٢٤	فضة	٢,٥٢٠	٢٦	مثل رقم ٢٣	مثل رقم ٢٣ [لوحة ١٠]
					٢٢٥ هـ	
٢٥	١٢٩١٥/٣٦	فضة	٢,٣٧٠	٢٥	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة خمس وعشرين ومايتين	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ١١]

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٢٦	١٢٩١٥/٢٥	فضة	٢,٣٠٠	٢٤	مركز : مثل رقم ١ هامش : (غير محدد بدائرة تفصله عن المركز) بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة تسع وعشرين ومايتين توجد دائرة صغيرة فوق حرف الكاف فى كلمة (لا شريك) بالسطر الثـالث من كتابات المركز .	٢٢٩ هـ مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ نقطة فوق حرف الواو فى كلمة (ولم) بالسطر الثـالث من كتابات المركز . [لوحة ١]
٢٧	١٢٩١٥/٢٦	فضة	٢,٠٧٠	٢٦	مركز : مثل رقم ١٢٩١٥/١ هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة تسع وثلثين ومايتين .	٢٣٩ هـ مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١٢٩١٥/أ معظم كتابات الهامش ممحوه . [لوحة ١١]

٢٨	١٢٩١٥/٢٧	فضة	٢,٦٣٠	٢٦	مركز : مثل رقم ١ هامش: (غير محدد بدائرة من الداخل) بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة تسعين ومايتين ؟	٢٩٠ هـ مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ معظم كتابات الهامش ممحوة . [لوحة ١١]
٢٩	١٢٩١٥/٦٢	فضة	٢,٦١٠	٢٧	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة إحدى وتسعين ومايتين	٢٩١ هـ ؟ مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ١١]
٣٠	١٢٩١٥/٢٨	فضة	١,٨٥٠	٢٥	مركز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له قـ[ـا] سم	٣٣٠ هـ مركز : * الامام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
					هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة ثلثين وثلثمايه (كتابات الهامش غير محددة بدائرة من الداخل تفصلها عن المركز) درهمان مشابهان فى مجموعة برلين انظر Heinrich Nützel : Katalog der Orientalischen Münzen. Vol. II nos. 177. 178.p.25	هامش : مثل رقم ١ [لوحة ١١]
٣١	١٢٩١٥/٢٩	فضة	١,٨٥٠	٢٥	مثل رقم ٣٠	مثل رقم ٣٠
٣٢	١٢٩١٥/٣٠	فضة	٣,٠٣٠	٢٤	مثل رقم ٣٠	مثل رقم ٣٠
٣٣	١٢٩١٥/٣١	فضة	١,٨٠٠	٢٣	مثل رقم ٣٠	مثل رقم ٣٠ [لوحة ١٢]
					٣٣١ هـ	
٣٤	١٢٩١٥/٣٢	فضة	١٠٧٢٠	٢٣	مركز : مثل رقم ٣٠ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة إحدى وثلثين وثلثماية . مكسور من دائره جزء .	مركز : مثل رقم ٣٠ هامش : مثل رقم ٣٠ [لوحة ١٢]

٣٥	١٢٩١٥/٢٣	فضة	٢,٥٩٠	٢٢	مثل رقم ٣٤ مكسور من دائره جزء	مثل رقم ٣٤
٣٦	١٢٩١٥/٣٤	فضة	٢,٢١٠	٢٣	مثل رقم ٣٤	مثل رقم ٣٤
٣٧	١٢٩١٥/٣٥	فضة	٢,٤٣٠	٢٤	مثل رقم ٣٤	مثل رقم ٣٤ [لوحة ١٢ و ١٣]
					٣٣٣ هـ	
٣٨	١٢٩١٥/٣٦	فضة	٢,٠٤٠	٢٣	مركز : لا إله إلا الله وحده لاشريك له محمد هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة ثلث وثلثين وثلثمايه مكسور من دائره أجزاء	مركز : * الامام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين هامش : مثل رقم ١
٣٩	١٢٩١٥/٣٧	فضة	٢,٧٥٠	٢٤	مثل رقم ٣٨	مثل رقم ٣٨ [لوحة ١٣]

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
					٣٣٤ هـ	
٤٠	١٢٩١٥/٣٨	فضة	٣،٦٢٠	٢٤	مركز : مثل رقم ٣٨ هامش : بسم الله ضرب هــــذا الدرهم بالأندلس سنة أربع وثلثين وثلثماية.	مركز : / هامش : مثل رقم ٣٨ [لوحة ١٣]
					٣٣٦ هـ	
٤١	١٢٩١٥/٣٩	فضة	٢،٣٥٠	٢٤	مركز : لا إلــه إلا الله وحده لا شريك له عبد اللــه هامش : بسم الله ضرب هــــذا الدرهم بالأندلس سنة ست وثلثين وثلثماية .	مركز وهامش : مثل رقم ٣٨ [لوحة ١٣]
					٣٧٦ هـ	
٤٢	١٢٩٠٥/٤٩	فضة	٢٠٤٤٠	٢٣	مركز : مثل رقم ١	مركز : الإمام هشام

					هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة ست وسبعين وثلثماية؟ .	أمير المؤمنين المؤيد بالله عامر هامش : محمد رسول الله ... — .. على الدين [لوحة ١٣]
						٣٧٨ هـ
٤٣	١٢٩١٥/٥٠	فضة	٢،٥٢٠	٢٣	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة ثمان وسبعين وثلثماية .	مركز : مثل رقم ٤٢ هامش : مثل رقم ٤٢ [لوحة ١٤]
						× ٣٨ هـ
٤٤	١٢٩١٥/٥١	فضة	٣،٥٢٠	٢٣	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة × وثمانين وثلثماية	مركز : مثل رقم ٤٢ هامش : محمد رسول الله . . . . المشركون [لوحة ١٤]

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
						٣٩١ هـ
٤٥	١٢٩١٥/٦٠	فضة	٣٫٢٥٠	٢٢	مركز : (زخرفة) لا إله إلا الله وحده لاشريك له محمد هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة إحدى وتسعين وثلثماية	مركز : الإمام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله عامر هامش : محمد رسول الله . . . على الدين [لوحة ١٤]
						٣٩٢ هـ
٤٦	١٢٩١٥/٥٢	فضة	٣٫٢٠٠	٢٢	مركز : لا إله إلا الله وحده لاشريك له تمليج	مركز : عـــد الإمام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله (زخرفة)

					هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة اثنتين وتسعين وثلثماية درهم مماثل فى مجموعه برلين . انظر Heinrich Nützel ; op. cit., no. 369. p. 51	هامش : محمد رسول الله . . . . على الدين [لوحة ١٤]
					٣٩٣ هـ	
٤٧	١٢٩١٥/٥٤	فضة	٢/٤١٠	٢١	مركز : ەە لا إله إلا الله وحده لا شريك له عبد الملك هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة ثلث وتسعين وثلثماية	مركز : الحاجب الإمام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله عبد الملك هامش : محمد رسول الله . . على الدين [لوحة ١٤]
					٣٩٤ هـ	
٤٨	١٢٩١٥/٥٥	فضة	٣/٠٣٠	٢٢	مركز : مثل رقم ٤٧	مركز : مثل رقم ٤٧

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٤٩	١٢٩١٥/٥٦	فضة	٣,٥٠٠	٢٢	هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة أربع وتسعين وثلمٰاية مثل رقم ٤٨	هامش : محمد رسول الله . . على الد[ين كله] [لوحة ١٤] مثل رقم ٤٨
					هـــذا الدرهم رقم ٤٩ مثقـوب من مركزه بثقب كبير	[لوحة ١٥]
					٣٩ X هـ	
٥٠	١٢٩١٥/٥٣	فضة	٣,٢٥٠	٢٢	مركز : مثل رقم ٤٧ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة X وتسعين وثلمٰاية دراهم ممـــاثلة فى برلين	مركز : مثل رقم ٤٧ هامش : محمد رسول الله . . . ليظهره على [لوحة ١٥] للأرقام من ٤٧ — ٥٠ أنظر :
					Heinrich Nützel : op. cit,, nos. 304, 305 pp. 42. 43	
					٤٠٠ هـ	
٥١	١٢٩١٥/٥٧	فضة	٣,٨٥٠	٢٣	مركز : مثل رقم ١ ولكن تعلو شهادة التوحيد خمس حبيبات فى سطر واحد ه ه ه ه ه	مركز : الامام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله

الرقم	رقم السجل	المعدن	الوزن	القطر	الوجه	الظهر
٥٢	١٢٩١٥/٥٩	فضة	٣.٧٣٠	٢٣	مركز : ٥ ٥ ٥ لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة أربع ماية	مركز : ابن مسلمه الإمام محمد أمير المؤمنين المهدى هامش : محمد رسول الله . . . . . ليظهره
					هـــذا الدرهم مثقوب عند كتابيه الهامشية فى موضعين متجاورين [لوحة ٥]	
					مركز : مثل رقم ٥١ (هامش)	هامش : محمد رسول الله . . . . . . الدين كله [لوحة ١٥]
					٤٠١ هـ	
٥٣	١٢٩١٥/٥٨	فضة	٣.٦٢٠	٢٣	مركز : سعيد لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبو يوسف	مركز : الامام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
					هامش : بسم الله ضرب هـــذا الدرهم بالأندلس سنة إحدى وأربع ماية	هامش : محمد رسول . . . . ليظهره [لوحة ١٠٥]

درهم مماثل فى برلين . انظر. Heinrich Nützel : op. cit. no. 404· p. 58

مدينة الزهراء

٣٣٩ هـ

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٥٤	١٢٩١٥/٤٠	فضة	٢,٦٧٠	٢٣	مركز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة الزهراء سنة تسع وثلثين وثلثماية	مركز: الإمام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين * هامش : محمد رسول الله . . : . المشركون [لوحة ١٠٥]
٥٥	١٢٩١٥/٤٢	فضة	٣,٢٦٠	٢٢	مركز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد	مركز : الامام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين

					هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة الزهراء سنة اثنتين وأربعين وثلثماية	هامش : محمد رسول الله. . . الدين كله [لوحة ١٦]
٥٦	١٢٩١٥/٤١	فضة	٣،٠٨٠	٢٢	مركز : مثل رقم ٥٥ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة الزهراء سنة ثلث وأربعين وثلثماية	٣٤٣ هـ مركز : مثل رقم ٥٥ هامش : (غير واضح) [لوحة ١٦]
٥٧	١٢٩١٥/٤٣	فضة	٢،٧٥٠	٢٣	مركز : مثل رقم ٥٥ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة الزهراء سنة ست وأربعين وثلثماية	٣٤٦ هـ مركز : مثل رقم ٥٥ هامش : محمد رسول الله. . . . ولو كره [لوحة ١٦]
٥٨	١٢٩١٥/٤٤	فضة	٢،٦٠٠	٢٢	مركز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له أحمد	٣٤٨ هـ مركز : مثل رقم ٥٥

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٥٩	١٢٩١٥/٤٥	فضة	٢,٨٥٠	٢٣	هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة الزهراء سنة ثمان وأربعين وثلثماية مثل رقم ٥٨	هامش : مثل رقم ٥٥ [لوحة ١٦] مثل رقم ٥٨ [لوحة ١٦]
٣٥١ هـ						
٦٠	١٢٩١٥/٤٧	فضة	٢,٧٧٠	٢٥	مركز : مثل رقم ٥٥ ولكن يعلو كتابة المركز زخرفة وفى أسفلها زخرفة هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة الزهراء سنة إحدى وخمسين وثلثماية	مركز : عبد الإمام الحكم أمير المؤمنين المستنصر بالله الرحمن هامش : محمد رسول . . . . المشركون [لوحة ١٦]
٣٥٣ هـ						
٦١	١٢٩١٥/٤٦	فضة	٢,٢٧٠	٢١	مركز : مثل رقم ١	مركز : مثل رقم ٦٠

هامش :
بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة
الزهراء سنة ثلث وخمسين وثلمائة

هامش :
مثل رقم ٦٠

هذا الدرهم مثقوب فى موضـــعين بثقبين متجاورين ويظهر أنه
كان مستعملاً كدلاية للتزينة .

[لوحة ١٧]

مدينـــة فاس

٣٩٢ هـ

٦٢	١٢٩١٥/٤٨	فضة	٤:٤٥٠	٢٤	

مركز :
لا اله الا
الله وحده
لا شريك له

مركز :
الإمام هشام
أمير المؤمنين
المؤيد بالله
عامر

هامش :
[بسم الله ضرب] هذا الدرهم بمدينة
فاس سنة اثنتين وتسعين وثلثماية

هامش :
محمد رسول الله . . . على [الدين]

درهم مماثل فى برلين انظر Heinrich Nützel : op. cit., no. 397. p. 55.

[لوحة ١٧]

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
					درهم نادر لخطأ النقاش	
٦٣	١٢٩١٥/٦١	فضة	٣،٤١٠	٢٢	مركز : لا إله الا الله وحده لا شريك له هامش : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله (سجل النقاش هذه الكتابة بدلا من تاريخ الضرب ومكانه)	مركز : الامام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله عامر هامش : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله [لوحة ١٧]
					درهم غير مؤكد	
٦٤	١٢٩١٧/٥	فضة	٢،٩٧٠	٢٠	مركز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له هامش : بسم الله ضرب هذا الد[رهم]	مركز : (غير واضح) هامش : ضرب . . . . بمالقه ؟ سنة [لوحة ١٧]

					دراهم مربعة إفريقية من عهد الموحدين	
٦٥	١٢٩١٦/١	فضة	١,٥١٠	١٣ × ١٣	(كتابات نسخية داخل مربع) لا إله إلا الله الأمر كله لله لا قوة إلا بالله	(كتابات نسخية داخل مربع) الله ربنا محمد رسولنا المهدى إمامنا [لوحة ١٧]
					ضرب بجاية	
٦٦	١٢٩١٦/٤	فضة	١,٥٠٠	١٣ × ١٣	(كتابات نسخية داخل مربع) لا إله إلا الله الأمر كله لله لا قوة إلا بالله بجاية	مثل رقم ٦٥ [لوحة ١٨]
					فلوس نحاس ضرب ٩٢ هـ	
٦٧	١٢٩١٧/٢	نحاس	٥,٦٥٠	١٩	لا إله ا لا الله و حده	ضرب فى سنة اثنتين وتسعين [لوحة ١٨]

مسلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
					ضرب طنجة	
٦٨	١٢٩١٧/٣	نحاس	٤,٣٧٠	١٩	بسم الله * [الو] فالله	أمر به عمر بطنجه * [لوحة ١٨]
					(ربما الاشارة هنا إلى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز الذى حكم من ٩٩ — ١٠١ هـ) وقد اهتم بشؤون إفريقيا والأندلس . أنظر : حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٣٥	
					فلس باسم « بلج »	
٦٩	١٢٩١٧/٤	نحاس	٣,٥٢٠	١٧	مركز : (داخل دائرة) بلج هامش : لا إله إلا الله	(كتابه داخل دائرة من خطين) محمد رسـول الله [لوحة ١٨]
					تولى بلج الأندلس ابتداء من ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ (يناير ٧٤١ م) إلى شوال ١٢٤ هـ (أغسطس ٧٤٢ م) أنظر : حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٦١٤	

تم طبع هـــذه المجلة بمطبعة
بجامعة القاهرة فى يوم الخميس
١٢ نوفمبر سنة ١٩٦٤
مدير المطبعة
على عاصم

(مطبعة جامعة القاهرة ١١٥٠/١٩٦٣/٤٥٠)

لوحة (١)





وجهي ختم من النحاس نشره Soret سنة ١٨٥٤ وهو مؤرخ ٩٤ هـ

(عن وولكر)





وجهي ختم من النحاس بمجموعة المتحف البريطاني وهو مؤرخ ٩٥ هـ

(عن وولكر)

لوحة (٢)





وجهى ختم من الرصاص بمجموعة متحف الفن الاسلامى وهو مؤرخ سنة ٩٠ هـ





رسم توضيحى لحروف وكتابات الختم بمجموعة المتحف الاسلامى

لوحة (٣)




وجهى فلس نحاس

(بمجموعة المكتبة الأهلية بباريس عن لافوا رقم ١٥٦٥)




وجهى دينار ضرب صعدة سنة ٢٩٨ هـ باسم الامام الهادى الى الحق

(متحف الفن الاسلامى رقم ١٢٨١٧/١)

لوحة (٤)





دينار ضرب صعدة سنة ٢٩٨ هـ باسم الامام الهادى الى الحق

(متحف الفن الاسلامى رقم ١٢٨١٧/٢)





دينار ضرب صعدة سنة ٢٩٨ هـ باسم الامام الهادى الى الحق

(متحف الفن الاسلامى ٧٧٠٢)

لوحة (٥)



وجهى دينار عباسى طولونى ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ
(مجموعة متحف الفن الاسلامى رقم سجل ١٦٨٩٥/٧)



رسم مكبر للدينار السابق وتظهر كلمة (نحرير) أسفل كتابات المركز

لوحة (٦١)





دينار عباسى طولونى ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ

بمجموعة متحف الفن الاسلامى رقم سجل ٢١٩١٩/١ وتظهر أسفل كتابة مركز الظهر كلمة (نحرير)



ظهر دينار عباسى طولونى وتبدو

به كلمة (نحرير)

عن Grabar

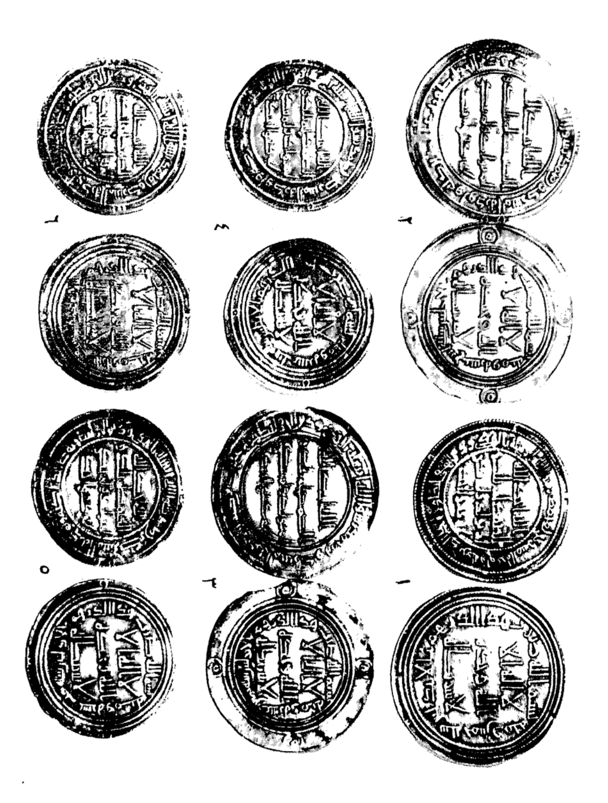


ظهر دينار عباسى طولونى وتبدو

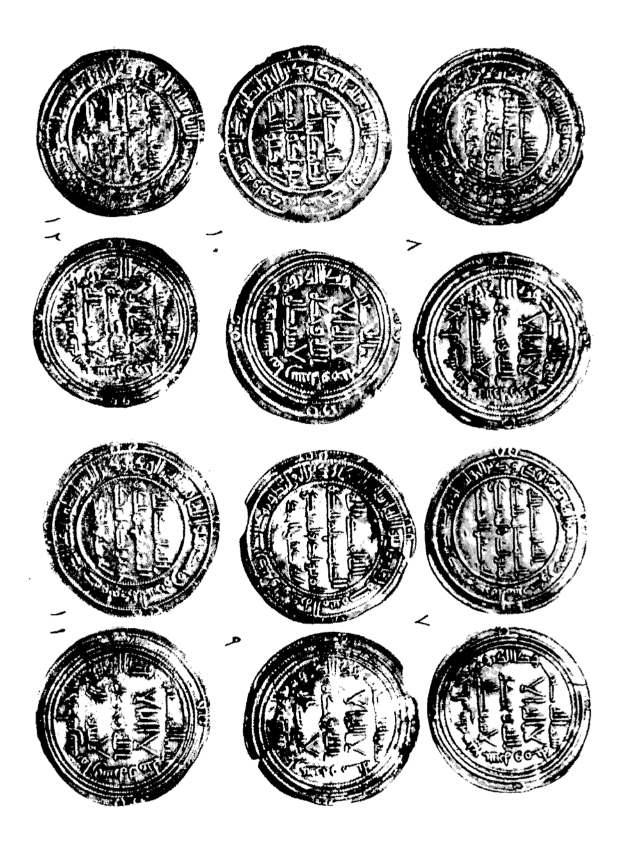
به كلمة (نحرير)

من Grabar

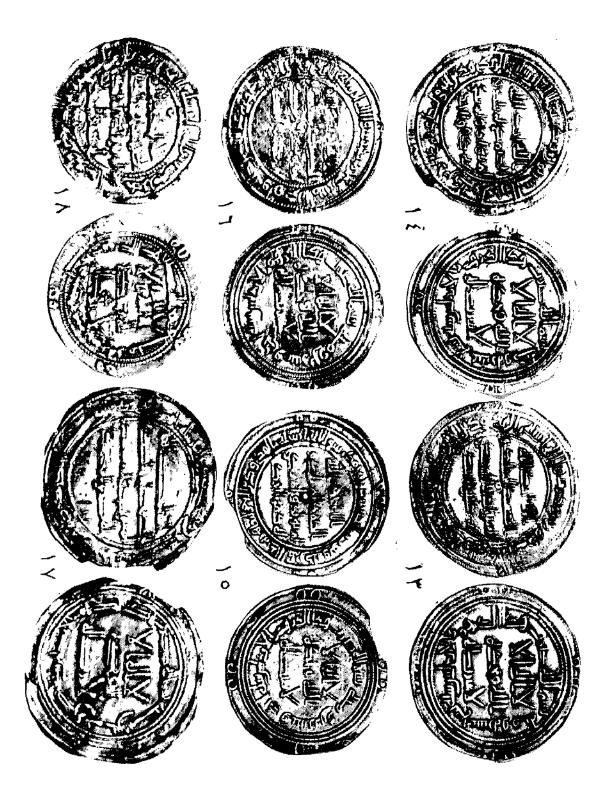
لوحة (٧)



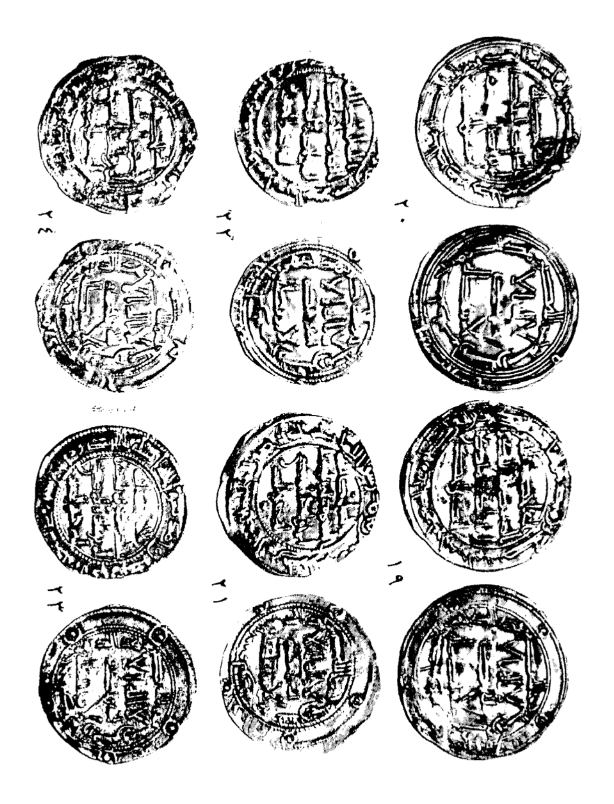
لوحة (٨)

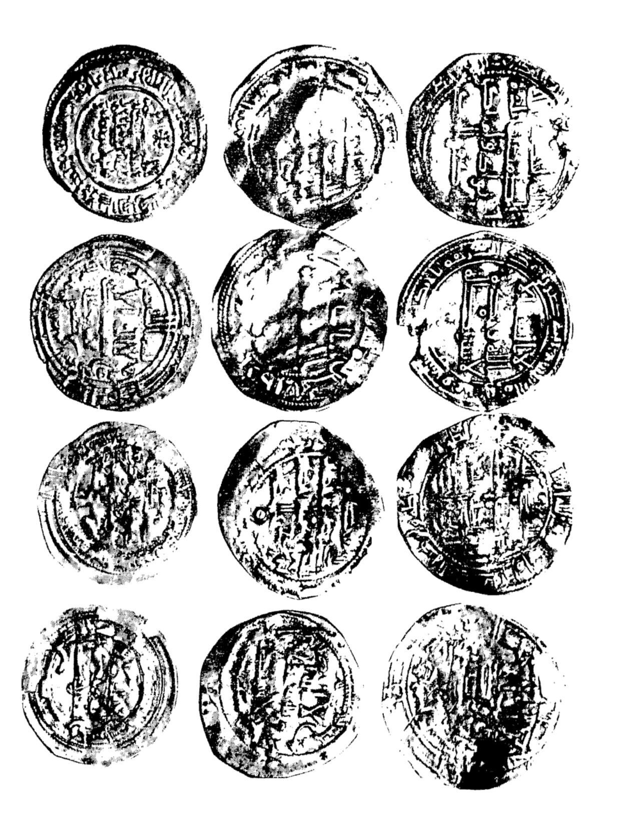


لوحة (٩)

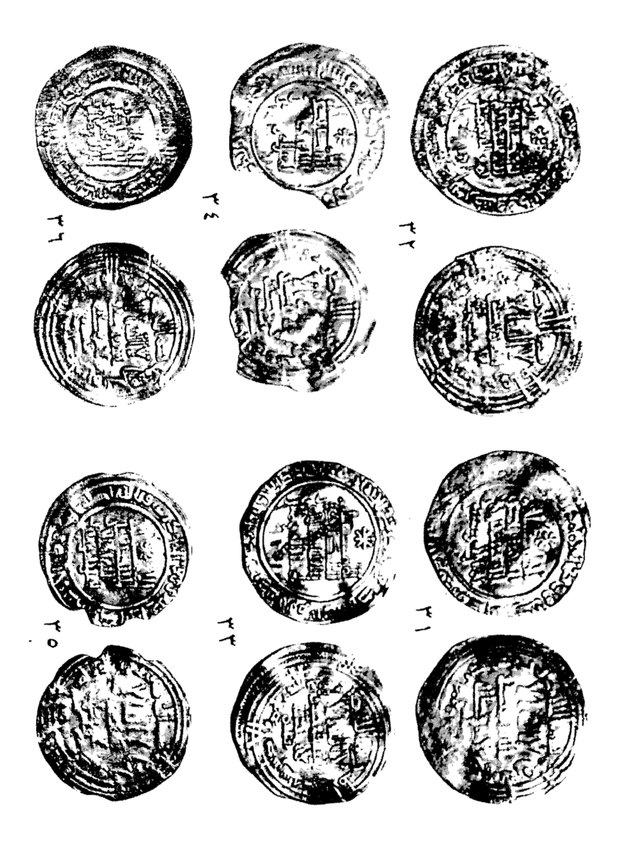


لوحة (١٠)

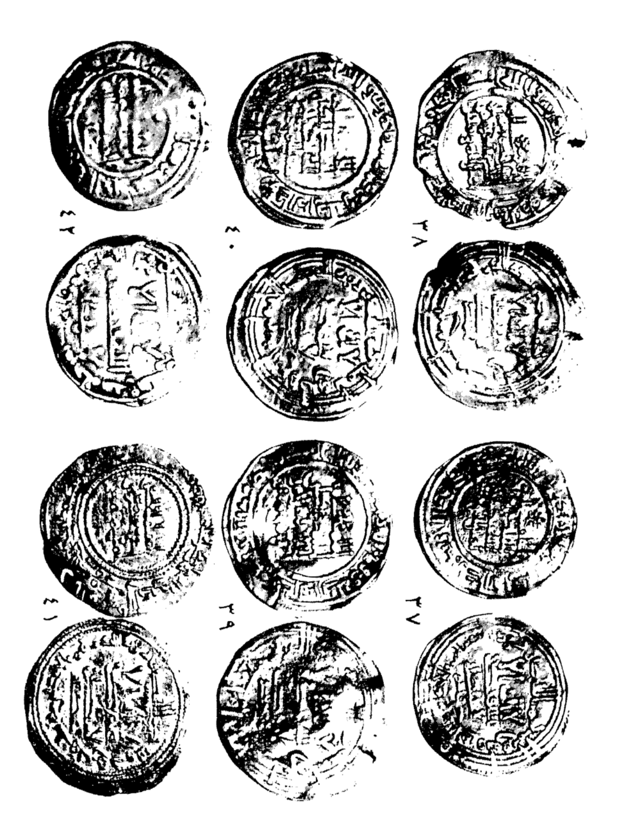




لوحة (١٢)



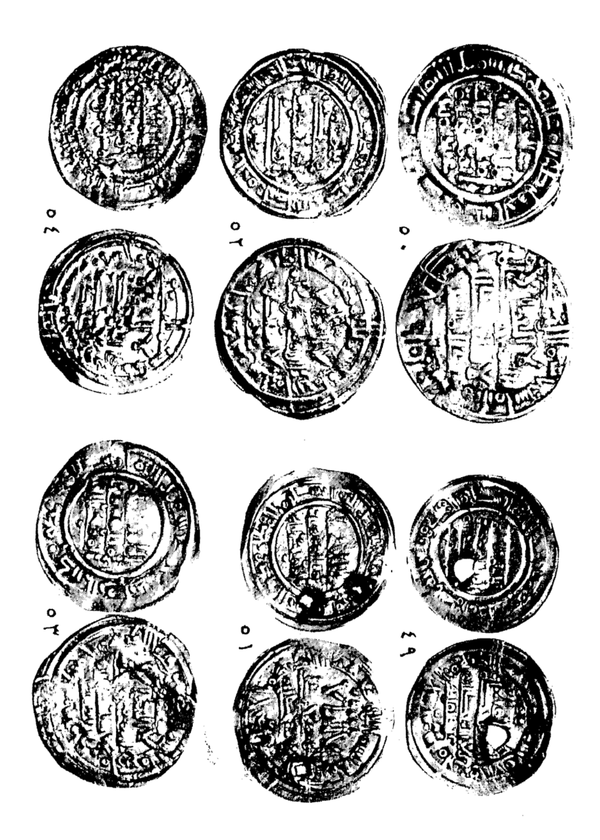
لوحة (١٣)



لوحة (١٤)



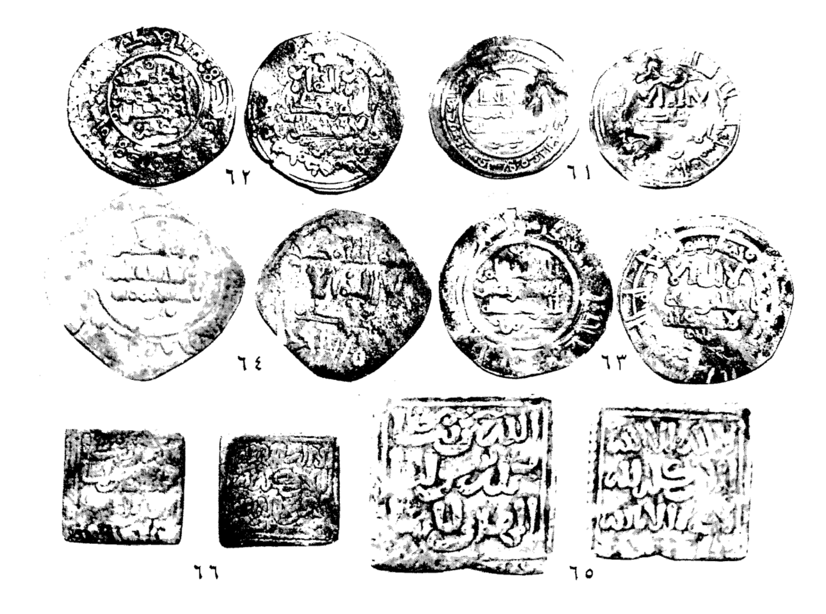
لوحة (١٥)



لوحة (١٦)



لوحة (١٧)



لوحة (١٨)



Note 48 Γραμματικῶν περίεργα γένη, ῥιξώρυχα μούσης
ἀλλοτρίης, ἀτυχεῖς σῆτες ἀκανθοβάται,
τῶν μεγάλων κηλῖδες, ἐπ' Ἠρίννῃ δὲ κομῶντες,
πικροὶ καὶ ξηροὶ Καλλιμάχου πρόκυνες,
ποιητῶν λῶβαι, παισὶ σκότος ἀρχομένοισιν.
ἔρροιτ', εὐφώνων λαθροδάκναι κόριες.

Note 53 Γραμματικοὶ Μώμου στυγίου τέκνα, σῆτες
ἀκανθῶν,
τελχῖνες βίβλων, Ζηνοδότου σκύλακες,
Καλλιμάχου στρατιῶται, ὃν ὡς ὅπλον ἐκτανύσαντες,
οὐδ' αὐτοῦ κείνου γλῶσσαν ἀποστρέφετε,
συνδέσμων λυγρῶν θηρήτορες, οἷς τὸ "μίν" ἢ "σφίν"
εὔαδε, καὶ ζητεῖν εἰ κύνας εἶχε Κύκλωψ,
τρίβοισθ' εἰς αἰῶνα κατατρύζοντες ἀλιτροὶ
ἄλλων· ἐς δ' ἡμᾶς ἰὸν ἀποσβέσατε.

Cairo Univ. Press, 1150-1963-450 ex.

Note 22

ὁ Φθόνος 'Απόλλωνος ἐπ' οὔατα λάθριος εἶπεν
«οὐκ ἄγαμαι τὸν ἀοιδὸν ὃς οὐδ' ὅσα πόντος ἀείδει».
τὸν Φθόνον ὡπόλλων ποδί τ' ἤλασεν ὧδέ τ' ἔειπεν.
«'Ασσυρίου ποταμοῖο μέγας 'ρόος, ἀλλὰ τὰ πολλὰ
λύματα γῆς καὶ πολλὸν ἐφ' ὕδατι συρφετὸν ἕλκει.
Δηοῖ δ' οὐκ ἀπὸ παντὸς ὕδωρ φορέουσι Μέλισσαι,
ἀλλ' ἥτις καθαρή τε καὶ ἀχράαντος ἀνέρπει
πίδακος ἐξ ἱερῆς ὀλίγη λιβὰς ἄκρον ἄωτον.»

Note 26

''Ακλειὴς ὅδε μάντις, ὃς οὐδ' ὅσα παῖδες ἴσασιν
οἶδε νόῳ φράσσασθαι, ὀθούνεκεν οὔτε τι λαρὸν
οὔτ' ἐρατὸν κούρη κεν ἔπος προτιμυθήσαιτο
ἠιθέῳ, εὖτ' ἂν σφιν ἐπήλυδες ἄλλοι ἔπωνται.
ἔρροις, ὦ κακόμαντις, κακοφραδές· οὔτε σε Κύπρις,
οὔτ' ἀγανοὶ φιλέοντες ἐπιπνείουσιν "Ερωτες.'

Note 30

'"Ιβις· ἔστι δὲ ποίημα ἐπιτετηδευμένον εἰς ἀσάφειαν καὶ λοιδορίαν, εἴς τινα "Ιβιν, γενόμενον ἐχθρὸν Καλλιμάχου, ἦν δὲ οὗτος 'Απολλώνιος ὁγράψας τὰ 'Αργοναυτικά.'

Note 35

ἐγκαλεῖ διὰ τούτων, τοὺς σκώπτονας αὐτὸν μὴ δύνασθαι ποιῆσαι μέγα ποίημα, ὅθεν ἠναγκάσθη ποιῆσαι τὴν 'Εκάλην.

Note 42

Καλλιμάχου τὸ τορευτὸν ἔπος τόδε· δὴ γὰρ ἐπ' αὐτῷ
ὠνὴρ τοὺς Μουσέων πάντας ἔσεισε κάλους,
ἀείδει δ' 'Εκάλης τε φιλοξείνοιο καλιὴν
καὶ Θησεῖ Μαοαθὼν οὓς ἐπέθηκε πόνους,
τοῦ σοὶ καὶ νεαρὸν Χειρῶν σθένος εἴη ἀρέσθαι,
Μάρκελλε, κλεινοῦ τ' αἶνον ἴσον βιότου.

Note 45

τοὺς κυκλίους τούτους, τοὺς αὐτὰρ ἔπειτα λέγοντας,
μισῶ, λωποδύτας ἀλλοτρίων ἐπέων.
οἱ δ' οὕτως τὸν "Ομηρον ἀναιδῶς λωποδυτοῦσιν,
ὥστε γράφειν ἤδη μῆνιν ἄειδε, θεά.

Note 46

Φεύγεθ' ὅσοι λόκκας ἢ λοφνίδας ἢ καμασῆνας
ἄδετε, ποιητῶν φῦλον ἀκανθολόγων,
οἵ τ' ἐπέων κόσμον λελυγισμένον ἀσκήσαντες,
κρήνης ἐξ ἱερῆς πίνετε λιτὸν ὕδωρ.
σήμερον 'Αρχιλόχοιο καὶ ἄρσενος ἦμαρ 'Ομήρου
σπένδομεν· ὁ κρητὴρ οὐ δέχεθ' ὑδροπότας.

APPENDIX OF GREEK TEXTS, pp. 18-20

Note 6

[Αἰὲν] ἐμοὶ ΤελΧῖνες ἐπιτρύξουσιν ἀ [λιτροὶ]
[νῆιδε] ς οἳ Μούσης οὐκ ἐγένοντο φίλοι,
[εἵνεκε] ν οὐΧ ἓν ἄεισμα διηνεκές, ἢ βασιλ [
[......] ας, ἐν πολλαῖς ἤνυσα Χιλιάσιν
5. [......] .. ους ἥρωας, ἔπος δ' ἐπὶ τυτθὸν ἐλ [ίσσω
[παῖς ἅτ] ε· τῶγ δ' ἐτέων ἡ δεκὰ [ς] οὐκ ὀλίγη.
[Φημὶ δ] ὲ καὶ Τ [ελ] Χῖσιν ἐγὼ τόδε· φῦλον ἀ [κανθές,
[σφωίτερον] τήκ [ειν] ἧπαρ ἐπιστάμενον,
[.........] .... ρέων [ὀλ] ιγόστιΧος' ἀλλὰ καθέλ [κει
10. [δρῦν πο] λὺ τὴν μακρὴν ὄμπνια Θεσμοφόρο [ς.
[.........] δυοιν Μίμνερμος ὅτι γλυκὺς α [
[........] ἡ μεγάλη δ'οὐκ ἐδίδαξε γυνή.
[Κλαγγὸ] ν ἐπὶ Θρήϊκας ἀπ' Αἰγύπτοιο [ῥοάων
[αἵματι] Πυγμαίων ἡδομένη [γ] ἐρα [νος
15. [ἔρΧεται] .. ισαι [.]. ιμα. [.........] οιον ἐπ' ἄνδρα
[..........] ... [...............] τεραι.
["Ελλετε, Βασκανίης ὀλοὸν γένος] αὖθι δὲ τέΧνη
[κρίνετε μὴ σΧοίνῳ Περσίδι τὴν] σοφίην,
[μηδ' ἀπ' ἐμεῦ διφᾶτε μέγα ψοφέο] υσαν ἀοιδὴν
20. [τίκτεσθαι· βροντᾶν δ'οὐκ ἐμόν, ἀλλ] ὰ Διός.
[Καὶ γὰρ ὅτ] ε πρ [ώ] τισ [το] ν ἐμοῖς ἐπὶ δέλτον ἔθηκα
[γούνασιν], 'Απ [ό] λλων εἶπεν ὅ μοι Λύκιος.
[«ἢ δέον α] ίέν, ἀοιδέ, τὸ μὲν θύος ὅττι πάΧιστον
[ἄμμι φέρει] ν, μοῦσαν δ' ὦ' γαθέ, λεπταλέην.
25. [Πρὸς δέ σε] καὶ τόδ' ἄνωγα, τὰ μὴ πατέουσιν ἄμαξαι
[τὰ στεῖβε] ιν, ἑτέρων (δ) 'ἴΧνια μὴ καθ' ὁμά
[δίφρον ἐλ] ᾶν μηδ' οἶμον ἀνὰ πλατὺν ἀλλὰ κελεύθους
[σπεῦδ' ἰδί] ας, εἰ καὶ στεινοτέρην ἐλάσεις.»

Note 9

Καὶ Μοισᾶν ὄρνιΧες, ὅσοι ποτὶ Χῖον ἀηδώ
ἀντία κοκκύζοντες ἐτώσια μοΧθίζοντι.

Note 18

'ΕΧθαίρω τὸ ποίημα τὸ κυκλικόν, οὐδὲ κελεύθῳ
Χαίρω τις πολλοὺς ὧδε καὶ ὧδε φέρει·
μισῶ καὶ περίφοιτον ἐρώμενον, οὐδ' ἀπὸ κρήνης
πίνω· σικΧαίνω πάντα τὰ δημόσια.

Note 20

ΚαλλίμαΧος τὸ κάθαρμα, τὸ παίγνιον, ὁ ξύλινος νοῦς.
αἴτιος ὁ γράψας Αἴτια ΚαλλίμαΧος.

Antiphanes' words against Callimachus and his school in a vehement tone particularly on their recondite learning and fondness of using obsolete pronouns (53).

Now it can be said with sufficient probability that these cruel charges of these epigrammatists are nothing more than literary exercises repeating what was actually said one day at Alexandria when the controversy raged. This is no rash assumption, since it is almost a well-known fact that the later epigrammatists' epigrams are generally copies of some previous models.

Finally we can safely assert that it was a quarrel that had arisen from differences of literary aims and tastes cherished by two counter-parties at Alexandria, the school of the innovators and that of the quasi-conservatives, whose mouthpieces were respectively Callimachus and Apollonius Rhodius.

---

(53) Anth. Pal., XI, 321. Vide Appendix of Greek Text, p. 20.

The charge of recondite learning and the use of obsolete words are generally common feature of the Alexandrian poets. Vide supra note 11.

brought to light, must have taken a part in the controversy. Of those who sided with Callimachus only Theocritus and Euphorion are known for certain, as we have already seen[44]. But a later epigrammatist, Pollianus of the second century A.D., may be taken as a partisan of Callimachus' school. This poet furiously attacked his contemporary cyclic poets on the ground that they stole others' verses and shamelessly stripped Homer of his expressions [45]. In this he can be taken as an echo of the members of Callimachus' school of his own day. Also concerning his contemporary opponents, there is no trace extant of any invective written by them against Callimachus or his school other than those of Apollonius, but it can also be inferred from the epigrams of later epigrammatists that there must have been some which had been lost. Two Augustan epigrammatists vehemently inveighed against Callimachus. Antipater of Thessalonica in an epigrammatic lampoon attacked him as an affected poet who practised effeminately decorative short poems [46]. He also censures him as a drinker of only simple water from the holy spring [47]. Again Antiphanes of Macedonia pilloried Callimachus' school for being severe critics, bookworms and fond of obscurity [48]. It was also attacked as proud of Erinna [49]. The mention of Erinna here is of paramount importance, for she is the forerunner of the Alexandrian period and the exponent poetess of the short poem [50] which was highly appreciated by the Alexandrian poets [51]. In this the epigrammatist is cunningly hinting to Callimachus' school. Phillippus of Thessalonica [52] nearly repeats

(44) Vide supra, notes 8 and 9.

(45) Anth. Pal., XI, 130, 11.1—2 and 7—8. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19. Although this epigrammatist has the same view as that of Callimachus, yet he was at the same time against Callimachus' obscurity ; Cf. θηρὶ οὐατόεντι (1.5) with οὐατόεις θὴρ, Callimachus, Fr. 320.

(46) Anth. Pal., XI, 20. Vide Appendex of Greek Texts, p. 19

(47) I.e. composer of short poems, epyllia. Cf. 1.4 with Callimachus' Hymn II, To Apollo, 1.112. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(48) Anth. Pal., XI, 322. Vide Appendex of Greek Texts, p. 20.

(49) The poetess of Telos, who belonged to Rhodes and whose surviving poetic works, though very small, are quite sufficient to show that their composer was a poetess of high promise. She wrote about the middle of the fourth century B.C. She died very young at the age of nineteen. Vide Prof. Wilamowitz, Hellenistische Dichtung in der Zeit des Kallimachos, 1924, p. 108, Prof. Rose, *op. cit.*, p. 341, Asclepiades, Anth. Pal., VII, 11 etc.

(50) The Ἀλακάτα (the Distaff, a lament for her friend Baucis) an hexametric poem containing 300 lines. Cf. Suidas, S.V. Ἤριννα, an anonymous epigram (Anth. Pal. IX, 190, 1.3) etc.

(51) Vide Anth. Pal. VII, 12 ; IX, 190, Prof. Wilamowitz, *op. cit.*, p. 108 etc.

(52) Of the Neronian age, about the middle of the first century A.D.

opinion, a work delicately executed. This epigrammatist's appreciation runs thus : « This delicately finished poem is Callimachus', for on it, indeed, he let out every reef of the Muses. He sings of the hut of hospitable Hecale, and all the toils which Marathon put on Theseus' shoulders. His young strength of hands may it be yours to win, Marcellus, and equal praise of renowned life » (42). Apollonius himself appreciated this work of his enemy. This may be assumed from the fact that he was indebted to Callimachus' Hecale of which he made use (43). He has naturally used the Hecale in his revised Argonautica, which belongs to his old age after his return to Alexandria and Callimachus' death. This can be taken as an acknowledgement on the part of Apollonius of his master's superiority and a mark of his appreciation of the epyllion created by his opponent.

After the success of the Hecale which meant the victory of an epyllion of a novel nature over the epic in imitation of the old tradition, Callimachus must have held the field to himself. We have no more vollies of invective directed against him. His enemy was already in Rhodes and would not dare to return to Alexandria after his master's positive victory. The outsiders kept silent and held their peace. His position as « arbiter litterarum » which was for a long time contested was very probably established and his school, which had been furiously attacked, was acknowledged as the distinguished school of Alexandrian poetry at least in Callimachus' life-time and perhaps for some time after his death.

This is then the story of the literary quarrel or of the controversy which engaged some Alexandrian scholar-poets for a long time. It is the story of the clash between those who clung to the old traditional epic and those who tried to break with it and strove after creating something new by means of judicious and free adaptations and who composed shorter poems possessed of new characteristics which are absolutely Alexandrian.

Although it was the stubornness of Callimachus and the defiance of Apollonius that led to this literary quarrel, yet they were not alone on the stage. Other contemporary poets, whose dicta have not been

---

(42) Anth. Pal., IX, 545. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(43) 'The Hecale became an extraordinary favourite. In the Argonauts of Apollonius, which but little later in date, its influence is noticeable' (Alfred Körte, op. cit., p. 156) ; and Of the few lines of the Argonautica that appear to be imitations of Callimachus, almost all are borrowed from the Hecale, ..., (Couat, op. cit., p. 538). See also the list given by Prof. Mair, op. cit., p. 23.

reins to his fanciful faculties in such a way that the legend becomes rather Callimachean. Thus the choice of such a legend by Callimachus in preference to well-known ones, which he disliked, because they had been in the mouth of every poet, is not strange. Scholars are sorry that only few fragments had only been discovered of this specimen of epic devised and produced as a typical Alexandrian production in sharp contrast to the epics tried by others. Fortunately the rather considerable amount of fragments brought to light now and then, now put us in a fairly good position to speak of the merits of this work. In such a general account, it is hardly suitable to enter into a detailed treatment of this Hecale ; but, as it is of novel nature, one may point out very briefly some of its chief characteristics. First of all there is originality in the treatment of the story ; for unlike the post-epic writers, who crowded their works with inexhaustible narrations of all the heroe's exploits and adventures, Callimachus, who is aware of such a tedious way of narration, departed from this convention and confined himself to one single exploit and not a very famous one. Again when he chose this adventure of his in which that old poor woman was the chief character, he gave the heroic epic quite a new meaning. In fact he meant to engage the interest of the reader with the hospitality of Hecale towards the tired and hungry Theseus which showed itself in the supper which she had prepared for him and her tales about herself. Her fears for him from the bull have nothing to do with mythology but they are real human touches [41]. In so doing Callimachus succeeded in revealing actual life and also the daily life in this poem. In the Hacale as in his hymns and all his poetic works in general, Callimachus showed himself a great story-teller with qualities of artistic ease and charm.

It may be assumed with some certainty that the Hecale was met with warm approval even from the antagonists and acquired for Callimachus new friends who thereby understood the great difference between the revived old epic on a grand scale and the novel epic or epyllia. Unfortunately we have no contemporary evidence to this effect. But an epigram of a later epigrammatist can be taken as an echo of one of the poets of Callimachus' day. Crinagoras of the Augustan age presented a copy of the Hecale to M. Claudius Marcellus, the nephew of Augustus, because it is, in the dedicator's

---

(41) One might compare the humanising treatment of Polyphemus in Theocritus, Idyll VI.

the tendency to revive epic in the Homeric manner and the superfluity of the post-epic treatment, is that he thought at last to give an example or rather a pattern of the kind of epic or still better, of epyllion which could be reckoned as a novelty and known as Alexandrian. In so doing, he gave, as it seems to me, a typical example of the epic that ought to be cultivated at Alexandria. Callimachus' choice of the theme and the way he treats his subject confirm my assumption. The subject of this work is the victory over the bull of Marathon by the demi-god Theseus who was hospitably entertained by a poor old woman called Hecale. Here Callimachus is dealing with one of Theseus' well-known exploits. The choice of this particular incident from the legends of Theseus, where an ordinary resourceless creature takes a positive part in the plot and even gave her name to the poem is a typical Alexandrian feature. The Alexandrian poets especially the epigrammatists have shown more emphatically interest in and sympathy with low classes. This is obvious in their dedicatory epigrams begun by Leonidas of Tarentum and continued by his imitators and successors. Again to choose one [39] minor exploit-compared with his expedition against the Minotaur-is typical of his way of exploring obscure myths or legends and especially the local ones, such as here [40], where he allows himself some liberty in loosing the

(39) A single poem dealing with all the exploits and adventures of Theseus would have been too long and virtually an «epic» ; Callimachus, however, would be a second Peisander or Panyassis who dealt with Heracles' twelve labours.

(40) Callimachus may have drawn his information from Philochorus (4th century B.C.), the most famous of the atthidographers (see fr. 109 and Jacoby, Atthis, the local chronicles of Ancient Athens, Oxford, 1949, p. 128). A passage in Plutarch (Life of Theseus, XIV) may reveal Callimachus' dependance on Philochorus. In this passage Plutarch speaks of Theseus' fight with the Marathonian bull and his relation to the hospitable Hecale. At the end of the passage Plutarch mentions Philochorus as a source of a special point. Moreover Naeke and Schneider (quoted in Couat, *op. cit.*, p. 381) think that Plutarch borrowed this account from Callimachus, a view which is rejected by Couat for several reasons which he mentions in pp. 381—382. In his conclusion, Couat says « In the life of Theseus there occur five quotations from Philochorus and two from Demo (another atthidographer who flourished c. 300 B.C.)............ It is natural that from among all these chroniclers he should have recourse to Philochorus, whose works on the fabled antiquities of Attica were quite indispensable for him .... Therefore, even if Plutarch had in mind the poem by Callimachus, he may none the less, will have resorted to Philochorus by preference for the exact information and critical remarks about the legend of Hecale which necessarily must have been found in that author's writings. That was the source for the passage with which I am dealing ». (Op. cit., p. 382). If we are to deduce anything from this quotation, the conclusion is that Philochorus was the the most reliable source for the Attic legend. If so, — and it is almost certain— Callimachus could hardly have used another Atthidographer. But, according to his practice, he might have adapted the legend and given it a new and sensational turn. Moreover it is likely that Plutarch used Callimachus' Epyllion among other sources without citing it as he did with the others.

meanwhile the name of Ibis' (34). In the faint light of these lines, it is not difficult to assume the nature of Callimachus' work. Callimachus must have been very cruel in his attacks ; he, so it seems, did not deride his antagonist he used to do in his other attacks wittily and humourously but charged him as a lampoonist and in the Archilochean way. His enigmatic tales are intentionally worked out, since he wished his poem to be only conceived by his and Apollonius' close friends. Finally the thing which should not be doubted is that the Ibis was a cruel charge against Apollonius and that it was very likely the last insult directed against him.

After this Callimachean, and Apollonian quarrel, the main cause of which is the difference of the two poets' attitudes concerning epic has been dealt with, it is worth mentioning that towards the close of his life, Callimachus wrote his last work, the Hecale, a mythological poem. Does this mean that he, for some reason or other, changed his mind and tried his hand at writing epic which he had so far disliked and attacked? Here a certain scholiast suggests some reasons. He states that Callimachus was compelled to write the Hecale just to prove his ability to write a long poem (35). And now the question is, 'Is it really an epic and are we to take the words of the scholiast for granted ?' Anyhow the amount of the fragments (36) and the careful studies of their contents led some eminent scholars to consider it an epyllion and not an epic(37). Moreover as Prof. Rose described it 'In form it was not exactly an epic but an episode of epic, such as we generally call an epyllion' (38). To my thinking the reason why Callimachus wrote Hecale, after he had spent the best part of his literary career fighting

(34) *Op. cit.*, 11. 55—62.

Nunc quo Battiades inimicum devovet Ibin,
Hoc ego devoveo teque tuosque modo.
Utque ille, historiis involvam carmina caecis :
Non soleam quamvis hoc genus ipso sequi.
Illius ambages imitatus in Ibide dicar
Oblitus moris iudiciique mei.
Et quoniam, qui sis, nondum quaerentibus edo,
Ibidis interea tu quoque nomen habe ; ...

(35) Scholium on the Hymn To Apollo, 1. 106. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(36) Cf. Pfeiffer, Callimachus, Vol. I, pp. 227—303.

(37) Cf. Couat, op. cit., where he discusses the different views of some scholars, pp. 373—410 and 585 sqq.

(38) *Op. cit.*, p. 321. See further note 19—on the same page : « 'Επύλλιον is passable Greek for 'little epic' but does not seem to have been used in the technical sense by any ancient. ».

say a sweet or lovely word to the youth when other strangers attend him. Begone, wicked seer, witless one ; on you neither Cypris nor the gentle Loves breathe kindly ». These lines which are of polemical nature and obviously stand out of the context (28), are evidently written against Callimachus. They practically add nothing to what Apollonius expressed in the previous epigram. His dwelling on the accusation that Callimachus does not know any thing about love and lovers' conversation is absolute nonsense (29).

That this battle was furiously fought by these two opponents, is shown clearly by the fact that Callimachus was forced to write a whole book, to which he gave the title Ibis, against Apollonius. Suidas refers to this work and his mention of the names of Callimachus and Apollonius adds weight to this document (30). Scholars have taken different views in explaining what Callimachus meant by Ibis (31) and what relations existed between this bird and Apollonius. As this book is concerned with literary questions, I quite agree with Prof. Couat (32) that the Ibis, the bird consecrated to Hermes, the god of thieves, is the nearest and most reasonable explanation conforming with what is assumed from Callimachus' attacks concerning slavish imitation. Of Callimachus' Ibis, we have no trace ; it is completely lost. But some passages in Ovid's poem of the same name—a satirical elegy of 644 verses—can give us an idea of what it was like. Ovid said that Callimachus' Ibis was a small book, exiguus libellus (33). In the first pages of his Ibis, Ovid speaks of such relations between his poem and those of Archilochus and particularly Callimachus. His words on Callimachus should be discussed, since they have important information about Callimachus' Ibis. « Now, in such way as Battiades-Callimachus-curses his enemy, Ibis, so do I curse you and your family. And like him, I will enshroud my verses in vague tales, although I am not used to follow his style. I shall be said to have imitated in my Ibis his ambiguity, forgetful of my custom and judgement. And since I do not reveal yet to those who ask me, who you are, bear you

(28) Seaton, *op. cit.*, p. VIII.

(29) See my comment on Apollonius' epigram (Anth. Pal. XI, 275, p.p. 9—10). See also Callimachus' amatory epigrams (Anth. Pal. Books V and XII).

(30) S.V. Καλλίμαχος. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(31) Follow the different discussions, Couat, *op. cit.*, pp. 536—538.

(32) *Op. cit.*, p. 538.

(33) Ovid's Ibis, 1, 449.

I do not admire the bard who does not sing as Pontos[24] (the ancestor of Telchines = Apollonius)'. Apollo spurned Envy with his foot and spoke thus : 'The stream of the Assyrian river-Euphrates-is great, but it carries much filth of earth and much rubbish on its waters. And the Melissae—Demeter's priestesses—do not carry to Deo-Demeter—water of every stream, but it is the trickling spring, pure and undefiled that springs from the holy fountain, that supremely pure element ».

The contrast held between the great Assyrian river which abounds in filth and rubbish and the small spring is of paramount importance for it reveals the fact that Callimachus, by his own practice, remained faithful to his dicta all his life by recommending poetical compositions which are brief and unpretentious. In keeping however to short poems, so it seems to Callimachus, there is a great chance for the poet to correct and revise and also much hope in neat and careful workmanship. Thus he praised Aratus' Phaenomena simply because it is the fruit of sleepless nights[25]. Now considering Callimachus' view of Apollonius and his juvenalia, it is hardly to be believed that Apollonius could have kept silent. This is generally inferred from a certain piece in the third book of the Argonautica[26] which is held to be a second edition insertion[27], that Apollonius avenged himself by a counter-reply. It is not unlikely that this last known attack was discharged from Rhodes where he had taken refuge some years before. The words which are put in the mouth of a crow, Κορώνη, Hera's messenger, runs thus : « What an ignoble seer is this, who has not the wit to conceive what the children know, how that a girl will not

(24) The translation of πόντος (1.106) by sea is attacked by Prof. Rose (A handbook of Greek Literature From Homer To The Age of Lucian, London, 1950, p. 325) who says : « I cannot admire that bard who sings not even as much as Pontos'. This at first sight would seem to mean as much as the sea' which is pure nonsense, the sea being proverbially noisy and not even therefore meaningless. It acquires a meaning, however, when we recollect that Pontos is, by one account, the father of the spiteful Telchines, and that Telchines was Callimaches' name for his literary opponents in general ». Prof. Rose owes this idea to Prof. Barber who says 'It is even possible that the mysterious πόντος of 1.106 is to be explained by reference to the ancestory of the Telchines, for Tzetzes (Theog., 81 sqq. cited by Roscher S.V. Telchinen p. 238) asserts that they were the sons of Γῆ καὶ Πόντος'. Was Apollonius pilloried as the father of the Βάσκανοι ? (Class. Rev. XLVI, 1932, p. 163—164). I am tempted to follow such opinion, although it seems far-fetched and disputed. Anyhow it suits the context.

(25) Anth. Pal. IX, 507, 11. 3—4.

(26) 11. 932—937. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(27) Mair, *op. cit.*, p. 5.

fribble, the wooden head, the originator who wrote the Aetia-Origins » [20]. In such a short epigram loaded with savage vollies of insult which is far from the nature of criticism, Apollonius avenged himself most vehemently. Taken seriously, these audacious attributes would mean that his former teacher, Callimachus, was a writer of trifling works which are void of sense, warmth and passion. In this Apollonius shows that he had no sense of aesthetic taste. How can he ignore the romantic episode of Acontius and Cydippe which forms a part of this condemned Aetia ? Or how can he underrate the charming and exotic piece on the Bath of Pallas ? These are only few examples. Again he must have been ungrateful to his teacher of whose poems he made use [21]. Anyhow one cannot hold this epigram as a piece of criticism but simply a rash lampoon at which Callimachus must have had many a good laugh. He however did not spare his pupil ; for in the epilogue of his hymn to Apollo, [22] which was manifestly added afterwords, Callimachus is thought to have carried his subtle attacks against Apollonius further. The lines are worthy of quoting : « Envy spoke [23] secretly in the ear of Apollo

---

(20) Anth. Pal. XI, 275. Vide Appendix of Greek Texts, p. 18. De auctore igitur minime constat, Apollonio Rhodio abiudicavit Bernhardy, Griech. Lit. Gesch. 111.3, p. 303, cf. Wil., GGN. 1893, p. 746 et Hell. Dich II. p. 96 sq. reddidit Apollonio Rhodio sine iusta causa M. Pohlenz, GGN, 1929, p. 153 sq. (Prof. Pfeiffer, Callimachus, II, Oxford, 1953, p. XCIX). Is it, however, reasonable to deny that Apollonius may have written one epigram once on this theme ?

(21) ·Time and again he is called the pupil of Callimachus ; his work exhibits indubitably the influence of Callimachus in metre, language and many details' (Alfred Körte, op. cit., p. 177). Prof. Pfeiffer (op. cit., Vol. II) referred to Apollonius' use of Callimachus: · in primis nunc id (de quo nemo unquam dubitare debuit) constat, Apollonium Rhodium non solum Hecalam, sed etiam Aetia passim imitatum esse. This statement is followed by some examples, cf. pp. XLI—XLII. Callimachus' works which escaped Apollonius' notice are referred to also by Prof. Pfeiffer : «Moneo neque comae Berenices neque Invectivae in Telchinas neque Hymni II certa vestigia apud Apollonium inveniri posse (p. XLII)».

(22) 11. 105—112. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(23) ὁ φθόνος (1. 105), as it is generally assumed, represents Apollonius. When Callimachus addressed the Τελχῖνες in the invective elegiac piece (Oxyrh. Pap. 2079), he meant to attack his opponents, but here he concerns himself with attacking his enemy No. I.

author must have played the part of a slavish imitator with no real ablity for digestion and wise adaptation [16].

Callimachus' harsh criticism must have filled Apollonius' heart with harted against him in such a way that a battle of words began and the quarrel continued even after Apollonius withdrew from Alexandria to Rhodes where he took temporary refuge probably shortly after his misadventure. Callimachus, however, went on with his attacks which pursued Apollonius even to Rhodes. In a rather witty and subtle epigram Callimachus may have begun his charges « I hate the trivial cyclic epic poem (or the epic poem in imitation of Homer [17])and I do not take pleasure in a road that carries many people this way and that. I loathe too the vagabond beloved and I do not drink from a fountain. I abhor all public things » [18]. Now, although the present version of the Argonautica does not abound in Homeric formulas and its author seems mild in his imitation of Homer and does not break with Alexandrian poetic conventions, this does not prevent us from assuming that Callimachus attacked the first version as having all the vices of the banal epic writers. To their pretentious banality and ambitious commonplaceness I have referred in more than one place. Again Apollonius is scoffed at as a writer of a theme which has been treated many times before him [19]. In this he is a mere slavish imitator with no originality. Such an epigram which wounded the youthful vanity of Apollonius could not be left unanswered. Thus he fiercely attacked Callimachus, the composer of the Aetia, in a polemical epigram or even a lampoon. This epigram which could be taken as a counter-reply runs thus : « Callimachus the rubbish, the

(16) This is enough for the time being. Other critical points will be given immediately in the course of the discussion of the quarrel. See further p. 8 sqq.

(17) See Supra, p. 5 and Note 10.

(18) Anth. Pal. XII, 43, 11. 1—4. Vide Appendix of Greek Texts p. 18. Some of these pronouncements are repeated in different words in that elegiac piece which Callimachus wrote in his old age which I have already dealt with. See Oxyrh, pap. No. 2079, Appendix of Greek Texts, p. 18.

(19) The tale of the Argonauts had been told often before in verse and prose, and many others' names are given in the scholia to Apollonius, but their works have perished. The best known earlier account that we have is in Pindar's fourth Pythian ode, ,from which Apollonius has taken many details (Seaton, op. cit., p. X). I may say in passing that Callimachus does not attack Apollonius because he chose a theme from the saga ; for he himself drew on the same source in his poems.

other words Callimachus asks the poets to write on new themes, to denounce slavish imitation and finally to try to be original. These are in the main Callimachus' literary ideals,[13] according to which he used to give his criticism on his contemporaries' works.

Having illustrated Callimachus' literary principles, let us turn to his antagonists, the quasi-conservatives, who cherished and practised the composition of epic both in the manner of Homer and his successors. Apollonuis Rhodius, in virtue of his priority as an Alexandrian epic writer and of literary relations with Callimachus is naturally the most considerable among these antagonists. By writing his opus magnum, the Argonautica, Apollonius had purposely defied Callimachus. It was therefore inevitable that his Argonautica could not escape notice of the authoritative critic. Thus it happened that, when Apollonius first recited a part of this youthful poetic work, which took place in all probablity about 260 B.C[14], Callimachus gave a judgement unfavourable to the epic and its author. The teacher in his condemnation of the Argonautica was followed by his pupils and partisans. But why did Callimachus condemn Apollonius' Argonautica ? In the view of Callimachus, it is a work in which Apollonius sought to continue the Homeric tradition which was out of fashion. It must[15] have been written in the traditional epic language with its set phrases and formulae, which could hardly be other than a weak and artificial echo of Homer. It must have been full of the conventional and commonplace epithets peculiar to the cyclic epic. It must have lacked the Homeric unity and the dramatic movement. In its length, although it is less than 1/3 of the Iliad and 1/2 of the Odyssey, was not in accordance with the spirit of the age which required the poets to confine their poetical products within the narrowest limits both of subject and space. Finally, as it was a youthful attempt, its

(13) These literary principles are repeated now and then by Callimachus, Cf. Anth. Pal. XII, 43 (Mair, op. cit., XXX ; Wilamowitz, 20). Vide further Callimachus' other dicta, Appendix of Greek Texts, pp. 18 (Note 18) and 19 (N. 22).

(14) Apollonius' birth is placed by scholars at various times between 296 and 280 B.C. See Seaton's discussion (Apollonius Rhodius. The Agonautica, L.C.L. London, 1922, pp. V—VII). For his first recital about 260 B.C., See Prof. Knaack, alexandrinische litteratur, PW., Vol. I, p. 1402.

(15) It must not be forgotten that the present version of the Argonautica is different from the first draft criticised and condemned by Callimachus. This latter was the result of some corrections and revisions which took place in Rhodes ; see Apollonius, Vita I, Mooney, op. *cit., p.l.*

Samos, the composer of the Persica, whose poems are partly written in the cyclic tradition, being full of minute accounts ab ovo, hackneyed episodes, and the use of epithets and formulas etc.

If Callimachus denounces the idea of epic writing either in the manner of Homer which is absolutely unattainable or in the cyclic tradition, which he greatly detested, he only recommends the composition of shorter poems, as we have already seen, which naturally conform to the typical poetic characteristics of the age (11). These poems—idyll (literary mimes, rural and urban) epyllion, hymn, iambus, lyric and epigram (12) —shoud be treated on new lines which are, according to his conception, purely and typically Alexandrian. In his subtle and dramatic way, he said that he followed Apollo's advice, who told him to frequent the roads that were not driven upon by chariots, (Oxyrh. Pap. No. 2079, 11. 25—26), to take heed not to drive his chariot in the tracks of another (ibid., 11. 26—27) and to follow his own road even it be quite narrow (ibid., 11. 27—28). In

(11) The chief characteristics of Alexandrian poetry may be roughly and briefly stated thus : Alexandrian poetry is studied and elaborated poetry, the result of a connection established between poetry and learning, distinguished by eager exploration of every field of knowledge. The poets of this period, or rather most of them, were not as those of the classical period drawing their inspiration freely from the Muses, but their inspiration was always restrained by canons laid down by the early masters of the period who were authoritative scholars of the Library and the Museum. Towards «Myth» and «Legend», almost all the Alexandrians held one attitude in common : namely the avoidance of the hackneyed. To the ambitious and industrious poet, old myth and legend (especially the latter) was looked upon as raw material to be shaped according to his own taste or as obsolete and antiquated subject matter needing to be rehandled, and modified to suit his own ends. Alexandrian poets seemed to have had an excessive interest in local legends. These legends, which are combinations of local history and mythology written in prose, existed already in the places which had given them birth. To them these were a treasure-trove for new subject matter which could add to their originality, since they were the first to deal with them in poetry and give them a romantic touch. The Alexandrian poets who introduced scientific ideas and used technical expressions in their poems, became almost realists. They began to concern themselves with portraying things from real life. In so doing they generally avoided any flights of imagination and kept down to earth. These are the most important and typical characteristics of the Alexandrian school of poetry as revealed in the works of its first masters.

(12) Is it not rather perplexing that Callimachus, whose famous dictum 'μὲγα βιβλίον μέγα κακόν' wrote a narrative elegy, the Aetia, in four books containing 3,000—4,000 lines ? Callimachus, however, must have meant epic not elegy. Moreover his Hecale which is perhaps 1,000 lines is according to Prof. Arnold Mackay Duff (Oxf. Class. Dict. p. 335, S.V. Epyllion) is hardly a pure epyllion ; for the epyllion is a poem of 100—600 lines. See further the diseussion of the Hecale (P. 13 sqq.) with the result of which I quite agree. Anyhow Callimachus' two works compared with the Argonautica (5832 lines) are naturally shorter.

at writing epic on a grand scale. But was Callimachus against the epic as a genre ? Neither Callimachus nor his oppenents were against the great epics, i.e., the Iliad and the Odyssey of Homer ; for the Alexandrians were unsurpassed in their studies of these two poems. The textual and literary criticism of some Alexandrian scholars and their treatises on Homeric questions which remained unique, prove clearly that they honour Homer and consider him the greatest of the Greek poets. But Callimachus and his partisans were convinced that he could not be rivalled nor imitated. Prof. Mahaffy's judgment on Homer may in some way express Callimachus' belief « Homer was the Bible of the Greeks, to most of them verbally inspired, and containing all kinds of perfect wisdom. But to imitate him would, on that very account, have been absurd as to imitate the old sacred books of any nation »(7). Theocritus (8) apparently supports Callimachus when his Lycidas indignantly says « So I hate those birds of the Muses—the poets—that crackled in vain rivalry against the Chian nightingale—Homer » (9).

But why then did Callimachus denounce the idea of writing epics ? First of all he thought that the age of epic had passed and secondly that it was a waste of time to try to write an epic in the manner of the unrivalled or rather inimitable Homer. It is Homer's successors, the cyclic poets or post-epic writers with their cheap, superfluous and muddled treatment of Homeric traditional material that gave Callimachus and his supporters the notion not to try any epic at all nor to tolerate those who ventured to approach it. In a rather witty and subtle epigram Callimachus expresses his hatred for the compositions of the cyclic poets ' ἐχθαίρω τὸ ποίημα τὸ κυκλικόν' (10) Although some of the epics by a number of these poets have their own merits, yet, compared to Homer's Iliad and Odyssey, they are definitely inferior. They lack at least the Homeric unity and the dramatic movement. Callimachus may have had in mind the poems of the epic revival written by Panyassis, the composer of the Heraclea, Antimachus of Colophon, the author of the Thebais and Choerilus of

(7) *Op. cit.*, p. 265.

(8) In the same way Euphorion, the composer of epyllia expressed the same thing when he said that one ought not to try to be like Homer, Frag. lxii, Meineke, quoted in Couat's op. cit., note 3, p. 518.

(9) Idyll. VII, 47—48. Vide Appendix of Greek Texts, p. 18.

(10) Anth. Pal. XII, 43, 1.1 For the meaning of «τὸ ποίημα τὸ κυκλικόν» together with a historical account, see 'My article on 'What Collimachus meant by κυκλικός in the phrase 'τὸ ποίημα τὸ κυκλικόν, Mondial Press, Cairo, 1955.

not only in revealing the tendencies of Callimachus' school but also in throwing some light on the actual and direct causes of the quarrel. These views, which he dictated to his pupils within the walls of the library and Museum, he himself followed in his literary practice. To begin with, some principles can be met with in that elegiac and polemical piece written by Callimachus in his old age in reply to his envious opponents, the Τελχῖνες, whose attacks were always directed against him (6). To my mind this passage is an excellent testimony written by a poet about himself. It throws much light on Callimachus' tendencies and technique. It is noteworthy that his method in attacking his antagonists and defending himself in this piece is rather unique. To those « wicked enemies », who accuse him of inability to compose a well constructed poem in many thousands of verses (ibid., 11. 3—5), he says that he denounces the idea of writing any epic at all (ibid., 11. 19—20), and advises them to judge the poetry by the measure of art and not by the Persian land measure (ibid., 11. 17—18). Again he replies to those who belittle him as a poet of short poems, that it is the little poems that make Mimnermus a sweet poet (ibid., 11. 11—12). His preference of the short poems to longer ones is alertly illustrated. He writes short poems in obedience to the words of Apollo who told him that incense offerings must be weighty and those of poetry should be light (ibid., 11. 22—24).

By these various pronouncements, which are coined, as we have seen, in a variety of subtle and clever images, Callimachus was not, as it may seem, defending himself as a poet of short poems but was in fact attacking his oppenents who foolishly and rashly tried their hands

---

(6) Oxyrh. pap. N. 2079. I have used the somewhat reconstructed text of Prof. Émile Cahen, Callimaque et son Oeuvre poétique, (Paris, 1929) pp. 646—647. Cf. Pfeiffer's reconstructions (Callimachus. Volumen I, Oxford. Univ. Press., London. 1949) pp. 1—8. As this text is more or less mutilated or incomplete, I only give a possible translation. This piece, 11. 1—28., is found in the Appendix of Greek Texts, P. 18. It is either an independent invective elegy or a prologue to his Aetia or even a preface to Callimachus' poetical works ; follow Couat's fairly good but indecisive discussion, *op. cit.*, p. 561. Although this piece belongs to his old age and was naturally preceded by earlier dicta, I found it more suitable to begin with it ; for it includes all Callimachus' Literary Views which he used to announce now and then when occasion urged him but also those which were not given before. It is then a sort of compendium of all his critical and literary views.

Although Callimachus and Apollonius are, in virtue of their dicta, the chief representatives of the clashing tendencies prevailing in the Alexandrian school of poetry and the champions of the quarrel, I am inclined to deal with the quarrel in a rather general way. I am tempted to do so for three reasons. First Callimachus and Apollonius were not alone ; other poets took sides in the quarrel. This fact is added evidence that the quarrel was not merely personal. Secondly a general discussion of the controversy may help in revealing the literary principles which influenced the poetic production of the Alexandrian period as a whole. These will be dealt with later on. Thirdly it would be hard to give the full story of the hostility between Callimachus and Apollonius because we lack the material sufficient to help us in pursuing the attacks and counter-attacks in any chronological order [5].

Before embarking on the subject of the quarrel, a quick survey of the literary views and pronouncements of Callimachus, the most outstanding scholar-poet and critic of his day, will undoubtedly help

---

= 1912, p. 1), the notice of Suidas, Oxyrhy. Papyrus found in 1903—4 (Oxyrhynchus Papyri, Part x, 1241, p. 99 sqq. by B.P. Grenfell and A.S. Hunt, London, 1914) and the Plautine Scholium, the only document which names Callimachus as Librarian, (Parsons, The Alexandrian Library, London, 1952, p. 106—121, and Mair, Callimachus etc. L.C.L. London, 1921, pp. 6—11). I have also seen the various views and hypotheses of the scholars who concerned themselves with the study of these documents (Cf. Parsons, *op. cit.* pp. 106—121, 141, 145, 147—149 and 153—162). The conclusion I reached is disappointing. Some of these testimonies are not self-consistent nor consistent with one another ,and practically all are full of serious mistakes which lessen or rather mar their validity. Thus I think that this question cannot be answered with any degree of certainty in the light of these present testimonies and we should patiently wait for some new evidence. Meanwhile I am inclined to think that the hostility between these two poets had nothing to do with their office in the Alexandrian Library nor with a personal strife of any sort.

(5) Concerning this quarrel, Prof. Mahaffy, J.P. (Greek Life and Thought from the age of Alexander to the Roman Conquest, London, 1887, p. 267) enthusiastically refers the reader to Couat, A. (La Poésie Alexandrine sous les trois premiers Ptólemées, 1882, English Transl. by J. Loeb, 1931, pp. 523—542). To some extent Prof. Mahaffy is right ; for Couat is one of the few scholars who took pains to give a somewhat connected account of this quarrel; but I must say that he was at a loss to give a complete and exact story. He was hampered by the same obstacles which I have just mentioned (the scarcity of documents and the impossibility of putting them in their due order). He began his account (p. 523) in these words : « The complete story of the literary quarrel is unrolled before our eyes with sufficiently great probablity ». Then in the course of his treatment (p. 532) he added : « Unfortunately too many documents have been lost to make it easy or even possible to follow the course of the quarrel ». And his disappointing conclusion on this question (p. 541) runs thus : « Such then is the story of the quarrel between Apollonius and Callimachus. I have given its main incidents, without however, being able to state with certainty in what order they followed one another ».

with the material inherited from the ancients and strive to create a new poetry woven on Alexandrian loom. They could be called the adaptors or rather the innovators. The others were those who tried to continue the old tradition by composing certain types of poetry following in the steps of the old masters and adopting their devices and even imitating them slavishly ; but they showed at the same time signs of the characteristics of the age. Their poems form a strange blend of the old and the new. They can be called the quasi-conservatives.

The tendencies of both sides, the innovators and the quasi-conservatives being such, a controversy among the members of this new school could hardly be avoided.The dicta which reached us, as we shall soon see, point to such a controversy degenerating into a quarrel, which, as it seems to me, was the earliest literary quarrel ever fought between literary men themselves[(2)] These dicta—and some of them are of polemical nature—are for the most part extant in the poems of both Callimachus and Apollonius Rhodius, Callimachus' pupil[(3)] . This led me to consider these poets as the representatives of the two opponent parties, the innovators and the quasi-conservatives, especially because they were the chief personalities on the stage of the battle.

The vigour with which the duel was fought between these two poets has led some modern scholars to think that it was not a mere difference of literary views and tastes, but it was rather some sort of personal enmity and they took different directions in explaining the real cause of this hostility. Some assume that Callimachus was jealous of Apollonius and his rising eminence as a literary figure. Others-and they are the majority-believe that Callimachus' jealousy owes its existence to the fact that his pupil was the chief librarian at the time when he was only a cataloguer, a position which is possibly lower than that of Apollonius, who might have been-so they think-his teacher's superior [(4)] . This quarrel, however, is, as we shall see, the outcome of difference of literary opinions.

---

(2) One can hardly say that such passages of Pindar, as Ol.ii, 83—86 amount to a standing literary quarrel between Pindar and his rivals. There was, no doubt, personal animosity at the court of Hiero.

(3) Suidas, S. V. Ἀριστώνυμος

(4) Alfred Körte, (Hellenistic Poetry, translated by Jacob Hammer and Moses Hadas, New York, 1929) p. 177 ; E.A. Barber, Oxf. Class. Dict. S.V. Apollonius Rhodius ; etc. This question of Apollonius' and also of Callimachus' Librarianship is most difficult and rather unsolvable. I have consulted and examined the documents available which deal with this subject : Apollonius' two « Vitae » (G.W. Mooney, the Argonautica of Apollonius Rhodius, London. =

THE LITERARY QUARREL AT ALEXANDRIA AS CHAMPIONED BY CALLIMACHUS V. APOLLONIUS RHODIUS

by

M. M. EL SALAMOUNI, Ph.D.

Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo

By the first decades of the third century B.C., when Alexandria, (under the rule of the Ptolemaic dynasty), became a Greek cultural centre and had a school of poetry of its own among the different Hellenistic literary centres, old and new, it was natural that some of the first great masters of this new Alexandrian school of poetry—the majority of whom were scholar-poets—would have thought of giving their school an independent personality which was absolutely Alexandrian. Thus it was inevitable for the early masters to occupy themselves with questions such as these : To what extent should they draw inspirations from their old masters ? On whom ought they to model their poetical types ? To what extent might the old forms be retained and revived ? In what way could these forms be adapted or changed and refined to suit the genius of the age ?

Such questions could be met with in some dicta[1]—though few in number—included in some poetic genres cultivated in this same period, which prove that two different views or rather tendencies began to show themselves at Alexandria, all of which assert that there was a controversy between two rival parties and it tended often to become violent. However painful the controversy, we owe to it literary views and pronouncements which shed some light on their manner of poetic composition and contribute to the Alexandrian science of literary criticism. On one side were the poets who were generally content

(1) These will be dealt with in discussing Callimachus' literary principles and the causes of the quarrel. See further Appendix of Greek Texts, pp. 18—20.

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year; in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin, Prof. M. H. El-Bakry, Faculty of Arts, Giza, Egypt.

Back numbers of this Bulletin are available at 30 P. T. for each Part.

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXII—PART I

MAY 1960

Cairo University Press
1964

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXII—PART I

MAY 1960

Cairo University Press

1964





المجلد الثانى والعشرون — الجزء الثانى

ديسمبر سنة ١٩٦٠

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٥





المجلد الثانى والعشرون — الجزء الثانى

ديسمبر سنة ١٩٦٠

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٥

تصدر هذه المجلة مرتين كل سـنة ، فى مايو وديسـمبر ، وتطلب من مكتبة جامعة القـاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصـة بالناحية العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور محمد حمدى البكرى الاسـتاذ بكلية الآداب بجامعة القـاهرة ، وثمن الجزء الواحـد من أى مجلد ثلاثون قرشـا مصريا .

فهرس القسم العربي

مرفولوجية الزفارف القارية

للدكتور محمد صفى الدين

الأستاذ المساعد بقسم الجغرافيا

العلاقة بين اليابس والماء :

تبلغ المساحة الإجمالية لكوكبنا « الأرض » ٥١٠٫٠١ مليون كيلو متر مربع ولا تبدو هذه المساحة الشاسعة متجانسة بأى حال من الأحوال ؛ إذ أن الخاصية الأولى التى تتسم بها الأرض إنما تتمثل فى تكوينها من يابس وماء بحيث يشغل اليابس مساحة تبلغ ١٤٨٫٩ مليون كيلو متر مربع ، ويحتل الماء ٣٦١٫١ مليون كيلو متر مربع ، وبهذا تصبح نسبة اليابس إلى الماء ١ : ٢٫٤٣ . ولكى نوضح هذه الحقيقة أكثر يمكن القول بأن اليابس يمثل ٢٩٫٢٠٪ من جملة مساحة الكرة الأرضية بينما يمثل الماء ٧٠٫٨٠٪[١] . معنى هذا إذن أن أكثر من ثلثى مساحة سطح الأرض تغمره المياه التى تظهر فى صورة محيط واسع متصل الأرجاء ، تظهر فيه بين الحين والحين نتوءات جزرية عملاقة هى التى نعرفها بالقارات[٢] . ويؤدى توزع هذه القارات إلى تقسيم وتجزئة « المحيط العالمى » إلى محيطات ثانوية — على غرار المحيطات الثلاثة الهندى والأطلنطى والهادى -- وإلى بحار داخلية وساحلية .

ويتسم توزع القارات فى المحيط العالمى بنمط خاص يتضح لنا إذا ما قورن توزيع الماء واليابس بين نصفى الكرة الشرقى والغربى ، إذ أن الكتلة العظمى من اليابس وهى التى أسماها « ماكندر Halford Mackinder » بالجزيرة العالمية ، توجد

---

(١) Albert Defant «Physical Oceanography». London, 1961, pp. 2-3

(٢) R.E. Coker «The great and wide sea». The University of N. Carolina press, 1954, pp. 65-66

فى نصف الكرة الشرقى أما نصفها الغربى — حيث توجد قارتا العالم الجديد وجزيرة جرينلند فلا يضم إلا خمس مساحة اليابس ، وحتى القارة القطبية الجنوبية (أنتاركتيكا) التى توجد فى نصف الكرة الجنوبى فى عروض أعلى من ٧٠° جنوبا ، تتميز هى الأخرى بأن ثلثى مساحتها تقع فى نصف الكرة الشرقى . وإذا ما عقدت مقارنة مماثلة بين نصفى الكرة الشمالى والجنوبى لوجدنا أن نسبة مساحة اليابس إلى المساحة الكلية لنصف الكرة الشمالى تبلغ ٣ر٣٩٪ فى حين أن نسبة الماء تصل إلى ٧ر٦٠٪ . وأما فى نصف الكرة الجنوبى فيترامى اليابس فوق نحو ١ر١٩٪ من مساحته بينما تحتل المياه منه نسبة تبلغ ٩ر٨٠٪ . وتدل هذه الأرقام على أن اليابس يحتل زهاء خمس مساحة نصف الكرة الشمالى ، بينما تغمر المياه ثلاثة أخماسه ، هذا فى حين أن مساحة اليابس فى نصف الكرة الجنوبى لا تزيد على خمسه ، أى نصف مساحة اليابس فى نصف الكرة الشمالى .

وعلى هذا الأساس يمكن تصور دائرة وهمية تقسم الأرض إلى نصف مائى ونصف يابس ، ويقع قطب النصف اليابس عند تقاطع خط عرض ٢٥َ ٤٧° شمالا مع خط طول ٥َ ٢° غربا وذلك بالقرب من مصب نهر لوار Loire فى فرنسا . ويتألف هذا القسم من الكرة الأرضية من ٧ر٥٢٪ ماء ، ٣ر٤٧٪ يابس ، أى بنسبة ١ : ٩٠ر٠ . دلالة على أن مساحة الماء تفوق قليلا مساحة اليابس . أما مركز النصف المائى ، فموضعه تقاطع خط عرض ٢٥َ ٤٧° جنوبا مع خط طول ٥ر١٧٧° شرقا فى جنوب شرق نيوزيلنده ، ويتكون هذا النصف من الكرة من ٥ر٩٠٪ ماء ، ٥ر٩٪ يابس أى بنسبة ١ : ١١ر٠ ، أى أن اليابس فى نصف الكرة المائى لا يشغل منه إلا عشر مساحته تقريبا[1] .

ويتميز توزيع اليابس والماء فى العروض المختلفة بأنه أبعد ما يكون عن الانتظام كما يتضح لنا من الجدول التالى : (ومن شكل ١ ، ٢) .

---

(1) A. Defant, op. cit., p. 3

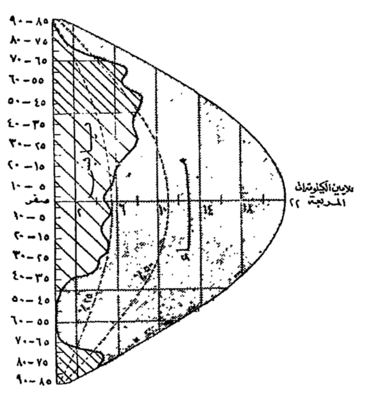
جدول رقم (١)
توزيع اليابس والماء فى العروض المختلفة

المنطقة العرضية	النصف الشمالى		النصف الجنوبى	
	٪ للماء	٪ لليابس	٪ للماء	٪ لليابس
٩٠ — ٨٥	١٠٠	—	صفر	١٠٠
٨٥ — ٨٠	٨٥ر٢	١٢ر٨	صفر	١٠٠
٨٠ — ٧٥	٧٧ر١	٢٢ر٩	١٠ر٧	٨٩ر٣
٧٥ — ٧٠	٦٥ر٥	٣٤ر٥	٣٨ر٦	٦١ر٤
٧٠ — ٦٥	٢٨ر٧	٧١ر٣	٧٩ر٥	٢٠ر٥
٦٥ — ٦٠	٣١ر٢	٦٩ر٨	٩٩ر٧	٠ر٣
٦٠ — ٥٥	٤٥	٥٥	٩٩ر٩	٠ر١
٥٥ — ٥٠	٤٠ر٧	٥٩ر٤	٩٨ر٥	١ر٥
٥٠ — ٤٥	٤٣ر٨	٥٦ر٢	٩٧ر٥	٢ر٥
٤٥ — ٤٠	٥١ر٢	٤٨ر٨	٩٦ر٤	٣ر٦
٤٠ — ٣٥	٥٦ر٨	٤٣ر٢	٩٣ر٤	٦ر٦
٣٥ — ٣٠	٥٧ر٧	٤٢ر٣	٨٤ر٢	١٥ر٨
٣٠ — ٢٥	٥٩ر٦	٤٠ر٤	٧٨ر٤	٢١ر٦
٢٥ — ٢٠	٦٥ر٢	٣٤ر٨	٧٥ر٤	٢٤ر٦
٢٠ — ١٥	٧٠ر٨	٢٩ر٢	٧٦ر٤	٢٣ر٦
١٥ — ١٠	٧٦ر٥	٢٣ر٥	٧٩ر٦	٢٠ر٤
١٠ — ٥	٧٥ر٧	٢٤ر٣	٧٦ر٩	٢٣ر١
٥ — صفر	٧٨ر٦	٢١ر٤	٧٥ر٩	٢٤ر١

ويتضح لنا من الجدول السابق ما يلى :

(أولا) أن المنطقة القطبية فى نصف الكرة الشمالى يسودها الماء وخاصة فيما بين خطى عرض ٩٠° ، ٧٠° شمالا فى حين أننا نلاحظ عكس هذا تماماً فى نصف الكرة الجنوبى حيث يسود اليابس فى كل أنحاء المنطقة القطبية فى نفس العروض . ويرجع هذا إلى أن المنطقة القطبية الشمالية عباره عن حوض بحرى يحيط به سياج

من اليابس بينما تمتد فوق نظيرتها فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية كتلة قارية كبيرة تزيد على مساحة القارة الأوربية .



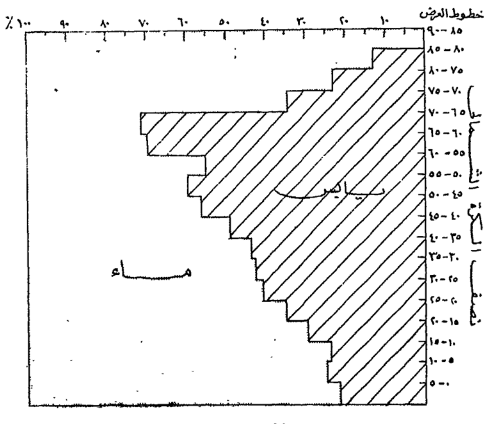
شكل (١) توزيع اليابس والماء فى نصفى الكرة

(ثانيا) يسود اليابس فى نصف الكرة الشمالى فيما بين خط عرض ٧٠° و ٤٥° شمالا بينما يسود الماء فى نفس العروض فى نصف الكرة الجنوبى ، بل يتجاوزها إلى كل العروض الدنيا ، بحيث يمكن القول إجمالا بأن الماء يغطى أكثر من ثلاثة أرباع مساحة سطح الأرض فى جل انحاء نصف الكرة الجنوبى وذلك فى العروض الأدنى من خط عرض ٧٠° جنوبا

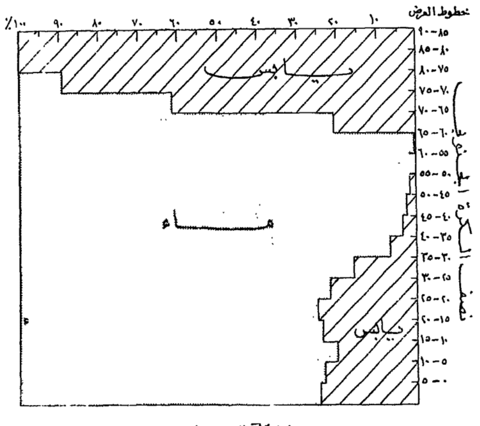
(ثالثاً) يكاد يتساوى توزع الماء واليابس فى نصف الكرة الشمالى فى العروض التى تنحصر بين خطى ٦٠° و ٣٠° شمالا وهى بعينها العروض التى تكاد تتوزع فى نطاقها أغلب الدول المتقدمة من الناحية التكنولوجية[١] . أما فى نصف الكرة الجنوبى فلا يتساوى توزع اليابس والماء على الاطلاق .

---

(١) H. A. Marmer «The Sea». New York, 1930, p. 88.



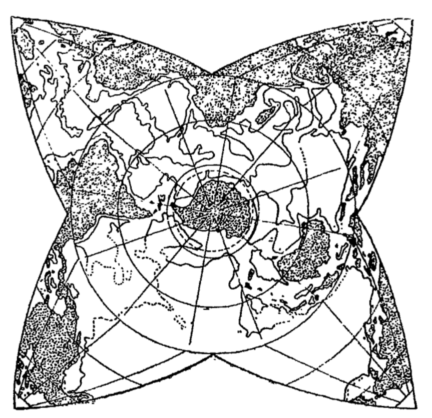
شكل (٢ ـ أ)



(شكل ٢ ـ ب)

(رابعاً) يسود اليابس فى نطاقين من نطاقات خطوط العروض ، يقع أحدهما فى نصف الكرة الشمالى فيما بين خطى عرض ٧٠° و ٤٥° شمالا عبر أوسع امتداد لقارتى أوراسيا وأمريكا الشمالية ، ويقع النطاق الثانى فى نصف الكرة الجنوبى فى العروض الأعلى من خط ٧٠° جنوبا حيث توجد قارة أنتاركتيه .

(خامسا) تمثل مياه المحيطات نطاقاً متصلا يطوق كل أنحاء نصف الكرة الجنوبى ـ بحيث يكاد يختفى اليابس اختفاءاً تاماً منه ـ وذلك فى العروض التى تنحصر فيما بين خطى عرض ٥٥° و ٦٥° جنوبا . وتلتقى مياه المحيطات الثلاثة الهادى والأطلنطى والهندى بمياه هذا المحيط الدائرى الجنوبى Southern Circumpolar Ocean[1] (شكل ٣) وتصبح هذه المحيطات الثلاثة أشبه ما تكون بأذرع عملاقة لهذا المحيط ممدودة نحو الشمال ومتعمقة فى نصف الكرة الشمالى ، ولو أن المحيط الهندى عبارة عن «نصف محيط» لأن يابس نصف الكرة الشمالى يسده ويغلقه من الشمال .



شكل (٣) المحيط الجنوبى بمسقط شتاينهاور النجمى

(١) يسمى أحيانا بالمحيط الجنوبى Austral Ocean أو المحيط الانتاركتى

وعلى الرغم من أن المحيطات الثلاثة تبدو كخلجان للمحيط الدائرى الجنوبى ، إلا أننا نلاحظ أن توزع كتل القارات هو الذى ساعد على ظهور كل محيط بحدود واضحة المعالم ، وإن كان انسياح الماء فى نصف الكرة الجنوبى يقف حائلا دون إمكان تخطيط الحدود الجنوبية التى تفصل المحيطات بعضها عن البعض الآخر تخطيطا جامعا مانعا ، مما حدا بعلماء الأوقيانوغرافيا إلى رسم حدود اعتبارية للمحيطات فى العروض العليا فى نصف الكرة الجنوبى[1] .

وينقسم كل محيط بدوره إلى أقسام ثانوية لكل قسم منها حدود مورفولوجية تتسق مع سواحل الكتل القارية ، فهنالك – على سبيل المثال – فرق واضح بين المحيط الواسع المفتوح وبين بحر يتخلل اليابس القارى أو مجموعات من الجزر . ولهذا كثيراً ما يطلق على البحار المنفصلة عن المحيطات والممدودة إلى درجة ما فى صلب اليابس – يطلق عليها اسم البحار المجاورة Adjacent Seas ، كما أن هنالك بحاراً هامشية Marginal وأخرى متوسطية Mediterranean وغالبا ما يكون الحد الفاصل بين المحيط الواسع والبحر المجاور (أو الهامشى أو المتوسطى) حداً طبوغرافيا .

تحليل المنحنى الهيبسومترى للكرة الارضية :

نخلص من العرض السابق لتوزع اليابس والماء على سطح الأرض إلى أن هذا التوزيع أبعد ما يكون عن الإنتظام ، وأن سواحل «الخلجان المحيطية» الثلاث حددتها مورفولوجيا حواف الجزر القارية . وقد يعن لنا هنا أن نتساءل عما إذا كانت حدود القارات التى تمثلها خطوط السواحل الحالية هى الحدود الحقيقية التى تفصل بين اليابس والماء ، أم أن هنالك نطاقات هامشية من القارات تغوص وتختفى تحت مياه المحيطات ومن ثم تمثل حوافها الحدود المورفولوجية الفاصلة حقيقيا بين الماء واليابس وهل مثل هذه الهوامش الغائصة تعد جزءاً من الماء أو من اليابس ؟

وللرد على هذين التساؤلين ، ينبغى لنا أن نحلل ما يعرف بالمنحنى الهبسومترى لسطح الكرة الأرضية المختلفة سواء ما يقع منها فوق مستوى سطح البحر أو دونه .

---

(٢) رسمت الحدود بين المحيطات الثلاثة فى العروض العليا من نصف الكرة الجنوبى بمقتضى اتفاقية دولية وقعت فى موناكو سنة ١٩٣٧ عن طريق المكتب الهيدروجرافى الدولى International Hydrographic Bureau

وقد كان «الفرد لوثر فجنر Alfred Lothar Wegenner» أول من قام بدراسة إحصائية لهذا الموضوع وأورد خلاصتها في جدول على النحو التالي[1] .

جدول رقم (٢)

المنسوب بالكيلو متر	فوق مستوى سطح البحر ٪ للأراضي الواقعة
صفر — ١	٢١ر٣٪
١ — ٢	٤ر٧ ٪
٢ — ٣	٢ر٠ ٪
أكثر من ٣	١ر٢ ٪
مجموع اليابس	٢٩ر٢٪

العمق بالكيلومتر	٪ للأراضي الواقعة دون مستوى سطح البحر
صفر — ١	٨ر٥ ٪
١ — ٢	٢ر٩ ٪
٢ — ٣	٤ر٧ ٪
٣ — ٤	١٣ر٩٪
٤ — ٥	٢٣ر٣٪
٥ — ٦	١٦ر٥٪
أكثر من ٦	١ر٠ ٪
مجموع المحيط	٧٠ر٨٪

ويتضح لنا من الجدول السابق ما يأتي :

١ — أن القدر الأعظم من مساحة اليابس (أكثر من ٧٠٪) أو ٢١ر٣٪ من المساحة الاجمالية للأرض ، يقع فوق مستوى سطح البحر على منسوب أدنى من كيلو متر (٣٣٠٠ قدم) .

٢ — أن أكثر من نصف المساحة الاجمالية للمحيط (٥٧٪) أو ٤٠ر٨٪ من المساحة الكلية للأرض ، يقع دون مستوى سطح البحر على عمق يزيد على الأربعة كيلو مترات .

٣ — أن نحو ٣٢٪ من مساحة المحيط (٢٣ر٣٪ من مساحة الكرة الأرضية) يقع على عمق يتراوح بين الأربعة والخمسة كيلو مترات دون مستوى سطح البحر .

على أن دراسة « فجنر » (١٩١٢) كان بها شيء من القصور خاصة وأن الدراسات الأوقيانوغرافية كانت وقتذاك ما زالت في مهدها ، ولم تكن أعماق

---

(١) W. F. Hume «Terrestrial Theories». Cairo, Govt. press, 1948 pp. 46-48.

المحيطات قد تم سبرها، كما لم تكن هنالك أية خرائط مورفولوجية للمحيطات فيما عدا الخريطة التى نشرها جرُل Groll (فى سنة ١٩١٢) بمقياس ١ : ٤٠ مليون .

وبمضى الوقت ، تمكن الباحثون من دراسة تضاريس قاع المحيط عن طريق تحليل خطوط العمق المتساوى isobaths التى رسمت فوق قاع البحر بنفس الكيفية التى تنشأ بها خطوط الكنتور على اليابس ، كما ظهرت بعض الخرائط المرفولوجية الدقيقة التى ولو أنها لا تغطى كل المحيطات ، إلا أنها كانت أساسا ضروريا للدراسات التحليلية للتضاريس القاعية التى أجراها عدد من الباحثين أمثال « Kossinna » (١٩٢١) و « Sverdrup » و « جونسون » و « دفان » . . . وغيرهم . ومن أمثلة هذه الخرائط[1] :

1 — Le Carte générale Bathymetrique des océans .

وهى بمقياس ١ : ١٠ مليون وأنشأها القسم الهيدرواجرافى فى موناكو فى سنة ١٩٣٥ وتقع فى ١٦ لوحة رسمت بمسقط مركيتور :

2 — Chart of the Atlantic ocean

وقد رسمت فيها كل النتائج التى توصلت إليها بعثة السفينة الألمانية « متيور Meteor » التى جابت المحيط الأطلنطى فى الفترة الممتدة بين ١٩٢٥ ، ١٩٣٩ . وهى خريطة عامة رسمت بمسقط لامبرت بمقياس ١ : ٢٠ مليون وبفاصل رأسى للعمق قدره ٥٠٠ متر .

٣ــ الخريطة التى أعدها « شوت Schott » للمحيطين الهندى والهادى فى سنة ١٩٣٥ ، وهى بمقياس ١ : ٦٠ مليون .

٤ ـــ خريطة بحار جزر الهند الشرقية التى أنشأها « ڤان رايل Van Riel » فى سنة ١٩٣٤ .

٥ ـــ خريطة « دفان Defant » التى أعدت فى سنة ١٩٤٧ بفاصل رأسى قدره ١٠٠٠ متر .

وعلى أساس مثل هذه الخرائط وغيرها استطاع العلماء أن يدرسوا طبوغرافية قاع البحر على اعتبار أنها امتداد لتضاريس اليابس ، وعن طريق التحليل الاحصائى

(1) A. Defant, op. cit., p. 13.

لتفاوت مناسيب سطح الأرض تمكنوا من معرفة العلاقة بين الارتفاعات والأعماق على سطح الأرض على نحو لا يختلف كثيرا عما توصل إليه « فجنر » فى بداية العقد الثانى من القرن الحالى .

جدول رقم (٣) النسبة المئوية والمساحة فى مناسيب الأرض المختلفة (عن كوسينا ١٩٢١)

اولا : اليـــابس

المنسوب	المساحة بملايين الكيلو مترات المربعة		النسبة المئوية	
أعلى من ٥٠٠٠ متر	٠ر٥		٠ر١٪	
٤٠٠٠—٥٠٠٠	٢ر٥		٠ر٥٪	
٣٠٠٠—٤٠٠٠	٣		٠ر٦٪	
٢٠٠٠—٣٠٠٠	١٠		٢ر٠٪	
١٠٠٠—٢٠٠٠	٢٤		٤ر٧٪	
١٠٠٠—٥٠٠	٢٧	١٠٨	٥ر٣٪	٢١ر٢٪
٥٠٠—٢٠٠	٣٣		٦ر٥٪	
٢٠٠—صفر	٤٨		٩ر٤٪	
الجملة	١٤٨		٢٩ر٢٠٪	

ثانيا : المـــاء

المنسوب	المساحة	النسبة المئوية
صفر — ٢٠٠	٢٨ر٥	٥ر٦٪
٢٠٠ — ١٠٠٠	١٥ر٥	٣ر٠٪
١٠٠٠ — ٢٠٠٠	١٥	٢ر٩٪
٢٠٠٠ — ٣٠٠٠	٢٤ر٥	٤ر٨٪
٣٠٠٠ — ٤٠٠٠	٧١	١٣ر٩٪
٤٠٠٠ — ٥٠٠٠	١١٩	٢٣ر٣٪
٥٠٠٠ — ٦٠٠٠	٨٤	١٦ر٥٪
أعمق من ٦٠٠٠ متر	٤ر٥	٠ر٩٪
الجملة	٣٦٢	٧٠ر٨٪

وتتضح لنا من الجدول السابق مجموعة من الحقائق أهمها :

١ — أن أعلى نسبة من مساحة سطح الأرض (٢١٫٣ ٪ تقع فوق مستوى البحر على منسوب أقل من ألف متر وتربو مساحتها الإجمالية على ١٠٨ مليون كيلو متر مربع

٢ — أن مساحة كبيرة تزيد على ٤٨ مليون كيلو متر مربع (٩٫٤ ٪ من مساحة الكرة الأرضية) تقع على منسوب أقل من مائتى متر فوق مستوى سطح البحر .

٣ — أن أعلى نسبة من مساحة المحيط تقع على عمق يتأرجح بين ٤٠٠٠ ، ٥٠٠٠ متر دون مستوى سطح البحر وبمتوسط قدره ٤٧٠٠ متر (٢٣٫٣ ٪ من مساحة الكرة الأرضية) وتبلغ مساحتها ١١٩ مليون كيلو متر مربع .

٤ — أن ٤٥ ٪ من مساحة سطح الأرض تنحصر بين منسوبى +١٠٠٠ متر ، — ٤٧٠٠ متر ، وأن ١٠ ٪ فقط من مساحة سطح الأرض تقع فى المناسيب الأعلى من ١٠٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر والأعمق من — ٤٧٠٠ متر تحت مستوى سطح البحر .

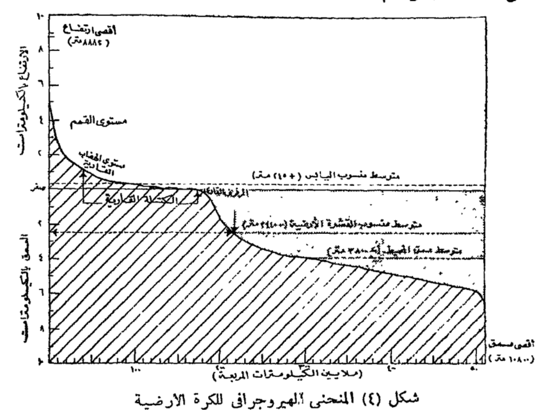
وعلى هذا يمكننا أيضا أن نستخلص من المنحنى الهسبوجرافى لسطح الأرض وجود عدة مستويات على النحو الآتى :

(أولا) مستوى القمم Summit level ويضم كل الأراضى اليابسة التى تقع على منسوب أعلى من ألف متر فوق مستوى سطح البحر وهى تشغل مساحة تبلغ نحو ٤٠ مليون كيلو متر مربع ومتوسط منسوبها ٢٠٤٠ متر وأعلى ارتفاع قدره ٨٨٨٢ متر (قمة إفرست) .

(ثانياً) مستوى الهضاب القارية Level of continental plateaux ويضم كل مناطق اليابس التى يقل منسوبها عن ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر وبمتوسط قدره ٢٣٠ متر . وتشغل هذه الهضاب من سطح الأرض مساحة ١٠٨ مليون كيلو متر مربع .

(ثالثاً) مستوى الرفارف القارية Level of continental shelves ويضم كل رفارف القارات التى تختفى تحت مياه المحيطات وتبدو كرصيف متدرج الانحدار

يتراوح عرضه بين ستة كيلومترات و ٢٤٠ كيلومتر ، وينحصر بين مستوى سطح البحر وخط العمق المتساوى — ٢٠٠ متر (١٠٠ قامة) تحت مستوى سطح البحر ، وهو يشغل من سطح الكرة الأرضية مساحة تبلغ نحو ٢٧٫٥ مليون كيلومتر مربع أى أكثر قليلا من ٥ ٪ من مساحة الأرض الاجمالية (ونحو ٧٫٦ ٪ من مساحة الماء) . ويرى « دفان Defant » أن الرفارف القارية تعد جزءاً لا يتجزأ من مساحة الهضاب القارية التى تصبح — والحالة هذه — نحو ١٣٦ مليون كيلومتر مربع ، أو أكثر من ٢٦ ٪ من مساحة الأرض كلها[1] .



شكل (٤) المنحنى الهيبسوجرافى للكرة الارضية

(رابعا) السفح القارى Continental slope : وينحصر بين منسوبى — ٢٠٠ متر (حافة الرفرف القارى) و — ٢٤٤٠ متر تحت سطح البحر[2] وبمتوسط عمق قدره — ١٢٧٠ متر . وهو يشغل من سطح الأرض مساحة قدرها ٣٩ مليون كيلو متر مربع أو حوالى ٧٫٦ ٪ من مساحتها الاجمالية ، كما يحتل أكثر من ١١ ٪ من مساحة

---

(١) انظر « دفان » المرجع السابق ص ١٦ .

(٢) اذا افترضنا ان الكرة الارضية قد سويت تماما ففى هذه الحالة يصبح متوسط منسوب قشرتها الصلبة — ٢٤٤٠ متر تحت سطح البحر .

المحيط . ويرى بعض العلماء (سفردروب Sverdrup ، وجونسون Johnson ، وفلمنج Fleming [1] أن يدمج السفح القارى مع الرفرف القارى بحيث يكونان معا ما يمكن أن يسمى بالدرج القارى Continental terrace أو حفة القارة ، ويتراوح اتساعه بين صفر (فى حالة اختفاء الرفرف القارى كما هى الحال فى ساحل بيرو الغربى حيث تهوى جبال الأنديز بانحدار شديد إلى قاع المحيط) وأكثر من ١٢٨٠ كيلو متر ، وبمتوسط قدره ٤٨ كيلو متراً[2] . وتصبح مساحة الدرج القارى فى هذه الحالة نحو ٦٥ مليون كيلو متر مربع أو نحو ١٣ ٪ من مساحة الأرض الإجماليه ، وحوالى ١٨ ٪ من مساحة المحيطات .

(خامسا) مستوى قاع البحر العميق Deep-see Bottom : ويتراوح عمقه بين ٢٤٤٠ متر إلى ٥٧٥٠ متر تحت مستوى سطح البحر ، بمتوسط قدره ٤٤٢٠ متراً . ويحتل من سطح الأرض مساحة تزيد على ٢٨٤ مليون كيلو متر مربع أو أكثر من ٥٥ ٪ من المساحة الإجمالية للأرض وحوالى ٧٨ ٪ من مساحة المحيط — أى أن مايقرب من أربعه أخماس مياه المحيط تقع فيا بين ٢٤٤٠ متر و ٥٧٥٠ متر تحت مستوى سطح البحر .

(سادسا) مستوى الأغوار والأخاديد البحرية : ويزيد عمقه على ٥٧٥٠ متر تحت سطح البحر ، ويشغل من مساحة الكرة الأرضية ما يقرب من ١١ مليون كيلو متر مربع أو ١ر٢ ٪ . ومتوسط العمق هنا ٦١٠٠ متر وأعمق الجهات أخدود إمدن Emden الذى يقع قريباً من جزيرة مندناو من مجموعة جزر الفلبين ، وهو يمثل أغور مكان على سطح الكرة الأرضية ، إذ يزيد عمقه على ١٠٣٦٣ متر (٣٥٤٠٠ قدم) .

الرفارف القارية حول المحيطات :

ويبدو لنا من التحليل السابق للمنحنى الهبسوجرافى للكرة الأرضية ، أن الرفارف القارية تمثل فى الحقيقة مناطق الإنتقال بين الماء واليابس ، وتكاد تجمع الآراء على اعتبارها مجرد أجزاء غائصة من كتل القارات ، تكونت نتيجة طغيان مياه المحيط على

---

(١) H. U. Sverdrup, M. W. Johnson, and R.H. Fleming «The oceans : Theirphysics, chemistry and general biology: New York 7th Ed., 1957, pp. 20-21.

(٢) R. E. Coker, op. cit., p. 67.

هوامشها[1] . وعلى هذا يمكن أن نتصور أنها كانت خلال مراحل التاريخ الجيولوجي للأرض بمثابة النطاقات «البرمائية amphibian » من الكرة الأرضية ، فقد كانت تطغى عليها مياه المحيط فى بعض الفترات الجيولوجية . وتنحسر عنها فى فترات أخرى ، مثلها فى هذا كمثل الشواطىء beaches التى تصبح جزءا من الماء فى أوقات المد ، ومن اليابس فى أوقات الجزر . وعلى هذا فمعنى وجود الرفارف القارية أن المحيطات فى وقتنا الحالى مملوءة بالماء إلى أقصى طاقة لها ، مما أدى إلى غمر الهوامش القارية . وإذا تصورنا أن منسوب البحار والمحيطات قد انخفض نحو مائتى متر (١٠٠ قامة) فان هذا كفيل باضافة ما يقرب من ١٨٪ إلى مساحة اليابس ، وإنقاص مساحة المحيط إلى ٧٢٪ من مساحته الحالية[2] .

وتحتل مياه البحار والمحيطات من مساحة سطح الأرض ٧٠٫٨٪ . ولكن البحار «المجاورة» و «المتوسطية» والهامشية التى تتخلل اليابس ، وتوجد متداخلة فيه تشغل من سطح الأرض نحو ٧٫٩٪ من مساحته الاجمالية ، مما يعنى أن المحيطات المفتوحة الثلاث تمثل ٦٢٫٩٪ من مساحة الكرة الأرضية . ولعل أولى الحقائق التى يجدر الإلمام بها فيما يتصل بنمط توزع الرفارف القارية ، إنما تتمثل فى وجود النسبة الكبرى منها فى البحار المجاورة وليس فى المحيطات المفتوحة ، فمساحة الرفارف القارية تبلغ — كما سبق أن ذكرنا — نحو ٢٧٫٥ مليون كيلو متر مربع أو ٢٫٥٪ من مساحة الكرة الأرضية ويقع منها أكثر من الثلثين فى البحار المجاورة والمتوسطية ويحف الثلث الباقى بسواحل المحيطات أى بنسبة ٣٫٥٪ إلى ١٫٧٪ . وتتضح لنا هذه الحقيقة أكثر إذا نسبت مساحة الرفارف القارية إلى مساحة كل من البحار المجاورة والمحيطات على حدة ، ففى هذه الحالة نجد أن ٤٣٫٧٪ من مساحة البحار المجاورة تحتلها الرفارف القارية فى حين أنها لا توجد إلا فى ٢٫٧٪ فقط من مساحة المحيطات كما يظهر فى الجدول التالى[3] :

---

(١) Rachael Carson «The sea around us» New York, Oxf. Univ. Press, 1950, pp 23-25.

(٢) Francis P. Shepard «The Earth beneath the sea » Baltimore, 1959, p. 27.

(٣) A. Defant, op. cit., p. 16.

جدول رقم (٤)

التوزيع النسبى لمياه المحيط والبحار المجاورة على المناسيب المختلفة

	المستوى	٪ إلى مساحة الماء	٪ مساحة الكرة الأرضية
البحار المجاورة ٧ر٩٪ من مساحة الأرض	الرفرف القارى	٤٣ر٧٪	٣ر٥٪
	السفح القارى	٣١ر٨٪	٢ر٥٪
	البحر العميق	٢٤ر٥٪	١ر٩٪
		١٠٠	٧ر٩٪
المحيطات ٦٢ر٩٪ من مساحة الأرض	الرفرف القارى	٢ر٧٪	١ر٧٪
	السفح القارى	٤ر٨٪	٣ر٠٪
	البحر العميق	٩٢ر٥٪	٥٨ر٥٪
		١٠٠	٦٢ر٩٪

يتضح لنا إذن :

- أن ٢/٣ الرفارف القارية توجد فى البحار المجاورة والباقى فى المحيطات .
- أن ٤٣ر٧٪ من مساحة البحار المجاورة تحتلها الرفارف القارية فى حين أنها لا تتجاوز ٢ر٧٪ من مساحة المحيطات .
- أن السفوح القارية (التى تحتل ٥ر٥٪ من مساحة الأرض) تتوزع فى كل من البحار المجاورة والمحيطات بنسبة ٥ : ٦
- أن ٣١ر٨٪ من مساحة البحار المجاورة تحتلها السفوح القارية فى حين أنها لا تتجاوز ٤ر٨٪ من مساحة المحيطات .
- أن المياه العميقة تحتل من سطح الأرض ٦٠ر١٪ وتتقاسمها المحيطات والبحار بنسبة ١ : ٣٠ر٦
- أن المياه العميقة توجد فى ٢٤ر٥٪ من مساحة البحار المجاورة بينما تحتل ٩٢ر٥٪ من مساحة المحيطات .

وهكذا يتضح لنا أن الملمح الأول لنمط توزع الرفارف القارية يتمثل فى تركز القدر الأكبر منها (الثلثين) فى البحار ، مما يدل على أن البحار المجاورة والهامشية والمتوسطية كانت فيما مضى أقل مساحة مما هى عليه الآن ، وأن مساحات كبيرة من هوامش القارات المطلة عليها تعرضت لغمر بحرى فى الفترة الأخيرة من تاريخها الجيولوجى .

وإذا حاولنا بعد ذلك أن ندرس نمط توزع الرفارف القارية فى كل محيط من المحيطات الثلاثة — سواء بضم مساحة البحار المجاورة إلى جملة مساحة كل محيط أو بدونها — لتبين لنا أيضا أن توزع الرفارف فى المحيطات الثلاث يتغاير بشكل ملحوظ كما يتضح من الجدول التالى .

جدول رقم (٥)

نسبة الرفارف القارية الى مساحة المحيطات

المحيط	النسبة إلى المساحة الاجمالية		النسبة إلى المساحة دون البحار المجاورة	
	النسبة ٪	المساحة[1]	النسبة ٪	المساحة[1]
الأطلنطى	١٣ر٣	١٠٦ر٢	٥ر٥	٨٢ر٣
الهادى	٥ر٧	١٧٩ر٨	١ر٧	١٦٥ر٣
الهندى	٤ر٢	٧٥ر٠	٣ر٢	٧٣ر٤
المحيطات كلها	٧ر٦	٣٦١ر٠[2]	٣ر١	٣٢١ر٠[2]

فالمحيط الأطلنطى — إذن — فى مقدمة المحيطات الثلاثة من حيث نسبة مساحة الرفارف القارية إلى جملة مساحته ، فهى تبلغ ٥ر٥٪ فى مياهه المكشوفة ، وتقفز إلى ١٣ر٣٪ إذا أضيفت مساحات البحار المجاورة التى تزيد على ٢٣ر٩ مليون كيلو متر

(١) المساحة بملايين الكيلومترات المربعة

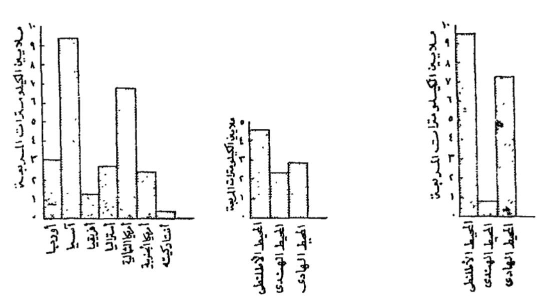
(٢) الفرق بين الرقمين (٤٠ مليون كيلو متر مربع) يمثل مساحة البحار المجاورة وهى تعادل ٧ر٩٪ من مساحة الارض ونحو ١١٪ من مساحة المحيط

مربع (أو ٢٢٫٧٪ من مساحته الاجمالية) مما يؤيد ما سبق ذكره . من أن النسبة الكبرى من الرفارف القارية توجد فى البحار المجاورة . ومن أمثلة البحار المجاورة فى المحيط الأطلنطى : البحر البلطى (ومتوسط عمقه — ٥٥ متراً) وبحر الشمال (— ٩٤ متراً) ، والقنال الإنجليزى والبحر الأيرلندى (— ٥٨ مترا) ، والبحر المتوسط والأسود (— ١٤٥٨ مترا) والبحر المتوسط الأمريكى (— ٢١٧٤) والبحر المتوسط القطبى (— ١٥٢٦ م) ، وخليج هدسن (— ١٢٨ مترا) ، وخليج سانت لورانس (— ١٢٧ مترا) . هذا إذا اعتبرنا أن مياه المحيط الأطلنطى تقع شمالى قارة أنتاركتيكا وتضم البحر المتوسط القطبى ، بحيث يفصلها عن المحيط الهادى خط يتمشى مع أقصى مسافة بين كيب هورن (٧٠° غربا) وجزر شتلند الجنوبية — South Shetlands — فى الجنوب — كما يمر الحد الفاصل بينهما فى الشمال فى بحر برنج Bering الذى لا يتجاوز اتساعه ٥٨ كم ولا يزيد عمقه على ٥٥ متر . أما الحد الفاصل بين المحيطين الهندى والأطلنطى فينطبق فى المحيط الجنوبى على خط طول ٢٠° شرقا المار برأس الرجاء الصالح[1] . ومعنى هذا — إذن — أن المحيط الأطلنطى من أكثر المحيطات امتداداً وتفرعا داخل اليابس ، فهو يستأثر وحده بما يقرب من ٦٠٪ من مساحة البحار المجاورة ، التى تتميز مساحات كبيره منها بوقوعها دون منسوب — ٢٠٠ متر تحت مستوى سطح البحر .

ويرجع فى الحقيقة عظم مساحة الرفارف القارية فى البحار المجاورة التابعة للمحيط الأطلنطى ، إلى أن أغلبها تأثر بالغطاءات الجليدية البلايستوسينية التى غطت مساحات كبيرة من شمال المحيط الأطلنطى ، وكان لها تأثير توازنى isostastic أدى إلى هبوط مساحات كبيره من أراضى شمال أوربا وأمريكا الشمالية ، فطغت عليها مياه المحيط وغمرتها . وهكذا نستطيع القول بأن بحر الشمال ، والبحر المتوسط القطبى وخليج هدسون ، والبحر البلطى كلها تمثل بحارا هامشية epicontinental غمرت هوامش القارات التى ناءت تحت ثقل الجليد وكونت الرفارف القارية ، فكأن هذه البحار بحار رفرفية Shelf Seas[2].

(١) H. U. Sverdrup and others, op. cit., p. 11.

(٢) R. A. Daly «The floor of the ocean». University of North Carolina Press, 1942. pp. 100-103.



شكل (٥) مساحات الرفارف القارية فى المحيطات المكشوفة
(الرسم الأيمن) وفى البحار المجاورة (الرسم الأوسط) وحول القارات

ويضاف إلى هذا أن أثر الجليد البلايستوسينى لم يقتصر على المناطق التى رزحت تحت غطاءاته بل نجد أن مياه البحر المتوسط والبحر الأسود ، وخليج المكسيك (البحر المتوسط الأمريكى)، كانت تتعرض هى الأخرى — وقتذاك — لتذبذب فى مناسيبها بين ارتفاع وانخفاض نتيجة تتابع الفترات الجليدية ، وبين الجليدية ؛ ففى الأولى كانت تحتبس المياه عن المحيطات فينخفض منسوبها ، وكانت تعود إليها فى الفترات ما بين الجليدية ، كما أسفر ذوبان الجليد النهائى (بعد انتهاء الجليدى) عن حدوث ارتفاع عام فى مستوى سطح الماء — كان عالميا ولم تتأثر به فقط مياه المحيط الأطلنطى وحده.

فكأن هنالك إذن عاملين اثنين أسهما معاً فى زيادة نصيب المحيط الأطلنطى من الرفارف (أولهما) استئثاره بنحو ٦٠٪ من مساحة البحار المجاورة (وثانيهما) تأثره بصورة بالغة بالتغيرات التى ترتبت على تكون الجليد فى البلايستوسين.

أما المحيط الهندى فيأتى فى المركز الثانى من حيث نسبة رفارفه القارية رغم أنه أصغر المحيطات الثلاثة ، إذ تبلغ هذه النسبة إلى جملة مساحته ٣ر٢٪ فى المياه المكشوفة ، و ٤ر٢٪ فى مياهه كلها داخلة فيها مساحات البحار المجاورة . ويدل

تقارب هاتين النسبتين على ضآلة مساحة البحار المجاورة للمحيط الهندى وهى لا تزيد على نحو ١٫٥ مليون كيلو متر مربع ، وتتمثل فى :

= البحر الأحمر ومساحته الكلية ٤٣٨ ألف كيلو متر مربع ومتوسط عمقه — ٤٩١ مترا

= الخليج العربى ومساحته الكلية ٢٣٩ ألف كيلو متر مربع ومتوسط عمقه — ٢٥ مترا

= بحر أندامان ومساحته الكلية ٧٩٨ ألف كيلو متر مربع ومتوسط عمقه — ٨٧٠ مترا[١].

ويأتى المحيط الهادى فى المرتبة الثالثة ، إذ تبلغ نسبة الرفارف إلى مساحة مياهه المكشوفة ١٫٧٪ فى حين أنها تصل إلى ٥٫٧٪ إذا ما أضيفت إليها البحار المجاورة . والمحيط الهادى كما نعلم أكبر المحيطات الثلاثة إذ تزيد مساحته على ضعف مساحة المحيط الهندى كما أن هنالك مجموعة كبيرة من البحار المجاورة التى تدخل ضمن مساحته وتزيد مساحتها على ١٤٫٥ مليون كيلو متر مربع مثل: البحر المتوسط الآسيوى (ومتوسط عمقه — ١٢١٢ متر) وبحر أوختسك (— ٨٣٨ متر) وبحر اليابان (— ١٣٥٠ متر) ، وبحر الصين الشرقى (— ١٨٨ متر) ، وخليج كاليفورنيا (— ٨١٣ متر) ومضيق باس (— ٧٠ متر) — هذا إذا اعتبرنا الحد الفاصل بين المحيطين الهندى والهادى يتسق مع خط يبدأ فى شبه جزيرة الملايو ويمر بجزر سومطره ، وجاوة ، وتيمور حتى رأس لندندرى Cape Londonderry فى استراليا وجزيرة تزمانيا ثم ينطبق مع خط طول ١٤٧° شرقا حتى سواحل أنتاركتيه . فكأن تداخل مياه المحيط الهادى فى البحار المجاورة الآنفة الذكر ، هو السبب إذن فى تزايد نسبة مساحة الرفارف القارية فيه من ١٫٧٪ إلى ٥٫٧٪ من مساحته . وأما إذا استبعدنا البحار المجاورة ، فيبدو المحيط الهادى على شكل مسطح هائل من المياه العميقة التى تحدها من كل الجهات تقريبا سفوح قارية شديدة الانحدار تهوى فجأة من القمم الجبلية العالية إلى أغوار مياهه السحيقة التى يبلغ متوسط عمقها — ٤٢٨٢ مترا ، وكثيرا ما يعرف هذا السياج الجبلى « بحلقة النار » التى تتميز بكثرة حدوث الزلازل والبراكين فى كل أنحائها دلالة على حداثة تكوينها

---

(١) A. Defant, op. cit., Table 4, p. 17.

الجيولوجى ، وعلى أنها تعد من مناطق « التغير السريع » التى ما زالت تتشكل حتى وقتنا الحالى — ولهذا لانعجب إذن إذا كانت مياه المحيط الهادى المكشوفة تضم أقل نسبة من مساحة الرفارف القارية .

مساحات الرفارف حول كتل القارات :

ومناطق الرفارف القارية لم تدرس حتى الآن دراسة مستفيضة ولم تحدد معالمها تحديداً دقيقاً ، وليس أدل على هذا من أن خط عمق — ٢٠٠ متر يعتبر فى أغلب الأحيان بمثابة الحد الخارجى للرفرف القارى ، ولكن الأمريكى « شبارد Shepard »[(١)] يرى أن الحد الخارجى للرفرف القارى ينحصر بين — ١١٠ متر ، — ١٤٦ متر (٦٠ — ٨٠ قامة) ، ويقصره آخرون على المناطق التى تنحصر بين سيف البحر Shoreline و — ٢٥٠ متر . ويظهر الاختلاف والتضارب أيضا فى حساب مساحات الرفارف القارية ، إذ يرى « واجنر Wagner » أن مساحتها تبلغ ٣٠٫٦ مليون كيلو متر مربع ، ويرى « كجل Kegel » أنها لا تتجاوز ٢٩٫٥ مليون كيلو متر مربع ، ويعتقد غيرها أنها تتراوح بين ٢٠ و ٣٠ مليون كيلو متر مربع .

وإزاء هذا التضارب فى تقديرات العلماء لا يسعنا إلا الاعتماد على الرقم الذى أورده « كوسينا Kossinna »(١٩٢١) والذى يرد فى أغلب المصادر الأوقيانوغرافية ؛ فقد وجد أن الرفرف القارى العالمى يشغل من سطح الأرض مساحة تبلغ حوالى ٢٧٫٥ مليون كيلو متر مربع (وهى تعادل ٧٫٦٪ من مساحة المحيطات ، و ٥٫٢٪ من مساحة الكرة الأرضية) .

وإذا ما حاولنا بعد ذلك أن نبين مساحات الرفارف القارية بالنسبة للقارات والمحيطات لوجدنا أن توزعها على النحو الآتى :

---

(١) Francis P. Shepard, op. cit., p. 32.

(٢) A. Defant, op. cit., p. 21

جدول رقم (٦)

مساحات الرفارف القارية فى القارات والمحيطات والبحار

القـــارات		المحيطات		البحار المجاورة	
اسم القارة	مساحة الرفرف*	اسم المحيط	مساحة الرفرف*	اسم المحيط	مساحة الرفرف*
أوربا . . .	٣ر١١	الأطلنطى	٤ر٥٩	الأطلنطى	٩ر٥٢
آسيا . . .	٩ر٣٨	الهندى	٢ر٣٧	الهندى	٠ر٨٠
أفريقيا . .	١ر٢٨	الهادى	٢ر٨٩	الهادى	٧ر٧٢
استراليا . .	٢ر٧٠				
أمريكا الشمالية	٦ر٧٤	المجموع	٩ر٨٥	المجموع	١٧ر٦٤
أمريكا الجنوبية	٢ر٤٢				
أنتاركته . .	٠ر٣٦				
الجزر . . .	١ر٥٠				
المجموع	٢٧ر٤٩	مجموع مساحة الرفارف فى المحيطات والبحار ٢٧ر٤٩			

* المساحة بملايين الكيلومترات المربعة .

ويمكننا أن نستخلص من الجدول السابق الحقائق الآتية :

١ — أن الرفرف الآسيوى هو أكبر الرفارف القارية إذ تبلغ مساحته نحو ٩ر٤ مليون كيلو متر مربع أو حوالى ٣٤٪ من المساحة الإجمالية للرفارف القارية . وتأتى أمريكا الشمالية بعد آسيا مباشرة إذ تستأثر هى الأخرى بنحو ٢٤٪ من مساحة الرفارف القارية ، كما تحتل أوربا المركز الثالث بنسبة تزيد على ١١٪ من المساحة العالمية وتليها كل من استراليا ، وأمريكا الجنوبية ، وإفريقيا وأنتاركته . ومعنى هذا إذن أن القارات الثلاث آسيا ، وأمريكا الشمالية تستأثر بأكثر من ٦٩٪ من مساحة الرفارف القارية بينما لا يتجاوز نصيب القارات الأربع الأخرى الثلث أو أقل[1].

---

(١) Rachel Carson «The edge of the Sea» Boston, 1955, p. 210.

٢ — تقع القارات الثلاث التي تحيط بسواحلها المساحة الكبرى من الرفارف القارية — كما نرى فى نصف الكرة الشمالي ، وتنحصر مساحات كبيرة من كل قارة منها بين العروض العليا مما كان سببا فى تأثرها بالغطاء الجليدى البلايستوسينى الذى غطى مساحات واسعة من المناطق الشمالية لهذه القارات ، والذى أدى من بين ما أدى إلى أن تنوء قشرة الأرض تحت ثقله وضغطه ، وغمرتها مياه البحار بعد ذوبان الجليد . أما القارات الأخرى التى تقع فى نصف الكرة الجنوبى أو تتعمق فيه مساحات كبيرة منها ، فكانت بمنأى عن تأثير الغطاءات الجليدية[1] .

٣ — قارة أنتاركتيه تأتى فى ذيل قائمة القارات من ناحية مساحة رفرفها القارى الذى لا يزيد على ٣٦٠ ألف كيلو متر مربع ، وربما يعزى هذا إلى ضآلة معلوماتنا عن طبيعة أرصفة هذه القارة وتحديدها ، وربما يرجع أيضا إلى كونها عبارة عن كتلة واحدة ملمومة خالية من النشرشر والتعرج ، ولا تتعمق داخلها بحار مجاورة من أى نوع .

٤ — قارة أفريقيا على الرغم من أنها ثانية القارات من حيث المساحة إلا أن مساحة رفرفها القارى تبلغ أقل من ١٫٣ مليون كيلو متر مربع ، ويرجع هذا إلى طبيعتها الجندوانية التى جعلتها أشبه ماتكون بضهر horst هائل يهوى إلى البحار المحيطة به بحواف رأسية هارية ، كما يعزى أيضا إلى انعدام تعرج سواحلها وتشرشرها ، فاذا اتبعنا الطريقة التى سار وفقها « كارل ريتر » لتحديد نسبة طول الساحل إلى جملة مساحة كل قارة ، لوجدنا أن كل ميل من السواحل الأوربية تقابله مساحة تبلغ ٢٨٩ ميل مربع ، وأن النسبة فى استراليا هى ١ : ٥٣٤ ، وفى آسيا ١ : ٧٦٣ وفى أمريكا الشمالية ١ : ٤٠٧ ، وفى أمريكا الجنوبية ١ : ٦٨٩ ، أما أفريقيا فهى ١ : ١٤٢٠ (أى خمس طول السواحل الاوربية)[2] ، ومعنى هذا أن سواحل هذه القارة أقصر طولا من سواحل أية قارة أخرى (باستثناء أنتاركتيه) ، ويتسم رفرفها هو الآخر بقصر امتداده طالما أنه يمثل امتداداً بنائيا للساحل .

---

(١) F. P. Shepard, op. cit., p. 96.

(٢) محمد صفى الدين « أفريقيا بين الدول الاوروبيـة » القاهـرة ١٩٥٩ ، ص ٨٧ — ٨٨

٥ — يوضح الجدول التالى نسبة مساحة الرفرف القارى إلى المساحة الاجمالية فى كل قارة على حده :

جدول رقم (٧)

القارة	المساحة بملايين الكيلو مترات المربعة	مساحة الرفرف القارى بملايين الكيلومترات المربعة	النسبة المئوية
آسيا	٤٢٫٧	٩٫٣٨	٢١٫٩٪
أفريقيا . . .	٢٩٫٨	١٫٢٨	٤٫١٪
أمريكا الشمالية . .	٢٤٫٢	٦٫٧٤	٢٧٫٨٪
أمريكا الجنوبية . .	١٧٫٦	٢٫٤٢	١٣٫٧٪
أنتاركته	١٣٫٨	٠٫٣٦	٢٫٦٪
أوربا	٩٫٧	٣٫١١	٣٢٪
استراليا	٧٫٧	٢٫٧٠	٣٥٪
الجزر المحيطية والبحرية	٣٫٤	١٫٥٠	٤٤٫١٪
اليابس	١٤٨٫٩	٢٧٫٤٩	١٨٫٤٪

ويظهر من الأرقام السابقة أن قارة استراليا تحتل مكان الصدارة بين القارات من ناحية نسبة مساحة رفرفها إلى مساحتها الإجمالية ، ويرجع هذا إلى عظم مساحة هوامش هذه القارة التى كانت تمثل فى البلايستوسين معابر أرضية توصل بينها وبين جزيرة غينيا الجديدة الواقعة فى شمالها ، وبينها وبين جزيرة تيزمانيا فى الجنوب[1] ، وعلى هذا يمثل مضيق باس بحراً رفرفيا مثله فى هذا كمثل خليج كربنتاريا فى الشمال . ويعتقد عدد كبير من العلماء أن قارة استراليا كان بينها وبين آسيا اتصال أرضى فى البلايستوسين ، ولكنه انعدم بعد انتهاء هذا العصر نتيجة ارتفاع مستوى الماء العالمى فى أعقاب العصر الجليدى .

---

(١) ابراهيم رزقانة « المعابر الارضية فى البلايسوسين » مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٥٥

أما أوربا التي تحتل المركز الثاني ، فيعزى عظم نسبة رفرفها إلى مساحتها (وهى نسبة تزيد على الثلث) إلى تأثرها بالجليد البلايستوسينى ، وإلى كثرة تشرشر سواحلها وتعرجها ، وإلى عظم مساحات البحار الهامشية والمتوسطية والمجاورة التى تتعمق فى يابسها وتتداخل فيه مثل :

(ا) بحر الشمال وتبلغ مساحته ٥٧٥ ألف كيلو متر مربع .

(ب) البحر البلطى وتبلغ مساحته ٤٢٢ ألف كيلو متر مربع .

(جـ) البحر المتوسط والبحر الأسود ومساحتها معا ٢٩٦٩ ألف كيلو متر مربع .

(د) البحر المتوسط القطبي ومساحته ١٤٠٥٧ ألف كيلو متر مربع .

(هـ) القنال الانجليزى والبحر الايرلندى ومساحتهما معا ١٧٨ ألف كيلو متر مربع [١]

وتأتى قارة أمريكا الشمالية فى المركز الثالث ، إذ يحتل رفرفها ما يقرب من ٢٧٫٨٪ من مساحتها الكلية ، وقد تأثرت المناطق الشمالية من هذه القارة بالغطاء الجليدى فى البلايستوسين ، كما تتميز سواحلها بعظم طولها ، وتتعمق فيها أيضا بعض البحار المتوسطة (مثل خليج هدسون الذى تبلغ مساحته ١٫٢٣٢٫٠٠٠ كيلو متر مربع ، والبحر المتوسط الأمريكى ومساحته ٤٫٣١١٫٠٠٠ كيلو متر مربع) هذا بالاضافة إلى خليج سانت لورنس (ومساحته ٢٣٨ ألف كيلو متر مربع) .

وقارة آسيا على الرغم من أنها أكبر القارات مساحة إلا أن نسبة مساحة الرفارف القارية التي تحيط بها لا تزيد كثيراً على الخمس (٢١٫٩٪) ، هذا وإن كانت تستأثر بأكبر مساحة للرفارف القارية (٩٫٣٨ مليون كيلو متر مربع) . ويدل هذا على أن نسبة مساحة الرفارف فى كل قارة لا تتأثر فقط بعظم مساحة الكتلة القارية ، بقدر ما تتأثر بعوامل أخرى مثل طول السواحل ، ودرجة تشرشرها ، ونسبة البحار المجاورة الضحلة ، ومدى التأثر بالجليد البلايستوسينى . فنى حالة القارة الآسيوية لا تزيد نسبة طول السواحل إلى مساحتها عن ١ : ٤٩٠ كما أن سواحلها ليست بدرجة تشرشر وتعرج السواحل الأوربية ، هذا فضلا عن أن أغلب مساحات بحارها الهامشية تزيد أعماقها على ٢٠٠ متر .

---

(١) A. Defant, op. cit., Table IV., p. 17.

والقارة الإفريقية التى تعد ثانية القارات مساحة لا تزيد نسبة رفارفها على ٤ر١٪ ويرجع هذا إلى أن خطوط الكنتور على طول سواحلها قد جعلت من هذه السواحل مجرد خط خال من أى تعرج[١]، يهوى إلى بحر لاقاع له trou sans fond[٢]، كما تكاد تخلو من أى بحار هامشية أو متوسطية فيما عدا البحر الأحمر (٤٣٨ ألف كيلو متر مربع) ولو أن المياه التى يقل عمقها عن ـــ٢٠٠ متر لا تشغل من مساحته إلا ما يقرب من الربع فقط.

أما قارة أنتاركتيه فهى أقل القارات من حيث نسبة الرفارف القارية (٦ر٢٪) وذلك لأنها عبارة عن كتلة ملمومة عديمة الأطراف، ذات سواحل تكاد تخلو من أى تعرج (فيما عدا سواحل جراهام لاند فى شمالها الغربى) هذا فضلا عن إحاطتها بمياه المحيط الجنوبى الذى يطوق نصف الكرة الجنوبى فيما بين خطى عرض ٥٥°، ٦٥° جنوبا.

الخصائص الطبوغرافية للرفارف القارية :

يتسم المظهر الطبوغرافى لقاع البحر بجوار الكتل القارية بأنه ينتظم فى نطاقات تبدأ من سيف البحر shoreline وتنتهى فى أغوار المحيطات السحيقة، وأول ما يظهر من هذه النطاقات التى تسير غالبا موازية للساحل ـــ هو الشاطىء beach وهو جزء من الماء فى أوقات المد وجزء من اليابس فى فترات الجزر[٣]، وتبلغ مساحته (فى العالم) كما قدرها «شوت Schott»[٤] نحو ٦ر١ مليون كيلو متر مربع أو ٤ر٠٪ من مساحة المحيط، ونحو ٠٦ر١٪ من مساحة اليابس. ويمتد الرفرف القارى خارج نطاق الشواطىء على شكل «مصطبة» غائصة تضيق أحيانا وتستعرض أحيانا أخرى، ولكنها نادراً ماتختفى تماما، إذ يرى «كنج»[٥] مثلا أن اتساع الرفرف

---

(١) محمد صفى الدين «افريقيا بين الدول الاوربية» ص ٧

(٢) Géographie Universelle, Tome XI, p. 473.

(٣) محمد صفى الدين «قشرة الأرض» الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٦١ ـ ص ٢٩٩

(٤) A. Defant, op. cit., p. 19.

(٥) L. C. King. «The Morphology of the earth : A Study and Synthesis of World Scenery. «Chapter XVI New York, 1982, p. 538.

القارى يتراوح بين سبعة كيلو مترات و٢٤٠ كيلو متر (٤ ميل — ١٥٠ ميل) وقد يصل إلى ٣٢٠ كيلومتر (٢٠٠ ميل) كما هى الحال بالقرب من جزيرة نيوفوندلاند ، هذا فى حين أن «سفردروب»[1] يرى أن اتساع الرفرف القارى يتأرجح بين صفر ، ١٢٨٠ كيلو متر (٨٠٠ ميل) وبمتوسط قدره ٤٨ كيلومتر (٣٠ ميل) كما أن أوسع الرفارف يوجد على طول ساحل سيبيريا الشمالى .

وفيما يتصل بعمق الرفرف القارى تختلف أيضا تقديرات العلماء وتتضارب ؛ «سفردروب» مثلا — يرى أن الرفرف القارى يضم كل المناطق التى تنحصر بين مستوى سطح البحر وخط العمق المتساوى —١٠٠ قامة (٢٠٠ متر) ، ويرى « شبرد»[2] أن الحد الخارجى للرفرف القارى يقع على عمق يتراوح بين ١١٠، ١٤٦ متر (٦٠—٨٠ قامة) فى حين أن « كنج» يجعل عمقه يتأرجح بين ١٥٠ ، ٤٠٠ متر مع أنه نادراً ما يصل العمق إلى هذا القدر .

وأمام هذا التضارب لا يسعنا إلا اتخاذ رقم « سفردروب » الخاص بالحد الخارجى للرفرف القارى (—٢٠٠ متر) ومدى اتساعه ، على أنه أكثر التقديرات قربا من الواقع ، وخاصة وأن عدداً كبيراً من الاوقيانوغرافيين يعتبرها قياسية وبنوا عليها الكثير من النتائج . وعلى هذا ، فالرفرف القارى يحده إذن من الخارج خط عمق —٢٠٠ متر ، ويتذبذب اتساعه ويتأرجح ؛ فهو يبلغ حداً أدنى فى السواحل الجبلية ويصل إلى أقصى اتساع له على طول السواحل التى تأثرت بالجليد ، وعند مصبات الأنهار الكبرى ، وأمام السواحل السهلية المتسعة .

والرفرف القارى إجمالا ، متدرج فى انحداره ،إذ لا يزيد معدل انحداره عن قامتين فى كل ميل أو بنسبة قدرها ٢ر٠٪ ، وبزاوية تبلغ فى المتوسط نحو سبع دقائق ، ولو أنها تتراوح بين أقل من درجة ونصف . وتتزايد درجة الانحدار تدريجيا مع تزايد العمق حتى تصل إلى الحد الخارجى (—٢٠٠ متر) . وجدير بالذكر هنا ، أن أقل

---

(١) Sverdrup, op. cit., p. 21

(٢) Shepard, op. cit., p. 167

انحدار يمكن لعين الانسان أن تلحظه هو ١٧ دقيقة على حد قول « ليتلهيلز Littlehales[1] » (١٩٣٢) ومعنى هذا إذن أن الرفرف القارى يبدو — بصورة عامة — أفقيا مسطحا فيما عدا ما قد يوجد فيه من بعض مظاهر عدم الاستواء ، وثمة فرق بين التسطح والاستواء ، فقد تكون الهضبة أفقية مسطحة ولكنها كثيرة الأخاديد والوهاد .

وعند الحد الخارجي للرفرف القارى ، تتزايد درجة الانحدار دفعة واحدة إلى أكثر من ثلاث درجات ، وقد تصل فى بعض الجهات إلى ما بين ٦ ، ١٠ درجات ، ويدل هذا التغير الفجائى فى الانحدار على أننا تركنا الرفرف القارى إلى السفح القارى . وقد وجد « شبرد » من دراسته لخمسمائة مقطع جانبي للرفارف القارية فى أنحاء شتى من العالم ، أن معدل انحدار السفح القارى slope يتغاير بتغاير تضاريس الساحل المقابل، فهو أمام السواحل الجبلية يكاد يربو فى المتوسط على ٦٪ (٣٠ َ ٣°) بينما أمام السواحل السهلية لا يزيد على ٣٫٥ ٪ (درجتين) . ويبلغ متوسط ميل السفح القارى أكثر من خمس درجات على طول سواحل المحيط الهادى ، ونحو ثلاث درجات على طول سواحل المحيطين الأطلنطى والهندى[2] . ومن المعروف أن الرواسب لا يمكنها أن تتجمع وتستقر إذا ما تجاوزت درجة الانحدار درجتين ، ومعنى هذا أن السفوح القارية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون مناطق للارساب depositional إلا فى بعض الحالات النادرة .

ونادراً ما يبدو الرفرف القارى مستوى السطح كما كان يظن من قبل ، إذ كثيراً ما تقطعه الأودية الأخدودية Canyons والشقوق ، والخوانق ، والأغوار ، وغيرها من الصور المورفولوجية المحفورة التى تدل على عظم تأثير المياه وفعاليتها فى تكوينات الرفارف القارية ، ممثلة فى التيارات البحرية وتيارات المد والجزر . وتيارات المد والجزر بالذات . لها من القوة والسرعة ما يجعلها تتدفق على الرفارف الضحلة فتنحت فيها وتحفر[3] . وقد استطاع « شبرد » أن يسجل وجود عدد كبير من التلال التى يصل منسوبها إلى أكثر من ١٢ متراً وذلك فى أكثر من ٦٠٪ من مساحة المناطق

(١) Sverdrup and others, op. cit., p. 21.

(٢) King, L. op. cit., p. 539.

(٣) Defant, Albert, op. cit., pp. 19-20.

التي درسها ، وتحصر هذه التلال بين بعضها والبعض الآخر مناطق واطئة تشغل أكثر من ٣٥ ٪ من المساحة ، وبعض هذه المناطق الواطئة عبارة عن أحواض طولية وبعضها الآخر عبارة عن أودية غائصة[1] . وفى المناطق التى تتوزع فيها رفارف قارية نجمت عن تأثير الغطاءات الجليدية ، كثيراً ما تظهر الكثبان الجليدية البيضاوية الشكل drumlins [2] ، كما هى الحال فى البحر الأيرلندى فيما بين سواحل أيرلندة الشرقية واسكتلندة . ومعنى هذا إذن أن التموجات والحفر التى تظهر على أسطح الرفارف القارية إنما يمكن أن تعزى فى الغالب إلى غمر المظاهر الطبوغرافية الساحلية بمياه البحار والمحيطات .

وقد تعترض بعض الرفارف القارية مدرجات واسعة تبرز منها بعض التلال المرتفعة التى قد تظهر فوق سطح البحر على شكل جزر بعضها بركانى مثل جزر كناريا . والمهم هو أن أغلب مظاهر عدم الانتظام فى الرفارف القارية إنما توجد أمام السواحل التى تأثرت بالجليد ومن ثم تعد من نتاج التعرية الجليدية . ولهذا كثيرا ما يعد الرفرف القارى — كما سبق أن ذكرنا — بمثابة جزء من الكتلة القارية تعرض لطغيان بحرى، ويرجع تكوينه كما يعزى تشكيله الطبوغرافى إلى حركة انفصال الكتل القارية عن بعضها (زحزحة القارات) ثم نحت السواحل بفعل الأمواج . وليس أدل على صحة هذا القول من أن الرفرف القارى الذى يمتد أمام ساحل كاليفورنيا تمتد فيه نطاقات من الحافات الفقرية الغائصة Submarine ridges تسير فى خطوط موازية لخطوط البنية التى توجد على الساحل المقابل . كما أن بعض الأحواض التى تنحصر بين هذه الحافات ، يوجد صنوها على اليابس مثل أحواض فنتورا Ventura ، لوس أنجلس Los Angeles وسان فرناندو ، وسان جبرييل ، وسان برناردينو[3] . فلا شك إذن أن رفرف كاليفورنيا يعد بمثابة جزء غائص من قارة أمريكا الشمالية ، فقد تعرضت هوامشها الغربية لطغيان ضحل من المحيط إبان العصر الكرتياسى ، ثم انحسر

---

(١) Shepard, F. P. op. cit., p. 82.

(٢) Daly, op. cit., p. 28.

(٣) Emery, K. O., and Shepard, F. P. «Lithology of the Sea Floor off Southern California.» Bull. Geol. Soc, Am., vol. 56, pp. 431-478.

عنها الماء وأصبحت أرضا يابسة فى بداية الزمن الثالث ، وغاصت مرة أخرى فى أواسط الميوسين ، ثم رفعت وتصدعت فى بداية البلايوسين وغمرت بمياه المحيط فى البلايستوسين (فى أواخره) .

ويبدو أيضا أن التواء ساحل كوينزلاند فى شرق استراليا قد ارتبط بهبوط حاشية من الأرض تدخل فى نطاق الحاجز المرجانى العظيم Great barrier reef الذى ترصعه مجموعة من الجزر أشبه ماتكون بالضهور horsts[1] ، وتكاد تتألف هذه الجزر برمتها من الجرانيت والازدواز والحجر الجيرى — أى من نفس تكوينات الساحل المقابل . وقد تعرضت كل المناطق التى تقع شرقى خط تقسيم الماء القديم للهبوط على طول الصدع الساحلى ، فطغت عليها مياه المحيط ، وأصبحت منابع ورءوس الأنهار التى كانت تنصرف شرقا إلى المحيط ، تبدو وكأنها أودية معلقة على الجانب المرتفع من الحافة المتصدعة . فكأن الرفرف القارى هنا يشغل الجانب الهابط من الصدع الساحلى مما يؤكد الارتباط البنائى بين الساحل والرفرف القارى .

وعلى الرغم من أن الرفارف القارية وحواشيها تعتبر من الناحية التركيبية جزءا من اليابس القارى بطبيعته السيالية Sialic (إذا أنها تتألف من صخور جرانيتية مثلها فى هذا كمثل كتل القارات ذاتها ، كما تتأثر تكتونيا بالأرض اليابسة) ، إلا أن هيئتها وشكلها وطبوغرافيتها تعزى إلى مدى تأثرها بالعوامل البحرية المختلفة[2] .

وكثيراً ما تظهر فى الرفارف القارية بعيداً عن خطوط السواحل بعض الأحواض الأخدودية canyon-like troughs التى تمتد فوق قيعانها ثم تنحدر بعد ذلك على طول السفوح القارية نحو أغوار المحيط . وقد دلت كثير من الأبحاث وعمليات المسح الجيوديتى ، على أن مثل هذه الأخاديد والخوانق يوجد فى أنحاء شتى من العالم ، وأن بعضها قد يفوق فى حجمه وامتداده مايوجد على الكتل القارية ذاتها[3] . وتتفاوت الخوانق الغائصة فى ابعادها فقد لاتعدو أن تكون فى بعض الأحيان مجرد فجوات notches تظهر على الحافة الخارجية للرفرف القارى ، وقد تمتد بعرضه فى أحيان

---

(١) King, L. C., op. cit., pp. 540-41.

(٢) King, L. C., Ibid., p. 538.

(٣) Francis-Boeuf, J. Bourcart et V. Romanovsky «Les Oceans». Que Sais-je ? Paris, 1957, pp. 41-43.

أخرى فيما بين سيف البحر والسفح القارى[1]. وتتميز نسبة كبيرة من هذه الخوانق بأنها تتسق فى امتدادها مع الأنهار الرئيسية فى اليابس المقابل مثل: أنهار الجانج، والسند والكنغو، والنيجر. ويؤيد الرأى القائل بأن ثمة علاقة توجد بين الخوانق الغائصة وأنهار اليابس، إختفاء الخوانق من الرفارف القارية التى تمتد أمام سواحل المناطق الصحراوية[2] وقد تبدأ الخوانق الغائصة مباشرة من سيف البحر عند مصبات الأنهار الرئيسية، فمثلا خانق سكربس Scripps فى كاليفورنيا يكاد يقترب جداً من مصب نهر كالان Callan الخانقى على اليابس، ولا يبعد عنه إلا بنحو ٢٤٠ متراً فقط، كما أن رافده سمنر Sumner يقترب هو الآخر من خانق سمنر على اليابس المقابل. وهنالك أيضا خوانق أخرى تبعد كثيراً عن سيف البحر مثل خانق السند الغائص الذى يبدأ فى الرفرف القارى على بعد يزيد على ٢٢ كيلو متر من مصب نهر السند، وربما يفسر هذا بأن الخانق الغائص كان يبدأ فى وقت ما من سيف البحر مباشرة ولكنه تعرض لأن يطمر بالرواسب فى الجزء المختفى من امتداده[3].

ويتميز كثير من الخوانق الغائصة بأن لها روافد تنتظم فى نمط شجرى dendritic مثلها فى هذا كمثل الأنهار العادية التى تشق أوديتها فى صخور متجانسة، كما أنها تتسم فى أغلب الأحيان بأنها تنتهى إلى قيعان الأحواض المحيطية بمراوح من الحطام الصخرى debris fans. ويدل تركيب الخوانق الغائصة على أنها لابد قد مرت بمراحل تطورية كتلك التى مرت بها أنهار اليابس، وأنها تعد لهذا السبب من نتاج عمليات نحت عملت فى اتجاهات خطية، ولاشك فى أن التيارات القاعية المعكرة submarine turbidity currents التى ينشط أثرها على طول امتدادات الرفارف القارية، قد أسهمت بنصيب كبير فى عمليات الحفر والتعميق. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن العلماء لم يتمكنوا من التوصل إلى أية أدلة تثبت أن قاع المحيط (على مختلف أعماقه) قد تأثر بتتابع دورات نحت متكررة ولهذا فأغلب تضاريس الرفارف وحيد الدورة monocyclic [4].

---

(١) King. L. C., Ibid., p. 541.

(٢) Defant., op. cit., p. 25.

(٣) Defant., Ibid., p. 28.

(٤) Shepard, F. P. «Terrestrial Toporaphy of Submarine Canyons.» Bull. Geol. Soc. Am. Vol. 60, pp. 1597-612.

وتدل الدراسات الحديثة التى قام بها «ستتسون Stetson» على أن الكثير من الخوانق الغائصة تتعرض حاليا للامتلاء برواسب من الطين الناعم ، كما أن بعضها تملؤه رواسب ترجع إلى البلايستوسين ، وبعضا منها خال تماما من الرواسب دلالة على أنه حفر فى الصخور الأساسية[1] .

وقد كان الاعتقاد فى مبدأ الأمر أن الخوانق الغائصة ماهى إلا أودية غائرة sunken غمرت بالماء بعد أن تعرضت لطغيان البحر ، ولكن ثبت أن بعضها تختلف نشأته تماما عن هذا . إذ أن هنالك نوعين منها :

١ ـــ الأودية الغائصة التى توجد فى المناطق التى تعرضت للجليد فى وقت من الأوقات .

٢ ـــ الأخاديد الغائصة التى توجد فى المناطق التى لم تتعرض للجليد ، وهى توجد عادة على حفات الرفارف القارية فى مناطق الانتقال بينها وبين السفوح القارية وليست لمثل هذه الأخاديد أدنى علاقة طبوغرافية باليابس المجاور .

والأودية الغائصة التى تنتمى إلى النوع الأول هى التى تعد بمثابة استمرار لأنهار اليابس ، أما أودية النوع الثانى فمن بينها الأخدود الطويل الغائص الذى يواجه نهر هدسون Hudson ، والأخاديد التى تقع أمام ساحل كاليفورنيا ، وساحل ولاية واشنجطون (فى شمال غرب الولايات المتحدة) وجزيرة فانكوفر ، والمجموعة التى تمتد أمام الساحل الشرقى لشبه جزيرة كوريا ، وعلى طول كلا ساحلى الجزر اليابانية وجزيرة فورموزه . وتتميز مثل هذه الأخاديد بحوائط شديدة الانحدار ، إذ يتراوح انحدار جوانبها بين ٥ ، ١٠ درجات وقد يصل إلى ما بين ٢٠ ، ٣٥° . ولا بد أن تتكون مثل هذه الجوانب من صخور صلبة طالما أن الطبقات السميكة من الرواسب اللينة لا يمكن أن تظل مستقرة على طول هذه المنحدرات الشديدة دون أن تنهار وتنهدل . ولهذا تظهر الأخاديد الغائصة وكأنها فى مرحلة الشباب مما يدل على أنها تكونت فى فترات حديثة ، وربما يعزى تكونها إلى تأثير الحركات التكتونية (الزلازل ، والصدوع ، والشروخ) فى المناطق الهامشية من الرفارف القارية .

---

(1) King, op. cit., p. 542.

متى تكونت الرفارف القارية ؟

استطاع « لستر كنيج »[1] من دراسته للسواحل الأفريقية أن يثبت أن هذه القارة لم يكن لها رفرف قارى قبل العصر الجوراسى ، إذ أن أقدم الصخور الساحلية ترجع إلى الجوراسى والكرتياسى وينطبق نفس هذا القول على سواحل المحيطين الهندى والأطلنطى ، فقد أثبتت الدراسات الجيولوجية أن تكون الرفارف على طول الجبهات المائية «للجزر القارية» قد حدث ابتداءا من العصر الكرتياسى . أما المحيط الهادى فهو وإن بدت رفارفه حديثة جداً فى تكونها (الزمن الثالث والرابع) إلا أنها هى الأخرى قد تكونت فى فترة أقدم ولكنها ليست أقدم من الكرتياسى . ومعنى هذا أن رفارف المحيط الهادى قد بدأت تتكون فى الكرتياسى ولكنها فيما بعد تعرضت لعوامل تكتونية حديثة هى التى أدت إلى طمس معالم الرفارف القديمة الكرتياسية وأعطت مظهراً حديثاً لها. ويضاف إلى هذا أن سواحل المحيط الهادى (الغربية بصفة خاصة) قد تكونت لها رفارف إزاء هبوط اليابس وغمر البحر له إبان البلايستوسين (مثل بحر جاوة ، وبحر تيمور . . . . إلخ)

والذى يهمنا هنا هو أن الأبحاث السيسمولوجية التى ألقت ضوءا على خصائص وأسماك تكوينات الرفارف القارية[2] ، قد أيدت الرأى القائل بأن كتل القارات إبان الفترة الجيولوجية الطويلة الممتدة من الأركى حتى بداية الكرتياسى لم تكن لها رفارف من أى نوع ، بل كانت تتألف من مواد سيالية sialic وظلت فوق مستوى سطح البحر ، ولم تغمرها مياه المحيطات إلا منذ ۱۲۰ مليون سنة (بداية الكرتياسى)

---

(۱) L. C. King, Ibid., pp. 542-544.

(۲) تنقسم تكوينات قاع المحيط الى ثلاثة انواع هى :

(ا) الحطام ذو الأصل الارضى Terrigenous ويتألف من طمى ورمال ــ يغلب الكوارتز على تكوينها ، وهو يترسب فوق الرفارف القارية .

(ب) الرواسب النيريتية Neritic وتتألف من حطام الصخور المختلط بالمواد العضوية ويدخل فى تكوينها طمى متنوع الألوان يعزى تكونه الى وجود بعض المعادن مثل أكاسيد الحديد والمنجنيز والجلوكونايت Glauconite سلكات الحديد والبوتاسيوم

(جـ) الرواسب البلاجية Pelagic وتوجد فى الاعمـــاق الكبيرة ، وتتألف من الحمأ ooze والصلصال الأحمر ، والحمأ المعروف بالجلوبجرينا Globigerina (أنظر «كوكر» المرجع السابق ص ۱۱۲) .

جيومورفولوجية الرفارف القارية :

تتميز الرفارف القارية بأنها توجد أمام كافة أنواع السواحل سواء كانت هذه السواحل سواحل غمر coasts of submergence أو سواحل حسر coasts of emergence ، أو كانت ملتوية ، أو متصدعة ، ولكنها تختلف ضيقا واتساعا باختلاف بنية السواحل المقابلة :

١ — إذ تتميز الرفارف القارية الممتدة أمام السواحل الملتوية بضيقها بصفة عامة ويتجلى هذا بوضوح فى حالة سواحل المحيط الهادى الشرقية التى تمتد بطولها سلاسل من الجبال الملتوية ، وفى سواحل المحيط الهادى الغربية حيث توجد أقواس من الجزر الجبلية .

٢ — سواحل الإلتواءات المنفردة monoclinal لها رفارف ضيقة أو متوسطة — بصورة عامة — إلا إذا كانت مثل هذه السواحل قد تعرضت لطغيان بحرى إذ تظهر لها فى هذه الحالة هوامش واسعة كما هى الحال فى ساحل كوينزلاند الاسترالى .

٣ — تظهر أعرض الرفارف القارية وأكثرها اتساعا على هوامش القارات التى تعرضت لحركات من الهبوط التدريجى البطىء ، سواء كان هذا بتأثير حركات توازنية أو تكتونية . ويظهر هذا النوع من الرفارف بجلاء ووضوح على طول ساحل سيبيريا المطل على المحيط المتجمد الشمالى (البحر المتوسط القطبى) ، وساحل أمريكا الشمالية فيما بين الجراندبانك Grand Bank (أمام نيوفوندلاند) والأرخبيل القطبى عند خط عرض ٨٣° شمالا .

معنى هذا — إذن — أن الرفارف القارية تعد جزءاً من القارات وترتبط بها بنائياً ، كما أنها قد تأثرت أيضا دون شك بكل الحركات التكتونية التى تعرضت لها السواحل التى تواجهها . وقد أتاحت دراسة سواحل الحسر فى بعض جهات العالم ، الفرصة أمام العلماء للتعرف على طبيعة مناطق الانتقال بين اليابس والمحيط ، ومدى العلاقة بين دورات النحت التى يتعرض لها اليابس ودورات الإرساب التى تحدث إما فى السهول الساحلية أو فى مناطق الرفارف القارية .

٤ — تتميز الرفارف القارية فى المحيط الهادى بأنها أكثر الرفارف انحداراً ، ويرجع هذا إلى تأثير سياج المرتفعات الإلتوائية التى تكاد تطوق هذا المحيط . ولهذا نجد مثلا أن الرفرف الشرقى لهذا المحيط فيما بين كاليفورنيا وكندا، لا يتجاوز اتساعه ١٦ كيلو متراً، ويتميز بعدم استوائه وكثرة الجزر الساحلية off shore التى هى عبارة عن نتوءات فى سطح الرفرف القارى . كما تخترقه أيضا مجموعة كبيرة من الأخاديد الغائصة تزيد عددها على ٦٦ . ويتسم الهامش المحيطى لهذا الرفرف كذلك بشدة انحداره ، إذ يكاد يصل انحداره إلى نفس معدل انحدار جبال سيرانيفادا ، فهو يهوى فجأة من منسوب — ١٦٥ متر تقريبا (الحد الخارجى للرفرف) إلى أكثر من ٣٣٠٠ متر عند قاع المحيط الهادى[١]

٥ — بين الرفارف القارية والسواحل المقابلة لها تناظر متكامل فى كل مرحلة من مراحل التطور منذ أواسط الزمن الجيولوجى الثانى حتى الآن . ويتجلى مثل هذا التناظر فى المراحل التطورية الآتية :

(ا) المرحلة التالية لتمزق جندوانا ولوراسيا :

وقد حدث هذا التمزق فى الزمن الجيولوجى الثانى، وقد أسفر عن تكون خطوط جديدة من السواحل كما هى الحال فى كلا ساحلى المحيط الأطلنطى اللذين لم يكن لهما وجود عندما كانت كل من لوراسيا وجندوانا بمثابة كتلة ملمومة واحدة . وقد تعرضت بعد ذلك كل المناطق الساحلية الجديدة للهبوط واختفت معالمها الجيومورفولوجية وأصبحت تمثل قيعاناً لتراكم الرواسب منذ فجر العصر الكرنياسى Fall zone peneplain . أما فى اليابس المجاور ، فقد حدثت عملية استعادة شباب للأنهار المبتورة betrun Ked ، وارتبطت بها ظاهرة تراجع الحافات والحوائط التى كانت تزود السواحل بكميات هائلة من الرواسب وحطام الصخر . . ومن هنا كان مصدر تلك الكميات الضخمة السميكة من الرواسب الكريتاسية التى يتألف منها بناء الرفارف القارية

(ب) فى أواخر الزمن الثانى وأوائل وأواسط الثالث : ظلت الكتل القارية فى حالة من الثبات والاستقرار فعملت فيها عوامل التخفيض الخارجية حتى جعلتها

B. C. King, ibid, 543-46. ( )

تتداعى وتسوى ، فى الأوليجوسين تسوية تامة . ولعل هذا هو السبب فى ضآلة الحطام الذى كان يلقى فى البحر ، وفى اختفاء الرواسب الأوليجوسينية من مناطق الرفارف القارية . والمهم أنه سادت فترة هدوء مماثلة فى نطاقات الرفارف القارية مما أدى إلى تخفيضها وتسويتها هى الأخرى . ومعنى هذا إذن أن كلا من اليابس والرفرف القارى كان يتسم بقـــدر ضئيل جداً من التضرس إبان أواسط الزمن الجيولوجى الثالث .

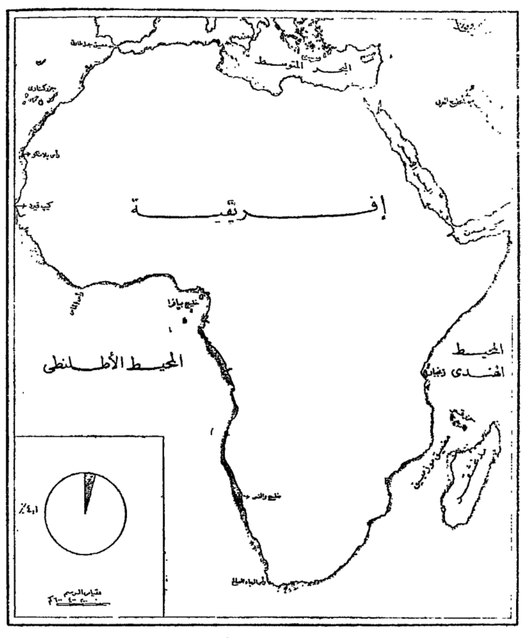
(ج) فى أواخر الزمن الثالث : أصيب اليابس بحركات أرضية حدثت على نطاق واسع ، وأدت من بين ما أدت إلى استعادة عوامل النحت لنشاطها . كما تعرضت الرفارف القارية أيضا لنفس الحركات الأرضية فتكونت فيها أحواض هابطة وخصوصاً بالقرب من السواحل . أما الحطام المشتق من اليابس نتيجة استئناف عوامل النحت لنشاطها ، فقد كان يلقى به دوما فوق الرفارف القارية وفى الأحواض الهابطة التى تكونت فوقها . وكرد فعل توازنى isostastic لتراكم هذه الرواسب ، تعرضت حواف الرفارف borders (عند التقائها بالسفح القارى) للارتفاع فى عصر البلايوسين ، فأصبحت فى متناول عوامل النحت بفعل الأمواج والتيارات البحرية .

(د) شهدت نهاية الزمن الثالث حركات رافعة عظيمة أدت إلى إمالة كثير من المناطق الساحلية صوب الخارج (البحر) outward tilting ؛ وسرعان ما انحدرت على هذه المناطق المائلة كل المجارى المائية التى استعادت شبابها . وقد تكررت نفس هذه التغيرات بكل حذافيرها ودقائقها فى الرفارف القارية المجاورة ؛ مما أدى إلى ظهور مجار مائية تنحدر فوقها واستطاعت هذه المجارى أن تزداد عمقا فى الزمن الجيولوجى الرابع ، وتحولت إلى خوانق غائصة تتميز الكثرة منها بشدة انحدارها ، وبأنها تبلغ أقصى اتساع لها فى أحباسها الوسطى ، مما يجعلها قريبة الشبه من بعض الأنهار المتعمقة incised التى تتخذ دليلا على حدوث تجدد للطاقة على النحت والتخفيض.

توزيع الرفارف

أولا : فى أفريقيا :

يتميز الرفرف المتوسطى للقارة الإفريقية بأنه يحف بساحل التوائى فى الغرب ولهذا فهو ضيق على طول امتداده أمام سواحل إقليم أطلس ، ويستمر على هذا



شكل (٦) الرفرف الأفريقى

النحو حتى فلسطين فيما عدا منطقة خليج قابس التى يتزايد اتساع الرفرف فيها إلى نحو ٢٧٠ كيلو متر . أما البحر الأحمر فرفارفه ضيقة لتكوينه الأخدودى ، ولو أنها تتسع بالقرب من بوغاز باب المندب الذى يتحد فيه الرفرف الافريقى مع الرفرف الآسيوى .

وإذا ما جاوزنا باب المندب جنوبا ، يعود الرفرف إلى سابق ضيقه بحيث لا يزيد اتساعه أمام ساحل الصومال (حتى مدينة ممباسا) على ١٦ كيلو متر وقد

يضيق فى بعض قطاعاته إلى أقل من ثلاثة كيلو مترات . أما رفرف ساحل تنجانيقا الجنوبى فيتألف أغلبه من صخور كريتاسية وهو يواصل امتداده نحو الجنوب حتى موزمبيق كنطاق عريض يتراوح اتساعه بين ٦٥ ، ١٤٥ كيلو متر ويبلغ سمك رواسب المنتمية إلى الفترة الجيولوجية الممتدة فيما بين الكريتاسى والهولوسين نحو ٢٠٠٠ متر[1] .

وفيما بين ناتال ومقاطعة الكيب الشرقية يعود الساحل إلى وعورته وشدة انحداره ، وينعكس هذا على الرفرف القارى الذى يضيق ضيقا واضحاً وخاصة عند بورت سانت جونس حيث يتخذ الساحل شكل التواء منفرد monocline .

وعند الطرف الجنوبى للقارة الافريقية يتخذ الرفرف القارى شكل مثلث تمتد قاعدته فيما بين بورت اليزابث وكيبتاون وتمتد رأسه نحو الجنوب لمسافة تزيد على ٢٤٠ كيلو متر . ويعرف الرفرف فى هذا الجزء من القارة بشط أجلهاس Agulhas bank [2] ، وأغلب رواسبه من الرمال المشتقة من صخور الساحل المقابل .

ويمتد أمام أكثر جهات الساحل الغربى لأفريقيا فيما بين رأس الرجاء الصالح وخليج غانة رفرف يتراوح اتساعه بين ٣٢ ، ١٦٠ كيلومتر ، يتألف من رواسب تختلف قوامها من مكان لآخر ، فهى أحيانا من الرمال وأحيانا أخرى من الطمى وخاصة عند مصبات الأنهار الضخمة مثل الكنغو والنيجر . أما إلى الغرب من دلتا النيجر فيضيق الرفرف مرة أخرى ولا يتجاوز اتساعه الثلاثين كيلو مترا إلا فيما ندر ويتميز بضحولته أيضا ، إذ لا يزيد عمقه على ٢٥ مترا .

وإلى الغرب من ليبريا يعود الرفرف الافريقى إلى الاتساع فيصل إلى أكثر من ١٢٠ كيلومتر ، وذلك لوجود ساحل مغمور فيما بين سيراليونى وغمبيا . وعموما ، يتميز هامش الرفرف بأنه أكثر استقامة من سيف البحر ، وهو يستمر على هذا النحو حتى رأس بلانكو تقريبا . أما إلى الشمال منها فيثبت عرض الرفرف عند ١٢٨ كيلو متر حتى طنجه وذلك لوجود ساحل مغمور هو الذى تبرز منه مجموعة جزر كناريا .

---

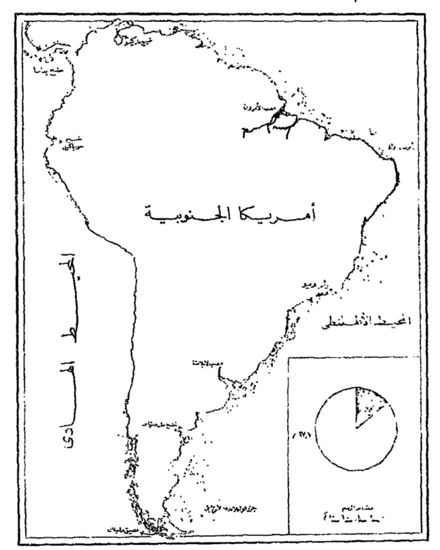
(١) L. C. King, Ibid., 550-52.

(٢) L. D. Stamp. Africa : A study in tropical development». New York 2nd. Ed., 1955., pp. 60-61.

ومن هذا العرض : يتضح لنا ، أن الرفرف الافريقي يتميز بضيقه نتيجة الخصائص البنائية التي يتميز بها الساحل المقابل ، ولهذا فهو يعد شاذا إذا ما جاوز اتساعه ١٥٠ كيلو متر طالما أن المتوسط هو ١٥ كيلو متر .

ثانيا : في أمريكا الجنوبية :

يتميز الرفرف القارى فيما بين مصبي نهرى الأورينوكو والأمزون بأنه ضحل ، وعريض (١٦٠ كم) ويتألف من رواسب من الطمى بالقرب من اليابس ومن



شكل (٧) رفرف أمريكا الجنوبية

الرمال بالقرب من البحر . وعند رأس سان رُك يضيق إلى نحو ١٥ كيلو متر ويستمر على هذا النحو حتى باهيا . وفيما بين باهيا ورأس فريو Cape Frio ، يمتد شاطىء رويال

تشارلوت الضحل الذى ترصعه تكوينات المرجان ، وإلى الجنوب من رأس فريو يزداد الرفرف عمقا واتساعا (أكثر من ١٦٠ كم) ويتميز سطحه بعدم الاستواء ، مما يحفز على الاعتقاد بأنه يمثل بناءا طبوغرافيا ساحليا غائصا .

وإلى الجنوب من مصب لابلاته يزيد اتساع الرفرف بصورة واضحة ، إذ يتراوح اتساعه بين ٣٢٠ ، ٥٦٠ كم ، وهو يتسم بعدم الاستواء على طول ساحل بتاجونيا ، وبأن رواسبه لم تصنف وفق القاعدة العامة — أى ترسب المواد الخشنة بعيداً عن الساحل والناعمة قريبة منه ، بل تتألف كلها من مواد خشنة تحمل على الاعتقاد بأنها ذات أصل جليدى .

وأما ساحل شيلى الجنوبى الذى تقطعه الفيوردات ، فيحف به رفرف ضيق ذو سطح غير مستوى لابد أنه يرجع فى تكوينه إلى أثر الجليد . وفى شمال شيلى وبيرو ، يتسع الرفرف قليلا ويزول ما به من تضرس ، وتمتد عند نهايته البحرية أخاديد شيلى وبيرو الغائصة التى يزيد عمقها على ٧٥٠٠ متر[١] ، ولهذا يتسم كل الإقليم الممتد من قمم جبال الآنديز حتى هذه الأخاديد بأنه يميل ميلا شديداً صوبها . ويختفى الرفرف — بعد ذلك — تماما فيما بين إكوادور ، وكولومبيا جنوبا ، وبناما شمالا[٢] فيما عدا خليج جواياكيل Guayaquil .

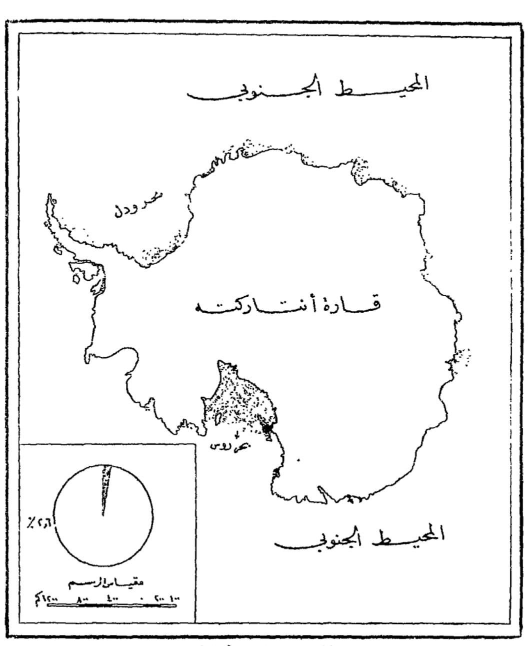
ثالثا : فى قارة أنتاركتة :

لم يدرس بعد رفرف هذه القارة دراسة تفصيلية ، ولكنه يمتاز كغيره من رفارف المناطق الجليدية ، أو التى تأثرت فيما مضى بالجليد ، بعدم انتظامه بقلة واستوائه وبشدة عمقه عند حفته الخارجية ، ويرجع هذا إلى أن الغطاء الجليدى الذى ترزح تحته هذه

---

(١) R. C. Murphy «Oceanic phenomena along the west coast of South America.» Geog. Rev., 1926. p. 12.

(٢) ظهر برزخ بناما فى نهاية الاوليجوسين وأدى وقتذاك الى حدوث ارتباط بيولوجى واضح بين قارتى أمريكا الشمالية والجنوبية ، ولكنه قطع فى بداية الميوسين وعاد الى الظهور مرة اخرى فى وسطه . والذى يجدد ذكره أن الشكل الحالى للبرزخ تكون فى البلايوسين ، كما تدل على ذلك هجرات الثدييات من امريكا الشمالية الى البرازيل والانديز (انظر King, L. op. cit., ص ص ٥٥٢ — ٥٥٣) .

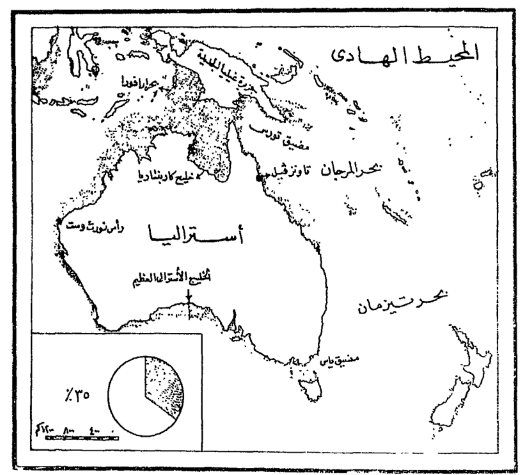


شكل (٨) رفرف أنتاركته

القارة ، قد أدى إلى هبوطها فى وسطها ، وعوّض هذا الهبوط توازنيا ، بارتفاع الحاجز الجبلى المحيط بها مع شدة ميل المناطق الهامشية صوب الخارج . ويمكن القول إجمالا . بأن رفرف انتاركته ضيق فى كل قطاعاته المطلة على المحيط الهندى ، ولكنه أكثر اتساعا فى المحيطين الهادى والأطلنطى .

رابعا : فى قارة استراليا :

يتميز رفرف هذه القارة عموما بالاتساع ، فقد سبق أن ذكرنا أنه يمثل مايقرب من ٣٥٪ من مساحتها الإجمالية ، وهو يظهر أمام سواحل جزيرة تزمانيا فى الجنوب ويدور حولها بحيث يمكننا أن نعتبر مضيق باس Bass الضحل بمثابة بحر رفرفى ، ويظهر أمام الخليج الاسترالى العظيم على شكل هلال يربو اتساعه على ١٦٠ كيلو متر ولا يزيد عمقه عند حفته الخارجية على ٢٠ مترا . ويضيق رفرف القارة بعد ذلك عن رأس ليوين Cape Leeuwin حتى الرأس الشمالى الغربى . ولا يزيد اتساعه فى كل أجزاء هذا القطاع على ٦٥ كيلو متر . وإذا اتجهنا بعد ذلك صوب الشمال الشرقى ، يعود الرفرف مرة أخرى إلى الاتساع ، ويحتوى بحر تيمور تماما ، ولا يبعد عن جزيرة تيمور ذاتها بأكثر من ٨٠ كيلو متر ، ومعنى هذا أن عرضه فى هذه المنطقة يصل إلى نحو ٣٢٠ كيلو مترا ، وهو يبدو على شكل حوض لا يزيد عمقه على عشرة أمتار ، ويبدو أن



شكل (٩) رفرف قارة استراليا

بناء هذا الحوض الهابط قد ارتبط بتكوين الأقواس الجزرية القريبة فى أندونيسيا.

وإلى الشمال من رأس أرنم Cape Arnhem يصل الرفرف الاسترالى إلى أقصى اتساع له ، إذ يستمر فى امتداده نحو الشمال حتى يحتوى جزيرة غينيا الجديدة ، التى دلت الأبحاث الجيولوجية — التى أجريت فيها لغرض البحث عن البترول ، على أن القسم الجنوبى منها ينتمى جيولوجيا إلى القارة الاسترالية . وعلى هذا نرى أن بحر أرافورا Arafura ، وخليج كربنتاريا يمثلان معا ، نموذجا لواحد من أوسع البحار الرفرفية فى العالم ، وقد كان هذا البحر إبان البلايستوسين أرضا يابسة على شكل معبر أرضى كان يوصل قارة أستراليا بجنوب شرق آسيا . ويدل توزع بعض المنخفضات الطولية فى بحر أرافورا ، على وجود نظام نهرى قديم كان ينحدر غربا ، ولكنه تعرض للغمر أزاء طغيان البحر على كل الهوامش الشمالية للقارة[1] .

وعند مضيق تورس Torres ، يظهر الرفرف الاسترالى ضيقا فى أول الأمر ، ولكنه يعود إلى الاتساع أمام تاونزڤيل Townsville ويستمر على هذا النحو من الاتساع لمسافة تربو على ١٦٠٠ كيلو متر ، وبعرض يزيد على ١٦٠ كيلومتر . ويعد الرفرف أمام الساحل الشرقى للقارة ، بمثابة الأساس الذى بنيت فوقه شعاب المرجان التى يتكون منها الحاجز الاسترالى العظيم . ويبدو الرفرف هنا على شكل «مصطبة» ذات سطح متماوج لا يزيد عمقها على ٦٥ متر . وتمثل استمرارا لسهول البلايوسين الساحلية ، وتكاد لا تخترقها أية مجار مائية إلا فى كابريكورن تشانل Capricorn channel [2] .

ولعل أضيق قطاعات الرفرف الاسترالى ، هو ذلك القطاع الممتد أمام الساحل فيما بين بريزبين Brisbane ، ورأس هوى Cape Howe ، حيث لا يزيد اتساعه على ٣٠ كيلو متر . ويرجع هذا إلى أن الساحل المقابل يتألف من التواء منفرد ، ينحدر فجائيا صوب البحر .

---

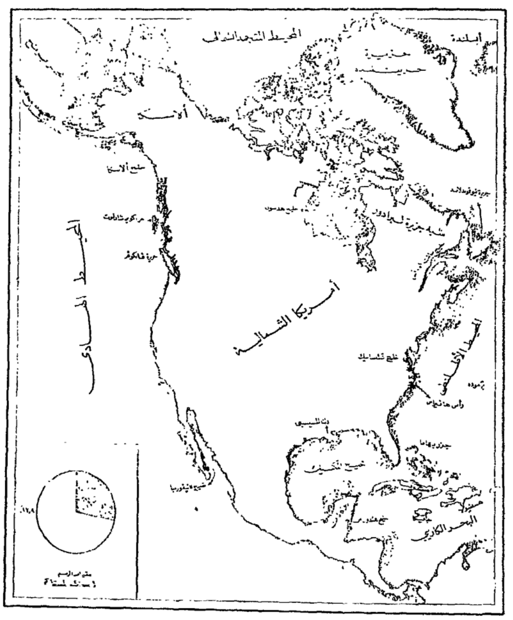
(١) R. A. Daly «Swinging Sea-level of the ice-age » Bull. Geol. Soc. Am., vol. 40. 1929, pp. 721-24.

(٢) يمتد الحاجز المرجانى العظيم The great barrier reef على طول السواحل الشرقية لاستراليا ، أو ساحل كوينزلاند — بصفة خاصة — لمسافة تبلغ نحو ١٩٢٠ كيلومتر وهو يبعد عن الساحل فى الجنوب ويقترب منه كثيرا فى الشمال (انظر Ottis W. Freeman «Geography of the Pacific». New York,1951, p.94.)

خامسا : فى أمريكا الشمالية :

يتميز رفرف أمريكا الشمالية (٨ر٢٧٪ من مساحتها) بعدة خصائص :

١ ـــ عظم اتساعه على طول السواحل الشمالية للقارة مما يدل على أنها تعرضت للغمر على نطاق واسع ، ويتجلى هذا فى خليج هدسون ، والبحار التى تمتد بين جزر الأرخبيل القطبى ، إذ أنها تعد كلها بمثابة بحار رفرفية .



شكل (١٠) رفرف أمريكا الشمالية

٢ — يضيق الرفرف أمام ساحل لبرادور حيث لا يزيد اتساعة على ١٢٨ كم ، ويرجع هذا إلى أن هضبة لبرادور أشبه ما تكون بالضهر Horst ، وتتميز سواحلها بأنها صدعية التكوين .

٣ — تمثل شواطىء الجراند بانكس الغائصة Grand Banks (التي تبعد من جزيرة نيوفوندلاند بنحو ٢٩٠ كيلو متر) امتداداً لرفرف القارة الذى يصل اتساعه عندها إلى أكثر من ٤٠٠ كيلو متر ، ولا يزيد عمقه على ١٥ مترا ، ويحده من الجنوب أخدود كابوت Cabot treneh الغائص الذى يتسق مع امتداد خليج سانت لورنس . أما رفرف خليج مين Main فذو سطح غير مستو ، وتنتشر فوقه رواسب ذات أصل جليدى .

٤ — يتميز رفرف القارة الشرقى فيما بين رأس كُد Cape Cod ورأس هاتيراس Cape Hatteras ، باستوائه وتسطحه ، وبأن خط العمق المتساوى ١٢٠ متر (٦٠ قامة) يمثل الحد الخارجى لحفته ، ويبلغ اتساعه نحو ١١٢ كيلو مترا . ويستمر الرفرف فى الضيق حتى يختفى تماما عند بالم بيتش Palm Beach فى شبه جزيرة فلوريدا . هذا مع ملاحظة أن شواطىء بهاما الغائصة ما هى فى الواقع إلا هضبة مغمورة بالمياه لا علاقة لها برفرف القارة . أما الرفرف الغربى لفلوريدا ، فعريض يزيد اتساعه على ٢٤٠ كيلو متر كما أنه ضحل لا يتجاوز عمقه ٨٠ مترا . وعند دلتا نهر المسيسبى يتألف الرفرف القارى من رواسب تنتمى إلى الزمن الثالث ، وهو أقل اتساعا من رفرف الساحل الغربى لفلوريدا ، ولكنه يتسع مرة ثانية على طول سواحل خليج المكسيك حتى يصل إلى أقصى اتساع له على الساحل الغربى لشبه جزيرة يوكاتان . أما الساحل الشرقى لشبه جزيرة يوكاتان فلا يمتد أمامه رفرف قارى وذلك لطبيعته الصدعيه ، وإلى الجنوب منها يظهر رفرف هندوراس الذى يزيد اتساعه على ٢٤٠ كيلو متر ، ولكنه يعود فيضيق إلى نحو ٦٥ كيلو متر أمام سواحل نيكاراجوا ، وكستاريكا[١] .

---

(١) R. C. Cowen «Frontiers of the Sea.» New York, 1960, pp. 70-73.

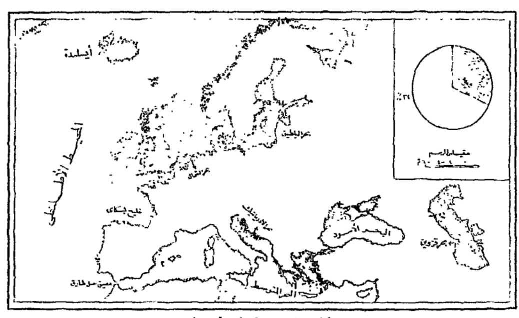
٥ — يتميز الرفرف الغربي لأمريكا الوسطى بالضيق على طول امتداده فيما بين بناما وخليج كاليفورنيا . ولا يظهر الرفرف على الاطلاق أمام الساحل الغربي لهذا الخليج ، بل تتلاطم أمواج المياه العميقة مباشرة بالساحل . وفيما بين كاليفورنيا وكندا ، لا يزيد اتساع الرفرف في المتوسط على ١٦ كيلومتر ، ويتميز بعدم استواء يتجلى في ظهور كثير من الحافات والمنخفضات التي تعد صنوا لما يظهر من صور طبوغرافية على اليابس المقابل ؛ كما تمتد أمامه أعداد من الأخاديد الغائصة (عددها ٦٦) .

٦ — يزداد الرفرف اتساعا على طول السواحل الغربية لكندا ؛ وألاسكا وتدل رواسب قاعه على التأثر بالجليد .

سادسا : في أوراسيا :

يتميز الرفرف القاري في بحر إيجه بضيق واضح ، ولو أنه قد ينبعج إلى الخارج في بعض المناطق ليضم بعض الجزر مثل جزر سيكلادس Cyclades وغيرها . أما البحر الأيوني فليس له رفرف قاري على الرغم من أن امتداده الشمالي الممثل في البحر الأدرياتي يعد بحراً رفرفيا .

ولعل أوضح الجهات التي يظهر فيها الرفرف الأوربي ، إنما تتمثل في خاصرة البحر المتوسط ؛ فجزيرة صقلية يمتد رفرفها إلى مالطة ورأس بون في تونس مما يدل



شكل (١١) رفرف أوربا

على وجود معبر أرضى فى البلايستوسين كان يوصل بين شمال افريقيا وأوربا عبر خاصرة البحر المتوسط . أما بقية السواحل الإيطالية فذات رفارف ضيقة وخاصة على طول الساحل الليجورى فى الشمال حتى مدينة مرسيليا . ومن مرسيليا إلى كارتاهينا Cartagene يبلغ متوسط اتساع الرفرف نحو ٦٥ كيلو متر ، ولكنه يتناقص إلى نحو ٤٥ كيلو متر أمام معظم سواحل شبه جزيرة أيبيريا ، وقد يضيق فى بعض المواضع إلى ١٥ كيلو متر فقط .

وعند بيارتيز يزداد الرفرف الأوربى اتساعا ، ويظهر هذا بوضوح فى خليج بسكى حيث يصل اتساعه إلى نحو ٤٠٠ كيلو متر وتتميز حفته بأنها تتجه نحو الشمال الغربى ، ومعنى هذا تزايده عرضا واتساعا فى هذا الاتجاه حتى سواحل إيرلنـده الغربية وعندها تنحرف حفته صوب الشمال الشرقى إلى جزر شتلند Shetland ، ثم تنحنى مرة أخرى ناحية الجنوب الشرقى إلى مضيق سكا جراك ومنها إلى بحر البلطيق . ومعنى هذا إذن أن كلا من : بحر الشمال ، والقنال الانجليزى ، والبحر الأيرلندى ومضايق سكا جراك ، وكاتجات ، والسوند ، والبحر البلطى . . كلها عبارة عن بحار رفرفية Shelf Seas وتبلغ مساحتها مجتمعة أكثر من ١٫١٧٥٫٠٠٠ كيلومتر مربع .

وعلى النقيض من رفرف بحر الشمال (وامتداداته) الذى يعد من أوسع وأضخم الرفارف العالية ، يتميز الرفرف النرويجى بضيق واضح وبانحدار فجائى صوب مياه الأطلنطى العميقة . وتقطعه أعداد كبيرة من الأخاديد الغائضة التى تسير أحيانا متعامدة على الساحل ، وأحيانا أخرى موازية له ، ويبدو أن أغلبها حفر بفعل الجليد . ويعزى ضيق الرفرف النرويجى إلى طبيعة الساحل بجباله الالتوائية .

أما على طول ساحل سيبيريا المطل على المحيط المتجمد الشمالى فيمتد أعرض الرفارف العالمية ، إذ يزيد اتساعه — كما سبق أن ذكرنا — على ٨٠٠ ميل (١٢٨٠ كيلومتر) ، وهو يمثل على الأرجح نطاقا عريضا من سهول سيبيريا الشمالية المنبسطة ، تعرض للهبوط بتأثير الغطاءات الجليدية فطغت عليه مياه البحر . أما الحفة الخارجية لهذا الرفرف فتهوى بصورة فجائية إلى عمق يزيد على ٥٠٠٠ متر مما يدل على شدة انحدار السفح القارى تحت مياه المحيط المتجمد الشمالى .

أما الرفارف الشرقية لآسيا فتتميز بشدة ضيقها أمام سواحل الأقواس الجزرية Island arcs ، وباتساعها أمام الهوامش القارية المغمورة ، ولهذا يتميز رفرف كمتشتكا الغربى بعظم اتساعه إذا ما قورن برفرفها الشرق ويتجلى هذا إذا ما قورن بين بحر أختسك الضحل نسبيا وبحر برنج . وأما بحر اليابان فرفارفه ضيقة بصورة عامة ، وهو يبدو على شكل حوض هابط يحيط به سياج من السلاسل الجبلية المرتفعة التى تنحدر من مناسيب ذراها وقممها العالية إلى أعماق هذا البحر بمعدل يزيد على ٣٤٠٠ متر . أما الطرف الجنوبى لبحر اليابان فيتحد عنده رفرفا اليابان وكوريا عبر مضيق توشيما Tushima .

ويمتد فيما بين اليابان وفرموزا . رفرف عريض يتجاوز اتساعه ١٢٠٠ كيلو متر (٧٥٠ ميل) ويتمثل فى البحر الأصفر وبحر الصين الشرقى اللذين يرجح أنهما يمثلان جزءاً هابطا من القارة الآسيوية . ويستمر الرفرف فيما بين فرموزا وخليج تنكن Tonkin محافظا على اتساع منتظم لا يزيد على ٢٤٠ كيلو متر [١] .

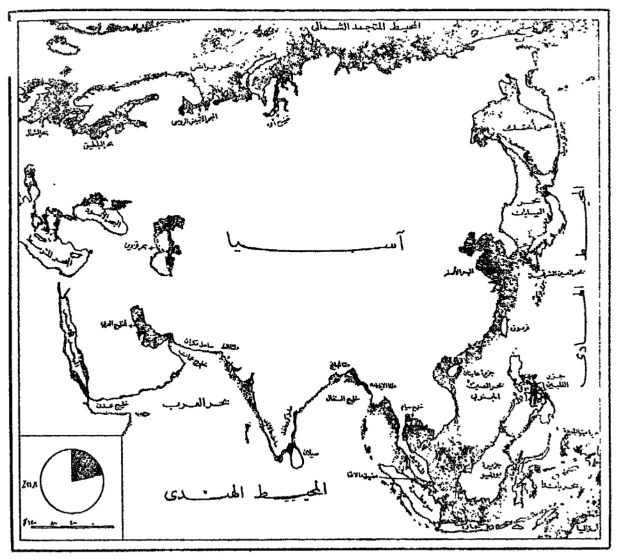
ويمتد أمام سواحل شبه جزيرة الصين الهندية رفرف واسع يضم خليج سيام ، ومضيق مالاقا ، وبحر جاوه ، ويستمر شرقا حتى مضيق ماكاسار Makasar ، وتقع جزيرتا سومطره وجاوه عند حافته الجنوبية ، وتحتل بورنيو حافتيه الشمالية والشرقية . ويتميز هذا الرفرف بأن عمقه لا يزيد إطلاقا على ٨٠ متر[٢] (٤٠ قامة) وتدل الأودية الغارقة التى تتوزع فوقه ـــ والتى تعد بمثابة امتدادات لأودية اليابس ـــ تدل على أنه يمثل إقليما هابطاً ، وأنه كان فى وقت من الأوقات أرضاً يابسة قبل أن تغمرها مياه البحر . وأما على طول الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو وحتى مصب نهر إيراوادى فى بورما فيمتد رفرف متوسط الاتساع ، ذو سطح غير منتظم ، إذ تكثر فيه القمم المستديرة التى يظهر بعضها فوق سطح البحر على شكل جزر ساحلية ـــ كما هى الحال فى أرخبيل مرجوى Mergui ، مما يدل على حدوث غمر للمظاهر الطبوغرافية الساحلية . ويضيق الرفرف إذا ما جاوزنا

---

(١) Betz, F., and H. H. Hess» The floor of the North Pacific Ocean». Geog. Rev., vol. 32. pp. 99-116., 1942.

(٢) Spencer, J E. «Asia cast hy Sowth.» New Yok, 1954. Pp. 9—20.

ساحل دلتا نهر الإيراوادى(١) ، ثم يتسع مرة أخرى أمام دلتا نهر الجانج ثم يلتقى بالرفرف الهندى الشرقى الذى يبلغ متوسط اتساعه ٣٢ كيلومتر ويظل محافظا على اتساعه على هذا النحو حتى إلى الشمال من ساحل مالابار حيث تطل جبال الغات الغربية على مياه بحر العرب بسفوح شديدة الانحدار . وإلى الشمال من ساحل مالابار وحتى كراتشى يتزايد عرض الرفرف الهندى ويصل إلى أقصى اتساع له (٢٤٠ كيلومتر) أمام بمباى.



شكل (١٢) الرفرف الآسيوى

(١) لا يزيد اتساعه هنا على ٨٠ كيلو متر وقد يضيق الى نحو ٤٥ كيلو متر.

ويحف بساحل مكران الشديد الانحدار ، رفرف ضيق لا يزيد اتساعه على ٢٠ كيلومتر ، يمتد حتى خليج عمان . أما الخليج العربى فهو عبارة عن بحر رفرفى (مساحته ٢٣٩ ألف كيلومتر مربع ومتوسط عمقه ٢٥ متر) تعرض طرفه الشمالى لأن يطمر ويردم تدريجياً بالرواسب التى يلقى بها الرافدان (دجله والفرات) فيه . فكأن مساحته تتناقص إذن من الشمال إلى الجنوب . ومن الأمور الثابتة الآن أن مصبى نهرى دجلة والفرات ، كانا فيما مضى مستقلين عن بعضهما (إبان الفترة التاريخية الممتدة من ١٠ آلاف ق . م إلى ٥ آلاف ق . م) وكان الساحل الشمالى للخليج العربى لا يبعد عن الموضع الحالى لمدينة بغداد إلا ببضعة عشرات من الكيلو مترات . وهكذا استطاع كل نهر منهما أن يبنى لنفسه دلتا مستقلة ، ازدادت امتداداً على حساب مياه الخليج العربى . وكانت توجد فى نفس الوقت أنهار أخرى تصب فى الخليج العربى أهمها نهرى الكركة ، وقارون اللذين كانا ينبعان من جبال زاجروس ، ويهبطان منها لجائيا إلى سهول العراق ، ويلقيان بكل حمولتهما من الرواسب فى مياه الخليج العربى فتكونت لهما ـ أيضاً ـ دلتا كبيرة ازدادت نمواً بمضى السنين وفاقت فى مساحتها دلتا دجلة أو الفرات ، وكونت لسانا من الرواسب فصل بين دلتى هذين النهرين وبين الخليج العربى . فانتشرت مياههما وتحولت إلى مجموعة كبيرة من البطائح المائية والأهوار ، وتفرعت إلى عدد مربك من المجارى المائية والأفرع الدلتاوية ، وتراجعت قمة الخليج العربى صوب الجنوب الشرقى بمعدل ١٦٠٠ متر فى كل خمسين سنة (أى ٣٢ متر سنويا) وكانت الأرض تجف جزئيا فى أغلب المناطق بمجرد انحسار البحر عنها . وانتهى الأمر باندماج النهرين فى مجرى واحد هو مصب شط العرب ، الذى مازال يخترق بطائح مائية واسعة ، هى التى تعرف محليا بالأهوار[1] .

---

(1) W. B. Fisher «The middle east » London 4th Ed., 1961., pp. 361-63.

خاتمـة :

الرفارف القارية إذن هى عتبات القارات ، وتعد جزءاً لا يتجزأ من الكتل القارية ، وقد حدا هذا بالولايات المتحدة إلى إصدار قرار فى سنة ١٩٤٦ باعتبار المناطق الممتدة من خط الساحل إلى عمق — ٢٠٠ متر (١٠٠ قامة) جزءاً من مياهها الإقليمية ، وذلك لما لها من أهمية كمصائد للأسماك ذات شأن . ولهذا تعد الرفارف القارية بمثابة « هدية العصر الجليدى للانسان الحديث » إذ تكاد تتركز الغالبية العظمى من الرفارف العالمية فى المناطق التى تأثرت بالجليد منذ ما يزيد على ١٨ ألف سنة ، وهى بعينها نفس المناطق الجغرافية التى تتوزع فيها مصائد الأسماك المحيطية التى تنتج أغلب كمية الأسماك المشتركة فى التجارة الدولية . وكثيرا ما توجد فى الرفارف القارية تلال قبابية مستديرة الشكل تعد مصدراً للحصول على الملح والكبريت وغيرها من الرواسب المعدنية ، كما أن المناطق التى تم الكشف فيها عن البترول فى قاع البحر ، يكاد يقتصر توزيع أغلبها على الرفارف القارية ، كما هى الحال فى رفرف أمريكا الشمالية المطل على خليج المكسيك وكما هى الحال أيضا فى رفرف خليج السويس (حيث تم الكشف أخيراً عن حقل المرجان الذى يعد من أغنى الحقول البترولية المصرية) .

المراجع

(1) Betz, F. and Hess, H. H. «The floor of the North Pacific Ocean.» Geog. Rev., vol. 32, 1942, pp. 99-116.

(2) Carson, R. «The edge of the Sea». Boston, 1955.

(3) Carson, R. «The Sea around us». New York, 1950.

(4) Coker, R. E. «The great and wide Sea». University of N. Carolina Press, 1954.

(5) Colman, J. S. «The Sea and its mysteries». New York, 1950.

(6) Cowen, R. C. «Frontiers of the Sea». New York, 1960.

(7) Defant, A. «Physical oceanography». London, 1961.

(8) Daly, R. A. «The floor of the ocean.» N. Carolina Press, 1942.

(9) Daly, R. A. «Swinging Sea-Level of the ice age.» Bul. Geol. Soc. Am. vol. 40, pp. 721-24.

(10) Emery, K. O. and Shepard, F. P. «Lithology of the Sea floor off Southern California.» Bul. Geol. Soc. Am. vol. 56

(11) Freeman, D. W. «Geography of the Pacific ». New York, 1951.

(12) Géographie Universelle, Tom. XI.

(13) Johnson, D. W. «Shore processes and shoreline development». New York, 1919.

(14) King, L. C. «Morphology of the earth ». New York, 1962.

(15) Murray, Sir John, and Hjort, J. «The depths of the ocean». London, 1912.

(16) Marmer, H. A. «The Sea». New York, 1930.

(17) Murphy, R. C. «Oceanic phenomena along the west coast of S. America». Geog. Rev. 1926.

(18) Scholt, Gerhard «Geographie des Indischen und stillen Ozeans » Hamburg, 1935.

(19) Shepard, F. P. «The earth beneath the Sea». Baltimore, 1959.

(20) Stamp, L. D. «Africa : a study in tropical development». New York, 1955.

(21) Sverdrup, H. U. and others «The oceans». New York, 1957.

نقوش عربيـــة جنوبية

للدكتور خليل يحيى نامى

المجموعة الرابعة [1]

نقش رقم ١٢ [2]

نقش مكسور قطعتين ، ومرسوم على يمين السطرين الأولين شعار حية ، وهو مكسور من أول السطر السادس عشر إلى السطر التاسع عشر ، وكذلك فى جزء من السطر الثالث والعشرين .

. . . . . .

(١) ش ع ر م | أ و ت ر | م ل ك | س ب أ | ب ن | ع ل هـ ن | ن هـ ف ن

(٢) م ل ك | س ب أ | هـ ق ن ى | أ ل م ق هـ | ب ع ل | أ و م | ذ ن

(٣) ص ل م ن | ح ج ن | ك ت ف ل و | ب ع م | أ ل م ق هـ | ب ع ل | أ و م | ل

---

(١) نشرت المجموعة الأولى فى مجلة كلية الآداب الجزء الأول من المجلد التاسع ص ١٥—٢٧ ، والمجموعة الثانية ، الجزء الثانى من المجلد السادس عشر ص ٢١ — ٤٣ ، والمجموعة الثالثة ، العدد الأول من المجلد العشرين ص ٥٥ — ٦٣ ؛ ونقش رقم ١٢ هو من النقوش التى كشفت عنها حفريات بعثة وندل فيلبس الأمريكية .

(٢) هو النقش الثامن من النقوش التى نشرتها من مجموعة وندل فيلبس ، وهو غير منشور فى Albert Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Belqis (Mârib) ، وقد صوره Corndé ، وأشير إليه بالرقم ٥ فى

A. Loundine et J. Ryckmans, Nouvelles Données sur la Chronologie des Rois de Saba et Dû-Raydân ص ٤١٠ تعليقة ٧ ، وص ٤١١ ،

A. Jamme, a Propos des Rois hadramoutiques de AL-‘Uqlah, p. 41.

(٤) ذ ت|و ق هـ هـ م و|أ ل م ق هـ|ب م س أ ل هـ و|ل ش ى م|ح ر ب

(٥) م|ب م ح ر م ن|ذ أ و م|و و ك ب و|م ل أ م|ل ح ى و م|ب ن

(٦) غ ث ر ب ن|ل ح ر ب|ب ى ن|ت ع م ت ن|ب و ر خ|
ذ أ ل أ ل ت|ذ خ

(٧) ر ف|و د د إ ل|ب ن|ح ى و م|ب ن|ك ب ر خ ل ل|
خ م س ن|و أ

(٨) ل|ح ر ب|ب هـ و ت|و ر خ ن|ع ل ن|ذ أ ل|ت ق ر ع|
س ل ط م|و ى س

(٩) ر و|س ع د ت أ ل ب|ب ن|د و م ن|ل ح ر ب|ب هـ و|
ب ى و م|ث م

(١٠) ن ى م|ذ ف ر ع|و ر خ|ذ أ ب هـ ى|ذ م ذ ن|خ ر ف ن|
و ح ر ب|ب هـ و

(١١) ع د ى|ج هـ م ى|ى و م|أ ر ب ع م|ذ ف ق ح ى|و أ ل|
م هـ ن|هـ ر أ ى

(١٢) هـ م و|أ ل م ق هـ|ب ص د غ|هـ و ت|أ ى س ن|
س ع د ت أ ل ب|و ت ش

(١٣) ر ى و|أ ل م ق هـ|ب م س أ ل هـ و|و و ك ب و|م ل أ م|
ك ع ل ن|ذ [أ]

(١٤) ل|ح ر ب|ح ر ب ن|ب هـ و ت|و ر خ ن|ذ أ ل أ ل ت|
و ع ل ن||[ذ أ]

(١٥) ل|ح ر ب|ح ى و م|ح ج ن|هـ و ك ب|ل هـ و|م ل أ م|
و ع ل ن|ذ أ

(١٦) ل | ق م [ع] | | | ع د ى | أ و م | ل س ت ى د ع ن |
و ت ض ع ن | ب ع م

(١٧) . . . . ب أ | ح ر ب ن | ل ح ر ب | و ر أ |
ك و ت ه | أ ل

(١٨) م ق ه | ع ب د ه و | أ د م | ش ع ر م | أ و ت ر | م ل ك | س ب أ |
ل ه ق ن ى ه و | ذ

(١٩) [ن | ص ل] م ن | ت ك ر م | ل ق ب ل ى | ذ أ ل | ه و ف ى و |
ك ل | ذ س ط

(٢٠) ر | ب ذ ت | ه ق ن ى ت ن | و أ ل م ق ه | ب ع ل | أ و م | ف ر أ |
ك ص

(٢١) ر ى | ب م س أ ل ه و | ع ب د ه و | ش ع ر م | أ و ت ر | م ل ك |
س ب أ | و ب

(٢٢) ى ت ن | س ل ح ن | و غ م د ن | و أ د م ه و | س ب أ |
و ف ى ش ن | و ب

(٢٣) ع د ه و | ف [...] | ح ى و م | ب ن | غ ث ر ب ن |
ل ح ر ب | ب ى ن

(٢٤) ت ع م ت ن | ب ى و م | خ م س م | ذ ف ق ح ى | و ر خ |
ذ أ ب ه ى | ذ م ذ

(٢٥) ن | خ ر ف ن | ح ج ن | و ق ه | أ ل م ق ه | ل س ب أ |
ح ى و م | ل ح ر

(٢٦) ب | و خ و د ه م و | أ ل م ق ه | ب ص د غ | ه د ت | أ س ن |
ح ى و م

(٢٧) [ب ن] | غ ث ر ب ن | ل أ ر خ | ب ع ب ر | أ ل م ق هـ |
ذ هـ ر ض و

(٢٨) | ب ع ث ت ر | و هـ ب س | و أ ل م ق هـ | و ب ذ ت | ح م ى م

(٢٩) . . . . | و ب ش م س هـ م و | ت ن ف

الترجمـــة

(١) شاعر أوتر ملك سبأ ابن علهان نهفان

(٢) ملك سبأ قدم لإلمقاه رب أدام هذا

(٣) الصنم عند ما أو لما توجه إلى إلمقاه رب أوام لأن

(٤) إلمقاه رب أوام أمرهم بوحيه بصيانة

(٥) المعبد أوام من قيام أو نشوب حرب فى المعبد وحظيوا بأمنية طيبة لحيوم

(٦) ابن غثربان للمحاربة أو فى الحرب التى (بين أوفى) تعميتان ؟ فى شهر ذى الإلات من

(٧) السنة الخامسة من حكم ودود إل بن حيوم بن كبير خليل

(٨) وألا يحارب فى هذا الشهر من لم يخرج (أويثر) على الحكم (أو الملك) و

(٩) لذلك أرسلوا سعد تألب بن دومان للحرب فى يوم ثمان

(١٠) من العقد الأول من شهر أبهى وحارب فيه

(١١) حتى جهمى ، يوم أربع من العقد الثانى (من هذا الشهر) . ولا يستخفوا بما

(١٢) أظهره (أو بينه) لهم إلمقاه من تحقيق أمنية هذا الإنسان (أو سلامة هذا الإنسان سعد تالب)

(١٣) وشروا أنفسهم ابتغاء مرضاة إلمقاه فقاتلوا وفقا لوحيه ، وحظيوا بأمنية طيبة كى يبلغوها لمن

(١٤) لم يقم بأى حرب فى هذا الشهر ذى الإلات ، وليذيعوها لمن

(١٥) لم يحارب حيوم ، كما حظيوا بأمنية طيبة له ، وأعلنوا لمن لم

(١٦) يخضع . . . فى أوام ، وليثق به وليتضرع له

(١٧) . . . . . هذه الحرب لكى يحارب وفقا لما أمر

(١٨) إلمقاه عبده] شاعر أوتر ملك سبأ لتقديم هذا

(١٩) الصنم] تنزة (ابتعد) عن الذين لم يفوا بكل ما سطر

(٢٠) فى وثيقة هذه التقدمه وإلمقاه سيد أوام قد

(٢١) أمر بوحيه عبده شاعر أوتر ملك سبأ والبيت (أو القصر)

(٢٢) سلحان وغمدان ، وعبيده سبأ وفيشان

(٢٣) وبعد ذلك . . . حيوم بن غثربان للحرب التى بين

(٢٤) تعميتان فى يوم الخامس من العقد الثانى من شهر ذى أبهى فى

(٢٥) الخريف ، كما أمر المقاه أن يحارب حيوم حتى حريب

(٢٦) وأذلهم إلمقاه بتحقيق رغبة (أو بنجاة) هذا الانسان حيوم

(٢٧) ابن غثربان وفقا لأمر إلمقاه بما يرضى

(٢٨) . . . . بحق عثتر وهوبس وإلمقاه وبذات حميم

(٢٩) . . . . وبحق شمسهم تنوف .

التعليقات

(١–٢) يوجد رسم شعار حية على يمين السطرين الأولين ، واسم الملك شاعر أوتر مكسور ، ولا يظهر منه سوى الأجزاء السفلى من الشين والراء والميم . وكذلك لقب أبيه نهفان . ويرد اسم شاعر أوتر لأول مرة فى النقوش ملقبا بلقب ملك سبأ دون إضافة ذى ريدان إلى لقبه الملكى . والظاهر أنه تولى الملك مدة بعد وفاة أبيه الملك علهان نهفان ملك سبأ ، دون أن يلقب بملك سبأ وذى ريدان .

(٣) حجن كتفلو بعم إلمقه = لما اتجهوا . حينما قصدوا أو توجهوا إلى الإله إلمقاه . والفاعل هو الملك شاعر أوتر ، وكتب الفعل تفلو بصيغة الجمع للتعظيم . وجاء نفس هذا التركيب فى نقش الأب Jamme رقم ٧١٨ س٨[١]

(٤-٥) لشيم حريم بمحر من ذأوم : لصيانة المعبد أوام من وقوع حرب فيه[٢] .

(٥) ووكبو ملأم لحيوم = وحظيوا بالرعاية أو الخلاص من الإله إلمقاه لجيوم.

(٦) غثر بن = غثربان . اسم والد حيوم . ولم يرد هذا العلم من قبل . وجاءت لفظة عثرب كاسم مكان من قبل فى النقوش العربية الجنوبية[٣] .

بين تعمتن :

لا نعرف هل « تعمتن » اسم مكان أم أن هذه اللفظة مصدر عماه تعمية بمعنى الضلال أو المحنة أو الفتنة ، وإذا كانت مصدرا فمن الجائز أن تكون لفظة « بين » فعلا بمعنى أزال ، ويكون معنى الجملة : لحرب تزيل هذه الفتنة . وقد وردت تعمت ملكن فى نقش GL رقم ١١٥٠ = RES رقم ٢٧٧٤ س ٤ . وعلى العموم فقد فضلنا ترجمة النص الموجود فى هذا النقش وهو : لحرب بين تعمتن = للحرب أو للمحاربة بين تعمتن ، أو للحرب التى فى تعميتان ؟

(٦ — ٧) ذخرف ودد إل بن حيوم بن كبر خلل خمسن = فى السنة السادسة من ودود إل بن حيوم كبير خليل :

جاء فى نقش GL رقم ١٣١ = CIH ٩٩ س ٧—٨ : بخرف ودد إل بن حيوم ابن حزفرم ، انظر Rhod,Stud جـ ٢ ص ١٥٧ ، A. Loundtne et J.Ryckmans, Nouvelles Données aur la Ghronologie des Saba et Du Raydan ص ٤١٠ — ٤١١

---

(١) انظر : Albert Jamme, Sabacan Inscriptions from Mahran Bslqis, p. 202 .

(٢) انظر نامى : نقوش عربية جنوبية — المجموعة الثانية ص ٤٣ تعليقة ١٦ — ١٧ النقش العاشر .

(٣) انظر : Ryckmans, N.P.S. جـ ١ ص ٣٥٩ . ونجد فى القاموس المحيط : الغثرب كعملس الأسد والعثرب كجعفر بالعين المهملة الشهم .

(٨) تقرع سلطم = يهاجم الحكم . يخرج على السلطة — قرع = ضرب

(١٠) ذفرع ورخ ذ أبهى = من العقد الأول من شهر ذى أبهى[١] .

ذمذن خرفن = فى الخريف :

وذلك كما جاء فى نقش Jamme رقم ٦٥٣ س ١٠ [٢] .

(١١) عدى جهمى = حتى جهمى :

جهمى اسم مكان ، وجاء فى تاج العروس فى مادة (ج هـ م) ما يلى : وبنو الجهمى طائفة بجبل أصاب باليمن . وجاء فى نفس المعجم فى مادة (و ص ب) ما يلى: وكغراب ويقال أصاب اسم جبل يحادى زبيد باليمن ، وفيه عـدة بلاد وقرى وحصون . . . . وحصونهم عاليه جدا ، منها جبل المصباح . وجاء فى النقوش الصفوية العلم جهم فى نقش رقم ٣١٥ ، ١١٥٢ ، ١٢٩٢[٣] .

يوم أربعم ذفقحى = يوم أربع من العقد الثانى (من هذا الشهر[٤]) .

وأل مهن = ولا يحتقر ، ولا يستخف

(١٢) بصدغ :

جاء فى نقش RES رقم ٤١٥١ س / ٦ : صدغهو كتلدن . وقال مترجما هذا النقش أن « صدغ » تقابل « صدق » وترجماها بـ er gewährte ihm . وجاءت هذه اللفظة فى نقش Jamme رقم ٧٢١ س ٤ : بصدغهو ، وقال الأب Jamme إن « صدغ » تقابل « صدع » فى اللغة العربية ومعناها جهر .

(١٢ — ١٣) وتشريو ألمقه بمسألهو :

جاءت شرى فى نقش R E S رقم ٥٠٤٠ س ١ ، كما جاءت «هشرين» فى نقش C I H رقم ٣١٥ س ٣[٥] . ومن الجائز أن يقال إن الفعل «تشريو» خطأ من كاتب

---

(١) A.F.L. B.eeston, Epegraphic South Arabian Calanders and Dating, p. 6—7.

(٢) انظر : Jarmme, Sabaean Instriptions from تعليقة ١٠ ص ١٥٩

(٣) Enno Littmann, Safaitic Inscrlptions, Semitic Inscriptions, S.C. ص ٨٧ ، ٢٥٧ ، ٢٨٦ .

(٤) انظر هامش ١ من هذه الصحيفة :

(٥) انظر : Walter W. Müller, Die Wurzeln Mediae und Tertiae Y/Wim Altsüdarabien, S. 67.

النقش وصحته : وتشريهمر المقه = أى وخلصهم إلمقاه ، كما أنه من الجائز أن نترجم هـذا النص هكذا : واشتروا أنفسهم أى باعوا أنفسهم ابتغاء مرضاة الإله إلمقاه ، أى باعوا أنفسهم فجاهدوا فى سبيل الإله إلمقاه ابتغاء لرضائه عنهم .

(١٣) كعلن ذ.ل حرب = كعلن ذ [ا] ل حرب = كى يعلن من لم يحارب

(١٤ — ١٥) وعلن . . . ل = وعلن [ذ أ] ل .

(١٧ — ١٨) أل . . . . شعرم أوتر = أل [م ق ه | عبد هو] :

وذلك كما جاء فى السطر الحادى والعشرين من هذا النقش .

(١٨ — ١٩) ذ . . . . م ن = ذ [ن ص ل] م ن .

(٢٥ — ٢٦) لسبأحيوم لحرب = أن يحارب حيوم حتى حريب أو إلى حريب :

وحريب جاءت فى نقش GL رقم ١٦٠٠ س/٤ ، وهى مدينة وواد بين وادى بيحان ومأرب، وقد جاءت أيضا فى نقش RES رقم ٤٩٠٤ س ٢٢ وكذلك فى نقش RES رقم ٤٦٦٨ س ٤ ، كما جاءت أيضا فى نقش الأب Jamme رقم ٦٤٩ س ٢٥ [١] .

(٢٦) وخودهمو إلمقه = وأذلهم إلمقاه :

وجاءت هذه اللفظة فى نقش RES رقم ٤١٥٤ س ٣

(٢٧) لأرخ بعبر المقه = وفقا لأمر إلمقاه .

نقش ١٣

هو نقش نامى رقم ٧١ [٢] ، وهو عبارة عن حجر جيرى طوله ٦٦ر٥ سم وارتفاعه ٢٤ر٥ سم ، ومكتوب عليه ثلاثة سطور بارزة ، وله إطار عريض من جهة اليمين وكذلك من أعلى مما يدل على أنه أول نقش مكسور ، وهو مكسور

---

(١) Albert Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Belqis, p. 151-153
G. Ryckmans, Les Nows Propres Süd—Semtiques, Tome 1, p. 338 و

(٢) انظر : خليل يحيى نامى : نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ص ٩٢

من جهة اليسار من أعلى ومن أسفل وارتفاع السطر ٥ر٦ سم ، ولا يكمل هذا النقش نقشي نامى رقم ٧٢ ، ٧٣ ، كما سبق أن ذكرت ذلك من قبل [١] وذلك لأن ارتفاع السطر فى هـذا النقش هو ٥ر٦ سم ، بينما ارتفاع السطر فى نقشي نامى رقم ٧٢ ، ٧٣ هو ٦ سم فقط ، كما أن ارتفاع الإطار الفاصل بين السطور أقل منه فى نقشي نامى رقم ٧٢ ، ٧٣ ، ويتضح ذلك جليا من الصور الفوتوغرافية لهذه النقوش ؛ لذلك نقول إنه لا يوجد أى ارتباط بين نقش نامى رقم ٧١ ، وبين نقشي نامى رقم ٧٢ ، ٧٣ ، ومما يلاحظه الباحث أن وجود إطار على يمين النقش وفى أعلاه من المسائل المثيرة للشكوك لأن أول النقش ناقص ؟

. . . .

(١) ر ى د ن | ل ش ر ح ت | م ل ك هـ م و | ب ى و م | هـ . .
(٢) وأعرب | م ل ك | ح ض ر م و ت | و أ ش ع ب ن
(٣) و خ م ى س | ب ن ى | ذ ى ريدن | وبعد ن ذ ت | .

الترجمة

(١) ريدان للتوفيق فى (أو لتوسيع) ملكهم فى يوم . .
(٢) أعراب ملك حضرموت والقبائل . . .
(٣) وجيوش بنى ذى ريدان . وبعد ذلك . . . [٢]

نقش ١٤

هو نقش مكسور من جهة اليمين ، ومن جهة اليسار ، وهو مكون من أربع قطع هى :

(ا) قطعة من الحجر الجيرى طولها ١٨ سم ، وعرضها ٣٠ سم ، وارتفاع الحرف ٦ سم ، والسطر الأول مكسور ، ولا تظهر منه إلا بقايا بعض الحروف ، وكذلك السطر الثالث من جهة اليسار .

---

(١) انظر نامى : نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ص ٩٢

(٢) اعتمدنا فى ترجمة هذا النقش بشىء من التصرف على ترجمة الدكتورة Maria Hofner فى مقالة H. von Wissmann, Himyar Ancient History ص ٤٧٠ ، وذلك لأنها أصح من ترجمتنا السابقة لهذا النقش .

(ب) هى عبارة عن نقش نامى رقم ٧٢ ، وهى قطعة من الحجر الجيرى ارتفاعها ٢٥ سم ، وطولها ٣٠ سم ، وارتفاع الحرف ٦ سم ، وفى أعلاها إطار ارتفاعه ٤ سم ، وهى مكسورة من اليمين ومن اليسار ، ويكاد يكون نصف السطر الثالث مكسوراً تماما .

(ج) هى عبارة عن نقش نامى رقم ٧٣ ، وهى قطعة من الحجر الجيرى طولها ٥٥ سم وارتفاعها ٢٤٫٥ سم ، وارتفاع السطر ٦ سم . ويوجد إطار فى أعلاها ، وهى مكسورة من اليمين ومن اليسار وبخاصة فى آخر السطر الثالث .

(٤) قطعة من الحجر الجيرى طولها ٢٦ سم وارتفاعها ٢٥ سم ، وارتفاع الحرف ٦ سم ، ولها إطار فى أعلاها ، وهى مكسورة من اليمين واليسار ، ومن أسفل ، والقطع الأربع موجودة بدار الضيافة بصنعاء .

. . . . .

(١) ش ت . . . . | ب ع ل ى هـ م و | ع ل هـ ن | م ل ك س ب أ | و خ م ى س | و أ ع ر ب | م ل ك س ب أ | و ى د ع أ ب | و . . . . .

(٢) | ر د م ن | و خ و ل ن | و م ض ح ى م | و ق ت ب ن | و أ ق و ل | و أ ق د م | و أ ش ع ب | م ل ك | ح ب ش ت | ل ض ر م | ب ع ل ى

(٣) ب أ و | و ف ل س× | ب [ن | أ] ر ض | و أ و ى ن | ذ ر ى د [ن] أ ذ ى ن ت | و خ م ى س | و أ ع ر ب | م ل ك [|] ح ض ر م و ت | و أ ق و [ل |] .

الترجمة

(١) . . . . . عليهم ملك سبأ وجنود وأعراب ملك سبأ ويدعأب و . . . .

(٢) ردمان وخولان ومضحى وقتبان وأقيال (حكام) ورؤساء ملك حبشة لحرب ضد

(٣) . . . وهربوا من أرض وإقليم ذى ريدان . أذينة وجيوش وأعراب ملك حضرموت وأقيال .

(١) السطر الأولى من القطعة الأولى مكسور ولا يظهر منه إلا بقايا حرف شين وعين وتاء وسين ، وفى آخره فاصل لحرف باء ، وهى تكمل عليهمو فى أول سطر من القطعة (ب) . بعليهمو = عليهم أو ضدهم أو لهم .

(٢) ردمان وخولان ومضحى وقتبن :

ردمان = معاهر[١] . ومن المحتمل أن المعاهر كانت حصن ردمان فى مدينة وعلان[٢]. خولان = بيت خولان على قمة أعلى جبل فى اليمن (حضور النبى شعيب)[٣].

(٣) ب أو :

لا ندرى هل هذه الحروف بقية الفعل (سبأو) أو (ضبأو) ؟

فلس× = طرد . أبعد . هرب . أخرج

جاء الفعل فلس فى نقش CIH رقم ٣٣٤ = GL رقم ٨٢٥ س ١١ : فلسو شعين رد من بن حرتن[٤].

ب . . . د ض = بن أرض .

أوين = مسكن . ملجأ . موطن . إقليم

جاء « ذأويم » اسم شعب فى نقش RES رقم ٤٣٥٦ س ١ ؟ الفعل تأو فى نقش RES رقم ٣٩٤٥ س ٣ ؟ ستأى فى نقش RES رقم ٢٩٤٨ ا س ٢ ؟ يهأيو فى نقش CIH رقم ٦٠٢ = RES رقم ٢٨٥٩ س ٢

أذينت = أذينة — اسم علم

وهو لأول مرة يرد فى النقوش العربية الجنوبية القديمة .

وأعرب | . . . . حضرموت = وأعرب |[ملك |] حضرموت

وأقو = وأقو [ا ل] .

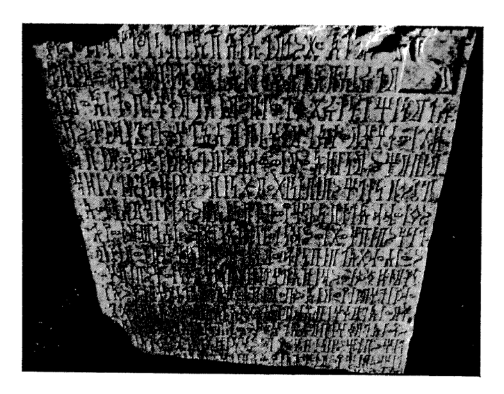
---

(١) H. Von Wissmann, Himyar Ancient History ص ٤٦٣

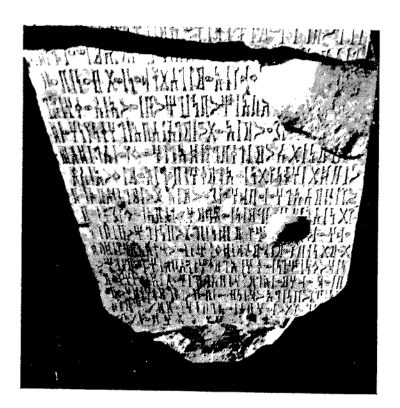
(٢) H. Von Wissmann, Himyar Ancient History ص ٤٦٤ هامش ٨٧

(٣) H. Von Wissmann, Himyar Ancient History ص ٤٦٠ هامش ٧٩

(٤) انظر J. H. Mordtmann, Himjarische Inchriften und Altertüiner, S. 5, 6,9
Rhod. stud., II S. 47 ط



شكل رقم ١٢ (أ)



شكل رقم ١٢ (ب)



شكل رقم ١٣



سكل رقم ١٤ (١)



شكل رقم ١٤ (ب)



شكل رقم ١٤ (جـ)



شكل رقم ١٤ (د)

مطبعة بولاق فى عهـــدها الأول

١٨١٩ — ١٨٤٠

للدكتور خليل صابات

جلت الحملة الفرنسية عن الأراضى المصرية فى سنة ١٨٠١ وحملت معها مطابعها وحروفها وعادت بها إلى فرنسا ، كما أثبتت ذلك الوثائق التى عثرنا عليها فى محفوظات وزارة الحربية الفرنسية . وظلت مصر بدون مطبعة حوالى العشرين سنة . ويرجع سبب تأخر عودة ظهور الطباعة فى أرض الفراعنة كل هذه المدة ، إلى الفوضى التى شملت البلاد من أدناها إلى أقصاها . فقد ظهر على المسرح عقب خروج الفرنسيين قوى ثلاث أخذت تتنازع حكم مصر . فالأتراك من جهة ، يريدون استرداد نفوذهم أو سلطانهم الذى انتزعه منهم المماليك منذ أمد بعيد . والمماليك من جهة أخرى يرمون إلى استعادة سيادتهم التى فقدوها بدخول الفرنسيين . ووقف بين هاتين القوتين المتنازعتين الشعب المصرى صاحب البلاد . واستطاع آخر الأمر أن ينتصر بقوة إيمانه ويفرض على العثمانيين والأتراك والياً توسم فيه أنذاك الإخلاص لمصر . وهكذا انتهى هذا الصراع الذى دام حوالى الأربع سنوات بالمناداة بمحمد على والياً على البلاد .

إلا أن الأمر لم يستتب للوالى الجديد منذ اللحظة الأولى ، إذ كانت أمامه مشاكل عويصة وصعاب عديدة لا بد من حلها . فالمماليك قد اتجهوا إلى الصعيد ليناصبوه العداء ، ورواتب جنوده لم تدفع لهم ، والسلطان غير راض عن تنصيبه والياً على مصر . ولكن محمدا عليا استطاع بفضل دهائه ومؤازرة الشعب له أن يثبت أقدامه فى حكمه لمصر ، ويمكن أن يقال : إن عهد حكم تركيا لوادى النيل حكما مباشرا قد انقضى إلى الأبد منذ شهر نوفمبر سنة ١٨٠٦ ، عندما تثبت محمد على فى ولاية مصر .

اتجه الحاكم الجديد إلى إصلاح أداة الحكم فى البلاد ، غير أن المماليك فى الصعيد والانجليز فى الشمال حالوا دون تفرغه لمشروعاته الإصلاحية . فقد اضطر أن يذهب إلى المماليك فى أسيوط ثم يطرد الانجليز فى سنة ١٨٠٧ بفضل كفاح الشعب ضدهم . وعكف بعد ذلك على تحصين السواحل عند دمياط ورشيد وأبى قير والاسكندرية والسويس . ولم يكد محمد على يفرغ من هذا كله حتى طلب إليه السلطان فى سنة ١٨٠٩ أن يجهز حملة لتأديب الوهابيين . فلبى الطلب بعد أن قضى على المماليك أول الأمر فى مذبحة القلعة سنة ١٨١١ . وسير حملته سنة ١٨١٢ ودامت الحرب سجالا بين المصريين والوهابيين حوالى ست سنوات وانتهت بانتصار الجيش المصرى سنة ١٨١٨ . ولا شك فى أن هذه الحرب قد أخرت إصلاحات محمد على كثيراً واستنزفت ثروة مصر .

وعندنا أن هذا الوالى بدأ يفكر فى إدخال الطباعة إلى مصر أو قل إنه عزم على إدخالها فعلا منذ سنة ١٨١٥ أى عندما أخذ يفكر فى تكوين جيش نظامى حديث . إذ كان لابد لهذا الجيش من كتب يتعلم فيها أصول الحرب وتعليمات توزع عليه ، وإدارة أو ديوان ينظم أموره ، وأطباء يعالجون مرضاه ويعنون بجرحاه . كان لابد إذن من الكتب لكل هؤلاء . وكان لابد من مطبعة أو مطابع تقوم بطبع تلك الكتب . ودليلنا على ذلك أن أول بعثة أرسلها محمد على كانت حوالى سنة ١٨١٥ إذ سافر إلى ميلانو بايطاليا الشاب نقولا مسابكى « ليتعلم فن سبك الحروف وصنع أمهاتها ويدرس فن الطباعة فيها » [١].

مطبعة بولاق :

أول مطبعة مصرية عرفتها مصر بعد خروج الفرنسيين، كانت مطبعة بولاق . وقد اختلف المؤرخون على السنة التى أسست فيها وعلى الجهة التى استوردت منها . فيقول جورجى زيدان إنها أنشئت سنة ١٨٢١ على أنقاض مطبعة بونابرت[٢] . وقد ثبت

---

(١) عمر طوسون (الأمير) ، البعثات العلمية فى عهد محمد على ، ثم فى عهد عباس الأول وسعيد ، مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية ١٣٥٣ — ١٩٣٤ ص ١٠

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٤٧ ؛ القاهرة سنة ١٩٣٧

أن مطابع الفرنسيين قد عادت إلى فرنسا . أما أمين سامى باشا فهو أكثر دقة فى تحديد تاريخ التأسيس ، إذ يعيده إلى ٨ صفر سنة ١٢٣٧ هـ ، ٤ نوفمبر سنة ١٨٢١ م[١] ويتفق مع أمين سامى على هذا التاريخ نفسه المسيو جان دونى[٢] Jean deny وكذلك رينولد نيكولسون[٣] ولكنه لا يحدد اليوم ولا الشهر ويضيف أنه كان للمطبعة فضل نشر العلوم والمعارف فى مصر والبلاد العربية وآداب العرب والفرنجة . ويرى بعض المؤرخين أن مطبعة بولاق أنشئت فى سنة ١٨٢٢ لا فى سنة ١٨٢١ ، ومن هؤلاء أوكتاف ساشو الذى كتب فى تقريره المقدم إلى وزير معارف فرنسا سنة ١٨٦٨ « أن مطبعة بولاق أسسها محمد على سنة ١٨٢٢ وتحوى مجموعات جميلة من الحروف العربية والتركية وقد طبع فيها عدد كبير من المؤلفات بهاتين اللغتين وكثير منها مترجم عن الكتب الأوروبية »[٤] . ويقع الفيكونت فيليب دى طرازى فى نفس الخطأ الذى وقع فيه جورجى زيدان من حيث مصدر تلك المطبعة ، إذ يقول :

« . . . فاشترى (محمد على) مطبعة يوحنا يوسف مرسال المذكورة وحسنها وزاد عليها . وهكذا أسس سنة ١٨٢٢ مطبعة بولاق الشهيرة التى أدت خدمات وافرة وجزيلة لجميع الناطقين بالضاد ».[٥] ويذهب بول دوبون[٦] Paul Dupont نفس المذهب من حيث تحديد سنة التأسيس . وهناك اللوحة التذكارية لانشاء المطبعة الموضوعة اليوم على المدخل الرئيسى فى أعلى الباب ، فقد نقشت عليها ثلاثة أبيات من الشعر التركى وتاريخ سنة ١٢٣٥ هـ أى سنة ١٨١٩ م . ويبدو لنا أن هذه اللوحة التذكارية إنما تشير إلى تاريخ البدء فى تشييد البناء الذى خصص لايواء

---

(١) أمين سامى باشا ، التعليم فى مصر ، ص ١٢ ، القاهرة سنة ١٩١٧ ، تقويم النيل الجزء الثانى ، ص ٥٧٨ ، مطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٨

(٢) Jean Deny ; Sommaire des Archives Turques du Caire, Le Caire 1930, p. 122

(٣) Reynold Nicholson, A Litterary History of the Arabs, 1930, p. 468-69

(٤) Octave Sachot ; Rapport adressé à S. E. Mr. Victor Duruy, Paris 1868, Autographie, p. 48.

(٥) الفيكونت فيليب دى طرازى ، تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الأول ، بيروت ١٩١٣ ص ٤٩

(٦) Paul Dupont ; Histoire de l'Imprimerie, Tome II, Paris 1854, p. 604.

المطبعة ؛ أما ٨ صفر سنة ١٢٣٧ هـ الموافق ٤ نوفمبر سنة ١٨٢١ فهو على ما نظن التاريخ الرسمى الذى فتحت فيه المطبعة . وقد عثرنا على أمر من محمد على إلى كتخدا بك يخطره فيه أنه عين أحد الهنود لتعليم تلاميذ بولاق الخط وصف حروف المطبعة ، وأن هؤلاء التلاميذ سوف يتم إعدادهم ليلحقوا بالمطبعة التى ستنشأ فى هذه الناحية[١] . ويحمل هذا الأمر تاريخ ٨ صفر سنة ١٢٣٧ ، ولو أن المطبعة قد بدأت فعلا العمل لما استعمل محمد على عبارة « التى ستنشأ فى هذه الناحية » ، مما يحملنا على الاعتقاد أن المطبعة لم تبدأ بالإنتاج إلا فى سنة ١٨٢٢ . ويؤيد هذا الرأى الأخير أمين سامى باشا نفسه الذى سبق أن ذكر مرتين أن سنة ١٨٢١ هى السنة التى أسست فيها المطبعة ، إذ يعود فيقول إنها تأسست فى سنة ١٢٣٨ هـ أى فى سنة ١٨٢٢م . يضاف إلى ذلك أن أول مطبوع خرج من مطبعة بولاق يحمل هذا التاريخ الأخير .

ويرتبط تاريخ إنشاء مطبعة بولاق بتاريخ أول مدير لها ، نقولا أفندى مسابكى .

ولد نقولا مسابكى بدمشق فى أول القرن التاسع عشر[٢] . وقد هاجر أبوه تادى مسابكى من سوريا واستقر فى القاهرة هو وأسرته المكونة من زوجته ، أم نقولا ، وابنه نقولا وابنته رحمة التى توفيت بالطاعون سنة ١٨٢٤[٣] . وقد نزلت أسرة المسابكى فى جهة الروضة[٤] .

وكان نقولا مسابكى شابا ذكيا فوقع اختيار الوالى عليه لإرساله فى بعثة إلى ميلانو بإيطاليا سنة ١٨١٥[٥] ليتعلم فن الطباعة على يد الأستاذ موروزى Morosi . وقد أظهر الشاب نقولا مهارة فى الطباعة وحفر الحروف وصبها . وبعد أن أمضى

---

(١) G. Talamas ; Recueil de la correspondance de Mohamed Aly, Khédive d'Egypte, Le Caire, Imprimerie Nationale, 1913, Ordre No. 91, page 27

(٢) السجل الأول للمتوفين من ابناء الطائفة المارونية .

(٣) من مذكرات الأب أنطون مارون عن سنة ١٨٢٤ ، كتاب اليوبيل القرنى الثانى للرهبانية الحلبية المارونية فى وادى النيل ، القاهرة سنة ١٩٤٥ من ص ١٧٤ الى ص ١٧٨

(٤) المصدر السابق .

(٥) عمر طوسون (الامير) ، المصدر السابق ، ص ١٠

هناك أربع سنوات عاد إلى مصر وفى جعبته كل أصول فن الطباعة وأخذ يعلم بهمة ونشاط فن صب الحروف وصنع الأبهات والأمهات. وقد حمل معه عند عودته إلى مصر مجموعة من الحروف العربية. استعملت أول الأمر ريثما تصب حروف أخرى[1].

وقد اعتقد أحد الإيطاليين الذين أرخوا للطباعة فى مصر واسمه ليمونجللى ، أن نقولا مسابكى من أصل إيطالى. وأنه لظروف غير معروفة أضطر إلى تغيير اسمه من مسابتشى Messabichi إلى مسابكى Mesabki[2] . والأسباب التى دعت ليمونجللى إلى الاعتقاد أن مسابكى لا بد وأن يكون إيطاليا أو من أصل إيطالى هى :

(أولا) تصريح أحد أحفاد بنى عمومة نقولا أن جزءا من أسرة مسابكى هاجر من دمشق إلى مدينة ليفورن بايطاليا منذ أمد بعيد.

(ثانياً) قائمة موظفى مطبعة الحملة الفرنسية التى وضعت فى روما والتى اشتملت على اسمى أنطون ويوسف مسابكى[3]. ويفترض ليمونجللى أن هذين الشخصين ظلا فى مصر بعد رحيل الحملة الفرنسية وأن أحدهما أنجب نقولا مسابكى.

(ثالثاً) إن اهتمام روزتى قنصل توسكانيا بنقولا مسابكى وتذكيته لدى محمد على لإرساله إلى ميلانو لدليل كاف فى نظر ليمونجللى على أن مسابكى لا بد أن يكون من توسكانيا ، أو على الأقل رعية من رعايا الولايات البابوية.

ولا شك فى أن تحمس — ولا نقول تعصب — ليمونجللى لبنى جنسه هو الذى أوصله إلى هذه النتيجة التى يأباها المنطق وينكرها التاريخ. ودليلنا على ذلك أن أسرة مسابكى أسرة دمشقية مارونية لحما ودما وأن اسمها عربى مشتق من فعل سبك يسبك ومعناه أذاب المعدن وصبه فى قالب. والمعروف عن السوريين واللبنانيين أنهم يسمون الشخص باسم الصنعة التى يمارسها أو المهنة التى يؤديها فهناك أسرة الطحان والحداد والفران والنجار الخ . . .

---

(1) Guiseppe Forni, Viaggio Nell 'Egitto et nell Alta Nubia, Milano. — Le memorie del Forni furono scritte durante la sua dimora in Egitto dal 1815 al 1840, cité in S. Limongelli, L'Arte italiana, p. 14 et 15, Cairo 1911.

(2) S. Limongelli ; L'Arte italiana . . . , p. 15 op. cit.

(3) R. Canivet ; L'imprimerie de l'expédition française, Bul. de l'Institut d'Egypte, série 5, Tome 5, 1909.

وإن سلمنا جدلا بأن أنطون ويوسف مسابكى ظلا فى مصر ، بعد جلاء الفرنسيين عنها ، فاننا لا نستطيع أن نجزم بأن نقولا ولد لأحدهما فى مصر ودليلنا على ذلك سجلات مواليد البطريركية المارونية الخالية من إسم نقولا هذا فى حين أننا نجده فى مذكرات الأب مارون التى كتبها سنة ١٨٢٤ وهى عبارة عن بيان بأسماء أبناء الطائفة المارونية بالقاهرة فى تلك السنة ، ويتضح من هذا البيان أن نقولا مسابكى كان الابن البكر للخواجة تادى مسابكى وأن له شقيقاً اسمه فضول وشقيقة إسمها رحمة .

بقى أمامنا الدليل الأخير الذى ساقه ليمونجللى ألا وهو تدخل روزتى قنصل توسكانيا لصالح نقولا وتذكيته لدى محمد على لكى يرسله فى بعثة إلى إيطاليا . وردنا على ذلك أن توصية قنصل بفرد من الأفراد ليست دليلا على انتماء هذا الفرد لرعايا هذا القنصل . وعلى أى حال فان ليمونجللى شعر فى قرارة نفسه بأن كل ما ساقه من أدلة لا يؤكد جنسية نقولا مسابكى ، إذ يقول : « سواء كان مسابكى إيطاليا أم لا ، فان ما يثلج صدرى أنه قد درس فى إيطاليا فن الطباعة والحفر والسبك وأن معدات المطبعة قد صنعت كلها فى إيطاليا »[١] .

ولما عاد نقولا مسابكى من إيطاليا هو وثلاثة من زملائه عينوا بمعية عثمان نور الدين ببولاق[٢] . وأحضر المسابكى معه من ميلانو ثلاثة مكابس من طراز المكابس التى تستخدمها « المطبعة الملكية » ، وحروفا عربية وتركية وإيطالية ويونانية . وكان يوجد فى المطبعة على عهد المسابكى ثلاثة أنواع من الحروف العربية ونوعان من الحروف الإيطالية[٣] . وكان يعين مسابكى فى العمل أربعة من خريجى الأزهر ، وهم المشايخ عبد الباقى رئيس المسبك ومحمد أبو عبد الله رئيس الطباعين ويوسف الصنفى ومحمد شحاتة رئيسا الصفيفة[٤] . أما عدد صفافى الأحرف

---

(١) S. Limongelli : L'Arte Italiana . . . p. 17, Cairo 1911.

(٢) محفوظات عابدين دفتر ٦ معية رقم ٧٢٥ الى الكتخدا فى ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٣٦

(٣) Guiseppe Forni; Viaggio Nell' Egitto et nell alta Nubia, cité in S. Limongelli, op. cit., p. 15.

(٤) جورجى زيدان ، المصدر السابق ، ص ٤٨

فاثنا عشر من المصريين وإيطالي واحد لصف الحروف الإيطالية ويونانيان لصف الحروف اليونانية(١) .

ولم يكن المسابكي الشخص الوحيد الذي استعان به الباشا على إنشاء المطبعة . فقد كان للآراء التي أبداها كل من عثمان نور الدين والأب انطون رفاييل زكور نصيب كبير في إرساء قواعد تلك المطبعة على أسس متينة (٢) .

ويسرد لنا بروكي Brocchi (٣) حادثا وقع لمسابكي كاد يقضي على المركز الممتاز الذي كان يتمتع به عند الباشا . فقد وضع أحد مدرسي مدرسة بولاق للهندسة واسمه بيلوتي Billoti ، قصيدة طويلة عنوانها « ديانة الشعوب الشرقية » واتفق مع مسابكي على أن يطبع له تلك القصيدة سراً وكانت تحوى نقداً للدين الاسلامي وتدعو إلى الكفر بكل دين . وقد استطاع القنصل الانجليزي سولت Salt أن يحصل على نسخة مطبوعة من القصيدة ويقدمها للباشا الذي أمر باحراقها فورا . ولولا تدخل عثمان نور الدين لعوقب المسابكي عقابا صارما . وقد أمر محمد على في ١٣ يوليه سنة ١٨٢٣ بعدم السماح لأى أجنبي بأن يطبع كتابا في مطبعة بولاق إلا أن استصدر تصريحاً منه شخصيا .

وظل المسابكي يعمل في بولاق بهمة لا تعرف الكلل إلى أن توفاه الله وهو في ريعان الشباب . وذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٣٠(٤) .

---

(١) Guiseppe Forni ; cité in Limongelli, op. cit., p. 15

(٢) محمد فؤاد شكرى وعبد المقصود العنانى وسيد محمد خليل ، بناء دولة مصر محمد على ، ص ١٢٠ ، ١٢١ القاهرة سنة ١٩٤٨

(٣) Brocchi : Giornale delle Osservazioni fatte nei viaggi in Egitto, nella Siria e nella Nubia, p. 370

(٤) ورد في السجل الأول للمتوفين من ابنــاء الطائفة المارونية ، وهو بخط المرحوم الاب انطون مارون ، الوكيل البطريركي الماروني في القاهرة من سنة ١٨٢٠ الى وفاته في سنة ١٨٤٣ ، ما يأتي :

« في ٢٤ ايار (مايو) سنة ١٨٣٠ توفى نقولا بن تادي المسابكي الدمشقي معترفا بحال الاستعداد لأخذ باقي الأسرار ، ودفن (بالطاحونة) . عمره نحو ثلاثين عاما » .

وكتب ايضا في سجل المخطوبين والمتزوجين في سنة ١٨٣٠ مايأتي :

« في السادس عشر من شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٣٠ قد خطبنا نحن (أي الاب انطون مارون) الخواجة نقولا بن تادى مسابكي على برباره ابنة المرحوم جرجس عيروط . وكيل الخاطب الخواجه نقولا سمان . وكيل المخطوبة والدتها وردة حرمة المرحــوم الخواجة ميخائيل فنده . بعد اخــذ الاذن من حضرة الاب مرتينوس ريس طايفتها المخلصي .

صح : ان هذه الخطوبة فسخت بوفاة الخطيب الذي توفى في ٢٤ ايار بهذا العام »

ويقول ليمونجالى « إن محمدا عليا . تقديرا لفضل المتوفى على المطبعة ومساعدة لأسرته . رغب فى إسناد إدارة المطبعة إلى الياس مسابكى وهو أحد أقرباء نقولا . وكان يتعلم الحفر . ولكن نظراً لصغر سنه تعين غيره مديراً لها[1] . ولا يذكر ليمونجالى المصدر الذى استقى منه هذا الخبر ، ولم نجد لا فى الوثائق ، ولا فى كتب التاريخ ما يؤيده أو ما ينفيه . وكان المسابكى يطبع فى ذيل الكتب التى صدرت عن بولاق فى عهده ، العبارة التالية : « تم بحمد الله طبع . . . على يد متولى تدبير دار الطباعة الفقير المسابكى فى . . . »[2] .

ولم يكن المسابكى المتصرف المطلق فى شؤون المطبعة بل كان له رئيس مباشر يتولى أمر المطبعة وغيرها من المؤسسات التابعة لديوان الجهادية ، إسمه عثمان نور الدين[3] الذى أصبح فيما بعد قائد الأسطول المصرى فى الحرب السورية الأولى[4] . وعلى أثر وفاة المسابكى عين عبد الكريم أفندى مديراً للمطبعة[5] . وكان قبل قدومه مصر « مجاورا لبيت الله الحرام بمكة المكرمة » . واستخدم فى المطبعة حوالى ثلاث سنوات[6] ثم أعيد إلى التقاعد لتقدمه فى السن ، فطلب من الديوان الخديوى أن يعيده إلى مكة هو وأسرته « وأن يعطيه من صدقات ولى النعم كما يعطى أمثاله من المجاورين »[7] . وقد وافق الديوان المذكور على الطلب وسافر عبد الكريم أفندى بصحبة أسرته على نفقة الوالى . وهذا دليل ضمن الأدلة التى سنسوقها لتثبت حسن معاملة مديرى المطبعة ومستخدميها فى عهدها الأول ،

---

(١) S. Limongelli ; op. cit., p. 18.

(٢) راجع كتاب قواعد الاعراب المطبوع ببولاق سنة ١٢٤١ هـ

(٣) English, G. Bethume ; A narrative to the expedition to Dongola and Sennar, under the command of Ismaïl Pacha, London, 1822, préf.. p. VII

(٤) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) ص ٣٤٧

(٥) ــ الوقائع المصرية نمرة ٣٧٨ ؛ فى يوم الثلاث ؛ سلخ ذى القعدة الحرام، سنة ١٢٤٧

(٦) A. Geiss ; Hist. de l'imp. en Egypte (suite). Epoque contemporaine Article dactilographié, Octobre 1938, p. 17. — inédit.

(٧) الوقائع المصرية ، نمرة ٥٤٢ ، فى يوم الخميس المبارك ٢٢ شهر ربيع الاول سنة ١٢٤٩

واهتمام الوالى بكل ما يتعلق بالطباعة من قريب أو من بعيد . فقد حدث فى سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) أن تقدم أحد مستخدمى المطبعة واسمه ابراهيم البغدادى بطلب إلى مجلس مشورة الجهادية يذكر فيه أن بيته فى سوق السلاح وأنه مضطر إلى قطع المسافة بين المطبعة الكائنة ببولاق وبيته يوميا ذهابا وإيابا على الأقدام . فهو يرجو أن يعطى دابة بعليقها من جانب الميرى ليؤدى وظيفته على الوجه الأكمل . وقد وافق المجلس على الطلب وأمر بتحرير إعلام من « حضرة بيك أفندى الناظر إلى ناظر السواقى بأن يعطى الرجل المرقوم دابة من جانب الميرى ليحسن رؤية أشغاله فى وقتها وإعلام إلى أدهم بيك ناظر المهمات الحربية عموما أن يعطيه عليق الدابة المذكورة . . . »[1] فمجلس الجهادية حريص كل الحرص على راحة العاملين فى المطبعة . فهو يخصص لأحدهم . وقد يكون قد خصص لغيره من قبله ، دابة يستخدمها فى ذهابه إلى المطبعة وعودته منها ، ليستغل هذا المجهود الضائع فيما يعود بالنفع على المطبعة .

وظلت مطبعة بولاق وغيرها من المطابع التى أنشأها محمد على بالقاهرة والاسكندرية تابعة لديوان الجهادية إلى سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٧م) حيث أنشىء ديوان المدارس . ففى ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٢هـ وردت « لائحة تركية موشح عليها بمرسوم عال بشأن تفريق المدارس من ديوان الجهادية [٢] » وفى سنة ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) صدرت لائحة بتحديد اختصاصات ديوان المدارس الذى أصبح يشرف على المدارس والكتبخانات والمعامل والمتاحف وقناطر الدلتا ومطبعة بولاق والوقائع المصرية على أن يضم إليها فى المستقبل الهندسة واسطبلات شبرا والزرائب [٣] . وكان مختار بك أول ناظر لشورى المدارس [٤] .

ولم تكن وظيفة مدير المطبعة مقصورة على الأعمال الادارية والفنية الخاصة بالطباعة بل كانت تتعداها إلى الترجمة . فقد صدر أمر فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٧هـ باحالة « أعمال أفراغ ترجمة » الوقائع المصرية التى سيضع أصولها رفاعه الطهطاوى

---

(١) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٤٦ ، فى يوم الخميس غرة جمادى الآخرة ١٢٤٨
(٢) عزت عبد الكريم ؛ تاريخ التعليم فى عصر محمد على ؛ القاهرة ١٩٣٨ ص ١٠٣
(٣) أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧
(٤) المصدر السابق ، ص ١١٣ ، ١١٤

« بحسب اللغة العربية » فى قالب حسن بدون الاخلال بالأصل العربى وتنظيم المواد حسب النظام التركى على حضرة حسين أفندى ناظر المطبعة العامرة . على أن يعدُّ هذا التكليف من اختصاص وظيفته بصفة أصلية [1] » .

وكانت إدارة أو نظارة مطبعة بولاق من وظائف الدولة المرموقة . فان أصيب المدير أو الناظر بأى مكروه أو حدثت له حادثة كأن يقع مثلا من فوق جواده فيكسر « عظم قدم رجله اليمنى » بادرت الوقائع المصرية بنشر الخبر بالتفصيل وذكر اسم الطبيب المعالج ، وقام مصحح الوقائع بتنظيم قصيد يذكر فيها « كيفية الوقوع حسبما هو الواقع [2] » .

وشيدت مطبعة بولاق على قطعة الأرض التى أنشئت عليها فيما بعد الترسانة الأميرية، على ضفة النيل إلى الشمال قليلا من الموضع الحالى للمطبعة . ونظراً لزيادة عمال المطبعة ومعداتها : نقلت إلى مكانها الحالى . وكان ذلك فى غرة محرم سنة ١٢٤٥ هـ (٣ يوليو سنة ١٨٢٩ م)[3] . ويؤيد ذلك الليدى لاشنجتون فى كتابها الذى تصف فيه زيارتها لبولاق[4] . ويصف لنا اللورد لندسى[5] lord Lindsay موضع المطبعة بالنسبة لمؤسسات الباشا الأخرى الكائنة ببولاق . قائلا : « إن اتجهنا من الجنوب إلى الشمال . قابلنا الجمرك فالمطبعة ثم ورشة أصبحت فيما بعد مدرسة للهندسة ، ومصنعا للأصواف والترسانة » . أما مبنى الجمرك فقد الحق بالمطبعة وتأتى بعد ذلك مخازن البوليس ثم ورش كوك التى احتلت المكان الذى كان يشغله مصنع الورق . وتأتى الترسانة آخر الأمر . ويقول رينو أن الذى قام بتنظيم وتصميم مطبعة بولاق هو الأب رفائيل Dom Raphaïl مدرس اللغة العربية العامية سابقاً فى مدرسة اللغات

---

(١) محفوظات عابدين ، وثيقة رقم ٥٨٤ فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٧ هـ دفتر رقم ٢٠٧٣ ص ٨٢ ، ٨٣

(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ١٠٣ فى يوم الاثنين المبارك ثانى شهر ربيع الاول سنة ١٢٦٤ هـ .

(٣) — Albert Geiss ; Histoire de l'imprimerie en Egypte, 2e partie, "l'établissement typographique du pacha. Les débuts de l'imprimerie de Boulac". Bulletin de l'institut égyptien T. II p. 198, 1908.

(٤) — Lushington (Mrs. Charls), Narrative of a journey from Calcutta to Europe by way of Egypt, in the years 1827 - 1828. London, John Murray, 1829, p. 168 et sq.

(٥) Lord Lindsay, Letters on Egypt, Edom and the Holy Land, Vol. I, London Henry Colburn, 1838, p. 59

الشرقية الحية الكائنة بباريس بالقرب من مكتبة الملك .[1] ولندع بتس Yates [2] الذى زار القاهرة سنة ١٨٤٢ يصف لنا الحى الذى تقع فيه المطبعة . « إن ساحل بولاق مزدحم ، كثير الحركة ومكتظ بالبالات وأكياس القمح والشعير . فى كل وقت من النهار . وبقربه الجمرك . وفيه بطبيعة الحال مقهى ، وهى عبارة عن مكان لاستراحة البحارة العرب . أما مبانى هذا الساحل الأخرى فهى : جامع السلمانية ومطبعة حروف وحجر وبعض المخازن وقشلاق للجند وقصر اسماعيل باشا وعلى مقربة منه قصر المرحوم الدفتردار بك صهر محمد على ... » ونستطيع أن يستنتج من ذلك الوصف أن مطبعة بولاق كانت تمر فى تلك الفترة أى حوالى سنة ١٨٤٢ ، فى دور من الركود ، بدليل أن الوقائع المصرية . صحيفة الحكومة كانت تطبع فى مطبعة القلعة .

وعلى أى حال فان مطبعة بولاق لم تظل على الحال التى كانت عليها عند تأسيسها . فقد طلب قاسم أفندى ناظرها فى سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) من أدهم بك ناظر المهمات الحربية الحاق مخزن التجارة القديم بمبنى المطبعة « ليكون فيه السبك وسائر الأشغال . وإجراء الترميمات التى تتعلق بهذا التوسيع » وقد عرض أدهم بك الطلب على مجلس المشورة العسكرية الذى قرر أن يقوم وكيل الأبنية وقاسم أفندى برئاسة أدهم بك « باعداد ما يلزم لهذا المشروع » . وهكذا تم توسيع مطبعة بولاق للمرة الثانية فى ظرف عشر سنوات أو أكثر من ذلك قليلا [3] . وقد وضع فى المبنى الجديد الخطب وخصص جزء منه للسبك وبنى سقف للجزء المفتوح من بناء المطبعة . وقد انتهزت المشورة العسكرية تلك الفرصة فأمرت بتعمير الشبابيك وترميم « المحلات اللازم ترميمها » .

وفى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٥١ (١٨٣٥) أى بعد حوالى سنتين من انتهاء التوسيعات والاصلاحات السابقة صدر أمر من محمد على إلى ناظر الجير والجبس

---

(١) Reinaud ; Journal Asiatique, 2e série, T. VIII, 1831. De la gazette arabe turque imprimée en Egypte, p. 342.

(٢) Yates (W. H.), The Modern history and condition of Egypt, Vol. II, p. 361, London 1843.

(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٥٣٥ ، فى يوم الاحد ٢٦ صفر الخير سنة ١٢٤٩

عملا بمشورة المهندسين لينان أفندي وسليمان أفندي ، بأن يقوم ببناء رصيف أمام مطبعة بولاق وفابريقة الجوخ قبل الفيضان « وقاية لهاتين المصلحتين من الغرق » ويشير الباشا بارسال ۲۰۰۰۰۰ قنطار من الدبش على وجه السرعة [١]. وهذا دليل جديد على أن المطبعة كانت قريبة جدا من ضفة النيل . ولولا ذلك لما اهتم الوالي هذا الاهتمام بالإسراع في بناء الرصيف .

وقد أعيد إصلاح وتوسيع المطبعة في سنه ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦م) كما جاء في بيان المصروفات التي قام بها ديوان المدارس في شهر ربيع الآخر [٢] . غير أننا لم نتمكن من معرفة نوع هذه الإصلاحات أو التوسيعات . إذ أن البيان المذكور بجمل مصروفات المهندسخانة والمطبعة والباقرخانة وغيرها من المباني . غير أنه يبدو من الرقم المنصرف وهو ٣٠٨٠٥ قروش و ٧ بارة أن الاصلاحات كانت طفيفة جدا وأنها أقل بكثير من تلك التي شاهدتها المطبعة بعد إصدار الوقائع المصرية .

ولم تكن مطبعة بولاق مطبعة حروف فحسب ، بل كان يوجد فيها مطابع حجرية [٣] .أما الورق فكان يستورد من إيطاليا عن طريق ليفورن ، كذلك حبر الطباعة . إلا أنه صار يصنع في القاهرة بعد إنشاء المطبعة بوقت قليل[٤] .

وقد استوردت حروف المطبعة أول الأمر من أوروبا . غير أنه لما تبين عدم صلاحيتها استبدلت بحروف مصنوعة في مصر . ويأمر محمد علي كتخذاه محمد لاز أوغلي بك في ٨ صفر سنة ١٢٣٧ (١٨٢١ م) بتعيين خطاط هندي له معرفة وإلمام ببعض اللغات . . لتعليم الفارسي والخط للشبان الموجودين بمعية عثمان أفندي سقه زاده ببولاق » . ويرى محمد علي أن يكلف ذلك الخطاط بصنع الحروف التي ستطبع بها الكتب ببولاق[٥] . ويشاهد الباشا كتابا مطبوعا بتلك الحروف وهو « رسالة

---

(١) أمين سامي باشا ، تقويم النيل ، الجزء الثاني - ص ٤٤٠ ، مطبعة دار الكتب ١٩٢٨

(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ٦٤ في يوم الاثنين خامس وعشر جمادى الأولى سنة ١٢٦٣

(٣) Mrs. Charles Lushington ; op. cit., p. 168 et sq.

(٤) G. B. Brocchi, Giornale esteso in Egitto, nella Siria E nella Nubia, Vol. I, Bassano 1841, p. 137.

(٥) محفوظات عابدين ، من دفتر نمرة ٩ وجه ١٧ عين ٨٨ ، مخزن : تركي ترجمة —

اللغم » فيجدها « لطيفة الخط والطبع » ويأمر كتخداه محمد لاز أوغلى بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ (١٨٢٤م) بترتيب الماهية المناسبة للأسطى الحفار وإبقائه بالبصمه خانة وإرفاق بعض تلامذة معه لتلقى هذه الحرفة منه و « تنبهون عليه بذلك »[1].

وكانت إدارة المطبعة شديدة الاهتمام بالحروف . فلما عين عبد الكريم أفندى ناظراً لبولاق كلفه محمد على بطبع كتاب القاموس « موافقاً لطبع اسلامبول » وقد حضر إلى المطبعة لهذا الشأن « كتخدا أغا والبيك ناظر المهمات الحربية عموما وأبو القاسم أفندى الخطاط وعبد الوهاب أفندى المصحح » وقد عرضت على المذكورين صحيفة من ذلك الكتاب « فوجدوا فيها بعضاً من الحروف محتاجا إلى التصليح وبعضاً يلزم له التغيير » فطلبوا إلى عبد الكريم أفندى أن يصنع عدداً من الحروف فأجابهم إلى ما يريدون . غير أن أبا القاسم أفندى قال لناظر المهمات الحربية أن فى استطاعته أن يقوم بصنع الحروف جميعاً بمساعدة رجلين من الحكاكين. فيقرر مجلس المشورة تكليف راغب أفندى ناظر الدفترخانة بامتحان المذكورين « ليتبين لديه من يصلح منهما لدار الطباعة ... لأن هذه المصلحة مصلحة عظيمة »[2]. وهكذا نرى أن البت فى أمور المطبعة لم يكن اعتباطا . فان صادفت ناظر المطبعة أو مديرها مشكلة من المشاكل قدمها تواً إلى ديوان الخديو الذى يحيلها على مجلس المشورة فيكون هذا الأخير لجنة تبحث الأمر بحثاً دقيقاً وترفع نتيجته إليه ليقرر فيه ما يراه مناسباً . وقد ظلت حروف الطباعة مشكلة مطبعة بولاق زمنا طويلا .

ويتلقى مجلس مشورة الجهادية خلال سنة ١٢٤٧ هـ طلبا من « رجل أفرنجى اسمه دويده » يذكر فيه أن الحروف الموجودة فى مطبعة بولاق ناقصة ، وأنه على استعداد لتعليم عمال المطبعة طريقة صنعها . وقد وافق المجلس على الطلب ورتب له « سبعمائة وخمسون قرشاً شهرية ومائة وأربعون قرشاً بدل تعيين فى كل شهر وخمسمائه قرش ثمن كسوة فى كل ستة أشهر » . وبدأ المذكور عمله فى المطبعة

---

(١) محفوظات عابدين ، من دفتر نمرة ١٨ وجه ١٧ عين ٨٨ ، مخزن ٢ تركى — ترجمة .

(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٥٨ ، فى يوم الاثنين ٩ شوال المنور سنة ١٢٤٧

فى اليوم الثانى من شهر رمضان سنه ١٢٤٧[١] . ويعنى مجلس الجهادية عناية خاصة برغبات العمال الذين يقومون بصنع الحروف ويسهر على راحتهم فيرسل « حضرة بيك أفندى ناظر الجهاديه إلى حضرة الأفندى مأمور الديوان الخديوى لينبه على مهر باشى بأن يفرش أوضة « أبى القاسم أفندى الكيلانى بالشيت إذ كان فرشها لازما » وكان أبو القاسم أفندى يقوم بتقديم الحروف التى يصنعها فى كل أسبوع إلى مجلس الجهادية[٢] . وفى عهد عبد الكريم أفندى أجريت تعديلات على طريقة سبك الحروف . فقد كانت المسابك مركبة على قوائم من الخشب مما يجعلها تبلى بسرعة . وكان أن طلب عبد الكريم أفندى من محمد بيك أمير اللوا « أن يعمل لسبك الجداول والحروف أربعة مسابك من الطوب الأفرنجى ، لأنها إن عملت منه تصبر بالقلة قدر خمسة أشهر » . ووافق أمير اللوا على هذا الاقتراح بعد أن عرضه على مجلس الجهادية الذى قرر الكتابة إلى أمين أفندى ناظر الأبنية « بأن يعمل المسابك المذكورة حسبما ذكر سريعا[٣] » . ولم ينته موضوع سبك الحروف عند هذا الحد . وها هو ذا قاسم أفندى يعود مرة أخرى إلى مجلس الجهادية ليعرض عليه « أن آباء الحروف وأمهاتها اللازمة للمطبعة قد بذل جهده فى خدمتها » وهو يطالب بأن يعطى رتبة مكافأة له على المجهود الذى بذله فى هذا المضمار . ويقرر المجلس « تطييب خاطره » عندما ينتهى فعلا من سبك حروف التعليق لأنه « صاحب فنون متنوعة ومتصف بالعلم والعمل[٤] » وينتهى قاسم أفندى من المهمة التى أسندت إليه فى ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ ويطلب إلى المجلس « أن يعطى ملزمة ليجرب فيها الحروف التى عملت جديداً بمعرفته » فيأمر المجلس عبد الكريم أفندى ناظر المطبعة بأن يعطيه « الملزمة » (المطبعة) المذكورة ، ليجرى تجاربه عليها[٥] .

---

(١) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٦٠ ، فى يوم الأحد ، ١٥ شهر شوال المنور سنة ١٢٤٧

(٢) الوقائع المصرية - نمرة ٣٧٠ فى يوم الأربعاء ١٠ ذى القعدة الحرام سنة ١٢٤٧

(٣) الوقائع المصرية - نمرة ٤٠٧ ، فى يوم الاحد ٢٣ صفر الخير سنة ١٢٤٨

(٤) الوقائع المصرية ، نمرة ٤١٠ ، فى يوم الاحد ، غرة شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٨

(٥) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٣٤ ، فى يوم الأربعاء غرة جمادى الأولى سنة ١٢٤٨

وعلى الرغم من الفراغ من سبك تلك الحروف . فقد ظلت المطبعة معنية بأمرها . تعامل القائمين عليها معاملة خاصة . فقد حدث أن وصل إلى علم الباشا أن العامل الذى يقوم بصنع الحروف الفارسية قد ضرب ضربا مبرحا بناء على أمر قاسم أفندى الذى أصبح مديراً للمطبعة . وغضب الباشا كل الغضب لهذا الحادث وكتب إلى سامى بك يطلب إليه أن يستدعى العامل المذكور ويختبره جيداً إن كان فى إستطاعته صنع هذه الحروف كما ينبغى . وأن يخبره إن كان من المناسب إخراج قاسم أفندى من المطبعة[1] .

ويبدو أن حروف التعليق التى قام بصنعها قاسم أفندى لم تلق قبولا لدى أولى الأمر أو أنها على الأقل لم تكن لتكفى أعمال المطبعة كلها . وآية ذلك أنه صدرت إفادة إلى باغوص بك فى ١١ رمضان سنة ١٢٥٢ هـ (١٨٣٦ م) تستفسر عما تم فى حروف التعليق التى أرسل فى طلبها من أوروبا ، وتطلب إليه الاسراع فى إرسال تلك الحروف حال وصولها إلى مصر[2] . وكانت المطبعة قد بعثت إلى باغوص بك « بأوراق عينات خط التعليق »[3] . ومن ذلك يتضح أن خطوط تلك الحروف كانت تكتب فى مصر لا فى أوروبا . وكان فى مطبعة بولاق مجموعات من الحروف الافرنجية والتركية والعربية والفارسية صبت فى باريس[4] . فمطبعة الباشا ظلت فترة طويلة من الزمن تلجأ جزئيا إلى مسابك الحروف الأوروبية .

وكان عدد طابعات بولاق سنة ١٨٣١ ثمانية استوردت جميعها من باريس[5] . وكانت مطبعة ديوان الوقائع المصرية بالقلعة تستورد مطابعها ولوازمها من مطبعة بولاق . فاذا تعطلت آلة من الآلات أرسلت إلى بولاق وحل محلها آلة أخرى حتى لا يتعطل طبع الوقائع . وكان فى دار الطباعة ببولاق قسم لإصلاح أدوات

---

(١) ترجمة الأمر العالى رقم ٣٦٢ دفتر رقم ٥٦ ص ١١٨ بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ محفوظات عابدين .

(٢) أمين سامى باشا . تقويم النيل . الجزء الثانى ، ص ٤٧٩

(٣) المصدر السابق

(٤) Michaud (J.) et Poujoulat (M.), Correspondance d'Orient (1830 - 1831), Bruxelles 1841, Tome VII, p. 80, Lettre CLII.

(٥) المصدر السابق .

الطباعة[1] وصيانتها . وإن كنا لم نجد فى الوثائق أسماء المعنيين بهذا القسم إلا أننا نرجح أن يكونوا من خريجى مدرسة المهندسخانة .

لم يكن قسم التجليد فى المطبعة كامل المعدات إلى ٤ رمضان سنة ١٢٥٢ هـ (١٣ ديسمبر سنة ١٨٣٦) . فقد أرسل محمد على إلى مختار بك ناظر ديوان المدارس يقول له إن مدير المطبعة أخبره أن حسن الاسكندرانى المجلد الذى تعين فى المطبعة بعد عودته من أوروبا لا يصلح لشىء . ولما قام الباشا بالتحقيق معه أجاب المشكو فيه أن المطبعة خالية من الأدوات اللازمة للتجليد[2] . ويتبين لنا مما تقدم أن حسن الاسكندرانى كان قد تعلم فى أوروبا أصول التجليد الحديث ، فلما عاد إلى مصر ، ألحق بمطبعة بولاق . وكان قسم التجليد فيها ما زال يسير على الطريقة القديمة التى لم يتخصص فيها صاحبنا . وكانت مطبعة بولاق تقوم بعمل المظاريف الخاصة بالديوان وتصرف ورقها من ديوان المدارس[3] .

ويأخذ المستشرقون الأوروبيون على المطبعة عدم عنايتها بالاخراج . فالصفحة الأولى التى كان يجب أن تخصص لاسم الكتاب واسم مؤلفه فقط[4] ، قد حشيت بمقدمة طويلة ذكر فيها عنوان الكتاب واسم المؤلف بخط عاد مثله فى ذلك مثل سائر الحروف التى جمعت بها كلمات الكتاب جميعا ، وهم فى ذلك يقلدون الكتب المخطوطة .

ولم يكن فى مطبعة بولاق حتى سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) سوى مصحح واحد اسمه عبد الوهاب أفندى[5] . ثم رؤى . نظرا لزيادة أعمال المطبعة ، تعيين أربعة آخرين

---

(١) الوقائع المصرية نمرة ٣٤١ فى يوم الخميس ١٦ شهر شعبان المكرم سنة ١٢٤٧

(٢) G. Talamas ; Recueil de la correspondance de Mohamed Aly, Khédive d'Egypte, Le Caire, Imprimerie Nationale 1913, Ordre No. 756, 4 Ramadan 1252, 13 Décembre 1836, p. 290.

(٣) محفوظات عابدين ، دفتر ٦٣ جزء عاشر صادر الفروع بديوان المدارس وثيقة رقم ١١٩٩ ص ٣٦٢٥ ، من دار الطباعة العامرة الى ديوان المدارس .

(٤) Reinaud ; op. cit., p. 342.

(٥) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٤١ فى يوم الخميس ١٦ شهر شعبان المكرم سنة ١٢٤٧

« لأجل أن يكونوا له معاونين فى هذه الخدمة » . وكان المصحح يعين على سبيل الاختبار لمدة محدودة ، فان أثبت صلاحيته للعمل الذى نيط به أعطى مرتبا شهريا قدره ثلاثمائة وخمسون قرشا[1] . و « لما كان تمييز الخطأ من الصواب فى كتب الفنون المتنوعة التى تطبع بدار الطباعة من الأمور التى لا بد منها » . فان مجلس الجهادية كان يعمل دائباً على البحث عن مصحح « من ذوى العلم والفضل بحيث يكون مكتسباً للمعارف » . ويبدو لنا من الوثائق التى بين أيدينا أن العثور على مصحح كفء لم يكن من الأمور السهلة . وكان البحث يستغرق أحيانا الشهور الطويلة . فمجلس المشورة يقرر فى اليوم السادس عشر من شهر رجب سنة ١٢٤٧ تعيين أربعة مصححين ويكلف ناظر المهمات الحربية باختيارهم وتمضى الأيام فلا نجد فى المطبعة فى أول ذى القعدة سنة ١٢٤٨ سوى مصححين إثنين[2] . ولا تعامل مطبعة بولاق مصححيها على قدم المساواة ، فهناك الشيخ عبد الرحمن السفطى يعين له أربعمائة وخمسون قرشا مرتبا شهريا « حيث أن الشيخ المذكور له اليد الطولى فى العربية وأن وجوده بدار الطباعة موجب لخلو الكتب العربية العبارة التى تطبع فيها من السهو والغلط ... »[3] . ومن مصححى مطبعة بولاق فى تلك الحقبة من تاريخها ، السيد شهاب الدين محمد بن إسماعيل المصحح الأول لمطبوعات مطبعة بولاق سنة ١٨٣٦ . وأكبر الظن أنه ساعد على صياغة أخبار الوقائع صياغة عربية صحيحة . وقد ظل فى خدمة الوقائع والمطبعة حتى سنة ١٨٤٩ ، حيث انقطع عن العمل الرسمى ومضى يؤلف شعرا وأهازيج ومواويل تغنى[4] . وكان يتقاضى على عمله فى الجريدة والمطبعة سبعمائة وخمسين قرشا[5] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ٥٠١ فى يوم الأحد ١ من ذى القعدة الحرام سنة ١٢٤٨

(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٥٤٠ ، فى يوم الخميس المبارك ١٥ شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٩

(٤) الأب لويس شيخو ، الآداب العربية فى القرن التاسع عشر : الجزء الأول ، ص ٨٤

(٥) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٣٧١ فى ١٣ ذى القعدة سنة ١٢٧٧ ، محفظة رقم ٢٧ معية تركى من احمد رشيد ناظر المالية الى المعية .

أما عمال المطبعة فكان عددهم حوالى الأربعين[1] يعملون بنشاط تحت إدارة حازمة . وكان العامل لا يقبل فى المطبعة إلا بعد أن يختبر اختبارا عمليا . وكان العمال الفنيون يتقاضون أجوراً أعلى من تلك التى يتقاضاها العمال العاديون . وقد حدث أن تقدم أحد العمال المصريين بطلب قال فيه أن فى استطاعته الرسم والكتابة على أحجار الطباعة وأنه على استعداد أن يحل محل الرسام الأفرنجى القائم بنفس هذا العمل على أن يتقاضى نصف أجره . وقد قرر مجلس المشورة استدعاء هذا العامل « إلى المطبعخانة » وامتحانه ، فان وجد أنه قادر على أن يحل محل العامل الأفرنجى أعطى ثلث شهريته « لأن سبب كثرة شهرية هذا تركه بلده واستيطانه هنا وأما ذاك فهو فى مصر ... »[2] .

وإن ظهر لمجلس الجهادية — وكانت المطبعة تابعة له إلى سنة ١٨٣٧ حين أنشىء ديوان المدارس — أن العمال يقومون بعملهم كما ينبغى بادر بزيادة « شىء على شهريتهم جبرا لخاطرهم » وإخبارهم أنهم « كلما زادوا مهارة فى العمل ازدادوا تقدما »[3] . وإن احتاجت المطبعة إلى رجال « قارئين كاتبين » بادرت باخطار أمير اللوا وناظر المهمات الحربية الذى يقوم بدوره بعرض الأمر على مجلس الجهادية ، ويتصل هذا الأخير « بحضرة شيخ الجامع الأزهر » ليدبر للمطبعة العدد المطلوب من العمال ، فان لم يتوفر هذا العدد ، أرسل فى طلبه من مدرسة قصر العينى[4] . ولما كان « الغلمان الذين يأتون من طرف حضرة شيخ الجامع الأزهر لا يصلحون لأشغال المطبعة وقت مجيئهم « فقد تقرر تحويلهم إلى مكتب قصر العينى » ليكتسبوا المهارة فى القراءة والكتابة » . وهكذا أصبحت مطبعة بولاق ، إن كانت فى حاجة إلى عمال ، لا تطلبهم من الأزهر بل من المكتب المذكور[5] .

---

(١) Bulletin de la société de géographie de Paris, 1825, p. 42.

(٢) الوقائع المصرية ، بولاق مصر نمرة ٥٨ ، يوم الاثنين فى ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٤٥

(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٢٨ فى يوم الثلاث ٨ شهر رجب سنة ١٢٤٧

(٤) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٧٣ ، فى يوم الأربعاء ١٧ ذى القعدة الحرام سنة ١٢٤٧

(٥) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٧٨ ، فى يوم الثلاث سلخ ذى القعدة الحرام سنة ١٢٤٧

وكان كل عامل من عمال المطبعة يأخذ كسوته من ديوان الجهادية « إذ دخل وقتها وآن أوانها »[1] . وهناك فئة من العمال لم تكن تتقاضى مرتبات شهرية ثابتة ، وهى فئة عمال التوضيب . وهؤلاء يتقاضون مائة نصف فضة على كل ألف صحيفة . وقد اشتكوا ذات يوم من قلة الأجر ورفعوا شكواهم لمجلس مشورة الجهادية الذى وافق على زيادة الأجر عشرين نصفا فضة على شرط « أن يجتهدوا فى خدمتهم ولا يتركوا شغل يوم لما بعده ... »[2] .

وفى سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) ازدادت أشغال السبك فى المطبعة ، واحتاجت إلى « سبعة رجال لسبك الحروف وستة رجال لجمعها وسبعة رجال للزمة الحجر . . . بشرط أن تكون لهم معرفة بالقراءة والكتابة » . وقد أرسل فى طلب هذا العدد من العمال من ناظر قصر العينى[3] . وهكذا نرى أن مكتب قصر العينى كان المركز الذى يغذى المطبعة بالعمال الذين يشترط فيهم معرفتهم القراءة والكتابة .

وكانت طائفة المجلدين لا تتقاضى أيضا مرتبا ثابتاً شأنها فى ذلك شأن طائفة الموضبين . وكان المجلد يتقاضى اثنين وخمسين قرشا وعشرين نصفا عن تجليده مائة وخمسين كتابا . ويقتضى صرف هذا الأجر أن يتقدم المجلد بطلبه إلى مجلس مشورة الجهادية الذى يقدم بسؤال ناظر المطبعة وناظر الجهة التى أرسلت إليها الكتب المجلدة ثم يصدر أمره إلى ناظر المطبعة بصرف المبلغ إلى المجلد[4] .

وكان بعض الطباعين أيضا يعمل بالمقاولة وكان يتقاضى أجره على الكتاب ، فان زاد الكتاب عن الحجم العادى كما حدث عند طبع كتاب القاموس سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) رتبت له « شهرية مثل شهرية المشايخ الذين أخذوا من القصر العينى ... إلى أن يتم طبع الكتاب المذكور » . وكان العامل من هؤلاء يتقاضى مرتبا شهريا

---

(١) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٨٥ ، فى يوم الخميس ٢٣ من ذى الحجة الحرام سنة ١٢٤٧

(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٢٦ ، فى يوم الخميس ١١ شهر ربيع الآخر سنة ١٢٤٨

(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٣٥ ، فى يوم الأحد ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٨ سنة ١٢٤٨

(٤) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٤٢ ، فى يوم الثلاث ٢١ جمادى الأولى سنة ١٢٤٨

قدره مائة وعشرون قرشا[1] . وكان العامل الذى يرسل من مكتب قصر العينى إلى المطبعة ليتعلم صنعة جمع الحروف لا يتقاضى أجرا إلا إن شهد له ناظر المطبعة أنه « قد اكتسب المهارة فى فنه » . فيحرر « أعلام من حضرة بيك أفندى ناظر الجهادية إلى عبد الكريم أفندى (ناظر المطبعة) بأن يقيد له شهرية كأمثاله بالدفتر ... »[2] . وإن أذنب أحد العمال بادر ديوان الخديو بارسال تقرير عن المذنب إلى مجلس مشورة الجهادية ليحقق فيه ، فان ثبت جرمه « حرر » أعلام من حضرة بيك أفندى الناظر إلى حضرة أميراللوا أدهم بيك ناظر المهمات الحربية عموما إشعار له أن يؤدبه ... »[3] .

وكان على الشخص الذى يريد الالتحاق بالمطبعة أن يقدم « عرضا للمشورة العسكرية يذكر فيه أنه مكث فى تحصيل العلم بمدرسة قصر العينى مدة من الزمن ثم خرج منها متقاعدا » . وكان على المشورة العسكرية أن تسأل عن مقدم الطلب ، ناظر دار الطباعة . فأن أجاب الأخير بأن المتقدم يعرف القراءة والكتابة وأنه يصلح للمطبعة بادر مجلس المشورة العسكرية بتحرير إشعار إلى ناظر المهمات الحربية عموما « بأن يعرف ناظر دار الطباعة باستخدامه وتقييده فى الدفاتر كأمثاله »[4] .

ويقول إسماعيل سرهنك فى كتابه « حقائق الأخبار عن دول البحار » أن عدد عمال مطبعة بولاق قد بلغ الأربعمائة عامل[5] . ولسنا فى حاجة إلى القول إن هذا العدد مبالغ فيه . فان عدد عمال المطبعة فى نهاية عهد محمد على لم يكن يتجاوز

---

(١) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٩٨ ، فى يوم الخميس ٢٩ من المحرم الحرام سنة ١٢٤٨

(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٠٥ ، فى يوم الثلاث ، ١٨ صفر الخير سنة ١٢٤٨

(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٤٧ ، فى يوم الأحد ٤ جمادى الأخرى سنة ١٢٤٨

(٤) الوقائع المصرية ، نمرة ٥٣٧ ،فى يوم الأحد ٣ شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٩، الوقائع المصرية نمرة ٥٤١ فى يوم الاثنين المبارك ١٩ شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٩

(٥) اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار . الجزء الثانى ص ٢٣٠ .ولاق ١٣١٤ هـ .

المائة والتسعة والستين بما فى ذلك « السعاة والسقايين والخدم[1] » . وقد يكون هذا العدد قد وصل إلى المائتين فى أوج حكم محمد على ، إلا أننا لا نعتقد بأنه قد تعداه بأى حال من الأحوال .

وقد طبعت صحيفة الوقائع المصرية فى عهدها الأول فى مطبعة بولاق إلى ٢٦ صفر سنة ١٢٤٩ . ثم رئى أن تطبع فى مطبعة ديوان الوقائع بالقلعة لتكون قريبة من مقر الحكومة وظلت تطبع هنالك إلى أن قرر مرة أخرى أن تعاد إلى مطبعة بولاق ، وكان ذلك ابتداء من العدد السادس الصادر فى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦١ هـ (١٨٤٤ م) .

ويصف لنا المسيو بيرون Peron ناظر مدرسة الطب فى رسالة طويلة موجهة إلى المسيو موهل Mohl سنة ١٨٤٣[2] ، النجاح الذى حققته مطبعة بولاق ، ويقارن بينها وبين مطبعة الآستانة ويخلص من ذلك إلى القول إن مطبعة بولاق قد فاقت مطبعة الآستانة من حيث عدد الكتب التى تطبع فيها . ويعطينا بعد ذلك فكرة من الاجراءات الواجب اتباعها إن أراد أحدهم طبع كتاب على نفقته . فهو يقدم أصول الكتاب إلى ديوان المدارس ليتفق معه على القطع وهو عادة الثمن أو الربع ، وعلى عدد الأسطر فى كل صفحة يجب أن يكون هذا العدد مفردا . أما الحروف فلم يكن يوجد منها إلا نوع واحد ، عدا الحرف الذى كان يستعمل فى تبويب فصول الكتب ، وهو غالبا من النوع الفارسى . وعندما يتم الاتفاق مبدئيا ، تطبع صفحة من الكتاب كتجربة لتقدير عدد سطوره بالتقريب ثم يحدد نوع الورق ، ويتفق على سعره وتحسب كميته . وإذا ما تم هذا الاجراء ، تمكن الملتزم من معرفة تكاليف الكتاب الذى يريد طبعه ، ويعمل بعد ذلك على إنهاء عملية الطبع بأسرع ما يمكن . ولتفادى أى نزاع قد ينشب بين الملتزم وإدارة المطبعة على المدة التى سيستغرقها الطبع ، تقوم المطبعة بتعيين موعد الاستلام بحيث يتناسب وحجم الكتاب . غير أنه كثيرا ما لا تفى المطبعة بوعدها فيستغرق طبع

---

(١) محفوظات القلعة ١٣٦٢٢ — ٢٥ عين ٢٧ ١٢٦٤

(٢) A. Peron ; Lettres sur les écoles et l'imprimerie du pacha d'Egypte, journal Asiatique, 4e série, Tome II, p.5 - 53, Paris 1843.

الكتاب مدة أطول من التى قد اتفق عليها ، ويتحمل الملتزم جميع المصروفات التى تسببت عن هذا التأخير . وتوضيحا لما تقدم ، نفرض أن الطبع سيستغرق ثلاثة أشهر ، فان الديوان يحسب فى هذه الحالة مرتبات ناظر المطبعة ومصحح التجارب والمراجع ورئيس العمال والمجلد وجميع الذين سيشتركون فى طبع الكتاب خلال الشهور الثلاثة . ثم يضاف إلى ذلك تكاليف الورق والحبر الخ ... وتجمع تلك المصروفات ولنفرض أنها بلغ حاصلها ١٢٠٠٠ قرشا ، فان الديوان يضيف إلى هذا الحاصل نصفه كربح للحكومة . وهكذا يتقاضى الديوان ١٨٠٠٠ قرشا قابلة للزيادة إن استهلكت كمية أكبر من الورق أو تجاوز الطبع المدة المحددة له .

ومهما بدت تكاليف الطبع باهظة فان أرباح الملتزم تصل أحيانا إلى خمسين فى المائة . ويوزع الملتزم نسخ كتابه فى الآستانة وأزمير وبلاد المغرب . أما الديوان فان جل عنايته موجهة إلى طبع الكتب المدرسية والكتب الخاصة بتدريب الجيش وتعليمه . ويشتم من كلام المسيو بيرون أن حركة الطباعة بعد معاهدة لندن أخذت تقل ، ويعلل ذلك بقلة عدد تلاميذ المدارس . وهكذا نرى أن أعمال المطبعة فى تلك الحقبة من حياتها اقتصرت على طبع بعض الكتب المدرسية والدفاتر والسجلات الخاصة بمختلف دواوين الحكومة وإداراتها .

أما مطابع بولاق الحجرية فانها تقوم بطبع المصورات والرسوم الخاصة بكتب الرياضيات والطبيعة والكيميا والكتب العسكرية . إذ أن مصر لم تكن قد عرفت بعد الحفر على الزنك أو فن الزنكغراف . ولا تهتم مطبعة بولاق بطبع الكتب العربية القديمة والتركية والفارسية إلا فيما ندر . وسبب ذلك وجود ثلاث مطابع فى الآستانة تقوم بهذا العمل خير قيام ، يضاف إلى ذلك أن تكاليف الطبع هناك أقل منها فى بولاق لأن مطابع الآستانة تقوم بطبع عدد كبير جداً من النسخ . ويردف المسيو بيرون قائلا إن مصر كانت فى أول الأمر ترسل كتبها المطبوعة إلى تركيا لتباع هناك أما اليوم — أى فى سنة ١٨٤٣ — فقد انعكست الآية وأصبحت الآستانة هى التى ترسل كتبها إلى مصر .

وقد بدأت مطبعة بولاق فى الطبع على حساب الأفراد منذ سنة ١٢٥٢ هـ (١٨٣٦م) وقد أعلنت صحيفة الوقائع المصرية عن ذلك فى عددها الصادر فى السادس

من شوال سنة ١٢٥٢ . وفى هذا العدد أيضا أعلنت المطبعة عن مباشرة طبع ديوان سامى ومتن المحمدية وديوان نشأت وكليات أبى البقا وديوان نديم وترجمة الملتقى وسفينة راغب والدر المختار مع حاشية الطحطاوى وحديقة السعدا وحياتى وحاشية دده جونكى على العزى وديوان برتو وخابنامه ويسى وشرح النصوص وطوطى نامه ، « حيث صدر الأمر العالى بطبعها وشرع فيه » .

وكان على الملتزم إن أراد طبع أى كتاب أن يحضر إلى المطبعة من يكفله عندها[1] . فقد يتم طبع الكتاب ولا يستطيع الملتزم دفع تكاليفه للمطبعة . وكان كلما تم اتفاق بين أحد الملتزمين والمطبعة ، بادرت صحيفة الوقائع بنشره[2] مبينة اسم الملتزم ووظيفته وعدد نسخ الكتاب واسمه وموافقة ديوان المدارس على الطبع . وكان الوالى شديد الاهتمام بالمطبعة ، حريصا كل الحرص على أن يدفع الناس ما عليهم من ديون لها . فقد بلغه ذات يوم أن مدير النصف الثانى لمصر الوسطى امتنع عن دفع دين عليه للمطبعة ، فكتب إليه يبلغه عدم رضاه عليه ويذكره بأمر سبق أن أصدره ، ينص على أن كل شخص يتأخر عن دفع دين للميرى يرسل إلى اللومان ، ثم يحيطه علما بارسال مندوب إليه ليحصل منه هذا الدين ويهدده فى حالة عدم الدفع بمعاملته وفقاً للأمر المذكور . ويلفت نظره فى آخر الخطاب أن عليه أن يختار بين الدفع أو الذهاب إلى اللومان[3] .

وكان محمد على يتضايق كل المضايقة من الأخطاء المطبعية ، خاصة إن كانت هذه الأخطاء فى الوقائع المصرية « فلذا أمر سعادته حضرة الحاج إبراهيم أفندى كاتب ديوانه السامى سابقا وناظر مجلس الشورى حالا بأن ينزل إلى المطبعة » ويحضر جميع المشتغلين فيها ويمتحنهم ويحقق معهم ليعرف المخطىء . وكان المصحح ينسب خطأه إلى الطابع والطابع ينسب خطأه إلى المصحح . وتم الاتفاق آخر الأمر على أن يقوم المصحح بمراجعة المسودات وإرسالها إلى المطبعة بعد أن يمهرها

---

(١) الوقائع المصرية ، نمرة ٦١٩ فى يوم الأحد المبارك ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٥٦

(٢) المصدر السابق .

(٣) G. Talamas ; op. cit.,Ordre No. 824, 26 Zilkadeh 1253, 21 Février 1838.

بامضائه . فان وقع أى خطأ بعد ذلك يجب مطابقة عدد الوقائع المطبوع على المسودة المصححة ، فان ظهر أن الخطأ من المصحح أعيد طبع العدد على نفقته . أما إن تبين أن الخطأ من المطبعة فعلى مدير المطبعة أن يقوم باعادة الطبع على نفقته هو[1] .
وقد تكرر الخطأ المطبعى عند نشر قائمة الضباط فى الوقائع المصرية ، فأصدر الوالى أمره إلى مختار بك ليستدعى ناظر الوقائع ويحقق معه فى سبب تغيير بعض الأرقام الواردة فى أصل القائمة المذكورة دون استئذان وينبه عليه بالاعتناء فى عمله ، ويقول له فى آخر الخطاب « إذا تبادر إلى الخاطر بأن مثل هذه الأخطاء توجد فى كل الجرائد فهناك ملحوظة هامة ، وهى أن الوقائع المصرية جريدة حكومية وأن مركزها خطير ، لذلك يجب الاهتمام فى صحة مندرجاتها وعدم نشر أى شيء فيها قبل الوثوق من صحته وقبل السؤال عنه وفهمه جيدا[2] » .

وفى سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١م) تم طبع أول كتاب موسيقى على الحجر . وقد عين لهذا الغرض أحد المختصين فى الموسيقى وأرسلت إليه من بولاق ملزمة حجر ليباشر عمله ، إذ تبين لمجلس الجهادية أن طبع مقامات الموسيقى «موجب لسهولة التعليم[3]».

وبلغت مصروفات المطبعة سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) ٣٥٠ كيسا ، وهو مبلغ لا بأس به إن قيس بمجموع مصروفات الدولة البالغ ٣٩٩٨١٤ كيسا [4] .
ويمكن أن يقال إنه منذ صدور الوقائع المصرية فى سنة ١٨٢٨ ، أخذت مطبعة بولاق تتقدم بخطى واسعة فزيدت أدواتها ومعداتها وتضاعف عدد عمالها وكثر إنتاجها وعم النشاط جميع أرجائها . وكانت أثمان كتبها تتراوح بين ٣١٠ قروش ، مثل كتاب مثنوى شرحى الذى يقع فى ثلاثة مجلدات وهو مترجم من الفارسية إلى التركية وبين قرش واحد . مثل كتاب علم حال التركى[5] . .

---

(١) وقائع مصرية ، نمرة ٣٤ ، يوم الخميس فى ٢ ذى الحجة سنة ١٢٤٤
(٢) محفوظات عابدين ، وثيقة رقم ٢٢١ فى ٢٧ جمادى الآخره سنة ١٢٥٠ هـ
(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٤٩ ، فى يوم الأربعاء ٦ شهر رمضان المعظم سنة ١٢٤٧

(٤) F. Mengin ; Histoire Sommaire de l'Egypte, p. 155, Paris 1838

(٥) عن تقرير بورنج Report on Egypt & Candia ١٨٣٩ ، تعريب د . محمد فؤاد شكرى وعبد المقصود العنانى وسيد محمد خليل فى « بناء دولة مصر محمد على » ص ٦٨٠ الى ٦٨٣

واهتم الوالى ، حين أرسل البعثة المصرية إلى فرنسا سنة ١٨٢٦[1] . أن يتخصص بعض أعضائها فى فنون الطباعة المختلفة . مثل حسن الوردانى الذى بعث إلى فرنسا ليتعلم فنى الطبع بأنواعه والحفر . وكان راتبه الشهرى مائة قرش . وقد عاد من فرنسا سنة ١٨٣٥ وأصبح فيما بعد معلم فن النقش بالمدارس المصرية[2] . وأرسل محمد أسعد إلى فرنسا أيضا ليتعلم الطبع والحفر[3] . واتجه قاسم الجندى إلى مرسيليا ، ويقول الأمير عمر طوسون عنه « ولعله كان يتعلم الطباعة والحفر[4] » ويقول جومار عن هؤلاء المبعوثين أنهم درسوا الرسم وتخصصوا بعد ذلك فى حفر الخرائط وهندسة العمارة والطبع على الحجر ، ليعهد إليهم رسم لوحات المؤلفات العلمية التى تنقل إلى اللغة العربية . وقد تعلموا أيضا فن الطباعة بالحروف المتفرقة[5].

وقد زار مطبعة بولاق عدد كبير من الأجانب . وكان لكل منهم رأى خاص فيها.

وكان بروكى الإيطالى أول أجنبى يزور مطبعة بولاق . وقد أعجب بها كل الاعجاب واسترعى انتباهه النظام والنظافة « وهما صفتان نادرتان عند الشرقيين » . ويبدى صاحبنا إعجابه برحابة المقر أيضا وهو عبارة عن قاعة غاية فى الاتساع بنيت على مستوى سطح الأرض[6] .

قام بروكى بتلك الزيارة فى ١١ديسمبر سنة ١٨٢٢ ، أى فى السنة التى بدأت فيها مطبعة بولاق نشاطها الفعلى . وغنى عن البيان أن تحمس هذا الرجل للمطبعة واضح وقد يعلل بأن مدير المطبعة وقتذاك كان قد درس فنه فى إيطاليا وأن الآلات المختلفة والورق كانت تستورد من إيطاليا . فلا غرابة إذن أن يرى بروكى كل شىء على ما يرام .

---

(١) Jomard ; Journal Asiatique, p. 107, 2ième série, tome 2, 1828.

(٢) الأمير عمر طوسون ، البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد ، الاسكندرية ١٩٣٤ ، ص ٤٢

(٣) الأمير عمر طوسون ، المصدر السابق ، ص ٤٢

(٤) الأمير عمر طوسون ، المصدر السابق ، ص ٤٦

(٥) Jomard ; op. cit., I. 107.

(٦) G. B. Brocchi ; Giornale esteso in Egitto, Nella Siria E. nella Nubia, Vol. I, Bassano, 1841, 174.

وها هو ذا « رينو » Reinaud يصف لنا المطبعة إبان تولى نقولا مسابكى نظارتها فيقول : « كانت المؤلفات التى تخرجها المطبعة بعيدة كل البعد عن الجمال والذوق السليم ، شأنها فى ذلك شأن سائر الكتب التى تطبع فى مطابع حديثة التأسيس . وليس لكتاب من تلك الكتب غلافة مرسومة كما هو المتبع عادة . وظهرت كتب كثيرة خلوا من عناوينها وأسماء مؤلفيها » ويردف رينو قائلا « إن مطبعة بولاق ستتقدم بعد عودة البعثة المصرية من باريس وأن تقدمها لن يقتصر على فن الطباعة والإخراج فحسب ، بل سوف يتعداه إلى ما هو أهم » ، ويقصد الكاتب بذلك المؤلفات الفرنسية التى سيقوم بنقلها إلى العربية أعضاء تلك البعثات . ويضيف أن أحد هؤلاء المبعوثين وهو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى قد وصل إلى القاهرة ، بعد أن تعلم فن الترجمة فى باريس . وها هو ذا يستعد لمباشرة أعمال الوظيفة التي ستسند إليه[1] .

ومن الذين قاموا بزيارة المطبعة المسز تشارلز لاشنجتون وكان ذلك فى اليوم العاشر من شهر فبراير ١٨٢٨ ، أى قبل البدء فى إصدار الوقائع المصرية وقبل عودة البعثة المصرية من فرنسا . وتقول تلك السيدة فى معرض حديثها عن المطبعة : « ولفت نظرنا بعد ذلك مطبعة الباشا الحجرية وآلات الطبع . ويبدو أنها تحت إدارة حسنة ، إذ يرأسها درزى (كذا) مولود فى جبل لبنان (كذا) . وهو شاب مهذب ، نشط وذكى ، كان الباشا قد أرسله إلى أوروبا مع عدد من الشبان . لقد شاهدت جميع أقسام المطبعة ابتداءاً من مرحلة صف الحروف إلى أن يتم صنع الكتاب . والمؤلفات التى كانت تحت الطبع فى تلك الأثناء هى : تاريخ تركى من تأليف أحد ضباط الصدر الأعظم ورسائل بين الباشا والباب العالى وترجمة تركية لبعض المؤلفات الفرنسية الخاصة بالفنون والبحرية ، وقد طبعت صفحاتها المصورة بالحجر ، وديوان الشعر الفارسى المسمى جلستان ، وبعض كتب قواعد اللغة . لقد صنعت آلات الطباعة (كذا) تحت إشراف هذا الدرزى . أما الورق فهو من صنع أوروبا .

---

(١) Reinaud ; Notice des ouvrages arabes, Persans & Turcs imprimés en Egypte, Journal Asiatique, 2e série, Tome VIII, p.333 - 334

« ودخلنا بعد ذلك الجناح الذى يقيم فيه المدير ، وهو يتحدث بالإيطالية ، وقدم لنا ، كما هى العادة ، القهوة فى أقداح صغيرة من الصينى .. »[1].

وليست السيدة لاشنجتون بالشخص الذى يحسن الاعتماد عليه إن أريد الحكم على فن مطبعة بولاق ومستواها . وهى على أى حال لا تذكر شيئا من هذه الناحية ، لا بل تذكر معلومات خاطئة لا ندرى من أين أتت بها . فنقولا مسابكى ، مدير المطبعة ، لم يكن درزيا ولم يولد فى جبل لبنان وآلات الطباعة لم تصنع فى مصر بل جلبت من إيطاليا أول الأمر وركبت فى مصر . وهكذا لا يستطيع المؤرخ أن يرجع إلى ما ذكرته تلك السيدة عن مطبعة بولاق إلا إن توخى الحرص الشديد .

ويزور مطبعة الباشا فى سنة ١٨٣٠ السائحان الفرنسيان كادلفين وبروفيرى ويبدو أنها لم تلفت نظرهما فهما يذكران عنها أنها تطبع كتبا باللغات العربية والتركية والفارسية ، طبعا جيداً إلى حد ما ، كما تصدر الوقائع المصرية وهى فى رأيهما جريدة حكومية ليس لها أدنى أهمية[2] .

ويهتم ميشو وبوجولا خلال سياحتهما العلمية فى الشرق الأدنى ، بمطبعة بولاق ، ويصف بوجولا لزميله ميشو فى رسالة بعثها له خلال شهر أبريل سنة ١٨٣١ زيارته لتلك المطبعة فيقول : « لقد زرت مطبعة الباشا الكائنة ببولاق كما زرت المطبعة السلطانية فى الآستانة ، فوجدت فيها ثمانى مطابع استوردت من باريس وحروفا أوربية وتركية وعربية وفارسية صبت فى باريس ، أما الورق فيرسل من ليفورن وتريستا . ويدير هذه المؤسسة عربى درس فى ميلانو . إن الكتب المطبوعة فى مطابع بولاق يمكن أن يقال عنها إنها صحيحة إلى حد كبير ، وهى ترسل بانتظام إلى فرنسا حيث توضع فى مكتبة الملك . ويتساءل الكاتب بعد ذلك « هل حققت تلك المطبوعات الهدف الذى ترمى اليه ؟ إن أعقل الناس يشك فى ذلك ، لقد كان فى استطاعة مطبعة الباشا أن تؤدى أعظم الخدمات لو أنها نشرت مؤلفات أولية عن جغرافية مصر وتاريخها وكتبا صالحة لتعليم الشعب وتربيته وتحف آداب اللغة

---

(١) Mrs. Charles Lushington ; Narrative of a Journey from Calcutta to Europe By way of Egypt in years 1827 & 1828, second Edition London : John Murray 1829, p. 168 et seq.

(٢) Ed. de Cadalvène et J. de Breuvery ; L'Egypte et la Nubie, Tome I, Paris 1841 p. 87.

العربية المشهورة . إن كتب الحركات العسكرية والطب لها فائدتها ، ولكنها لا تصلح إلا لعدد قليل جدا من القراء ؛ أما بقية الكتب ـ فيما خلا القليل النادر منها ـ فإن سوقها كاسدة وحركة بيعها معطلة ، وهى لا تخرج من المطابع التى تعمل على مضاعفة عددها ، إلا لتكدس فى المخازن ، حيث تبدو وكأنه قد حكم عليها بالنسيان الأبدى ؛ فلا أحد يشتريها ولا أحد يقرؤها لأنها لا تفى بحاجات العصر الحاضر ولا تتفق وعقلية الجمهور الواجب تعليمه وتنويره ، ومن السهولة بمكان أن نتنبأ بمصير تلك المطبعة التى تكلف إنشاؤها الشيء الكثير ، وهى فى ذلك كسواها من الصناعات العديدة التى جلبت من أوربا وأهمل توطيد العلاقة بينها وبين البلاد إهمالا شنيعا . وقد أبديت هذه الملاحظات للدليل الذى كان يصحبنى ، وقد وجدها فى محلها ، غير أنه أجابنى إن أكبر صعوبة ليست فى إنشاء مطبعة بمصر ، بل فى جعل الشعب المصرى وحتى الطبقة العليا منه تقرأ مختلف المؤلفات التى سوف تخرج من تلك المطبعة . إن مجرد التفكير فى هذه المسألة يجعلنا نيأس من نجاح تلك المؤسسة التى يمكن أن نشبهها بآلة تدور بقوة اندفاع الماء وتصب ماؤها فى الرمال والصخور الوعرة . إن هذه الفكرة لجد محزنة ، وليس فى مقدورى أن أقف بها أكثر من هذا القدر . »(١)
ولا شك أن بوجولا يتكلم هنا بعقلية الاستعمارى الذى يستكثر كل شيء على الشعوب المغلوبة على أمرها .

وقد اهتم بمطبعة بولاق أيضا قناصل الدول الأوروبية ، فكتب القنصل الانجليزى جون باورنج عن تلك المطبعة فى تقريره عن مصر وكريد سنة ١٨٣٣(٢) .

ويذكر اللورد لندسى فى كتابه وصف زيارة صديقه المستر رمزى للمهندسخانة ، قصر اسماعيل باشا سابقا الكائن ببولاق وللمطبعة ، فى هامش الخطاب الذى أرسله إلى والدته فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٣٦ ، فيورد ما جاء فى يوميات المستر رمزى : « . . . وشاهدنا أيضا المطبعة وسررنا منها كل السرور . وهم يطبعون فيها جريدة

---

(١) Michaud et Poujoulat ; Correspondance d'Orient, Tome VII, Lettre CLII "L'Imprimerie de Boulac et les livres que l'on y imprime". Du Caire, Avril 1831, p. 80 - 87.

(٢) John Bowring ; Report on Egypt and Candia, p. 45 et seq., p. 135, 142, 144 et seq. London 1840.

أسبوعية وشاهدنا عدة كتب . وكان قد تم طبع ألف ليلة وليلة . وطبع بعض الكتب جميل ... »[1] . ويستأنف اللورد لندسى وصفه المطبعة فيقول « ... وقد زرنا فى اليوم نفسه مطبعة الباشا الكائنة أيضا ببولاق ويبدو أن العمال غاية فى النشاط ويعرفون عملهم جيدا وقد شاهدنا عدة مؤلفات تحت الطبع . ولاحظنا أن الطباعة والورق . . . من نوع أجود من الذى تطبع بها الكتب الألمانية والإيطالية العادية . وتوجد حروف انجليزية ومطابع حجرية أيضا لسوف أبعث إلى منزلنا نموذجا أو نموذجين من المطبوعات المصرية ككتاب ألف ليلة وليلة مثلا . وقد نشب فى الوقت الحاضر نزاع — أشبه ما يكون بالنزاع الذى يقوم بين المعدة والأمعاء — وهو قائم بين المطبعة والكتبخانة . ولا يمكن شراء أى كتاب إلا بعد عودة المياه إلى مجاريها ، ولن تعود إلا بعد انقضاء شهر رمضان . وقد يكون أفيد كتاب نشره الباشا ، الأطلس العربى وهو منسوخ عن الأطلس الذى قام بعمله المرسلون فى مالطا . إن طبع القرآن ممنوع ... »[2] .

لقد كان اللورد لندسى فى حكمه على مطبعة بولاق أكثر رأفة من زميله بوجولا الذى زارها قبل ذلك بخمس سنوات وانتقد فن الطبع وحمل على نوع الكتب التى كانت تطبع فى تلك الحقبة . ويبدو لنا أن حال المطبعة سنة ١٨٣٦ كان غيرها فى سنة ١٨٣١ ، فقد عاد فى تلك الأثناء أعضاء البعثة التى أرسلها محمد على سنة ١٨٢٦ وكان من بين هؤلاء اثنان على الأقل قد تخصصا فى فن الطباعة . لا بد إذن من أن تكون مطبعة بولاق قد استفادت من خبرتهما مما حمل اللورد لندسى على إطراء مطبوعاتها ونشاط عمالها .

ويهتم إدوارد وليم لين بمطبوعات بولاق أكثر من اهتمامه بالمطبعة نفسها ، وقد زارها فى سنة ١٨٣٦ . ويقول إن محمد على أنشأها لطبع الكتب العسكرية المختلفة والعلوم المدنية[1] ويذكر هذا المستشرق الانجليزى عن تلك المطبعة أنها تقوم سنويا

(١) Lord Lindsay : Letters on Egypt, Edom & the Holy Land, Vol I, London, Henry Colburn, 1838, Letter III, p. 59 الهامش

(٢) Lord Lindsay ; op. cit., p. 60 - 61.

(٣) Ed. Wil. Lane ; An account of the manners and customs of the modern egyptians, London 1944, Everyman's Library, p. 563

بطبع تقويم للجيب يبين الأشهر القمرية والقبطية والسورية والأوروبية ومواعيد الصلاة ويعين أعياد المسلمين والأقباط . وإلى جانب هذا التقويم ، تقوم المطبعة بطبع تقويم آخر ظهرت فيه التغيرات الطبيعية والزراعية على مدار السنة . ويعنى هذا التقويم بتحديد كسوف الشمس وخسوف القمر ولا يخلو من بعض الخرافات التى يؤمن بها المصريون . أما واضعه فهو يحى أفندى وكان قسيسا مسيحيا سوريا اعتنق الإسلام[1] .

وسواء رضى هؤلاء الأجانب عن مطبوعات بولاق أم لم يرضوا فالحقيقة التى لا تقبل المناقشة أن كتب بولاق طبعت فى تلك الحقبة طبعا واضحا لا غبار عليه . وقد اطلعنا على أكثر من كتاب من تلك الكتب وقارنا بينها وبين تلك التى طبعت فى لبنان حوالى ذلك التاريخ فخلصنا إلى أنها تفوقها كثيرا من حيث جمال الحرف ودقة الطبع وإتقانه . وإن كل ما نستطيع أن نأخذه على بولاق أنها لم تخرج كتابا واحدا طبع طبعا فاخرا لترضى به ذوق المسيو بوجولا أو المسيو رينو .

وعلى الرغم من إنشاء مطبعة بولاق ، فقد ظلت حركة بيع الكتب فاترة ولم يقل عدد الذين ينسخون الكتب . ولندع ادوارد وليام لين يصف لنا الحالة فى تلك الحقبة من تاريخ مصر : « يوجد بالقاهرة عدة مكتبات كبيرة . ألحق معظمها بالمساجد ، وأغلب كتبها يعنى باللاهوت والفقه وأصول اللغة . ولكن تلك المكتبات مهملة إهمالا فاضحا مما أدى إلى سرعة تلف محتوياتها ، وسبب ذلك عدم اهتمام أمنائها بها وعدم إخلاصهم للعمل الذى يقومون به . ومن جهة أخرى ، فان الذين يستعملون تلك الكتب لا يحرصون على صيانتها . ويملك عدد من التجار الأغنياء وغيرهم مكتبات خاصة عامرة بالكتب . أما بائعو الكتب فلا يزيد عددهم عن الثمانية وحوانيتهم فقيرة بالكتب . وعندما يقتنى أحد هؤلاء كتابا قيما ، يذهب ليعرضه على زبائنه المعتادين ، وهو على ثقة فى أن يجد بينهم من يشتريه وقلما تخاط أوراق الكتب بعضها مع بعض ، بل إنها توضع عادة فى غلاف مقوى بالجلد . وغالبا ما يكون لذلك الغلاف صندوق خارجى مصنوع من الورق المقوى السميك

---

(1) Ed. Wil. Lane, op. cit., p. 227

والجلد ، يطلقون عليه إسم « ظرف » . وتضم كل خمس ورقات أو كل فرخين بعضها إلى بعض فيتألف منها ما يسمى « بالكراس » . وقد رتبت الأوراق بهذه الطريقة ، أى فى أجزاء صغيرة بدون خياطة لكى يتاح لعدد من الأشخاص استعمال الكتاب فى وقت واحد . إذ يتناول كل قارىء كراسا من تلك الكراريس وترتب الكتب بالعرض ويوضع الواحد فوق الآخر ويكتب العنوان على وجه الغلافة الخارجى أو على هامش الورقات . أما ورق تلك الكتب فسميك ومصقول ويستورد معظمه من البندقية ويصقل فى مصر . والمداد الذى تنسخ به تلك الكتب غاية فى الغلظة والدسامة . ويستخدم فى الكتابة البوص عوضا عن الريش لأنه يتفق والحروف العربية . وعندما يريد الناسخ العربى الكتابة ، يضع الورقة على ركبته أو على راحة يده اليسرى أو على ما يسمى « مسندة » وهى عبارة عن اثنتى عشرة ورقة أو أكثر مضمومة بعضها إلى بعض من أركانها الأربعة وتحاكى فى شكلها الكتاب القليل الورق . أما المداد والريش فتوضع فيما يسمى « دواية » . . . وتوضع معها المبراة وأداة من العاج تسمى « مقطع » توضع عليها الريشة إن أريد بريها . ويثبت الكاتب ورقته بأن يضع تحتها قطعة من الورق المقوى السميك يربطها بالخيط . . . ويوجد بالقاهرة عدد كبير من الذين يكسبون عيشهم من نسخ المخطوطات ويتقاضى الناسخ ثلاثة قروش عن نسخ عشرين صفحة من القطع الكبير بحيث لا يقل عدد أسطر الصفحة عن الخمسة والعشرين . ويزيد الأجر إن كان الخط منمقا ويضاعف إن كتب بالشكل(١) » . وهكذا نرى أن حركة النسخ ظلت نشطة على الرغم من وجود مطبعة بولاق ومرور ست عشرة سنة على إنشائها وعلى الرغم من وجود مطابع رسمية أخرى . وأكبر الظن أن الكتب المنسوخة كانت من النوع الذى لا تهتم به إلا فئة معينة من الناس محدودة العدد . وكان من الطبيعى ألا تفكر الحكومة أو يقرر أحد الملتزمين طبع مثل هذه الكتب خشية أن يلحقها الفساد .

---

(١) Ed. Wil. Lane ; op. cit., p. 214 et 215.

المصحف الشريف :

زار السائحان ميشو وبوجولا الآستانة فى سنة ١٨٣٠ ، وقد لاحظا أن الحكومة التركية لا تصرح بطبع القرآن وكل مؤلف له علاقة بالمعتقدات الدينية[١] وطبيعى أن تسير الولايات الخاضعة للحكم التركى على هذا النهج فتمنع طبع القرآن الكريم . وكان علماء الأزهر فى مصر بالذات قد أفتوا بعدم جواز طبع القرآن بدعوى أن حبر الطباعة غير مطهر وأنه قد يقع خطأ مطبعى أثناء عملية الطبع . إلا أن الوقائع المصرية فى عددها رقم ٣٣٨ الصادر فى ٤ شعبان سنة ١٢٤٧ (٨ يناير سنة ١٨٣٢) نشرت خبراً هذا نصه : « محمود أغا ناظر القلمخانة قدم عرضاً لمجلس الجهادية مضمونه أنه سئل عن كمية ما يلزم لتلاميذ القلم المذكور من أجزاء القرآن الكريم ومن سائر اللوازم فأجاب بأنه يلزم لهم أربع ختمات وستون لوحاً ، فقال أهل المجلس ينبغى أن يحرر علم من طرف حضرة بك أفندى ناظر الجهادية إلى عمر أفندى ناظر المهمات بأن يصرف الأشياء المذكورة للتلاميذ حيث كانت لازمة لهم » .

إلا أننا لا نستطيع أن نتخذ هذا القرار دليلا على طبع بعض أجزاء القرآن ، فقد تكون تلك الختمات والألواح قد نسخت باليد ، إذ أن الوقائع المصرية ، وقد عودتنا نشر كل شىء بالتفصيل ، لم تعين مثلا المطبعة التى طبعت فيها هذه الأجزاء .

ومما يؤيد رأينا الخبر الذى نشرته نفس الوقائع فى عددها رقم ٣٤١ الصادر فى ١٦ شعبان سنة ١٢٤٧ وهذا نصه : « الحاج أيوب أفندى ، ناظر مكتب قصر العينى قدم تقريراً لمجلس الجهادية مضمونه أن تلامذة المكتب يحتاجون إلى مائة جزء من كل من الثالث والرابع والخامس من أجزاء الختمة الشريفة ، فقال أهل المجلس ، ينبغى أن يحرر علم من طرف حضرة بيك أفندى ناظر الجهادية إلى عمر أفندى المأمور بصرف المهمات بأن يشتريها بمعرفة الحاج أحمد أغا ناظر المشتريات ويرسلها إلى المكتب المذكور ويحرر علم آخر إلى الناظر المومى إليه إشعاراً له بما ذكر واستقر الرأى عليه فى اليوم الحادى عشر من شهر رجب الفرد » .

---

(١) Michaud et Paujoulat ; op. cit. pp. 85 et 86.

فلو أن مطبعة بولاق كانت تقوم بطبع الأجزاء التى يشير إليها الخبر المنشور فى الوقائع ، لما قرر المجلس تكليف عمر أفندى « بأن يشتريها » . وفى آخر ذى القعدة سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) صدر خطاب من المعية السنية إلى حبيب أفندى جاء فيه « بأن ولى النعم يذكر أنه كان سأل الشيخ العطار والشيخ العروسى المرجوم كيفية طبع المصحف الشريف فى المطبعة فأجابا بعدم جواز طبعه بحجة وأن محححة المطبعة مصنوعة من جلد الكلاب ، وهذا يخالف واجب التعظيم ، وحيث أن جنابه العالى حقق أخيراً وعلم أن المحححة الآن لا تصنع من جلد الكلاب وأنها مصنوعة من معجون مركب من لبان شجر الصنوبر ومن شمع العسل ، بناء عليه بادروا إلى جلب ناظر المطبعة واستفهموا منه هل المحححة المستعملة مصنوعة من جلد الكلاب أم لا وأخطروا المعية بنتيجة التحقيق »[1] . ولو أننا لم نعثر بين وثائق عابدين على رد ناظر المطبعة إلا أننا نؤكد عدم طبع القرآن الكريم فى عهد محمد على . فاللورد لندسى الذى زار مصر سنة ١٨٣٦ يذكر فى معرض حديثه عن الطباعة أن القرآن لم يصرح بعد بطبعه[2] . ولا شك فى أن سائحا مثل هذا اللورد كان يهمه أن يذكر فى كتابه شيئا عن طبع بعض أجزاء القرآن لو أنها طبعت فعلا . وهناك سياح غيره[3] زاروا مصر ، ولم يزيدا حرفا عما قاله اللورد لندسى عن طبع القرآن .

وقد عثرنا بين محفوظات عابدين على وثيقة تثبت أن محمدا عاليا قرر فعلا طبع المصحف الشريف سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٣ م) . وقد جلب لهذا الغرض ورق فاخر سعر الرزمة « أربعة فرانسة ونصف » . إلا أن الوالى لا يلبث أن يعدل عن الطبع ويأمر ببيع الورق إلى الملتزمين الذين كانوا يقومون بطبع بعض الكتب على ذمتهم[4] . ولو أن محمدا عليا قرر تأجيل الطبع فترة من الزمن لما أمر ببيع الورق ، بل تركه فى المطبعة إلى أن يحين موعد الطبع .

---

(١) محفوظات عابدين ، دفتر رقم ٥٠ معية تركى ، ترجمة الوثيقة رقم ٥٣٧ بتاريخ آخر ذى القعدة سنة ١٢٤٨ ، من المعية السنية الى حبيب أفندى .

(٢) Lord Lindsay ; op. cit., Vol. I, p. 60

(٣) Paton ; A history of the egyptian revolution, Vol. II, p. 245, Michaud et Poujoulat, op. cit., Ed. Wil. Lane ; op. cit.

(٤) محفوظات عابدين ، دفتر رقم ٩ صادر الفروع بديوان المدارس سنة ٢٦٠ ، سنة ٢٦١ ، صورة المكاتبة رقم ١٨٣ ص ٧١٤ بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ٢٦٠ . من ديوان المدارس الى مطبعة بولاق .

وهكذا نرى أن الظروف لم تسمح للباشا بطبع المصحف الشريف إلى نهاية حكمه :

وقامت مطبعة بولاق إلى جانب طبعها الكتب المختلفة بطبع القوانين واللوائح والمنشورات . نذكر منها القانون التركى المطبوع سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)[١] وقانون الزراعة المطبوع سنة ١٢٥٤ هـ (١٩٣٩ م) ، وطبعت أيضا التقاويم المختلفة نذكر منها «جداول موقع عقرب الساعة على الشهور القبطية» المطبوعة سنة ١٢٤١ (١٨٢٥ م) ، و « معربة سنة شمسية » أى مقابلة السنة الشمسية بالسنة القمرية . والتقويمان من عمل يحيي أفندى الحكيم . وكانت مطبعة بولاق تطبع دفاتر الدواوين وأوراق التمغة وهى تتراوح بين ١٥ بارة للعرضحالات إلى ١٥٠ قرشا للسند الذى تبلغ قيمته ١٠٠,٠٠٠ قرشا فما فوق .

ويجدر بنا أن نذكر ، أن مطبعة بولاق صاحبة فضل على الصحافة الرسمية فى مصر ، كما أن الصحافة نفسها كان لها أطيب الأثر عليها . ذلك أن إصدار الوقائع حتم توسيع المطبعة وجعل ولاة الأمر يهتمون بجلب الأدوات والمعدات الجديدة[٢] . وإلى مطبعة بولاق يرجع فضل تثقيف العامة والخاصة . فقد عاونت على رفع مستوى التفكير فى مصر بنقلها علوم الغرب وفنونه ، فمهدت الطريق إلى تلك النهضة العظيمة التى أصابت وادى النيل والتى ساهمت فى جعله كعبة الشرق العربى من أدناه إلى أقصاه .

ومما يلاحظ على مطبعة بولاق أنها كانت تتجاوب وحركة التقدم العمرانى والصناعى والحربى التى عمت البلاد ، فاذا ما فترت تلك الحركة قل الاهتمام بالمطبعة وانخفض عدد عمالها وقل إنتاجها . وقد بلغت ميزانيتها فى سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢م) ألفاً وثلاثمائة وستة وثمانين كيسا ومائة وتسعة عشر قرشاً[٣] ، بعد أن كانت فى سنة ١٨٣٣ لا تتجاوز ٣٥٠ كيسا[٤] . وهذا دليل كاف على مبلغ تقدم تلك

---

(١) دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ، دار المحفوظات المصرية ، عين ١٧٨ ، مخزن تركى .

(٢) ابراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية ، الطبعة الأولى ، ص ٦٨

(٣) G. Talamas ; op. cit., p. 353.

(٤) أى ١٧٥٠ جنيها F. Mengin ; op. cit., p. 155.

المطبعة فى بحر تسع سنوات . ومما يدعو إلى الدهشة حقا أن حروب الشام الثلاثة وقعت فى هذه الفترة ، فكان من الطبيعى ومصر منصرفة بكليتها لهذه الحرب ، أن يقل نشاط مطبعة بولاق ، غير أن الواقع يثبت عكس ذلك ، لأن الوالى كان مهتما شخصيا بتلك المطبعة وكان يعتبرها دعامة قوية من دعامات نهضة مصر الحديثة. وقد عنى عناية شديدة بمطبوعاتها . ويستدل الأستاذ عبد الرحمن الرافعى على ذلك «أنه اختار للقيام بتصحيح مطبوعاتها طائفة من علماء الأزهر ، والتصحيح فن دقيق ينبنى عليه إخراج الكتب والمؤلفات صحيحة خالية من الأغلاط المطبعية التى تشوهها ، ولعلك تلاحظ فى الكتب التى كانت تطبع فى ذلك العصر خلوها من الأغلاط ، وهذا راجع إلى حسن اختيار المصححين فى مطبعة بولاق . »[1] . ويقول بروكى « وقد زاد عدد مطبوعات بولاق فى العشر سنوات الواقعة بين سنة ١٨٣٣ و سنة ١٨٤٣ ، إلى خمسة أضعافه منذ إنشاء المطبعة إلى سنة ١٨٣٠ »[2] . واستطاعت مطبعة بولاق أن تمضى قدما وسط المصاعب التى اكتنفتها والتى قضت على غيرها من المؤسسات الصناعية التى أنشأها الباشا .

ومطبعة بولاق حتى ١٨٤٠ كانت المؤسسة الصناعية الوحيدة التى ظلت بعيدة عن الالتجاء إلى الأوروبيين . فان نظارها جميعا كانوا من العرب أو الأتراك . ولم نعثر فى الوثائق الرسمية إلا على إسم أجنبي واحد كان يعمل فى سبك الحروف وقد سبقت الإشارة إليه عند الكلام عن صناعة الحروف فى مطبعة بولاق .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٧ ، ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٢) Brocchi ; Giornale delle Osservazioni fatte nei viaggi in Egitto, nella Siria e nella Nubia, p. 370.

دراسة لبعض التحف الإسلامية(*)

أقدم السجاجيد الإسلامية فى مصر

للدكتور عبد الرحمن فهمى

— ٣ —

((اهـــداء))

الي روح المرحـــوم الدكتـــور علي ابراهيم باشـــا أعظم الهواة العرب للســـجاجيد الاسلامية وأول من لفت الأنظـــار الى صـــناعتها فى مصر .

مقدمة :

أتاحت لى ظروف استلام مجموعة السجاجيد الأثرية بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة العثور على قطع من السجاجيد ذات الخميلة ، هى أقرب ما تكون شبها بتلك الأقمشة السميكة ذات الزخارف المنسوجة بمصر فى عصر الانتقال مما كان سببا فى صرف الأنظار عنها إلى عهد قريب ، وبعض هذه السجاجيد يحمل من بين زخارفه كتابات كوفية والبعض الآخر ينفرد بالزخارف الهندسية وحدها .

والحق أن هذه القطع من السجاجيد الإسلامية قليلة ونادرة جدا ويكاد يقتصر الموجود منها على مجموعة متحف الفن الإسلامى فيما عدا قطعتان بالسويد نشرهما الأستاذ لام [1] C. J. Lamm وأرجعهما إلى العصر العباسى ، وقطعتان شبيهتان فى متحف المنسوجات بواشنجطون ونشرها المرحوم الدكتور كونل E. Kühnel[2] .

(*) انظر مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢١ العدد الأول ١٩٥٩ ومجلد ٢٢ العدد الأول ١٩٦٠ حيث نشر البحث الأول والثانى .

(١) واحدة منهما فى Röhss Museum فى جوتنبرج ، والثانية فى National Museum فى استكهولم . أنظر C. J. Lamm : The Marby Rug and some Fragments of Carpets found in Egypt. (Särtryck ur Orientsällskapets arsbok 1937) pp., 51 - 66.

(٢) Ernst Kühnel : Catalogue of Dated Tiraz Fabrics (Washington 1952) pp. 86 — 87, nos. 73.618, 73.322.

وأرجعهما للقرن التاسع الميلادى وأخرى بمتحف المتروبوليتان بنيويورك ونشرها الأستاذ ديماند Dimand[1] وأرجعها للعصر الفاطمى. غير أن هذه القطع أو تلك لا تفوق فى أهميتها الفنية أو العددية مجموعة متحف الفن الإسلامى إذ أن المجموعة الأخيرة وعددها إحدى عشرة قطعة واردة من معين محدد ، فهى كلها من حفائر متحفنا بالفسطاط أولى العواصم الإسلامية فى مصر ، كما أن بعضها تلقى كتاباته الضوء على فن نسج السجاجيد الإسلامية فى مصر منذ عهد مبكر جداً .

وبقدر ما نجح المشتغلون بالآثار فى تتبع مصر كمركز لنسج السجاجيد فى العصرين المملوكى والعثمانى ، بقدر ما انتاب الغموض بداية إنتاج هذا المركز الرئيسى للسجاجيد الإسلامية حتى إننا لنقرأ فى أحدث ما كتب عن السجاجيد القاهرية « إننا غير متأكدين ما إذا كانت الحيلة المعقودة قد مارسها الصناع فى مصر منذ عهد مبكر »[2] وستكون محاولتنا المتواضعة فى هذا البحث الكشف عن هذا الغموض بقدر ما تسمح به إمكانيات القطع الجديدة ، ولا شك أنه من الصعب أن ننسب إلى بلد إسلامى معين، تحفة إسلامية مثل السجاد — يمكن أن تنتقل من مكان إلى آخر — على أساس العناصر الزخرفية وحسب ، بل لابد أيضا من البحث عن الفوارق الأخرى ، فى الأسلوب الصناعى (التكنيك) سواء من حيث النسج والغزل أو الألوان أو نوع الخيوط والعقد ، وعلى هذين الأساسين : الأسلوب الزخرفى والأسلوب الصناعى سيكون منهج حديثنا .

وتنقسم السجاجيد موضوع البحث وهى فى مجموعها إحدى عشرة قطعة إلى :

(أولا) سجاجيد من العصر الأموى	٢
(ثانيا) سجاجيد من العصر العباسى	
١ — بزخارف وكتابات	٧
٢ — بزخارف فقط	٢
	١١

(١) M. Dimand : A Handbook of Muhammadan Art. N.Y. 1947
(الترجمة العربية — لأحمد عيسى) ص ٢٧٧ — ص ٢٧٨

(٢) Ernst Kühnel : Cairene Rugs. (Washington 1957) p. 6

ومن المجموعة العباسية نشر المرحوم الدكتور على ابراهيم باشا قطعتين نسبهما إلى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وقرأ التاريخ المسجل على واحدة منهما وسنحاول هنا إعطاء القراءة الصحيحة لهذا التاريخ ، استنادا إلى التحليل الحرفى للكلمات الكوفية الظاهرة من الخميلة ، كما سنعرض لكافة الكتابات الأخرى المسجلة على بقية القطع العباسية التى ننشرها هنا لأول مرة .

أما المجموعة الأموية من هذه السجاجيد فهى هامة بحق لأن قطعة منها تشير كتابتها إلى (مصر) كمكان لإنتاج السجاجيد الإسلامية المبكرة ، أما الثانية فعليها كتابة قمت بتحقيقها [1] وسنرى أنه بناء على هذا التحقيق يمكن الرجوع بالسجاجيد الإسلامية ذات الخميلة المعقودة إلى تاريخ مبكر هو النصف الثانى من القرن الأول الهجرى .

أولا ــ سجاجيد العصر الاموى

١ ــ من مجموعات متحف الفن الإسلامى منذ ١٩٣٦ رقم مسجل ١٣٢٣٢ مقاس ٤٠ × ٩ سم .

السداة من الكتان واللحمة للنسيج التحتى من الكتان والوبرة من خيوط الصوف المتصل السطح ولا تظهر بالقطعة أية عقدة . (لوحة رقم ١)

جزء من سجادة وبرية بزخارف كتابية باللون السمنى على أرضية زرقاء غامقة ويفصل بين كل كلمة وأخرى مستطيل محدد باللون الأحمر ، ونلاحظ على هذه القطعة أنها من نوع السجاد الوبرى المصنوع على « الكاناڤاه » لأنها منسوجة على خامة خشنه سادة من خيوط الكتان (لوحة رقم١) وجميع خيوط الوبرة الصوف على النسيج التحتى غير مقطوعة من سطحها العلوى ، بل هى خيوط متصلة بارزة على السطح أشبه ماتكون بالحلمات ، ومثل هذه الطريقة يمكن تنفيذها بعد الانتهاء تماما من نسج الأرضية السادة ثم تستعمل إبرة السجاد العادية ذات الخطاف أو الإبرة الطويلة

---

(١) نشر الاستاذ الدكتور محمد مصطفى مدير متحف الفن الاسلامى السابق هذه القطعة وأشار الى تحقيقنا لكتاباتها ، وترك لى مشكورا مهمة نشر كافة قطع سجاجيد الفسطاط المبكرة الموجودة بمتحف الفن الاسلامى . أنظر مقال Mohamed Mostafa, Neuerwerbrungen des Musems für Islamische Kunst in Kairo.
فى Aus der Welt der Islamischen Kunst (Festschrift für Ernst Kühnel) Berlin 1957 pp. 89, 90.

(المسلة) ، وبواسطة هذه الإبرة أو تلك يمكن سحب الخيوط الصوفية مع ترك جزء منها بارز بين كل غرزة وأخرى فتشكل الخيوط الصوفية شبه لحمة متبادلة مع اللحمات الأصلية للنسيج التحتى السادة ولكنها لحمة غير تامة السحب والشد لإمكان ترك الحلمات الصوفية بارزة على السطح لتكوّن الخميلة .

ورغم أن هذه السجادة وبرية إلا أن عملية النسج فيها — لا العقد — هى السائدة فلا نلاحظ على ظهر السجادة أية عقدة ظاهرة بين خيوط السداة أو اللحمة ولا يظهر لهذه القطعة « برسل » فى حافاتها لذلك لا يمكن تبين عقد خيوط الخميلة فى أول كل صف من صفوف الغرز وفى نهايته ولكن وجود مثل هذه العقد فى أول خيوط الخميلة ونهايتها لازم لتثبيت كل صف من خيوط الخميلة الصوف موازياً للحمة الأرضية .

ولا يظهر على القطعة أية عناصر زخرفية فيما عدا الكلمة المكررة مرتين المحصورة بين مستطيلات منفصلة ويظهر من هذه الكتابة داخل كل مستطيل الحرفين الأولين من كلمة (مصر) بوضوح منفذين بالخط الكوفى المزوى (لوحة رقم ١ و ٢) أما حرف الراء فهو غير واضح بسبب أطراف الخميلة ذات اللون الأزرق الغامق المسدلة على أطراف حرف الراء ذى اللون السمنى وبعد رفع الخميلة المسدلة لاحظت أن حرف الراء ليس تام التقعير شأنه فى ذلك شأن الراء التي نراها على الفلوس الأموية ضرب « مصر » فالحروف الموجودة على السجادة الأموية تقرب من لفظ « مصر » على فلوس عبد الملك بن مروان صاحب خراج مصر وواليها فى العصر الأموى (لوحة رقم٣) ومع قلة عدد الحروف العربية التى تتضمنها كتابة هذه السجادة إلا أنها هامة جدا لأنها تجعلنا نحدد عصر هذه القطعة بالعصر الأموى وخاصة إذا لاحظنا أن لفظ «مصر» عليها يبتعد كل البعد عن نفس اللفظ المسجل على صنج السكة العباسية[1] حيث نلاحظ هناك تطورا فى استدارة تقعير الراء فضلا عن أن اللفظ أكثر بدائية من اللفظ نفسه على القطعة رقم 73.618 العباسية فى متحف

---

(١) عبد الرحمن فهمى : صنج السكة فى فجر الاسلام . ظهر القطعة رقم ١٢٨ والقطعة رقم ١٦٤ لوحة رقم ١٣ ورقم ٢٠

المنسوجات بوشنجطون التى نشرها الأستاذ كونل[1] والتى يظهر فيها التوريق وهو من مميزات الكتابة الكوفية فى العصر العباسى (لوحة رقم ٤) .

هذا إلى أن طريقة نسج هذه السجادة المبكرة تعتبر فى رأيى خطوة أولى فى فن نسج السجاجيد الإسلامية فى مصر فهى طريقة للحصول على الخميلة دون كبير عناء إذ يستعيض النساج عن شد خيوط السداة واللحمة على نول السجاد بالخامة السادة المنسوجة التى يمكنه شدها على عارضتين من الخشب لإتمام غرز خيوط الصوف بالإبرة وسنرى أن هذه الطريقة البدائية سرعان ما تركها النساج الأموى إلى طريقة العقد فى عمل الخميلة كما يظهر من القطعة الثانية .

٢ — من مجموعات متحف الفن الإسلامى ١٩٤٤ رقم سجل ١٤٦٨٠ مقاس ٣٢ × ١٩ سم .

السداة من خيوط الكتان غير المصبوغ ومبروم إلى اليسار S .

اللحمة من خيوط الكتان المصبوغ ومبروم إلى اليسار S .

العقدة من نوع جورديز وصفوف العقد مرتبة بحيث يلى كل صف منها أربعة صفوف من خيوط اللحمة ويتفاوت عدد العقد فيما بين ١٨ — ٢٠ فى السنتيمتر المربع .

الخميلة من الصوف (لوحة رقم ٥) .

وهذه القطعة من نوع السجاد الوبرى المعقود[1] ومثل هذا النوع من السجاجيد لا يمكن إنتاجه دون شد خيوطه على النول لأنه الوسيلة الرئيسية لشد خيوط السداة لعقد خيوط الخميلة عليها فى صفوف متبادلة مع الضغط على خيوط اللحمة أثناء النسج للحصول فى النهاية على أجمل السطوح الوبرية وقد ظهر من فحص هذه القطعة أنها لا تختلف فى نسجها عن السجاجيد التى تنسب إلى جورديز بآسيا الصغرى فى القرن ١٦ م وما بعده ولكننا أمام سجادة إسلامية مبكرة من حفائر الفسطاط فالقطعة تحمل كتابة كوفية نصها « لرحمن ..... بن سديج » ونلاحظ أن لفظ « الرحمن » تظهر حروفه من خيوط الخميلة كاملة فيما عدا حرف الألف وإضافته إلى الكلمة يستقيم معها كما أن إضافة لفظ « عبد » قبل لفظ « الرحمن »

Ernst Kühnel : Cat. of Dated Tiraz Fabrics p. 86 pl., XLV. (١)

يتفق مع ماهو متواتر عن هذا الاسم الإسلامىفتصبح العبارة إلى هذا الحد [عبدا] لرحمن . . بن سديج » وفيما بين «عبد الرحمن» و «بن سديج» جزء مهلهل جدا من السجادة مقاسه ٥ سم وهى مسافة تكفى لكتابة أكثر من كلمة عربية بنفس طراز الكتابة الكوفية المنفذة بها الحروف الظاهرة من الاسم وخاصة لفظ « بن سديج » الذى يبلغ طوله ٤ر٥سم ولذلك نعتقد أن الاسم الذى سجل كاملا على القطعة قبل تمزق جزء منها هو « [عبد ا] لرحمن [بن معوية] بن سديج »(لوحة رقم٦) ونلاحظ أن لفظ « بن معوية » المقترح إضافته للاسم لايعدو المسافة الموجودة فعلا ولكن من هو « عبد الرحمن بن معوية » هذا ؟ لقد أشار الكندى[1] إلى صاحب شرطة مصر « عبد الرحمن بن معوية بن حديج » فى ولاية عبد الله بن عبد الملك وقد ولى هذا الشخص مرابطة الاسكندرية ثم تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان سنة ٨٦هـ ويذكر الكندى أيضا[2] أنه جمع لعبد الرحمن بن معاوية القضاء وخلافة الفسطاط فى ربيع الأول سنة ٨٦ هـ وظل فى منصبه هذا إلى رمضان سنة ٨٦ هـ فتكون مدة ولايته للقضاء ستة أشهر ويذكر الذهبى فى تاريخ الإسلام أن عبد الرحمن ابن معاوية قد توفى سنة ٩٥ هـ[3] ويظهر من تتبع حياة هذه الشخصية أن المناصب الإدارية والدينية التى تولاها عبد الرحمن لا تتعدى الفترة بين سنة ٨٦ هـ و سنة ٩٥ هـ أى تسع سنوات فى العصر الأموى بمصر وقد يجوز للمرء أن يرجح بشىء من الاطمئنان أن هذه الشخصية تستقيم والاسم المسجل على السجادة التى نحن بصددها بسبب الاعتبارات السابقة فى تكملة الحروف المحذوفة وكذلك بسبب الكتابة الكوفية التى تتمشى مع مثيلتها المعاصرة على شاهد عبد الرحمن الحجرى المؤرخ ٣١ هـ وعلى قبة الصخرة المؤرخة سنة ٧٢ هـ[4] وعلى حجر الطريق باسم الخليفة عبد الملك[5] (لوحة رقم ١٠ و ١١) .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة (طبعة بيروت ١٩٠٨) ص ٥٨ ، ص ٣٢٤

(٢) المرجع نفسه ص ٥٨ ، ص ٣٢٤

(٣) الذهبى : تاريخ الاسلام ص ٢٦ (طبعة القاهرة ١٣٦٨ هـ)

(٤) Hassan Mohammed el-Hawary : The Most ancient Islamic Monument known dated A.H. 31 (A.D. 652) J.R.A.S. April 1930 p. 322. pl. III, pl. V.

(٥) Creswell : Early Muslim Architecture Vol. I, p.82

كما أننا لا نستطيع أن نجزم بشكل قاطع أن «عبد الرحمن بن معاوية بن حديج» الذى ورد اسمه فى الكندى والذهبى هو غير « عبد الرحمن بن معاوية بن سديج » الذى ورد اسمه على السجادة ، أما الفرق بين السين فى «سديج» والحاء فى «حديج» فهو خطأ يمكن أن ينسب إلى النساج فى حالة إقرار الاسم على أنه « حديج » أو إلى المراجع التاريخية فى حالة إقرار الاسم كما ورد على التحفة الأثرية « سديج » ومثل هذا الخطأ كثيراً ما كان يحدث فى عصر الانتقال وقد سجلته تحف أثرية كثيرة ، فيذكر الأستاذ كونل مثلا أن فى منتجات الفيوم من المنسوجات الصوفية حتى القرن التاسع والعاشر الميلاديين حدث أن فهمت الكتابات العربية فهما خاطئا أو مبهما أو مصحوبة بنصوص قبطية[1] وقد ظلت هذه الظاهرة كذلك حتى العصر العباسى فى مصر فى ميدان المسكوكات حيث نجد الخطأ شائعا فى كتابة النصوص العربية على صنج السكة الاسلامية[2] (لوحة رقم ٩) .

وسواء أكان الاسم « سديج » أو « حديج » فهذا لا يدعو لنسبة السجادة إلى أقصى من العصر الأموى فهى قطعة أموية ما فى ذلك شك كما أنها سجادة ذات خيوط مغزولة فى اللحمة والسداة وخميلة معقودة على خيوط السداة ولذلك كله تعتبر نقطة الارتكاز فى صناعة السجاجيد فى مصر الإسلامية فى العصر الأموى ، بل هى أقدم السجاجيد الإسلامية ذات الخميلة المعقودة وأكثرها وثوقا إذا أخذنا بعين الاعتبار الكتابة الكوفية المسجلة عليها .

أما عن زخارف هذه القطعة ففى حقل السجادة يظهر جزء من طائر محوّر باللون الأزرق الفاتح والأخضر الزيتونى والأسود والأصفر وهو أقرب إلى شكل الطاووس ومثل هذه الطيور وردت كثيراً على قطع الأقمشة المصرية الصوفية ذات الزخارف المنسوجة فى عصر الانتقال (لوحة رقم ٧و٨) وهى طيور زخرفية تبدو فيها التأثيرات

---

(١) Ernst Kühnel : Cat. of Dated Tiraz, p. 2

(٢) عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ص ١٩ و ص ٢٠

الساسانية[1] والقبطية[2] ويحدد حقل السجادة شريط بأرضية أزرق غامق وعليها زخارف هندسية بالأصفر والأحمر والأخضر الزيتونى فى شكل حرف T قائماً أومقلوبا بالتبادل (لوحةرقم ٥و٦) ويذكرنا هذا العنصر الزخرفى بشارةالمسيحيةالمحورة على الدنانير البيزنطية الإسلامية التى ضربت خلال تعريب السكة على يد عبد الملك ابن مروان فيما بين سنة ٧٤ هـ و٧٧ هـ فحذف الفنان رأس الصليب فأصبح حرف T [3] أما الوريدات الثلاث المحورة التى تظهر فى خارج الإطار فهى بالأصفر والأخضر الزيتونى على أرضية حمراء وهى أقرب إلى الزخارف الهلينستية على قطع الأقمشة المعاصرة فى مصر[4] وبعض هذه الوريدات غير واضح تماما من الخميلة ولعل السبب فى ذلك هو عقدة جورديز التى لا تسمح بتبين زخارف السجادة فى حالة تآكل الخميلة وفنائها[5].

ثانيا ـ سجاجيد العصر العباسى

١ ـ سجاجيد الزخارف والكتابات

٣ ـ مجموعات متحف الفن الإسلامى ١٩٤٦ رقم سجل ١٥٥١٨ المقاس ١٥ × ١٦سم السداة واللحمة من الكتان المبروم إلى اليسار S وبعض خيوط اللحمة مصبوغ

---

(١) كانت غزوات الفرس لمصر أكبر تعريف لأهل مصر القدماء بهذا الشعب الايرانى وبأساليبه المختلفة التى كانت لها بعض التأثير فى العمارة وفى زخارف المنسوجات المصرية . أنظر زكى محمد حسن : ايران مفاخرها وفنونها ص ١٢ وانظر القطعة المحفوظة بمتحف المنسوجات بواشنجطون وهى باسم الخليفة مروان وتبدو فيها التأثيرات الساسانية واضحة .
E. Kühnel : Cat. of Dated Tiraz pl. I. no.73.524

(٢) أكثر رسوم الطيور فى الأقمشه القبطية فى مصر «القنبرة» و «الطاووس» و «الحمام» «والببغاء» و «البط» و «أفراخ الماء» زكى محمد حسن : زخارف المنسوجات القبطية (مجلة كلية آداب القاهرة مايو ١٩٥٠ ص ٩٣).

(٣) عبد الرحمن فهمى: التأثيرات المسيحية والرموز القبطية على السكة الاسلاميه ص ٣٤٤ لوحه ١

(٤) قطعة رقم ١٤٤٧٣ ورقم ١٣٤٢٥ ورقم ٩٢٦٧٠ ورقم ٩٢٦٨ بمتحف الفن الاسلامى

(٥) يعتقد بعض الباحثين أن العقدة التركيه تحتاج إلى خيط خميلة أطول لكى تلتف حول خيطين من خيوط السداة وعندما تصبح الخميلة رثة لا تظهر زخارف السجادة ولا يمكن تمييزها بخلاف العقدة الفارسية التى تلتف خميلتها حول سداة واحدة فاذا بليت الخميلة حتى خيوط السداة فان آثار ألوان الخميلة يظل واضحا وزخارف السجادة يمكن تبينها
Eliza Dunn : Rugs in their Native Land pp. 13, 14.

بالأحمر . والخميلة من الصوف المعقود من نوع عقدة جورديز وكل صف من العقد يليه ٤ صفوف من اللحمة .

هذا الجزء من سجادة وبرية عليه كتابة كوفية من كلمتين باللون السمنى على إطار عريض بأرضية زرقاء غامقة ويعلوه شريط ضيق باللون الأحمر عليه حبيبات باللون السمنى وفى أعلى هذا الشريط الضيق زخارف هندسية متداخلة فى هيئة معينات أو مسدسات باللون الأزرق الغامق واللون الأخضر والسمنى وأسفل إطار الكتابة شريط آخر باللون السمنى وبه خط باللون الأزرق الغامق أسفله جزء من زخرفة هندسية بالألوان الأزرق الغامق والسمنى والأحمر والأخضر الزيتونى والكتابة رغم مابها من نقص فى الحروف يمكن قراءتها على هذا الوجه « [بركة] كاملة نع[مة] » (لوحة رقم ١٣ و ١٤) وهى عبارات دعائية كثيراً ما وردت بشكل أو بآخر على التحف الإسلامية من الخزف والمنسوجات[1] فى عصر الانتقال منذ القرن ٣ هـ /٩ م والكتابة يبدو فيها التطور واضحا عن كتابة العصر الأموى فهى ذات رؤوس متقنة وهى تشبه كتابة قطعة النسيج رقم سجل ١٤٤٧٣ من مجموعات متحف الفن الإسلامى المؤرخة ١٦٨ هـ (٧٨٤ / ٧٨٥ م) .

٤ — من مجموعات متحف الفن الإسلامى ١٩٤٥ رقم سجل ١٥٤٧٧ المقاس ٢٩ × ١٧سم .

السداة من القطن غير المصبوغ من خمسة خيوط مبرومة إلى اليمين Z .

اللحمة من القطن غير المصبوغ مبروم إلى اليمين Z .

العقد على خيوط اللحمة وتظهر من الخلف صفوف العقد طولية بين خيوط السداة السميكة . والقطعة جزء من ركن سجادة صوف يظهر منه جزء من الحافة العليا وعليه إطار من ضلعين بأرضية أخضر زيتونى عليها كتابة كوفية باللون الأصفر وخارج هذا الإطار من أعلى زخارف هندسية أشبه بخلايا العسل وهى مفصلة الحدود بخطوط باللون الأخضر ووسط هذه الخلايا باللون الأحمر الطوبى وتحدد زاوية الإطار إلى الداخل حقل السجادة وهو مزين بزخارف هندسية نجمية

---

(١) أنظر القدر الخزفى رقم ١٥٤٩٠ بمتحف الفن الاسلامى وعليه « بركة كاملة » وانظر زكى حسن : أطلس التصاوير قطعة القماش رقم ٥٥٨ وهى تحمل لفظ « بركة » وقطعة القماش رقم ٩٠٦١ وعليها العبارة « بركة ونعمة » بمتحف الفن الاسلامى .

من ستة أطراف وحدودها باللون الأزرق الغامق والأحمر الطوبى والأصفر على التوالى من الخارج إلى الداخل وفى وسطها زخارف هندسية باللون الأزرق ونص كتابة الإطار « الله م[ما] » (لوحة رقم ١٥و١٦) ويظهر أن الكتابة كانت تدور فى الإطار كله حول حقل السجادة لأنه قبل لفظ « الله » يظهر جزء من نهاية حرف البسملة « [بسم] الله م[ما] » وهى نفس العبارة التى وردت على صنج السكة العباسية والأختام مشفوعة بلفظ « أمر »[1] ويظهر أن ورود هذه العبارة يرتبط بالسلطة التى كانت للوالى فى مصر العباسية بحيث ينص صاحب الشرطة أو عامل الخراج — باعتبارهما المشرفين على دور الطراز ومصانع السجاد — على أن القطعة صنعت بأمر الوالي أو بأمر الخليفة العباسى نفسه .

٥ — مجموعات متحف الفن الإسلامى ١٩٤٤ رقم السجل ١٤٩٣٩ المقاس ٤٦ X ٣٨سم .

السداة من خيوط الكتان المبروم إلى اليسار S .

اللحمة من خيوط الكتان من خمسة خيوط مبرومه إلى اليسار S .

العقد على اللحمة فى شكل حرف U ولا تظهر أية عقدة من الخلف .

وتتألف هذه القطعة من السجاد من ثلاثة أجزاء يكمل بعضها الاخر وعلى الجزئين العلوى والأوسط يبدو شريط ضيق مزين بزخرفة من حبيبات باللون السمنى على أرضية محددة من أسفل بالأزرق الغامق ومن أعلى باللون الأحمر الطوبى وفى أعلى الشريط إطار عريض عليه زخارف هندسية من مثلثات كبيرة داخلها مثلثات أخرى صغيرة بالأزرق والأبيض والأصفر والأخضر الزيتونى والسمنى وعلى الجزء الأوسط كتابة كوفية باللون الأبيض على أرضية أحمر طوبى ونص الكتابة [[illegible]] وعلى الجزء الثالث من السجادة — وهو الجزء الأكبر — زخرفة عبارة عن دائرة هندسية فى الوسط أشبه بجامة مستديرة بأرضية أحمر طوبى وأخضر زيتونى وأزرق عليها أشكال نجمية مثمنة الأطراف أربعة

---

(١) عبد الرحمن فهمى محمد : صنج السكة رقم ٩٨ — ١٠٢ ورقم ١٠٥ — ١٢١ .

منها باللون الأبيض والأربعة الأخرى باللون الأحمر وفى مركز النجمة دائرة باللون الأبيض وسطها باللون الأحمر والأخضر ويحيط بالجامة أرضية سادة باللون الأحمر (لوحة رقم ١٧ و١٨) ولهذه القطعة أهمية خاصة من حيث الكتابة الموجودة فى إطارها وهى تتألف من كلمتين مسبوقتين بالجزء الأخير من كلمة ثالثة وهى كتابة مماثلة لكتابة القطعة رقم ٩٥٣١ التى نشرها المرحوم الدكتور على ابراهيم باشا [١] وهى هنا رقم ٦ (لوحة رقم ١٩ و٢٠) مما يوحى بأن نساج القطعتين واحد غير أن القطعة (رقم ٥) التى ننشرها هنا لأول مرة وردت عليها ألفاظ جديدة لم ترد على القطعة التى سبق نشرها مما قد يساعد الأثريين على إلقاء بعض الضوء لتفسير القراءة كلها بمقارنة القطعتين وأقرب تفسير لقراءة الكلمات الكاملة فى قطعتنا هو «]مد ولأنبتت معشباً و [» [٢] .

ولابد أن نشير هنا إلى أننا أمام طراز مبكر جداً للسجاجيد ذات الجامة التى يرجع أحسن نماذجها إلى القرن ١٦ م فى شمالى إيران وخاصة فى تبريز وقاشان [٣] غير أن حجم شريط الكتابة وحجم الجامة الوسطى على السجادة المصرية العباسية لا يوحيان بأنها سجادة من النوع الكبير الحجم ويظهر أن الأسلوب الصناعى (التكنيك) الخاص بعقد الخميلة على اللحمة لم يسمح بانتاج سجاجيد ذات أحجام كبيرة بل تستعمل هذه الطريقة فى إنتاج سجاجيد الصلاة أو سجاجيد الصف [٤] والسبب فى ذلك أن طريقة عقد الخميلة على اللحمة طريقة بطيئة إذ يقوم فيها نساج واحد بالعملية كلها فهو يستعمل قدمه فى رفع أو خفض خيوط السداة بالتبادل بينما يقوم بيده اليمنى أو اليسرى بتمرير خيوط اللحمة التى يقوم هو نفسه بعقد الخميلة عليها [٥] .

---

(١) Ali Ibrahim Pasha : Early Islamic Rugs of Egypt (B. I. E. T. XVII p. 124, pl. I. وقد سبق أن نشر صورة هذه القطعة رقم ٩٥٣١ المرحوم على بهجت : حفريات الفسطاط (القاهرة ١٩٢٨) لوحة ٣١ كما نشرها ميجون G. Migeon : Manuel D'Art Musulman Vol. II. p. 351 fig. 949 (Paris 1927)

(٢) قارن قاموس لين مادة (عشب) ويقال عاشب ومعشب للروض المعشب الكثير العشب Lane (E. W.) : Arabic — English Lexicon (London 1874)

(٣) زكى محمد حسن (المرحوم) : فنون الاسلام ص ٤٠٢

(٤) Ali Ibrahim Pasha : op. cit. p. 126

(٥) Ibid. p. 125.

٧ — من مجموعات متحف الفن الإسلامى رقم سجل ١٢٧٦٨ المقاس ٢٥ × ١٤سم
السداة كتان وهى من أربع خيوط مبرومة دون نظام واحد .
اللحمة كتان من خيط مبروم على اثنين جهة اليسار S .

العقدة تظهر على اللحمة مختفية من الظهر بين خيوط السداة الطويلة .
قطعة من سجادة وبرية لها إطار بأرضية حمراء عليها حبيبات باللون الأصفر والإطار محدد بخطين باللون البنى الفاتح وعلى الجزء الذى يلى هذا الإطار سطر كتابة كوفية باللون البنى الفاتح على أرضية حمراء ونص الكتابة [ ] وأسفل الكتابة زخارف هندسية من معينات متصلة وبداخلها خطوط متقاطعة بألوان مختلفة بنى وأحمر وأسود وأصفر فاقع (لوحة رقم ٢١و ٢٢) .

وقد أشار المرحوم الدكتور على ابراهيم باشا إلى هذه السجادة وقرأ تاريخها سنة ٢٠٦هـ وهو تاريخ على حد قوله يوصلنا إلى ما قبل العصر الطولونى [١] . غير أننى بعد فحص هذه السجادة تبينت أن أول حروف التاريخ هى سنة وتاء مربوطة وهما الحرفان الأخيران من لفظ (سنة) ويلى ذلك حرف ألف ثم ثلاثة سنن متصلة لا يمكن تفسيرها بغير حرف التاء والنون الوسطى والياء المتصلة وتتصل هذه الحروف بالنون الأخيرة فتصبح القراءة الصحيحة للكلمة (اثنتين) أما الحروف الظاهرة من الكلمة الثالثة فهى الواو والميم ويستقيم تفسير هذه الحروف مع قراءة الكلمة « ومائتين » لأنها تتفق مع طراز الحروف الكوفية فى العصر العباسى إذ هى متطورة عن حروف القرن الأول الهجرى بشكل يصعب معه الاتفاق مع الأستاذ ديماند والدكتور لام فى قراءة التاريخ ١٠٢هـ [٢] . وقد وافق المرحوم الدكتور زكى محمد حسن على قراءة المرحوم الدكتور على ابراهيم باشا للتاريخ واعتبره سنة ٢٠٦هـ [٣] . وكذلك فعل الأستاذ Wiet [٤] . ولكن الأخذ بهذه القراءة يجعلنا

---

(١) Ali Ibrahim Pasha : op. cit. p. 124.

(٢) M. Dimand ; op. cit., p. 277 (الترجمه العربيه) Lamm : op. cit., p. 62

(٣) زكى محمد حسن (المرحوم) : فنون الاسلام ص ٢٩٧ .

(٤) Wiet : Exposition des Tapisseries et tissus du Musée Arabe du Caire (Paris 1935) No. 281 p. 72.

نسقط من حسابنا حرف الألف الذى يلى الحروف الأخيرة من لفظ « سنة » وهو ظاهر تماما بحيث لا يمكن إغفاله كما أن حرف النون فى آخر لفظ « اثنتين » واضح التقعير وفى الامكان تمييزه عن حرف التاء الذى تنتهى به كلمة « ست » ويكتب مستقيما (لوحة رقم ٢٣) .

٨ — مجموعة متحف الفن الإسلامى القاهرة رقم سجل ١٤٩٤١ المقاس ٣٨ × ١٤ سم.

السداة مجموعة من خيوط الكتان قوية وغير مبرومة وعددها ١٢ .

اللحمة كتان من خيوط مبرومة إلى اليسار S .

العقدة على خيوط اللحمة .

جزء محدد من ثلاثة أجناب لسجادة وبرية مزينة بأشرطة تشكل مستطيلات ناقصة الأول عرضه ٤٫٥ سم وعليه كتابة كوفية لونها بنى فاتح على أرضية لونها أخضر زيتونى ويحدد الإطار من الخارج شريط سادة لونه بنى فاتح وعرضه ٢٫٥ سم ويحصر الإطار إلى الداخل حقل السجادة المزين بزخارف هندسية بالألوان الأخضر الزيتونى والأزرق الغامق على أرضية بنى فاتح (لوحة رقم ٢٤ و٢٥) ويظهر أن كتابة هذه السجادة كانت تدور فى الإطار كله حول الحقل ونص الجزء الذى تبقى منها (بسم الله بركة من الله مما) وهى عباره شائعة فى كتابات الطراز على الأقمشة العباسية التى وجدت فى حفائر الفسطاط بمصر [١] .

٩ — من مجموعات متحف الفن الإسلامى ١٩٤٤ رقم سجل ١٤٩٤٠ المقاس ٢٥ × ٤٫٥ سم .

السداة من الكتان من خمس خيوط مفتولة إلى اليسار S

اللحمة من كتان من خيط مبروم على اثنين إلى اليسار S

ولا يعطى هذا الجزء من السجادة أية فكرة عن طول القطعة الأصلية أو عرضها لأنه شريط غير محدد عليه كتابة كوفية باللون السمنى على أرضية حمراء (لوحة ٢٦) ونص هذه الكتابة « بن حبشى مولى أمير المؤمنين » وقد جهدت كثيراً فى البحث

---

(١) عن هذه القطع من الأقمشة أنظر Cf. Rep. Vol. II., Nos. 646, 667, 685 وانظر كذلك Rep. Vol. III., nos. 883, 900 .

عن حياة هذه الشخصية التى تنسب إلى «حبشى مولى أمير المؤمنين» ولكن لم أعثر عليها غير أن العبارة التى تلى الاسم وهى « مولى أمير المؤمنين » تشير إلى أن الشخص الذى يسبقها تابع للخليفة العباسى فى بغداد وقد وردت العبارة على قطع من الأقمشة العباسية والطولونية فى مصر كما تعدد ظهور شخصيات كثيرة اتصفت بلفظ «مولى» مثل بشر الخادم مولى أمير المؤمنين(١) وعبد الملك مولى أمير المؤمنين(٢) وشفيع مولى أمير المؤمنين (٣) والخالد مولى أمير المؤمنين (٤) وجابر مولى أمير المؤمنين (٥) وخمارويه بن أحمد مولى أمير المؤمنين (٦) وأبو الجيش خمارويه مولى أمير المؤمنين (٧) وهرون بن خمارويه مولى أمير المؤمنين (٨) .

ولعل أقدم هذه الأقمشة المنشورة والتى تحمل هذه العبارة هى القطع التى صنعت فى عهد خمارويه بن أحمد المؤرخة سنة ٢٧٢هـ (رقم ٧٣١ Reper. Vol. II) ويذكر الدكتور ميلز Miles أن لفظ « مولى أى خادم أو تابع استعملها الولاة وبعض الموظفين مرتبطة باسم الخليفة الذى يدينون له بحريتهم » (٩) ولكن لا يمكن التسليم بأن هذا هو المعنى الوحيد للفظ « مولى » إذ أن كثيراً من الولاة لم يكن غير حاكم مستقل ويعترف فقط بسلطة إسمية للخليفة العباسى فقد يكون هذا المولى — كما يظهر من عبارة الأقمشه الطولونية العباسية — أميراً مثل خمارويه وأبو الجيش وهرون أو وزيراً مثل القطعة (رقم ١٢٣١ Rep Vol IV) باسم الوزير محمد بن على مولى أمير المؤمنين المؤرخة ٣٢٠هـ ولكن ظهور هذه العبارة فى ميدان المسكوكات كان أقدم تاريخيا من العصر الطولونى إذ لدينا بعض الصنج الزجاجية الخاصة بالسكة

---

(١) قطعة نسيج رقم ٩٠٠ مؤرخة ٢٩٨ هـ Rep. Vol. III. p. 59

(٢) قطعة نسيج رقم ٨٩٩ مؤرخة ٢٩٨ هـ Rep. Vol. III p. 59

(٣) قطع نسيج رقم ١٢٢٧ و ١٢٣٧ و ١٢٥٤ Rep. Vol. IV

(٤) قطعة نسيج رقم ٨٧٠ Rep. Vol. III. p. 42

(٥) قطع نسيج رقم ١٢٦٠ مؤرخة ٣٢٣ هـ و ١٢٦٦ مؤرخة ٣٢٤ هـ Rep. Vol. IV.

(٦) قطعة قماش رقم ٧٣١ مؤرخة ٢٧٢هـ Rep. Vol. II. p. 232

(٧) قطعة نسيج رقم ٧٨٥ مؤرخه ٢٨٢ هـ Rep. Vol. II p. 264,

(٨) قطعة نسيج رقم ٧٨٨ و ٨١٨ Rep. Vols. II p. 266, III. p. 11

(٩) G. C. Miles : Early Arabic Glass Weights N. Y. 1948 p. 24

الإسلامية ترجع إلى عهد الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ١٣٦ — ١٥٨ هـ (٧٥٤—٧٧٥م) وهى تحمل اسم « مطر » مولى أمير المؤمنين (صنجة رقم ١٧٧ صنج السكة) أو ترجع إلى عهد المهدى ١٥٨—١٦٩هـ (٧٧٥—٧٨٥م) وهى تحمل اسم « واضح مولى أمير المؤمنين » (صنجة رقم ١٦٩ و ١٧٠ صنج السكة) أما « مطر » و « واضح » فكلاهما كان أميراً على مصر من قبل الخليفة العباسى فيما بين سنة ١٥٧هـ و ١٥٩هـ .

بقى أن نشير إلى أن هذه القطع العباسية من السجاجيد الوبرية ذات الكتابات تمدنا بمستندات وافية عن تطور الخط الكوفى . وقد اتفق الأثريون [1] على تقسيم الكتابات الكوفية إلى ثمانية أنواع وهى الخط الكوفى البدائى أو البسيط Primitive Kufic والخط الكوفى ذو الرؤوس المتقنة Kufic with elaborated apices والخط الكوفى المورق foliated Kufic والخط الكوفى المزهر floriated Kufic والخط الكوفى المجدول interlaced Kufic والخط الكوفى الشريطى أو الإطارى bordered Kufic والخط الكوفى المعمارى architectural Kufic والخط الكوفى المربع Kufic rectangles ويهمنا من هذه الأنواع الخط الكوفى ذو الرؤس المتقنة والخط الكوفى المورق فيمثل النوع الأول الخطوة الأولى فى تطور الكتابات الكوفية فى العصر العباسى كما يظهر من حروف الكتابة فى السجادة رقم ٣ ورقم ٤ بينما يمثل الثانى أقصى درجات التطور الذى حدث لهذا الخط فى القرن الثالث الهجرى . فحروف الكتابة على السجادة رقم ٣ تقترب من كتابة قطعة القماش المؤرخة ١٦٨ هـ (٧٨٤ / ٧٨٥ م) وتقترب الكتابة المورقة على السجاجيد رقم ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ من كتابة الشواهد العباسية المؤرخة فيما بين ٢١١ هـ و ٢٤٣ (هـ أنظر جدول تحليل الكتابة لوحة ٣٦) .

٢ ـ سجاجيد الزخـــارف

١٠ — من مجموعات متحف الفن الاسلامى منذ ١٩٤٤ رقم سجل ١٤٩٥٦/٦ مقاس ٢٠×١٢ سم . السداة واللحمة من الكتان وخيوط السداة خيوط مبرومة لليسار S ومجمعة مع بعضها وخيوط اللحمة مبرومة على اثنين إلى اليسار S والعقدة على اللحمة .

(١) Adolf Grohmann : The Origin and Early Devolopment of Floriated Küfic (Ars Orientalis Vol. II 1957) p. 183.

جزء صغير من سجادة وبرية لها إطار سادة باللون الأحمر الطوبى عرضه ٣ر٥ سم يحيط باطار آخر عرض ٣ سم بأرضية حمراء عليها حبيبات باللون البنى الفاتح ويلى هذا الإطار إطار آخر عريض عرضه ٩ سم عليه زخارف هندسية من خطوط متقاطعة باللون البنى الفاتح وتشكل هذه الخطوط هيئة مسدسات باللون الأزرق الغامق وتحصر فى وسطها معينات داخل بعضها وهى باللون الأحمر الطوبى والأخضر الزيتونى ويلى ذلك إطار آخر عرضه ٣ سم بأرضية زرقاء غامقة عليها حبيبات باللون البنى الفاتح ويفصل بين الحبيبات خط باللون الأحمر الطوبى ويقطع الشريط شبه مربع محدد باللون الأزرق الغامق بداخله زخرفة هندسية باللون الأحمر الطوبى والأزرق الغامق والبنى الفاتح (لوحة ٢٧ و ٢٨) .

١١ — مجموعات متحف الفن الاسلامى ١٩٣٦ رقم سجل ١٣٢١٣ مقاس ١٧ × ١٣ سم .

السداة من خمسة خيوط كتان غير مجمعة وغير مبرومة .

اللحمة خيط كتان مبروم على اثنين إلى اليسار S .

العقد على خيوط اللحمة .

جزء من سجادة وبرية أرضيتها حمراء وعليها شريط عريض ٦ سم بأرضية حمراء عليها أربع صفوف من حبيبات بيضاء محددة بالبنى الفاتح بمركز كل منها نقطة باللون الأحمر ويحدد هذا الشريط العريض من جانبيه العلوى والسفلى شريطان آخران عرض كل منهما ٢ر٥ سم وهما محددان باللون البنى الفاتح وأرضية كل منهما باللون الأزرق والأحمر وعليها حبيبات باللون السمنى (لوحة رقم ٢٩ و ٣٠) .

وبعد هذه هى مجموعة السجاجيد الاسلامية المبكرة ذات الخميلة المعقودة على السداة أو ملتفة حول اللحمة وقد يحاول المرء أن يبحث فى الشرق العربى عن أصول ذلك الأسلوب الصناعى الذى اتبع فى نسج هذه السجاجيد الاسلامية فى القرون الأولى للهجرة من العصرين الأموى والعباسى فنجد أن مصر قد عرفت هذه السجاجيد ذات الخميلة قبل الفتح العربى فقد نشر الأستاذ ديماند سجادة قبطية فريدة هى الآن فى متحف المتربوليتان ويرجع تاريخها إلى نحو ٤٠٠ م وهى توضح كيف أن النساجين فى مصر قد عرفوا طريقة صناعة السجاجيد ذات الخميلة من

الوبرة المقطوعة [١] وهناك قطعة أخرى عثر عليها فى كوم أوشيم جنوب الفيوم وقد نشرتها مس ليليان ولسن Miss Lillian Wilson ونسبتها إلى القرن الرابع أو الخامس الميلاديين [٢] أما عن الغزل المستعمل فى خيوط سجاجيد متحف الفن الاسلامى فهو من النوع اليدوى وبعض الخيوط الكتانية مبرومة إلى اليسار فى شكل S وبعضها مبروم إلى اليمين فى شكل Z وقد أشار إلى هـذا الأسلوب الصناعى فى الغزل الدكتور لام فى بحث له سنة ١٩٣٨ [٣] أما عن العقد فهى كما رأينا قد ظهرت مبكرة على بعض القطع التى ننشرها منذ العصر الأموى(رقم ٢) ومن العصر العباسى (رقم ٣) وهى من نوع العقدة التركية المعروفة باسم جوردیز وهى أهم مراكز نسج سجاجيد الصلاة فى آسيا الصغرى أى أنها عقدة تلتف حول سداتين (لوحة ١٢) ولكن معظم العقد فى بقية القطع تلتف حول اللحمة فى شكل حرف U ولا يعترف Tattersall بتسميتها بالعقد [٤] ولكننا لا ننكر أن النساج هنا قد فطن إلى إمكان لف خيوط الصوف حول خيط واحد لابراز الوبرة المقطوعة ، ولعلنا نتساءل مع الأستاذ لأم عما إذا كان هناك ارتباط بين هذا النوع من العقد التى تلتف حول خيط واحد من اللحمة وبين العقدة الأسبانية التى تلتف حول سداة واحدة . ربما يكون هذا الارتباط قائما وقد أشار الدكتور كونل إلى التشابه الزخرفى الواضح بين أكثر السجاجيد الأسبانية وبين سجاجيد الفسطاط بمصر ذات المعينات فى العصر العباسى بقوله « إن العلاقة بين السجاجيد الأسبانية وسجاجيد الفسطاط العباسية ليست مجرد علاقة تكنيكية بل أيضاً علاقة زخرفية» [٥] غير أنه يجب أن نذكر هنا أن أقدم السجاجيد الاسلامية المنسوبة إلى أسبانيا ترجع إلى القرن ١٢/١٣ م [٦] أما سجادة « كنيس اليهود » Synagogue الأسبانية والتى

---

(١) Dimand : An Early Cut — Pile Rug from Egypt (Metropolitan Museum Studies, IV, 1933, pp. (15 — 162)

(٢) Miss Lillian Wilson : Ancient Textiles from Egypt in the University of Michigan Collection 1933 (Univ. of Michigan Series XXXI, pp. 14 ff.

(٣) Lamm (C. J.) : Dated and Datable Tiraz in Sweden. (Le Monde Oriental XXXII, 1938, p. 105

(٤) C. E. C. Tattersall : Notes on Carpet-knotting and Weaving (London 1920), p. 10.

(٥) Ernest Kühnel : Catalogue of Spanish Rugs. (Washington 1953) pp. 1, 2

(٦) Ibid. nos. 73. 133, 73. 75, pls. 1, 2.

ترجع إلى القرن ١٤ م[١] فلها إطار خارجى من صفين من حبيبات أشبه بقطع الفسطاط التى ننشرها هنا (رقم ١٠ ورقم ١١) وسيظل هذا الارتباط بين سجاجيد الفسطاط والسجاجيد الأسبانية فى حاجة إلى تفسير أسباب قيامه ، ويميل الأستاذ الدكتور جمال محرز إلى تفسير إرجاع أصل العقده الأسبانية إلى مصر عندما أقطع الوالى أبو الخطار حسام الدين إقليم تدمير سنة ٧٤٢ م إلى بعض المصريين الذين علموا أهله صناعة السجاد[٢] .

أما عن زخرفة السجاجيد المصرية فمن الملاحظ أنها كثيرة فى القطع العباسية وتنحصر فى الزخارف الكتابية التى سبق أن أشرت إليها والزخارف الهندسية من المعينات وزخرفة الحبيبات اللؤلؤية وهى حبيبات من أصل ساسانى (لوحة ٣١-٣٣)[٣] ولكن المعينات تشبه إلى حد كبير زخارف المعينات فى صور سامرا الحائطية التى ترجع إلى سنة ٨٣٦م (لوحة رقم ٣٤)[٤] بقدر ما تشبه زخارف الخزف ذو البريق المعدنى بمصر أو سامرا فى القرن التاسع الميلادى (لوحة رقم ٣٥)[٥] ويمكن أن ترد هذه المعينات إلى أصولها البيزنطية حيث نراها واضحة على كثير من الأقمشة المسيحية البيزنطية التى ترجع إلى القرون من السادس الميلادى حتى الثامن الميلادى . والحق أن مصر حين فتحها العرب كان الفن القبطى مزدهراً بما فيه من تقاليد بيزنطية وفرعونية وأشورية وفارسية[٦] ولكن الفنان فى عصر الانتقال وخاصة فى صناعة المنسوجات وزخرفتها بدأ فى الاستغناء شيئاً فشيئاً عن الرسوم الآدمية والحيوانية والطيور التى كانت فى الفن القبطى وقوى ميله إلى الزخارف الهندسية[٧] كما بدأت الكتابة تلعب دوراً هاما

---

(١) زكى حسن ، فنون الاسلام ص ٤٣٦ وص ٤٣٧ Lamm : The Marby Rug. p. 66.,

(٢) دكتور جمال محرز : فضل مصر على صناعه السجاد بأسبانيا مجلة (المجلة) العدد ١١ (١٩٥٧) ص ٥٩ .

(٣) Lamm : op. cit, p. 60, 63, Pézard : La céramique Archaique de L'Islam et ses origines (Paris 1920) p. 37

(٤) وخاصة رقم ٥٥ لوحة ٤١ و٩ Herzfeld : Die Malereien von Samarra, Berlin, 1927

(٥) R. Koechlin : Les céramiques musulmanes de Suse au Musée du Louvre (Paris 1928) No. 137 pp. 90 f., pl. 20

وانظر أيضا طبق من الخزف ذى البريق المعدنى بمتحف الفن الاسلامى رقم سجل ٤٦٧٦
وانظر عن زخارف المعينات . عبد الرؤف على يوسف : طبق من الخزف باسم غبن (مجلة آداب القاهرة م ١٨ ج ١ مايو ١٩٥٨) ص ٩٨

(٦) زكى حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ٨٢

(٧) المرجع السابق ص ٨٣

فى صناعة المنسوجات وهذه العناصر الكتابية وتلك الزخارف الهندسية هما العنصران الرئيسيان فى زخرفة قطع السجاجيد العباسية التى استعرضناها .

والخلاصة أن النتائج التى نصل إليها من هذا العرض تتلخص فى الحقائق التالية : —

١ — أقدم السجاجيد المصرية ترجع إلى العصر الأموى وهى بداية هامة لتاريخ فن نسج السجاجيد الاسلامية .

٢ — خيوط السداة واللحمة فى الغالب من الكتان ويندر أن تكون من القطن فى هذه الفترة المبكرة ولكنه يوجد مغزولا على بعض القطع العباسية .

٣ — الزخارف المبكرة فى العصرين الأموى والعباسى تنحصر فى الطيور أو المعينات الهندسية أو الحبيبات وهى زخارف ذات تأثيرات هلينستية أو ساسانية .

٤ — هذه الزخارف الهندسية من الحبيبات والمعينات والخطوط تفسر لنا الأسلوب الزخرفى المبكر فى تزيين السجاجيد وكيف أن هذا الأسلوب تطور فيما بعد إلى الأرابسك أو التوريقات التى ظهرت على سجاجيد مصر المملوكية فى القرن ١٥ م .

٥ — إن معظم السجاجيد المبكرة لم يكن من النوع الكبير الحجم وقد تحكم فى هذه الأحجام طريقة العقد على اللحمة على معظم القطع .

٦ — بعض السجاجيد ذات الكتابات تنسب إلى أشخاص تولوا أعمالهم فى مصر وهى أعمال تتصل بالاشراف على دور الطراز أو مصانع السجاد .

THE EARLIEST ISLAMIC RUGS IN EGYPT

by

Dr. ABDEL RAHMAN FAHMY

Curator of the Museum of Islamic Art, Cairo

At the Museum of Islamic Art in Cairo, an opportunity arose for examining some pieces of pile rugs that had been woven in Egypt. Some of these rugs represent Kufic inscriptions while the others have only geometrical decorations.

It is a fact that these few pieces, excavated at Fustat (The old Islamic Capital in Egypt), are very rare and important from the historical and archaeological point of view, because they give us valuable assistance in knowing the earliest date of the art of carpet knotting in the Islamic world.

Although there are many successful researches supplying us with a great material about the evolution of the carpet weaving in Egypt during the Mamluk and Turkish periods, we notice that this art is not clear in the transition period (1-3 AH) so, we read in a recent work about the «Cairene Rugs» that : «We are not sure whether weaving with pile knots had been practiced in Egypt long before».

In this paper, my aim is to furnish new material regarding the earliest date of rugs with pile knots, but this is very difficult without giving a more detailed description for ornaments and technical style.

These mentioned pieces of the earliest Islamic rugs are eleven pieces, they will be discussed as following :

I—The Umayyad pieces.	2
II—The Abbasid pieces :	
A—Rugs with ornaments and inscriptions	7
B— « « « only.	2
	11

The late Doctor Ali Ibrahim Pacha had published two Abbasid rug pieces attributed to the 9/10th Cents. A. D. He read the date woven on one of the two pieces but, here I shall give the correct date of the mentioned piece according to the analysis of the letters itself, and also I shall deal with the other inscriptions woven on the rest of the Abbasid rugs.

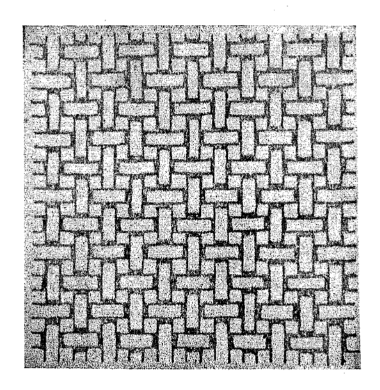
As for the 2 Umayyad pieces, one represents a Kufic inscription read «Misr» and the other is with the name of a Muslim «Kadi» (judge) during the Umayyad period in Egypt. According to the inscriptions we can discuss the earliest date of carpet knotting early in Egypt.

I hope that this article helps us in fixing the place of the earliest carpet knotting in the Islamic world.

(لوحة رقم ١)

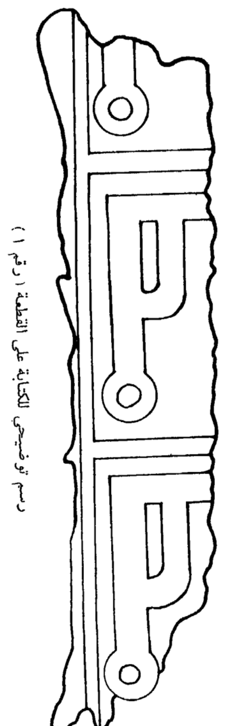


القطعة رقم (١) ويظهر عليها لفظ (مصر)
مجموعات متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٣٢٣٢)



رسم توضيحى للنسيج التحتى السادة فى القطعة رقم (١)

(لوحة رقم ٢)



رسم توضيحي للكتابة على القطعة (رقم ١)

(لوحة رقم ٣)

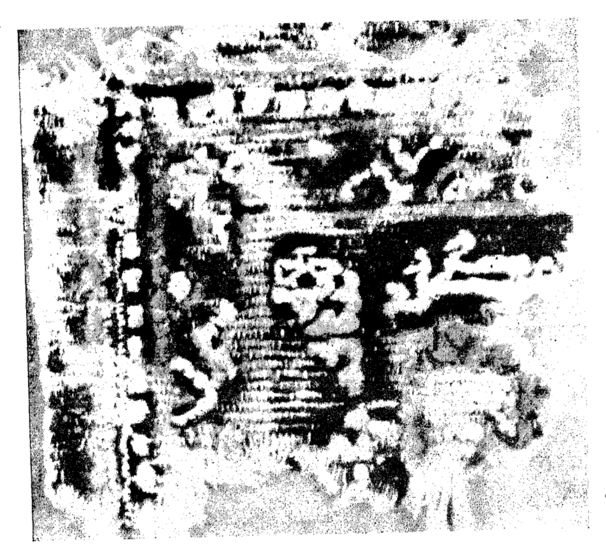




فلس اموى ضرب مصر ـ الفسطاط

مجموعة متحف الفن الاسلامى سجل ٦٧٢٤/٣

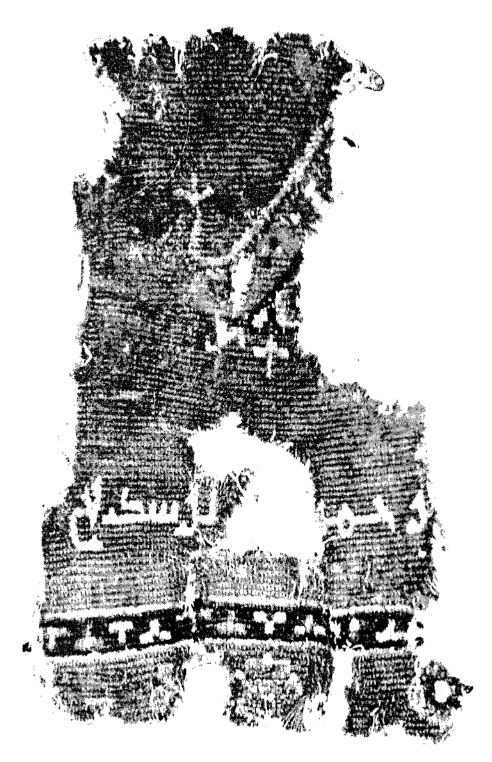
(لوحة رقم ٤)



قطعة من السجاد فى متحف المنسوجات بوشنجطون
ويبدو عليها لفظ (مصر)

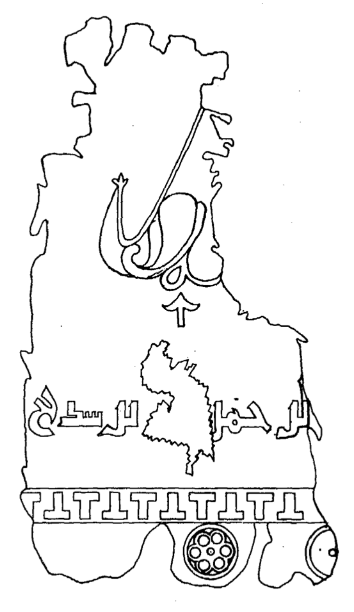
(عن كونل)
Pl. XLV. ns. 73. 618

(لوحة رقم ٥)



القطعة (رقم ٢) من مجموعات متحف الفن الاسلامى
(رقم سجل ١٤٦٨٠)

(لوحة رقم ٦)

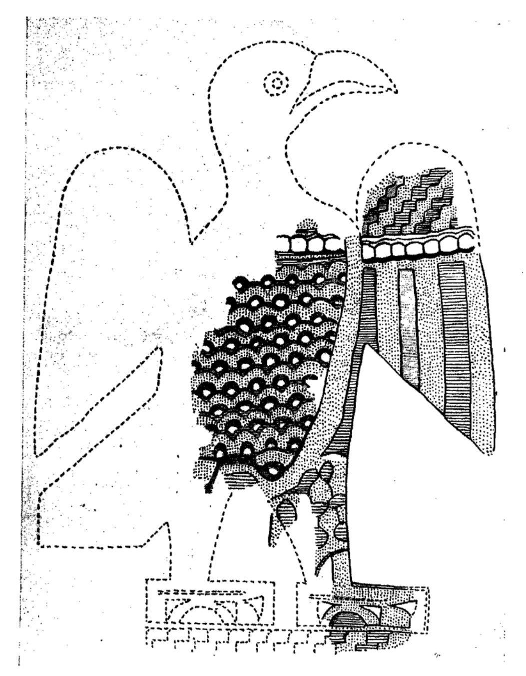


أ

سجل (١٤٦٨٠)

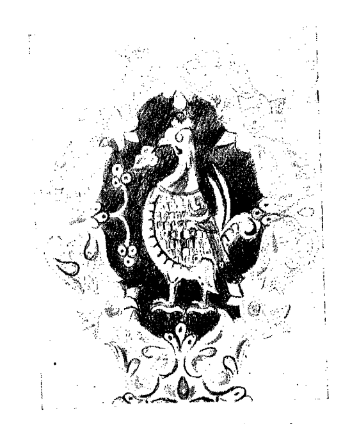
رسم توضيحى للقطعة (رقم ٢)

(اللوحة رقم ٧)



رسم توضيحى لطائر على قطعة من القماش المصرى فى عصر الانتقال
(عن لام)

(لوحة رقم ٨)



رسم لأحد الطيور التى تشكل العناصر الزخرفية
الرئيسية على قطعة من الأقمشة الأموية
مجموعات متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٣١٨٨/٢)

(لوحة رقم ٩)



صنج زجاجية للسكة من عصر الانتقال وتبدو الاخطاء اللفظية في عباراتها

مجموعة متحف الفن الاسلامى ا ــ رقم سجل ٦٩١٦/٤١

ب ــ رقم سجل ١٤٢٩٤/٨

جـ ــ رقم سجل ١٤٢٩٤/١٦٥

د ــ رقم سجل ١٤٢٩٤/١٣٢

(لوحة رقم ١٠)



حجر طريق باسم عبد الملك بن مروان

(من كرزويل)

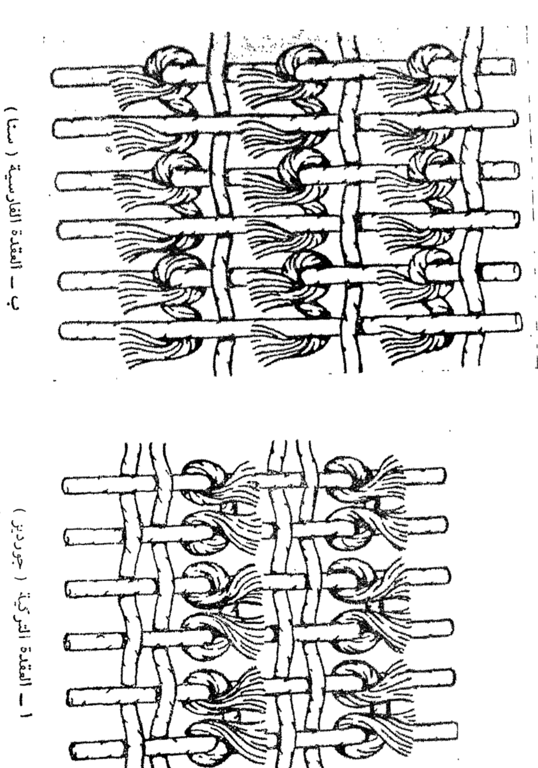
E. M. A. Vcl. I, P. 82 Fig. 23 .

(لوحة رقم ١١)

[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]
	(١)	(٢)	٣١ هـ	٧١ هـ	[illegible] (٦٥ - ٨٦ هـ)
ا					
ب ت ث					
ج ح خ					
د ذ					
ر ز					
س ش					
ص ض					
ط ظ					
ع غ					
ف ق					
ك					
ل					
م					
ن					
هـ					
و					
لا					
ى					

جدول مقارن للكتابات على السجاجيد الأموية

(لوحة رقم ١٢)

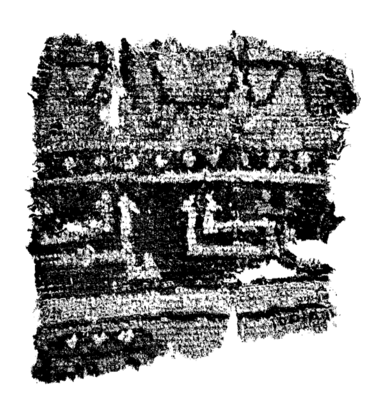


ب ـ العقدة الفارسية (سنا)

أ ـ العقدة التركية (جورديز)

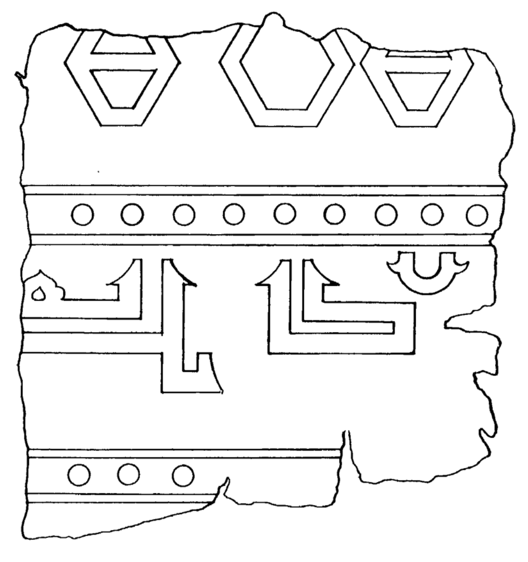
عن Tattersall, p. 21

(لوحة رقم ١٣)



القطعة (رقم ٣) من مجموعات متحف الفن الاسلامى
(رقم سجل ١٥٥١٨)

(لوحة رقم ١٤)



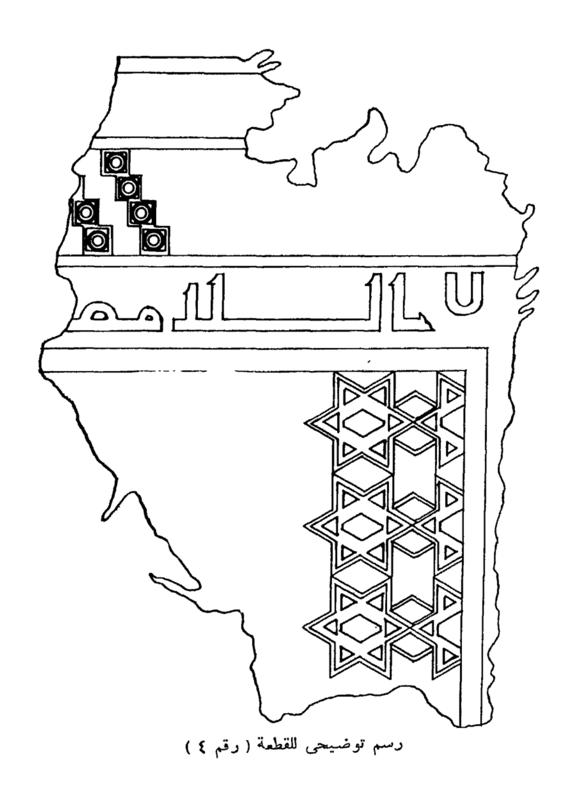
رسم توضيحي للقطعة (رقم ٣)

(لوحة رقم ١٥)



القطعة (رقم ٤) من مجموعات متحف الفن الاسلامى
(رقم سجل ١٥٤٧٧)

(لوحة رقم ١٦)



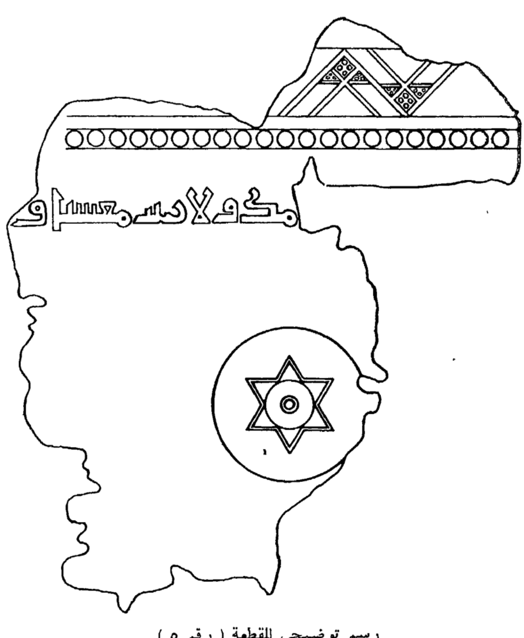
رسم توضيحى للقطعة (رقم ٤)

(لوحة رقم ١٧)



القطعة (رقم ٥) وتبدو عليها كتابات كوفية تنشر لأول مرة
مجموعة متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٤٩٣٩)

(لوحة رقم ١٨)



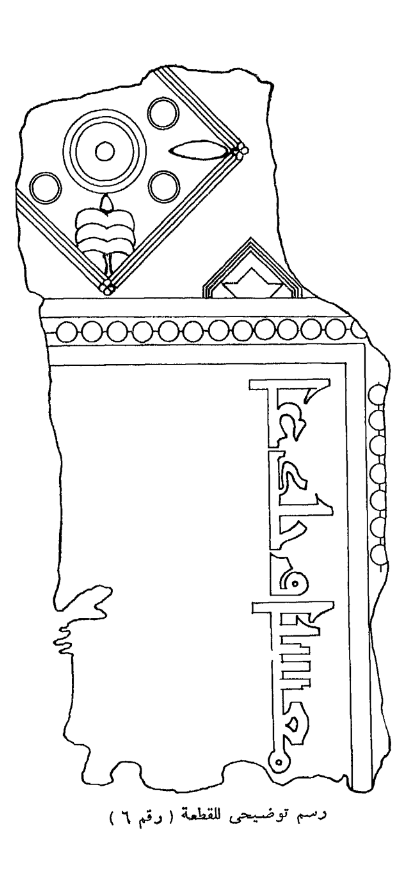
رسم توضيحى للقطعة (رقم ٥)

(لوحة رقم ١٩)



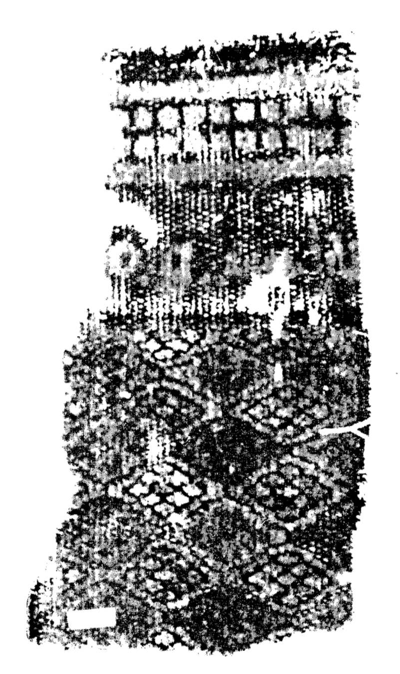
القطعة (رقم ٦) وعليها كتابة كوفية تكمل كتابة القطعة (رقم ٥)
مجموعات متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ٩٥٣١)

(لوحة رقم ٢٠)



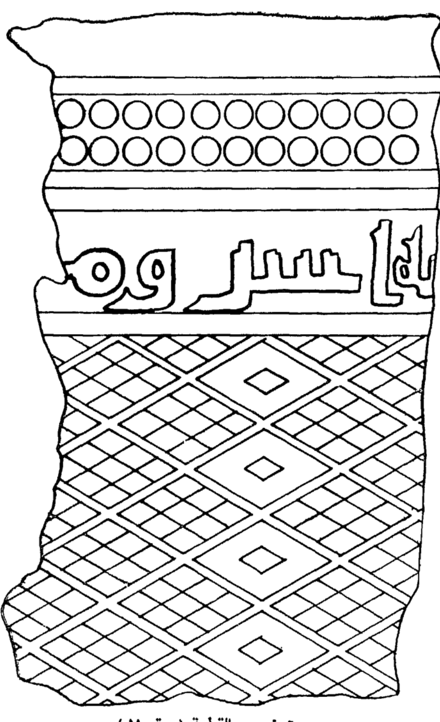
رسم توضيحى للقطعة (رقم ٦)

(لوحة رقم ٢١)



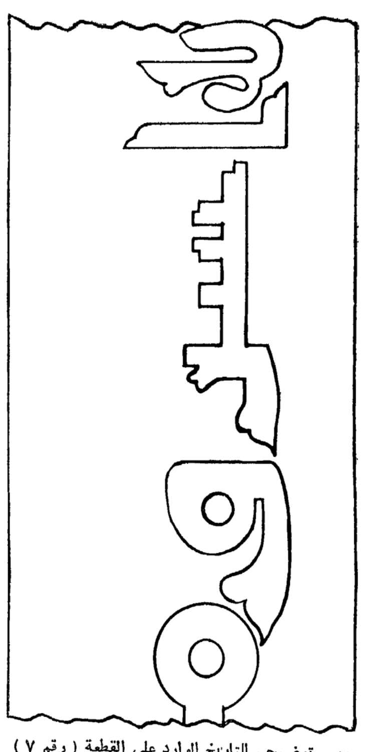
القطعة (رقم ٧) وهى مؤرخة ٢٠٢ هـ
مجموعات متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٢٧٦٨)

(لوحة رقم ٢٢)



رسم توضيحى للقطعة (رقم ٧)

(لوحة رقم ٢٣)



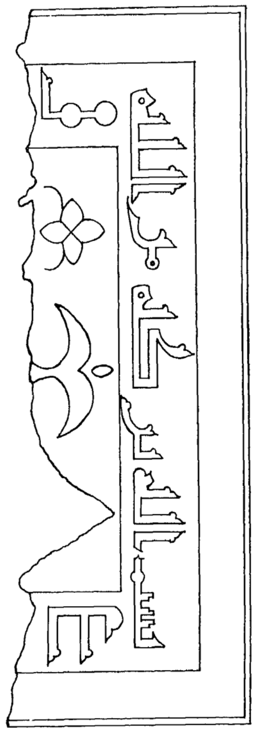
رسم توضيحي للتاريخ الوارد على القطعة (رقم ٧)

(لوحة رقم٢٤)



القطعة (رقم ٨) من مجموعات متحف الفن الاسلامى
(رقم سجل ١٤٩٤١)

(لوحة رقم ٢٥)

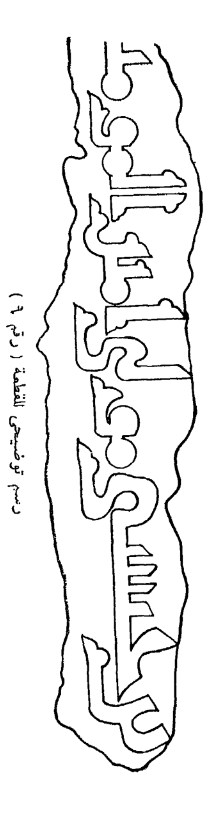


رسم توضيحى للقطعة (رقم ٨)

(لوحة رقم ٢٦)

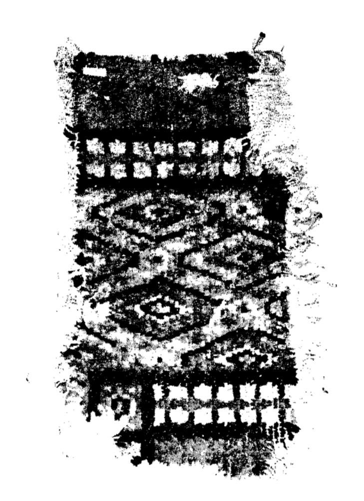


القطعة (رقم ٩) من مجموعات متحف الفن الإسلامي
(رقم سجل ١٤٩٤٠)



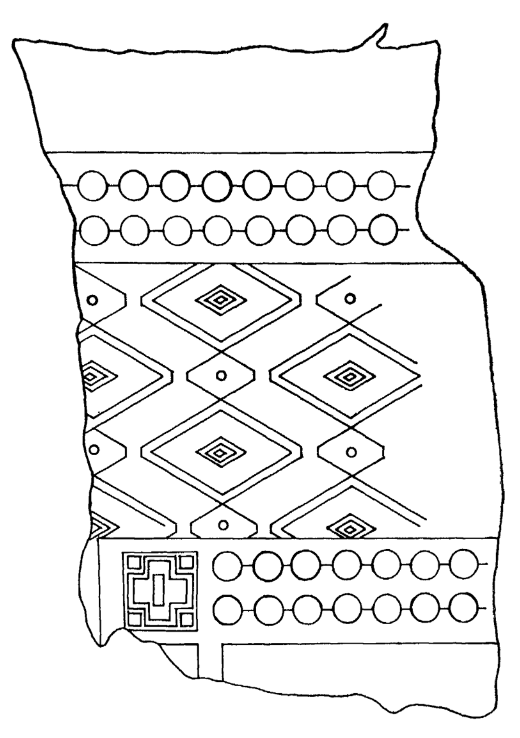
رسم توضيحي القطعة (رقم ٩)

(لوحة رقم ٢٧)



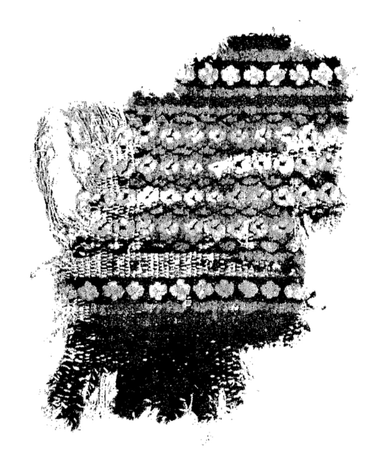
القطعة (رقم ١٠) من مجموعات متحف الفن الاسلامى
(رقم سجل ١٤٩٥٦/٦)

(لوحة رقم ٢٨)



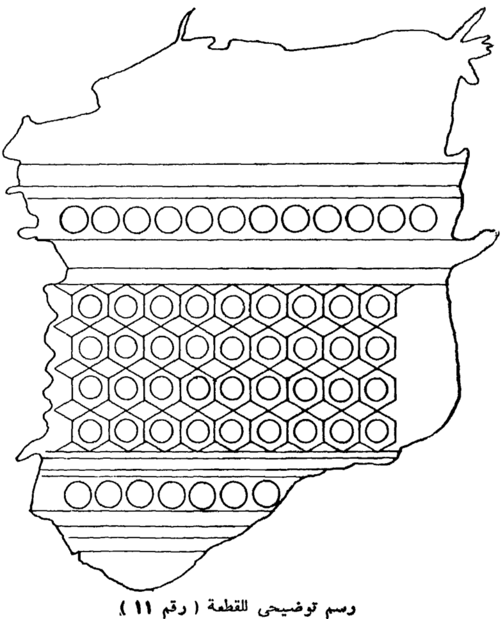
رسم توضيحى للقطعة (رقم ١٠)

(لوحة رقم ٢٩)



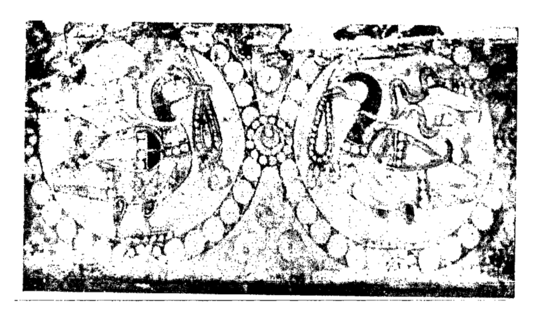
القطعة (رقم ١١) من مجموعات متحف الفن الاسلامي
(رقم سجل ١٣٢١٣)

(لوحة رقم ٣٠)



رسم توضيحى للقطعة (رقم ١١)

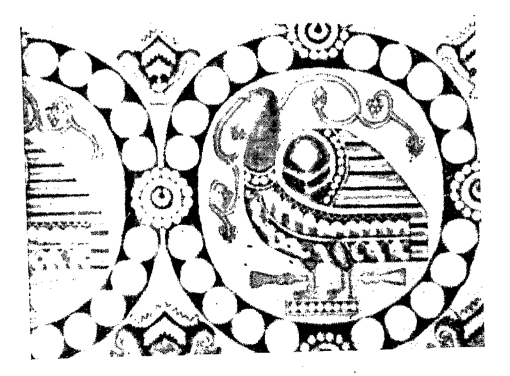
(لوحة رقم ٣١)



صورة مائية ايرانية بمتحف برلين وتبدو فيها زخرفة الحبيبات

عن Otto V. Falke: Decorative Silks. no 67.

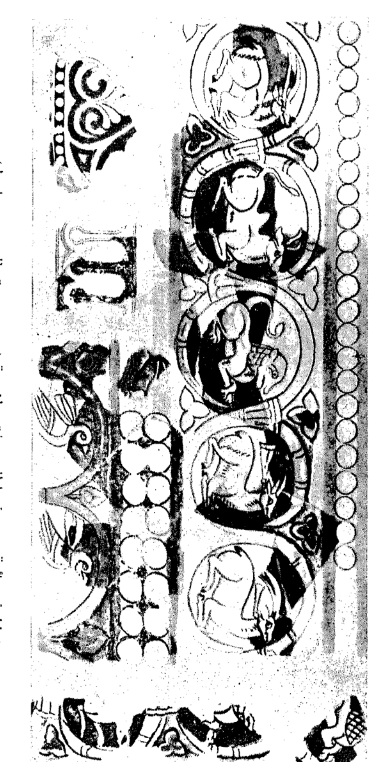
(لوحة رقم ٣٢)



قطعة من النسيج الايرانى بمتحف الفاتيكان وتبدو فيها الحبيبات واضحة

عن Otto V. Falke : Decorative Silks, no. 66.

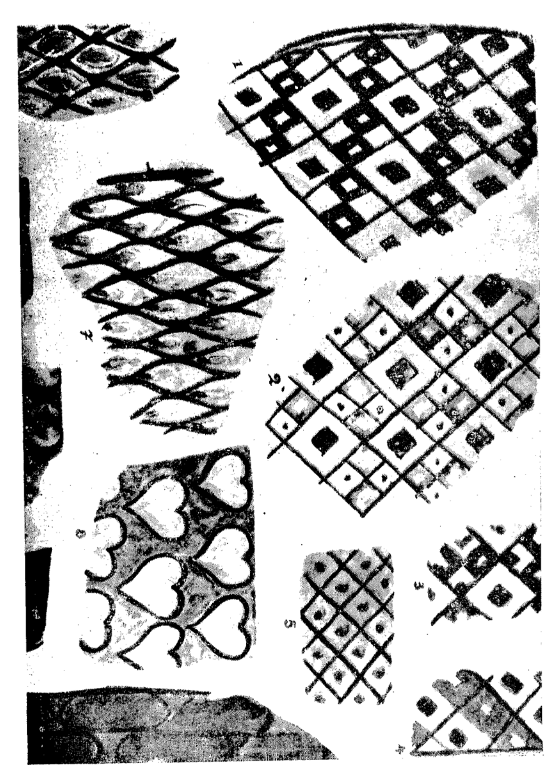
(لوحة رقم ٣٣)



زخارف مائية تبدو فيها الحيوانات واضحة (من جوسق الخرم بسامرا)

عن هرتزفلد Pl. L

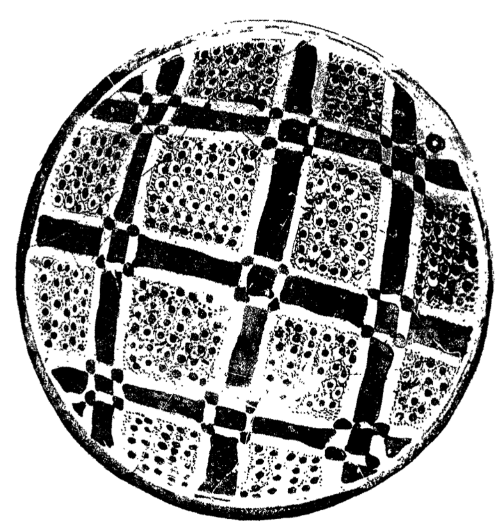
(لوحة رقم ٣٤)



زخارف مائية هندسية معظمها من معينات بجوسق الحريم بسامرا

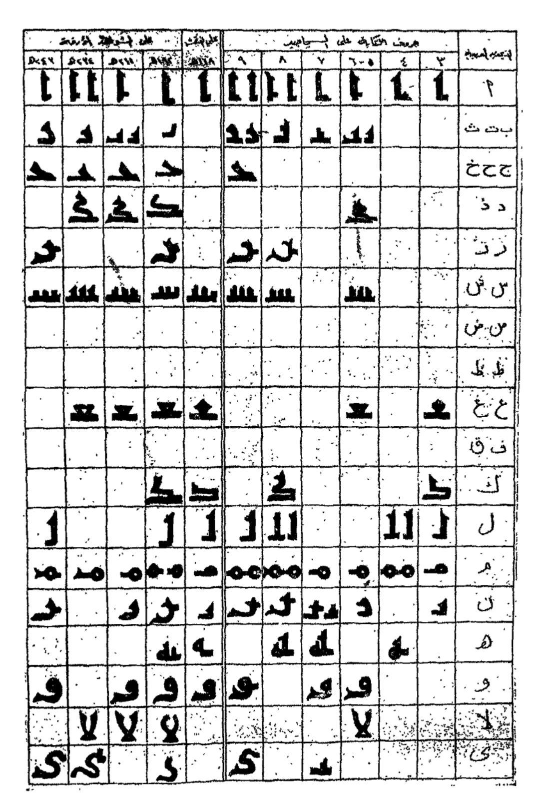
عن Ernst Herzfeld Pl. XLII

(لوحة رقم ٣٥)



صحن من الخزف العباسى ذى البريق المعدنى مزين بزخارف
المعينات والحبيبات
مجموعات متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ٤١٧٦)

(لوحة رقم ٣٦)



جدول مقارن للحروف الكتابية على السجاجيد العباسية

الإمكانيات الاقتصادية للقارة الإفريقية

الدكتور فؤاد محمد الصقار
جامعة القاهرة ـ فرع الخرطوم

عناصر الانتاج الافريقى

تمهيـــد :

شهدت القارة الإفريقية فى السنوات القليلة الماضية تطورات سياسية على جانب كبير من الأهمية ، كما شهدت تطورات اقتصادية سريعة ، وتميزت بزيادة العلاقات الاقتصادية بين الدول الافريقية — تلك العلاقات التى تهدف فى نهاية الأمر إلى إيجاد نوع من الوحدة الاقتصادية بين الدول الافريقية ، أو على الأقل إلى خلق مزيد من العلاقات الاقتصادية بينها . ولا شك أن هذه الاهداف الاقتصادية أتت نتيجة لزيادة التقارب السياسى بين الدول الافريقية فى السنوات الاخيرة — وخاصة بعد مؤتمرى القمة الافريقى ، وإنشاء منظمة الوحدة الافريقية ، وما تبع ذلك من إنشاء بنك التنمية الأفريقى ، وإنشاء البنك العربى الأفريقى — وما إلى ذلك .

ويصبح أن نشير هنا إلى أن هناك رغبة ملحة فى تحقيق نوع من الوحدة الاقتصادية بين الدول الافريقية تقوم على مبدأ التكامل الاقتصادى الافريقى . وليس المقصود بتحقيق هذا التكامل الاقتصادى عزل الدول الافريقية عن التيارات الاقتصادية العالمية ، بل خلق نوع من العلاقات الوثيقة بين الدول الافريقية عن طريق إيجاد نوع من التخطيط الاقتصادى السليم لكل دولة أفريقية فى إطار التخطيط الاقتصادى العام للقارة الافريقية جميعها — بحيث يساهم انتاج كل دولة أفريقية فى تطوير اقتصاديات غيرها من الدول . وأن تكون القطاعات الانتاجية والخدمات فى كل دولة أفريقية متعاونة ومتكاملة مع اقتصاديات غيرها .

من الدول الافريقية — وأن تسير فى ذلك على مبدأ الأخذ والعطاء — فلدى كل دولة أفريقية ما يمكن أن تعطيه لغيرها — وما يمكن أن تستفيد به من غيرها .

وإذا كان من الصعب وضع تخطيط اقتصادى متكامل — يكفل مبدأ التكامل الاقتصادى فى داخل الدولة الواحدة — فلا شك أنه من أكثر الأمور صعوبة وضع تخطيط إقتصادى لقارة ينقص الكثير من دولها ما يمكن الاعتماد عليه فى تقييم وتقدير مواردها الطبيعية القابلة للاستغلال ، كما ينقص معظم دولها الكثير من الارقام والاحصاءات والتعدادات والبيانات الشاملة والدقيقة التى يمكن الاعتماد عليها ، واستخلاص الحقائق منها ، وهذه كلها أولى احتياجات وضع الخطط الاقتصادية .

ولكن مهما يكن من أمر ، وأيا كانت هذه الصعوبات ، فهناك حقائق ثابتة بارزة تتعلق بالظروف الطبيعية والبشرية التى يمكن على ضوئها تفهم النظم الاقتصادية والإنتاج الاقتصادى وامكانيات التطور الإقتصادى ، كما يمكن على ضوئها تفهم امكانيات التكامل الاقتصادى بين الدول الافريقية ، ومن ثم يمكن رسم خطط التنمية الاقتصادية ، والوحدة الاقتصادية المطلوبة .

البيئة الطبيعية :

لا يمكن البحث فى إمكانيات التطور الاقتصادى عامة ، أو رسم تخطيط اقتصادى بوجه خاص — دون معالجة العنصر الرئيسى من عناصر الانتاج — وهو عنصر البيئة الطبيعية — الذى يؤثر تأثيراً كبيراً فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى افريقية . والواقع أن حياة الافريقيين أكثر ارتباطا بالبيئة الطبيعية من سكان حياة أية قارة أخرى . وينظر إلى العوامل الطبيعية على أنها تحدد إمكانيات التطور الحضارى والاجتماعى والاقتصادى ، ولا تزال معلوماتنا عن البيئة الطبيعية الافريقية — وخاصة عن وسط افريقية — ينقصها الكثير من المعلومات . ولذلك فامكانياتها الطبيعية ومواردها الطبيعية لا يمكن تقديرها بدقة ، وبالتالى لا يمكن التأكد من إمكانياتها الاقتصادية .

وتبلغ مساحة القارة الافريقية حوالى ١١٫٧ مليون ميل مربع — أو حوالى ٢٢٪ من مساحة اليابس ، ولا يفوقها فى المساحة سوى القارة الآسيوية . ويخترق خط الاستواء القارة الافريقية من منتصفها ، ويقسمها إلى قسمين يمتدان إلى مسافة متساوية تقريبا — تبلغ حوالى ٢٥٨٠ ميلا فى كلا الجانبين . وفى مثل هذه المساحة الضخمة توجد أنواع متعددة من العناصر البشرية ، وتتمثل أنماط متباينة من المناخ ، وتتوفر أنواع متنوعة من الموارد الطبيعية ، وأشكال مختلفة من التنظيم الفنى والاقتصادى والاجتماعى .

وتبلغ مساحة المناطق الافريقية الواقعة بين المدارين — أى الاقاليم المدارية — حوالى ٩ مليون ميل مربع — أو أكثر من ¾ مساحة القارة . ولذلك يعتبر تطورها الاقتصادى مستقبل التطور الاقتصادى للقارة الافريقية ، وخاصة وأن كلا من المناطق الشمالية والجنوبية من القارة — الخارجة عن نطاق المدارين — قد تطورت اقتصاديا تطوراً كبيراً — بالمقارنة إلى المناطق المدارية . وقد انفصلت هذه المناطق المدارية عن العالم الخارجى فترة طويلة من الوقت ، واستمرت المناطق الداخلية من افريقية غير معروفة للعالم الخارجى لمدة تزيد على ثلاثة قرون ، بعد أن أمكن تحديد سواحلها ، وكان ذلك راجعا إلى بعض الظروف الطبيعية القاسية مثل وجود سواحل صحراوية ، أو سواحل مغطاة بالمستنقعات والغابات . هذا إلى جانب أن مناطق قليلة من الساحل تتوفر فيها المياه ، ومن ثم لم يكن هناك ما يغرى العناصر الأوربية على الاستقرار عليها ، وكان البحارة الأوربيون ينظرون إلى سكان هذه المناطق على أنهم قبائل متوحشة ، كما لم تكتشف فى ذلك الوقت من المعادن ما يغرى بالهجرة إليها . ولم تكن افريقية تفيد فى ذلك الوقت إلا كمصدر للرقيق إلى جانب أن الأمراض المدارية كانت تمنع العناصر الأوربية من المعيشة فيها. وتقل فى سواحل افريقية الممرات التى تسهل المرور نحو الداخل، كما أن الموانى المحمية قليلة. وفى هذه المناطق تختفى الطرق والممرات، وتوجد فقط المسالك التى يعبرها الانسان والحيوان من قرية إلى أخرى— بل أن الحمالين الإفريقيين كانوا يخافون من الابتعاد عن قراهم كثيرا بسبب النفوذ القبلى— كل ذلك جعل التوغل نحو الداخل صعبا [1] .

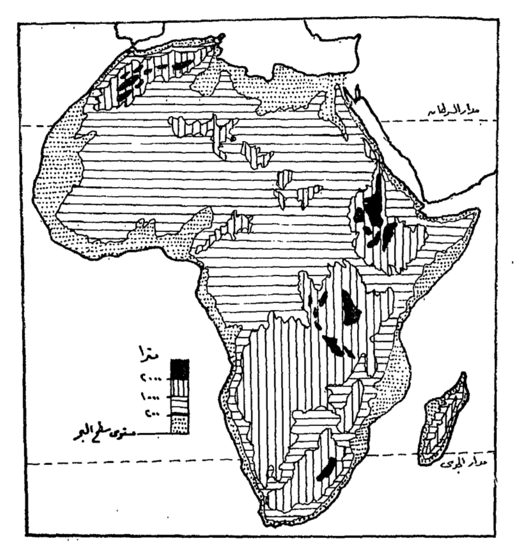
---

(1) L. Dudley Stamp, Africa, pp. 6—7.

وتتكون القارة الأفريقية من الناحية الطبوغرافية (شكل ١) من هضبة متوسطة الارتفاع ، تنحدر نحو سهول ساحلية ضيقة — يبلغ متوسط اتساعها حوالى ٢٠ ميلا ، وتنحدر الهضبة الافريقية نحو السواحل انحدارا شديدا فى أغلب الاحيان، وينعكس أثر هذا الانحدار على طبيعة كثير من الانهار الافريقية المتجهة إلى السواحل الشرقية والغربية ، فتصبح سريعة الجريان ، تكتنفها الجنادل والشلالات ، كما أنها كثيرا ما تغير مجاريها عند فتحاتها — مما يجعل هناك فرصة لوجود مناطق كثيرة صالحة لتوليد الطاقة الكهربائية المائية الرخيصة ، ولكنها من ناحية أخرى سببت صعوبة فى الملاحة ، وصعوبة فى توغل السفن من البحر إلى الداخل ، وصعوبة فى اجتياز حافات الهضبة ، كما أن سرعة جريان مياه الأنهار فى مجاريها الدنيا يسبب حملها لكميات كبيرة من الرواسب ، تلقى بها فى مياه البحر فتقلل من فرصة نمو الموانى الصالحة لرسو السفن بالقرب من فتحات الأنهار . وفى افريقية عامة — وعند حافات الهضبة بصورة خاصة — تصعب المواصلات ، وتزداد تكاليف إنشاء الطرق وبناء السكك الحديدية ، كما تزداد تكاليف تشغيلها .

ونظرة إلى خريطة القارة الأفريقية تظهر أنه قلما توجد خلجان عميقة تتداخل فى كتلة اليابس ، فليس هناك مايشبه خليج المكسيك أو خليج هدسون ، كما أن للأنهار الأفريقية دلتاوات لا خلجان ما عدا نهر الكنغو . ومن ناحية الملاحة نجد أن الساحل الأفريقى غير ملائم ، فالألسنة الصخرية التى تحمى الموانى لا وجود لها . وقد تستخدم جزيرة لحماية الميناء — كما هو حال زنزبار بالنسبة لميناء ممبسة ، وقد توجد خلجان محمية قليلة كما هو الحال فى دربان ولورنسوماركيز . ويلائم الساحل الافريقى من الناحية الطبيعية السفن الصغيرة . وعادة ماتقام كاسرات الأمواج لحماية الموانى الواقعة على الساحل الرملى . وقد يسبب وجود الساحل الرملى كثيراً من المستنقعات التى تنمو فيها الغابات ، وقد تستخدم هذه المستنقعات كمرافىء بعد تعميقها كما هو الحال فى لاجوس وبعض موانى غرب افريقية . أما الموانى الطبيعية فتتمثل فى الكيب وبعض موانى شمال غرب افريقية حيث تختلف البيئة الطبيعية عما هى عليه فى باقى أنحاء افريقية ، واختفاء الموانى الطبيعية سبب إنشاء موان صناعية ذات تكاليف كبيرة — كما هو الحال فى غانه فى حالة تاكورادى وسيكوندى وأكرا —

حيث تحمل البضائع على سفن صغيرة إلى البواخر التي ترسو بعيداً عن الساحل ، ومثل ذلك يقال عن بعض موان افريقية الأخرى .



شكل ١ ــ تضاريس القارة الافريقية

وفى القارة الافريقية يتنوع المناخ ، ويختلف من مكان لآخر : من مناطق حارة رطبة كثيرة الامطار طول العام ، إلى مناطق حارة صيفية الامطار ، إلى مناطق شبه جافة وصحراوية ، إلى مناطق معتدلة الحرارة شتوية الأمطار . ومثل هذا التنوع المناخى من شأنه أن يوجد نوعا من التنوع النباتى والحيوانى ، ونوعا من التنوع فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ـــ وهى أمور من شأنها أن

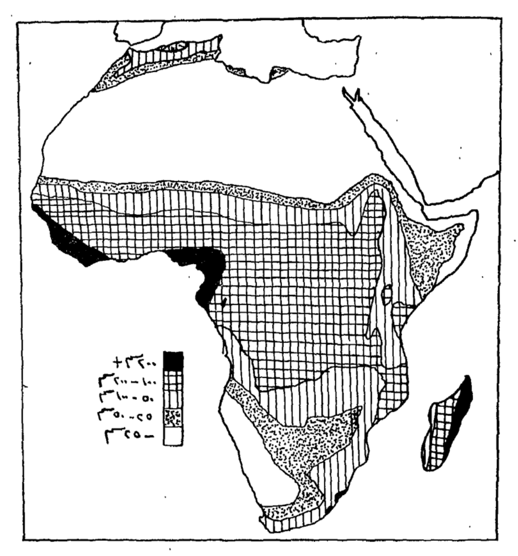
تزيد من امكانيات التبادل التجارى بين الدول الافريقية ، وأن توجد بينها نوعا من التكامل الاقتصادى .

ولكن المناخ من ناحية أخرى من أسباب عرقلة التطور الاقتصادى لكثير من الاقاليم الافريقية ، فحوالى ٤٠ ٪ من افريقية المدارية — أو حوالى ٣٠ ٪ من مساحة القارة — تتكون من مناطق صحراوية وشبه صحراوية ، أو مناطق حشائش فقيرة بسبب قلة الامطار أو ندرتها . كما أن حوالى ثلث مساحة القار مناطق سافانا — تسقط بها الامطار فى فصل الحرارة العظمى — حيث البخر على أشده — مما يقلل من أثرها الفعلى ، ويجعل إنتاجها الزراعى فى تذبذب كبير عاما بعد آخر . وهناك مناطق متسعة من الاقاليم المدارية — أمطارها غزيرة تزيد عن الحاجة (شكل ٢) مما سبب وجود المستنقعات التى يصعب صرف مياهها . وليست هذه المستنقعات قاصرة فى وجودها على الاقاليم الاستوائية — بل توجد كذلك فى خارجها ، وقد تسببها مياه الانهار كستنقعات بحر الجبل فى أعالى النيل ، ومستنقعات بنجويلو فى زامبيا ، ومستنقعات أوكافانجو فى بتشوانالاند وغيرها . وكلها مناطق بالامكان تحويلها إلى أراض زراعية — لو أمكن صرف مياهها . وفى زامبيا وحدها توجد ست مستنقعات تبلغ مساحتها مجتمعة حوالى ٦ ٪ من مساحة البلاد ، ومن المحتمل أن تعانى حوالى ١٢ ٪ من مساحة أفريقية المدارية من زيادة الامطار عن الحاجة . أما المناطق المدارية التى يمكن القول أن مناخها مناسب ، ويمكن تحويلها إلى مناطق إنتاجية فى الظروف الفنية الحالية فتتراوح مساحتها بين ١٢ ٪ و ١٥ ٪ من مساحة أفريقية المدارية (أوما يعادل ٩ ٪ و ١١ ٪ من مساحة القارة)[1] .

ونظرا لأن الانسان لم يتمكن حتى الآن من السيطرة على المناخ ، فمن غير المعقول أن يقل أثر المناخ فى الانتاج الاقتصادى فى المستقبل القريب . غير أن هناك بعض المناطق شبه الجافة — أقيمت بها مشروعات الرى لتقليل أثر الجفاف — كما هو الحال فى بعض مناطق نيجيريا الشمالية ، ومشروع الجزيرة فى السودان — بل ومشاريع الرى فى مصر . كما أن هناك امكانيات للقيام بمزيد من مشروعات

(١) W. A. Hance, African Economic Development, p. 9.

الرى فى كثير من مناطق افريقية — وخاصة فى غمبيا والسنغال وتشاد ، وعلى طول أنهار أورنج والزمبيزى والنيجر وغيرها .



شكل ٢ — متوسط المطر السنوى فى افريقية

ولا شك أن للمناخ تأثير كبير فى النقل — فحيث تغزر الامطار طول العام يصبح إنشاء الطرق والسكك الحديدية كثيرة التكاليف ، كما أن الامطار الغزيرة كثيرا ما تجرف الطرق وتضيع معالمها . أما فى مناطق الأمطار الفصلية فالسيول كثيرا ما تسبب استحالة فى السير على الطرق ، كما يحتاج إنشاء الطرق والسكك الحديدية فى هذه المناطق إلى بناء الكبارى فوق مناطق الاخوار والسيول ، كما تحتاج إلى بناء سدود متعددة لمنع المياه من جرف الطرق ، وكلها تتطلب تكاليف

باهظة — قد لا يبررها الانتاج الاقتصادى الحالى . ولذلك تعتبر القارة الافريقية من افقر قارات العالم فى طرقها ومواصلاتها ، كما يعتبر النقل بين دولها أمرا صعبا — بل ومستحيلا فى كثير من الاحيان .

ويختلف الغطاء النباتى فى كثافته وطبيعته من منطقة لأخرى تبعاً لاختلاف درجات الحرارة وكمية وفصلية الامطار . وطريقة الزراعة الافريقية لا تحتم إزالة هذه النباتات — مما يقلل من انتاجية الفدان . وفى بعض المناطق تزداد كثافة الاشجار إلى درجة يصعب معها قطعها لاحلال الزراعة محلها ، كما يصعب الاستفادة بأخشابها — إما لرداءة نوع الأخشاب ، أو لصعوبة نقلها إلى حيث يراد استهلاكها .

وتعانى بعض مناطق الحشائش من الرعى الزائد عن الحد — وهو أمر يسبب زوال الحشائش ، ونمو الاعشاب غير المرغوب فيها — كما حدث فى مرتفعات أورنج وترنسفال فى جنوب افريقية ، وفى باسوتولاند وفى هضاب شرق افريقية ، كما تظهر خطورة هذا الموضوع فى روديسيا وانجولا واثيوبيا والصومال ، وبعض مناطق غرب افريقية . ومن مظاهر الغطاء النباتى فى افريقية كثرة نمو الحشائش والأعشاب والنباتات غير المرغوب فيها ، والتى يصعب إزالتها إلا بكثير من النفقات — وخاصة وأن مثل هذه الأعشاب سريعة النمو ، مضرة بالحيوانات . ولم تتمكن الدول الأفريقية من إزالة هذه الأعشاب إلا فى مناطق محدودة أهمها اتحاد جنوب افريقية .

وأخيرا ، فالحياة الأفريقية ترتبط إلى حد كبير بالأقاليم المناخية والنباتية . فعلى طول حافات البحر المتوسط فى أقصى الشمال توجد زراعة مستقرة ، نشأت منذ عصور ما قبل التاريخ — باستخدام الماشية والمحراث — لانتاج الحبوب وخاصة القمح والشعير ، ولانتاج الفواكه مثل التين والعنب والموالح ، إلى جانب الزيتون . وفى جنوب هذا الإقليم ، وعلى طول حدود الصحراء يوجد بدو رعاة يعيشون على تربية الأغنام والابل والماعز ، وفى هذا الاقليم تقتصر الزراعة على الواحات وعلى جوانب الأنهار . وإلى الجنوب من الصحراء توجد مناطق حشائش شبه جافة ، وهى منطقة تمتد فى معظم مناطق الاقليم السودانى ، وكلها مناطق

رعوية تعتمد على تربية الماشية والأغنام . وإلى الجنوب من ذلك تزداد الامطار الفصلية ، وتظهر الزراعة مرة أخرى . وأهم المزروعات هنا الذرة الرفيعة والفول السودانى ، والزراعة هنا بالفأس أو ما يشبهه (مثل السلوكة فى السودان) — أما المحراث فغير مستخدم إلا فى مناطق قليلة ، وقد توجد مجتمعات رعوية فى وسط هذه البيئات الزراعية. وفى جنوب ذلك تزداد الامطار ، ويظهر ذباب تسى تسى الذى يجعل معيشة الحيوانات المستأنسة مستحيلا ، وتعتمد الحياة على اليام والمانيوك والموز وزيت النخيل والكاكاو وما إليها . وعندما نصل إلى نطاق الغابات الاستوائية تقل كثافة السكان وتتباعد قراهم ، ويعتمد السكان على الجمع والالتقاط أو الصيد البرى أو الزراعة المتنقلة . أما فى اتحاد جنوب افريقية وعلى هضاب شرق افريقية فيكثر عدد المعتمدين على الرعى — رغم وجود الزراعة فى كثير من أجزائها[1] .

الموارد البشرية :

إذا انتقلنا من ظروف البيئة الطبيعية إلى موضوع الموارد البشرية — وهو العامل الثانى الهام من عوامل الانتاج — لوجدنا أن هناك فقرا شديدا فى السكان فى معظم أجزاء افريقية ، ولا يستثنى من ذلك سوى الجمهورية العربية المتحدة ، وإلى حد ما شمال غرب أفريقية وأجزاء من غرب افريقية . ومن الصعب تقدير عدد سكان افريقية تقديرا صحيحا لعدم إجراء تعدادات سليمة فى كثير من دولها ، ولكن احصاءات هيئة الأمم على كل حال قدرت عدد سكان القارة فى سنة ١٩٦٠ بحوالى ٢٨٠ مليون نسمة [٢] — أو حوالى ٩./٠ من سكان العالم . ولا يعرف بدقة معدل الزيادة السنوية للسكان ، ولكن يمكن القول أن الزيادة الطبيعية السنوية (بين سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٩) كانت حوالى ١٫٩./٠ فى شمال افريقية و ١٫٦./٠ فى جنوب أفريقية و ١٫٢./٠ فى وسطها الشرقى و٠٫٩./٠ فى وسطها الغربى . وقد وضع هذا التقدير عندما كان عدد سكان المناطق الشمالية ٤٣٫٥ مليون نسمة ، وسكان المناطق الجنوبية ١٣٫٥ ، وسكان الوسط الشرقى ٦٦٫٤ مليون ، والوسط الغربى ٧٤٫٤ مليون نسمة . وقد أشار تقرير هيئة

---

(١) L. Dudley Stamp, op. cit., pp. 147 — 148.

(٢) الامم المتحدة (سنة ١٩٦١) : دراسة الحالة الاقتصادية فى افريقيا منذ عام ١٩٥٠ ص ٢

الأمم المتحدة (١٩٤٩ — ١٩٥٠) إلى أن معدل المواليد فى افريقية يتراوح بين ٤٠ و ٤٥ فى الألف ، ومعدل الوفيات بين ٢٥ و ٣٠ فى الألف . وكان معدل المواليد وكذلك معدل الوفيات أكثر ارتفاعا قبل الحرب الثانية ، ولكن بعد الحرب انخفض معدل الوفيات بسبب التحسن النسبى فى الرعاية الصحية وفى الخدمات الإجتماعية وفى تحسين سبل المواصلات وفى رفع مستوى المعيشة . ولكن المشكلة هى أن نسبة وفيات الأطفال (أقل من سنة واحدة) مرتفعة للغاية فى بعض مناطق أفريقية — إذ تتراوح بين ٢٠٠ و ٥٠٠ فى الألف فى بعض أجزاء شرق افريقية وغربها (١) .

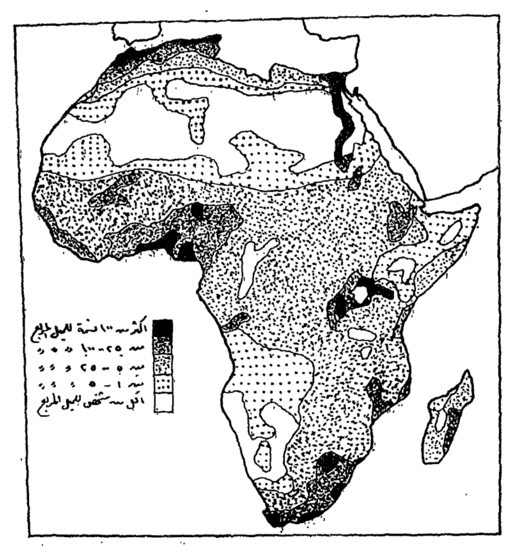
ويعيش حوالى ٢١٪ من مجموع سكان افريقية فى أفريقية الشمالية و ٦٪ من السكان فى اتحاد جنوب افريقية ، أما الباقى وهم حوالى ٧٣٪ من السكان فيعيشون فى افريقية المدارية وفى الجزر المحيطة بالقارة . ويمثل السكان المنحدرون من أصل أفريقى حوالى ٩٧٪ من مجموع السكان . أما العناصر الأوربية فيعيش أغلبها فى اتحاد جنوب افريقية وروديسيا الجنوبية والكنغو وأنجولا — بينما تتركز العناصر الأسيوية — وأغلبهم من الهنود والباكستانيين — فى المناطق الشرقية والجنوبية من القارة الأفريقية .

والقارة الأفريقية — بالرغم من شدة كثافة السكان فى بعض أجزائها — مازالت قليلة السكان فى جملتها (شكل ٣) إذ تبلغ كثافة السكان فى معظم أجزاء أفريقية المدارية أقل من ٢٥ شخصا للميل المربع — وهى كثافة شديدة الانخفاض بالمقارنة إلى دول العالم الأخرى ، إذ تصل متوسط كثافة السكان فى العالم حوالى ٤٦ شخصا للميل المربع ، وتعتبر إفريقية أقل قارات العالم كثافة بسكانها — إذا أستثنينا قارتى استراليا وأمريكا الجنوبية . وفى داخل القارة الأفريقية تختلف كثافة السكان من منطقة لأخرى ، ففى مناطق الغابات الاستوائية فى الكنغو ، وفى المناطق الصحراوية تصل كثافة السكان إلى أقل من ٥ أشخاص للميل المربع . أما فى مناطق السافانا فتتراوح الكثافة بين ٥ و ٢٥ شخصا للميل المربع . وفى بعض مناطق غرب أفريقية وأجزاء من جنوب افريقية ومناطق محدودة من شرق افريقية تتراوح كثافة السكان بين ٦٥ و ١٢٥ شخصا للميل المربع ، وتزداد كثافة السكان

---

(١) John Phillips, Agriculture and Ecology in Africa, p. 295.

فى نيجيريا الشرقية حتى تصل إلى ٢٦٥ شخصا للميل المربع ، وفى وادى النيل فى مصر تصل إلى ١٢٠٠ شخصا للميل المربع (١) .



شكل ٣ — كثافة السكان فى افريقية

ونسبة السكان إلى الأراضى القابلة للاستغلال قليلة فى معظم أنحاء إفريقية — وخاصة فى إفريقية المدارية والجنوبية — ما عدا فى المناطق الكثيفة السكان والتى أشرنا إلى بعضها . وكان من نتيجة نقص السكان اشتداد الطلب على الايدى العاملة — وخاصة فى مناطق التعدين والصناعة ، ومناطق المزارع الواسعة —

---

(١) John Phillips, Ibid., pp. 294 — 295. Lord Hailey, An African Survey, Revised 1956, pp. 115 — 144.

مما أدى إلى ارتفاع أجور العمال ارتفاعا لا يتناسب مع انتاجيتهم الشديدة الانخفاض . كل ذلك سبب زيادة فى تكاليف اليد العاملة ، وفشل مشاريع اقتصادية كثيرة كان مقدرا لها النجاح من ناحية الظروف الطبيعية — كمشروع الفول السودانى فى شرق إفريقية .

وقد أدى نقص العمال أيضا إلى قيام شركة الهند الشرقية الهولندية منذ القرن السابع عشر بجلب العمال من الهند والشرق الاقصى ، واستمر استيراد العمال بعد ذلك . كما جلب الزراع الهنود إلى مزارع قصب السكر فى ناتال كما جلب الصينيون إلى مناجم الذهب فى ترنسفال ، وجلب العمال من الهند والصين وكوبا لانشاء السكك الحديدية فى الكنغو . ولم يكن ذلك ناتجا عن نقص العمال فحسب — بل عن عدم خبرتهم وعدم تعودهم على العمل نظير الأجر كذلك . أما فى الوقت الحاضر فالأمر مختلف — إذ يرغب كثير من الافريقيين فى الحصول على المنتجات الاستهلاكية الصناعية ، ورغبة فى دفع الضرائب المفروضة عليهم نجدهم فى حاجة إلى كسب أجور نقدية . وقد حدث فى إفريقية — كما حدث فى غيرها من المناطق — هجرة من الريف إلي المدن ، ممـا أوجد نقصا شديدا فى الايدى العاملة فى المناطق الزراعية ، وبطالة شديدة فى المدن — التى انخفضت فيها لهذا السبب أجور العمال إنخفاضا كبيرا . وينطبق هذا المثال على غانا وكينيا وغيرهما .

وهناك موضوع آخر يؤثر فى طبيعة الموارد البشرية وفى كفاءتها ، وفى إمكانية الاعتماد عليها — وهو سيادة الروح القبلية التى تسبب الاحساس بالعزلة عن الجماعات الاخرى ، والتعصب القبلي بدلا من التعاون مع المشاريع الجديدة ومع القبائل الاخرى . وقد سببت هذه الروح القبلية بطء نمو المهارة العمالية — بسبب عدم حاجة القبيلة إلى مثل هذه المهارات . وفى مثل هذه المجتمعات يعتمد الفرد فى معيشته على القبيلة متتبعا نظمها وتقاليدها — رافضا كل تطور يخالف التقاليد القبلية . وفى مثل هذه المجتمعات كذلك لا يمكن تركيز المسئولية ، كما لا يمكن الاعتناء بالتربة أو بالمراعى أو بالثروة الحيوانية . ولكن فى السنوات الاخيرة على كل حال تسربت الأفكار الجديدة إلى الحياة القبلية — كنتيجة لزيادة هجرة العمال إلى المدن وإلى مناطق التعدين والصناعة تحت ضغط الظروف الاقتصادية ،

وعودتهم مرة أخرى إلى مواطنهم الأصلية — حاملين معهم أفكارا اقتصادية وسياسية وقومية جديدة قللت من أهمية القبيلة فى بعض المناطق [1] .

والواقع أن أجزاء إفريقية المختلفة تختلف فيما بينها من ناحية التيارات البشرية التى تأثرت بها — فشمال غرب إفريقية جزء من حوض البحر المتوسط — ينفصل عن باقى أجزاء إفريقية بالصحراء الكبرى . أما مصر ووادى النيل فقد ارتبطا فى تاريخهما وتطورها البشرى بكل من المناطق الآسيوية ومناطق حوض البحر المتوسط من جهة ، وداخل القارة من جهة أخرى — فكانت عامل الوصل والاحتكاك الحضارى . أما السواحل الشرقية من القارة فكانت جزءا من حوض المحيط الهندى ، تأثر سكانها بسكان جنوب آسيا وجنوبها الغربى ، فوصلها الكثير من الهنود والعرب — الذين تمكنوا من نشر الدين الاسلامى فى بعض المناطق الساحلية ، كما تمكنوا من التأثير الثقافى الكبير الذى لا يزال ظاهرا فى اللغة السواحيلية . أما سواحل غرب إفريقية وجنوبها فكانت مرتعا خصبا لتجار الرقيق ، ونقط الوثوب للاستعمار الأوربى . وكانت جميع هذه المناطق على كل حال منفصلة تماما عن المناطق الداخلية ، وعن المناطق الساحلية الاخرى — فاختلفت وجهات نظر السكان ، واختلفت أمزجتهم وطباعهم وتطورهم الحضارى . ثم أن الحدود السياسية الإفريقية — التى خططها الاستعمار ورسمها — قد أوجدت فى داخلها مجموعات بشرية متنافرة وغير متجانسة فى بعض الأحيان ، كما فصلت بين أجزاء القبيلة الواحدة فى أكثر الأحيان . والحدود السياسية لغرب إفريقية بوجه خاص أكبر دليل على ذلك . ولا شك أن الرغبة فى الوحدة السياسية لدى كثير من الدول الافريقية لدليل على رغبة مثل هذه الدول فى إزالة هذه المتناقضات البشرية ، أو على الأقل التقليل من تأثيراتها ونتائجها السيئة — بالنسبة للقارة بوجه عام ، ولهذه الدول بوجه خاص .

---

(1) John Phillips, Ibid., p. 297.

ملامح الانتاج الإفريقى

الانتاج الغابى :

ينعكس أثر كل من المناخ والتربة فى الغطاء النباتى . وتشغل الغابات حوالى ١٨ر٤ ./. من مساحة القارة الإفريقية — أى أكثر قليلا من ٢ مليون ميل مربع . وتشغل الغابات الاستوائية حوالى ٨٧٥ ألف ميل مربع — أو حوالى ٧ر٨ ./. من مساحة القارة — بينما تشغل الغابات الجافة حوالى ٨٨٥ ألف ميل مربع أو حوالى ٩ر٧ ./. من المساحة . أما غابات البحر المتوسط فلا تشغل سوى ١ر١ ./. من مساحة القارة ، أو ما يعادل ١٢٨ ألف ميل مربع . أما الباقى — وهو ما يعادل ١ر٦ ./. من مساحة القارة فيشمل غابات من أنواع أخرى متعددة (١) . وبالرغم من ذلك فان مساهمة الانتاج الغابى فى الاقتصاد الافريقى قليل — وذلك لأن ٦٥ ./. على الأقل من المناطق الغابية الافريقية صعبة لا يمكن استغلالها .

وتتألف كل الغابات الإفريقية تقريبا من أنواع من الأخشاب الصلبة ذات القيمة الإقتصادية القليلة . أضف إلى ذلك افتقار القارة إلى كثير من وسائل قطع الأخشاب ونقلها من مناطقها البعيدة عن السواحل إلى حيث يمكن تصديرها أو يراد استهلاكها . وقد بلغ متوسط انتاج الأخشاب (سنة ١٩٥٧) حوالى ١٠٠ مليون مترا مكعبا — انتجت المناطق المدارية منها حوالى ٩٨ مليون متراً مكعباً — أو ما لا يزيد عن ٦. ./. من الانتاج العالمى . وقد انتجت كل من روديسيا الجنوبية وزامبيا ودول ساحل خليج غانا حوالى ٤٣ ./. من هذه الكمية . ويستخدم حوالى ٩٠ ./. من هذه الأخشاب الصلبة فى الوقود — بينما يدخل جزء من الباقى فى الصناعات البدائية الخشبية المنتشرة فى كثير من المناطق الريفية (٢) .

---

(١) L. Dudley Stamp, op. cit., p. 115.

(٢) G. H. T. Kimble, Tropical Africa, Vol. I, (Abridged Edition) p. 190. وانظر أيضا تقرير الامم المتحدة (سنه ١٩٦١) ص ١٧

وازالة هذه الغابات لاحلال الزراعة محلها أمر بالغ الصعوبة بسبب كثافة الغابات الشديدة — التي تتطلب المزيد من الجهد والوقت ، ثم أن استخدام الأيدى العاملة فى إزالة هذه الغابات عملية كثيرة التكاليف . وقد قدرت تكاليف تطهير الفدان الواحد من الغابات فى غرب إفريقية بما يتراوح بين ٥٠ و ١٢٥ جنيها . أما استخدام الآلات والاساليب العملية فى قطع الاشجار فقد يكون أكثر تكاليفا وصعوبة بسبب حاجة هذه العلمية إلى رأس مال ضخم ، وإلى نفقات إصلاح وصيانة واستهلاك الآلات ، كما أن استخدام الآلات فى إزالة الغابات عملية تفسد التربة لأنها تغير من طبيعتها ، وتعرضها للتعرية والإزالة [١] .

الانتاج الرعوى :

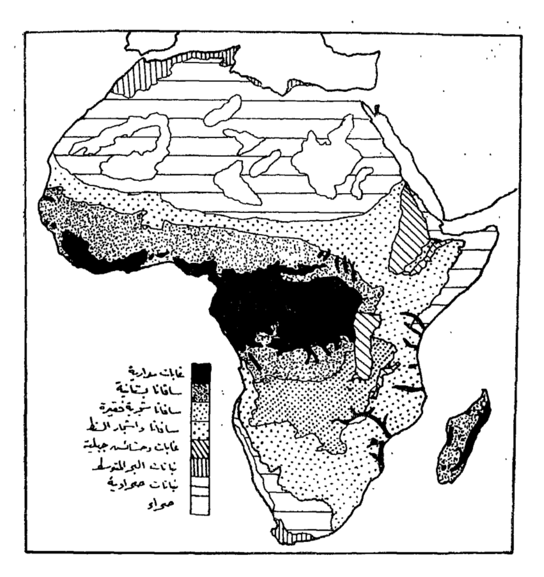
يلعب الرعى دورا كبيرا فى حياة كثير من المناطق الإفريقية . إذ تعتبر المنتجات الحيوانية من العناصر الانتاجية الهامة التى يمكن التوسع فيها ، والتى يمكن تبادلها فى داخل القارة وفى خارجها على نطاق واسع ، وجزء كبير من القارة الافريقية صالح للرعى ، وتقدر مساحة المناطق التى تتغطى بالحشائش فى إفريقية بحوالى ٤ر٧ مليون ميل مربع — أو حوالى ٤٢ر٣٪ من مساحة القارة . وتشغل الحشائش العالية والسافانا الشجرية حوالى ١ر٣ مليون ميل مربع — أو حوالى ١١ر٦٪ من مساحة القارة — بينما تغطى السافانا المتوسطة واشجار السنط حوالى ١ر٨ مليون ميل مربع — أو حوالى ١٥ر٩٪ من مساحة القارة . أما السافانا الفقيرة والسنط فى المناطق شبه الصحراوية فتشغل حوالى مليون ميل مربع — أو حوالى ٩ر٦٪ من المساحة . وتغطى الحشائش والمراعى الجبلية ٣٦٣ ألف ميل مربع — أو حوالى ٣ر٢٪ من مساحة القارة . أما الباقى فيمثل حشائش من أنواع مختلفة . ولا يدخل فى هذا الإحصاء مساحة الحشائش والأعشاب الصحراوية الفقيرة التى تغطى حوالى ٣٠٪ من مساحة القارة[٢] (شكل ٤) .

غير أن كثيرا من هذه المناطق العشبية لا يستفاد منها على الوجه الأكمل . إذ أن هناك مساحات متسعة صالحة لتربية مزيد من الحيوانات المستأنسة — فيما عدا المناطق

---

(١) John Phillips, op. cit., p. 58.

(٢) L. Dudley Stamp, op. cit., p. 115



شكل ٤ ـ النباتات الطبيعية فى افريقية

التى يوجدبها ذباب تسى تسى ، أو التى لا يتوفر فيها الماء . وتوجد المناطق الموبوءة بذباب تسى تسى فى المناطق الاستوائية المنخفضة ـــ وخاصة على طول المجارى المائية ، وفى الجهات الظليلة من المناطق المدارية الرطبة . أما المناطق التى تعانى من مشكلة نقص الماء فتوجد فى كثير من أقاليم السافانا الفقيرة والأقاليم شبه الصحراوية . ثم أن بعض أنواع الحشائش الإفريقية لها حساسية شديدة بسبب الرعى الزائد عن الحد ، وبسبب زوال الحشائش الغنية لتحل محلها حشائش أقل فى النوع والكثافة . وعندما يساء استخدام مناطق الحشائش المفتوحة ـــ كما هو حال مرتفعات أورنج وباسوتولاند وترنسفال وجبال وهضاب شرق أفريقية ـــ

تقل قيمة الحشائش ، وتنمو الأعشاب غير المرغوب فيها ، وتظهر هذه المشكلة فى مناطق السافانا الشجرية . ونظرا لزيادة الرعى فان حرق الأعشاب فى الفصل الجاف تتأخر عن مواعيدها ، وهذا يدعو إلى نمو الأعشاب بدون أى ضابط . وتظهر خطورة بعض الأعشاب بسبب زيادة الرعى فى كثير من أجزاء جنوب إفريقية وروديسيا وأنجولا وشرق وغرب إفريقية وأثيوبيا والصومال . وتظهر فى هذه المناطق مئات الملايين من الأفدنة التى تنمو فيها الأعشاب عديمة الفائدة للانسان والحيوان . وأعشاب هذه المناطق تنمو بسرعة مما يسبب مشاكل كثيرة . ومن أوضح الأمثلة على حساسية الحشائش الإفريقية ما يظهر فى الكارو فى جنوب إفريقية فقد كانت الأغنام والماعز ترعى الحشائش الغنية ، ولكنها حولت هذه المنطقة فى الوقت الحاضر إلى أعشاب فقيرة أو مناطق عارية .

وفى إفريقية — على أى حال — أعداد كبيرة من الماشية يبلغ عددها ٢٥ مليون رأس ، وتبلغ نسبتها ١٢ ٪ من أعداد الماشية فى العالم (بالعالم حوالى ٨٠٠ مليون رأس) . ويتركز أكثر من ٦٠ ٪ من عدد رؤوس الماشية الافريقية فى خمس دول هى بالترتيب التنازلى أثيوبيا واتحاد جنوب افريقية ونيجيريا وتنجانيقا والسودان . ويمكن لهذه الدول مد المناطق الاخرى القليلة فى ثروتها الحيوانية بحاجتها — بالرغم من أن نوع الماشية غير جيد ، ووزنه أقل من نصف وزن نظيره فى هولندا ، وإنتاجه من الألبان منخفض للغاية ، ومثل ذلك يقال عن الاغنام — إذ تمتلك افريقية حوالى ١٥ ٪ من أغنام العالم — أو حوالى ١٢٥ مليون رأس . ويتركز ٦٢ ٪ من أغنام افريقية فى أربع دول هى اتحاد جنوب إفريقية وأثيوبيا ونيجيريا والسودان . كما يصل أعداد الماعز إلى أكثر من ٨١ مليون رأس — أو حوالى ٣٠ ٪ من رؤوس الماعز فى العالم . ويتركز ٧٥ ٪ من ماعز إفريقية فى نيجيريا وأثيوبيا واتحاد جنوب افريقية والسودان وتنجانيقا وأوغنده [1] . ويمكن القول أن نصيب الفرد من رؤوس الحيوانات فى إفريقية أعلى من نصيب الفرد منها فى أية قارة أخرى .

أما إنتاج المنتجات الحيوانية فتدل البيانات المتوفرة على أن إنتاج هذه المنتجات الحيوانية فى البلدان الإفريقية — ماعدا فى اتحاد جنوب إفريقية — منخفض سواء

---

(1) John Phillips, op. cit., p. 309.

بالنسبة إلى عدد الحيوانات أو إلى مساحة المراعى . وربما كان انتاج إفريقية من هذه المنتجات أقل من معظم أرجاء العالم . والواقع أن معظم المجتمعات الافريقية تحتفظ بالماشية بوصفها ثروة ذات قيمة ، ودليلا على المكانة الاجتماعية أكثر منها لاغراض التسويق ـ بحيث أن الاعتبار الأول فى هذا الشأن هو عدد الرؤوس التى يمتلكها الإنسان ، وليس الإنتاج الممكن لها [1] .

ويمكن أن يزداد نصيب الإنتاج الحيوانى من الدخل القومى إلى إضعاف نصيبه فى الوقت الحاضر ـ لو عنى بهذا المصدر الهام من مصادر الدخل القومى . ويعتبر اتحاد جنوب إفريقية الدولة الافريقية الهامة التى تربى الماشية على نطاق واسع للاغراض التجارية ـ ولذلك فالقيمة الاجمالية لمنتجات الماشية بها تمثل حوالى نصف القيمة الاجمالية للانتاج الزراعى .

وتستهلك معظم المنتجات الحيوانية فى داخل القارة الإفريقية محليا . وتتألف معظم صادرات الحيوانات إلى خارج القارة من الجلود والصوف . أما الماشية الحية فتجارتها فى الغالب مع الدول الإفريقية الأخرى . وتعتبر الجمهورية العربية المتحدة أهم سوق لاستهلاك اللحوم الافريقية ، كما تعتبر أثيوبيا والسودان والصومال من أهم الدول الإفريقية المصدرة لها .

الانتاج الزراعى :

يعتمد حوالى ٧٣٪ فى المتوسط من سكان إفريقية على الزراعة ، وتختلف هذه النسبة من مكان إلى آخر ، ولكنها لا تقل عن ٦٥٪ بأى حال من الأحوال فى أغلب الدول الإفريقية . وما دام العدد الأكبر من سكان إفريقية يعتمد على الزراعة فتحسين الإنتاج الزراعى من أهم الضرورات ، وتوسيع رقعة الأرض المنزرعة وزيادة نصيب الزراعة من الدخل القومى من ألزم الأمور للتطور الاقتصادى ـ بل ولتحقيق التكامل الاقتصادى مع الدول الإفريقية الأخرى ، وزيادة الإنتاج الزراعى الغذائى ـ بصورة خاصة ـ أمر ملح وذلك بسبب فقر الغذاء الإفريقى ، وبسبب الزيادة المستمرة فى عدد السكان ، كما أنه من المنتظر أن يزداد الطلب على المنتجات الغذائية عندما يرتفع مستوى المعيشة [2] .

---

(١) انظر تقرير الامم المتحدة (سنة ١٩٦١) ص ١٣ :

(٢) Peter Ady, "Africa's Economic Potentialities," in C. G. Haines, Africa Today, pp. 400 — 401.

وما دامت الزراعة هى الأساس الاقتصادى لجميع الدول الافريقية تقريبا ـ كان للزراعة أهمية كبيرة فى الدخل القومى وفى مستوى المعيشة ، كما أن نظام تملك الأرض الزراعية فى بعض الدول الافريقية ـ وخاصة تملك عدد قليل من الملاك ـ الوطنيين منهم والمستوطنين الأجانب ـ لمعظم الأراضى الزراعية من شأنه أن يعوق النمو ويعرقل التطور الاقتصادى(١) .

وتمارس الزراعة المتنقلة فى كثير من مناطق إفريقية المدارية ، ويمكن وصف هذه الزراعة بأنها زراعة قطعة أرض لبعض سنوات ، ثم تركها بورا لعدة سنوات أخرى . وفى هذه المناطق نجد أن لكل قرية أو حلة أرضها الزراعية المحيطة بها ـــ التى قد تكون متناهية فى الضيق والصغر ـــ ما عدا فى المناطق التى يزداد فيها عدد السكان . ويقوم الزراع عادة بتنظيف الأرض وقطع وحرق الأعشاب والحشائش ، ثم زراعة المحاصيل التى تتفق مع مناخ وتربة المنطقة ـــ مستخدمين فى ذلك أبسط الآلات الزراعية (أهمها الفاس) . وتستخدم نفس قطعة الأرض سنتين أو ثلاثة ـ ثم تترك وتستخدم قطعة أخرى من الأرض . أما الأرض التى تركت بورا فسرعان ما تتغطى بالاعشاب والحشائش . وقد تترك الأرض بورا لمدة تصل إلى ١٥ سنة لتستريح . وإزالة الأعشاب عادة من عمل الرجال ، بينما الزراعة الافريقية فى بعض مناطق إفريقية المدارية من عمل النساء ، وخاصة إذا كانت الأراضى الزراعية غير بعيدة من مناطق السكنى .

وتسود هذه الزراعة المتنقلة فى إفريقية الغربية والكنغو وبعض مناطق اثيوبيا والسودان والصومال وأوغندة ، وإن كانت هناك مزارع أخرى ـ يمتلكها الوطنيون والأجانب ـ لا تدار بهذه الطريقة فى نفس هذه الدول . وتحتل الزراعة غير المتنقـلة مركزاً بارزا فى الاقتصاد الزراعى لكينيا وروديسيا الجنوبية ـ حيث يعمل معظم المستوطنين بالزراعة . أما فى اتحاد جنوب إفريقية فيوجد النوعان من الزراعة : الزراعة الأوربية الحديثة من جهة وزراعة البانتو فى المعازل الأفريقية من جهة أخرى . ويمارس الأفريقيون المنتجون لحسابهم فى المزارع

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن توزيع الملكية الزراعية بين الإفريقيين والاجانب فى افريقية انظر : فؤاد محمد الصقار : التفرقة العنصرية فى افريقية ـــ القاهرة سنة ١٩٦٢

الأوربية نوعا وسطا من الزراعة ـ مستخدمين فى ذلك القليل من الآلات ومن الأساليب العلمية . هذا إلى جانب الزراعة الكثيفة التى تمارس فى بعض جهات إفريقية ـ وعلى الأخص فى الجمهورية العربية المتحدة [1].

وقد وصفت طريقة الزراعة الافريقية ـ وخاصة الزراعة المتنقلة ـ بأنها زراعة مضيعة للموارد الطبيعية وللأرض وللعمل ، غير أنه لا يمكن أن ننكر أن لها بعض المزايا ، فترك بعض الأعشاب فى الأرض أو حولها يمنع عنها تأثير الأمطار ويقيها عمليات التعرية ، كما أن حرق الأعشاب قد يضيف إلى التربة نوعا من الخصوبة ، ثم أن ترك التربة بورا عدداً من السنين يجعلها تستعيد خصوبتها ، هذا إلى جانب أن استخدام الفأس لا يعرض التربة للتعرية ، كما يحدث عادة عند استخدام الآلات الأخرى ـ وخاصة المحراث .

وتعتبر المزرعة فى غرب إفريقية مثلا قطعة من الأرض يسيطر عليها فرد ـ أو أفراد ـ يزرعها أو يزرعونها فعلا ، وطريقة الزراعة المتنقلة تجعل مساحة المزرعة ـ أو حتى مساحة الأرض الزراعية ـ تختلف من سنة إلى أخرى . ولكن يمكن القول المزارع فى غرب إفريقية مزارع صغيرة ، لا تساعد على استخدام الآلات أو تنسيق العمليات الزراعية .

وتختلف المزارع عن بعضها حسب درجة سيطرة الجماعة على الأرض بمقتضى سلطة المشايخ ورؤساء القبائل التقليدية . وكان للادعاءات الخاصة بالعائلات ما يجعل ممتلكات الأسرة مقسمة إلى قطع صغيرة . كما أن هناك خلافات قد تنشأ حول حقوق ملكية الأرض ، وحول حقوق استخدام الأرض فى الزراعة ـ خصوصا فى حالة الزراعات الدائمة كالكاكاو ونخيل الزيت . فقد يمتلك فرد أو جماعة الأرض ، ولكن صاحب الأرض لا يمتلك ما عليها من أشجار ـ لأنها تخص شخصاً آخراً ـ وهو أمر يسبب نقصا فى القدرة على التطوير الزراعى [2] .

والزراعة الافريقية ـ على أى حال ـ تفى بحاجة السكان ـ إذا توفرت الأرض الكافية . وقد قدر ددلى ستامب متوسط حجم الأسرة فى جنوب نيجيريا مثلا بحوالى

---

(١) الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) دراسة الحالة الاقتصادية فى افريقيا منذ عام ١٩٥٠ ص ٨٨

(٢) Petch, Economic Development and Modern West Africa, pp. 40 — 41.

٣ر٦ فرداً ، ومثل هذه الأسرة يكفيها إنتاج فدانين على الأقل من الأرض سنويا . فاذا سمح للأرض أن تستريح سبع سنوات بعد كل سنة زراعية ـ لكان احتياج الأسرة حوالى ١٦ فداناً من الأرض فى المتوسط . ومعنى ذلك أن كثافة السكان للأرض الزراعية لا يجب أن تزداد على ١٤٤ شخصاً للميل المربع على الأكثر ـ حتى يمكن للأرض أن تمدهم بحاجتهم . أما إذا زادت كثافة السكان عن هذا الرقم ، فان فترة البور يجب أن تقل عن سبع سنوات ، وهذا أمر يقلل من خصومة التربة . وذهب ستامب إلى القول أن متوسط حجم الأسرة فى نيجيريا الشمالية حوالى ٣ر٣ شخصا ، ومثل هذه الأسرة تحتاج إلى إنتاج ٣ أفدنة سنويا ـ بسبب قلة الأمطار . ومعنى ذلك أن حاجة الأسرة تبلغ حوالى ٢٤ فدانا ، أى أن الكثافة المعقولة للسكان هى حوالى ٨٨ شخصا للميل المربع . وإذا زادت الكثافة عن ذلك أصبحت الأرض الزراعية مكتظة بالسكان . وهناك مناطق فى غرب إفريقية مكتظة فعلا بالسكان لدرجة أن سنة الزراعة لا يليها سوى سنتين من البور . وإذا قبلنا ما ذكره ددلى ستامب لأدركنا أن بعض أجزاء إفريقية مزدحم جدا بالسكان[1] .

وتلائم درجات الحرارة فى القارة الإفريقية نمو الكثير من النباتات والمزروعات ، غير أن الأمطار مختلفة ومتدرجة فى كميتها وفى موسم سقوطها ، وفى ضمان سقوطها . ففى بعض المناطق تتوزع الأمطار على مدار السنة دون أن يكون هناك فصل جفاف تام ـ أو حتى جفاف نسبى ، ولكن فى كثير من مناطق إفريقية المدارية نجد أن هناك مناطق لا تكفى أمطارها حاجة الزراعة ـ بينما فى مناطق أخرى نجد أن الأمطار من الكثرة بحيث تجرف التربة . ونلاحظ فى بعض المناطق التى تعتبر أمطارها مناسبة أن موسم سقوط الأمطار مركز فى أشهر قليلة ـ مما يجعل إمكانيات الزراعة قليلة ، ونوع المحاصيل الممكن زراعتها محدود . ثم أن الأمطار تسقط بغزارة فى موسم سقوط قصير ـ مما يضيع جزءا كبيراً من الماء ، ويسبب جرف التربة ـ وهذه وتلك تسبب مشكلة كبيرة للزراعة الإفريقية .

وللظروف الطبيعية هذه تأثير حاسم فى الانماط الزراعية السائدة ، وما يرتبط بها من أنماط اجتماعية وبشرية . ومن هنا كان التنوع العظيم الذى تتسم به المناطق الزراعية الإفريقية من ناحية طريقة الزراعة ونوعها وانتاجها ، وما إلى ذلك .

---

(1) L. Dudley Stamp, op. cit., pp. 150—151.

ومعظم إنتاج المحاصيل الغذائية يستهلك محليا بواسطة الزراع المنتجين . والغذاء الأساسى فى إفريقية الشمالية يتكون من القمح والشعير - بينما يساهم كل من الأرز والذرة بنصيب كبير فى النظام الغذائى فى مصر . وتتناقص أهمية الغلال فى جنوب الصحراء الكبرى كلما انتقلنا من أكثر المناطق جفافاً إلى الغابات المدارية المطيرة ، بينما تتزايد على العكس من ذلك أهمية الأغذية النشوية والموز . ومن الممكن على أى حال التمييز بين ثلاث مناطق زراعات غذائية رئيسية فى إفريقية المدارية :

(أولا) المناطق الأكثر جفافا فى إفريقية المدارية ، ويقع معظمها فى إفريقية الغربية . والزراعات الغذائية الأساسية فى هذه المنطقة هي الدخن والسرغم ، أما الذرة الصفراء والأرز والفاصوليا والفول السودانى فهى أغذية ثانوية ، وتحل محلها الكاسافا والبطاطا .

(ثانيا) مناطق السافانا فى إفريقية الشرقية والجنوبية ، وهنا تحل الذرة الصفراء إلى حد كبير محل الذرة البيضاء بوصفها الغذاء الأساسى للسكان . وإن كان كلا المحصولين يزرع بالفعل ، بالاضافة إلى الذرة الرفيعة والأرز - وخاصة فى المناطق التى يتوفر فيها الماء ، كما أن للجذور النشوية أيضا أهمية كبيرة فى الغذاء .

(ثالثاً) مناطق الغابات المدارية الغزيرة المطر ، حيث الجذور النشوية والموز تمثل الغذاء الأساسي . ورغم اقتران هذين المحصولين دائما ببعضهما - فان هناك اتجاه عام إلى سيطرة أحدهما ، مثال ذلك الكاسافا فى بعض أجزاء الكنغو وإفريقية الاستوائية ، والموز فى كثير من أنحاء أوغنده ، وفى بعض أجزاء غانا وساحل العاج . واليام فى أجزاء من نيجيريا وساحل العاج وهكذا .

وبالإضافة إلى هذه المناطق الرئيسية الثلاثة هناك مناطق معينة موفورة المياه فى إفريقية الغربية وما لاجاشى يعتبر الأرز الغذاء الرئيسي بها ، ومن الممكن فى نطاق التبادل التجارى للمزروعات الغذائية فى إفريقية مبادلة جزء منها داخل المجتمع الزراعى ذاته . وأغلب ما يكون ذلك على أساس المقايضة . ولكن الأهم من ذلك هو أن بعض هذه المحاصيل تستخدم فى تموين السكان غير الزراعيين - الذين يتركزون بأعداد كبيرة فى بلدان إفريقية الشمالية ، وفى اتحاد جنوب إفريقية - وهى بلدان

أكثر تحضرا من المناطق المدارية . ومعظم الواردات من المحاصيل الغذائية تستهلك في المراكز الحضرية الإفريقية[1] .

ومستوى انتاجية وحدة المساحة في جميع الدول الإفريقية - باستثناء مصر - شديد الانخفاض . فبينما يبلغ متوسط انتاجية الهكتار الواحد (أقل قليلا من ٢ ½ فدان) من القمح في العالم ١١٨٠ كيلو جراماً - يرتفع في مصر إلى ٢٣٤٠ كيلو جراما ، وينخفض متوسطة في القارة الإفريقية إلى ٨٠٠ كيلو جراما - ومعنى ذلك أن متوسط انتاج الهكتار من القمح في إفريقية يعادل حوالي ثلث متوسط انتاج الهكتار في مصر . أما الذرة فمتوسط انتاج الهكتار في العالم ١٨٣٠ كيلو جراما وفي مصر ٢٢٢٠ كيلو جراما ، أما في إفريقية فمتوسط انتاج الهكتار من الذرة ٩٣٠ كيلو جراما (٤٠ ٪ من انتاج مصر) ، وانتاج الهكتار من الأرز في العالم حوالي ١٨٦٠ كيلو جراما ، وفي مصر ٥٥٦٠ كيلو جراما ، وفي إفريقية ١٥٣٠ كيلو جراما (٣٠ ٪ من مصر) . أما البطاطا والبطاطس فانتاج الهكتار من العالم حوالي ١٢٠٠٠ كيلو جراما ، وفي مصر ١٧٥٠٠ كيلو جراما ، وفي القارة الإفريقية ٧٥٠٠ (٤٠ ٪ من انتاج مصر) . وفي الفول السوداني يبلغ متوسط انتاج الهكتار في العالم ٩١٠ كيلو جراما - يرتفع في مصر إلى ٢٠٧٠ كيلو جراما ، وينخفض في الدول الإفريقية إلى ٧٤٠ كيلو جراما . أما القطن فانتاج الهكتار في العالم ٢٨٠ كيلو جراما - يرتفع في مصر إلى ٥٣٠ كيلو جراما ، وينخفض في الدول الإفريقية إلى ٢١٠ كيلو جراما - أو ما يعادل ٤٠ ٪ من متوسط انتاج الهكتار في مصر - وهكذا في سائر المحاصيل[2] . هذا مع ملاحظة أن متوسط إنتاج الفدان في القارة الإفريقية من المحصولات الزراعية يدخل فيها انتاج مصر المرتفع بالنسبة للهكتار . ولو استبعدت مصر من احصائيات إفريقية لانخفض متوسط انتاج الهكتار في القارة إلى أكثر من ذلك . بل أن متوسط انتاج الهكتار في بعض المناطق أقل من إنتاجه في أية منطقة أخرى من العالم .

---

(١) الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) دراسة الحالة الاقتصادية في إفريقيا منذ عام ١٩٥٠ ص١١ - ١٢

(٢) الأمم المتحده (سنة ١٩٦١) دراسة الحالة الاقتصادية في إفريقيا منذ عام ١٩٥٠ ص ٤٨-٥٤

ولا شك أن هناك أسباباً طبيعية وبشرية تفسر هذا الانخفاض . فمن الناحية الطبيعية المؤثرة فى الإنتاج الزراعى نلاحظ على إفريقية ظاهرتين : أولهما نقص الماء وسوء توزيعه ، وثانيهما فقر التربة .

فمن ناحية سوء توزيع المياه نلاحظ أن بعض المناطق تتمتع بمياه مناسبة للزراعة ، ولكن فى مناطق أخرى نجد أن هناك مناطق لا تكفى أمطارها حاجة الزراعة ــ كما سبق أن أشرنا . أما الأنهار العظيمة الدائمة المياه كالنيل والكنغو والنيجر والزمبيزى وأورنج ــ وكذلك البحيرات العذبة كبحيرة فكتوريا وتنجانيقا ونياسا فكلها تفيد فى الزراعة ــ وخاصة وأن بعضها يجرى فى جزء من مجراه فى مناطق قليلة الأمطار . غير أن عدم الاستفادة من مياهها استفادة التامة تجعلها قليلة الأهمية بالنسبة للزراعة . وإن كانت بعض الدول الافريقية منذ أوائل هذا القرن قد نشطت فى إقامة الخزانات وحفر (الفولات) والآبار ــ وخاصة فى وادى النيل ، وفى جنوب ووسط وشرق وغرب إفريقية والسودان ــ ولكن بالرغم من ذلك هناك مناطق كثيرة تتأثر بالجفاف وبسوء توزيع المطر والماء مثل أثيوبيا والصومال وشرق ووسط إفريقية ــ وخاصة فى أنجولا وجنوب غرب إفريقية وأجزاء من صحراء كلهارى ومنطقة الكارو . وهناك إمكانيات واسعة لتطوير موارد المياه فى المستقبل ، ولكنها تحتاج إلى تخطيط وتمويل (١) .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن الزراع الافريقيين يميلون إلى استخدام الماء أكثر من اللازم ــ أو كما يذكر ستامب تنقصهم العقلية المائية (٢) . ولذلك فحل مشكل الماء يتمثل أولا فى تعليم الافريقين كيفية استخدامه وكيفية تطوير المشروعات المائية الصغيرة . ويقدر تقرير هيئة الأمم المتحدة أن حوالى ٣٦٪ من مجموع أراضى إفريقية ذات مناخ رطب ، أما باقى أراضى القارة ــ وتبلغ ٦٤٪ من المساحة فهى

---

(١) John Phillips, op. cit., pp. 287—290.

(٢) L. Dudley Stamp, op. cit., p. 89.

ذات مناخ متفاوت فى درجات الجفاف ـ إذ أن ١٦ ./. منها صحراء نادرة المطر و ٣٦ ٪ منها مناخها شديد الجفاف و٢٢ ./. منها مناخها معتدل الجفاف [١].

أما عن التربة فهناك ارتباط واضح بين التربة وبين الأقاليم المناخية ، فالتربة السوداء فى مناطق السافانا الجافة ، وتربة اللاتيريت فى الغابات الرطبة ، ولكن فى بعض المناطق الصغيرة المساحة نجد تنوعا وتشتتا كبيرا فى التربة : من تربة خفيفة إلى تربة ثقيلة ، ومن تربة ضحلة إلى تربة عميقة ، ومن تربة حمضية إلى تربة قلوية ، ومن تربة تأثرت بالتعرية إلى تربة تتميز بالاستقرار ، ومن تربة تحتاج فلاحتها إلى طرق وآلات بدائية إلى تربة لا تزرع إلا بالآلات الحديثة . وأخيراً من تربة شديدة الفقر إلى تربة شديدة الخصوبة .

ومعلوماتنا عن التربة الإفريقية قليلة ، ولكن يمكن القول أنها تربة تتعرض بسبب الحرارة والرطوبة إلى كثير من التغيرات والتفاعلات . ففى فصل الأمطار تذوب أملاح التربة ـ كما تتعرض التربة للجرف . أما فى فصل الجفاف حيث البخر شديد ـ تترسب الأملاح فوق التربة ، كما تتكون فوقها أحيانا طبقة صلبة من أكاسيد الحديد تجعل فلاحتها صعبة للغاية . هذا إلى جانب أن تحلل المواد العضوية السريع يجعل التربة لا تستفيد منها كثيرا ـ بعكس الحال فى العروض الوسطى ـ التى تستفيد فيها التربة كثيرا من تحلل المواد العضوية .

وجرف التربة بسبب كثرة الأمطار وشدتها مشكلة كبيرة فى بعض المناطق المتضرسة وخاصة فى موسم الأمطار الغزيرة . وقد شاهد بعض الباحثين كيف أن الأمطار الغزيرة فى بعض مناطق غرب إفريقية قد أزالت من التربة طبقة يبلغ سمكها ٢½ بوصة فى ليلة ممطرة واحدة [٢] . وقد يساعد على تعرية التربة وجرفها الرعى الزائد عن الحد ، كما أن الضغط المتزايد من الانسان والحيوان على التربة قد سبب المزيد من جرف التربة ، وكلها تسبب الضغط المتزايد على الأراضى الزراعية الجيدة ـ مما يسبب مزيداً من التعرية . ولا شك أن كثرة الطمى فى مياه بعض الأنهار دليل على زيادة النحت فى المجارى العليا ، وهذا يؤدى إلى فقر التربة فى هذه المجارى العليا . وإن كان الطمى بلا شك له فائدة كبيرة فى مناطق المجارى الدنيا والدلتاوات .

---

(١) الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) دراسة الحالة الاقتصادية فى افريقيا منذ عام ١٩٥٠ ص ١٠

(٢) L. Dudley Stamp, op. cit., pp. 98 — 103.

وغالبا ما يلجأ الافريقيون إلى حرق الأعشاب لإضافة مواد عضوية متحللة إلى التربة لتزداد خصوبتها . ولا شك أن هذه الطريقة مفيدة — غير أنه كثيراً ما يساء استخدامها — كأن تكون النيران شديدة فيتحول سطح التربة إلى طبقة فخارية متماسكة يصعب فلحها . ولا شك كذلك أن نظم الزراعة المتنقلة التى يقوم بها الوطنيون فى المناطق المدارية ملائمة لظروف التربة ، ذلك لأن استخدام المحراث أمر يساعد الأمطار على جرف التربة .

وبالرغم من ذلك كله فافريقية تقود العالم فى إنتاج بعض المحاصيل النباتية — إذ أنها تنتج حوالى ٩٣./. من إنتاج العالم من زيت النخيل ، ٧٥./. من إنتاج العالم من السيسال ، ٧٠./. من إنتاج العالم من الكاكاو ، كما تنتج حوالى ٣٠./. من إنتاج العالم من الفول السودانى ، ١٦./. من إنتاج العالم من البن ، ١٥./. من إنتاج العالم من السمسم . كما أن هناك محاصيل أخرى هامة مثل القطن (٨٪ من الانتاج العالمى) والشاى (٤./. من الانتاج العالمى) والطباق (٣./. من الانتاج العالمى) وقصب السكر (٣./. من الانتاج العالمى) وهكذا .

الانتاج المعدنى :

ويعتبر التعدين القطاع الاقتصادى الافريقى الهام الذى يدخل كله فى نطاق الاقتصاد النقدى فى كثير من أجزاء القارة ، كما أنه أفضل القطاعات تنظيما وأوفرها تجهيزا ، ولكن من عيوبه الرئيسية سيطرة رأس المال الأجنبى عليه إلى حد كبير ، ولذا كان الغرض من التعدين الانتاج الغزير بهدف التصدير وليس الاستهلاك المحلى . ولكن على كل حال يمكن فى حالة تطوير الصناعات التحويلية الاستفادة بالدخل الناتج عن بيع المنتجات المعدنية ، وباستخدام جزء من الانتاج المعدنى فى الصناعات التحويلية .

وتحتل إفريقية مركزا بارزاً فى إنتاج بعض المعادن الهامة . ويكفى أن نذكر أنها تحتل المركز الأول بين قارات العالم فى إنتاج عديد من المعادن . فهى تنتج ٩٦./. من إنتاج العالم من الماس ، ٦٧./. من إنتاج الكوبالت ، ٦٢٫٧./. من إنتاج الذهب ، ٤٧٫٨./. من انتاج المنجنيز ، ٣١./. من إنتاج الانتيمونى ، ٢٤./. من إنتاج النحاس ، ١٥./. من إنتاج القصدير ، ١١٫٥./. من إنتاج الرصاص ، و ١١./. من إنتاج الفناديوم . كما تنتج كميات كبيرة نسبيا من الزنك والتنجستن

والفضة والحديد والبوكسيت . هذا إلى جانب إنتاجها الهام من اليورانيوم . أما إنتاجها من الفحم والبترول فقليل نسبيا — إذ لا يتجاوز ٣٪ من الانتاج العالمى فى حالة الفحم ، ٣ر٢٪ من الانتاج العالمى فى حالة البترول . ولكن بها على كل حال قوى مائية كامنة عظيمة تقدر نسبتها بحوالى ٤١ ٪ من القوى المائية الكامنة فى العالم — ولكنها لم تستغل منها الا أقل من ٢ر٠ ٪ — أو ما يعادل أقل من ٥ر٠٪ من الطاقة الكامنة فى العالم [١] . ويمكن على كل حال التوسع فى استغلال هذه الطاقة المائية — لو وضع لها التخطيط الاقتصادى السليم .

ويبلغ متوسط القيمة الاجمالية للانتاج المعدنى فى إفريقية حوالى ٢٢٠٠ مليون دولاراً سنويا — يساهم الذهب والنحاس بحوالى ٥٣٪ من هذه القيمة، والماس بحوالى ٨٪ ، والباقى موزع على المعادن الأخرى . ويساهم اتحاد جنوب إفريقية وحده بحوالى ٤٢ر٦٪ من قيمة الانتاج المعدنى فى إفريقية ، كما تساهم روديسيا الجنوبية وزامبيا بنسبة ١٧ر٦٪ ، والكنغو بنسبة ١٥ر٩٪ ، ويلى هذه الدول المغرب وغانا والجزائر والجمهورية العربية المتحدة على التوالى، ثم تأتى بعد ذلك بقية الدول الأفريقية .

ولقد كان دور الأجانب فى إمداد صناعة التعدين برأس المال والمهارات العلمية والعمالية أكبر فى هذا القطاع منه فى أى قطاع آخر من قطاعات الاقتصاد الافريقى النقدى ، ولا يملك الافريقيون نسبة كبيرة من رأس المال المستثمر فى التعدين — إلا فى مصر والمغرب العربى . أما فى باقى الدول الافريقية — فالافريقيون مصدر اليد العاملة غير الماهرة . ويعمل بالتعدين حوالى مليون عامل ومستخدم — ٩٠٪ منهم من الأفريقيين . وقد بلغ مجموع الأجور فى قطاع التعدين فى سنة ١٩٥٧ مثلا حوالى ٥٠٠ مليونا من الدولارات — بلغ نصيب غير الافريقيين منها حوالى ٦٠٪ — وعلى هذا الأساس كان متوسط دخل العامل غير الافريقى حوالى ٣٠٠٠ دولارا فى العام — بينما لم يزد متوسط دخل العامل الافريقى فى التعدين عن ٢٠٠ دولارا فى العام [٢] .

---

(١) هذه النسب والأرقام مبينة على ما أوردته جداول كل من :
— تقرير الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) من صفحة ٦٨ الى صفحة ٧١ . وعلى كتاب
S. H. Steinberg, The Statesman's Yearbook, 1964 — 1965. —
(٢) انظر تقرير الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) ص ١٢٤ — ١٢٥

الانتاج الصناعى :

أما الصناعات التحويلية فامكانية تطورها وزيادة إنتاجها كبير للغاية - فالخامات الزراعية والمعدنية متوفرة وفائضة ، والقوى المحركة يمكن استنباطها من الفحم المحلى، أو من البترول الذى عثر عليه فى شمال إفريقية وفى غربها ، أو من القوى المائية الكامنة الضخمة . ولا شك أن السوق متسع يشتمل على أكثر من ٢٨٠ مليونا من البشر - يزداد نصيب الفرد منهم من الدخل القومى ازديادا بطيئا - ولكن مستمرا . أما الأيدى العاملة فتوفرة ورخيصة - وإن كانت غير مدربة . ورأس المال يمكن الحصول عليه من تصدير الفائض من الخامات الزراعية والمعدنية .

وقد تطورت الصناعات التحويلية بالفعل تطوراً كبيرا ، حتى يمكن أن يقال أن الصناعات التحويلية الميكانيكية قد احتلت نصيبا بارزا فى الدخل القومى ، وتقدر القيمة المضافة الناتجة عن الصناعات التحويلية بحوالى ثلاثة آلاف مليون دولاراً. أما عدد المشتغلين فى هذا القطاع فقد زاد حتى وصل إلى ٢ مليون عامل . وتحتل كل من اتحاد جنوب إفريقية والجمهورية العربية المتحدة المركز الأول والثانى على التوالى من ناحية القيمة المضافة الناتجة عن الصناعات التحويلية . وتساهم الصناعة فى اتحاد جنوب إفريقية بحوالى ٢٥./ من الدخل القومى فى البلاد . كما أن صناعات اتحاد جنوب إفريقية متنوعة ومتعددة أكثر مما هى عليه فى كثير من الدول الافريقية الأخرى . أما فى مصر فقد نهضت الصناعات التحويلية نهوضاً كبيراً فى السنوات الأخيرة حتى أصبح نصيب الصناعة مايقرب من خمس الدخل القومى . وتتميز الصناعات فى مصر كذلك بالتنوع واقترانها بمراحل متقدمة من التطور الصناعى . أما الجزائر والمغرب وروديسيا الجنوبية وزامبيا فتمثل مجموعة وسطى بين اتحاد جنوب إفريقية ومصر من جهة ، وبقية بلدان إفريقية - التى تتسم الصناعات التحويلية بها بضيق نطاق الانتاج وقلة عدد المؤسسات الصناعية ، وارتباطها بانتاج السلع الاستهلاكية ، والبساطة النسبية فى العمليات الصناعية - من جهة أخرى .

وتشترك الصناعات الافريقية كلها - بغض النظر عن درجة تقدمها - بالتركز الشديد للمنشئات الصناعية فى المدن الكبرى . ففى مصر مثلا تقع أكثر من ٦٥ ./

من المنشئات الصناعية في القاهرة والاسكندرية ، كما تنتج هاتان المدينتان حوالى نصف القيمة المضافة . وفى المغرب تقع حوالى ٧٠ ٪ من المنشآت الصناعية فى الدار البيضاء أوحولها. وتعتبر صناعة التعليب وحفظ الأطعمة الصناعة الوحيدة فى المغرب التى حققت اللامركزية فى الانتشار على طول امتداد الساحل . وفى روديسيا الجنوبية تقع معظم المصانع فى سالزبرى وبولاوايو . وفى الكنغو تتركز الصناعة فى اليزابثفيل فى كاتنجا . وفى اتحاد جنوب إفريقية توجد الصناعات التحويلية فى عدد من المدن الهامة مثل الكيب وايست لندن وبورت اليزابث ودربان وجوهانسبرج وبريتوريا .

وكثير من المشروعات الصناعية الافريقية أنشئت برؤوس أموال غير إفريقية. والدور الرئيسى للسكان الافريقيين فى هذا القطاع – كما فى قطاع التعدين – هو كونهم مصدراً لليد العاملة غير الماهرة أو نصف الماهرة . وفى الوقت الحاضر تشترك الحكومات الافريقية فى الصناعات التحويلية اشتراكا مباشراً فى عدة دول – وخاصة فى مصر والسودان وغانا وغينيا ومالى والجزائر واتحاد جنوب إفريقية – بعد أن وجدت حكومات هذه الدول قصور القطـاع الخاص : المحلى منه والأجنبى عن القيام بهذه المهمة على الوجه الأكمل ، وعلى أساس الحاجات الأساسية للبلاد ، والتى تراعى الامكانيات الاقتصادية المتوفرة – بصرف النظر عن مقدار الربح الناتج – وخاصة وأن الصناعات الافريقية لاتزال تواجه الكثير من المشاكل التى تواجهها عادة الصناعة فى الدول النامية والمتخلفة [١] .

إمكانيات التطور الاقتصادى

اختلفت الآراء بشأن إمكانيات إفريقية الاقتصادية – فهناك آراء تنادى بأن إفريقية قارة متسعة بها الكثير من الموارد الكثيرة المتنوعة التى تنتظر من يقوم باستغلالها حتى تصبح قارة غنية منتجة . بينما يؤمن البعض الآخر أنها قارة يوجد بها الكثير من العراقيل التى تعوق التطور الاقتصادى السريع ، فهى قارة فقيرة فى تربتها ، غير جيدة فى إنتاجها ، انفصل سكانها عن التطور والتقدم الاقتصادى العالمى بعوائق

(١) G. H. T. Kimble, op, cit., Vol. I, pp. 310—319.

طبيعية ، مثل نقص الطرق المائية والموانى ، وبسبب الأمطار المدارية ، وبسبب الأمراض المدارية التى كانت ـ ولا تزال إلى حد كبير ـ مقبرة الرجل الأبيض[1].

والواقع أن بافريقية إمكانيات اقتصادية غير محدودة . فالمساحة وحدها ـ وقد أشرنا إلى ذلك ـ تسمح بالتوسع فى الانتاج لو غير السكان طرق استغلالهم التقليدية ، واستخدموا طرقا حديثة فى الرعى والزراعة ، ولو أمكن القيام بمجموعة من مشاريع الرى الضرورية فى المناطق التى لا يكفى مطرها ، والقيام ببعض مشاريع الصرف فى المناطق ذات الأمطار الزائدة عن الحاجة . ويحتاج التطور الاقتصادى والاجتماعى فى إفريقية إلى كثير من الامكانيات التى لا تتوفر فى الوقت الحاضر ، فلم يعرف حتى الآن كيفية استغلال المناطق المدارية والتغلب على ظروف البيئة الطبيعية ، ولا شك أن المناطق المدارية ذات المناخ الحار والرطوبة المرتفعة ، والتى تنمو فيها الغابات المدارية سيأتى عليها وقت تصبح فيه من المناطق الانتاجية الهامة. كما أنه سيأتى الوقت الذى يمكن فيه التغلب على الأمراض المدارية والقضاء على ذباب تسى تسى ، مما يفتح آفاقاً جديدة للانتاج الحيوانى . وليس معنى ذلك أن تطور الاقتصاد الافريقى سيكون بنفس سرعة تطور الاقتصاد الأوربى ، إذ أن هناك مشاكل كبيرة تتطلب الحل . فثروة إفريقية فى الحقيقة تتطلب الكثير من الكفاح للتغلب على المشاكل الطبيعية والبشرية .

وبالرغم من أن بعض السكان لا يمكن أن تتحملهم الموارد المنتجة فى الظروف الاقتصادية الحالية — فان امكانيات التغيير متعددة ، فانتشار المعرفة والطب والعقاقير كلها تؤدى إلى إطالة العمر وإلى صلاحية كثير من مناطقها للاستقرار البشرى والاستغلال الاقتصادى . كما أن القضاء على ذباب تسى تسى معناه زيادة مساحة المناطق الرعوية ، وزيادة الثروة الحيوانية . كما أن مشاريع إنشاء الطرق والسكك الحديدية والقنوات الملاحية ممكنة وضرورية .

وتظهر خريطة إفريقية الاقتصادية نوعا من التنوع الشديد فى الظروف الطبيعية ، كما تظهر الكثير من التنوع والاختلافات والتناقضات الحضارية والاقتصادية ،

---

(1) C. G. Haines, Africa Today, p. 395.

وكذلك التناقضات السياسية : فهناك دول لاتزال خاضعة للغرب ، ودول نصف مستقلة وثالثة كاملة الاستقلال . أما المظهر الثانى فيتمثل فى زيادة نسبة المناطق غير المستغلة على نطاق تجارى . والواقع أن القاعدة العامة فى إفريقية هى أن المناطق المستغلة لا تكون الا بقعاً صغيرة على وجه إفريقية . أما المظهر الثالث فيتمثل فى زيادة نسبة المناطق التي ينخفض فيها الانتاج — وذلك لسببين : أولهما الصعوبات الطبيعية ، وثانيهما المستوى الحضارى للسكان .

وهناك اختلافات كبيرة فى معدل النمو الاقتصادى بين دولة وأخرى ، بل بين كل إقليم وآخر فى داخل الدولة الواحدة ، وليس هناك حدود مستمرة — بل جزر اقتصادية يتركز فيها النشاط الاقتصادى . وتنفصل هذه الجزر الاقتصادية عادة بمناطق متسعة ، اقتصادها شديد التخلف . ويتركز النشاط الاقتصادى فى ثلاث مناطق رئيسية هى المناطق الساحلية التى تأخذ أهميتها — أو جزءاً كبيراً من هذه الأهمية — من قربها من البحر والموانى . ثم المناطق المدارية المرتفعة حيث التربة جيدة والمناخ مناسب — وهى المناطق التى استوطن الاوربيون بعض مناطقها . ثم مناطق التعدين والمدن الصناعية. وتشغل هذه الجزر الاقتصادية جميعاً حوالى ٤./٠ من مساحة إفريقية المدارية — ولكنها تنتج حوالى ٨٥ ./٠ من قيمة انتاج هذه المناطق (١) .

مشاكل التطور الاقتصادى :

وعلى ضوء استعراض هذه العوامل والظروف الاقتصادية يمكن أن نشير إلى ثلاث ملاحظات هامة تؤثر تأثيرا كبيرا فى تحقيق النمو الاقتصادى — بل وفى تحقيق التعاون والتكامل الاقتصادى بين الدول الافريقية، وهى :

أولا — تخلف الاقتصاد الافريقى :

إن الاقتصاد الافريقى فى مجموعه متخلف تخلفا شديدا . فالاقتصاد الافريقى لا ينتج من البضائع والخدمات مايكفى حاجة الافريقيين ، وما يتناسب مع إمكانيات القارة ، ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا شمال إفريقية وعلى الأخص الجمهورية العربية

---

(١) W. A. Hance, op. cit., p. 5.

المتحدة ، كما ينطبق ذلك أيضا على اتحاد جنوب إفريقية . أما فى إفريقية المدارية فتنطبق عليها هذه الحقيقة انطباقا تاما . ولا يرجع هذا التخلف الاقتصادى إلى فقر الموارد الطبيعية ، أو إلى ضئالة امكانيات المستقبل ، ولكن التخلف فى إفريقية ناتج عن سوء توزيع كل من الموارد الطبيعية والموارد البشرية ، كما أنه ناتج عن عدم قدرة السكان فى كثير من مناطقها على استغلال الموارد الطبيعية المتاحة ، والتي يمكن تحويلها إلى موارد اقتصادية هامة . والحقيقة أن الافريقيين فى إفريقية المدارية من أقل شعوب العالم استغلالا لمواردهم الطبيعية — لأسباب متعددة سبقت الإشارة إلى بعضها . كما أن الاستعمار الأجنبي ، واستنزاف الشركات الاجنبية للموارد الافريقية وللجهد البشرى الأفريقى بأبخس الأثمان والأجور قد ساعد على تعميق وتجسيم واستمرار هذا التخلف .

ويمكن أن نشير فى هذا المجال إلى أن كثيرا من الدول الافريقية تعتمد اعتمادا يكاد يكون تاما على تصدير سلع أولية قليلة فى عددها — فحوالى ٩٣ ./. من قيمة صادرات السودان تتكون من القطن والصمغ العربى والفول السودانى ، و٦٠ ./. من قيمة صادرات أثيوبيا من البن والبذور الزيتية، وحوالى ٨٠ ./. من صادرات أوغنده من القطن والبن، وحوالى ٧٠ ./. من صادرات الكمرون من الكاكاو والبن، و٦٨ ./. من صادرات ليبيريا من المطاط ، وحوالى ٨٥ ./. من صادرات غمبيا من الفول السودانى . وتكاد تسيطر صادرات المعادن على تجارة زامبيا والكنغو . أما فى كينيا وملاجاشى ونيجيريا وجنوب إفريقية وتنجانيقا ودول شمال إفريقية فالصادرات أكثر تنوعا — وإن كان أغلبها من المنتجات الأولية [1] .

والواقع أن فى إفريقية ثروات طبيعية هائلة غير مستغلة ـ تنتظر من يبحث عنها ، ويعمل على استغلالها ، كما أن هناك مساحات واسعة للغاية من الأراضى القابلة للاستغلال والزراعة لم تتحول بعد إلى مناطق منتجة . كما أن أساليب العمل الزراعى فى المناطق المزرعة من شأنها إتلاف التربة وخفض إنتاجية الفرد وإنتاجية المساحة. كما ينقص الكثير من الأفريقيين الدوافع الاقتصادية التى تدفع بهم إلى استغلال

(١) John Phillips, op. cit., p. 313.

مواردهم أحسن استغلال . هذا إلى جانب أن بعض النواحى الاجتماعية أو الدينية السائدة بين بعض الجماعات الافريقية من شأنها أن تعوق استغلال بعض موارد الثروة استغلالا طيباً . كما أن عدم كفاءة المواصلات وسوئها فى كثير من المناطق – أمر يعزل المناطق ذات الامكانيات الاقتصادية عن المناطق التى يمكن استهلاك منتجاتها . هذا إلى جانب نقص الاحصاءات والمعلومات الاقتصادية والاجتماعية ، ونقص الخبرة الفنية والمشاكل الاجتماعية والحضارية والسياسية . وأخيراً عدم التوازن بين السكان وبين الموارد فى كثير من المناطق الافريقية . ونظراً لضغط السكان على الأرض – فان زراعة الغلات النقدية لم تسد فى كثير من المناطق . وقد أدى ذلك إلى هجرة الرجال من مناطق القبائل إلى المناطق الأخرى – وخاصة مناطق التعدين والصناعة . فنى زامبيا وروديسيا الجنوبية مثلا تصل نسبة الرجال الغائبين عن مناطقهم القبلية إلى حوالى ٤٠ ٪ وقد تصل إلى ٧٠ ٪ – وذلك لعدم توفر الغذاء والعمل فى هذه المناطق القبلية ، وتوفر النقود والمواد الغذائية فى مناطق التعدين والصناعة .

ثانيا – انخفاض الدخل القومى :

نتيجة لهذا التخلف الاقتصادى ينخفض نصيب الفرد من الدخل القومى فى إفريقية انخفاضا كبيراً . فباستثناء اتحاد جنوب إفريقية – التى يرتفع فيها نصيب الفرد من الدخل إلى أكثر من ٣٠٠ دولاراً فى العام فى المتوسط ، والذى يرجع ارتفاعه إلى الدخل المرتفع للغاية التى تتمتع به الأقلية الأوربية – نجد أن الدخل القومى فى الدول الإفريقية ينخفض انخفاضا كبيراً . ويكفى أن نذكر أن مجموع الدخل القومى لدول القارة الافريقية – وعدد سكانها ٩ ٪ من سكان العالم – لا يتجاوز ٢ ٪ من مجموع الدخل القومى لجميع قارات العالم ، ومعنى ذلك هبوط نصيب الفرد من الدخل القومى إلى أقل من ٢٥ ٪ من متوسط نصيب الفرد فى العالم ، ولا يقل عنها فى متوسط نصيب الفرد من الدخل سوى قارة آسيا المكتظة بسكانها .

ويختلف متوسط دخل الفرد فى إفريقية من مكان لآخر . فبينما يتراوح متوسط نصيب الفرد من الدخل فى القارة كلها بين ٥٠ و ٧٠ دولارا فى العام – ترتفع إلى أكثر من ٣٠٠ دولاراً فى اتحـــاد جنوب إفريقية ، وإلى قدر يتراوح

بين ١٠٠و٢٠٠ دولاراً فى العام فى الجزائر وغانا والمغرب وتونس ومالاجاشى وزامبيا والجمهورية العربية المتحدة . ويتراوح الدخل للفرد بين ٥٠و١٠٠ دولاراً فى الكنغو ونيجيريا والسودان وأوغنده وغمبيا . ويقل عن ٥٠ دولاراً للفرد فى العام فى باقى الدول الافريقية[1] .

ولسنا فى حاجة إلى تأكيد العلاقة الوثيقة بين مستوى الدخل وبين توفر رأس المال اللازم للتطوير الاقتصادى ، وتطوير النقل والخدمات الأخرى . ذلك أنه مما يسبب العجز فى تركيم رأس المال وتوفره فى الدول الافريقية نقص المدخرات لدى الأغلبية العظمى من السكان ـ نتيجة لسوء توزيع الدخل القومى والملكية الزراعية ـ وخاصة فى الدول التى نكبت بالاستعمار الاستيطانى والاستغلالى كاتحاد جنوب إفريقية وروديسيا الجنوبية وزامبيا وكينيا وكاتنجا بالكنغو وما إليها ـ إذ يتركز معظم الدخل فى يد العناصر والشركات الأوربية التى تمتلك المناجم والمزارع الواسعة ، وقلما يساهم هؤلاء فى تطوير إفريقية الاقتصادى ، أو يعملون على تحقيق التعاون الاقتصادى الافريقى . أما العناصر الافريقية ففقيرة ، قليلة الادخار ، تقبل على مزيد من استهلاك السلع ـ التى لم يكونوا يستهلكونها من قبل ـ وذلك لو توفرت لديهم الأموال اللازمة لمثل ذلك الاستهلاك ـ شأنهم فى ذلك شأن سائر الشعوب النامية والمتخلفة .

وقد حاولت بعض الدول الافريقية تكوين رأس مال محلى عن طريق الحد من الاستهلاك فى الداخل ، والحد من استيراد السلع الكمالية وبعض السلع الاستهلاكية نصف الكمالية من الخارج ـ لتحصل على رأس المال الأجنبى فى صورة آلات وسلع إنتاجية وخبرة فنية ، بتصدير خاماتها الزراعية والمعدنية الكثيرة . ولكن المشكلة الأساسية هى سيطرة بعض الشركات على اقتصاديات بعض البلاد المنتجة للمعادن أو للمنتجات الزراعية الهامة . ولا شك كذلك أن انخفاض انتاجية الفرد تسبب قلة فى الفائض من المواد الغذائية أو السلع التجارية فى معظم الأحيان ، ثم أن الاعتماد على تصدير سلعة واحدة أو سلع قليلة فى عددها كثيراً ما يسبب مشاكل

---

(١) انظر تقرير الأمم المتحدة (سنه ١٩٦١) ص ٢٩ — ٣٠

اقتصادية كثيرة بسبب عدم استقرار أسعار السلع الأولية ، وبسبب التغير فى أحوال التجارة الخارجية .

وقد اعتمدت بعض الدول الإفريقية فى تطورها الاقتصادى الحديث على القطاع العام اعتمادا كبيرا ، ومساهمة القطاع العام فى التطور الاقتصادى فى الدول النامية والمتخلفة أمراً ضروريا للغاية . وفى سنة ١٩٥٦ مثلا ـ وقبل الاجراءات الاشتراكية المعروفة فى الجمهورية العربية المتحدة ـ ساهم القطاع العام بحوالى ٦٣٪ من جملة الاستثمارات فى الجمهورية العربية المتحدة . وساهم بأكثر من ٥٠٪ فى كل من السودان ونيجيريا وغانا . وتراوح نصيبه بين ٤٠ و ٥٠٪ فى اتحاد جنوب إفريقية وأوغنده وتنجانيقا والكنغو . وتراوح بين ٣٠ و ٤٠٪ من جملة الاستثمارات فى كل من مالاوى وروديسيا الجنوبية وزامبيا والمغرب ـ وهكذا . ونصيب القطاع العام فى الاستثمارات الإفريقية فى تزايد مستمر .

وقد اعتمدت كثير من الدول الإفريقية بعد الاستقلال على الإستثمارات الأجنبية والقروض والمساعدات . وساهمت الولايات المتحدة بأكبر نصيب منها ـ إذ وصل مجموع استثماراتها فى إفريقية حتى سنة ١٩٥٧ إلى ١٢٠٠ مليون دولارا ، وبلغت قروضها للدول الإفريقية ٣٠٫٣ مليون دولارا ، كما وصلت مساعداتها ومنحها للدول الإفريقية حوالى ٤٨٫٦ مليون دولارا فى نفس العام . وقدرت جملة مساعدات الولايات المتحدة للدول الإفريقية بين سنتى ١٩٤٨ و ١٩٥٦ بحوالى ٧٣٧ مليون دولارا . وقد تضاعف هذا الرقم فى الوقت الحاضر . أما بريطانيا فقد قدمت حتى آخر عام ١٩٥٧ حوالى ٥٣٫٧ مليون جنيها استرلينيا لتمويل مشروعات مؤسسة إنماء المستعمرات البريطانية . ووصلت جملة الاستثمارات الفرنسية فى إفريقية سنة ١٩٥٧ إلى حوالى ١٩٠ مليون فرنك فرنسى جديد وهكذا[1] .

وبالرغم من أهمية المساعدات والقروض والاستثمارات فى التنمية الاقتصادية فانها بالنسبة لكثير من الدول الإفريقية محدودة فى مقدارها ، صعبة فى الحصول عليها ، بعضها يؤثر بلا شك فى استقلال الدولة السياسى أو الاقتصادى . والواقع أن رأس المال الأجنبى قلما يأتى إلى الدولة الافريقية إلا إذا وجد من التسهيلات

(1) انظر تقرير هيئة الامم المتحدة صفحات ٤٠٥ ، ٥١٢ ، ٥١٧ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤ .

والارباح والضمان ما يشبع نهمه ـ وهو أمر قد لا يكون متيسراً فى جميع الأحوال فقد تضطر بعض الدول إلى اتخاذ اجراءات معينة من شأنها تدعيم الاقتصاد القومى ـ وهى اجراءات قد تضر برأس المال الاجنبى . ثم أن تحويل الارباح الناتجة عن استثمار رأس المال الاجنبى إلى الدول المصدرة لرأس المال يمنع الدول الافريقية من الاستفادة من هذه الأرباح فى تحقيق مزيد من التطور الاقتصادى. وقد يكون لانشاء بنك التنمية الافريقى والبنك العربى الافريقى تأثيراً كبيراً فى تحقيق مبدأ الكفاية الذاتية بالنسبة لتمويل المشاريع الاقتصادية والخدمات العامة .

ثالثا ـ انخفاض التبادل التجارى بين الدول الافريقية :

من استعراض جداول التبادل التجارى بين الدول الافريقية نجد أن العلاقات التجارية بين الدول الافريقية تتسم بالضئالة والقلة ـ إذ تجرى معظم عمليات التبادل التجارى الافريقى مع بلدان غير إفريقية ـ معظمها أوروبية ـ مما يجعل الكثير من الدول الافريقية اوثق ارتباطا فى علاقاتها الاقتصادية بالدول الاوربية منها بالدول الافريقية ، وتعتمد كثير من الدول الافريقية على الدول الاوربية فى مدها بأنواع معينة من الخدمات والخبرة الفنية التى تنقصها .

والواقع أن نسبة التبادل التجارى الذى يجرى بين البلاد الافريقية بالطرق التجارية العادية قليل للغاية . والنسبة بين مجموع تجارة الوازدات والصادرات مع البلدان الافريقية وبين مجموع التجارة مع جميع بلدان العالم تتراوح بين حد أدنى لا يتجاوز ١ ٪ فى حالة كل من نيجيريا ومالاجاشى ، وتزداد إلى ٣ر٦ ٪ فى حالة الجمهورية العربية المتحدة ، ثم إلى ٢ر٤ ٪ فى حالة غانا و٨ر٤ ٪ فى حالة كل من اثيوبيا وانجولا ، و ٦ ٪ فى حالة كل من كينيا والكنغو وتونس ، ثم إلى ٥ر٧ ٪ فى حالة كل من الجزائر والمغرب ، وترتفع إلى ٢ر١٣ ٪ فى حالة السودان ، و ٤ر١٤ ٪ فى حالة اتحاد جنوب افريقية . وإذا أخذنا افريقية ككل لوجدنا أن التصدير فيما بين الدول الافريقية يبلغ حوالى ١١ ٪ من مجموع صادرات القارة إلى سائر دول العالم ، وأن الاستيراد فيما بينها يبلغ حوالى ٨ ٪ بمتوسط قدره ٥ر٩ من مجموع تجارة الصادر والوارد [1] .

---

(١) تقرير هيئة الامم المتحدة (سنة ١٩٦١) ص ٤ — ٥

ويمكن القول أن ٩٠٪ على الأقل من التبادل التجارى المسجل للقارة يتم مع بلدان من خارج القارة . وإن كان من غير المستبعد وجود نوع من التبادل التجارى غير المسجل بين الدول الإفريقية على طول حدودها الطويلة . وتجارة إفريقية المدارية ـ بصفة خاصة ـ قليلة للغاية ، إذ لا تتجاوز ٣٪ من قيمة الصادرات العالمية ، ٣ر٣٪ من قيمة واردات العالم (١) .

ويمكن إرجاع ارتباط الدول الإفريقية تجاريا مع الدول الأوربية الى عوامل كثيرة منها ارتباط الاقتصاد الإفريقى بالاقتصاد الاوربى الصناعى منذ عهد الاستعمار ـ وهى صلات استمرت بعد أن حصلت أغلب الدول الافريقية على استقلالها . كما يمكن إرجاعه كذلك إلى ارتباط كثير من الدول الافريقية بالاتحادات الاقتصادية الاوربية كالكمنولث البريطانى والاتحاد الفرنسى والسوق الاوربية المشتركة ، أو إلى ارتباطها بالمناطق النقدية الاوربية ـ وخاصة منطقتى الاسترلينى والفرنك الفرنسى ـ مما سهل من إجراء التبادل التجارى ضمن تلك المنطقة ، وخاصة بعد وضع القيود على القطع فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبعد إنشاء اتحاد المدفوعات الاوربى ـ مما زاد من تعزيز العلاقات الاقتصادية بين الدول الافريقية والدول الاوربية فى صادراتها ووارداتها وقروضها واستثماراتها .

وفى نفس الوقت بدأت بعض الدول الافريقية تجد من التسهيلات التجارية والائتمانية السوفيتية ما جعلها تزيد من علاقاتها التجارية بشرق أوربا وخاصة الاتحاد السوفيتى ، كما كان للنمو الصناعى السريع فى اليابان ، وشدة انخفاض أسعار السلع اليابانية أثره فى زيادة المشتروات من هذه الدولة ، وشجع على ذلك انخفاض واردات بعض الدول الإفريقية من بعض السلع الاستهلاكية ـ كالمنسوجات مثلا ـ واتجاه مثل هذه الدول نحو الاهتمام باستيراد الآلات .

وقد بدأ النفوذ الاقتصادى الأمريكى فى القارة الافريقية منذ الحرب الثانية ـ عندما وضع مشروع مارشال ، وزاد هذا النفوذ الاقتصادى منذ سنة ١٩٥٠ عن طريق إدارة التعاون الاقتصادى الأمريكى التى مولت معظم المشاريع الافريقية ـ وخاصة إنشاء الطرق . كما نفذ برنامج المعونة الفنية ـ أو ما يسمى بالنقطة الرابعة

---

(١) G. H. T. Kimble, op. cit., Vol. I, p. 419.

فى بعض الدول الافريقية منذ الحرب العالمية الثانية . ولا شك أن المعونة الأمريكية ـ والتى سبقت الاشارة إلى ضخامتها ـ قد زادت من تجارة كثير من الدول الافريقية مع الولايات المتحدة ـ وخاصة بالنسبة للخامات الزراعية والمعدنية .

امكانيات التكامل الاقتصادى بين الدول الافريقية

تظهر لنا الملاحظات الثلاث السابقة بوضوح أن هناك بعض المشاكل التى تؤثر ـ وقد تعرقل ـ فى تحقيق التكامل الاقتصادى التام بين الدول الافريقية . ذلك أنه بالرغم مما يكمن فى الانتاج الافريقى من إمكانيات هائلة للتعاون الاقتصادى بين الدول الافريقية ـ فان تحقيق التكامل الاقتصادى بين الدول الافريقية لا بد أن تسبقه الكثير من الاجراءات والتنظيمات الاقتصادية والسياسية . والواقع أنه لا يمكن تحقيق تكامل اقتصادى بين دول افريقية ذات اقتصاديات متخلفة ، لأنها جميعاً تتشابه فى إنتاجها للمواد الأولية التى تستهلك فى الدول ذات الاقتصاديات المتطورة . وبذلك يعتمد كل منها على الاقتصاديات المتطورة . كذلك لا يمكن أن يكون هناك تكامل اقتصادى بين اقتصاد شديد التطور كاقتصاديات دول غرب أوربا والولايات المتحدة وبين اقتصاد متخلف وبطىء النمو كالاقتصاد الافريقى ـ ذلك لأن الاقتصاد المتخلف قد يرتبط ارتباطا وثيقا بالاقتصاد المتطور ، ولكنه غالبا ما يكون تابعا له ، خاضعاً لمشيئته . وبين التبعية الاقتصادية والتكامل الاقتصادى فرق كبير للغاية . وعلى ذلك يمكن أن نشير إلى بعض الاجراءات التى يمكن اتخاذها لتحقيق الوحدة الاقتصادية والتكامل الاقتصادى بين الدول الإفريقية .

أولا : يجب وضع خطط شاملة للتطور الافريقى لجميع الدول الافريقية أو لأغلبها لتصل إلى درجة متقاربة من النمو الاقتصادى ، على أن يكون هناك نوع من التخصص لكل إقليم أو لكل منطقة فى إنتاج السلع التى تتوفر لها مقومات انتاجها الأساسية ، وأن تكون لهذه السلع أسواقاً مضمونة . ولذلك فامكانيات التكامل الاقتصادى مرتبطة أوثق الارتباط بامكانيات التطور الاقتصادى لكل دولة إفريقية فى إطار التطور الافريقى العام .

ثانياً : تتطلب التنمية الاقتصادية للدول الافريقية حل مشكلة نقص الأيدى العاملة فى بعض المناطق الغنية بمواردها الطبيعية القابلة للاستغلال ، وذلك عن

طريق السماح بالهجرة من المناطق الافريقية المزدحمة بالسكان ـ التى تضيق مواردها عن إعالة سكانها الكثيرين . كما يجب استخدام أساليب العلم الحديث لاستغلال الأرض واستغلال البيئة استغلالا طيبا بما يتوفر حالياً من أيد عاملة .

ثالثاً : ما دام العدد الاكبر من القوى العاملة فى افريقية يعمل بالزراعة ـ كان تحسين أساليب الزراعة من الزم الأمور ، وتوسيع رقعة الأرض الزراعية وزيادة الانتاج الزراعى من أهم الضرورات . والواقع أن التطور الزراعى فى بعض المناطق المدارية تقف فى وجهه كثير من الصعوبات ، ولكن بالعزيمة والصبر وتكاتف الدول الافريقية ، وباستخدام الآلات والاساليب العلمية الحديثة يمكن التغلب على مثل هذه الصعوبات . كما أنه يجب أن تحاول الدول الافريقية زيادة إنتاجها من المواد الغذائية ما أمكن .

رابعاً : فى مناطق السافانا يمكن الاكثار من أعداد الحيوانات بعد القضاء على ذباب تسى تسى وعلى أمراض الحيوانات . ويعتمد التطور الرعوى فى المناطق شبه الجافة على تحسين موارد الماء وتوزيعها فى المناطق الرعوية ، كما يجب العناية بالسلالات الحيوانية ، وبمنتجات اللحوم والألبان والجلود والصوف .

خامسا : تطوير الصناعات التحويلية التى تتوفر لها مقوماتها الأساسية ـــ وخاصة وأن إمكانيات التطوير الصناعى كبيرة للغاية ـــ فالخامات الزراعية والمعدنية متوفرة وفائضة ، والقوى المحركة يمكن استنباطها من الفحم أو البترول أو من القوى المائية الكامنة الضخمة . أما رأس المال فيمكن الحصول عليه من تصدير الفائض من الخامات الزراعية ، أو من الخامات المعدنية ـــ وخاصة لو تحررت صناعة التعدين من السيطرة الأجنبية ، مع الاقلال بقدر الامكان من استيراد السلع الاستهلاكية ـــ وخاصة الكمالية منها .

سادسا : لن يكتب لمشروعات التطور الاقتصادى أى نجاح إلا إذا ارتبطت بها مشروعات هامة وكبيرة لمد شبكات الطرق والسكك الحديدية والقنوات الملاحية فى داخل كل دولة ، وبين كل دولة وأخرى . وقد فكرت بريطانيا أثناء سيطرتها على كثير من الدول الافريقية فى ربط جميع مستعمراتها بالسكك الحديدية والطرق والقنوات الملاحية ، ونجحت فى ذلك إلى حد كبير ـــ لخدمة أغراضها الاقتصادية

والاستراتيجية ، وأولى بالدول الافريقية أن تعطى لهذا الموضوع ما يستحقه من عناية وأولوية .

سابعا : يتطلب كل ذلك توفر موارد مالية ضخمة قد لا تتوفر لكثير من الدول الافريقية فى الوقت الحاضر . ولكن إلى أن يحين الارتفاع بمستوى المعيشة ، والارتفاع بالقدرة على الادخار — يمكن للدول الافريقية اتخاذ إجراءات معينة للحد من الاستهلاك ، وتشجيع استيراد السلع الإنتاجية ، وتشجيع الاستثمار فى المشاريع الاقتصادية .

ثامنا : بعد عمليات التطوير الاقتصادى هذه يمكن أن تزداد العلاقات التجارية بين الدول الافريقية . فالمناطق الاستوائية بمنتجاتها المتنوعة كالكاكاو وزيت النخيل والمطاط والتوابل ومواد العقاقير . والمناطق المدارية بمحاصيلها الغذائية والتجارية كالأرز والذرة وقصب السكر والشاى والبن والقطن ، ومناطق البحر المتوسط بانتاجها من القمح والموالح والزيتون ، ومناطق الرعى بانتاجها الحيوانى الضخم ، ومناطق الغابات بمنتجاتها الخشبية ، ومناطق التعدين بانتاجها الضخم من المعادن المتنوعة — كلها تكون أساسا ممتازا للتكامل الاقتصادى لو أحسن استغلال هذه الموارد ، وزادت العلاقات الاقتصادية بين الدول الافريقية .

تاسعاً : ومع ذلك فليس هناك ما يمنع فى الوقت الحاضر من إنشاء ما يشبه السوق الافريقية المشتركة ـ ترفع فيه الحواجز الجمركية على المنتجات الافريقية ـ فتزداد كماً وتتحسن نوعاً . كما أنه ليس هناك ما يمنع من إنشاء وحدات اقتصادية صغيرة متكاملة تتفق مع الحقائق الجغرافية : الطبيعية والبشرية ـ مع تحقيق انسجام وتعاون بين هذه الوحدات .

عاشراً وأخيراً : ليس تحقيق التطور الاقتصادى وايجاد نوع من التكامل الاقتصادى بين الدول الافريقية بالأمر الهين ـ لأنه باختصار يتطلب تغييراً جذريا لكثير من مظاهر البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، كما يتطلب ثورة فى التفكير الاقتصادى الافريقى ، والبعد بقدر الامكان عن التفكير الاقتصادى التقليدى . وفوق ذلك كله يتطلب نوعا من الوحدة أو الاتحاد السياسى بين الدول الراغبة فى تحقيق مثل هذا التكامل والتعاون الاقتصادى .

وقد تبدو مثل هذه الأمور بعيدة عن التحقيق فى وقتنا الحاضر ـ ولكن من يدرى ؟ فقد تتحقق فى المستقبل القريب .

بعض المراجع الهامة

— BARBOUR, K. M. and PROTHERO, R. M. (Editors), Essays on African Population, London, 1961.

— BARBOUR, NEVILL, A Survey of North West African, The Maghrib, London, 1959.

— BATTEN, T. R., Problems of African Development, London, 1960.

— CLARK, LE GROS and OTHERS, The New West Africa : Problems of Independence, London, 1953.

— FITZGERALD, W., Africa, A Social, Economic and Political Geography of its Major Regions, London, 1948.

— HAILEY, LORD, An African Survey, Revised 1956 : A Study of Problems Arising in Africa South of the Sahara, London, 1957.

— HAINES, C. G. (Editor), Africa Today, Baltimore, 1955.

HANCE, W. A., African Economic Development, London, 1961.

— HAZLEWOOD, A., The Economy of Africa, London, 1961.

— HUNTER, GUY, The New Societies of Tropical Africa, London, 1962.

— KIMBLE, GEORGE, H. T., Tropical Africa, New York, 1962.

Vol. I, Land and Livelihood.

Vol. II, Society and Polity.

— PETCH, G. A., Economic Development and Modern West Africa, London, 1961.

— PHILLIPS, JOHN, Agriculture and Ecology in Africa, London, 1959.

— STAMP, L. DUDLEY, Africa : A Study in Tropical Development, New York, 1952.

— THOMPSON, V. and ADLOFF, R., The Emerging States of French Equatorial Africa, London, 1961.

« الوديعة » فى القانون الإتيوبى

ፍትሐ፡ ነገሥት፡

للدكتور عبد السميع محمد أحمد

مقـدمة :

يتناول هذا البحث دراسة باب « الوديعـــة » من القانون الإتيوبى ፍትሐ፡ ነገሥት፡፡ ، ذلك القانون الذى يعد ترجمة طيبة للمجموع الصفوى ، لابن العسال[1] ، وكانت ترجمته استجابة لطبيعة الصلات التى تربط الكنيسة الأرثوذكسية فى الإسكندرية والحبشـة منذ القرن الرابع لميـلاد المسيح (عليه السلام) .

وباب الوديعة أحد الأبواب الهامة التى عالجت مسائل «المعاملات» ، كالمبايعات ، والإجارات ، والشركة ، والهبة ، وغيرها مما يمس شئون الناس فى حياتهم الرتيبة . وبعض هذه المسائل مستمد من أصول مسيحية ؛ فان هذا القانون كان يعد جامعاً للتشريعات التى يحتاجها من يعتنق الديانة المسيحية من أهل مصر . وبعضها ، وهو الكثير الغالب ، مستمد من مصادر إسلامية ؛ فان التشريع الذى كانت تدين به مصر إبان جمع هذا القانون ، كان التشريع الإسلامى .

وكان نقل هذا القانون من اللغة العربية إلى اللغة الجعزية عملا أدبيا هاما يحتاج إلى الدرس والتعمق ، والتعرف على مدى إصابة هذا النقل ، وما يكون قد خضع له من عوامل راجعة لطبيعة اللغتين ، أو لحاجة من ترجم لهم .

---

(1) انظر فى التعريف بابن العسال ، لكاتب هذا البحث : ፍትሐ፡ ነገሥት፡፡ ص ٢ ، وما بعدها ، طبع بمطبعة جامعة القاهرة .

ومن أجل ذلك شملت الدراسة جوانب ثلاثة :

الأول : دراسة موضوعية لباب الوديعة ، تبين صلته بمصادره الأولى ، ومدى مسايرته لها واختلافه معها ، ومحاولة التعرف على الآثار الشخصية لجامعه ، ومترجمه ، والوضع القانونى لهذا جميعه .

الثانى : دراسة لغوية مقارنة للنصين : العربى والإتيوبى ، استهدفت أمرين :

(ا) التعرف على المزيدات فى أحد النصين المفتقدة فى الآخر ، وأثر هذا من الناحية التشريعية .

(ب) دراسة ما قد يكون فى الترجمة الإتيوبية من مخالفات للنص العربى ، ذات أثر أو غير ذات أثر لغوى أو تشريعى .

الثالث : وكان من المفيد بعد ذلك كله ، أن يعاد نشر النص العربى نشراً علمياً يحقق الغرض من هذه الدراسة ، التى أرجو أن تكون مثمرة ، إن شاء الله .

— ١ —

الدراسة الموضوعية

تمهيد :

يضع القانون الإتيوبى ፍትሐ፡ ነገሥት :: باب « الوديعة » بعد باب «العارية» ، وهما من أبواب المعاملات ، ويجمعهما أكثر من سبب ، فالعارية أمانة ، وإن كانت تمليك المنفعة بغير عوض ، والوديعة أمانة ، ولكن دون تمليك . وهما عقدان من عقود الالتزام ، لا بد فيهما من توافق إرادتين توافقاً يترتب عليه أثر قانونى ، هو ملك المنفعة فى العارية ، وحق الاستحفاظ فى الوديعة .

وتختلف كتب التشريع الإسلامى فى وضع هذين البابين بين أبواب المعاملات . فالقدورى (٤٢٨ ﻫ) ، والسرخسى (٤٨٣ ﻫ) ، والكاسانى (٥٨٧ ﻫ) ، والميرغينانى (٥٩٣ ﻫ) ـ من الحنفية ، والشيرازى (٤٧٦ ﻫ) ـ من الشافعية ، وابن رشد (٥٩٥ ﻫ) ـ من المالكية ، يقدمون باب الوديعة على باب العارية . والطحاوى

(٣٢١ هـ) - من الحنفية ، والمزنى (٢٦٤ هـ) - من الشافعية ، يقدمان باب العارية على باب الوديعة .

وتحاول بعض الكتب التعليل لما سارت عليه من ترتيب . « فالوديعة أمانة بلا تمليك شيء ، وفى العارية تمليك المنفعة بلا عوض ، وفى الهبة تمليك العين بلا عوض ، وفى الإجارة تمليك المنفعة بعوض ... فكان فى الكل الترقى من الأدنى إلى الأعلى[١] » . غير أن الناظر فى القانون الإتيوبى ، وهو يتابع أصله العربى : « المجموع الصفوى » لابن العسال ، لا يجد أمثال هذه التعليلات سائرة فيه على مدى الطريق .

ويصرح القانون الإتيوبى فى بدء حديثه عن الوديعة ، بأنها مأخوذة من القوانين المعروفة بالتطلسات ، وما حمل عليها وقيس على آرائها فيقول :

ወስ፡ ፲ ወ ፰ ወኅቱሉ፡ ዘተወሰከ፡ ላዕሌሁ፡፡[٢]

غير أنه لا شيء فى هذه القوانين ، ولا فى المجموعة المعروفة بقوانين الملوك ، يفيد فى الحديث عن الوديعة وأحكامها . ومن ثم وجب التماس مصادر باب الوديعة فى غيرها من المصادر الكنسية المسيحية ، أو المصادر الإسلامية التى تعود ابن العسال أن يعيش معها ويستفيد من أحكامها ، مما سيتكفل بجلائه هذا البحث .

(١) المصادر المسيحية

لم يرد لفظ « الوديعة » فى العهد القديم ، ولكن ورد به ما يؤدى مدلوله ، وهو لفظ : « حفظ » . جاء فى سفر الخروج : « إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ ، فسرقت من بيت الإنسان ، فان وجد السارق يعوض باثنين . وإن لم يوجد السارق ، يقدم صاحب البيت إلى الله ليحكم : هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه ... [٣] » .

---

(١) قاضى زاده : نتائج الأفكار فى كشف الرموز والأسرار ، وهى تكملة « فتح القدير » للكمال بن الهمام . وكذلك : البابرتى : شرح العناية على الهداية : ٧ : ٨٨

(٢) فتح نجشت : ٣/٢/١٩٠ . وسيشار الى هذا المصدر فيما يلى بالرمز : ش .

(٣) خر ٢٢ : ٧ - ١٣

وورد لفظ الوديعة فى العهد الجديد ، فى غير هذا الهدف الذى تقصده كتب التشريع والقوانين : بابا من أبواب المعاملات ، وإنما جاء بمعنى « **الأمانة** » التى تحملها الرسل الحواريون والتلاميذ لصيانتها ، وتبليغها إلى الناس : وصايا الحياة الدائمة الرامية إلى نفع البشر : « ياتيموتاوس . احفظ الوديعة معرضاً عن الكلام الباطل الدنس ومخالفات العلم الكاذب الاسم . الذى إذ تظاهر به قوم زاغوا من جهة الإيمان [1] » .

وإذا كان العهد الجديد لم يعن بتوضيح الأحكام التشريعية التى تفيد الناس فى حياتهم الدنيوية العملية ، مكتفياً بما جاء فى ناموس موسى ، أو بما ترتبه قوانين البلاد التى يعيش بها أتباع المسيح (عليه السلام) ، فان ما جاء خاصا بأحكام الوديعة فى العهد القديم ، لا يفى بسائر مقتضيات هذه الحياة .

ومن أجل ذلك ، كان لا بد من تلمس المنابع الأخرى لأحكام الوديعة ، فى تشريعات البلاد ، أو فى قوانين عدتها الكنيسة بين ما تعتد به من مصادرها .

والقوانين المنسوبة إلى «جستنيان» والتى تضمها «مدونته» ، لا تتحدث بتفصيل عن أحكام الوديعة كذلك ، وإنما تشير إليها فى ثنايا حديثها عن قضايا غيرها . وسترد فى أثناء هـذا البحث ، الإشارة إلى هذه الأحكام الواردة فى المدونة ، عند معالجة مسائل الوديعة بالتفصيل .

وإنما خصصت « مدونة جستنيان » ، لأن رجال القانون فى عصره ، استفادوا مما سنه رجال الدين فى عهود من سبقه من الملوك ، ومس شئون الحياة المدنية ، وأصبح مما يمكن أن يلجأ إليه من تشريعات البلاد . وربما رأى بعض رجال الدين الاسترشاد بما جاء بها ، استنادا إلى سبق تأثرها بما قرره رجال الكنيسة فى مجامعهم المسكونية .

وإذا ضم جميع ذلك بعضه إلى بعض ، أمكن القطع بأنه لم يكف لأن يستمد منه ابن العسال مجموعه ، ومن ثم كان له مندوحة فى أن يتجه إلى تشريع البلاد التى عاش بها ، فوجد فى كتب الفقه الإسلامى كل ما أراد .

---

(١) ١ تى ٦ : ٢٠ — ٢١

(ب) المصادر الاسلامية

يعالج القانون الإتيوبى مسائل الوديعة علاجاً يأتى على كثير من النقاط التى ينتظر أن تثار فى قانون مدنى ، وعلى نهج غير ما وجد فى المصادر المسيحية وما اتصل بها ، مع وجازة ما ورد بها فى هذا الصدد . وقد تبين بوضوح ، وقد عاش الجامع الأول للقانون ، وهو ابن العسال ، فى بيئة تدين بأحكام التشريع الإسلامى ، ويستمع إلى آرائه جميع من يحتكمون إليه من سكان هذه البيئة ـ تبين أنه استفاد كل الاستفادة من كتب التشريع الإسلامى على اختلاف آراء علمائه وتعدد مذاهبهم . غير أن تأثره بالمذاهب الأربعة المشهورة ، خاصة مذهب الشافعى ، ومذهب أبى حنيفة ، كان بادى المعالم . ويمكن القول إن كتباً بعينها تعالج قضايا الفقه الإسلامى متبعة هذين المذهبين ، أثرت فى هذا القانون أبلغ التأثير ، وقد وضح هذا فى الدراسة المفصلة لأبواب : « القرض ، والرهن ، والضمان والكفالة(1) » ، و « المبايعات (1) » ، و « الهبة (2) » ، كما ستتكفل الدراسة فى هذا البحث ، بجلاء ذلك فى موضوع : « الوديعة » .

الوديعـة

عقد الوديعة :

يفيد المفهوم اللغوى للفظ « الوديعة » فى بعض معانيه : الترك ، والصيانة والحفظ . وجميع هذا يراد فى المفهوم الاصطلاحى لهذه اللفظة ، فالمودع يترك ماله لدى شخص آخر بقصد حفظه وصيانته .

ويقابل هذا فى الإتيوبية مادة : : ሐፀነ ومشتقاتها . فالفعل : ሐፀነ من معانيه : حفظ ، صان، ربى (الطفل) ورعاه . والاسم منه : : ማኅፀንት و : ማኅፀን . واللفظة

---

(1) انظر : فتح نجشت : ١٣٢ ــ ١٩٢ ، الذى طبع بمطبعة الجامعة .

(2) انظر لكاتب هذا البحث : « الهبة فى القانون الاتيوبى » . مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة : المجلد ٢١ ، العدد الثانى ــ ديسمبر سنة ١٩٥٩ ، الصادر فى سنة ١٩٦٣ .

الأخيرة تطلق على الشيء المحفوظ : الوديعة . والفعل الرباعي : አማሕፀነ معناه : أودع ، استحفظ . ومن ثم يرد هذا التعريف لمعنى الوديعة الاصطلاحي ، الذي جاء في القانون الإتيوبي ، وهو :

ማሕፀንትሰ፡ ንዋይ፡ ይእቲ፡ ዘይሁብ፡ አማሕፃኒ፡ ለዘያማሕፅና፡ ከመ፡ ይዕቀብ፡ ሎቱ፡ ዘእንበለ፡ ከፀበት፡ እምኔሁ፡ ጊዜ፡ አግብአታ።(١)

وترجمته : الوديعة هي الشيء الذي يدفعه المودع للمودع عنده ، ليحفظه له بغير عوض حين استعادته . وهذا التعريف يتحدث عن العناصر الواجب توافرها عند الارتباط بعقد الوديعة ، وهي : المودع ، والمودع عنده ، ومحل الوديعة ؛ كما يتحدث عن موجب هذا العقد ، وهو : الحفظ دون تبعة تقابله يتحملها المودع ، ولكنه لا يعرض لأساس العقد وماهيته .

وتشير مواضع أخر من القانون إلى شيء يفيد في هذا المجال ، حين تتحدث عن ركن « القبول » ، الذي يصدر من المودع عنده ، بعد صدور ركن «الإيجاب» من المودع ، وترتب عليه أحكاما عدة . تقول :

ወለዘኒ፡ ተወክፉ፡ ይደልዎ፡ ከመ፡ ይዕቀብ፡ በዓቢይ፡ ጻህቅ።(٢)

وترجمته . ومن قبلها (أي الوديعة) ، لزمه حفظها بمزيد اهتمام . و :

ወዘኒ፡ ተወክፈ፡ ማሕፀንተ፡ ዘእግዚኡ፡ ወተመጠዋ፡ እምእደ፡ ሐዋርያሁ፡ እግዚኡ፡ ውእቱ፡ አማሕፃኒሃ፡ ወሎቱ፡ የሀብ፡ ወአኮ፡ ለሐዋርያሁ፡ ዘእንበለ፡ በትእዛዙ።(٣)

وترجمته : ومن قبل وديعة لمالكها من يد رسوله ، فمالكها هو المودع ، وله تسلم ، لا للرسول إلا بأمره . و :

ወዘኒ፡ ተወክፈ፡ ማሕፀንተ፡ እም ፩፡ ወይቤሎ፡ ከመ፡ ይመጥዋ፡ ለካልኡ፡ ይደልዎ፡ ይመጥዋ፡ ለገብሩ፡ ካልእ።(٤)

---

(١) ش : ٤/٢/١٩٠ .
(٢) ش ٨/٢/١٩٠
(٣) ش : ١٤/٢/١٩٢
(٤) ش : ١٩/١/١٩٢

وترجمته : ومن قبل وديعة من واحد ، على أن يسلمها لآخر ، فعليه أن يسلمها لذلك الآخر . و :

ወዘኒ፡ ተወክፈ፡ ማሕፀንተ፡ ወእምዝ፡ አእመረ፡ ከመ፡ አማሕፀኒሁ፡ ሰረቆ፡ አው፡ ተዓገላ፡ በኃይል፡ ይደሉ፡ ሎቱ፡ ከመ፡ ይትሌለዎ፡ በካዕ በቱ፡፡[1]

وترجمته : ومن قبل وديعة قد علم أن مودعها سرقها أو اغتصبها ، لزمه أن يغرم الضعف .

والنصوص السابقة كلها تشير إلى ركن « القبول » من المودع ، يصدر عنه قولا أو عملا ، بعد صدور الركن الأول : « الإيجاب » من المودع . وبهذين الركنين يتوفر أساس العقد ، متى صدرا ممن هما أهل لإصدارها ، حسب الشروط الواردة فى القانون .

ومعنى هذا أن الوديعة تندرج مع عقود الالتزام الناشئة عن ارتباط قانونى بين شخصين يملكان إبرام هذا الارتباط . ويتفق النص الإتيوبى إذاً مع غيره من التشريعات التى عالجت موضوع الوديعة ، ومن بينها كتب التشريع الإسلامى . يقول أبو إسحق الشيرازى فى كتابه : المهذب : « تنعقد الوديعة بما تنعقد به الوكالة من الإيجاب بالقول ، والقبول بالفعل[2] » . ويقول صاحب العناية : « . . . وركنها : أودعتك هذا المال ، أو ما قام مقامها فعلا كان أو قولا ، والقبول من المودع حقيقة أو عرفا ، فان من وضع ثوبه بين يدى رجل ، وقال هذا وديعة عندك ، وذهب صاحب الثوب ثم غاب الآخر وترك الثوب ثمة ، فضاع ، كان ضامناً[3] » .

العاقدان :

ا ــ والتحديد الاصطلاحى لمعنى الوديعة ، الذى ذكره النص الإتيوبى ، يتحدث عن العاقدين اللذين يباشران العقد ، ويترك الشروط الواجبة فيهما إلى عبارة موجزة ترد قرب نهاية مسائل الوديعة ، تقول : « ولا يصح الإيداع إلا من جائز التصرف

(١) ش : ٢١/٢/١٩٢
(٢) المهذب : ١ : ٣٦٢
(٣) العناية : ٧ : ٨٨

وبطلبه ، وعند جائز التصرف وبقبوله[1] » . وليست هناك أية إشارة أخرى فى هذا الباب إلى حدود « جواز التصرف » ، التى تقبل فى هذا الموضع ، وكذلك ليست فيه إحالة على موضع آخر لالتماسها . ومن الضرورى إذاً ، الاسترشاد بما ذكر عن العاقدين وشروطهما فى أبواب أخرى من أبواب المعاملات يمكن القياس عليها .

ففى باب الهبة ، وهو أول أبواب المعاملات فى هذا القانون ، حديث عن الواهب وشروطه ، حيث يقول : « لا تصح منه الهبة إلا إذا كان بالغاً رشيداً حراً مختاراً ، ليس عليه خوف من جهة الموهوب له [2] » .

وفى باب « القرض والرهن والضمان والكفالة » ، يقول : « ولا يجوز أن يكون المقرض والمقترض والمؤتمن على الرهن إلا من يجوز تصرفه [3] » ، ويقول : « أما ضمان المال ، فمن صح تصرفه فى ماله صح ضمان مال غيره [4] » .

وفى باب العارية يقول : « وكل من جاز تصرفه فى ماله جاز له أن يعير كل ماله أن يتصرف فيه ، وأن يستعير كل ما يجوز أن ينتفع مع بقائه محفوظ العين[5] » . وهذه النصوص كلها فى أبواب تسبق باب الوديعة ، وهى ، عدا ما جاء فى باب الهبة ، تتحدث عن « جواز التصرف » شرطا واجبا فيمن يباشر العقد ، وتترك تفصيل ماهية هذا الشرط . وإذا جاز اعتبار ما جاء فى باب الهبة صالحا فى هذا الموقف ، وجب أن تعرض له المناقشة هنا ، عسى أن يتحدد مفهوم « جواز التصرف » فى عقد الوديعة .

لا جدال ، فى رأى ابن العسال نفسه ، فى أن عقد الهبة يجب أن تلتمس له ضمانات خاصة ، تقديراً لآثاره ، وصيانة له من العبث . وإذا كان « المال » محك المعاملات ، ومدار صلاح المجتمع البشرى ورقى العمران ، اشترط فيمن يتولى

---

(١) ابن العسال : المجموع الصفوى : ٢٣٧
(٢) المجموع الصفوى : ٢٢٢
(٣) المجموع الصفوى : ٢٢٨
(٤) المجموع الصفوى : ٢٢٩
(٥) المجموع الصفوى : ٢٣٤

إدارته ، ومسائل الوديعة مما يدخل فى مجاله ، أن يكون أهلا للتصرف . ومن ثم لا تصح عقود الصبى ، والمجنون ، والسفيه ، ولا تقبل منهم الودائع لقصور الأهلية . فمن دفع ماله إلى صبى أو إلى مجنون أو إلى سفيه ، وديعة ، ثم ضاع المال ، فقد خرج عن الضمان . وينبغى ، إذا ما لوحظ تعبير ابن العسال السابق ، ألا يفرق بين حالى الصغير فى تمييزه وعدم تمييزه ، وكذلك بين أن يكون قد أذن له أو لم يكن قد أذن له . فكلامه فى باب الهبة سار على هذا النهج . والمسألة التى تردد فيها ابن العسال تبدو فى قوله : « وإذا وهب من هو دون البلوغ لأحد هبة ، فله أن يتكلم فيها من بعد بلاغه بأربع سنين ، ويعود يأخذ شيئه إذا أراد[1] » . فهو لا يقر تصرف الصبى ، بل لا يقره فى حضرة أبيه ، ولو كان ذلك « بأمره أو برائه » ، ويجعل الهبة للأب تقديراً[2] .

ويلاحظ أن القانون الرومانى كان يقر تصرفات الصغير إذا صدرت باذن وصيه فى مجلس العقد ، « فالمعاملات التى تترتب عليها التزامات متبادلة كالبيوع والإجارات والتوكيلات والودائع ، إذا خلت عن إذن الوصى ، فالمتعاقدون فيها مع القصر يكونون مرتبطين بالتزاماتهم ، وأما القصر فلا يصح لهم فيها التزام[3] » .

ويقبل رجال الفقه الإسلامى تصرفات الصغير المأذون ، فان ذلك من مستلزمات التجارة . يقول الكاسانى فى بيان شرائط المودع : « ... فلا يصح الإيداع من المجنون والصبى الذى لا يعقل ، لأن العقل شرط أهلية التصرفات الشرعية . وأما بلوغه ، فليس بشرط عندنا ، حتى يصح الإيداع من الصبى المأذون ، لأن ذلك مما يحتاج إليه التاجر ، فكان من توابع التجارة » . وكذلك الشأن فى المستودع ، « فلا يصح قبول الوديعة من المجنون والصبى الذى لا يعقل . . . وأما بلوغه فليس بشرط ، حتى يصح قبول الوديعة من الصبى المأذون . . . ألا ترى أنه أذن له الولى ، ولو لم يكن من أهل الحفظ لكان الإذن له سفها[4] » .

غير أن الشافعى (رحمه الله) لا يرى هذا الرأى ، فالصبى لا يملك التجارة ، فلا يملك توابعها . وقد عبر عن هذا الرأى ، الشيرازى فى كتابه : المهذب ، قال : «لا يصح

---

(١) المجموع الصفوى : ٢٢٣
(٢) المجموع الصفوى : ٢٢٤
(٣) مدونة جستنيان : ٤٢ — ٤٣
(٤) الكاسانى : بدائع الصنائع : ٦ : ٢٠٧

الإيداع إلا من جائز التصرف فى المال ؛ فان أودعه صبى أو سفيه ، لم يقبل ، كالبيع . . . ، ولا يصح الإيداع إلا عند جائز التصرف . . . فان أودع عند أحدهما (الصبي أو السفيه) ، فتلف عنده ، لم يضمن ، لأنه لا يلزمه فلا يضمنه[1] » .

وأوجز الشيرازى هذا الرأى مرة أخرى فى كتابه : « التنبيه » ، فقال : « لا يصح الإيداع إلا من جائز التصرف ، عند جائز التصرف [2] » . وهى نفس العبارة التى ارتضاها ابن العسال فنقلها إلى كتابه ، وقال : « ولا يصح الإيداع إلا من جائز التصرف وبطلبه ، وعند جائز التصرف وبقبوله [3] » .

واللفظان الزائدان فى عبارة ابن العسال : « وبطلبه ، وبقبوله » يؤكدان معنى الإرادة المتطلب فى العاقدين ، المستعدين لتحمل تبعات العقد ، ويشيران من جهة أخرى ، إلى ركنى العقد : الإيجاب ، والقبول .

وإذا أمكن حمل عبارة ابن العسال الموجزة ، على ما ذكره فى باب الهبة ، وحسب التوضيح السابق ، صح أن تلاحظ بقية الشروط الواردة فى عبارته كذلك . غير أن مسائل الوديعة عريت عن أى إشارة لعلاجها ، فحسن أن يكتفى بهذا القدر ، فى هذا المجال .

ومتى صدر العقد بطلب المودع ، وقبول المودع ، الحائزين أهلية التصرف ، تم ، وترتبت عليه آثاره ؛ فحق لصاحب الوديعة أن تحفظ له وديعته ، والتزم المودع أن يحفظها له ، على النحو الذى بينه القانون .

حفظ الوديعة :

(ا) لعل أول أثر من آثار إنشاء عقد الوديعة ، هو ثبوت حق الحفظ للمودع ، يكسبه دون أن يقابله عوض من جانبه ، حتى لو نص على ذلك كان مخالفا لمقتضى عقد الوديعة ، لا يعبأ به . وقد رأى ابن العسال ألا يترك الحديث عن حق المودع فى الحفظ دون أعباء تلزمه ، قبل أن ينص عليه صراحة ، فقال : « الوديعة هى

---

(١) الشيرازى : المهذب ١ : ٣٦١
(٢) الشيرازى : التنبيه : ١٢٦
(٣) المجموع الصفوى : ٢٣٧

الشيء الذى يدفعه المودِع للمودع عنده ، ليحفظه له بغير عوض إلى حين استعادته [1] » .

وهذا الحق نفسه يعد التزاما من جانب المودع لديه ، « لأن الإيداع من جانب المالك استحفاظ ، ومن جانب المودع التزام الحفظ ، وهو من أهل الالتزام[2] » . ويعبر رجال القانون عن هذا الموقف بقولهم : « الحق فى المعاملات مصلحة ذات قيمة مالية يقرها القانون للفرد ، وهو إما حق عيني ، أو حق شخصى . والحق الشخصى هو الالتزام . ويسمى حقا إذا نظر إليه من جهة الدائن ، والتزاما إذا نظر إليه من جهة المدين . . . [3] » .

ومن حق المودع لديه أن يختار طريق حفظ الوديعة ، بقدر اجتهاده ، وعلى الوجه الذى يرتضيه لحفظ ماله هو .

ولم يوضح ابن العسال مظان حفظ الوديعة ، مكتفيا بالعبارات العامة ، مثل قوله : « . . . حفظها بقدر اجتهاده ، والمصلحة عنده فى حفظ مثلها من ماله » ، ومثل : «حرز مثلها» . وكان يمكن ترك المسألة دون مناقشة ، لو لم يكن قد وضع بعض قيود فى مواضع متفرقة .

ورجال الفقه الإسلامي الذين أخذ عنهم ابن العسال ، يوضحون الموقف فى هذه المسألة . ويلخص ابن رشد الحفيد الرأى بقوله : « . . . فعند الجميع أنه يجب عليه أن يحفظها مما جرت به عادة الناس أن تحفظ أموالهم ، فما كان بينا من ذلك أنه حفظ اتفق عليه ، وما كان غير بين أنه حفظ اختلف فيه [4] » .

ويرى كثير من العلماء : « أن للمودع أن يحفظ الوديعة بيد نفسه ومن هو فى عياله ، وهو الذى يسكن معه ويمونه ، فيكفيه طعامه وشرابه وكسوته ، كائناً من كان ، قريبا أو أجنبيا ، من ولده وامرأته وخدمه وأجيره ، لا الذى استأجره

---

(١) المجموع الصفوى : ٢٣٤

(٢) البدائع : ٦ : ٢٠٧

(٣) عبد الرزاق السنهورى : الموجز فى النظرية العامة للالتزامات ١ : ٢

(٤) بداية المجتهد ١ : ٤٢٦

بالدراهم والدنانير ، وبيد من ليس فى عياله ممن يحفظ ماله بنفسه عادة كشريكه المفاوض والعنان ، وعبده المعزول عن بيته [1] » . ويعلل صاحب الهداية هذا بقوله : « . . لأن الظاهر أنه يلتزم حفظ مال غيره على الوجه الذى يحفظ مال نفسه ، ولأنه لا يجد بدا من الدفع إلى عياله ، لأنه لا يمكنه ملازمة بيته ، ولا استصحاب الوديعة فى خروجه ، فكان المالك راضيا به [2] » . ويزيد الأمر وضوحا فيما يتعلق بالمساكنة ، فلا يخص المساكن بمن يكون فى نفقة المودع حسب ، « فان المرأة إذا أودع عندها شىء جاز لها أن تدفع إلى زوجها . . » ، ومعلوم أن الزوج يساكن زوجته ، ولا تجب عليها نفقته .

ومن أجل ذلك لا تجاب رغبة المودع إذا طلب من المودع لديه ألا يحفظ الوديعة لدى أحد من هؤلاء ، إلا إذا تحققت خيانته . جاء فى الجامع الصغير : « إذا نهاه أن يدفعها إلى أحد من عياله ، فدفعها إلى من لا بد له منه ، لا يضمن [3] » ، لأنه لا يمكن إقامة العمل مع مراعاة هذا الشرط وإن كان مفيدا ، فيلغو .

والأمر كذلك فى أماكن الحفظ . فالأحراز التى يحفظ فيها المودع ماله عادة ، يحق له أن يحفظ بها الوديعة . فلو كانت داره ذات بيوت كثيرة فنهاه أن يحفظ الوديعة فى أحدها ، لم يكن محقا فى هذا النهى ، لأنه قيد لا نفع فيه . وعلى العكس من ذلك ، إذا كانت له دور كثيرة ، فنهاه عن أن يحفظ الوديعة فى إحداها ، كان له ذلك . لتفاوت الحفظ فى الدارين وتماثله فى البيتين .

وفى ضوء هذا يمكن أن يفهم كلام ابن العسال : « نهاه عن أن يسلمها لواحد معين فسلمها له ، أو أمره بتركها فى موضع مخصوص ، أو ألا يجعلها فى الموضع الفلانى ، فخالفه لا عن ضرورة ظاهرة لم يمكنه دفعها ، ضمنها [4] » ؛ فمن الضرورة الظاهرة أن يحفظ الوديعة عند من يحفظ لديهم ماله ، وفى الأماكن التى اعتاد أن يحرزه فيها . وهذا أولى من إطلاق القيد إلى نهاية مداه ، استنادا إلى الرأى المرجوح

---

(١) البدائع : ٦ : ٢٠٧ ــ ٢٠٨
(٢) الهداية : ٧ : ٨٩ ــ مجلدات فتح القدير .
(٣) ذكره صاحب الهداية : ٧ : ٩٧
(٤) المجموع الصفوى : ٢٣٥

الذى أورده الشيرازى حين قال : « . . . وإن قال له احفظها فى هذا البيت ولا تنقلها ، فنقلها إلى ما دونه ، ضمن ، لأنه لم يرض بما دونه . وإن نقلها إلى مثله ، أو إلى ما هو أحرز منه ، ففيه وجهان [1] » . وفى موضع آخر أشار إلى الرأى المرجوح بلفظ « وقيل » ، مما يجعل رأى الجمهور أولى بالاتباع . على أن العلماء يروون عن الشافعى (رحمه الله) أن المودع ليس له أن يحفظ إلا بيد نفسه ، إلا أن يستعين بغيره من غير أن يغيب عن عينه ، حتى لو فعل يدخل فى ضمانه [2] . ولا شك أن هذا أمر بالغ الحرج ، يحرم الناس من التمتع بميزة يحتاجونها فى كثير من الأوقات ، وربما يجعلهم يترددون كثيراً قبل أن يقبلوا ودائع غيرهم .

(ب) ويتصل بهذه المسألة موقف المودع إذا اضطر للسفر . وفى رأى الإمام أبى حنيفة أن له أن يسافر بالوديعة وإن كان لها حمل ومئونة . ويمنع صاحباه استصحابها إن كان لها حمل ومئونة ، رعاية له هو . ويمنع الإمام الشافعى استصحابها على أى حال ، لأن الحفظ المتعارف عليه هو حفظ الأمصار . وحينئذ يدفع المودع الوديعة إلى صاحبها أو وكيله . فان لم يجد كان فى استطاعته ، كما يقول ابن رشد الحفيد ، « أن يودعها عند ثقة من أهل البلد ولا ضمان عليه ، قدر على دفعها إلى الحاكم أو لم يقدر [3] » .

ويرى بعض أصحاب الشافعى أنه إن دفعها إلى أمين مع وجود الحاكم ، ضمن . وعبارة الشيرازى فى ذلك : « وإن أراد السفر ولم يجد صاحبها ، سلمها إلى الحاكم ، فان لم يكن فالى أمين . فان سلم إلى أمين مع وجود الحاكم ضمن ، وقيل لا يضمن [4] » .

ويلخص ابن العسال هذه الآراء مستفيداً بعبارة الشيرازى ، ويقول : « وإن أراد سفراً بعيداً ولم يجد صاحبها ولا وكيله ، فينبغى أن يسلمها إلى الحاكم ، فان لم يمكنه فالى أمين » [5] .

---

(1) المهذب : ١ : ٣٦٢
(2) بداية المجتهد : ١ : ٤٢٧
(3) البدائع : ٦ : ٢٠٧ — ٢٠٨
(4) التنبيه : ١٢٧
(5) المجموع الصفوى : ٢٣٦

ويلاحظ أنه خصص السفر البعيد ، وهو مثار الخلاف بين العلماء ، ووجه النظر إلى ضرورة رد الوديعة إلى صاحبها أو وكيله عند إرادة السفر ، وإلى أنه لا يلجأ إلى الإيداع لدى الحاكم أو الأمين إلا عند تعذر الرد إلى أيهما . ولكن يشوب عبارته ضعف يخل ، حين صدر الحكم بقوله : « ينبغى » ، وهى صيغة لا تقبل إلا فى مجال الإرشاد والنصح . ولعل رغبته فى عدم اقتباس نص الشيرازى جميعه ، هى التى أوحت إليه بهذه الصيغة المستحقة النقد .

(ج) وقد ظهر من الفقرتين السابقتين مدى ما يلتزم به المودع من أعباء حفظ الوديعة ، دون أن يقابل ذلك عوض يكافأ به ، بل إن اشتراط العوض ، كما يرى ابن العسال نفسه ، يخرجها عن الوديعة ولا يلائمها . ومن العدالة إذاً ، أن يلتزم صاحب الوديعة بما قد ينفقه المودع ليتم بقاء العين ، من أجر مسكن أو نفقة طعام . وقد ذكر ابن رشد الحفيد أن « ما يحتاج إليه من مسكن أو نفقة فعلى ربها » . وكذلك يرى ابن العسال ، ويأتى بصيغة أكثر تعميما ، فيقول : « ومهما غرمه عليها لضرورة فله أن يطالب بها مودعها » . ويثبت للمودع هذا الحق ، فان امتنع صاحب الوديعة عن رد قيمة ما أنفق ، كان له أن يمنع لديه الوديعة ، رهنا يقابله ، وتخرج منذئذ عن ضمانه[1] .

الوديعة أمانة :

ينبغى ألا يرفض هذا التعبير : « الوديعة أمانة » ، فبين اللفظين اللذين يتألف منهما تفاوت فى منشئهما . فالوديعة لا تنشأ إلا عن « عقد » استحفاظ ، أما الأمانة فقد تكون بغير عقد أصلا ، كما إذا ألقت الريح فى حجر إنسان ثوب غيره ، وكما إذا وجد إنسان كيس نقود فى طريق عام .

ومؤدى اللفظين أمران : أحدهما حفظ الشيء ، والثانى أن استنفاد وسائل الحفظ تعفى من بيده الشيء من تبعة الضمان عند عدم التعدى .

---

(١) المجموع الصفوى : ٢٣٦

وتتضافر النصوص التى تؤكد هذا الأمر الأخير . فقد جاء فى العهد القديم : « إذا أعطى إنسان صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاة أو بهيمة للحفظ ، فمات أو انكسر أو نهب ، وليس ناظر . فيمين الرب تكون بينهما : هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه ، فيقبل صاحبه ، فلا يعوض[1] » . ويقابل ابن رشد الحفيد بين لفظى « أمانة » و « لا مضمونة » ، ويقول : «اتفقوا على انها أمانة لا مضمونة ...[2] ». ويوضح هذا فى مكان آخر ، فيقول : « وبالجملة ، فالفقهاء يرون بأجمعهم أنه لا ضمان على صاحب الوديعة إلا أن يتعدى [2] » والوديعة وتقرير الضمان متنافران ، ولو اشترط الضمان فى عقد الوديعة ، بطل الشرط لمنافاته إياها ، وخروجه على مقتضاها ، وكذلك « المضمون لا يصير أمانة بالشرط » ، وندر من العلماء من أقره رعاية لكلام العاقدين .

وكذلك يصنع ابن العسال . ومن كلامه فى هذا المجال قوله : « فهى أمانة لمودعها عند مستودعها » ، وقوله : « . . فان هلكت بعد هذا لم يلزمه [3] » .

غير أن تقدير العاقدين يختلف فى تقرير الحدود التى يزول عندها موجب عقد الوديعة ، وهو عدم الضمان . وهناك مسائل كثيرة تثار فى مجال الاستشهاد لآثار عقد الوديعة ، وهى كذلك مظاهر لتفاوت آراء العلماء فى تقدير أحكامها .

ويمثل ابن العسال لتقرير عدم الضمان بمثالين :

(ا) أحدهما : أن المستودع إذا أراد رد الوديعة لصاحبها مع إمكان ذلك ، ثم امتنع صاحبها عن أخذها ، ارتفع عن المستودع ضمانها .

وهذا المثال على مايبدو ، لا جدوى منه ، ولا يفيد جديدا . فمن المعلوم أن قيام المستودع بحفظ الوديعة كحفظ ماله ، يجعل يده كيد مالكها ، ويرفع عنه الضمان ، ما لم يتعد . وسواء فى ذلك كل ما تصل إليه يد الإنسان من أموال الغير مما لا يباح له التصرف فيها بسبب من الأسباب القانونية المشروعة . وفى المثال

---

(١) خر : ٢٢ : ١٠ — ١١
(٢) بداية المجتهد : ١ : ٤٢٦ — ٤٢٧
(٣) المجموع الصفوى : ٢٣٤

الذى ورد فى صدر هذه الفقرة : إذا ألقت الريح ثوب إنسان فى حجر غيره ، وكذلك إذا وجد شخص كيس نقود فى الطريق العام ، لا يحق التصرف فى هذين ، ويد الشخص يد أمانة ، والأمانة غير مضمونة إلا عند التعدى ، وليس لازما أن يكون ذلك عن طريق « عقد » يفيدها ، أو ألا يكون .

والمسألة التى تذكرها كتب الفقه الإسلامى فى هذا المجال : أن المستودع إذا أراد إعادة الوديعة لصاحبها ، فعليه أن يتحين الظرف المناسب ، فحيث السلامة ، ووجود صاحبها أو وكيله ، يجوز له ذلك ، وإلا احتفظ بالوديعة كسابق احتفاظه بها .

(ب) والمثال الثانى صورة تطبيقية لتقرير عدم الضمان ، وذلك إذا تلفت الوديعة بغير عمل المستودع ، أو إهمال منه أو تفريط ، أو هلكت لسبب قاهر يخرج عن طوقه كالحريق والغرق والنهب والسرقة .

ولا خلاف بين العلماء على أنه لا ضمان على المستودع ، ويستدلون على ذلك بالمعقول والمنقول . ومن أدلة المنقول ما جاء فى سفر الخروج من العهد القديم : « إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ ، فسرقت من بيت الإنسان ، فان وجد السارق يعوض باثنين . وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت إلى الله ليحكم : هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه . . . وإذا أعطى إنسان صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاة أو بهيمة ما للحفظ ، فمات أو انكسر أو نهب وليس ناظر . فيمين الرب تكون بينهما : هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه ، فيقبل صاحبه ، فلا يعوض[1] » . والشرط الذى تضعه التوراة هو التعدى ، وهو الذى يبقى على الوديعة فى نطاق الأمانة . وتزيد مدونة جستنيان ، فلا تؤاخذ على « قلة ما أتاه المستودع من العناية فى حفظه » ، وتقول : « . . . لا يسأل إلا عن فعله القصدى الضار ، لا عن مجرد خطئه ، أى تراخيه وإهماله ، بحيث لو أن الشىء سرق منه لقلة ما أتاه من العناية فى حفظه ، فانه لا مسئولية عليه . ذلك بأن من يستودع شيئاً صديقا له مهملا ، فلا يلومن على عدم تبصره إلا نفسه[2] » .

---

(١) خر ٢٢ : ٧ — ١١

(٢) مدونة جستنيان : ٢٠٥ — ٢٠٦

ولا تصنع كتب الفقه الإسلامى صنيع مدونة جستنيان ، فهى تؤاخذ على الإهمال والتفريط وعدم العناية بحفظ الوديعة كحفظ الشخص مال نفسه . ففى البدائع : « إذا ضاعت (الوديعة) فى يد المودع بغير صنعه لا يضمن ، لما روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : ليس على المستعير غير المغل الضمان ، ولا على المستودع غير المغل الضمان . ولأن يده يد المالك ، فالهلاك فى يده كالهلاك فى يد المالك [1] » . ثم يأتى الكاسانى بأمثلة كثيرة يتقرر فيها الضمان لتفريط المودع أو إهماله أو عدم العناية بحفظ الوديعة مثلما يحفظ ماله ، مما سترد مناقشته فى الفقرة التالية .

وكذلك يصنع الشيرازى فى كتابيه ، يقول فى : المهذب : « فإن تلفت من غير تفريط ، لم تضمن لما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : من أودع وديعة فلا ضمان عليه . وروى ذلك عن أبى بكر وعمر وعلى وابن مسعود وجابر (رضى الله عنهم) . وهو إجماع فقهاء الأمصار [2] » . وفى موضع آخر يقول : « وإذا أخذت الوديعة منه قهراً لم يضمن ، لأنه غير مفرط [3] » .

وابن العسال يحشد فى عبارة واحدة كثيراً من الأسباب التى لا توجب ضمان الوديعة ، ولكنه يضيف فى الشطر الثانى من عبارته شرطا يدعو إلى مناقشته ليوضع فى مقره السليم .

يقول ابن العسال : وإن فسدت فساداً طبيعياً مثل حيوان يموت ، أو شىء يسوس ، أو عدا عليها مما لم يكن فى قدرته دفعه مثل حريق أو غرق أو نهب أو سرقة أو اغتصاب ، لم يلزمه ، إذا لم يقم البينة بأن ذلك عرض من غشه أو سوء تدبيره ، أو تفريطه فيها دون ماله ، لأن هذه الأمور يطالب بسببها ، أو بما تقدم به شرط ووقع عليه اتفاقهما [4] » .

---

(١) الكاسانى : بدائع الصنائع ٦ : ٢١١
(٢) الشيرازى : المهذب : ١ : ٣٦٢
(٣) المهذب : ١ : ٣٦٤
(٤) المجموع الصفوى : ٢٣٥

ويتفق ابن العسال فى تقرير عدم الضمان فى الظروف التى بينها ، مع جميع المصادر التى سبق الاستشهاد بآرائها ، عدا الشطر الثانى من الفقرة ، فانه فى حاجة إلى بعض الإيضاح .

ومن المقرر أن يد المودع يد أمين ، يصدق عند قوله إن الوديعة تلفت لأمر يخرج عن طوقه ، ويستحلف إذا أراد صاحب المال . ولا يضطر إلى الإتيان ببينة إلا عند المشاحنة والمنازعة ووقوفه موقف المدعى . وهذا لا يبين فى الصورة التى ذكرها ابن العسال . وشأن المثال أن يكون دقيق التصوير ، ليكون الحكم موائما له .

وقد استقى ابن العسال المسألة من كتب الفقه الإسلامى ، وهى تصدرها بما يدل على وقوع خلاف بين المتعاقدين على حفظ الوديعة ، واضطرار المودع إلى إخراجها من حرزها إلى آخر ، وادعائه أن تلفها بعد ذلك كان لأمر خارج عن طوقه . يقول الشيرازى فى التنبيه : « وإن قال هلكت الوديعة ، فالقول قوله . وإن قال أخرجتها من الحرز أو سافرت بها لضرورة ، فان كان ذلك بسبب ظاهر كالحريق والنهب وما أشبههما ، لم يقبل إلا ببينة ، ثم يحلف أنها هلكت . فان كان بسبب خفى قبل قوله[1] » . فتصوير الشيرازى للمسئلة مركب : فيه إخراج للوديعة من حرزها ، وفيه تلفها ، وفيه أسباب بعضها ظاهر يمكن إقامة البينة عليه ، وبعضها خفى يصدق فيه المستودع مع يمينه ، فانه مستصحب للأمانة منذ العقد .

يضاف إلى هذا أن عبارة ابن العسال ، فيما يبدو ، غير مستقيمة . فهى تقول : « . . . إذا لم يقم البينة بأن ذلك عرض من غشه أو سوء تدبيره أو تفريطه فيها دون ماله » . وصدر الفقرة يتحدث عن المستودع الذى تحفظ بيده الوديعة ، ولا يتأتى أن يقيم هو البينة على أن ذلك عرض من غشه هو أو سوء تدبيره . وإذا صح هذا التقدير تحتم أن يكون قد سقط لفظ « المودع » من العبارة الأخيرة ، وأن صوابها : « إذا لم يقم المودع البينة . . . » . وإذاً لا يتوجه نقد إلى عبارة ابن العسال . ويساعد فى توضيح ذلك ، أن الترجمة الإتيوبية تخلصت من هذا

(١) التنبيه : ١٢٧

الموقف ، بأن جعلت الصيغة فى صورة الفعل المطاوع ، الذى لا يسند إلى الفاعل الحقيقى . تقول :

... ለእመ፡ ኢተኃውቀ፡ በስምዓ፡ ጥያቄ፡ ከመ፡ ኮነ፡ ዝንቱ፡ እምጕሕ
ሉት፡ ወእከየ፡ ምግብናሁ፡ ወኢዓቂበቱ፡ ላቲ፡ ከመ፡ ንዋዩ።[1]

متى يتقرر الضمان :

يقرر رجال التشريع أنه لا مسئولية على المودع ، وأن يده يد أمانة ، فلا يضمن الوديعة إذا هلكت دون تعد منه . ومعنى هذا : « أنه لا يسأل إلا عن فعله القصدى الضار » ، كما تعبر مدونة جستنيان . وتؤيد النصوص هذه الفكر ، فالعهد القديم يرى أن عدم التعويض عن الوديعة عند هلاكها مرهون بعدم تعدى المودع ، وتتردد فيه عبارة : « هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه » . وكذلك تتردد لفظة « التعدى » فى كتب الفقه الإسلامى .

وليس التعدى الإرادى وحده هو الذى يؤدى إلى تقرير الضمان عند رجال التشريع الإسلامى . فبينما لا تؤاخذ مدونة جستنيان على مجرد الخطأ ، أى التراخى والإهمال ، يؤاخذ رجال الفقه الإسلامى عليه . فمن المعروف أن المودع مطالب بحفظ الوديعة ، فلو وضعها فى حرز أقل مما يحفظ فيه مثلها ، وجد أساس مؤدى الحفظ ، غير أن تقصير المودع هنا لا يخليه من تحمل تبعة أعماله ، فيؤاخذ بضمان الوديعة عند هلاكها ، لأنه قد ظهر حينئذ أن هلاكها ناشىء عن تقصيره فى حفظ الوديعة ، لا عن تعديه على الوديعة ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى كتب الفقه الإسلامى .

غير أن العلماء ، كما يقول ابن رشد ، يختلفون فى أشياء : هل هى تعد أم ليس بتعد ؟ ومن أجل ذلك يختلفون فى تقرير الأثر : أيضمنون المودع ، أم يعتبرون يده يد أمانة ؟ كذلك يحدث مع ابن العسال .

١ — ذكر ابن العسال سبع مسائل يتقرر فيها ضمان الوديعة على المودع عند هلاكها . وأول هذه المسائل :

---

(٢) ش : ٢٢/٢/١٩٠

حبس الوديعة عن صاحبها عند طلبه إياها ، وجحد المودع الوديعة ثم الاعتراف بها . وعبارته تقول : « إن طلبها صاحبها فحبسها عنه ، وهو يقدر على تسليمها له ، أو جحدها ورجع اعترف بها ، ضمنها[1] » .

ويلاحظ أن الشطر الأول من الفقرة مستقى بنصه من كتب الفقه الحنفية . يقول أبو الحسن القدورى : «فان طلبها صاحبها فحبسها عنه ، وهو يقدر على تسليمها ، ضمنها [2] » . وكذلك يقول المرغينانى : « فان طلبها صاحبها فحبسها وهو يقدر على تسليمها ، ضمنها[3] » .

واستقى ابن العسال الشطر الثانى من فقرته ، من كتاب القدورى ، فى قوله : «فان طلبها صاحبها فجحدها إياه ، ضمنها . فان عاد إلى الاعتراف لم يبرأ من الضمان» ، مع تصرف قليل .

وكرر ابن العسال الشطر الأول من فقرته ، حين عرض لفسخ الوديعة من أحد جانبي العقد ، فى عبارته : « ومن امتنع منهما من ذلك (أى من العمل بمقتضى الفسخ) ، صارت فى ضمانه ، وخرجت عن ضمان الآخر[4] » . فاذا امتنع المودع عن رد الوديعة بعد فسخ المودع العقد ، ضمنها عند هلاكها ، ولا خلاف فى ذلك ، لأنه صار متعدياً بمنعها ، فصار حكمه حكم الغاصب .

بيد أن الصيغة الأخيرة تحتمل المناقشة . فاذا كان الفسخ من قبل صاحب الوديعة ، ضمن المودع عند الهلاك ، كما تقرره الفقرة الأولى ، وإذا كان الفسخ من قبل المودع ، لم يتغير الموقف ، فما تزال يده يد أمانة ، وهلاكها دون تعد منه يخرجها عن ضمانه ، ولكن لا يقال : إنها دخلت فى ضمان صاحبها . فمفهوم لفظ « الضمان » أنه عقوبة توجه إلى متعد على حق غيره ، وليس هذا موقف صاحب الوديعة . هذا إلى أن هذه المسألة ذكرها ابن العسال فى مجال آخر[5] ، وإذاً فذكر هذه الفقرة هنا بصورتها هذه تكرار غير مفيد .

---

(١) المجموع الصفوى : ٢٣٥
(٢) مختصر القدورى : كتاب الوديعة .
(٣) الهداية ، مجلدات فتح القدير : ٧ : ٩١
(٤) المجموع الصفوى : ٢٣٦
(٥) أنظر من هذا البحث : ١٧٧

بقيت مسألة جحود الوديعة ، التي ذكرها ابن العسال في الشطر الثاني من فقرته : « ... أو جحدها ورجع اعترف بها » . . .

وتصور كتب الفقه الإسلامي هذه المسألة في صور عديدة تستقصي جميع أحوالها . فهناك جحود الوديعة في وجه صاحبها ، وفي وجه غير صاحبها ، والحكم فيهما ليس واحداً . وهناك جحود للوديعة قبل دعوى الهلاك ، وبعد دعواه ، وغير ذلك من الصور . ولا يشير ابن العسال إلى شيء من ذلك ، ولكنه يضيف قوله : « ورجع اعترف بها » ، وهي عبارة لا تغني شيئا ، فالجحود كاف في إثبات الضمان ، واعترافه أخيراً لا يقرره ، ولكنه كذلك لا يخفف عنه ، ولا يغير حاله من الضمان إلى الأمانة ، وربما كان ذلك هو مقصد ابن العسال من إضافته هذه العبارة . وقد أوضح أبو الحسن القدوري الحكم في عبارته المشار إليها قبل : « فان طلبها صاحبها فجحدها إياه ضمنها ، فان عاد إلى الاعتراف لم يبرأ من الضمان » .

٢ — التصرف في الوديعة :

يبدو التعدي بارزاً في الصورة التي ذكرها ابن العسال للتصرف في الوديعة بالقرض أو الاقتراض أو الاستخدام ، أو الرهن أو العارية أو الإجارة ، وحينئذ يرتفع حكم العقد من الأمانة إلى الضمان .

والعلماء في هذه المسألة لا يتفقون على رأي واحد في حالة رجوع المودع عن تعديه . فرجال الفقه الحنفي يرون أن زوال التعدي يعيد الموقف إلى سابق أصله من عدم الضمان ، لأن ارتفاع حكم العقد كان ضرورة ثبوت نقيضه ، فاذا ارتفع عاد حكم العقد (١) . ويرى الشافعية أن العقد ارتفع بالتعدي ، ولا يعود إلا بعقد جديد . يقول الشيرازي : « ومتى تعدى فيها ثم ترك التعدي لم يبرأ من الضمان(٢) » .

ولم يمل ابن العسال إلى رأي الشافعية هنا ، كما لم يمل إليه في المسألة الأولى . وعبارته الصريحة تقول : « . . ضمنها إلى أن يعيدها إلى حرز مثلها (٣) » .

---

(١) الهداية ٧ : ٩٢

(٢) التنبيه : ١٢٧ . وانظر : شفيق شحاته : النظرية العامة للالتزامات في الشريعة الاسلامية : ١٧٤ — ١٧٥

(٣) المجموع الصفوي : ٢٣٥

٣ — ويكرر هذا الحكم فى صورة أخرى من صور التعدى ، هى : « إن أودعها لا لضرورة سفر أو غيره ، ضمنها إلى أن يستعيدها [١] » .

وينبغى أن تناقش هذه المسألة فى ضوء كلام ابن العسال نفسه . فالإيداع عند الغير قد يكون وسيلة من وسائل الحفظ المسموح بها ، إذا كان عند من يحفظ لديهم ماله الخاص ، كالولد الذى فى عياله ، وزوجه ، ووكيله ، وكالزوج إذا كان المودع الزوجة ، على النحو الذى سبقت مناقشته قبل . وليس عليه إن هلكت عند هؤلاء ضمان ، فينبغى أن يستثنوا هنا . والايداع لضرورة السفر لم يقره ابن العسال إلا لدى شخصيات معينة ، هى : الحاكم ، ثم الأمين . فينبغى إذا أن تستبعد « ضرورة السفر » ، فقد وضعت لها قيود خاصة . بقى أن يضطر إلى الإيداع لظرف قاهر ، تحدث عنه كذلك فى موضع آخر ، كأن يطرأ غرق للسفينة ، أو حريق للدار التى حفظت بها الوديعة . وهذه أيضاً لها حكمها ، فليس فيها ضمان عند الهلاك ، إلا إذا حدث نزاع بين المتعاقدين ، فيلجأ إلى البينة أو اليمين ، على الوجه الذى سبق بيانه . وتأثر ابن العسال بمصادره فى هذه المسألة لم يسر إلى مداه ، فقد وضع رجال الفقه الحنفى هذه عقب مناقشة وسيلة حفظ الوديعة ، فقالوا : « فان حفظها بغيرهم (أى غير من يباح له الحفظ لديهم) أو أودعها عند غيرهم ضمن [٢] » . ومن ثم يعد وضع المسألة فى كتاب ابن العسال نقلا لها عن مكانها الواجب .

ومع ذلك يبدو أن ابن العسال يجعل هذه المسألة صورة من صور التعدى ، ويميل هنا ، كما مال فى المسألتين السابقتين ، إلى أن إعادة الوديعة وإزالة مظهر التعدى ، يعيدها إلى سابق وضعها من موجب عقد الوديعة ، وهو عدم الضمان ، وهو المبدأ الذى يتبعه رجال الفقه الحنفى .

٤ — من المقرر أن المودع يحفظ الوديعة على الوجه الذى يحفظ به ماله ، فلو كانت دابة أو غيرها مما يحتاج إلى طعام أو كسوة ، تحتم أن يجرى عليها من

---

(١) المجموع الصفوى : ٢٣٥

(٢) الهداية ٧ : ٨٩ ، القدورى : كتاب الوديعة .

الرزق والإنفاق ما يبقى حياتها ويصونها ، وله بعد ذلك مطالبة صاحبها بما أنفق .
ويذكر الشيرازى هـذه المسئلة فى كتابيه : المهذب ، والتنبيه ، ويثبت فيهما حكمين مختلفين . فى التنبيه ، يقول : « وإن أودعه بهيمة فلم يعلفها حتى ماتت ، لم يضمن ، وقيل يضمن[1] » . وفى المهذب ، يقول : « إن أودعه دابة فلم يسقها ولم يعلفها حتى ماتت ، ضمنها ، لأنها ماتت بسبب تعدى به فضمنها . وإن قال : لا تسقها ولا تعلفها ، فلم يسقها ولم يعلفها حتى ماتت ، ففيه وجهان[2] » .

ويختار ابن العسال الضمان فى جميع الحالات[3] ، سواء شرط ألا يعلفها ولا يطعمها أم لم يشترط . فان ترك إطعامها والإنفاق عليها ، لم تجر به عادة الحفظ المألوف . ويعتبر تفريطا فى الوديعة أدى إلى هلاكها ، بل يعد تعديا ، على حد تعبير الشيرازى فى المهذب .

٥ — يوجز ابن العسال أسباب ضمان المودع الوديعة فى أمرين ، هما : الغش ، والتضجيع[4] . ومدلول الأمرين : العمل القصدى الضار . ويعد من الغش عدم اهتمام المودع بالوديعة اهتمامه بمال نفسه ، وإن كان بعض العلماء المسلمين يعدون ذلك « تفريطا » فى حق الوديعة ، ويعدها آخرون « تعدياً » .

وينبغى أن تدرج فى نطاق الغش مسألة : أيلولة الوديعة إلى الوارث مع ما صار إليه من ميراث ، مع علمه أنها وديعة ، وتمكنه من ردها إلى صاحبها أو إخباره بها ، ثم لا يصنع . ويرى ابن العسال أن المودع هنا ضامن[5] ، فان حجزه الوديعة عن صاحبها دون مبرر ، وضعه فى نطاق المعتدين .

هذه مسائل أوردها ابن العسال ، وكلها تخرج الوديعة من الأمانة إلى الضمان . وهناك مسألة تدخل فى هذا المجال ، غير أنها تتصل بما قد يشترطه العاقدان عند العقد ، ومن ثم يحسن أن تناقش فى الفقرة التالية .

---

(١) التنبيه : ١٢٧
(٢) المهذب ١ : ٣٦٤
(٣) المجموع الصفوى : ٢٣٦
(٤) ضجع فى الامر تضجيعا : قصر . القاموس المحيط .
(٥) المجموع الصفوى : ٢٣٥ — ٢٣٦

شروط العاقدين :

يتردد كثيراً ما يؤكد حرص ابن العسال على رعاية ما يشترطه العاقدان عند العقد ، كقوله : « . . . لأن هـذه الأمور يطالب بسببها ، أو بما تقدم به شرط ووقع عليه اتفاقهما » ، « . . إلا أن تكون الموافقة قد جرت على شيء آخر » .

وبعض العبارات وردت فى صيغ التعميم ، وبعضها جاء فى مناسبات خاصة ، فتخص بمواضعها .

وينبغى ألا تقبل الصيغ التى جاءت فى صور التعميم ، فليس كل شرط بمقبول ، مهما جرت عليه موافقة العاقدين . وقد تقدم فيما سبقت مناقشته ، إشارة إلى ذلك .

وفى رأى رجال الفقه الإسلامى ، وابن العسال يقبس عنهم ، أن الشروط لا تقبل على علاتها ، ولكن ينظر فيها . فاذا مست كيان العقد ، وكان من شأنها أن تبطل آثاره المقررة ، رفضت ، ونفذ العقد . فان أودع وديعة واشترط ضمانها ، كان ذلك مخالفاً للعقد ، لأنه يضاد « الأمانة » المقررة به ، فلا يقبل الشرط ، كالمضمون ، لا يصير أمانة بالشرط[1] . ولا يبطل عقد الوديعة ، لأنها لا تبطل بالشروط الفاسدة[2] .

وإن وجد أن بعض الشروط يشق تحمله ويلحق العنت بالمودع ، لأنه لا يسرى على ما جرت به العادة فى الوديعة ، رفض كذلك ، واتبع ما تجرى به عادة الناس فى أمثالها . ومن ذلك : إذا اشترط صاحب المال ألا يحفظ المودع الوديعة عند زوجه أو ولده الذى فى عياله أو من يحفظ مال نفسه بيده ، رفض هذا الشرط ، « فكل شرط يمكن مراعاته ويفيد فهو معتبر ، وكل شرط لا يمكن مراعاته ولا يفيد فهو هدر[3] » .

---

(١) الشيرازى : المهـذب ١ : ٣٦٢ ، وابن رشـد الحفيـد : بداية المجتهد ١ : ٤٢٦ ــ ٤٢٧

(٢) محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد : ٤٢٥ ــ ٤٢٦

(٣) الكاسانى : البدائع ٦ : ٢١٠ . وانظر : المرغيناتى : الهداية ٧ : ٩٧

وكذلك إذا أمره بحفظ الوديعة فى مكان معين ، أو عدم تركها فى موضع معين ، وغير ذلك من الشروط ، ينبغى أن يقاس على هذا المبدأ ويضاف إليه . ومن أجل ذلك يحسن أن تتسع عبارة ابن العسال : « ضرورة ظاهرة » ، لجميع هذه الأمثلة ، صيانة لروح النص ، وإن بقيت العبارات العامة التى تؤكد رعاية شروط العاقدين وما وقع عليه اتفاقهما — عقبة لا تزال تحتاج إلى تذليل ، فان المواقف العديدة فى كتاب ابن العسال . تقوى هذه الرغبة وتؤيدها[1] .

ومن الواجب الإشارة هنا ، إلى اختيار ابن العسال لآراء رجال الفقه الحنفى فى كثير من مسائله التى تذكر فى هذا المجال . ودليل ذلك : رأيه الصريح فى رفض بعض الشروط ، مع صدورها من صاحب الوديعة . قال : « ومن استودع مملوكا أو بهيمة فلم يطعمها ولم يسقها حتى ماتت ، لزمته ، ولو كان مودعها قال له لا تطعمها ولا تسقها[2] » . هذا ، مع ما نقل عن الإمام الشافعى (رحمه الله) من وجوب مراعاة الشروط فى المواضع كلها[3] ، ومن تقرير بعض علماء المذهب الشافعى فى هذه المسألة نفسها : عدم الضمان ، « لأن الضمان يجب لحق المالك ، وقد رضى باسقاطه[4] » . وهكذا لا يستمر ابن العسال فى تقرير وجوب رعاية شروط العاقدين ، ولكنه يميل عنه إذا اقتضت المصلحة ذلك ، مما يبرر المناقشة التى تضمنتها هذه الكلمات .

مبدأ التغريم

ليس فى التشريع الإسلامى الأخذ بمبدأ « التغريم » ، عقوبة لمن ارتكب إثماً فى حق الغير ، على غير ما تصنع شريعة العهد القديم ، وعلى غير ما يصنع القانون الرومانى . ولقد تأثر ابن العسال بهذين التشريعين الأخيرين . حين اختاره عقوبة مادية ، فى غير موضع من كتابه[5] .

---

(١) انظر موضوع شروط العاقدين ، لكاتب هذا البحث : فتح نجشت : ١٣٨ — الفقرة الثانية ، ١٤٣ — ١٤٦

(٢) المجموع الصفوى : ٢٣٦

(٣) البدائع ٦ : ٢١٠

(٤) المهذب ١ : ٣٦٤

(٥) انظر لكاتب هذا البحث : فتح نجشت : ١٥٨ ، ١٦٣ — ١٦٦

وفى باب الوديعة قرر ابن العسال فرض عقوبة تعويض « الضعف » لمن يقبل وديعة « وقد علم أن مودعها سرقها أو اغتصبها [١] » . وأساس هذه العقوبة مسجل فى سفر الخروج من العهد القديم ، إذ يقرر تغريم السارق الضعف ، إذا ارتكب جريمة سرقة وديعة كانت محفوظة لدى إنسان . فقد جاء فيه : « إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ ، فسرقت من بيت الإنسان ، فان وجد السارق يعوض باثنين [٢] » . وقد نقل ابن العسال هذه العقوبة إلى المودع الذى قبل الوديعة من السارق أو المغتصب ، مشاركة له فى إثمه وعونا له على ظلمه .

ويرى مبدأ التغريم كذلك فى قوانين الملوك ، فى مواقف عدة . وقرارها العام الذى يمكن تطبيقه فى جميع المعاملات ، ذلك الذى سجلته المادة السادسة والتسعون ، والتى تقول : « إن كان بين رجلين معاملة أو شركة أو عهد ، وكتبا بينهما كتابا مؤكداً بالايمان منهما لا يراجعان على ما توافقا عليه ، فان رجع أحدهما عن ذلك فعليه من الغرم أوقية ذهباً أو ما يجب من الغرم . فان رجع أحدهما عما فى الكتاب ، فان سنتنا تعزله ، وتوجب عليه ذلك الغرم لأنه نكث [٣] » . ثم يرد فى مواضع أخرى تقرير العقوبة لكل جريمة بحسبها . ويبدو أن ابن العسال مال إلى تأثر المبدأ الذى قرره العهد القديم ، فعدل عن تغريم « أوقية ذهباً » إلى تغريم ضعف الوديعة .

وموقف التشريع الاسلامى من هـذه المسألة : ضمان عند الهلاك ، وهو نفس ما يطلب من الغاصب والسارق ، وهـذا بالضرورة غير عقوبة جريمة « السرقة أو الغصب » المقررة فى التشريع .

نظرة أخيرة :

لقد وضح من الدراسة السابقة مدى تأثر ابن العسال ، ومن ثم القانون الإتيوبى ፍትሐ ፡ ነገሥት :: ، بالتشريع الاسلامى ، فاستمد منه أفكاره ، ومسائله ، وقواعده ، وأحكامه . وعاش مع المذاهب الفقهية ، يأخذ من هذا مرة ومن ذلك

---

(١) المجموع الصفوى : ٢٣٧

(٢) خر ٢٢ : ٧

(٣) قوانين الملوك : ٩٦ . أنظر المخلوط : ١٣١ قانون . المتحف القبطى .

أخرى . ولم يقتصر استمداده على الرأى والقاعدة والحكم ، وإنما جاوز ذلك فى كثير من الأحوال إلى اقتباس نفس النصوص التى تعالجها . واهتم ببعض المصادر التى أعانته على بلوغ هدفه ، لقصدها إلى وجازة التعبير فى إحكام بالغ .

ولم تكن لتسعفه تلك المادة الضئيلة التى استمدها من العهد القديم ، أو من قوانين الملوك ، لقلة غنائها فى مجال التشريع ، ورسم السبيل القانونى الذى يهتدى به الناس .

(٢)

الدراسة اللغوية

لقد أدت دراسة كتاب ፍትሐ፡ ነገሥት:: إلى الحكم على مدى متابعته لأصله العربى : « المجموع الصفوى » . وإذا كان المترجم الإتيوبى قد نجح إلى حد كبير فى هذه المتابعة ، فقد فاته شىء تجدر ملاحظته ، وكذلك ظهر أن هناك بعض الاختلافات بين النصين ، زيادة ونقصاً ، أدت إلى اختلاف الأحكام القانونية .

وفى باب الوديعة ، لم يتمكن المترجم الإتيوبى من ترجمة أسلوبين عربيين يبدوان فى النصين الآتيين :

النص :	
وليس للثانى [أى المودع الثانى [1]] أن يسلمها لصاحبها إلا بأمر مودعها له مشافهة ، أو مراسلة .	ወኢይደልዎ፡ ለዳግማዊ፡ ከመ፡ ይመጥዎ፡ ለእግዚኡ፡ ዘአንበለ፡ በትእዛዙ፡ ገጸ፡ በገጽ፡ አው፡ በመልእክት . . .
(١١ / ٢٣٥)	(١٨/١/١٩١)

فأسلوب : « مشافهة » ، وهو المقابل لـ « مراسلة » ترجمه النص الاتيوبى بلفظ « مواجهة » : ገጸ፡ በገጽ፡ ، وهى ترجمة غير دقيقة .

---

(١) زيد ما بين الحاصرين للتوضيح .

وكذلك أسلوب « اللهم » فى النص العربى : « . . والذى يطالب به صاحب الوديعة : الغش والتضجيع ، اللهم إلا أن تكون الموافقة قد جرت على شىء آخر[1]» ، أهمله المترجم الإتيوبى ، ولم يحاول نقله بأسلوب مقارب ، كما صنع فى الأسلوب السابق .

ويمكن أن توضع سائر الملحوظات اللغوية بعد ذلك فى طائفتين :

١ ـ طائفة تحصى المزيدات فى النص الاتيوبى ، والمزيدات فى النص العربى ، التى تأثر النص الإتيوبى بتركها .

٢ ـ وطائفة ثانية تدرس ما قد يكون هناك من اختلافات بين النصين لعوامل غير الحذف والإثبات التي تعرض لها الطائفة الأولى .

١ ـ المزيدات فى النصين الاثيوبى والعربى

النص :

الوديعة هى الشىء الذى يدفعه المودع للمودع عنده ليحفظه له بغير عوض [إلى] حين استعادته .

(١٤ / ٢٣٤)

ማሕፀንትሰ፡ ንዋይ፡ ይእቲ ዘ
ይሁብ፡ አማሕፃኒ፡ ለዘያማሕፅና፡
ከመ፡ ይዕቀብ፡ ሎቱ፡ ዘእንበለ፡
ካዕበት፡ እምኔሁ፡ ጊዜ፡ አግብ
ኦቶ፡

(١٩٠/٢/٤)

يلاحظ أن الترجمة الإتيوبية أهملت حرف الجر [إلى] ، الموجود بالنص العربى ، فصارت ترجمة العبارة الإتيوبية : ليحفظه له بغير عوض حين استعادته ، بعيدة بعض الشىء ، فان ذلك يوهم أن الظرف وما بعده : (حين استعادته) ، فى

---

(١) المجموع الصفوى : ٥/٢٣٧ .

(٢) سيوضع النصان فى نهرين متقابلين ،ويشار الى موضعيهما من مصدريهما هكذا : (٠٠/٠٠/٠٠) ، للصفحة ، والنهر ، والسطر ـ على التوالى .

موضع الصفة لكلمة : (عوض) ، وهذا غير سديد إذ أن عدم التعويض مستصحب للوديعة طوال مدة العقد ، فليس هناك مقابل لحفظها لا فى أثناء العقد ، ولا حين استعادة الوديعة . . . وينتفى هذا الوهم باثبات حرف الجر [إلى] ، فهو وما بعده متصل بالفعل : (يحفظ) .

وإذا أراد تسليمها لصاحبها حيث السلامة ، فامتنع ، [لم يضمنها حينئذ] .

وإن فسدت فساداً طبيعياً مثل حيوان يموت أو شيء يسوس . . لم يلزمه ، إذا لم يقم البينة بأن ذلك عرض من غشه أو سوء تدبيره .

(١ / ٢٣٥)

ወለእመ፡ ፈቀደ፡ አግብኦታ፡
ለእግዚኣ፡ እንዘ፡ ዳኅን፡ ይእቲ፡
በጊዜ፡ ግብኦታ፡ ወአበየ፡ ነሢኦ
ታ፡ይእተ፡ ጊዜ፡ [...] ለእመ፡
ጠፍአት፡ ወማሰነት፡ ማስና፡ ፍ
ጥረታዊ፡.... ኢይደልዎ፡ ከመ፡
ይፍዲ፡ ለእመ፡ ኢተዓውቀ፡ በስ
ምዓ፡ ጥያቄ፡ ከመ፡ ኮነ፡ ዝንቱ፡
እምጕሕሉቱ፡...

(١٢ / ٢ / ١٩٠)

يتحدث النص العربى عن مسألتين :

(الأولى) إذا أراد تسليم الوديعة لصاحبها حيث السلامة ، فامتنع صاحبها عن أخذها . ويرى النص أنه لا ضمان حينئذ على المودع إذا هلكت .

والمسألة الثانية : حكم الوديعة إذا عرض لها حادث طبيعى أدى إلى هلاكها . وشرط عدم الضمان هنا ، فى ظاهر النص ، هو : إذا لم يثبت صاحب المال أن ذلك يعود إلى المودع .

وقد ترك النص الإتيوبى حكم المسألة الأولى ، وهو الموضوع بين الحاصرتين فى النص العربى ، وضم المسألة الأولى إلى الثانية ، وجعل لها حكما واحداً ، وهذا غير سديد .

ولا يجوز للمودع عنده أن يمتنع من خط يتضمن أن الوديعة عنده .

(١٤ / ٢٣٥)

ወኢይደሉ፡ ለዘአማሕፀኑ፡ ኀቤሁ፡ ከመ፡ ይእበይ፡ እመጽሐፍ፡ ዘአመጋቢ፡ ዘትነግር፡ ከመ፡ ማሕፀንት፡ ሀለወት፡ ኀቤሁ። [ወኢብውሕ፡ ለዘያነብር፡ ማሕፀንተ፡ ኀቤሁ፡ ከመ፡ ይእበይ፡ አጽሕፎተ፡ ማሕፀንት፡ ዘይሁብም፡ ዘትነግር፡ ከመ፡ ኀቤሁ፡ ሀለወት።]

(٣/٢/١٩١٠ — ٢٤/١ ١٩١)

عبر النص الإتيوبى عن مضمون الفقرة العربية بعبارتين ، يمكن الاستغناء باحداها عن الأخرى ، غير أن هناك ملحوظتين تردان فيما يلى :

(ا) ففى عبارته الأولى ورد ذكر « الموكل : ዘአመጋቢ » ، فى حين لا يعرض النص العربى له ، حيث لا حاجة .

(ب) وفى عبارته الثانية ، وهى الموضوعة بين الحاصرتين ، يسوق صيغة عامة ، فيقول : ولا يجوز لمن يبقى الوديعة لديه ... الخ . ومعلوم أن من يبقى لديه الوديعة يدعى مودعاً ، ومستودعاً ومودعاً عنده ، وهى الاصطلاحات التى ترددت فى باب الوديعة . فلا جدوى إذا من التكرار دون نفع .

وليس هناك فرق ما بين صدرى عبارتيه : ኢይደሉ و : ኢብውሕ ، فمدلولها واحد . هذا فضلا على ما يلاحظ فى هذا الكتاب من عدم الدقة فى تحديد مدلولات أمثال هذه المصطلحات ، وتحديد ما يترتب عليها من آثار[١] .

---

(١) أنظر لكاتب هذا البحث : فتح نجشت : ١٨٩ ، وما بعدها .

وإن لم يكن ورثة صرفت [أى الوديعة (1)] عنه فى وجه بر ، بوقف أو صدقة ، باذن الحاكم أو بشهادة .

(٥ / ٢٣٦)

. . . ወእምዝ፡ የሀብ፡ ለወራስያኒ
ሁ፡ ወለእመ፡ አልቦቱ፡ ወራስያን፡
[ትእዛዝ፡ ለመሥዋዕት፡] ወይመ
ጽውትዎ፡ በእንቲአሁ፡ በፍና፡ ጽ
ድቅ። እመኒ፡ በጉልቶ፡ አው፡ በ
መጽውቶ፡ በእንቲአሁ፡ በትእዛዘ፡
ፈታሒ፡ አው፡ በሰማዕታት።

(٢٢/٢/١٩١)

الحديث هنا عن رد الوديعة فى حال وفاة صاحبها . وقد وضع النص الإتيوبى صيغة عامة فى الحكم ، فقال : « تكون قرباناً :: ትእዛዝ፡ ለመሥዋዕት። » ؛ ثم فصل الحكم مجال هذه القربة ، كما ورد فى الأصل العربى ، والزيادة هنا غير ضارة .

ومهما حصل من الوديعة من نتاج أو ما يجرى مجراه ، فحكمه فى الإيداع حكمها .

(١٠ / ٢٣٦)

ወለዘኒ፡ አስተጋብኦ፡ እማሕፀ
ንት፡ ለአዕርር፡ አው፡ ዘይመስ
ሎ፡ ለዝንቱ፡ ወፍትሑኒ፡ ይኩን፡
ከመ፡ ኑሚአ፡ ማሕፀንት። ወለኵ
ሉ፡ ዘኮነ፡ እማሕፀንት፡ አምሳል፡
ዘይረብሕ፡ አው፡ ዘኮነ፡ [...]
ወዘይመስሎ፡ ለዝንቱ፡ ወፍትሑ
ኒ፡ ከመ፡ ኑሚአ፡ ማሕፀንት፡ በአ
ንብሮ፡ ፈታሒ።

(١٣ — ٧/١/١٩٢)

مادة : አዕረፈ من معانيها : هدأ ، استراح ، استقر ، نام ، مات ، وكذلك : جازى ، كافأ ، أثاب ، أجر ، عوض عليه .

---

(1) زيد مابين الحاصرين للتوضيح .

والمعنى الثانى هو المراد فى هذا النص ، ويقصد به : العائد من الوديعة كالنتاج وغيره . وبذا تكون الفقرة الأولى من النص الإتيوبى مؤدية ما يقابلها من النص العربى .

ويلاحظ فى الفقرة الإتيوبية الثانية فقدانها مكمل الفعل : ዘከነ፡ ، وقد أشير إليه بحاصرتين . ويرجح أن ذلك خطأ مطبعى . ومما يفيد فى تأكيد سقوط هذا المكمل ، حرف العطف الذى يربطه بما بعده : ወዘይመስሉ፡ ለዝንቱ፡ .

وفى الفقرة هذه حكم جديد غير موجود فى الأصل العربى ، وهو أمر الحاكم : በአንብሮት፡ ፈታሒ፡ . وكان من الممكن إضافة هذا الحكم الجديد إلى الفقرة الأولى دون الحاجة إلى تكرار جميع أفكارها .

ومن لم يهتم بالوديعة كما يهتم بماله فقد غش .

والذى يطالب به صاحب الوديعة الغش والتضجيع ، [اللهم] إلا أن تكون الموافقة قد جرت على شىء آخر .

(٥ / ٢٣٧)

ወዘኢያስተሐመመ፡ በንዋየ፡ ማሕፀንት፡ በከመ፡ ያስቴሐምም፡ በንዋዩ፡ ናሁ፡ ተጓሕለወ፡ ወይትኃሠሥ፡ አማሕፀኒ፡ ከመ፡ ጕሕላዌ፡ [ወጽኑዕ፡ ኀሊና፡] ወተሀይዮ፡ ዘእንበለ፡ ይኩኑ፡ ስንእወ፡ ናሁ፡ ከነት፡ ላዕለ፡ ንዋይ፡ ካልእት፡ ግብር።

(٣/١ — ١٩٣ — ٢٥/٢/١٩٢)

تصرف المترجم الإتيوبى فزاد ما بين الحاصرتين : ወጽኑዕ፡ ኀሊና፡ ومعناه : وقوة التدبير . فصارت العبارة هكذا : ويطالبه صاحب الوديعة بالغش ، وقوة التدبير ، والإهمال وهى زيادة غير منسجمة مع السياق .

ويلاحظ كذلك أن المترجم الإتيوبى لم يتمكن من ترجمة الأسلوب العربى : « اللهم » ، فخلا منه نصه .

وإن تصرف فيها [أى فى الوديعة (١)] بقرضه لنفسه أو لغيره ، أو باستخدام ، أو برهن ، أو بعارية ، أو باجارة ضمنها إلي أن يعيدها إلي حرز مثلها .

(٩ / ٢٣٥)

ወለእመኒ፡ አስተዋፅአ፡ በተለ
ቅሖ፡ ለንፍሱ፡ አው፡ ለካልኡ፡
[አው፡ በተዓስቦ፡ ካልአን፡] አው፡
በአኅዝ፡ አው፡ በውሒሰት፡ [በዕ
ሤት፡ ተወሒሲ፡ አው፡ ይትሐበ
ያ፡ ከመ፡ ያግብእ፡ ኪያሃ፡ ኀበ፡
ምዕቅብናሁ፡ ለዘወሀበ፡ ኪያሃ፡፡]

(١٠/١/١٩١)

يقول النص الإتيوبى : وإن تصرف فى الوديعة بقرض لنفسه أو لغيره ، [أو بتأجير للغير] ، أو برهن ، أو بعارية [بأجر أو بضمان أن يعيدها إلى حرز من دفعها إليه] .

ويلاحظ أن الترجمة قصرت عما يشمله النص العربى .

(ا) فقد فاتها القصد من « الاستخدام » الذى عناه النص العربى ، إذ هو غير « التأجير » .

(ب) وجعلت « العارية : ውሒሰት » بأجر ، أو بضمان الإعادة إلى حرز صاحبها ، وهذا غير بسديد . فالعارية هبة المنافع بغير عوض ، والإعادة إلى حرز صاحبها بعد الانتهاء من استيفاء المنفعة أمر مفروغ منه .

(ج) وقد عرت كذلك عن جواب أداة الشرط ለእመ፡ ይትሐበያ፡ التى تصدرت الجملة ، حين تحولت جملة الجواب إلى جملة معطوفة مسبوقة بحرف العطف : አው ، ففات الترجمة الاتيوبية شيء كثير .

---

(١) مابين الحاصرتين مزيد للتوضيح.

أو أمره بتركها [أى الوديعة [1]] فى موضع مخصوص ، أو ألا يجعلها فى الموضع الفلانى ، فخالفه لا عن ضرورة ظاهرة لم يمكنه دفعها ، ضمنها .

(١٦ / ٢٣٥)

... አው፡ አዘዘ፡ ከመ፡ ያንብ ሩ፡ ውእተ፡ መካነ፡ እሙር፡ ወከ መ፡ ኢያንብሩ፡ ውእተ፡ መካነ፡ እገሌያዊ፡ ወአበየ፡ ወኢኮነ፡ እ መንገለ፡ ግጽባ፡ ዘኮነት፡ ዘኢይ ትክሀሉ፡ አንብሮታ፡ ይትአኃዝ፡ በዕዳሁ።

(١٢ — ٧/٢/١٩١)

مادة : : አንበረ معناها : ترك ، أبقى ، أجلس ، أقام فى منصب أو مدينة ... الخ . وقد تكررت فى الفقرة السابقة ثلاث مرات ، وهى تحمل هذا المعنى . بيد أنها فى المرة الثالثة لم يصادفها التوفيق ، لأنها تضاد المقصود من النص العربى ، حين يقول . « ... ضرورة ظاهرة لم يمكنه دفعها » .

ومن امتنع منهما من ذلك [أى من تسليم وتسلم الوديعة عند الفسخ [1]] ، صارت فى ضمانه ، وخرجت عن ضمان الآخر .

(٩ / ٢٣٦)

ወለእመ፡ አበየ፡ ዘንተ፡ ትክው ን፡ ዕዳ፡ ላዕሌሁ፡ ወወፅአት፡ ዕዳ፡ እምተሐባዪ፡ ካልእ፡

(٥/١/١٩٢)

صيغة : ተሐባዪ صيغة اسم فاعل ، ومعناها : الضامن . وتقول العبارة الإتيوبية إذاً . . . صارت فى ضمانه ، وصرفت عن الضامن الآخر .

ومعنى هـذا ، أن العبارة الإتيوبية تجعل كلا من طرفى العقد فى الوديعة ضامنا ، مودعاً كان أو مودعاً عنده ، وذلك غير سديد .

---

(١) زيد مابين الحاصرين للتوضيح .

ولا يصح الايداع إلا من جائز التصرف وبطلبه ، وعند جائز التصرف وبقبوله .

٢٣(١ / ٧)

ወኢይደሉ፡ ውሂበ፡ ማሕፀንት፡ ዘእንበለ፡ ለዘያለምድ፡ ከዊነ፡ እስተዋፅኦ፡ ወኃሢሦተ፡ በኀሉ፡ ለተቀብሎት፡ ንዋዩ፡ እምድኅረ፡ ለመድ፡ አስተዋፅኦ፡ ወተወክፎ።

(١٠/٢/١٩٢)

يشترط النص العربى أن يكون كل من العاقدين جائز التصرف فى ماله ، ولا يتم عقد الوديعة إلا بطلب من المودع صاحب المال ، وقبول من المودع لديه .

وقد وهم المترجم الإتيوبى فى ترجمته عبارة : « . . وعند جائز التصرف وبقبوله » ، إذ ترجمها : من بعد جواز تصرفه وقبوله :

እምድኅረ፡ ለመዴ፡ አስተዋፅኦ፡ ወተወክፎ።

وبذلك تكون الترجمة الإتيوبية قد تحدثت عن عاقد واحد ، هو المودع ، ولم تتحدث عن المودع لديه . ولعل ذلك قد نجم عن الاشتباه الخطى لكلمتى : عند ، وبعد .

وبعد ، فهذه الملاحظات اللغوية لباب الوديعة ، تجعل من المفيد نشر أحد النصين نشراً علميا ، وستتكفل به الفقرة الآتية من هذا البحث .

(٣)

الباب التاسع والعشرون

فى الوديعة

(من التطلس الثامن عشر وما حمل عليه[١])

الوديعة هى الشىء الذى يدفعه المودع للمودع عنده ، ليحفظه له بغير عوض [إلى[٢]] حين استعادته . فهى أمانة لمودعها عند مستودعها . فمن قبلها لزمه حفظها قدر اجتهاده والمصلحة عنده فى حفظ مثلها من ماله . فان هلكت بعد هذا لم يلزمه .

(١) ليس فى القوانين المعروفة بالتطلسات شىء يفيد فى باب الوديعة . انظر من هذا البحث : ص : ١٦٣ : وما بعدها .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من ش ، مع أهميته . ش : ٤/٢/١٩٠ . وانظر : ص ١٩٠ ، من هذا البحث .

وإذا أراد تسليمها لصاحبها حيث السلامة فامتنع ، [لم يضمنها حينئذ [1]] .

وإن فسدت فساداً طبيعياً مثل حيوان يموت أو شيء يسوس ، أو عدا عليها مما لم يكن فى قدرته دفعه مثل حريق أو غرق أو نهب أو سرقة أو اغتصاب ، لم يلزمه إذا لم يقم البينة بأن ذلك عرض من غشه أو سوء تدبيره أو تفريطه فيها دون ماله ، لأن هذه الأمور يطالب بسببها ، أو بما تقدم به شرط ووقع عليه اتفاقهما .

فان طلبها صاحبها فحبسها عنه ، وهو يقدر على تسليمها له ، أو جحدها ورجع اعترف بها ، ضمنها .

وإن تصرف فيها بقرضه لنفسه أو لغيره ، أو باستخدام ، أو برهن ، أو بعارية ، أو باجارة ، ضمنها إلى أن يعيدها إلى حرز مثلها [2] .

وإن أودعها لا لضرورة سفر أو غيره ، ضمنها إلى أن يستعيدها ، وليس للثانى أن يسلمها لصاحبها إلا بأمر مودعها له [مشافهة [3]] ، أو مراسلة ، إما برسول أو بخط معروف متضمن أمارة صحيحة .

ولا يجوز للمودع عنده أن يمتنع من خط يتضمن أن الوديعة عنده [4] . فان نهاه مودعها عن أن يخرجها فأخرجها ، أو أمره أن يسلمها لفلان فلم يسلمها له ، أو نهاه عن أن يسلمها لواحد معين فسلمها له ، أو أمره بتركها فى موضع مخصوص ،

---

(١) مابين الحاصرتين ساقط من ش : ١٢/٢/١٩٠ .

(٢) فى ش أ وان تصرف فيها بقرض لنفسه أو لغيره ، أو بتأجير للغير ، او برهن ، أو بعارية بأجر أو بضمان أن يعيدها الى حرز من دفعها اليه . ويلاحظ ان جواب الشرط المصدر به الجملة ، لم يذكر بعد . ش ١٠/١/١٩١ .

(٣) ترجمها النص الاتيوبى هكذا : ገጸ፡ በገጸ፡ = وجها لوجه : مواجهة . وهى ترجمة غير دقيقة . ش : ١٨/١/١٩١

(٤) ذكر النص الاثيوبى هذه المسألة فى صيغتين ، احداهما مزيدة ، وفى كل منهما بعض الاختلاف عن النص العربى . انظر المسألة فى هذا البحث : ص ١٩٢ .

أو ألا يجعلها فى الموضع الفلانى ، فخالفه لا عن ضرورة ظاهرة لم يمكنه دفعها [1] ، ضمنها .

وإن صارت إليه مع ما صار إليه من إرث من كانت مودعة عنده ، وعلم بها ، وأمكنه أن يذكرها لصاحبها ولم يذكرها ، ضمنها .

وإن أراد سفراً بعيداً ولم يجد صاحبها ولا وكيله ، فينبغى أن يسلمها للحاكم ، فان لم يمكنه فالى أمين .

وإذا لم يوجد رب الوديعة انتظر مدة لا يعيش أمثاله بعدها ، ثم تدفع لورثته . وإن لم يكن له ورثة [2] صرفت عنه فى وجه بر ، بوقف أو صدقة ، باذن الحاكم أو بشهادة .

وللمودع والمودع عنده فسخ الوديعة متى شاء ، بحيث يمكن المودع عنده أن يسلمها والمودع أن يتسلمها .

ومن امتنع منهما من ذلك ، صارت فى ضمانه ، وخرجت عن ضمان الآخر [3] .

ومهما حصل من الوديعة من نتاج أو ما يجرى مجراه ، فحكمه فى الإيداع حكمها [4] .

ومن قبل وداعة لمالكها وتسلمها من يد رسوله ، فمالكها هو المودع [له [5]] ، وله تسلم لا للرسول إلا بأمره ، وإن مات فلوارثه .

ومن قبل وديعة من واحد على أنه [أعنى قابلها [5]] يسلمها لآخر ، فعليه أن يسلمها لذلك الآخر ، ويعرفه أنها وديعة ، لا أن يسلمها لمودعها من يده لغيره .

---

(1) فى ش : ዘኢይትከሀሎ፡ አንብሮታ፡ = لم يمكنه ابقاؤهـا . ش : ٧/٢/١٩١ – ١٢

(2) زيد فى ش : تقدم قربانا . ش : ٢٣/٢/١٩١ .

(3) فى ش : وصرفت عن الضامن الآخر . ش : ٥/١/١٩٢

(4) أدى النص الحبشى حكم هذه المسألة فى فقرتين : احداهما مزيدة . ش : ٧/١/١٩٢ – ١٣ . وانظر مناقشتها فى هذا البحث : ص ١٩٣

(5) مابين الحاصرتين من زيادة الناشر : مرقس جرجس .

وإن أُودع اثنان لواحد وديعةً ، فلا يجوز له تسليمها لأحدهما إلا برضى الآخر .

ومن استودع مملوكا أو بهيمة ، فلم يطعمها ولم يسقها حتى ماتت ، لزمته ، ولو كان مودعها قال له لا تطعمها ولا تسقها . ومهما غرمه عليها لضرورة ، فله أن يطالب بها مودعها ، فان منعه صارت عنده رهناً على ذلك القدر وخرجت عن ضمانه من ذلك الوقت . والقول قول المودع عنده مع يمينه إذا اختلفا فى الوداعة والغرامة ، لأنه قد ائتمنه . فان أقام المودع البينة فالقول قوله .

ولا يصح الإيداع إلا من جائز التصرف وبطلبه ، وعند جائز التصرف وبقبوله [1] .

والوديعة تنفسخ بموت من هى مودعة عنده ، وبجنونه إلى أن يعقل .

ومن قبل وديعة قد علم أن مودعها سرقها أو اغتصبها ، فعليه تبعة الضعف .

ومن لم يهتم بالوديعة كما يهتم بماله فقد غش .

والذى يطالب به صاحب الوديعة الغش [2] والتضجيع ، [اللهم [3]] إلا أن تكون الموافقة قد جرت على شىء آخر .

---

(1) فى ش ፡፡ እምድኅረ፡ ለመደ፡ አስተዋፅኦ፡ ወተወክፎ። = من بعد جواز تصرفه وقبوله . ش : ١٥/٢/١٩٢

(2) فى ش زيادة : ፡፡ ወጽኑዕ፡ ኅሊና። = وشدة التدبير . وهى زيادة لا تنسجم مع السياق . ش : ٢٥/٢/١٩٢ — ٣/١/١٩٣

(3) صيغة عربية لم تترجم فى النص الاتيوبى . ش : ١٩٣/١/ — ٣

(Cairo Univ. Press, 703-1964-500 ex.)

Printed by Cairo University Press,

ʿAly ʿAssem

Director

οὐδ' ἐσιδῆν φαέ [σσι πρέπει νέ]κυν οὐδὲ γοᾶσαι
γυμναῖσιν Χαίταισιν, [ἐπεὶ φο] ινίκεος αἰδὼς

Col. III 35 δρύπτει μ' ἀμφι.. [
αἰε [ὶ] δὲ προπάροιθ [ε
ἐννεα [και] δέκατος [
Ἤριννά [ν τ] ε φίλαι π.[
ἀλακάταν ἐσορεῖ [σα

Note 2a. p. 21 Ὁ γλυκὺς Ἠρίννης οὗτος πόνος, οὐχὶ πολὺς μέν,
ὡς ἂν παρθενικᾶς ἐννεακαιδεκέτευς,
ἀλλ' ἑτέρων πολλῶν δυνατώτερος· εἰ δ' Ἀΐδας μοι
μὴ ταχὺς ἦλθε, τίς ἂν ταλίκον ἔσχ' ὄνομα;

Note 3 p. 22 Λέσβιον Ἠρίννης τόδε κηρίον· εἰ δέ τι μικρόν,
ἀλλ' ὅλον ἐκ Μουσέων κιρνάμενον μέλιτι.
οἱ δὲ τριηκόσιοι ταύτης στίχοι ἴσοι Ὁμήρῳ,
τῆς καὶ παρθενικῆς ἐννεακαιδεκέτευς·
ἣ καὶ ἐπ' ἠλακάτῃ μητρὸς φόβῳ, ἣ καὶ ἐφ' ἱστῷ
ἑστήκει Μουσέων λάτρις ἐφαπτομένη,
Σαπφὼ δ' Ἠρίννης ὅσσον μελέεσσιν ἀμείνων,
Ἤριννα Σαπφοῦς τόσσον ἐν ἑξαμέτροις.

Note 4 p. 23 ....: ὁ δὲ δώματος ἐκ μυχάτοιο
ἔρχεται Ἑρμείης σποδιῇ κεχρημένος αἰθῇ·
αὐτίκα τὴν κούρην μορμύσσεται, ἡ δὲ τεκούσης
δύνει ἔσω κόλπους θεμένη ἐπὶ φάεσι χεῖρας.

APPENDIX OF GREEK TEXTS

Note 3, p. 20 Col. I

14. ἐς βαθ] ὐ κῦμα

Col. II

15. λε] υκᾶν μαινομέν [οισιν ἐσάλαο π] οσσὶν ἀφ' ἵ [π] πω [ν·
"ἀλ] λ' ἴσ [Χ] ω," μέγ' ἄϋσα· "φ [ίλα," τὺ
δ'ἔοισα] Χελύννα

ἀλ] λομένα μεγάλας [ἔδραμες κατὰ] Χορτίον αὐλᾶς·
τα] ῦτα τύ, Βαυκὶ τάλαι [να, βαρὺστονα] Χεῖσα
γόημ [ι·

τα] ῦτά μοι ἐν κρα[δίαι καὶ νῦν γοε] ρᾶι ἴΧνια
κεῖται

20. θέρμ' ἔτι· τῆν [αδ',ἃ πρίν ποκ' ἐπα] ὑρομες, ἄνθρακες ἤδη·

δαγύ [δ] ων τ' ἐΧ [όμεσθα νεαν] ίδες ἐν θαλάμοισι,
νύμ [φαι] σιν [προσόμοιοι ἀκηδ] έες· ἅ τε πὸτ ὄρθρον
μάτηρ, ἃ ἔ [ριον νέμεν ἀμφιπόλ] οισιν ἐρείθοις,
τήνα σ' ἦλθ [ε κρέας προκαλευμέ] να ἀμφ' ἁλίπαστον·

25. αἲ μικραῖς τ [όκα νῶϊν ὅσον] φόβον ἄγαγε Μο-
[ρμ] ώ,

τᾶ]ς ἐν μὲν κο [ρυφᾶι μεγάλ' ὦ]ατα· ποσσὶ δ'
ἐφοίτη

τέ] τρασιν· ἐκ δ' [ἑτέρας ἑτέραν] μετεβάλλετ' ὀπω-
πάν·

ἀνίκα δ' ἐς [λ] έΧος [ἀνδρὸς ἔβας, τ]όκα πάντ' ἐλέλασο

ἅσσ' ἔτι νηπιάσα [σα] τ [εᾶς παρὰ] ματρὸς ἄκου-
σας,

30. Β] αυκὶ φίλα· λάθα[ν ἄρ'] ἐ[νὶ φρεσὶ --θῆκ'] 'Αφ-
ροδίτα·

τῶ τυ κατακλαίοισα τὰ [κάδεα νῦν] παραλείπω [·]
οὐ [γ] άρ μοι πόδες [ἐντὶ λιπῆν] ἄπο δῶμα βέβαλοι·

of finished verse worthy of imitation.

All these considerations together with Erinna's priority of date justifies the assumption that this poetess was among the different pre-Alexandrian poets who had more or less influence on the poetic output of the Alexandrian period. Poets and particularly the most eminent of them were fascinated by her : Callimachus has already been dealt with.Another is Theacritus, who may have introduced her to his fellow-poets as an authoress of a short or epyllion-like poem. Erinna was highly admired by both Callimachus and Theocritus together with their particular school. The sincerity of her passion and the simplicity of her language must have been her most cherished qualities. But neither Callimachus nor even Theocritus, the most natural and simple of his fellow-poets, could be her rival.

of that young poetess, the originator of this genre which he both admired and practised (1). In this he could also be regarded as one of the Callimachean school (2), by whom Erinna (3) was considered a writer of a flawless short piece,

---

(1) For his dislike of longer poems in imitation of Homer, See VII, 11. 45-48.

(2) The other school is the quasi-conservative whose representative is Apollonius Rhodius, the opponent of Callimachus.

(3) If Erinna was highly honoured by this school, Antimachus of Colophon was exceedingly favoured by others among the Alexandrian poets. This poet of the fifth century B. C. was glorified by unreserved praise by not a few poets, who considered him the founder of their school. It is his Lyde which fascinated them and roused their admiration for this poet. This elegiac work—in three books, called after the name of his beloved—is narrative in character or 'a sort of epic in elegiac verse as Couat (Alexandrian poetry under the first three Ptolemies, translated by James Loeb, London, 1931, p. 67) very intelligently called it, has all that delights many among the Alexandrian poets. It abounds in legends of every kind, prolific imagination and vast erudition. Its subject which deals with lovers and the enumeration of the great misfortunes caused by love, appeals to some of them such as Hermesianax who drew inspiration from it and made use of Antimachus' method of enumeration in his Leontion. Appollonius Rhodius in his Argonautica may have possibly copied Antimachus or at least consulted his account ot the Golden Fleece (See Couat, op. cit., p. 309., note 2). No wonder then if some of the eminent epigrammatists of the age celebrated this work of Antimachus. Asclepiades, an immediate pre-Alexandrian poet, in one of his literary epigrams paid it due homage. It is, in his opinion a joint work of the Muses and Antimachus 'τὸ ξυνὸν Μουσῶν γράμμα καὶ 'Αντιμάχου' (Anth. Pal. IX., 63., 1. 4). Poseidippus, Asclepiades' friend and pupil, mentions it in one of his scolion-like epigrams side by side with Mimnermus' Nanno (Anth. Pal. XII, 168). This admirer of the two collections was not blind to the fact that they are different in spirit and we owe to him his sound criticism on their composers : Mimnermus is the lovers ' friend while Antimachus is 'sober' (Ibid. 11. 1-2). Antipater of Sidon, an epigrammatist of the later Alexandrian period carried his praise too far. In an epigram which shows every sign of rhetorical influence (Anth. Pal. VII, 409 ; by error committed by scribe C, this epigram was attributed to Antipater of Thessalonica ; such is the opinion of the authorities), Antipater first praised Antimachus and his verses as a whole, then compared this same poet to Homer and in order to make this comparison effective and valid, he held a comparison between Zeus and Poseidon.

Callimacnus however gives us his own impression of Antimachus' Lyde which is absolutely different from those mentioned above. In one of his fragments which by a stroke of good fortune escaped oblivion, Callimachus considered it «a dull and unpolished piece of writing» Λύδη καὶ παχὺ γράμμα καὶ οὐ τορόν (Schol. Dion. Perieg. a. Schneid. Callim. 74B). Although the statement is very brief, yet Callimachus, the alert critic, succeeded in giving his judgement on the Lyde from two points of view : its subject-matter and treatment and also its style ; and by so doing he gave his general impression of Antimachus and his writings. What can be understood from παχὺ γράμμα according to Callimachus' own practice and views, results from the traditional characteristics which the cyclic poems have been revealing for a long time : long and minute accounts ab ovo, the hackneyed epidsodes, the use of epithets and formulae etc. Again Antimachus' Thebais as a cyclic poem which must have all the virtues and vices of this sort of poetry could not be, because the same defects, liked by Callimachus whose hatred for the cyclic poems and poets is well known (Anth. Pal. XII, 43 ; Strabo, XIV, 638, Mair, 7, wil. 6 and Cahen, 6).

Now if we turn to the stylistic defects to which the phrase 'γράμμα οὐ τορόν' refers, this Lyde must be regarded by Callimachus,—who, in spite of his erudition, is considered refined and elegant, as turgid heavy and unpolished. This is due perhaps to Antimachus' use of 'glosses', neologisms, obscure periphrases and the display of recondite learning. It is surprising that all these defects can be met more or less in nearly all the writings of the Alexandrian period including those of Callimachus himself. It is also surprising that there is an argumentative resemblance between Antimachus and Callimachus. The latter's minute recording of Artemis' titles and cults in his Hymn 'To Artemis' recalls what Antimachus practised in his hexametric poem on Artemis (Prof. Barber, V. S. Antimachus, Oxf. Class. Dict. p. 59). If this is a mere reminiscence of the former poet, it seems that there must be something in Antimachus' poems capable of attracting Callimachus' attention.

I hope it is now clear that if Antimachus has partisans among the poets of Alexandria, these are admittedly outside Callimachus' school.

is literary, dramatic and imaginary and not without artificial devices such as the refrains used by the Alexandrian poet. The fact that such similarity is not a mere coincidence can be attested by some words and phrases which occur in Erinna's poem and those of Theocritus' which I take as Theocritan reminiscences of Erinna. The word δαγύς—probably a Thessalian word (1)—which Erinna used when she recalled the childhood with its dolls, is not found in any Greek poetry except in Theocritus (2). This poet used this word in comparing Simaetha to a doll made of hard wax to show that her fair flesh became stiff and pale (3). Again Erinna's conception of Mormo, the bogey, as a trick for frightening children (4) can be met with in Theocritus (5). Theocritus' Mormo may seem a mere coincidence (6), as Praxinoa's Horse-bogey is of a different character, but in the light of Theocritus' other reminiscences of that poetess, he may have been chiefly influenced by her. Another reminiscence of Erinna can be traced with high probability in Theocritus' use of ἴχνια θερμά. That ἴχνια in both poets is qualified by θερμά which, as far as we know (7), is not found elsewhere, is strong evidence that Theocritus used Erinna's phrase, although he put it to a different use (8). So also Theocritus' conception of ἔριθος as a she-wool-worker, though used by Demosthenes in the same meaning (9), may still be regarded as a reminiscence of Erinna or at least as a mark of his familiarity of Erinna's Distaff (10).

These however are some examples which illustrate more or less the similarities of Theocritus' language to that of Erinna. They indicate in all probability that Theocritus was not only familiar with Erinna's Distaff, but also a keen admirer

---

(1) Cf. Voss. Virg. Ecl. 8. 73 (Liddell and Scott, VIIIth ed.).

(2) II, 110. As δαγύς may have been used for the first time by Erinna, the undisputed predecessor of Theocritus, it should have been rightly attributed to this poetess in the dictionaries, as it is always the case. To my wonder the Gr.—Engl. Lexicon (Liddell and Scott. New Edition—the Tenth-1940), for example, did not refer to this poetess, although her 'Αλακάτα was published in 1929 and in 1934. Vide Bowra, op. cit. p. 325, notes 1 and 2.

(3) This may be taken an evidence that Erinna's doll was made of wax.

(4) L. 25. Vide Appendix of Greek Texts, p. 29. It is noteworthy that Erinna's Mo ρμώ is described as a hideous she-monster with great ears, and four feet, and who used to change from one appearance to another, cf. Ibid. 11. 26—27.

(5) XV. 40 : μορμὼ δάκνει ἵππος'.

(6) The Mormo was well known some time before Erinna ; Cf. Xenophon, Hell. 4. 4. 17: 'ὥσπερ μορμόνας παιδάρια'.

(7) The only combination is found in an anonymous epigram, Anth. Pal. IX, 371, 1. 2, θερμοῖς ἴχνεσιν; but this epigram is of a later date and the phrase has a different meaning.

(8) Cf. Erinna, ibid., 11. 19-20 with Theocr. XVII, 11. 121-122. It is noticeable that Erinna used ἴχνιον the dim. of ἴχνος whereas Theocritus used ἴχνος. This may be due to the fact that Erinna's theme is more pathetic. It may also be due to metric requirements. We may state in passing that Erinna's Distaff was known to Virgil, for he also played with the same expression when he spoke of the love of Dido, Aen. IV., 23 : 'Veteris vestigia flammae'.

(9) 1313, 6.

(10) Cf. Erinna, ibid., 1. 23 with Theocritus, XV, 1.80.

elaborated, learned and affected sentimentality. Those are the characteristics of the Distaff which may have given its authoress an eminent literary position acknowledged by the Callimachean school, and exerted at the same time an influence on their compositions (1).

However Theocritus' relation with Erinna's Distaff and his reminiscences of the poetess are certain and uncontroversial. That is why only a close study of them can settle the question of Erinna's position among the Alexandrian poets. Of Theocritus' familiarity and reminiscences of Erinna, we have not a few instances in his work.

Theocritus' familiarity with Erinna's poetic work is almost undisputed. He knew her through his friend Asclepiades of Samos, the keen admirer of this poetess (2). As a matter of fact this poetess was known to the Coan school of poetry to which both Asclepiades and Theocritus belonged (3). That there is some similarity between Theocritus and Erinna in the treatment of a subject common to both of them is not difficult to see. Theocritus' lament for Daphnis(4) shares with Erinna's Distaff certain important features. Like the Distaff, this Idyll is written in hexameters (5). One of the differences between the two is that Erinna's Distaff., being the lament for Baucis, is real, personal and natural and a true record of her own feelings, while the lament for Daphnis (6)

---

(1) Especially Theocritus, see the following pages,

(2) Cf. Anth. Pal., VII, 11. See supra, note 2 a. p. 21. It is certain that Theocritus was a friend of Asclepiades. He mentioned him by his pen-name, Sicelidas, cf., VII, 1. 40. Prof. J. M. Edmonds (the Greek Bucolic Poets, L. C. L. P. XIV) says 'Sicelidas, on external grounds, is certainly to be identified with the poet Asclepiades ; it is to be noted that he is called Sicelidas elsewhere than in Theocritus'. Prof. Rose (Op. cit., p. 332) did not commit himself when he said «They mention a certain Sicelidas, who may perhaps be Asclepiades (note 63). So the schol. on VII, 40, giving as the reason that his father's name was Sikelos». Vide also Anth. Pal. IV., I, 1.46, where Prof. W. R. Paton (The Greek Anthology, London, 1927-vol. I., p. 113, Note 3—) agrees that Sicelides is a nickname given by Theocritus to Asclepiades.

(3) Philetas, the head of the Coan school of poetry, was known to Theocritus. He mentions him by name (VII, 1. 40). This may mean that Theocritus was either his pupil or was one of his admirers and thus belonged to his school.

(4) Idyll I, θύρσις.

(5) Erinna's poem, as a cry of sorrow on the death of a personal friend composed in hexameters, is, in fact, a substitute of the θρῆνος composed in lyrical metres. Thus it may be said with high probability that Erinna, as far as we know, was the creator of this personal hexametric-threnodic new type. She however has undoubtly used some earlier models so skilfully that she had a claim to be the originator of this specified lament. The model used may be Homer (Cf. Il. xxiv, ll. 472-4 where the Trojan women bewail Hector). Praxilla, the poetess of Sicyon (fl. 451 B. C.) and the authoress of the hymn on the death of Adonis may be another model.

(6) So is also the anonymous lament for Bion which may have been written in the Alexandrian age.

After this inevitable digression, we return to Antiphanes' epigram to discuss the reason why this young poetess, Erinna, was highly admired and by whom she was cherished. This poetess was, as inferred from this epigram, overestimated by the school of innovators, whose head was Callimachus [1]. No wonder Erinna won an exceptionally distinguished praise from this school. First she is an authoress of a short poem. Her Distaff in particular must have attracted them, being possessed of certain characteristics which meet their taste and conform to their literary principles and tendencies. It is short, in other words, an Epyllion—like poem [2], which they preferred to epic [3]. It is composed in hexameter, an unusual medium for expressing personal feelings [4]. Such a tendency towards composing poems in media other than the hexameter is not only favoured by them, but also generally practised by other poets of the period. In their hands the hexameter and elegiac couplet were used for themes of lyrical flavour. The traditional convention of treating a certain theme in a specific metre is by now, and on purpose thrown in the air [5]. Again its language which is a combination of Doric and Aeolic, harmonizes with the method they follow in their compositions. Callimachus and Theocritus, for example, used to mix two dialects or even more. Moreover being a mixture of realism and romance, the Distaff must have still more attracted them. Although the scholar-poets of Alexandria are more or less inclined to realism, they generally have a tendency towards romance. Thus we have in Callimachus, Theocritus and Apollonius Rhodius, for example, great figures of romanticism [6]. There still remain some obvious characteristics which may have been cherished by these scholar-poets: her sincerity, tenderness and, to a certain extent, her simplicity. It should be remembered, however, that Erinna's simplicity and sincerity were not looked upon by these poets as welcome stylistic features ; for the chief concern of the majority of those poets was for

---

(1) This is in contrast to the school of the quasi-conservatives, the mouthpiece of which, is Apollonius Rhodius. For the clash which took place between these two schools, see my article «The literary quarrel at Alexandria as championed by Callimachus V. Apollonius Rhodius, Cairo, Jan. 1964.

(2) As a matter of fact, it is not an Epyllion in the Alexandrian manner especially in the hands of Theocritus ; for the subject and characteristics of the Alexandrian Epyllion, see Prof. A. M. Duff, S. V. Epyllion, Oxf. Class. Dict. p. 336.

(3) See Callimachus' Hymn II, To Apollo, 11. 105-112 ; Anth Pal. XII, 43., 1. 1 ; Oxyrh. Pap. No 2079, 11. 3-5, 19-20, 17-18 etc. See my article referred to in Note. 1.

(4) See p. 25 and note 6.

(5) To give only two examples, Callimachus' Aetia, the themes of which are didactic in essence. is composed in elegiac couplets instead of the hexameter, the conventional vehicle of the didactic poetry. The Victory Ode for Sosibius (fr. 60. Pf.) which should have been in lyrical metre is also written in elegiac couplets.

(6) See Callimachus' Lock of Berenice (Catullus 66), Theocritus, II etc., and Apollonius Rhodius, the Argonautica, book III.

lampoon of Antiphanes of Macedonia, an Augustan epigrammatist, would possibly reveal Callimachus' attitude towards this poetess. In this epigram (1), in which Antiphanes furiously attacked Callimachus' school for being harsh critics, book-worms and fond of obscurity, he sarcastically addressed them as proud of Erinna 'ἐπ 'Ηρίννη δὲ κομῶντες(2). This phrase is evidently an added evidence to the admiration of the Callimachean school of this poetess. Again Erinna's conception of the Μορμώ (3), the bogey, as a means of frightening children is used by Callimachus who makes Hermes frighten the disobedient daughter of Oceanus (4). Here it may be said in passing that Callimachus' bogey is different from that of Erinna ; for he used a god for frightening a deity's daughter. In this he dealt with gods in a new way which is typical of Alexandrian practice ; for in the hands of the Alexandrian poets gods lost much of their old dignity. They were no longer considered as superhuman beings who presided over mankind and punished the evil-doers. Realism, a manifest feature of the Alexandrian poetic production, shows itself clearly in the treatment of these superhuman Homeric and Hesiodic gods, who sometimes, without intentional humiliation or disdain, were reduced to the status of human beings. They shared with human beings their good qualities, failures and troubles. We have many interesting and striking portrayals of these deities in almost all the poetic types of this period (5). They, too, sometimes became a fertile subject for a refined game of phantasy(6).

---

(1) Anth. Pal., XI., 322.

(2) Ibid., 1. 3. See infra p. 27 and note 3.

(3) Erinna. ibid., l. 25 For detailed discussion of the Mormo, Vide infra Note 42.

(4) Hymn III, To Artemis, 11. 68-71. Vide Appendix of Greek Texts, p. 30. By using the verb μορμύσσομαι instead of Erinna's Μορμώ, Callimachus may have wished, as he always did, to deviate from this poetess. It may also be said in passing that Erinna mentioned the Μορμώ (Ibid. 1. 25) in connection with herself and her friend Baucis as human beings. Callimachus on the other hand makes Hermes play the part of Μορμώ for terrifying a deity's daughter.

(5) Few examples would illustrate such treatment. Hephaestus used to go early to his work-shop as an ordinary paid-worker (Apoll. Agron. III, II. 40-43). Cypris, his wife, is depicted as a typical eastern middle-class woman. She is a good housekeeper, who manage her own affairs without the help of a maid either to look after her or her house ; for she dresses her own long hair (Ibid., ll. 45-47). Again she takes interest in family life responsibilities, for she makes her husband's bed herself (Ibid., 1.40). As a mother, Cypris had her own troubles. Her only son, Eros, does not obey her. He is naughty and a rascal. In a very fascinating passage Apollonius disclosed to our eyes a picture of Cypris and her heavenly guests, Hera and Athena. As soon as her guests begged her to order her 'boy' to charm the Colchian princess, Medea, with love for Iason, she began to complain of her son's conduct and behaviour (Ibid., I. 190 sqq.). No human mother could have complained more bitterly.

(6) Zeus, the father of the gods, for instance, became a flirt and a seeker of love-affairs (Theoc. Idyl. VIII, 11. 59-60). Theocritus also deemed Eros to be cruel (Idyl. III, 1. 15). The amatory epigrams of this period abound in references attributing naughtiness to different gods, especially to Zeus and Eros. In fact this rather irreverent treatment of gods is by no means new. Long before gods suffered much at the hands of the masters of comedy. If the Alexandrians, however, were not the originators of this convention, they were at least unique in developing it.

Erinna is spoken of as a sweet and new singer who was carried off by Hades, while she was gathering flowers of the Muses. In this he likened the poetess who died young to the mythological Persephone. But after all, this epigram is no more than a fine homage paid to Erinna.

Now we pass to Erinna's 'Αλακάτα, which is the main subject of this article. An anonymous epigrammatist eulogized Erinna (1), the mistress of the Distaff who sang it with her swan-like voice (2) and because of which she is immortal and joins in the dance of the Muses. Her 'Αλακάτα proper was the subject of a laudatory epigram (3) written by another anonymous epigrammatist who seemed very interested in the Distaff and its young authoress. To him she is equal to Homer and not inferior to Sappho. The lines of the epigram run thus : «This is the Lesbian honeycomb of Erinna, and if it is small, it is all mixed with honey from the Muses. Her three hundred lines are equal to Homer, though she was a girl of nineteen years—a maid who at once in fear of her mother, sat by her distaff and stood at her loom as a bond servant in the service of the Muses (4). As much as Sappho surpasses Erinna in lyrics, so much does Erinna excel Sappho in hexameters». This appreciation of Erinna's 'Αλακάτα is in my opinion, rather mere enthusiasm than pure criticism, but it is not altogether untrue ; for this poem, as one of our eminent modern scholars sees it, is epoch-making (5).

Such general appreciation leads us to discuss the different opinions of some of the eminent poets and the first makers of Alexandrian poetry given of Erinna and her Distaff such as Callimachus, the prolific poet, and Theocritus, the reviver of mime and the father of bucolic or pastoral poetry. This will reveal Erinna's position among the Alexandrians and her relation with them. Callimachus' extant poems never mentioned even the name of Erinna, but an epigrammatic

---

(1) Anth. Pal.. VII, 12.

(2) This epigram may be a copy of Antipater's (of Sidon) epigram (Ibid., VII, 713) ; Compare 1. 2 of this eipigram with 1. 7 of Antipater's one.

(3) Anth. Pal., IX., 190. Vide Appendix of Greek Texts, p. 30. This epigram is attributed variously to Callimachus (Benndorf), Antipater of Sidon (Stadtmüller) and to Meleager (Wilamowitz). I myself, am disinclined to attribute such an epigram to Callimachus or to Meleager, since, these, who revealed themselves dexterous literary critics, could have not taken her as an equal to Homer nor could they have held a comparison between Sappho and Erinna on the basis of metre. The comparison may have been justified by common character of the writings of both poetesses. See further Prof. Bowra, op. cit. p. 342. Otherwise such a comparison cannot be taken seriously.

(4) Erinna may have taken part in working at wool (see Erinna's Distaff., 1. 39). Her mother may have employed women as hired wool-workers (Ibid., 11. 22-24)· In this the mother would be like the daughters ofLycomedes of Leonidas of Tarentum, cf. Anth. Pal., VI., 288.

(5) Wilamowitz, op. cit., p. 108.

who concerned themselves with Erinna. Asclepiades, the Hellenistic epigrammatist(1) wrote an extremely fine epigram in which Erinna was highly rated. By putting the following words in Erinna's mouth, he tried to do justice to the poetess : «This is the sweet work of Erinna, not great in size as being that of a maiden of nineteen, but greater in power than that of many others. If death had not come early to me, who would have had so great a name ? (2a). Such a high appraisal, although not analytical, is due to that young poetess' true and tender sentiment which is generally revealed in her epigrams and also in the lament, the 'Αλακάτα for her friend Baucis. Although there is not the slightest hint to Erinna's 'Αλακάτα, yet Asclepiades' metaphoric ἀνθρακιή in one of his amatory epigrams(2b) is not a mere coincidence but a reminiscence of this poetess (3) and it is at the same time a mark of Asclepiades' appreciation of this poem. Again Antipater of Sidon, the Alexandrian epigrammatist of the second century B. C., paid Erinna an exaggerated homage. He played a note on Asclepiades' chord but in his own rhetorical way (4). Her poetical works, which are evidently tender and pathetic are likened by Antipater to the low song of the swan in contrast to the cawing of sonorous jackdaws (5). In this he might have been thinking, among her other poems, of the 'Αλακάτα. In a third epigram attributed either to Leonidas (of Tarentum) or to Meleager (6),

---

(1) He wrote in the Hellenistic Period I, which begins with 323 B. C. and ends just before the years 280-275, the beginning of the Hellenistic Period II or the Alexandrian Period. Cf. my article «An attempt for defining the 'Alexandrian Period, as an independent era of Greek Literature», Mondial Press, Cairo, 1955, where (pp. 13-14) I said 'It is time, then, that we began to use the terms «Hellenistic» and «Aexandrian» in their strictest senses. «Hellenistic» is naturally used only as a general label for the whole period beginning with 323. «Alexandrian» represents a definite division of the «Hellenistic» beginning with one of the earlier years of the reign of Ptolemy II Philadelphus'.

(2 a) Anth. Pal. vii, 11. vide Appendix of Greek Texts, P. 30. This is not absolutely a sepulchral epigram. It should have been included in the ix th book, since it is nothing but a critical note on Erinna's poetic works. It is believed by some that this epigram is a prefatory poem to Erinna's small book (cf. Pierre Waltz, op, cit., iv., p. 61. n. 1 and Prof. Bowra, op. cit., p. 339) where the latter assumed that Erinna's book was first published by Asclepiades. Such views however could not be readily accepted for granted.

(2 b) Anth Pal. xii, 166.

(3) Cp. Asclepiades, ibid., 1, 4 with Erinna, 1. 20.

(4) Anth. Pal. VII, 713, This epigram is wrongly included in sepulchral eipigrams. It should have been included in the ix th book, since it is an appreciation of Erinna's verses. I agree with Prof. Bowra's deduction that this eipgram is an eulogy of her Distaff, as it is the only hexametric poem which we have of this poetess. see his discussion (op. cit., p. 340).

(5) Ibid., 11. 7-8.

(6) Anth. Pal. VII, 13 [Leonidae tantum apud Plan. tribuitur, Leonidae tribuunt plerique commentatores, Meleagro vero Hecker, Stadtmüller, Wifstrand (Pierre Waltz, op. cit., IV, p. 62)]. It is noteworthy that the epigrammatist used a quotation from Erinna's epigram on her friend Baucis. Vide 'Βάσκανος ἔσσ', 'Αΐδα' of the IVth line of this epigram and IIIrd line of Erinna's epigram (Ibid. 712). This epigram is an epideictic epitaph.

fourth century B. C. She is a native of a little island, Telos, which belonged to Rhodes (1) and she died about 350 B. C (2), at the very young age of nineteen (3). In this case Erinna would be precisely a forerunner of the poets of the Alexandrian Age. If this is so—and it is highly probable—, the relation of this poetess with the Alexandrian poets becomes clearer.

Erinna is known to us through some fragments and epigrams (4) and also through a short or epyllion-like poem containing 300 hexametric lines (5) called the Distaff, 'Αλακάτα(6).

I am here concerned with the 'Αλακάτα, because it shows the authoress at her best. In this poem, Erinna commemorated simply and yet artistically, her affection for Baucis, who was her friend from early childhood and also depicted her grief on two occasions; these were her separation from Baucis on the latter's marriage and Baucis' death shortly after that. The poetess recalls some memories of childhood and speaks of games and dolls and bitterly sings of past pleasures (7).

This short and rather sketchy account of Erinna's life having been given, it is now time to give some account of the criticism of the poets

---

(1) Op. cit, p. 108 ; She may be still a native of Tenos.

(2) Cf. Pierre Waltz, Anthologie Grecque, Tome III, 1931, p. 186.

(3) In the papyrus containing the remains of Erinna's poem on her dead friend Baucis (see Bowra, Greek Poetry and Life, p. 325 sqq. Lines 14-39 will be found in the Appendix of Greek Texts, pp. 29-30) the word ἐννεα [και] δέκατος is mentioned in l. 37. This must refer to Erinna's age. Cf. Asclepiades, Anth. Pal. vii. 11, 2, παρθενικᾶς ἐννεακαιδεκέτευς, the anonymous epigram, Ibid., ix, 190, 4, παρθενικῆς ἐννεακαιδεκέτευς and Suidas, s. v. Ἤριννα τελευτᾷ δὲ παρθένος ἐννεακαιδεκετευς. These references may be taken as evidences that she died when she was nineteen years old.

(4) Cf. Deihl, I, pp. 486-488. Of the three surviving epigrams, one is dedicatory (Anth. Pal. vi., 353) and two sepulchral (Ibid., vii, 710 and 712). Meleager's Stephanus must have included some more to justify its author's γλυκὺν Ἠρίννης παρθενόχρωτα κρόκον (Anth. Pal. iv., I, 1. 12). I may say in passing that Meleager imitated Erinna, but the model excels the copy. Compare Meleager's Ibid. vii, 182 with Erinna's ibid., vii. 721.

(5) On the length of the poem, see Suidas, s. v. Ἤριννα and follow Prof. Bowra's argument (Greek Poetry and Life, pp. 340-341). Anyhow after he aroused some doubts, he was finally convinced that Suidas' statement is right. Cf. also the anonymous epigram (Anth. Pal. ix, 190, 1. 3) οἱ δὲ τριηκόσιοι ταύτης στίχοι.

(6) This title which we also owe to Suidas, may not have been given by Erinna but may be an invention of some one else. However although the poem is painly a lament, yet some words in the poem refer to wool-making and spinning : cf. ἐρείθοις (1.23) and ἀλακάταν ἐσορεῖ[σα. Outside the 'Αλακάτα we meet some phrases which indicate that their writers were familiar with this poem of Erinna : cf. Anth. Pal. vii, 12, 1. 4 ... λινοκλώστου δεσπότις ἠλακάτης and ibid., IX. 190, 1·5., ἢ καὶ ἐπ' ἠλακάτῃ μητρὸς φόβῳ, ἢ καὶ ἐφ' ἱστῷ...

(7) See further Prof. Bowra's detailed treatment of the poem, op. cit. 327 sqq.

ERINNA: THE POETESS OF TELOS, AND THE POETS OF THE ALEXANDRIAN SCHOOL

BY

M. M. EL SALAMOUNI, Ph.D.

Professor of Classics
Faculty of Arts, Cairo University.

Erinna, the poetess of Telos and the authoress of the Distaff(1), was one of the favourite figures who found enthusiastic admirers among some of the Alexandrian poets. As their admiration must have been based on some foundation, I have found it worth my while to concern myself with a study of this poetess and her art. In so doing, I hope to shed some light on her poetic art, which was enthusiastically welcomed by these poets, and her relation to the Alexandrian school of poetry at Alexandria in general.

In order to deal with these questions systematically the poetess' date, which is a debatable point, should be first settled. According to Prof. Wilamowitz (2), Erinna began her poetical career about the middle of the

(1) See p 20, Note 6. and Appendix of Greek Texts, pp. 29-30.

(2) Hellenistische Dichtung in der Zeit des Kallimachos, 1924, p. 108. Prof. Wilamowitz' date is based on the authority of Jerome's version of Eusebius, who placed it in 01. 106-7, 356-353 B. C. This seems to be the only reasonable one in ancient authorities. Suidas' statements on Erinna (S. V. Ἤριννα) are inconsistent and also unhelpful. He is uncertain of what he states especially about the place and date of her birth. Thus according to him her birth place is Tenos or Lesbos or Telos or Rhodes and he makes her a contemporary of Sappho "ἦν δὲ ἑταίρα Σαπφοῦς, καὶ ὁμόχρονος".

Prof. Bowra in two most illuminating articles on Erinna (New Chapters in the history of Greek Literature, III series, Oxford, 1933, pp. 180-185. and Greek Poetry and Life, Oxford 1936, pp. 325-348) of which I gratefully made use, wishes to consider Erinna as an Alexandrian poetess. He says 'though the evidence is scanty, it looks as if her short period of poetic activity took place in the first quarter of the third century', (New chapters ... p. 184). Then he changes his mind three years later and considers her a forerunner of the Alexandrian Age ;he says ' if she did not herself belong to the Aleexandrian Age, she was at least its forerunner' (Greek Poetry and Life, p. 341).

We are not then far from the truth in stating that Erinna belongs to the fourth century and probably to its middle ; Cf. also Prof. Rose, H. J. (A Hand Book of Greek Literature from Homer to the Age of Lucian, ivth edition, 1950) p. 341 ; Crusius, PW. vol. vi. p. 455 ; R. Reitzenstein, Epig. und Skolion, p. 143 and others.

Textes des Cercueils (Speleers), Discours 45, 193 : «I stretch my arm towards thee, on this day of presenting offerings to thy *ka* and thy *ba*».

Book of the Dead, Ch. I, 34-36 : «O, you who present offerings to the beneficent souls (*Baw*) in the house of Osiris, please present offerings twice per day to the *ba* of Ani before the lords of Abydos».

The tomb of Ramses VI (Piankoff, p. 192, 193, 243. etc.) : «Those who used to bring water for the souls (*baw*)».

«O, you who conduct the souls (*baw*) towards the plantations, please offer your vegetables to the souls (*baw*)».

«O, (souls), feed on your vegetables, and satiate yourselves to the full, therewith».

(b) «for myself»., (as a polite alternative for the ordinary address : to thee) ([1]).

(c) *or rather*, «for (the benefit of) thy activeness».

It was not only food, libations and funeral invocations that were offered to the *ka*, but there were also entertainments held with songs and dances ([2]) in order to amuse the eternal living person as a whole.

Spiegel, Junker and Schweitzer ([3]) mentioned a few interesting variants of the offereing formula, from the inscriptions of Mrrw-ka, such as : «n Mrrw-ka » ; «n ka n Mrrw-ka» ; «n ka. f» ; and «n Mrrw-ka n ka. f».

As for the last formula «n Mrrw-ka n ka. f», the three scholars suggested that «n ka. f» is a Badalapposition for «n Mrrw-ka». This might be true, but it might be more probable to suggest an omitted conjunction and translate the sentence as : «for Mrrw-ka and for (the (benefit of) his activeness». (Also : n Ssy n ka. f = for Sesy and for (the benefit of) his activeness).

The other true spiritual side of the man, his soul «*B*ꜣ», was frequently assured, rather than the *ka*, to gain liberty on its behalf to enter the tomb, descend to the burial chamber, join the body, get out by day, climb the pyramidion, adore the shining sun, drink from the lake of the tomb-garden, perch on its trees, ascend to heaven, shining as one of its stars, wander through its abodes, and receive the donations from the gods therein ([4]).

The *ba* had its several significances in religion and funeral beliefs, as to denote either soul, or spiritual power, or external manifestation, and so on, but as for its share in the offerings, on earth and in heaven, the following quotations are to be cited :

Pyr. 859 a-c : «O, Pepi, raise thyself up, for this is thy bread which will never mould, and for thy drink which will never stale, in order to be a *ba*, keen and powerful, therewith».

Pap. Petersburg 1116 A rt. : «No magic can restrain the *ba*, but it hastens towards those who give it water (libations).

---

(1) See also, Steindorff., in Ae Z, XLVIII, 156 ; Junker, Giza III, 156 ; Schweitzer, op. cit. 82.

(2) Giza 7102 (Reisner).

(3) Spiegel, in Ae Z, LXXI, 56 f. ; Junker, op. cit., 156 ; Schweitzer, op. cit.. 81.

(4) Textes des Cerceuils, 93-97 ; 34, 128 ; 35, 130 ; 38, 162 ; Book of the Dead, Ch., I ; XV, 18 ; LXXXIII ; L XXXIX ; XCII ;Pap. of Ani, pl. 33-34 ; Vatican 127 A (5) D. 18; London Stele 599 ; Piankoff, The tomb of Ramses VI, 78, 135, 219, 322, 328, 331, 336.

This prevalent point of view concerning the Ka and offering, cannot be easily rejected, yet it must be noticed that the ka-symbol with its two upraised arms (which are in fact intended to be stretched infront),has never been depicted as coming in or out of the tomb by its own, but it is the figure of the dead himself with his usual features that was sometimes shown in the round, going out of his tomb to receive the offerings by his two strectched hands (1). The famous ka-statue of the young king Hor is not a mere representation of the ka-symbol, but it is the figure of the youth himself with the ka symbol above his head (2). These questioned representations confirm the above mentioned notion that the *ka* was not merely a spiritual part of the man, but it was mainly the whole energy (طاقة) and activeness (فاعلية) of his living, that which would constitute his new animated state in the other world (3).

This new state is probably what is meant in such a Pyramid text as «n sk. k n sk k ; . k ṯw k ; » = «Thou wilt not perish, (and consequently) thy *ka* will not perish, for thou art the *ka* (itself) » (4). The same sense led to consider the whole tomb as the house of the *ka* «ḥwt k ; » (5) and led to compose the priestly title «ḥm-k ; » , *i. e.* the servant of the *ka* or he who regards (يرعى) the *ka* (6), but as the ka-statue was usually intended to show the expected figure of the man in his future life (7), the ḥm-ka was consequently concerned also with it.

When a man offers his oblations for the dead, saying : «to thy *ka* : n k ; . k», he intends simply to express what he believes of the current meanings of the *ka*, such as :

(*a*) «for (the benefit of) thy spirit». (Such a spirit that which was qualified sometimes with pureness «ka wâb» and rightousness «ka maât») (8).

---

(1) Giza, 7102.

(2) De Morgan, Fouilles à Dahschour, I, pl. XXXIII, XXXIV, (Cairo 280).

(3) Compare, J. Spiegel, Die Idee vom Totengericht, 9 Anm 3.

(4) Pyr. 149 d. and see Greven, op. cit. 15

(5) Gardiner and Davies, The tomb of Amenemhet, 73 ; Schweitzer, op. cit., 84 f.

(6) Compare Spiegel, in Ae Z, LXXVI, 112 f. for ḥm as : «menschengestaltig», and for ḥm-ka and skhn-ḥm as : «der den Leib umarmt». 118 f, and see also Junker. Giza III, 118 ; Schweitzer, op. cit. 86.

(7) Long ago Steindorff noticed that the ka in the otherworld might refer to the dead himself and refer sometimes to his statue (op. cit., 155). He was followed partly by Junker and afterwards by Kees and Schweitzer who proposed that the ka-statue of the serdab usually represents the man in his new state in the otherworld, while his statue of the offering room usually represents him in his first gesture of life. (H. Kees, Totenglauben, 182 ; Schweitzer, Das Wesen des Ka, 88-89).

(8) Wb. V, 87, 14 ; 88, 1 (Theb. Grab 22, 124 D. 18).

The theory of Renouf [1] and Maspero which regarded the *ka* as an external «double» [2] became shadowy, but it still throws its shadows upon certain Arabic works, because of a popular belief in a «Karin قرين», or an underground companion which is still mentioned in the present Egyptian folklore.

What could be added furthermore concerning this supposed connection between the two, is that the present Egyptian folklore imagines the «Karin» of a different sex from the person himself, a belief which goes in contrast with the ancient Egyptian concept that used to show the *ka* in the same gendre as its owner [3].

Nevertheless, the questioned theory of Renouf and Mespero is not totally exhausted, but still has another serious basis, that is of the representation of the royal *ka* together with the crown prince or the reigning king, depicted in the same features and aspect of him, or somewhat smaller than him [4].

This representation is still a serious problem, but, can it be supposed that it was just an artistic attempt to show the imaginary hidden characteristics of the growing prince or living king? This supposition, fantastic as it is, was not strange to the Egyptian artist who exhibited the containers side by side with which they contain (such as the grainaries near by the heaps of grains which they really contain) [5].

At any rate, the royal *ka* was depicted sometimes in its secondary phase of protection, embracing the king from behind [6] and following him to his eternal abode with the name of «the (ever) living royal *ka*» [7]

* * *

It has been widely accepted that the funeral oblations were usually offered to the *ka*, that distinct part of the dead, which can go in and get out of his tomb to embody his statue and receive the offerings.

---

(1) Le Page Renouf, in TSBA VI, 494 (in which he was inspired by Nestor L'Hote and Birch).

(2) «Un second exemplaire du corps, en une matière moins dense que la matiere corporelle, une projection colorée, mais aérienne de l'individu, le reporoduisant trait pour trait» G. Maspero, Etudes de mythologie et d'archéologie, I, p. 7, 77 f.; also. Naville, La religion, 53, f; Wiedemann, Das alte Aegypten, 72 ; Jequier, Histoire de la civilisation égyptienne, 1923, 151 f.

(3) As for the feminine ka see : Urk. I, 214, 11. 12, 13, 16, 17 ; Mariette, Dend. III, 20 r, 26e ; Edfu I, 240 ; Steindorff, in Ae Z, XLVIII, 157-158.

(4) Jequier, Le Temple du Pepi II, pl. 30 ; Naville, Deir el-Bahari II, pl. XLVI-LV ; Gayet, Louxor, pl. LXIII-LXVII.

(5) Wreszinski, Atlas, 63, 245 ; Schaefer, von aeg. Kunst, Taf. 45 ; Annal Serv., 48., 177, Fig. 17 ; also Quibell, The tomb of Hesy, pl. XXI-XXII.

(6) L.D. III, 34 b ; Steindorff., op. cit., 158.

(7) Ibid. 157 and references (L. D. III, 20 a, 21, 55 b, 78e, 113 a).

At any rate, it might worth mention that as the king is said to purify his *ka*, he is said to purify also his might (sḫm)([1]), which is nothing outside his personal being.

* * *

The plural «Kaw» implied many significancas similar to those of the singular *ka*, such as : spirits ([2]), internal and obvious faculties ([3]), and activities.

As for the latter meaning which concerns us, the Egyptians ascribed to their gods many *kas*, that is to say, many aspects of activities ([4]). Rê had fourteen *kas* of his own ([5]). The same qualities were invested in the Pharaohs ([6]) and even in some noblemen.

Similar to those assistant royal *kas* referred to in the Pyramid texts, there were also other *kas* mentioned in the tombs inscriptions and were desired to help the dead in one way or another, so as to hold his arm, guide him to the pure abodes, and lead him upon the roads of the west ([7]). Such *kas* might refer to ancestoral energetic *kas* ([8]), or refer idiomatically to the effectual personal attributes expected to assure the man's share in his prosperous eternal life ([9]).

One of the rare personal names which mentioned the personal *kas* in plural is the feminine name «ꜣṯt kꜣw. s» from the Old Kingdom ([10]).

* * *

(1) Pyr. 837, 839.

(2) For : kaw, kaw ankhw, nbw kaw, khntyw kaw, see Wb. V, 90., 5f., Pyr. 906 e ; 1215, 1220 ; Berlin 2066 ; Urk. IV., 223, 245 ; L. D. III, 17 e ; Mariette, Adydos, I, pl. 17., 39 b, 40 a ; Mem. Miss, XV, pl. 47, Fig. 109.

(3) For : Imn-kaw. khây-kaw, Wsr-kaw, etc.., see : Pyr. 1343 ; Pap. Kahun I, 1, 2, L. D. II, 12 b ; Cairo 42211 ;Urk, IV, 361, 4, 456 and Wb. V. 91. 5f.

(4) Such as : Spd, djd, wash, irw, sia, hw, hka, wbn, nkht, etc,... compare : Schweitzer, op. cit., 73 f. and references.

(5) Wb. V, 89, 8-9 : Amarna. V. 2, 6 ; L. D. III, 104, 10, 194 ; Rochen, Edfu, I, 441 ; Dumichen, Tempelinschriften, I, 29, 2; Brugsch. Wb. Suppl. 1230 ; Kees, Gotterglaube, 159.

(6) Naville, Dier el Bahari, II, pl. LII ; Gayet, Le Temple de Louxor, pl. 63, Fig. 203, and compare Pyr. 396. a.

(7) Urk. I, 189 ; Mariette, Mastabas, 10 D, 2F ; Gunn, Teti Pyramid Cem., 122 ; Petrie, Deshasheh, pl, 28 ; Newberry, Bersheh, I, 34 ; Beni Hasan II, pl. 6 ; Capart, in AeZ, XLII, 144 f. ; Junker, Giza III, 118.

(8) Compare H. Junker in Mitt. Kairo IX, 26 f. (where they are compared with the mww and the Predynastic Kings of Buto).

(9) Compare also U. Schweitzer, Das Wesen des Ka, 83 ;» die Summe aller Lebenskräfte» also L. Greven, Der Ka in Theologie, 27 ; «einer Summe von gottlichen Eigenshaften, der er dann weiter in ihrer Personifizierung als Schicksalsgotter bezeichnet».

(10) See Junker, Giza III, 177» Die Ernährerin ihrer, das ist der Mutter, Kas».

with both arms and legs (1), send its messengers to him (2), and be ready to mention him in the presence of the great god (3). So, the Pharaoh was promised to walk (4), sit (5), eat (6) and talk (7) with his *ka*, and even to sleep by and awake with (8), wash (9) and purify it, as well as himself (10).

The nature of the above mentioned *ka* is still vague, but is frequently interpreted as to be a paternal *Ka* (or activeness) ready to join the descendant and could be transferred to him.

With this notion it was said to the Pharaoh : «Summon thy *ka*, that is Osiris, in order to protect thee from any anger of the dead» (11).

«Horus will never go far away from thee, for thou art his *ka*» (12).

«O, Osiris … , Horus has avenged thee and accomplished this for the benefit of his *ka* which is in thee (or which is out of thee «im. k») be then satisfied in thy name of the «Satisfied Ka » (13).

«Osiris …, Horus has avenged thee (on earth) be then his *ka* (in the otherworld) » (14).

It is not improbable that the afore mentioned *ka* could be treated also as a verbal badal equivalent of the person himself and as a synonym for the Egyptian term «ds. f.»

Modern Egyptian colloquial language still uses similar experssions, such as : «he consults his spirit or his soul يشاور نفسه أو يشاور روحه with the meaning of : «he consults himself».

---

(1) Pyr. 18 a.
(2) Pyr. 136. b.
(3) Pyr. 816 d.
(4) Pyr. 1275 a.
(5) Pyr. 789 b, 1357 b.
(6) Pyr. 564 b, 789 b., 1357 b.
(7) Pyr. 2051 b.
(8) Pyr. 894 a-b.
(9) Pyr. 789.
(10) Pyr. 372, 837, 839.
(11) Pyr. 63 a.
(12) Pyr. 610 c.
(13) Pyr. 647 d., also 582 c.
(14) Pyr. 1609 b., 1831-32.

suggestion goes in contrast with the Egyptian concept which stated that the re-coupling of the man and his *ka* gives him ability [1], and «assists him to ascend to heaven » [2], « to acquire his nourishment» [3], and to remain pleased, by means of it [4].

So, rituals stated : «As long as the *ka* of N. is in him, he will endure forever and eternally[5]»,

«Thou wilt not perish, (and consequently) thy *ka* will not perish, for thou art the *ka* (itself) » [6].

The blessed *ka* was named : ḥtp, mry and ḥsy [7].

In some late Egyptian rituals the Horian god Imsty is said to bring the *ka* before and behind the dead and promise him that it would never abandon him [8]. In a comparison between the *ka* and the *ba*, the dead is announced : «May thy *ka* be (always) powerful and thy soul «*ba*» be (always) excellent »[9].

On the contrary, when the *ka* is done away with the person, he will be consequently badly affected [10].

Another brief comparison can be held between the Egyptian Ka and the Semetic Nafs (نفس) as somewhat distinctive from the Soul, Semetic روح .

The Holy Qoran considers the Nafs as more representative of the mortal's individuality together with his materialistic emotions and needs, more attached to his transmission from life to death, and more liable to the other world judgement, than the Soul.

* * *

Other serious early rituals mentioned a certain sort of Ka in such a way, as to mean an independant entity able to regard the deceased [11], protect him

---

(1) Pyr. 18 a-b ; 63., 1055a.

(2) Pyr. 1431 b.

(3) Pyr. 564 b.

(4) Pyr. 338 a ; 2028 ; Urk. IV., 499.

(5) Pyr. 1653 d.

(6) Pyr. 149. d.

(7) See Wb. V, 87, 9 (Urk. IV., 132, 618, 750 ; Pap. Kahun 29, 43 ; Rec. Trav. 29, 151 A ; Mem. Miss. V, pl. V).

(8) Wb. V, 87, 1 (Theb, Grab. Nr. 157, D. 19).

(9) Wb. V, 87, 1 (Theb, Grab. Nr. 68, D. 18).

(10) Pyr. 653 c.

(11) Pyr. 63.

Neverthless, it seems that the weighty and semi-sacred nature of the *ka* was not limited within the frame of the godly *kas* and the royal *kas*, for there were also a few other Egyptian hints estimated the human *ka*, in its turn, as a god dwelling inside the man [1], and depicted it sometimes on a holy standard, a notion which might allude to its sacred origin [2].

Presuming a true intention in those hints, can one suggest that the afore mentioned consecutive effectual nature of the Egyptian *ka* (activeness), starting with the *ka* of the Creator down to that of his descendants including gods and pharaohs, and then to the *kas* of the rest of the human beings, side by side with the ancient Memphite announcement that considered the «Very Great» as the everlasting source of all the intellectual and organic life, had both inspired to some extent, the Roman-Alexandrian philosopher Plotinus to formulate his theory of Emanation that suggested ordered stages proceeded originally from the One, and including the Divine Intellect, the Soul, and the organic living being ruled by the Soul, and so on ?

A conclusive decision on such a suggestion might be rather difficult, however it is not totally invalid.

* * *

Magical and funeral rituals alluded to the *ka* on the above mentioned harmonious basis. Every new-born child was said to receive his *ka* (activeness) by the order of Rê and Geb, and by the help of Meskhent the goddess of birth [3].

When the *ka* abandons the man, or when it rests «ḥtp», [4] as the Egyptians said, he becomes successively deprived of his activeness and efficiency, that is to mean : he dies. Neverthless, on his way to resurrection, it was idiomatically stated that «he is going to his *ka*»[5], or vice versa, «his *ka* is going to him»[6], an action which was usually expressed by the verbs : is or sb, šmi, and ḫp, with the preposition n or ḥr or ḥn ʿ [7]. Prof. Junker regarded such expression as to be a synonym for the normal phrase «to die», or «to be buried» [8], but this

(1) A. Erman, Die Religion, 170; see also, Lacau, in T. R. XLIV, 91; Urk, IV, 117, 12, 149, 4

(2) Urk. I, 50, 15 ; 71, 4, 6 ; Mariette, Mastabas, 70, 274, 275; and see also Steindorff., op. cit., 153, ; Stock, Aegypt. Religionsgeschichte, in Saeculum (1950), 628 f ; J. Spiegel, op. cit. 162 ; Schweitzer, op. cit., 25, 30 f, 41 f.

(3) A. Erman, Zaubersprusche f. Mutter u. kind, 5, 8f ; 26-27.

(4) Urk. I, 156, 7 ; Bull. of the Boston Mus., XXV, 74.

(5) Urk. I. 50, 15 ; 71, 4, 6 etc. ; Pyr. 826, 832, etc.

(6) Pyr. 375 b.

(7) H. Junker, Giza III, 116-117; Pyr. 17, 948, 826, 1431 ; Urk, I, 134.

(8) H. Junker, op. cit., 116.

In the course of the dogma that estimated the Pharaoh as a direct offspring of the supreme god, and as his representative, the Pyramid texts stated that «Teti is the flower that emerged from the *ka*» [1] (meaning : emerged from the supreme activeness), and consequently he was addressed : «Thou art the *ka* of all gods» [2] «Thou art the powerful among the gods and their *kas* (or namely their *kas*) »[3].

In an eulogy of the Middle Kingdom, it was said : «The king is the *ka*, his utterance overflows, he who regards all that exist » [4].

In some coronation scenes, the state-god Amon is said to provide the sovereign with the *ka* of kingship [5], that which ought to be its spiritual efficiency rather than to be the Horus-name as L. Greven and U. Schweitzer suggested [6].

Ramses II, was entitled as the good god «the *ka* of Egypt» (nṯr nfr k ; n Ḳmt), that is to mean its effective energy, rather than to be the donor of provisions to it (or its provider) as the Wörterbuch suggested [7].

In the other world the deceased king might return the *ka* to its donor, the great god or the father Osiris : «This Pepi is coming to thee his father, he is coming to thee Osiris, he is bringing (back) thy *ka* to thee » [8].

The majesty of the pharaonic *ka* was given a particular stress in such royal names as «Nb-ka», *i. e.* «Possessor of personality» (or possessor of activeness or efficiency) par excellence, rater than the former interpretations such as : «The Ka (Osiris) is the Lord» or «The Ka is my lord». or «My ka is my lord», etc. [9], and «Shepses-ka. f», *i. e.* «Majestic is his spirit (or personality or efficiency » [10].

Such a royal *ka* was frequently venerated in other normal personal names [11], and was invoked sometimes as a donor in the ḥtp-di-nsw formula [12].

---

(1) Pyr. 544 a.

(2) Pyr. 1609 a ; 1623 ; compare also : L. Greven. op. cit., 26.

(3) Pyr. 776 a, and see L. Greven, op. cit., 17.

(4) A. Erman, Die Literatur 121 (Cairo 20538).

(5) Wb. V, 88, 10 ; Schweitzer, 59.

(6) Greven, op. cit., 27 ; Schweitzer, op. cit : «Der Horusname als Ka-Symbol des Konigs» 52 f, 59 f.

(7) Wb. V. 91, 5 ; 92., 14 (Gurna Sethostempel).

(8) Pyr. 1328 a.

(9) Compare : J. Spiegel, Das Werden der altaegyptischen Hochkultur, 219 ; J. Černy. in MDAIK, 1958, 25 f.

(10) Compare : G. Jequier, Le Mastaba de Pharaon, 36-7 ; Spiegel, op. cit., 463-464, 501.

(11) See, Ranke, op. cit., 339, 12 ; Junker, Giza II, 158.

(12) H. Gauthier, Livre des Rois, I, 233, 19 ; L. D. III, 200 a.

Later, the god Ptah (var. Ptah-Tatenen) was estimated as the *ka* of the kingship (ka nyswt) [1], that is to say its spirit or its (real) effectiveness.

Some gods were considered as Kas for their localities, that is to mean the possessors of effectiveness in them, such as Osiris the Ka of the west, and another god personified the Ka of the east [2].

Many a time, the royal Horus-name was shown within the arms of the ka-sign upon its standard [3], a scene which might express that it (the name) is sustained by a supreme efficiency (*ka*), either that of the creative god or that of the actual state-god (as Horus).

The Pyramid texts, in its turn, asked Atum to sustain both the blessed king and his pyramid area, in the same way, *i. e.*, with the arm (or with the might?) of his *ka* [4].

As regards the personal ka-names, Rê together with his superior *ka* played the most important role determining their significances. He was estimated as the absolute activeness (Ka-pw-Rê or Rê -ka-pw [5] & Rê-m-ka, or Ka-m-Rê) [6], and its main possessor (Nb-ka-Rê). His *ka* was qualified with suitable attributes in royal names, such as endurance (Mn-ka-Rê), stability (D̠d-ka-Rê) power (Wsr-ka--Rê), magnificance (Špss-ka-Rê), sacredness (D̠sr-ka-Rê) ; animation and bestowing life (Sânkh-ka-Rê), creating (Nfr-ir-ka-Rê), satiating (Sd̠fa-ka-Rê). It was identified sometimes with vigorous gods such as Sobek (Sbk-ka-Rê), and Set (Stḫ-ka-Rê).

Some other gods, particularly those who played their role in the myths of creation, or estimated as state-gods, shared Rê and his *ka* their attributes such as Ptah (Ka-pw-Pth ; Wr-ka-Pth ; Irw-ka-Pth [7] ; and so on).

The Egyptian was named sometimes as to belong to the activeness of one or another of those gods, such as : Ny-ka-Rê ; Ḫr-ka-Rê ; ... etc.

---

(1) Scharff., in Ae. Z. LXX, 49 ; Schweitzer, op. cit., 72.

(2) Ibid., 73 Anm. 28, (Th. Grab. 23) ; see also Mercer, The Pyramid Texts, II, 20.

(3) De Morgan, Recherches II, 241, Fig. 810 ; Petrie, Royal Tombs, II, pl. 8, 10 ; A. Moret, Le Nil. Fig. 32 ; Steindorff. in Ae Z., XLVIII, 157-158 ; Schweitzer, op cit., Taf. I b-c, II, a-c.

(4) Pyr. 1653.

(5) Ranke, op. cit., 339, 13. ; 217, 20.

(6) The less probable meaning of the last name is «Rê is as (my) ka» or «(My) Ka is from Rê»

(7) Ranke, op. cit., 339, 22 ; 82, 1 ; 40, 22. and see note 4 above.

Out of the unexplainable early ka-names, the so-called Predynastic «Ka» royal name worth mention. Years ago, Profs. K. Sethe and R. Weill assigned it to the Scorpion king, as a part of his title [1]. If this suggestion is accepted, his combined title might qualify him with the «Energy of the Scorpion»—طاقة العقرب —or something of the sort, rather than the« Protected Scorpion»—العقرب المحروس —as Prof. R. Weill suggested.

An Egyptian named his son «Ka-m-rdwy» [2], *i. e.* : the *ka* is in the two limbs, or (my) *ka* is in (my) two legs. These two suppositions might refer either to an Egyptian imagination that the force of the *ka* (as activeness or energy) could be concentrated in a certain part of the body, or refer to the father's wish that his *ka* would follow him in his son. (The idiom «he is coming in my legs» is still used in Egyptian colloquial language جاي في رجلي and means : «He is coming soon after»).

* * *

Egyptian Myths mentioned an eternal supreme Ka. So, the Heliopolitan Theology stated about Atum and his first two offspring, Shu and Tefnut :

«Thou put thy arm behind them, being the arm (s) of the *ka* (or with the might «?» of the *ka*) so thy *ka* remained in them (di .n.k ʿ . k ḥ ꜣ . sn m ʿ k ꜣ wn k ꜣ . k im. sn)[3].

This mentioned *ka* probably means Atum's activeness or efficiency, which he voluntarily transferred to his two sons, and with which those two sons acquired their everlasting energy.

The Pyramid texts continued the theme and addressed Geb, as one of the second pair of gods : «Thou art the *ka* of all gods, who brought them, trained them up (or regarded them) and animated them » [4].

With the same notion, the texts regarded the *kas* (pl.) of all divinities as emanations from their supreme god (either Atum, or Rê , or Geb, or Osiris).

The Memphite Theology recorded, in its turn, that [5] «It is the very great Ptah who transmitted (the energy?) to all gods as well as to their *kas* (or namely their *kas*) [6], through this heart and this tongue. «Thus the *kas* became fulfilled and the faculties (ḥmwswt) were determined» [7].

---

(1) K. Sethe, in Ae Z, LII, 57 ; R. Weill, Recherches sur la 1re dynastie, I, 287.

(2) Ranke, op. cit., II, 55 ; see also «Ka-m-ib», I, 339, 15.

(3) Pyr. 1953.

(4) Pyr. 1623.

(5) Brit. Museum, 498, 1. 53 f., 57.

(6) For the so-called Badalapposition, see, Spiegel, Ae Z, LXXI, 56 f. ; Hochkultur, 358 Anm. 17 ; Schweitzer, op. cit., 47.

(7) Compare, Schweitzer, op. cit. 47., 68 ; » die alle Nahrung und alle Speisen». For the ḥmwswt mentioned side by side with the Kas, see also: Pyr. 396; Piehl, Edfu, II, 128; Edfu Mamisi, 63.

equipment (Ka-êpr) [1], ability of protection (Ka-sa & Ka-m-ḥa) [2], even ability of fight (Ka-âha. f) [3] and was desired not to fail or to sleep (Nn-sḏr-ka) [4].

The same sense of *ka* was referred to as «the doer» (Ka-irry) [5], and glorified in such names as «Wr-ba-ka» [6] *i.e.* great is the might of the *ka*.

It was estimated as the life itself (Ka-m-ânkh) [7], or as its origin or source (Ny-ka-ânkh) [8], that permitted its course (Ka-wḏw-ânkh) [9].

This notion about the *ka* and life, was symbolically represented, early, in a protodynastic offering palette composed of a ka-sign presenting by its two stretched arms the life-sign (ânkh) [10], as referring to be its donor or its guardian or maintainer.

Furthermore, the personal *ka* stood for the material provision (Ḏfa-ka). Long ago, Profs. Erman and von Bissing noticed the relation between the spiritual *ka* and the word ka with the meaning of food or provision. It seems not improbable that this noticed relation finds its Egyptian origin in considering them both as essential substances of living energy.

The same connection was expressed in some banquet scenes, where the deceased is depicted stretching his arm towards an offering table in the form of the ka-emblem, with the inscription : «rdit ᶜ r k ȝ. f» [11]. (lit. : place hand towards his *ka*), *i.e.* to acquire his *ka*, the substance of the prospective life, either invested in the real *ka* or in the offered provision called «ka».

Again with the personal names, the named person could be qualified after his *ka*, as to be of great, or powerful, or sound, or continual activeness, in such names as : Wr-ka ; Sḫm-ka ; ᶜ ḏ-ka ; W ȝ ḥ-ka, Wḥm-ka [12] ; and so on.

---

(1) M. Murray, Saqqara Mastabas, I, pl. III, 5.

(2) Petrie, Royal Tombs, I, pl. II, 16 ; Ranke, op. cit., 342, 16.

(3) Ibid., 338, 26.

(4) H. Junker, Giza II, 111.

(5) Ranke, op. cit., 338, 20.

(6) Ibid.. 80., 29.

(7) Ibid., 339, 17.

(8) Ibid., 180, 10.

(9) Ibid., 329, 8.

(10) Schweitzer, op. cit., Tafel I (in the Metropolitan Museum).

(11) Ann. Serv. XI., 173 ; and see also : Davies, the tomb of Ramose, pl. XIX ; Schweitzer, op. cit., Taf. V a-b.

(12) Ranke, op. cit., 73, 23 ; 338, 26 ; 339, 1 ; etc.

A number of students of the Ramesside Times used to dedicate their written compositions to their teacher in such words as : «to the *ka* of the eminent in his profession (n k; n '; m i; wt; f)» or «to the *ka* of the clever and correct one» (n k; n w' ikr mty), and so on,[1] together with expressing their best greetings for him as their acting teacher and the recipient of their correspondences at the commencement of their writings.

* * *

Several Egyptian personal names used to express good wishes for both the child and his father. Others showed deep religious sentiments towards gods. The word «Ka» was one of the common elements that fulfilled the two purposes. Years ago, Prof. Junker and Prof. Ranke had mentioned its value, and later Schweitzer went somewhat far with it [2], yet there is still something to be added furthermore.

Profs. B. Gunn, H. Ranke and H. Junker suggested an omitted first personal suffix (in the possessive case) with each named «Ka». This suffix might refer to either the owner or to his father who hoped that his *ka*, with its various shades of meanings, would move to his son and continue with him.

As a spirit, the living *ka* in the personal names was frequently qualified with pleasant attributes, such as : pureness (Ka -wâb) [3], beneficence (Ka mnkh) [4] goodness (Ka-nfr), satisfaction (Ka-m-hrt) [5], contentment and peace [6], rightousness (Ka-m-maêt) [7] good position (Ka -hr-st.f) [8] golden or precious nature (Nwb ka) [9] and lovely gesture towards its owner (Mrt-ka, [10] Mr-n-ka, [11], Mrrw-ka, etc.)

Referring to the efficiency or activeness الطاقة أو الفاعلية , the *ka* was frequently qualified with energetic and vigorous attributes, such as : vigilance (Ka-rsi) [12]

(1) Pap. Anastasi III, 4, 11 ; 7, 10 ; IV vs. A. ; Pap. Bologna 1094, 11, 5 ; Gardiner, Ostraca 28. vs. 10,17 ; Gardiner, Chester Beatty Pap., p. 21. ; Late Egyptian Miscell., p. 38 a.

(2) See, U. Schweitzer, op. cit., 33 f.

(3) H. Ranke. Die aegyptischen Personennamen 1, 339, 2.

(4) Ibid., 430, 3.

(5) Ibid., Bd. II., 55.

(6) Ibid., I, 259, 19.

(7) Ibid. II, 339, 19.

(8) Ibid., 340, 17.

(9) Junker. Giza III, 177.

(10) Petrie, Royal Tombs, II, 26, 61.

(11) Petrie, Tombs of Courtiers, pl. 1, 442.

(12) Ranke. op. cit., 430, 13.

«Follow *thy ka* (var. heart) as long as thou livest but do not transgress what is said (in law?) [1].

«(Do not insult a great man), for the insult alienates the *ka* from the one it loves [2].

«Do not repeat the speech of the common (*i. e.* vulgar words) against a great man or a common one, for this is the *ka*'s abomination [3].

«When a great man is at meal, his purposes go according to the dictate of his *ka* [4].

«Do not pierce (a great) man at meal with many stares, (for such) an aggression against him is an abomination to the *ka* [5].

«(The obedient son) is thy son whom thy *ka* engendered (and var. : whom thy *ka* engendered for thee)» [6].

* * *

Some of the above mentioned shades of meanings of the ancient Egyptian Ka, can be partly identified with the Semitic word «Nafs» نفس , that means originally «spirit», but goes far with its derivations so as to mean self, man, being, character, wish and will, etc.

Compare for example :

al-nafs = The *spirit* — النفس

No *nafs* knows, *i. e.* = No *man* (or no *person*) knows. — ما تدرى نفس

Every *nafs* will taste death, *i.e.* = All *beings* are mortals. — كل نفس ذائقة الموت

He found *nafsahu, i. e.* = He found *himself.* — وجد نفسه

His *nafs* inspired him to do so and so, *i.e.* = His *will* (or his *mentality*) inspired him to do so and so. — أوحت نفسه إليه بفعل كذا

His *nafs* looked forward to so and so = *i.e.* His *wish* (or his *spirit* or his *will*) looked forward to so and so. — تطلعت نفسه إلى كذا

He is of a good *nafsia, i.e.* = He is of a good *character.* — ذو نفسية طيبة

* * *

(1) Pap. Prisse, 186 f.
(2) Ibid., 391-392.
(3) Ibid., 157 f.
(4) Ibid., 134-135.
(5) Ibid., 125 f.
(6) Ibid., 204.

generosity from a living sovereign not from a dead one; and Wni who probably died in the reign of the young king Mry-n-Rê, was responsible, in his turn, for an expedition to excavate five channels through the first cataract, a job which was not to be completed by an order of a dead ruler, but of a still reigning one to whom Wni expressed his best wishes by saying : «May he live forever».

With the same notion, it was said to another pharaoh: «(All) that thy *ka* orders, will happen (at once) » [1]. This is of course a living *ka* referring to «self» or to personal «will».

It was recorded also that the god Amon once announced to his favourite son Tuthmosis III ; «I submit the westerners on behalf of thy *Ka*» [2]. This is also a living *ka*.

Many a courtier mentioned the royal generosity towards them in such words as ; «I am (a man) whom the lord of the two lands made his *ka*» ('ir.n nb t ; wy k; . f) [3], that is to say : whom the king made his personality or his (social) effectiveness. (Besides Prof. Gardiner's translation : ... his fortune).

* * *

In his famous instructions, the sage Ptah-hotep mentioned the *ka* in the broad sense of the human spirit, sensibility, feeling and understanding, besides its other meaning as personality or personal spirit. So, he advised his son :

«If a man evades to satisfy his intimates, people will say : he is a greedy *ka*» [4].

«The (proper) *ka* is the just *ka* which man can trust [5].

«It is the *ka* that stretches its arms [6].

«It is the *ka* that grants love [7].

«Do not cut off (thy) pleasure, for the *ka*'s abomination is to interrupt its (pleasant) time [8].

«(Instruct the great man to what is good for him)...... for thy provisions are under (or according to the dictate of) his *ka*» [9].

---

(1) Grapow, Wie die Altern Aegypter sich anredeten, II, 44.

(2) AeZ., LXIX, 26.

(3) Urk. IV., 486, 979 ; Davies, The Tomb of Jouiya. 2 ; Kenamun. 35. *compare* Gardiner, op. cit.

(4) Pap. Prisse, 341-342.

(5) Ibid., 344.

(6) Ibid., 151.

(7) Ibid., 398

(8) Ibid. 188-189.

(9) Ibid., 399 f., 403

began originally with the state-god Horus and was invested afterwards in the earthly «Lord», the Horian-King, [1] or lastly as a vital elementary force, or vital creative force, or vital protecting and guiding force, or vital metaphysical force [2].

In addition to the latter tendencies, with some new modifications, the following items are to be re-consulted, starting with secular records, down to religious texts and funeral inscriptions, not vice versa as usual.

* * *

The Ancient Egyptians mentioned three sorts of Kas : a personal Ka, an ancestoral Ka, and a supreme divine Ka.

Biographies and literary Egyptian records manifested the personal *ka* in such a way, as to represent, on the one hand both the living person and his spirit in a homogeneous unity, and to personify, on the other hand, his activeness (or efficiency or energy)— طاقته أو فاعليته —in regard to a number of its material, emotional and mental phases.

The physician Ny-ankh-Sekhmet applied once to His Majesty the Pharaoh Saḥu-Rê, saying : «May the command of thy *Ka*, beloved of Rê, (ḥw wḏw k ꜣ .k pw mry Rʿ... [3]) grant unto me a false-door of stone for this my tomb ! ».

The other famous courtier Wni, accomplished in his old age some official and royal projects at Elephantine in the name of the King Mry-n-Rê, and when he recorded these actions in his inscriptions he said : «I executed everything according to the inspiration of his *Ka*» (ḫft ḥw wḏw k ꜣ .f) [4].

The mentioned royal *ka* in both texts ought to refer to the king either by «self» or «spirit», or rather by «will» and «mentality».

L. Greven and U. Schweitzer regarded this royal *ka* as to mean «der verstorbene Pharao», oder «Jenseitige Majestät», in contrast with «ḥm. f» which denotes «der noch lebende Pharao» oder «seine irdische Gestalt» [5]. But it must be noticed here that Ny-ankh-Sekhmet was going to ask for a prospective

---

(1) Loret, in Revue Egyptologique, II, 87 ; Stock, Aegypt. Religionsgeschichte, in Saeculum I (1950), 627 f. ; Spiegel, Hochkultur, 110 f. ; Schweitzer, Das Wesen des Ka, 21-22, 25, 42 f., 52 f.

(2) Steindorff., op. cit; H. Kees, Totenglauben, 67 f ; Aegypten. 219 f. ; Gotterglaube, 47 ; Jacobsohn, Dogmatische Stellung, 49 f. ; J. Vandier, La Religion, 132 ; H. Frankfort, Kingship and Gods, 61 f. ; J. Wilson, in Anc. Near Eastern Texts, 412 n. 9 ; L. Greven, Der Ka in Theologie, 1952 ; U. Schweitzer, Das Wesen des Ka, 1956.

(3) Urkunden I, 38.

(4) Ibid., 109.

(5) Greven, op. cit., 19, Schweitzer, op. cit., 42.

NOTES ON THE EGYPTIAN « K;»

BY

ABD-ALAZIZ SALEH

None of the ancient spiritual or religious concepts, could, by any means, be defined in a clear cut formula. One of these, is that of the Egyptian « K;»[1] that which had been anciently viewed from many angles, and which has still been given various interpretations due to the great variety of its known contexts.

Besides a famous theory that led to different discussions since the beginning of the present century and which considered the Ka as an external protector ghost «Schutzgeist»[2], either in the form of an everlasting «double»[3], «Arabic Karin قرين», or as a sort of a heavenly genie [4] ; various recent theories still hesitate in considering the Ka either as a force with twofold spiritual and material nature[5]; or as a synonym for the soul, spirit, self and individuality; or as an ensemble of the person's characteristics as temper, fate and position [6]; or as a divine force that moved from the Creator to the beings, including a particular entity that

(1) For other probable K, Ku, Ki and Khoi : see Wb. V, 86, 93.

(2) G. Steindorff., «Der Ka und die Grabstatuen», in AeZ, XLVIII, 152 f.; Van der Leeuw, «Schutzgeist und der aegyptische Ka », in Ae Z, LIV, 56 f.

(3) G. Maspero, Etudes de Mythologie et d'Archéologie, 1, 7 f., 47, 77 f. (He was inspired by Nestor L'Hote, Birch and Le Page Renouf). see also note 4 and p. 14 n. 2.

(4) J. H. Breasted, Development of Religion and Thought. 52 f., but compare in the same time, G.Maspero, «Le Ka des Egyptiens est-il un genie ou un double ?» in Memnon VI, 125 f.

(5) A. Erman, in AeZ, XLIII, 14 Anm. 2 ; Die Religion der Aegypter, (3), 209 f. ; Sottas, «Contributions à l'Etude de la notion du Ka égyptien», in Sphinx XII, 33 f.

(6) H. Brugsch was the first to begin these qualities which were adopted later and enlarged by A. H. Gardiner, Egyptian Grammer, 1927, 172 -173 ; PSBA., XXXVI, 257 n. 3 ; A. M. Blackman, in J. E. A. III, 241, n. 3 ; and J. Spiegel, Die Idee vom Totengericht, 9, Anm. 3 ; Das Werden der Altaegyptischen Hochkultur, 338, 448 f.

Prof. Jaroslav Cerny in his «Ancient Egyptian Religion 1957, p. 82» had nothing to do with this problem but to repeat literally the interpretation of Sir A. H. Gardiner (see above).

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

The Bulletin of the Facullty of Arts is issued twice a year;in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin Prof. M. H. El-Bakry, Facullty of Arts, Giza, U.A.R.

Back number of this Bulletin are available at 30 P. T. for each Part.

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXII—PART II

DECEMBER 1960

CAIRO UNIVERSITY PRESS

1965

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXII—PART II

DECEMBER 1960

CAIRO UNIVERSITY PRESS

1965


Bibliotheca Alexandrina
05542787